@ketab_n
Follow Me
6.1.2016

دوستويفسكي

المُراهِق

الجزء الأول

ترجمة: سامي الدروبي

دوستويفسكي

المُراهِق

1

ترجمة: سامي الدروبي

ترجم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

Twitter: @ketab_n

الكتاب: **المراهق (1) (رواية)**

المؤلف: **دوستويفسكي**

المترجم: **سامي الدروبي**

الطبعة الأولى، 2010

ISBN 978-9953-68-459-6

يُنشر هذا الكتاب بموجب عقد مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

تَرجِم

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ:

الناشر: المركز الثقافي العربي

بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان

ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01352826 ـ 01750507

فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ307651 522

فاكس: 2305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

---

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم والمركز الثقافي العربي غير مسؤولين عن أفكار وآراء المؤلف، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء المؤسسة والدار.

Twitter: @ketab_n

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجه واقعنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية واللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفّذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلى العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من

Twitter: @ketab_n

اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيّرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني:
www.mbrfoundation.ae

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموّه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/ مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

Twitter: @ketab_n

مقدمة

«وحتى بعد وفاته بمائة عام يظل تأثير دوستويفسكي ينمو ويتسع بدءاً بأرض وطنه حيث حظي بالاعتراف به وهو على قيد الحياة، وامتداداً إلى بلدان أوروبا وأمريكا وآسيا. وهذا التأثير لا يقتصر على الأدب وحده بل يمس نمط الحياة، وأسلوب التفكير والعواطف البشرية. إن الأجيال المتتالية تقرأ أعماله لا باعتبارها مؤلفات أدبية بل بوصفها دراسة للطبيعة الإنسانية، ويتصور مئات آلاف القراء في شتى أنحاء العالم أبطاله وكأنهم معارفهم القدامى».

إن هذه الفقرة المقتبسة من حديث للكاتب المكسيكي المعروف أوكتافيو باس تعبّر أصدق تعبير عن موقف الأدب العالمي المعاصر كله من دوستويفسكي، فقد أصبح الحديث عن هذا الأدب مستحيلاً دون التعرض لتراث الأديب الروسي العظيم. فدوستويفسكي ينتمي إلى أولئك الأدباء الذين تملك مؤلفاتهم قدرة التأثير الحاسم على نفوس القراء وشخصياتهم وتحديد مصائرهم بالمعنى الدقيق لعبارة «إعادة بناء الإنسان». يقول الناقد الأدبي السوفياتي فلاديمير دنيبروف «إن قراءة رواياته تعتبر حدثاً في حياة الإنسان. فعندما نقرأ كتبه نلج عالماً شعرياً على درجة عالية من التكثيف والتركيز بحيث يضيء أفق الحياة الفعلية بوهج المعاناة الفنية الهائلة، ولا نعود نرى العالم كما كنا نراه قبل الاطلاع على مؤلفات دوستويفسكي».

ولد فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في 11 تشرين الثاني

Twitter: @ketab_n

عام 1821 في أسرة مطبب بمستشفى للفقراء. واكتسبت حياته منذ الطفولة طابع الشقاء والدراما. وترك احتكاكه المبكر بالفقر وآلام البشر انطباعات حزينة في نفسه (كانت شقة آل دوستويفسكي ملحقة بالمستشفى). ومما فاقم الأمر أن أباه كان ذا طبع قاس صعب، كما ماتت أمه مبكراً (عام 1837). ورغم حب فيدور دوستويفسكي للشعر والأدب منذ صغره، فقد ألحقه أبوه بكلية الهندسة في بطرسبرج، حيث كان عليه أن يدرس، بدلاً من الأدب، «الخرائط» و«الاستحكامات» والمدفعية. غير أنه في هذه المؤسسة التعليمية الحربية (1838-1843) التي مر فيها بكثير من اللحظات الصعبة المرة، أدرك مهمته الحقيقية في الحياة. وهنا أيضاً بدأت تتشكل معتقدات دوستويفسكي حول عدم كمال «هذا العالم» والتي أيقظت فيه مشاعر الغضب والألم للإنسان المهان المعذّب. فجاء انتاجه الأول رواية «المساكين» (1845) متناولاً مقتل المخلوق «الذليل» المهان من قبل الجميع، والذي ينمو فيه وعيه بذاته رغم كل شيء وتستيقظ فيه الروح الإنسانية العميقة. وسرعان ما أصبح اسم مؤلف «المساكين» معروفاً للقراء في روسيا قاطبة. ووصف الناقد الروسي العظيم بيلينسكي (1811-1848) موهبة دوستويفسكي بأنها «غير عادية وأصيلة» وأشار إلى أنه «في أوّل عمل يقدمه قد انفصل بحدة عن جمهرة كتّابنا كلهم. . .».

بعد ذلك صدرت له «المِثل» (1846) و«ربة البيت» (1847) و«الليالي البيضاء» (1848) و«نيتوتشكا نيزفانوفنا» (1849). وعندما ظهرت آخر قصة من الأعمال المذكورة كان الكاتب سجيناً في قلعة بطرس وباول. أما سبب اعتقال الأديب الشاب (في 22 نسيان 1849) فكان انضمامه إلى جماعة «البتراشيفيين» التي أسسها ميخائيل بتراشيفسكي (1821-1866) الذي كان يدعو لأفكار الاشتراكية الطوباوية. ونظراً لانتماء دوستويفسكي إلى هذه الجماعة المتبنية لبرنامج معادٍ للحكومة ولنظام

Twitter: @ketab_n

القنانة، وجزاءً لقراءة رسالة بيلينسكي إلى الكاتب الروسي نيقولاي جوجول في إحدى جلسات الجماعة، وهي الرسالة التي منعت الرقابة نشرها، حكم على دوستويفسكي بالإعدام. وقد خفف هذا الحكم قبيل تنفيذه بلحظات، بناء على «أمر كريم» من الإمبراطور نيقولاي الأول، إلى الأشغال الشاقة لأربعة أعوام والخدمة العسكرية جندياً لمدة ست سنوات. وبعد أن مرّ دوستويفسكي في 22 كانون الأول 1849 بطقوس الإعداد لتنفيذ حكم الإعدام، أُرسل في اليوم التالي إلى سجن أومسك في سيبيريا حيث قضى فيه أربع سنوات (1850–1854) ثم أُلحق بعدها جندياً بكتيبة سيبيرية مرابطة في مدينة سيميبالاتنسك، فخدم فيها حتى عام 1859. وفيما بعد (1861–1862) اختار دوستويفسكي عنوان «ذكريات من بيت الموتى» للكتاب الذي وضعه عن تلك السنوات الرهيبة التي قضاها في الأشغال الشاقة. وكان دوستويفسكي على يقين أنه ما كان ليبقى على قيد الحياة لولا أن تدخل في حياته أناس رائعون مثل النائب الليبرالي ودارس سيبيريا ألكسندر فرانجل، والمتنوّر القيرغيزي تشوكان فاليخانوف، وماريا ايسايفا التي أصبحت زوجته.

وفي عام 1859 حصل دوستويفسكي على الإذن بالانتقال أولا إلى مدينة تفير (مدينة كالينين حالياً) ثم إلى بطرسبرج. وفي تلك الفترة نشرت له قصص «حلم العم» (1859) و«قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها» (1859) ورواية «مُذلّون مُهانون» (1861). لقد كانت السنوات العشر التي قضاها الكاتب خارج الأدب مأساة له بلا ريب، ولكنها لم تضع هباء. فقد تمكن خلالها من معرفة شعبه عن كثب، ولمس بنفسه العذاب الذي تتشبع به الأرض «من قشرتها حتى مركزها». وليس صدفة أنه بعد الأشغال الشاقة والمنفى بالذات تعزز إيمان دوستويفسكي بإمكانية التقدم البشري العام وبنمو قوى الشعب الروسي الروحية. وفي الفترة من 1861

Twitter: @ketab_n

إلى 1865 أصدر دوستويفسكي بالاشتراك مع أخيه ميخائيل مجلة «الوقت» ثم مجلة «العصر».

لقد كانت الستينات فترة صعبة ومؤلمة في حياة دوستويفسكي الخاصة، إذ فقد في وقت واحد تقريباً اثنين من أعزّ الناس لديه: زوجته (التي ماتت بالسل عام 1864) وأخاه ميخائيل (1820–1864). وفي عام 1866 يتعرف دوستويفسكي على فتاة شابة هي آنا جريجوريفنا سنيتكينا (1846–1918)، المتخصصة في الاختزال، والتي أملى عليها روايته «المقامر». وسرعان ما أصبحت زوجته وأخلص صديق ومعين له في الحياة.

وفي الستينات والسبعينات وضع دوستويفسكي أهم رواياته، «الخماسية العبقرية» التي شكلت مرحلة هامة في تاريخ الأدب الروسي والعالمي، وهي روايات: «الجريمة والعقاب» (1866)، «الأبله» (1868)، «الأبالسة» (1871–1872)، «المراهق» (1875)، «الاخوة كارامازوف» (1879–1880). وفي الوقت نفسه استمر نشاط دوستويفسكي الصحفي فظل يصدر «يوميات كاتب» شهرياً لعدة سنوات.

وقد أصبحت كلمته عن بوشكين، التي ألقاها في الاحتفال بإزاحة الستارة عن تمثال هذا الشاعر الروسي العظيم في موسكو عام 1880، وصيته الروحية بحق. فقد حاول دوستويفسكي الذي ظل طوال حياته يعتبر بوشكين مثلاً أعلى للجمال والأخلاق لا يمكن بلوغه. حاول قبل وفاته (9 شباط 1881) بأشهر قليلة أن يجمع حول بوشكين أفضل ما يوجد في روسيا، ودعا إلى الاتحاد وإلى الهارموني العام العظيم. وأكد دوستويفسكي في كلمته عن بوشكين أنه «أنْ تصبح روسياً حقيقياً معناه ربما فقط.. أن تصبح أخاً لجميع البشر». لقد أصبحت فكرة أخوة البشر هي الخلاصة الأخيرة لتأملاته وأسمى ذرى إبداعه.

لودميلا سراسكينا

Twitter: @ketab_n

الجُزْءُ الأَوَّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

– 1 –

لقد فرغ صبري، فها أنا آخذ بكتابة قصة خطواتي الأولى[1] في طريق الحياة. وكان يمكنني مع ذلك أن أستغني عن هذا. إن هناك شيئاً محققاً لا ريب فيه، هو أنني لن أكتب سيرة حياتي عن غير هذه الفترة، ولو قدِّر لي أن أعيش مائة سنة. فلا بد أن يكون المرء حقيراً في شدة افتتانه بنفسه حتى يتحدث عنها بغير خجل ولا حياء. وشفيعي الوحيد في ما أفعله الآن هو أن الذي يحدوني إلى الكتابة ليس ما يحدو إليها سائر الناس: إنني لا أكتب بغية الحصول على إعجاب القارىء ومديحه. ولئن خطر ببالي فجأة أن أسجّل، كلمةً كلمة، كل ما وقع لي منذ السنة الماضية، فإنما تدفعني إلى ذلك حاجة داخلية: إن الوقائع التي تحققت قد أذهلتني. وسأقتصر على تسجيل الأحداث، متحاشياً، بكل ما أوتيت من قوة، أن أتعرض لما هو غريب عنها، ومتحاشياً ألاعيب الأدب وزخارف البيان. رُبّ أديب يسلخ من عمره ثلاثين عاماً في الكتابة، ثم هو يجهل آخر الآمر لماذا كتب طوال هذه السنين. ولست بالأديب على كل حال، ولا أنا أحب أن أكون أديباً. وعندي أن استخراج ما تنطوي عليه نفسي ووصف عواطفي من أجل أن أعرضها في سوق الأدب هي في نظري من الأمور المعيبة والوضيعة. ومع ذلك أتنبأ، على كره مني واستياء، أنه قد يستحيل عليَّ أن أتحاشى وصف عواطفي تحاشياً كاملاً وأن

Twitter: @ketab_n

أتجنب عرض تأملاتي وأفكاري ولو كانت عاميّة: فإلى هذا الحد يسقط العمل الأدبي بصاحبه ولو كان لا يفعله إلا لنفسه. وقد تكون هذه الأفكار على جانب عظيم من العاميّة، ذلك أن ما تقدره أنت نفسك قد لا يكون له أية قيمة في نظر إنسان غريب. ولكن لأدع هذا كله جانباً، إذ فرغت من التمهيد، ولن أعود بعد الآن إلى شيء من ذلك. فلأبدأ العمل، وإن لم يكن ثمة شيء أعسر من الشروع في تأليف كتاب، وربما لم يكن هناك شيء أعسر من الشروع في عمل على وجه الإجمال.

– 2 –

سوف أبدأ أو قل إنني أريد أن أبدأ مذكراتي بيوم 19 ايلول[2] من السنة المنصرمة، أي على وجه الدقة باليوم الذي التقيت فيه أول مرة بـ. .

ولكن. . لأن أذكر الشخص الذي التقيت به سلفاً على هذا النحو، في حين أن أحداً لما يعرف شيئاً فذلك أمر مبتذل؛ بل إنني لأعتقد أن هذه اللهجة نفسها مبتذلة، فهأنذا أقع في الزخرفة الأدبية بعد أن آليت على نفسي أن أجتنبها. ثم إن مجرّد رغبة المرء في الكتابة لا تكفي، على ما يبدو، لأن يكتب على نحو جيد. وأحب أن ألفت نظركم أيضاً إلى أنني أعتقد أنه ليس هناك لغة أوروبية تصعب الكتابة فيها كما تصعب الكتابة في اللغة الروسية. لقد أعدت الآن قراءة ما كتبت في هذه اللحظات، فلاحظت أنني أذكى كثيراً من هذا الذي كتبته. فلماذا تكون الأشياء التي يعبِّر عنها إنسان ذكي أغبى كثيراً مما يبقى في ذهنه؟ لقد لاحظت هذا الأمر في نفسي غير مرة، ولاحظته في ما أقوله للناس طوال هذه السنة الماضية الحاسمة، ولقيت من ذلك عذاباً أليما.

ورغم أنني أبدأ باليوم التاسع عشر من أيلول، فسأقول بكلمتين من أنا

Twitter: @ketab_n

وأين كنت قبل ذلك التاريخ ثم ما لعله كان قائماً في ذهني، ولو جزئياً، في ذلك الصباح من التاسع عشر من أيلول، بغية أن أيسِّر الفهم على القارئ، وربما على نفسي أيضاً.

- 3 -

أنا طالب قديم من طلاب المدارس الثانوية، وقد بلغت الآن السنة الواحدة والعشرين من عمري. اسمي دولجوروكي، واسم أبي الشرعي ماكار ايفانوف دولجوروكي، وهو قن سابق من أقنان الأسياد آل فرسيلوف. أنا إذاً ابن شرعي، رغم أنني ولد غير شرعي إلى أقصى حد، ونَسَبي لا يساور الشك فيه أحداً من الناس. وإليكم تفصيل ذلك: منذ اثنين وعشرين عاماً زار مالك الأطيان فرسيلوف وعمره خمسة وعشرون عاماً، (وهو أبي بالذات) أراضيه في مقاطعة تولا. وإنني لأفترض أنه كان حتى ذلك الحين إنساناً تافهاً، وأستغرب كيف أن هذا الإنسان الذي خطف بصري منذ طفولتي إلى هذا الحد، وأثّر في تكوين نفسي تأثيراً يبلغ هذا المبلغ من القوة، وألقى ظله عليَّ زمناً لعله طويل، لا يزال إلى اليوم لغزاً في نظري من وجوه لا حصر لها. ولكنني سأعود إلى هذا الأمر من بعد. إذ لا يمكن التحدث في هذا الأمر عرضاً. وفضلاً عن ذلك فإن هذا الرجل سيملأ كتابي كله.

كان فرسيلوف إلى ذلك الحين، أي عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، قد فقد زوجته وكانت زوجته هذه فتاة تنتمي إلى المجتمع الراقي، ولكنها لم تكن على جانب كبير من الثراء، وكان اسمها فاناريوتوفا، وقد أنجب منها صبياً وبنتاً. إن ما أعرفه عن هذه الزوجة التي توفيّت في سن مبكرة ناقص كثيراً، ضائع في ثنايا الأمور التي عرفتها وجمعتها. هذا إلى أن كثيراً من ظروف حياة فرسيلوف تفوتني،

Twitter: @ketab_n

لأنه كان يعاملني دائماً في كِبَرٍ وتعال، وكان يغلق نفسه دوني، وكان يهملني، رغم ما كان يظهره تجاهي من تذلل يدعو إلى الدهشة في بعض الأحيان. يجب أن أذكر على سبيل العلم بالشيء أنه قد بدد أثناء حياته ثلاث ثروات، ثروات ضخمة، يبلغ مجموعها أكثر من أربعمائة الف روبل أو يزيد. وهو لا يملك الآن كوبيكاً واحداً بطبيعة الحال. . .

لقد جاء يومئذ إلى أراضيه «لا يدري لماذا إلا الله»، أو هذا على الأقل ما ذكره لي بعد ذلك شارحاً. ولم يكن طفلاه الصغيران معه، بل كانا عند أقارب له، على عادته دائماً، فكذلك كان يفعل بأعقابه طوال حياته، شرعيين كانوا أو غير شرعيين. وكان في هذه الضيعة عدد كبير من الخدم، أحدهم هو البستاني ماكار ايفانوف دولجوروكي. وأضيف هنا، حتى لا أضطر إلى العودة إلى هذا فيما بعد، أنه قلَّ بين الناس من كرهوا اسمهم ولعنوه كما كرهت اسمي ولعنته طوال حياتي. كان ذلك طبعاً حماقة مني ولكنه قد كان. كنت كلما دخلت مدرسة أو التقيت بناس تضطرني سنّي إلى الإجابة عن أسئلتهم، من معلمين أو مربّين أو مراقبين أو كهنة أو أي أحد من هذا القبيل، أسأل عن اسمي، فإذا عرفوا أن اسمي هو دولجوروكي، شعروا بالحاجة إلى أن يسألوني:

- الأمير دولجوروكي[3]؟

فأضطر في كل مرة أن أشرح لجميع هؤلاء الخليين:

- بل دولجوروكي فحسب.

وانتهت هذه الـ «فحسب» إلى إثارتي إثارة تبلغ حد الجنون. يجب أن أقول، من قبيل الاطلاع على هذه الواقعة النادرة، إنني لا أذكر أن أحداً من الناس أغفل أن يطرح عليَّ هذا السؤال: صحيح أن بعضهم كان يطرحه دون أي اهتمام (ولست أدري في الواقع فيم كان يمكن أن يهمهم هذا الأمر)، ولكنهم كانوا يطرحونه جميعاً، من أولهم إلى آخرهم.

Twitter: @ketab_n

حتى إذا عرف السائل أن اسمي دولجوروكي فحسب رمقني في العادة بنظرة حمقاء لا معنى لها ولا مبالاة فيها تدل على أنه كان لا يعرف هو نفسه لماذا ألقى هذا السؤال ثم ابتعد عني. ولكن الذين كانوا يجرحون شعوري أكثر من سائر الناس إنما هم رفاق المدرسة. كيف يسأل تلميذ من التلاميذ رفيقاً جديداً؟ إن التلميذ الجديد، التائه اللب المضطرب النفس، في اليوم الأول من دخوله المدرسة (أي مدرسة) هو فريسة للتلاميذ جميعهم: إنهم يتحكمون فيه، يغيظونه، يعاملونه كما يعامَل خادم. هذا طفل قوي البنية ممتلىء صحةً وعافية يقف فجأة أمام ضحيته وجهاً لوجه ويتفرس فيه بضع لحظات ناظراً إليه نظرة قاسية وقحة، فيجمد التلميذ الجديد أمامه صامتاً ينظر إليه من جانب، إذا هو لم يكن جباناً، وينتظر ما سيقع من أحداث.

- ما اسمك؟
- دولجوروكي.
- الأمير دولجوروكي؟
- بل دولجوروكي فحسب.
- ها.. فحسب. أبله!

وإنه لعلى حق: فلا شيء أشد بلاهة من أن يكون اسم المرء دولجوروكي دون أن يكون أميراً. وهذه بلاهة أجرّها ورائي دون أن يكون لي في ذلك ذنب. وفيما بعد، حين أصبحت أغضب من هذا الأمر غضباً شديداً، صرت أجيب دائماً عن سؤال من يسألني «هل أنت أمير؟» بقولي:

- بل أنا ابن خادم كان قِنّاً.

وبعد ذلك أيضاً، حين أهاجني السؤال في ذات يوم إهاجة عنيفة، وجدتني أجيب عنه بقوة وحزم قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- بل اسمي دولجوروكي فحسب، وأنا ابن غير شرعي لمولاي السابق السيد فرسيلوف.

كنت في الصف السادس حين اهتديت إلى هذا الجواب، وظننت بأنني كنت في ذلك فصيحاً غاية الفصاحة، ورغم أنني لم ألبث أن أدركت أن في هذا الجواب حماقة لا محل لها، فإنني لم أعدل عنه فوراً. أذكر أن أحد أساتذتي اكتشف - وهو الأستاذ الوحيد الذي اكتشف ذلك - أنني «ممتلئ النفس بفكرة الانتقام والتمرد». ويمكن أن أقول على وجه العموم إن الناس استقبلوا غضبي هذا بنوع من التأمل الجدّي الذي لا يخلو من إهانة لي. وقد اتفق أنّ أحد رفاقي، وهو فتى قصير القامة، سليط اللسان، لم أكن أخاطبه إلا مرة في العام، قال لي وقد لاح في وجهه تفكير عميق وأشاح بصره عني قليلاً:

- هذه المشاعر تشرفك طبعا، ولا شك في أن هناك ما يدعوك إلى الاعتزاز والفخر، ولكنني لو كنت في مكانك لما زهوت كثيراً بكوني ابن زنا.. لكأنك من هذا في عيد حقاً!

وأصبحت منذ ذلك الحين لا أباهي بأنني ولد غير شرعي.

أعود فأقول إن الكتابة باللغة الروسية أمر شاق جداً: لقد سوَّدت حتى الآن ثلاث صفحات من أجل أن أشرح كيف كان استيائي من اسمي طوال حياتي، ولا شك في أن القارىء قد خلص من هذا إلى اعتقاد بأن مرد غيظي إلى أنني لست أميراً، بل دولجوروكي فحسب. ولكنني لن أتدنى إلى حيث أشرح الأمر وأبرىء نفسي مرة أخرى.

- 4 -

بين ذلك العدد الكبير من الخدم كان هناك، عدا ماكار إيفانوف، فتاة كانت في نحو الثامنة عشرة من عمرها حين أظهر ماكار دولجوروكي،

Twitter: @ketab_n

فجأة، وهو في الخمسين من عمره رغبته في تزوجها. وأنتم تعلمون أن الزواج بين الأقنان الخدم (في عهد القنانة)[4] إنما يتم بموافقة الأسياد، وربما تم أحياناً بأوامر منهم. وكان يسكن في الضيعة أيامئذ سيدة يسميها الناس عمة، والحق أنها لم تكن عمة لي أو عمة أحد. لكنني لا أدري لماذا كان جميع الناس يسمونها على الدوام عمة، عمة على وجه العموم، حتى لدى أسرة فرسيلوف التي لعلها كانت تربطها بها صلات قرابة. إن اسمها تاتيانا بافلوفنا بروتكوفا. وكانت تملك هي أيضاً، في ذلك العهد، في تلك المنطقة نفسها، خمسة وثلاثين «نفساً»؛ وكانت بحكم الجوار تدير أملاك فرسيلوف (خمسمائة نفس) أو قل تشرف عليها؛ وكان هذا الإشراف، فيما قيل لي، يساوي إشراف أي وكيل من الوكلاء ذوي الخبرة. على أن معارفها هذه لا تهمني في شيء. وإنما أريد أن أضيف، متجنباً كل رغبة في المديح أو التملق، أن تاتيانا بافلوفنا هذه كانت مخلوقة نبيلة بل وأصيلة.

لم تعارض هذه السيدة رغبة ماكار دولجوروكي القاتم المزاج (قيل إن مزاجه كان قاتماً أيامئذ)، بل شجعته أكبر تشجيع. وكانت صوفيا أندرييفا (تلك الخادم التي كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وهي أمي) قد تيتمت منذ سنين؛ وكان أبوها المتوفى الذي كان يحترم ماكار دولجوروكي احتراماً عظيماً ويضمر له امتناناً كبيراً لا أدري ما مصدره، كان أبوها هذا قناً كذلك، فلما وافاه المرض قبل ست سنين، ورقد على سرير الموت، بل وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بربع ساعة فيما يدَّعي بعض الناس، حتى لقد كان يمكن أن تُعَدّ وصيته نتيجة من نتائج الهذيان لولا أنه قِنّ لا يملك أن يوصي بشيء، دعا إليه ماكار دولجوروكي وقال له أمام الناس وبحضور الكاهن، قال له بصوت عال وهو يومىء بيده إلى ابنته: «نشّئها

Twitter: @ketab_n

واتخذها زوجة لك». لقد سمع الناس جميعاً هذا الكلام. أما ماكار ايفانوف دولجوروكي فإنني لا أدري ما هي العواطف التي حملته على الزواج فيما بعد: أهو تزوج راغباً في هذا الزواج مبتهجاً به ابتهاجاً كبيراً، أم هو تزوج قياماً بواجب ووفاء بعهد؟ والسبب الثاني أكثر احتمالاً. لأنه أقبل على هذا الزواج بمظهر من لا يبالي الأمر ولا يكترث به. لقد كان رجلاً يعرف حتى في ذلك الحين كيف يظهر بالمظهر الذي يريده وهو على عدم درايته العميقة بالكتب المقدّسة وجهله، كان يحفظ الصلوات على ظهر القلب، (ويعرف خاصة تاريخ بدء حياة بعض القديسين، عن طريق السماع)، وكان ذا طبع عنيد وفي بعض الأحيان على جانب من جرأة ومجازفة. كان متغطرس الكلام، قاطع الأحكام، وكان يعيش «حياة كريمة فاضلة» على حد تعبيره الغريب. كذلك كان هذا الرجل في تلك الأيام. وكان طبيعياً أن يتمتع باحترام الناس كافة، ولكن يقال إن الناس كانوا في بعض الأحيان يستثقلون ظله ولا يطيقونه. غير أن كل شيء قد تغير حين ترك المنزل: فلم يتحدث عنه أحد بعد ذلك إلا حديثه عن قديس أو شهيد. ذلك كله أعرفه من مصدر موثوق.

أما أمي فقد احتفظت بها تاتيانا بافلوفنا قريبةً منها حتى السنة الثامنة عشرة من عمرها رغم إرادة الخطيب الذي كان يريد أن يعلِّمها في موسكو، فثقفتها بعض الشيء، علمتها الخياطة والتفصيل وآداب الحياة الاجتماعية بل علّمتها القراءة قليلاً. أما الكتابة فلم تتوصل أمي إلى إجادتها يوماً. وكان هذا الزواج بماكار إيفانوف أمراً مقرراً في نظرها منذ زمن بعيد، وكل ما وقع لها عندئذ قد بدا لها رائعاً وقيدت إلى الكنيسة طائعة مختارة، يبدو على وجهها أكبر هدوء يمكن أن يظهر على وجه فتاة في حالة كهذه، حتى أن تاتيانا بافلوفنا نفسها قد وصفتها حينذاك

Twitter: @ketab_n

بأنها أشبه بسمكة. إن تاتيانا بافلوفنا هذه هي التي أطلعتني على ما يتعلق بطبع أمي في ذلك العهد. وقد وصل فرسيلوف إلى أراضيه بعد هذا الزواج بستة أشهر تماماً.

– 5 –

لا أستطيع أن أحزر على نحو يرضيني كيف بدأت الأمور بينه وبين أمي. واني لأميل إلى تصديق ما أكده لي هو نفسه في العام الماضي محمرَّ الوجه، رغم أنه روى لي القصة كلها مسترسلاً منطلقاً «مرحاً»، فقال إن الأمر لم يكن حكاية طويلة، وإن كل شيء قد جرى من تلقاء نفسه هكذا. . أعتقد أن ذلك صحيح، وأن كلمة «هكذا» هذه كلمة موفقة رائعة. ورغم كل شيء فقد ظللت دائماً شديد الرغبة في أن أعرف كيف بدأ هذا الأمر. لقد كنت دائماً وما أزال أحتقر الأشياء القذرة. وطبيعي أن ما يؤجج في نفسي هذه الرغبة ليس من نوع الفضول السخيف. يجب أن أذكر لكم أنني حتى السنة الماضية لم أكن قد عرفت أمي تقريباً، فقد عُهِدَ بي إلى غرباء منذ نعومة أظفاري، من حرص فرسيلوف على تمتعه بالراحة وخلو البال (سأتكلم عن هذا فيما بعد)، ولذلك لا أستطيع أن أتصور كيف كان وجهها أيامذاك. ترى إذا لم تكن جميلة، فما الذي عساه أغرى بها رجلاً مثل فرسيلوف؟ تلك مسألة تهمني، لأن صورة شيقة ذات دلالة ترتسم من خلالها لهذا الرجل. ومن أجل هذا تراني ألقي ذلك السؤال، فأنا لا ألقيه من قبيل فساد الخلق أو الفضول. لقد قال لي هو نفسه، هذا الرجل القاتم المزاج المغلق النفس، قال لي بتلك السذاجة المحببة التي لا أدري من أين كان يخرجها (كمن يخرج منديلاً من جيبه) إذا رأى ضرورة لذلك، قال لي إنه كان في تلك الأيام «جرواً أبله»، ولم يكن عاطفياً بمعنى الكلمة،

Twitter: @ketab_n

وأنه كان قد قرأ منذ قليل قصة «أنطوان المسكين» وقصة «بولينا ساكس»[5]، وهما كتّابان أدبيان أثّرا في الجيل الجديد تأثيراً حضارياً لا يقدر مداه. وأضاف أنه لعله قد عاد إلى الريف مدفوعاً بتأثير «أنطوان المسكين»، قال ذلك جاداً أكبر الجد. فعلى أي صورة استطاع هذا «الجرو الأبله» أن ينشىء علاقة بينه وبين أمي؟ يخطر ببالي في هذه اللحظة أنه لو كان هناك قارىء يقرأ هذا الكلام الذي أكتبه لانفجر يضحك عليَّ حتماً، ولعدَّني مراهقاً مضحكاً لا يزال يحتفظ ببراءته الغبية ويتجرأ على مناقشة أمور لا يفهم منها شيئاً البتة! وهذا صحيح، فإني ما زلت لا أفهم من هذه الأمور شيئاً، وأنا أعترف بذلك بلا فخر ولا اعتزاز، لأنني أعرف أن فقدان التجربة هذا أمر سخيف لدى شاب في الحادية والعشرين من عمره، ولكنني سأقول لذلك السيد القارىء إنه هو أيضاً لا يفهم في هذه الأمور شيئاً، وسأبرهن له على ذلك. صحيح أنني لا أعرف عن شؤون النساء شيئاً، ولا أريد أن أعرف شيئاً أيضاً، وسأظل استخف بهذا ما حييت، فقد آليت على نفسي أن لا أحفل به، ولكنني أعرف مع ذلك أنه رب امرأة تفتنك بجمالها أو بما لا أدري، في طرفة عين؛ ورب امرأة أخرى لا بد لك من ستة أشهر حتى تعرف مصدر السحر وأن ترى هذا السحر. فهذه المرأة الثانية، إذا أردت أن تراها كاملة وأن تحبها لا يكفي أن تنظر إليها، ولا يكفي أن تكون مستعداً للإقدام على أي شيء، وإنما ينبغي لك أن تكون موهوباً بشيء آخر. إنني من ذلك على يقين رغم أنني لا أعرف شيئاً، وإلا كان يجب أن ننزل جميع النساء إلى منزلة الحيوانات الداجنة وأن لا نحتفظ بها لدينا إلا على هذه الصورة. ولعل هذا ما يتمناه كثير من الناس.

وأنا أعلم من عدة مصادر أن أمي لم تكن على حظ كبير من الجمال، رغم أنني لم أرَ صورتها التي ترجع إلى ذلك العهد يوماً، وهي صورة

Twitter: @ketab_n

موجودة في مكان ما. فمن المستحيل إذاً أن يفتن المرء بها من أول نظرة. كان في وسع فرسيلوف لو أراد «التسلية» وحدها أن يختار امرأة أخرى، وكان هنالك امرأة أخرى فعلاً، بل فتاة عذراء هي آنفيزا كونستانتينوفنا سابوجكوفا، التي كانت تعمل وصيفة في المنزل. أضف إلى ذلك أن رجلاً يصل إلى هناك قارئاً «أنطوان المسكين» كان لا بد أن يرى، أن محاولته، بحكم قوانين الأسياد، في إغراء امرأة هي زوج قن من أقنانه شيء معيب. إنه منذ أقل من بضعة أشهر، أي بعد عشرين عاماً انقضت على ذلك العهد، كان لا يزال يتحدث عن أنطوان المسكين حديثاً يبلغ غاية الجد، مع أن ما سُلب من أنطوان كان حصانه لا زوجته! فلا بد أنه قد حدث إذاً يومئذ شيء خاص جعل الآنسة سابوجكوفا تخسر القضية (وأنا أعتقد أنها ربحتها). لقد أتيح لي مرة أو مرتين، في السنة الماضية (ولم يكن في الإمكان التحدث إليه كل يوم) أن ألقيت عليه هذه الأسئلة جميعها، فلاحظت أنه رغم لباقته كلها، ورغم انقضاء عشرين سنة على ذلك العهد، كان يجيب بعدم ارتياح. ولكنني وصلت إلى غاياتي؛ أو قل، على الأقل، أنه بمظهر الاشمئزاز المتكبر الذي يلازم ممثلي المجتمع الراقي والذي كان يبيحه لنفسه معي في كثير من الأحيان، قد ثرثر يوماً في أمور غريبة. فقال إن أمي كانت من تلك النساء التي لا تعرف كيف تدافع عن نفسها، ولا يمكن للمرء أن يحبها، كلا، على العكس، ولكن ما تلبث على حين فجأة أن يشعر المرء نحوها بشفقة، لا يدري لماذا، لعلّها عذوبتها، مع أن أحداً لا يدري أبداً «لماذا؟». ولكن الشفقة تدوم وتبقى، وبهذه الشفقة يتحقق ارتباط..

«وأوجز لك الكلام يا صغيري فأقول إنه ليتفق للمرء أن يصبح عاجزاً عن الانفصال». ذلك ما قاله لي. فإذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، كنت مضطراً أن أرى فيه امرءاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عن

Twitter: @ketab_n

«ذلك الجرو الغبيّ»، الذي يصف به نفسه الآن مشيراً إلى ذلك الوقت. هذا ما كنت أسعى إليه. وقد أكد لي بعد ذلك أن أمي أحبته عن «مذلة» حتى لقد أوشك أن يقول إنها أحبته و«أطاعته طاعة العبيد»! ولقد كذب! كذب من قبيل التأنق، كذب على ضميره، كذب على الشرف وعلى كرم النفس وسماحة الخلق.

رُبَّ قائل يقول إنني أكتب هذا على سبيل إزجاء المديح لأمي، ولكنني سبق أن أعلنت أنني أجهل جهلاً مطلقاً كيف كانت أمي في ذلك الوقت. وأكثر من ذلك أنني أعلم حق العلم ظلام البيئة وسخافة الأفكار التي تعفنت فيها منذ طفولتها وعاشت وسطها طوال حياتها. وقد وقع البلاء على كل حال. يجب أن أبادر، في هذه المناسبة، إلى بعض التصحيح: لقد تهت بين السحب ونسيت أمراً كان ينبغي في الواقع أن أبرزه قبل أي شيء آخر: وهو أن الأمور بينهما قد بدأت بوقوع البلاء رأساً (أرجو أن لا يتظاهر القارىء بأنه لا يفهم على الفور ما أريد أن أقوله). أعني أن البداية جرت على طريقة أصحاب الأملاك ولو أنّ الآنسة سابوجكوفا قد تُركت جانباً. ويجب أن أتدخل هنا فأعلن أن كلامي هذا لا يناقض ما سلف. في أي شيء، يا رب، كان يمكن أن يتحدث رجل مثل فرسيلوف إلى امرأة كأمي حتى ولو كان الأمر أمر حب لا سبيل إلى مقاومته؟ لقد سمعت رجالاً فاسقين يقولون إنه ليتفق في كثير من الأحيان لرجل يواجه امرأة أن يبدأ الفعل دون أن يقول كلمة واحدة، وواضح أن هذا منتهى الشذوذ، وأنه يثير أقصى الاشمئزاز. وعندي مع ذلك أن فرسيلوف ما كان له أن يبدأ غير هذه البداية مع أمي ولو أراد. أكان يستطيع أن يبدأ بأن يشرح لها «بولينا ساكس»؟ ولكن الأدب الروسي لم يكن يهمها في شيء. وعلى حد تعبيره هو (حين كشف عن نفسه أمامي ذات يوم)، كانا يختبئان في الزوايا والأركان،

Twitter: @ketab_n

ويتربص أحدهما بالآخر على السلالم، حتى إذا مر بهما أحد وثبا بعيداً كوثوب كرتين، وقد احمرا خجلاً؛ وكان «الطاغي» يرتجف ويرتعش أمام أية كناسة تكنس الأرض، رغم ما له من حقوق الإقطاعي. وإذا كانت الأمور قد بدأت على طريقة أصحاب الأملاك، فقد استمرت على هذا النحو، ولكنها لم تبق كذلك تماماً؛ والحق أنه ليس لهذا تفسيرات يجب البحث عنها، فأمثال هذه التفسيرات لا يمكن إلا أن تزيد الظلمات كثافة. إن الأبعاد التي بلغها حبهما هي في حد ذاتها لغز، لأن الشرط الأول لدى أناس مثل فرسيلوف هو أن يتركوا المرأة، متى حققوا هدفهم منها. لكن الأمور تمت على غير هذا النحو. فلأن يزني امرؤ بامرأة جميلة ناقصة العقل من الأقنان (ولم تكن أمي ناقصة العقل على كل حال) فذلك أمر هو في نظر «كلب صغير» فاسق (ولقد كانوا جميعاً فاسقين، من أولهم إلى آخرهم، تقدميين ورجعيين على السواء) فذلك أمر ليس ممكناً فحسب، بل هو أمر لا مناص منه أيضاً، لا سيما إذا تذكرتم وضع أبي من حيث أنه ترمَّل شاباً ومن حيث أنه عاطل لا يعمل شيئاً. أما استمرار الحب مدى الحياة فأمر خارق. ولست أضمن أنه أحبها على كل حال، ولكنني أعلم واقعة ثابتة هي أنه جرها وراءه طوال حياته.

لقد ألقيت أسئلة كثيرة، إلا أن بين هذه الأسئلة سؤالاً هو أهمها جميعاً، لم أجرؤ أن أطرحه على أمي طرحاً قاطعاً، رغم أنني تقربت إليها كثيراً في السنة الماضية، ورغم أنني بفظاظتي وعقوقي وشعوري بأنني مجني عليَّ لم أتحرج معها قط. ذلك السؤال هو كيف أمكنها، هي المتزوجة قبل ستة أشهر، هي التي تسحقها معاني قداسة الزواج سحق ذبابة، هي التي كانت تكن إجلالاً لزوجها ماكار إيفانوفتش لا أقل من إجلالها لله، كيف أمكنها، بعد ما لا يزيد على أسبوعين، أن تسقط في خطيئة كهذه الخطيئة؟ ثم إنها لم تكن امرأة منحرفة عن الصراط،

Twitter: @ketab_n

بالعكس، حتى ليمكنني أن أقول، مستبقاً الأمور، إن من الصعب على المرء أن يتصور نفساً ظلت طاهرة مدى الحياة كنفسها. فليس هناك من تفسير إذاً إلا أن نقول إنها فعلت ما فعلته على غير وعي منها ولا شعور، لا بالمعنى الذي يستعمله المحامون في هذه الأيام حين يصفون بذلك موكليهم من القتلة واللصوص، بل بالمعنى الذي يصدق على انفعال من تلك الانفعالات العارمة التي تعصف بضحية ساذجة فتدنيها من الفاجعة. ومن يدري مع ذلك: لعلها أحبت حباً شديداً. . . أحبت تفصيلة ملابسه وفرقة شعره على طريقة أهل باريس، أو نطقه الفرنسي (نعم، الفرنسي) الذي لم تكن تفهم منه شيئاً، أو اللحن العاطفي الذي عزفه على البيانو، لقد أحبت شيئاً لم تر مثله في حياتها (وكان رجلاً بارع الجمال)، ثم أحبته كله إلى حد التهالك والسقوط. لقد سمعت من يقول إن هذا كان يقع أحياناً للفتيات من الخدم في عهد القنانة، بل كان يقع مثله لأكثرهن تمسكاً بأهداب الشرف. وإني لأفهم ذلك وأعتبر من الخطأ ردّ ذلك إلى نظام القنانة و«المذلة» وحدهما! وأغلب الظن أن هذا الرجل كان يملك من القوة ومن الإغراء ما يكفي لاجتذاب مخلوقة كانت حتى ذلك الحين بريئة تلك البراءة كلها، وكانت على وجه الخصوص غريبة تلك الغرابة كلها عن طبيعته، آتية من عالم يختلف عن عالمه كل الاختلاف، ومن أرض تختلف عن أرضه كل الاختلاف، فسارت إلى هوة واضحة لا ريب فيها. أما أن السير كان إلى هوة فأحسب أن أمي أيضاً قد فهمت ذلك ولكنها كانت تمضي نحو الهوّة من دون أن تفكّر. إن هذه المخلوقات التي لا تملك قوة الدفاع عن نفسها متشابهة متماثلة: تعرف أن الهوة تنتظرها هناك، لكنها تجري إليها لا تلوي على شيء.

وما إن ارتكبا الخطيئة حتى استبدت بهما الندامة. وقد روى لي أبي

Twitter: @ketab_n

متندراً كيف أنه أجهش يبكي على كتف ماكار إيفانوفتش حين دعاه إلى مكتبه خصيصاً لهذا الأمر، بينما كانت هي في ذلك الوقت. . . راقدة في مكان ما، مغشياً عليها في حجرتها الصغيرة، حجرة الخادم القن. . .

– 6 –

ولكن حسبي كلاماً على هذه المسائل وعلى هذه التفاصيل الفاضحة. لقد اشترى فرسيلوف أمي من ماكار إيفانوف، وأسرع ماضياً بها، مصطحباً إياها منذ ذلك الحين، كما قلت من قبل، إلى كل مكان تقريباً، إلا إذا غاب غيبة طويلة؛ فكان عندئذ يعهد بها في أكثر الأحيان إلى العمة، أي إلى تاتيانا بافلوفنا بروتكوفا التي لا تُفتقد قط في مناسبات كهذه المناسبات. لقد أقاما مدداً في موسكو، وأقاما مدداً في مقاطعات أخرى أو في مدن أخرى، بل أقاما مدداً في خارج روسيا أيضاً، ثم أقاما أخيراً في بطرسبرج. وسأتحدث عن هذا فيما بعد، أو قد لا أتحدث عنه البتة، ولكنني أقول إنني ولدت بعد زواج ماكار إيفانوفتش بسنة؛ وبعد سنة أخرى ولدت أختي؛ وبعد عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ولد أخي الأصغر وهو صبي ممراض مات بعد بضعة أشهر. وكان من شأن هذه الولادات الأليمة أن أفقدت أمي جمالها، أو هذا ما قيل لي على الأقل: لقد بدأ الهرم والضعف يدبان إليها سريعين.

ولكن العلاقات بماكار إيفانوفتش لم تنقطع يوماً. فحيثما يحل آل فرسيلوف، سواء أأقاموا عدة سنين متتالية في مكان واحد أم سافروا متنقلين من مكان إلى مكان، فإن ماكار إيفانوفتش كان لا يفوته أن يكتب إلى «الأسرة» يبلغها أنباءه. وهكذا نشأت علاقات غريبة يختلط فيها شيء من التكلف بشيء من الجد. وإني لأعلم أنه لو كان الأمر بين أسياد لمازج ذلك حتماً عنصر كوميدي. ولكن لم يحدث شيء من ذلك

Twitter: @ketab_n

في الحالة التي نحن بصدد الكلام عليها. كانت الرسائل تصل مرتين في العام، لا أكثر من ذلك ولا أقل؛ ومن الغريب أنها كانت متشابهة تشابهاً عجيباً. لقد أتيح لي أن أرى هذه الرسائل، فوجدت إنها لا تكاد تشتمل على شيء شخصي، ولا تكاد تضم إلا أخباراً عن أحداث عامة جداً وعواطف عامة جداً، إن صح أن توصف العواطف بمثل هذا: كانت تلك الرسائل تتضمن أنباء عن صحة مرسلها وأسئلة عن صحة الأشخاص المرسلة إليهم، وتحتوي على تمنيات وتحيات وتبريكات مهذبة، ثم لا شيء عدا ذلك البتة.. وأعتقد أن هذا الاقتصار على الأمور العامة، وهذا الابتعاد عن الشؤون الشخصية هي في تلك البيئة لهجتها اللبقة وآدابها الاجتماعية: «إلى زوجتنا العزيزة المحترمة صوفيا آندرييفنا، نبعث بأخلص تحياتنا المتواضعة»... «إلى أولادنا الأعزة أعبِّر عن رضاي ومباركتي التي لن يفسدها الدهر». ثم يعقب ذلك ذكرُ أسماء الأولاد على ترتيب أعمارهم وأنا منهم. ويجب أن أشير هنا إلى أن ماكار إيفانوفتش كان يملك من حصافة الرأي ما يكفي لأن لا ينعت «صاحب النبالة السيد المحترم أندريه بتروفتش» بصفة «المحسن إليه»، ولكنه كان لا يغفل في أي رسالة من رسائله أن يبعث إليه بخالص تحياته المتواضعة وأن يسأله الرضى عنه، وأن يطلب له من الله دوام نعمته عليه. وكانت أمي تسارع إلى الرد على رسائله، وتكتبها دائماً بنفس أسلوب ماكار إيفانوفتش، وكان فرسيلوف لا يشارك بالطبع في هذه المراسلة. وكان ماكار إيفانوفتش يبعث برسائله من جميع أركان روسيا، من المدن التي يكون فيها، ومن الأديرة التي يقيم بها زمناً طويلاً في بعض الأحيان. لقد أصبح ماكار إيفانوفتش جوَّاباً يضرب في الأرض ولا يستقر في مكان. وكان لا يطلب في يوم من الأيام شيئاً البتة. لكنه كان يجيء إلى البيت مرة كل ثلاث سنين بلا

Twitter: @ketab_n

تخلف، فيتلبث قليلاً عند أمي التي كان لها منزل خاص بها دائماً، مستقل عن منزل فرسيلوف. سوف أعود إلى الكلام على هذا الأمر فيما بعد. وحسبي أن أذكر الآن أن ماكار إيفانوفتش لم يكن يسترخي على مقاعد الصالون الوثيرة، بل كان يقيم في مكان ما وراء حاجز من الحواجز متواضعاً. وكان لا يمكث مدة طويلة: فما هي إلا خمسة أيام أو أسبوع حتى يرحل.

نسيت أن أقول إنه كان يحب كثيراً ويحترم كثيراً اسمه، «دولجوروكي». ومن الواضح أن هذا منه سخف مضحك. وأسخف ما في الأمر أن هذا الاسم إنما يعجبه ويرضيه لأن هناك أمراء يسمون دولجوروكي. ألا ما أعجبه من تصور هو نقيض ما يوحي به الحس السليم!

قلت إن الأسرة كانت مجتمعة الشمل دائماً، ولكن بدوني طبعاً. كنت كمن رُمِي خارج السفينة، فما كدت أولد حتى عُهِدَ بي إلى غرباء. ولم يكن ذلك مقصوداً متعمداً، فحين ولدتني أمي كانت لا تزال شابة جميلة، وكانت إذن تنفع فرسيلوف نفعاً ما، ولا بد أن يزعجه أن يصحبهما طفل صغير كثير الصراخ، وخاصة أثناء الأسفار. فذلكم هو السبب في أنني بلغت من عمري العام العشرين دون أن أرى أمي تقريباً، فيما عدا مناسبتين أو ثلاث مناسبات عارضة. ولم تكن عواطف أمي هي السبب في ذلك، وإنما كان السبب في ذلك تكبّر أبي على الناس.

— 7 —

والآن سأتناول شيئاً آخر تماماً.

منذ شهر، أي قبل اليوم التاسع عشر من أيلول، قررت وأنا في موسكو أن أعدل عنهم جميعاً وأن أنطوي على «فكرتي» انطواء نهائياً.

Twitter: @ketab_n

وإذا كنت أكتب هذه العبارة «أن أنطوي على فكرتي نهائياً» فلأن هذا التعبير يمكن أن يصوّر كامل رأيي الأساسي تقريباً أي ما هو هدفي في الحياة. أما ما هي «فكرتي» فسوف أتحدث عنها فيما يلي من صفحات هذا الكتاب، بل سوف أسهب في الحديث عنها. لقد تكونت فكرتي هذه أثناء وحدتي الحالمة سنين طويلة من حياتي بموسكو منذ أيام الدراسة حتى حين كنت في الصف السادس، ثم لم تتركني بعد ذلك ربما لحظة واحدة، بل ابتلعت وجودي كله ابتلاعاً. ولقد كنت أعيش في الأحلام أيضاً قبل أن تنبت هذه الفكرة في نفسي، فإنني قد عشت في عالم مسحور نوعاً ما، منذ طفولتي الغضة، غير أن أحلامي، حين بزغت في نفسي هذه الفكرة الأساسية التي التهمتني التهاماً، قد اشتدت وترسخت واكتست على الفور صورة محددة، فإذا هي أحلام عاقلة بعد أن كانت أحلاماً سخيفة. إن المدرسة الثانوية التي تابعت فيها دراستي لم تكن تمنع أحلامي، ولا هي منعت بعد ذلك فكرتي. ولكنني أحب أن أضيف إلى ذلك أن السنة الأخيرة التي قضيتها في المدرسة كانت سنة سيئة، على أنني كنت خلال سائر السنين السبع متفوقاً أحتلّ بين رفاقي أولى المراتب؛ وذلك يرجع إلى فكرتي تلك نفسها، والى النتيجة التي استخرجتها منها والتي لعلها كانت خطأ. وهكذا فإن المدرسة لم تعرقل الفكرة، غير أن الفكرة عرقلت المدرسة. وقد عرقلت الجامعة أيضاً. ذلك أنني منذ أنهيت دراستي الثانوية عزمت أمري لا على قطع صلتي بأهلي قطعا حاسما فحسب، بل كذلك صلتي بالعالم كله إذا اقتضى الأمر، رغم أنني كنت آنذاك دخلت في العشرين من عمري فقط. فكتبت إلى الأشخاص المعنيين في بطرسبورج، طالباً أن يدعوني وشأني نهائياً، وأن لا يرسلوا إليَّ بعد الآن مالا لمعيشتي، وأن ينسوني نسياناً كاملاً إذا أمكن الأمر (هذا إذا خطرتُ ببالهم طبعاً)، وقائلاً إنني لن

Twitter: @ketab_n

أدخل الجامعة «قطعاً بحال من الأحوال». ذلك أنني كنت أمام أمرين لا ثالث لهما، ولا بد أن أختار أحدهما: فإما أن أدخل الجامعة وأتابع دراستي فأرجىء الشروع في تنفيذ فكرتي أربع سنين وإما أن لا أدخل الجامعة. وقد اخترت الثانية بغير تردد، لأنني كنت مقتنعاً بذلك اقتناعاً رياضياً. وجاءني ردُّ فرسيلوف، أبي الذي رأيته طوال حياتي مرة واحدة خلال لحظة قصيرة حين كنت في العاشرة (والذي اتسع وقته في تلك اللحظة لأن يذهلني) أقول جاءني رد فرسيلوف على رسالتي التي لم أوجهها إليه بالمناسبة، يدعوني، ببطاقة كتبها بخط يده، أن أجيء إلى بطرسبرج؛ ويعدني بوظيفة لدى «شخص». إن هذه الدعوة التي تصلني من رجل جاف المزاج متكبر الطبع صلف الخلق، من رجل أهملني هذا الإهمال كله، ولم يكتف، بعد أن جاء بي إلى هذه الحياة وعهد بي إلى غرباء، بأن لا يعرفني بعد ذلك؛ بل لم يشعر أيضاً بشيء من ندامة على ما جنت يداه (ومن يدري فلعله كان خالي البال إلا من فكرة غامضة عن وجودي، لأنه، وقد ثبت هذا بعدئذ، لم يكن هو الذي ينفق على معيشتي بموسكو، بل كان يتولى ذلك آخرون)؛ أقول إن هذه الدعوة التي تصلني من هذا الرجل الذي تذكَّرني على حين فجأة وشرفني بتوجيه رسالة إليَّ كتبها بخط يده، قد دغدغت غروري فحددت مصيري. هناك شيء غريب: إن ما أعجبني في هذه البطاقة، من بين ما أعجبني فيها، (وكانت صفحة قصيرة على ورقة صغيرة) هو أنه لم يذكر الجامعة بكلمة واحدة، ولم يسألني أن أغير رأيي، ولا أخذ عليَّ أنني لا أريد أن أتابع دراستي، أي إنه لم يعمد إلى شيء من ذلك الكلام الكثير الذي أَلِف الآباء أن يزجوه لأبنائهم معاداً مكروراً في مثل هذه الحالات. ومع ذلك فإن هذا بعينه هو ما كان سيئاً منه، لأنه شاهد جديد على أنه لا يحفل بي ولا يكترث بأمري. وقررت أن أسافر لسبب آخر أيضاً، هو أن هذا

Twitter: @ketab_n

السفر لن يعوق حلمي الأساسي. قلت لنفسي: «سنرى ما يحدث. ولن أرتبط بهم إلا زمناً على كل حال، زمناً قد يكون قصيراً جداً. فمتى لاحظت أن هذه الخطوة، على محدوديتها وتفاهتها، ستصرفني عن الأمر الأساسي، قطعت صلتي بهم فوراً، وتركت كل شيء عائداً إلى قوقعتي»، نعم إلى قوقعتي! «اختبأت هنالك كسلحفاة». ووقع هذا التشبيه في نفسي موقع الإعجاب الشديد. «ولن أكون وحيداً»، كذلك استمررت أجري حساباتي راكضاً من أقصى موسكو إلى أقصاها في تلك الأيام الأخيرة. «لا لن أكون وحيداً، كما كنت حتى الآن خلال هذه الأعوام الرهيبة كلها: بل ستصحبني فكرتي التي لن أخونها يوماً، ولو أعجبوني جميعاً هنالك، ولو وهبوا لي السعادة، ولو عشت معهم عشر سنين!» وأستبق الأمور فأقول: هذا هو الشعور الذي خالط نفسي وهذا هو ازدواج الخطط الذي نشأ في ذهني وأنا بموسكو ثم لم يبارحني لحظة واحدة ببطرسبرج (لا أدري هل مرَّ بي، وأنا في بطرسبرج، يوم واحد لم أحدد لنفسي فيه أجَل قطيعتي معهم ومغادرتي بطرسبرج). وأعتقد أن هذا الازدواج كان السبب فيما اندفعت إليه من تهور أثناء تلك السنة، وفيما قارفت من أمور بشعة، بل حتى دنيئة، ناهيك طبعاً عما ارتكبت من حماقات.

والحق يقال، لقد ظهر في حياتي على حين غرة أب لم يكن يوجد قبل ذلك. وأسكرتني هذه الفكرة أثناء استعدادي للسفر بموسكو، وأثناء ركوب القطار إلى بطرسبرج. أن يكون لي أب فذلك لم يكن إلى ذلك الحين شيئاً، وما أنا ممن يحبون الحنان والدلال، ولكن هذا الرجل لم يشأ أن يعرفني، حتى لقد أذلني؛ على حين أنني كنت طوال تلك الأعوام كلها لا تنصرف أحلامي إلا إليه، حتى لأبلغ من ذلك حد الشبع (إذا صح أن توصف الأحلام بمثل هذا). كان كل حلم من أحلامي منذ

Twitter: @ketab_n

طفولتي يتجه إليه ويحوم حوله ويرتد آخر الأمر نحوه. لا أدري أكنت أكرهه أم كنت أحبه، ولكنه كان يملأ مستقبلي كله، وكان يملأ جميع تنبؤاتي عن الحياة، وقد جاءني هذا الشيء من تلقاء نفسه، وكان يقوى مع تقدمي في السن يوماً بعد يوم.

وهناك ظرف قوي كان له أيضاً أثر كبير في سَفري من موسكو. إن ثمة إغراء كان قد قام في نفسي قبل سفري بثلاثة أشهر (ومعنى هذا قبل أن ترد مسألة السفر إلى بطرسبرج)، فارتعش له قلبي وخفق! إن ما كان يجذبني إلى ذلك الخضمّ المجهول هو أنني كنت أستطيع أن أدخل إليه سيداً، وأن أحكم فيه مصير غيري. وأي غير! وأبادر فأقول سلفاً، حتى لا يوقع كلامي القارىء في الخطأ، أن عواطف نبيلة لا مشاعر طاغية هي التي كانت تغلي في نفسي. أضف إلى ذلك أن فرسيلوف كان يمكن أن يقدِّر (إذا هو تنازل وفكّر في أمري) أن يستقبلني استقبال فتى صغير خرج أمس من المدرسة الثانوية، استقبال مراهق غُرّ تحملق عيناه حين يرى العالم. ولكنني كنت أعلم كل ما في جوفه، وكنت أملك في عبي وثيقة خطيرة كل الخطورة، وثيقة لا يتردد أن يهب عدة سنين من عمره (وأنا أعلم الآن ذلك علم اليقين) في سبيل أن أطلعه على سرها آنذاك. على أنني ألاحظ أنني أتكلم في ألغاز وأحجيات. إن من المستحيل على المرء أن يصف عواطف دون أن يذكر وقائع. وسوف يجري الحديث عن كل هذا تفصيلاً في حينه، ومن أجل ذلك إنما أمسكت بالقلم. أما إذا كتب المرء بهذه الطريقة، فكأنه يهذي أو كأنه يسبح في الغيوم.

– 8 –

من أجل أن أصل أخيراً إلى اليوم التاسع عشر من شهر أيلول سأذكر، موجِزاً وعابراً، أنني قد وجدتهم جميعاً، أعني فرسيلوف، وأمي،

Twitter: @ketab_n

وأختي (التي أراها أول مرة في حياتي) على حالة أليمة من الفاقة والعوز، فهم يعيشون فيما يشبه البؤس أو هم يوشكون أن يصبحوا على البؤس في غد قريب. كنت قد عرفت ذلك بموسكو، ولكنني لم أتوقع أن أرى ما رأيته. لقد تعودت منذ طفولتي أن أتصور هذا الرجل، (أعني أبي في المستقبل) عظيم المهابة كأنه هالة لألاءة؛ ولم أكن أستطيع أن أتخيله إلا محتلاً أولى المراكز بين الناس. إن فرسيلوف لم يسكن يوماً مع أمي، فكان يستأجر لها منزلاً خاصاً: ولا ريب في أنه كان يفعل هذا ترفّقاً واحتشاماً. أما الآن فهم يقيمون جميعاً في منزل واحد هو جناح خشبي في شارع صغير من حي سيمينوفسكي. وكان أثاث المنزل كله قد رُهن، حتى لقد اضطررت أن أعطي أمي على غير علم فرسيلوف، الروبلات الستين السريّة التي كانت معي: أقول سرية لأنها حصيلة ما كنزته من مصروفي الذي كنت أُعطاه خمسة روبلات في الشهر على مدى سنتين: ولقد بدأت أكنز هذا الكنز منذ بزغت «فكرتي» في رأسي. لذلك كان يجب إلا يعرف فرسيلوف شيئاً عن هذا المبلغ.

ولم تكن هذه المساعدة التي قدمتها لأمي إلا قطرة في خضمّ. لقد كانت أمي وأختي تقومان بأعمال خياطة. أما فرسيلوف فكان يعيش عاطلاً، كثير النزوات، ولا يزال يحتفظ بطائفة كبيرة من عادات تقتضي نفقات باهظة. كان صعب المراس كثير المطالب، ولا سيما على المائدة، وكانت جميع حركاته وسكناته تدل على أنه طاغية. ولكن أمي وأختي وتاتيانا بافلوفنا وجميع أفراد أسرة المرحوم آندرونيكوف (وهو مدير مكتب في إحدى الدوائر توفي منذ ثلاثة أشهر وكان يعالج أمور فرسيلوف) وهم عدد لا نهاية له من النساء، كان هؤلاء جميعاً يركعون أمامه ركوعهم أمام تمثال معبود. كنت لا أستطيع أن أتصور منظراً كهذا المنظر. يجب أن أقول إنه كان منذ تسع سنين أرق حاشية وأشد فتنة.

Twitter: @ketab_n

لقد سبق أن قلت إنه كان يبدو لي في أحلامي هالة لألاءة، لذلك صعب عليَّ أن أعتقد أن يكون الهرم والبلى قد دبَّا إليه في مدى سنين تسع لا أكثر، فسرعان ما شعرت من ذلك بحزن وشفقة وخجل. حتى إن رؤيتي إياه أول وصولي قد أحدثت في نفسي شعوراً كان من أقسى ما أحسست به من عواطف في ذلك اليوم. أنه لم يكن شيخاً، فهو لا يزال في الخامسة والأربعين لم يتجاوزها. وحين أنعمت النظر فيه اكتشفت في جماله شيئاً يخطف البصر أكثر من كل ما احتفظت به ذاكرتي من ملامح جماله. صحيح أنه أصبح أقل تألقاً، وأبسط مظهراً، وأدنى أناقة، ولكن الحياة قد نقشت على وجهه ما فيها من تعقيدات، فأضفت عليه معاني جديدة.

ومع ذلك كان الفقر أيسر هموم فرسيلوف قاطبة. لقد عرفت هذا حق المعرفة. كان هنالك، عدا الفقر، أشياء أعظم شأناً وأكثر أهميّة، ناهيك عن الأمل الذي لا يزال يحتفظ به، وهو أن يكسب الدعوى التي أقيمت منذ عام، والتي سيفصل فيها القضاء بينه وبين الأمراء سوكولسكي بشأن ميراثه، والتي قد تجيئه بعد زمن قصير بأملاك يقدَّر ثمنها بسبعين ألف روبل، وربما قُدِّر بأكثر من ذلك. سبق أن قلت إن فرسيلوف هذا كان قد أتلف في حياته ثلاثة مواريث: فلعله سيُنقذ مرة أخرى بميراث جديد! والمفروض أن يتم الفصل في القضية وصدور الحكم قريباً جداً. وقد وصلت إليهم وهم على هذا الأمل يحيون. غير أن أحداً لا يقرض مالاً بالاستناد إلى أمل، فلم يكن هنالك من يستطيعون الاقتراض منه، فكانوا يعانون من العذاب ما يعانون بانتظار أن يأتي الفرج.

على أن فرسيلوف لم يكن يذهب إلى أحد يلتمس منه العون والوساطة، رغم أنه كان يقضي نهاره كله خارج المنزل في كثير من الأحيان. لقد طُرد من المجتمع الراقي منذ ما يزيد على عام. وقد ظللت

Twitter: @ketab_n

عاجزاً عن تفسير هذا الأمر رغم جميع ما بذلت من جهود، ورغم انقضاء شهر بكامله على إقامتي ببطرسبرج. أكان فرسيلوف مذنباً أم لا؟ ذلك ما كان يهمني أن أعرفه. وذلك ما جئت من أجله! لقد أدار الناس كافةً ظهورَهم له ومنهم جميع الشخصيات التي تملك نفوذاً والتي استطاع أن يكون له بها صِلات سابقة وذلك بسبب إشاعات ذاعت عن سلوك شائن سلكه في ألمانيا قبل ذلك بعام، بل عن سلوك فاضح إلى أقصى حد، وذلك في نظر «المجتمع الراقي» أنكى وأدهى؛ حتى لقد قيل إنه تلقى يومئذ على مشهد من الناس صفعة كالها له أمير من الأمراء سوكولسكي، ثم لم يردَّ هو عليها بأي تحد. فحتى ولداه (الشرعيان)، ابنه وابنته، أدارا له ظهريهما وأشاحا وجهيهما، وعاشا منفصلين عنه. ولقد كان هذا الابن وهذه البنت يختلفان إلى أرقى المجتمعات بواسطة أسرة فاناريوتوف وبواسطة الأمير العجوز سوكولسكي (صديق فرسيلوف سابقاً). ولكنني حين أنعمت النظر في الرجل خلال هذا الشهر، رأيته إنساناً عزيز النفس متكبر الطبع لم يبعده المجتمع بل أبعد هو المجتمع فالى هذا الحد كان يظهر بمظهر الاستقلال! ولكن هل كان يحق له أن يظهر بهذا المظهر؟ ذلك ما كان يشغل بالي ويقلق نفسي! وكان عليَّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملةً في أقصر مدة، لأنني إنما جئت لأقطع برأي في الرجل. كنت ما أزال أخفي عنه قواي، ولكن كان عليَّ أن أتخذ أحد موقفين: فإما أن أرتضيه، وإما أن أرفضه وأنبذه نبذاً كاملاً. وكان الحل الثاني سيؤلمني أشد الألم، لذلك كنت في عذاب وقلق. وسأعترف الآن بشيء: لقد كان هذا الرجل عزيزاً على نفسي!

وأثناء ذلك أقمت معهم حتى الآن في ذلك المنزل نفسه، وكنت أعمل، وكان يصعب عليّ أن أمنع نفسي عن بعض الفظاظات. بل كنت لا أمتنع عنها تماماً.

Twitter: @ketab_n

وبعد انقضاء شهر أصبحت ازداد اقتناعاً، يوماً بعد يوم، بأن التفسير النهائي يجب أن أنشده لديه هو. لقد كان هذا الرجل الصلف ينتصب أمام عينيَّ لغزاً يحير عقلي ويجرح نفسي جرحاً عميقاً. كان هو معي ملاطفاً مدارياً، أما أنا فكنت معه أمَيل إلى المشاجرات مني إلى الملاطفات والأمازيح. كانت جميع أحاديثي معه تشتمل على شيء من الالتباس، أو تشتمل في أقل تقدير على نوع من سخرية غريبة من جانبه. إنه منذ البداية، أي منذ وصولي من موسكو، لم يأخذني مأخذ الجد. ولم أستطع أن أفهم لماذا كان يعاملني على هذا النحو. لعله كان قد اقتنع بأنه من الضروري أن يظل مستغلقاً على فهمي. ولكنني، من جهتي، كنت أرفض أن أتنازل فأسأله أن يعاملني بمزيد من الجد. أضف إلى ذلك أنه كانت له أساليب عجيبة أخاذة لم أعرف ماذا يجب عليَّ أن أعمل إزاءها. وخلاصة القول إنه كان يعاملني كما يعامل مراهق غر، وذلك ما كان يؤلمني احتماله، رغم علمي بأن الأمور لا بد أن تجري هذا المجرى. وكانت نتيجة ذلك كله أنني انقطعت عن الكلام انقطاعاً يشبه أن يكون تاماً. كنت أنتظر شخصاً سيصل إلى بطرسبرج في وسعه أن يكشف لي عن الحقيقة نهائياً: فعلى ذلك كنت أعقد آخر أمل لي. ومهما يكن من أمر فقد وطّنت العزم على القطيعة النهائية، واتخذت جميع الإجراءات اللازمة لذلك. كانت أمي تثير شفقتي. ولكن: «إما هو، وإما أنا». ذلك ما كنت أريد أن أقترحه عليها وعلى أختي. حتى لقد حددت اليوم. وبانتظار ذلك، كنت أذهب إلى المكتب.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

– 1 –

في ذلك اليوم التاسع عشر من شهر أيلول كان علي أيضاً أن أقبض راتب شهري الأول لدى «الشخص» المذكور. إنهم لم يسألوني رأيي في هذه الوظيفة، بل اكتفوا بأخذي إليها في اليوم الأول من وصولي فيما أظن. كان فعلهم هذا على جانب كبير من الفظاظة، حتى لقد أوشكت أن اضطر إلى الاحتجاج. إن الوظيفة التي عُينت لها هي في منزل الأمير العجوز سوكولسكي. ولكن الاحتجاج سيكون معناه القطيعة معهم فوراً، وذلك أمر لم يكن يخيفني أبداً. غير أنه يخالف ما رسمته لنفسي من أهداف أساسية. لذلك قبلت المنصب صابراً، مكتفياً من الدفاع عن كرامتي بالصمت. ويجب أن أبادر فأذكر أن هذا الأمير سوكولسكي، وهو رجل غني ومستشار خاص، لم يكن يمت بقربى إلى الأمراء سوكولسكي بموسكو (الذين آلوا إلى الفقر والبؤس منذ سنين) الذين كان بينهم وبين فرسيلوف دعوى ينظر فيها القضاء. لم يكن بينه وبينهم إلا التشابه في الاسم. ومع ذلك كان الأمير العجوز يهتم بأمرهم كثيراً، ويحب أحدهم حباً خاصاً، وهو ضابط شاب يُعدُّ رئيسَ الأسرة إن صح التعبير. ولقد كان لفرسيلوف، في الماضي، تأثير كبير على أمور هذا الشيخ، وكان صديقه، بل كان له صديقاً غريباً، لأن هذا الأمير المسكين (وقد

Twitter: @ketab_n

أدركت ذلك فيما بعد) كان يخشاه خشية رهيبة، لا حين دخلت في خدمته فحسب، بل في جميع الأوقات فيما أظن، ما ظلت صداقتهما قائمة. على أنهما كانا قد أصبحا منذ زمن لا يلقى أحدهما الآخر. فالفعل الشائن الذي اتهم به فرسيلوف إنما كان يتعلق بأسرة الأمير بالذات. ولكن الحظ شاء أن تكون تاتيانا بافلوفنا هناك، وبواسطتها إنما تم توظيفي لدى العجوز الذي أراد أن يكون معه «شاب» يقيم إلى جانبه في المكتب. وقد اتفق أيضاً أنه أراد أن يرضي فرسيلوف، وأن يخطو هو نحوه الخطوة الأولى، واتفق أن فرسيلوف أراد ذلك أيضاً. هذا ما قرره الأمير العجوز في غيبة ابنته، التي مات عنها زوجها الجنرال، والتي كان لا يمكن حتما أن تسمح له بخطوة كهذه. سوف أتحدث عن هذا الأمر فيما بعد، ولكنني أريد أن أذكر فوراً أن غرابة هذه العلاقة بين العجوز وبين فرسيلوف قد لفتت نظري كثيراً، وجعلتني أحسن الظن بفرسيلوف. قلت لنفسي: إذا استمر رئيس أسرة أهينت كرامتها هذا الاستمرار على احترام فرسيلوف، فذلك دليل على أن الإشاعات التي ذاعت عن دناءة فرسيلوف إشاعات كاذبة، أو إشاعات تحتمل التأويل في أقل تقدير. وهذا بعض ما منعني من الاحتجاج: فلقد كنت آمل أن يمكّنني دخولي في خدمة الأمير من التحقق من هذه الأمور كلها.

كانت تاتيانا بافلوفنا هذه تلعب دوراً غريباً حين وجدتها في بطرسبرج. كنت قد نسيت وجودها أو كدت، ولم أتوقع قط أن أرى لها من خطورة الشأن وعلوّ المنزلة ما رأيت. كنت قد قابلتها حتى ذلك الحين ثلاث مرات أو أربعاً بموسكو. كانت تنبجس لا أدري من أين ولا بأمر مَنْ من الناس، كلما كان يجب أن تسكنني منزلاً، أو أن تدخلني تلك المدرسة الداخلية الكالحة الحقيرة، مدرسة توشار[6]، أو أن تنقلني

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك بسنتين ونصف سنة إلى المدرسة الثانوية، وتنزلني عند نيقولاي سيميونوفتش الذي لا يمكن أن أنسى ذكراه. وكانت، كلما ظهرت، تبقى سحابة النهار، تستعرض غسيلي وملابسي وتمضي معي إلى كوزنتسكي[7] أو إلى السوق في المدينة فتشتري لي الأمتعة اللازمة. وتجهزني بكل ما أنا في حاجة إليه، من آخر علبة إلى آخر موسى. وكانت وهي تفعل ذلك لا تنقطع عن تقريعي وتوبيخي واغراقي بأنواع اللوم، ولا تكف عن امتحاني، وعن ضرب أمثلة لي بأولاد آخرين رائعين من أصحابها أو أقاربها هم من خلق خيالها قائلةً إنهم جميعاً خير مني في رأيها، حتى لقد كانت لا تتورع، والله، عن قَرْصي وضَرْبي ضرباً موجعاً مرات كثيرة. حتى إذا فرغت من إسكاني وتأمين الاستقرار لي اختفت عدة سنين دون أن تترك لي أثراً من آثارها. إن هذه المرأة هي التي تولت الاهتمام بأمري من جديد فور وصولي إلى بطرسبرج، فوظفتني لدى الأمير العجوز. هي امرأة قصيرة القامة جافة الطبع، ذات أنف دقيق حادّ كأنف عصفور، وعينين صغيرتين ثاقبتين تشبهان أعين العصافير أيضاً. ولقد كانت إزاء فرسيلوف أشبه بعبد: تقف منه موقف العابد كأنها أمام البابا، ولكنها تفعل ذلك عن اقتناع وإيمان. على أنني سرعان ما لاحظت، على غير قليل من الدهشة، أن الناس جميعاً بغير استثناء، وفي كل مكان، يمحضونها احتراماً خالصاً، ولاحظت خاصة أن الناس جميعاً بغير استثناء وفي كل مكان يعرفونها. وكان الأمير العجوز سوكولسكي يجلّها اجلالاً عظيماً. وكذلك كان شأنها بين أفراد أسرتها. وكذلك كان شأنها أيضاً مع ولدي فرسيلوف المتعجرفين، ومع أعضاء أسرة فاناريوتوف. ومع ذلك كانت تجني رزقها من الخياطة والغسيل والتطريز وتعمل بأحد المخازن في بطرسبرج. وقد تشاجرنا منذ أول كلمة تبادلناها، لأنها طمعت أن توبخني كما كانت تفعل ذلك

Twitter: @ketab_n

منذ ست سنين، وظللنا نتشاجر كل يوم. ولكن ذلك لم يكن يمنعنا من التحادث أحياناً، واني لأعترف بأنها أخذت تحظى بإعجابي بعد شهر؛ وإنما يرجع ذلك في رأيي إلى ما كانت تتصف به من استقلال الطبع؛ على أنني لم أعلن لها ذلك ولم أشر إليه.

وسرعان ما فهمت أنهم «وظفوني» لدى هذا العجوز المريض لا لشيء إلا لكي «أسليه»، وأدركت أن مهمتي كلها هي القيام بهذا العمل. وقد شعرت من ذلك بشيء من المذلة طبعاً، وما لبثت أن اتخذت إجراءاتي، ولكن ما كاد ينقضي وقت قصير حتى أحدث هذا الشيخ الغريب في نفسي أثراً لم يكن في الحسبان، أثراً هو نوع من الشفقة عليه، وأصبحت في آخر الشهر أحس نحوه بارتباك عجيب: وأياً كان الأمر فقد تركت ما كنت قد عقدت عليه العزم من الفظاظة في معاملته. ولم تكن سنه تتجاوز الستين على كل حال. وكانت قد وقعت له حادثة تشبه أن تكون قصة كاملة. لقد أصيب قبل حوالي سنة ونصف بنوبة عقلية، فبينما كان مسافراً لا أدري إلى أين فقد صوابه أثناء الطريق، فكان ذلك فضيحة تحدث الناس عنها في بطرسبرج. وكما يجدر في مثل هذه الأحوال، أُرسل الرجل إلى الخارج، فما هي إلا خمسة أشهر حتى عاد إلى روسيا سليماً معافى، ولكن متقاعداً. وقد أكد فرسيلوف جاداً (بحماسة واضحة) أن ما حدث لصاحبه لم يكن جنوناً قط، وإنما كان نوبة عصبية بسيطة. وإني لأكاد أشاركه هذا الرأي. إن كل ما كان يبدو على العجوز هو شيء من خفة لا تليق بسنه كثيراً، خفة يقال إنها لم تظهر فيه يوماً قبل ذلك. قالوا إنه كان في الماضي مستشاراً يبذل النصح في مكان ما، وإنه قد عُهد إليه يوماً بالقيام بمهمة فأحسن القيام بها على خير وجه. غير أنني، وقد عرفته منذ شهر، ما كان علي أن أقدِّر أن له كفاءات خاصة تؤهله لأن يكون مستشاراً. وقد لاحظوا (رغم أنني

Twitter: @ketab_n

لم ألاحظ أنا شيئاً من ذلك) أنه أصبح بعد إصابته بتلك النوبة مأخوذاً برغبة قوية في أن يتزوج سريعاً، وأنه خلال هذه السنة ونصف السنة قد فكر في تحقيق هذه الفكرة غير مرة. يظهر أن ممثلي المجتمع الراقي كانوا يعرفون ذلك، وكان هناك من يهتم به. ولكن لما كان هذا الميل لا يتفق كثيراً ومصالح بعض الذين حوله، فقد كانوا يحيطون العجوز بسياج من كل جهة. لم تكن أسرته كبيرة العدد. لقد ترمل منذ عشرين عاماً، وليس له إلا ابنة وحيدة هي أرملة الجنرال التي يتوقعون وصولها من موسكو بين يوم ويوم، وهي شابة كان واضحاً أن أباها يخشى طبعها. غير أن للشيخ طائفة من الأفراد يمتون إليه بقرابات بعيدة، وخاصة من جهة زوجته المتوفاة، وكان هؤلاء جميعاً يعيشون في فاقة وبؤس. يضاف إلى هؤلاء ذلك الجمع من الأيتام الذكور والأناث الذين كان يحسن إليهم ويتصدق عليهم، ويتوقعون أن يجعل لهم في وصيته نصيباً، ويشاركون ابنته في إحكام الرقابة عليه. يضاف إلى هذا أيضاً أنه كان منذ شبابه يتصف بخصلة لا أدري أهي مضحكة أم لا: تلك هي رغبته في تزويج الفتيات الفقيرات. إنه يزوج فتيات فقيرات منذ خمسة وعشرين عاماً: بعضهن تصله بهن قرابات بعيدة، وبعضهن بنات لزوجات أبناء أعمام زوجته، وبعضهن يربطه بهن أنه كان لهن عرَّابا، حتى أن منهن واحدة كانت بنت بواب منزله. كان يكفلهن صغيرات، فيعهد بتنشئتهن إلى مربيات ومعلمات فرنسيات في أول الأمر، ثم يرسلهن إلى أحسن المؤسسات التعليمية، حتى إذا بلغن مرحلة الزواج دفع لهن مهورهن. فكان هؤلاء الناس جميعاً يحومون حوله بغير انقطاع. وطبيعي إذا تزوجت هذه الربيبات أن يلدن بنات، فكانت هاته البنات جميعاً تطمع في رعايته، وكان هو عرَّابهن جميعاً، وكان هذا الجمع كله يتوافد عليه في أعياده مهنئاً مباركاً، وكان هو يجد في ذلك متعة لا تفوقها متعة.

Twitter: @ketab_n

وحين صرت في بيته، سرعان ما لاحظت وكان يستحيل على المرء أن لا يلاحظ ذلك أنه قد استقر في دماغ العجوز اقتناع أليم بأن الناس أصبحوا ينظرون إليه نظرة غريبة، وأصبحوا لا يعاملونه كما كانوا يعاملونه في الماضي أيامَ كان يملك صحته كاملة، كان هذا الشعور لا يبارحه أبداً، حتى أثناء اجتماعات بالناس يسودها أكثر الأجواء مرحاً وفرحاً. لقد أصبح الشيخ مفرط الحساسية سريع التأذي. كان يلاحظ شيئاً في جميع الأعين. وكان يعذبه تعذيباً واضحاً أن يتصور أن الناس لا يزالون يتخيلون فيه جنوناً. حتى لقد كان يتفرس في وجهي أنا مشتبهاً مرتاباً. وأحسب أنه لو علم يوماً أن أحد الناس أذاع أو أكد هذه الإشاعة لأضمر له عداوة قاتلة رغم أنه إنسان لا يعرف قلبه الحقد أبداً. ذلك ما أريد أن يبقى ماثلاً في ذهن القارىء. وأضيف إليه أن هذا أيضاً هو ما جعلني أعزم أمري منذ أول يوم على أن لا أغلظ له القول. حتى لقد كنت أشعر بالسعادة يوم تتيح لي المصادفات أن أُفرحه أو أن أسلّيه؛ ولا أعتقد أن هذا الاعتراف يمكن أن يلقي على كرامتي ظلاً.

ولقد وضع الجزء الأكبر من ثروته في مشروعات. وساهم بعد مرضه في شركة كبيرة قوية جداً. ورغم أن هذا المشروع كان يديره آخرون فقد كان يهتم به اهتماماً شديداً، فهو يحضر اجتماعات المساهمين، وينتخب عضواً مؤسساً، ويشترك في جلسات المجالس، ويلقي خطباً مسهبة، ويناقش ويعترض، يفعل ذلك كله مغتبطاً به راضياً عنه. وكان يعشق إلقاء الخطب: فإن ذلك يتيح للناس أن يلاحظوا قوة فكره على الأقل. ويمكن أن أقول على وجه العموم إنه كان حتى في حياته الخاصة الصميمية يحب كثيراً أن يُدخل في الحديث بعض الأقوال العميقة أو بعض البون مو (Bons mots). ولست أستغرب منه هذا. ولقد كان في الطابق الأدنى من الدار نوع من مكتب منزلي، يعمل فيه مستخدم يسيّر

Twitter: @ketab_n

الأعمال ويجري الحسابات، ويمسك الدفاتر، عدا قيامه بإدارة شؤون المنزل. ولقد كان هذا المستخدم، الذي يشغل عدا ذلك وظيفة رسمية، ينهض بالعمل نهوضاً كافياً، ولكنهم أضافوني إليه تنفيذاً لرغبة الأمير، بحجة أنني سأساعده في عمله. ولكنني ما لبثت أن نقلت إلى حجرة الأمير، فلم يكن أمامي هنالك، ولو من قبيل مراعاة الشكل، لا عمل ولا أوراق ولا كتب.

إنني أكتب الآن كما يكتب إنسان فقد نشوة الحماسة منذ زمن طويل، وعدل عن كثير من الأمور. فكيف أستطيع أن أصور ذلك الحزن (الذي ما زلت أذكره حياً قوياً) الذي ملأ يومئذ قلبي، وكيف أصور خاصة ذلك الاضطراب الذي استبد يومئذ بي حتى قادني إلى حالة من القلق والهياج بلغت من القوة أنني أصبحت مسهداً لا أعرف إلى النوم سبيلاً من نفاد صبري على الألغاز التي كنت أطرحها على نفسي بنفسي.

– 2 –

أن يطلب المرء مالاً فذلك طلب مقرف جداً، ولو كان طلباً لأجر، إذا كان المرء يحس في ركن من أركان ضميره أنه لم يستحق هذا الأجر. وبالأمس همست أمي في إذن أختي، على غير علم من فرسيلوف (حتى لا تسبب ألماً لأندريه بتروفتش) تقول لها إن في نيتها أن ترهن لدى مراهن أيقونة كانت تحرص عليها حرصاً شديداً. وكان لي أجر هو خمسون روبلاً في الشهر، ولكنني كنت أجهل كل الجهل كيف أقبض هذا الأجر. فهم لم يذكروا شيئاً واضحاً عن هذا الأمر حين أسندوا إليَّ هذه الوظيفة. وكنت قبل ذلك بثلاثة أيام قد سألت المستخدم الذي يعمل في الطابق الأدنى: أين أقبض أجري؟ فنظر إليَّ بابتسامة إنسان دهش (وكان لا يحبني) ثم قال:

Twitter: @ketab_n

- هل لك راتب تقبضه؟

وتوقعت أن يضيف إلى سؤاله بعد جوابي على الفور:

- وعلام يكون لك راتب؟

ولكنه اقتصر على الإجابة في جفاف قائلاً: «لا أدري»، ثم انكبَّ على دفتره المخطط الذي كان ينقل إليه حسابات سجّلت على وريقات.

وكان، بالمناسبة، لا يجهل أنني أقوم مع ذلك بشيء من العمل. حتى أنني قبل ذلك بأسبوعين قد أنفقت أربعة أيام كاملة في عمل عهد به إليَّ هو نفسه: وهو نسخ مسودة. وقد اضطررت في الواقع إلى صياغة النص كله صياغة جديدة. وكان الأمر أمر مجموعة من «أفكار» للأمير كان يتهيأ لتقديمها إلى لجنة المساهمين. فكان عليَّ أن أنشئ من شتاتها كلاً منسجماً، وأن أصلح الأسلوب. وقد قضينا بعد ذلك مع الأمير، أنا وهو، يوماً بكامله ننظر في هذه الورقة، فناقشني الأمير مناقشة حارة جداً، ولكنه رضي عنها آخر الأمر. على أنني لا أدري أقدِّمت الورقة إلى لجنة المساهمين أم لا. هذا عدا رسالتين أو ثلاثاً من رسائل الأعمال توليت أنا كتابتها بطلب منه.

وإذا أزعجني أن أطلب أجري، فذلك لأنني كنت قد قررت أن أترك العمل، لشعوري بأنني سأكون مضطراً إلى مغادرته أيضاً بسبب ظروف لا سبيل إلى تحاشيها. حين استيقظت من نومي في ذلك الصباح وأخذت أرتدي ملابسي في غرفتي الصغيرة فوق، شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قوياً، ثم حاولت أن أصطنع الهدوء وعدم الاكتراث، غير أنني حين دخلت على الأمير عاودني ذلك الاضطراب نفسه: ففي ذلك الصباح كان سيصل ذلك الشخص، كانت ستصل تلك المرأة التي أنتظر منها تفسير كل ما كان يقلق خاطري ويعذب نفسي! إنها آخماكوفا، بنت الأمير، أرملة الجنرال الشابة التي سبق أن تحدثت عنها، والتي كانت في

Twitter: @ketab_n

حرب صريحة مع فرسيلوف. أخيراً كتبت هذا الاسم! ولم أكن رأيتها قبل ذلك في يوم من الأيام طبعاً، ولم أكن أستطيع أن أتصور كيف تراني أكلمها إذا أنا كلمتها. ولكن كان يبدو لي (ربما لأسباب كافية) أن مجيئها سيبدد ظلمات تلُفّ فرسيلوف في رأيي. لم أستطع أن أظل رابط الجأش: إنها لحسرة رهيبة أن يجد المرة نفسه منذ الخطوة الأولى جباناً كل هذا الجبن، أخرق كل هذه الخراقة. كان ذلك أمراً عجيباً إلى أقصى حد، وكان كريهاً على وجه الخصوص: ثلاثة مشاعر في آن واحد. إنني أذكر ذلك اليوم وأحفظه على ظهر القلب!

لم يكن الأمير يعرف، بعد، شيئاً عن احتمال وصول ابنته. وكان لا ينتظر وصولها قبل أسبوع. أما أنا فقد عرفت هذا قبل ذلك بيوم، وعرفته بمحض مصادفة. إن تاتيانا بافلوفنا التي تلقت رسالة من أرملة الجنرال قد أفلت لسانها أمامي ففشت السر وهي تتحدث إلى أمي. كانتا تتكلمان همساً، وتتحدثان بألفاظ معماة غامضة، فحزرت كل شيء. بديهي أني لم أكن أصغي إليهما خلسة، ولكنني لم أملك إلا أن أصيخ بسمعي حين رأيت على حين فجأة أن أمي اضطربت اضطراباً شديداً لدى سماعها نبأ وصول هذه المرأة. ولم يكن فرسيلوف وقتئذ في البيت.

لم أشأ أن أنبىء الأمير الشيخ، لأنني كنت قد لاحظت طوال هذه المدة مدى إشفاقه من وصول ابنته. حتى أنه، قبل ذلك بثلاثة أيام، مضى إلى حد القول، على شيء من الاستحياء وفي شيء من الغموض، أنه يخشى من وصولها عليَّ، أو قل إنه يتوقع قيام شجار بينه وبينها بسببي. يجب مع ذلك أن أضيف أنه كان يحتفظ إزاء أسرته باستقلاله وسلطته وتفوّقه، وخاصة في شؤون المال. ولقد كان شعوري الأول تجاهه أنه لم يكن إلا امرأة. ولكنني اضطررت بعد ذلك إلى تصحيح هذا الشعور قائلاً لنفسي: إذا كان امرأة فإنه يحتفظ مع ذلك بشيء من عناد إن

Twitter: @ketab_n

لم يكن رجولة حقيقية. لقد مرت لحظات كان فيها، رغم ما يبدو في طبعه من رخاوة ظاهرة، رجلاً صعب المراس عسير القياد. وقد شرح لي فرسيلوف هذا الأمر بمزيد من التفصيل فيما بعد. وإني لألاحظ الآن، على دهشة مني، أننا لم نكد نتحدث يوماً عن أرملة الجنرال، بل كنا نتحاشى أن نتحدث عنها إن صح التعبير: كنت أنا الذي أتحاشى الخوض في هذا الحديث خاصة، وكان الأمير يتحاشى من جهته أن يتكلم عن فرسيلوف، حتى لقد أدركت أنه لن يجيبني إذا أنا ألقيت عليه سؤالاً من تلك الأسئلة الحساسة التي كانت تقلقني وأهتمّ بها ذلك الاهتمام كله.

وإذا أردتم أن تعرفوا فيم تحدثنا طوال ذلك الشهر قلت: لقد تحدثنا في كل شيء إجمالاً، ولكننا تحدثنا دائماً في أمور غريبة. وكان ما يعجبني في الرجل كثيراً هو تلك اللطافة الطيبة تلك التي كان يعاملني بها. حتى لقد كنت في بعض الأحيان أتأمل هذا الرجل مندهشاً أشد الاندهاش، قائلاً لنفسي: لو قد عاشرته في المدرسة لكان خير رفيق لي. وكان وجهه يخطف بصري في بعض الأحيان أيضاً: إنه جاد أقصى الجد (ويكاد يكون جميلاً)، جاف أشد الجفاف، ذو شعر مجعد أبيض كثيف، واسع العينين، وكان نحيفاً حسن القامة، غير أن وجهه يمتاز بصفة أقرب إلى أن تكون مزعجة، حتى لتوشك أن تكون غير لبقة، فهو ينتقل فجأة من أقصى درجات الجد إلى أقصى درجات المرح انتقالاً لا يمكن لامرىء أن يتنبأ به إذا كان يرى هذا الرجل أول مرة. ولقد قلت ذلك لفرسيلوف، فأصغى فرسيلوف إلى قولي متعجباً، فإنه ما كان يظن أن في وسعي أن ألاحظ ملاحظات كهذه. ولكنه قال لي، كمن يقول عابراً، إن هذه الحالة قد ظهرت في الأمير بعد مرضه فقط.

هناك موضوعان مجردان كان يدور عليهما حديثنا خاصة، أولهما هو الله ووجوده (الله موجود أم لا؟)، وثانيهما هو النساء. لقد كان الأمير

Twitter: @ketab_n

متديناً جداً، حساساً جداً. وعلى جدار مكتبه علقت مجموعة كبيرة من الأيقونات بقنديل أمامها. غير أنه كانت تستبد به في بعض الأحيان نزوة، فإذا هو يشك فجأة في وجود الله، ويقول أشياء عجيبة من أجل أن يحرّضني على الإجابة. وكنت من جهتي قليل الاكتراث بهذه الفكرة عموماً، ولكن هذا لا ينفي أننا كنا كلانا نتحمس تحمساً شديداً وصادقاً في جميع الأحوال. والحق أن هذه الأحاديث التي كانت تدور بيننا قد خلقت في نفسي ذكرى ممتعة إلى هذا اليوم. على أن الحديث عن النساء كان أمتع ما يحب أن يلغو فيه؛ وإذ كنت لا أعشق الحديث في هذا الموضوع كثيراً، فإنني لم أكن له في هذا المجال نِعم الجليس، وكان ذلك يسوؤه في بعض الأحيان.

وقد أثار هذا الموضوع منذ وصلت إليه في ذلك الصباح. وجدته مبتهج النفس، وكنت قد تركته بالأمس مفعماً بالحزن الشديد. وكان عليَّ أن أحل مسألة راتبي في ذلك اليوم قطعاً قبل وصول بعض الأشخاص. كنت أقدّر أن خلوتنا ستقطع حتماً (لم يخفق قلبي في ذلك اليوم خفقاناً شديداً لغير سبب)، وقد لا أجرؤ عندئذ أن أتكلم في مسألة الأجر. ولكن الحديث لم يدُر على شؤون المال، فأحنقتني حماقتي طبعاً، فإذا أنا (وما زلت أذكر ذلك جيداً) أنزعج من سؤال طرحه عليَّ، وكان سؤلاً مفرطاً في المرح، وإذا أنا أنطلق أبسط له آرائي في النساء دفعة واحدة بقوّة وحمية، فما كان منه إلا أن ازداد اندفاعاً وحماسة.

— 3 —

- . . . لست أحب النساء لأنهن فظات، لأنهن خرقاوات، لأنهن لا يملكن روح المبادءة والمبادرة، ولأنهن يرتدين ملابس غير لائقة! بهذه الخاتمة المشوشة أنهيت كلامي الطويل.

Twitter: @ketab_n

- رفقاً بهن يا عزيزي!

كذلك صاح الأمير فرحاً مرحاً إلى أقصى حدود الفرح والمرح، فما زادني ذلك إلا غيظاً وحنقاً.

إني امرؤ لين العريكة سهل المصالحة في الأمور الصغيرة فحسب، أما في الأمور الكبيرة فلا أخضع ولا أرضخ قط. إنك في الشؤون اليسيرة وفي المناقشات الفارغة التي تدور بين الناس، تستطيع أن تجعلني ما تشاء؛ وأنا ألعن هذه الصفة من صفات طبعي دائماً. لقد اتفق لي في بعض الأحيان، بسبب هذه الطيبة الكريهة في طبعي، أن كنت مستعداً لتأييد دعي سخيف من أبناء المجتمع الراقي لا لشيء إلا لأني فتنت برقة حاشيته وحسن تهذيبه، أو أن أدخل في مناقشة مع رجل غبي أحمق، وهو أمر لا يمكن أن يغتفر بحال من الأحوال. كل ذلك لأنني لم أتعلم ضبط النفس، ولأنني عشت وترعرعت في ركني المعزول. وطالما خرجت من ذلك حانقاً غاضباً، حالفاً أن لا أعود إلى مثله، فإذا جاء الغد تكرر الأمر نفسه. من جراء هذا كنت أعد في بعض الأحيان صبياً في السادسة عشرة. ولكنني بدلاً من أن أتعلم ضبط النفس ما زلت حتى اليوم أوثر أن ازداد انحباساً في ركني، ولو في أقوى صورة من صور كره الناس والبعد عن البشر: «أنا إذا شئتَ أخرق، ولكن وداعاً!» أقول ذلك جاداً والى الأبد. على أنني لا أكتب هذا بصدد الأمير، ولا بصدد الحديث الذي جرى بيننا حينئذ.

صحت أقول فيما يشبه المعاداة:

- لست أتكلم لأسرَّك، وإنما أنا أعبّر عن رأيي.

- ولكن كيف تكون النساء فظات، وكيف تُعَدّ ملابسهن غير لائقة؟ ألا إن هذا لأمر جديد!

- هن فظات. اذهب إلى المسرح، اذهب إلى نزهة. إن كل رجل من الرجال يعرف يمينه، فإذا تقابل رجلان أفسح كلاً منهما الطريق

Twitter: @ketab_n

لصاحبه، هذا يتجه إلى يمينه وذاك يتجه إلى يمينه. أما المرأة، أقصد السيدة، لأنني عن السيدات إنما أتكلم، فإنها تقتحمك حتى دون أن تلاحظك، كأنك مضطر أن تنحرف وتخلي لها مكانك. إنني مستعد أن أتنازل عن موضعي لمخلوق ضعيف، ولكن دون اعتبار ذلك كما لو أنه حق مفروض. لماذا هي واثقة تلك الثقة بأنني مضطر إلى إخلاء مكاني لها اضطرارا؟ ذلك ما يغيظ! إنني لا أملك إلا أن أبصق اشمئزازاً في مثل هذه الالتقاءات. ورغم هذا كله يملأن الدنيا صراخاً بأنهن مضطهدات، ويطالبن بالمساواة. كيف يتحدثن عن المساواة وهنَّ يدسنني ويملأن فمي غباراً؟

- غبار؟

- نعم. لأنهن يرتدين ملابس غير لائقة. لا بد أن يكون المرء فاسقاً حتى لا يلاحظ ذلك. إن المحاكم نفسها تعقد جلسات سرية حين تشتمل القضية على أمور غير لائقة: فلماذا يسمح بمثل هذه الأمور في الشارع، حيث الجمهور أكبر عدداً؟ يعلّقن على مؤخراتهنّ ذيولاً تحف وراءهنّ لكي يبرهنّ على أنهن نساء فاتنات: يفعلن ذلك صريحاً ظاهراً بغير استخفاء ولا استحياء! وليس يمكن أن لا ألاحظ ذلك، والشبان يلاحظونه أيضاً، والطفل والصبي الصغير يلاحظانه كذلك. إلا أن هذا لعيب وعار! فليعجب بهن رجال مسنون فاسقون يجرون وراءهن ويخرجون ألسنتهم متلمظين، إلا أن هنالك شبيبة طاهرة يجب أن نحميها. لم يبق إلا أن يبصق المرء تقززاً واشمئزازاً. إن السيدة من هؤلاء تذرع الشارع جيئة وذهاباً، ووراءها ذيل طوله متر يكنس الأرض ويثير الغبار. وعليك أنت الذي يتفق أن تكون سائراً خلفها أن تغذَّ الخطى راكضاً حتى تتجاوزها، أو أن تثب إلى الطرف الآخر، وإلا حشت أنفك وفمك برطلين من الغبار. ثم إنها تجر هذا الحرير وراءها

Twitter: @ketab_n

على الحصى ثلاثة كيلومترات، لا لشيء سوى أن تتبع «الموضة»، ومرتب زوجها من مجلس الشيوخ خمسمائة روبل في العام. ألا إن هذا هو مصدر جميع الرشاوي! إني لأبصق عندئذ بصوت صاخب مسموع.

لقد سجلت للقارىء هذا الحديث على نحو فيه شيء من روح السخرية، وفيه ما كان فيه من حرارة وعنف حين جرى بيني وبين الأمير. ولكن الأفكار التي وردت في ذلك الحديث لا تزال أفكاري إلى الآن.

قال الأمير مهتماً:

- ولم يقع لك شيء؟

- أبصق وأمضي. وطبيعي أن السيدة تفهم ما أعني، ولكنها لا تظهر شيئاً، بل تظل مقتحمة طريقها على فخامة وأبهة وجلال لا تلتفت إليّ ولا تلوي على شيء. مرة واحدة قام شجار بيني وبين امرأتين تجرّان كلتاهما ذيلين في الشارع. لم أنطق بألفاظ نابية طبعاً، ولكنني قلت بصوت عال إن هذين الذيلين يؤذيان بصري.

- قلتَ ذلك هكذا؟

- طبعاً. إن هذه المرأة تدوس أولاً قواعد المجتمع ثم هي عدا ذلك تثير عجاجاً في شارع حافل بالناس: فأنا أتنزه، وشخص آخر يتنزه، وشخص ثالث يتنزه... أياً كان هذا الشخص... سواء أكان اسمه فيدور أم كان اسمه إيفان. ذلك ما قلته بصوت عال. ثم إنني على وجه العموم لا أحب مشية النساء حين تُرى من خلف. قلت ذلك أيضاً ولكنني قلته تلميحاً لا تصريحاً.

- ولكن كيف تفعل ذلك يا صديقي؟ قد تسبب لنفسك أذى. كان في إمكانهما أن تشكواك إلى القضاء.

- مستحيل. ما عسى أن تكون شكواهما؟ رجل مر بجانبهما، كلّم نفسه. إن من حق كل إنسان أن يفصح عن رأيه في الهواء. لقد قلت

Twitter: @ketab_n

كلاماً مجرداً لم أتجه به اليهما. هما اللتان هاجمتاني. أخذتا تقولان كلمات نابية، أسوأ كثيراً من كلماتي. قالتا إنني قليل الأدب، وإنني يجب أن أُحرم من الطعام، وإنني من أتباع المذهب العدمي، وإن عليهما أن تأخذاني إلى الشرطة، وإنني إنما تشبثت بهما لأنهما وحدهما ولأنهما ضعيفتان، وإنني كنت سألوذ بالفرار لو كان معهما رجل. فما زدت على أن طلبت منهما ببرود أن تدعاني وشأني، فإني منتقل إلى الجهة الأخرى. غير أنني أضفت إلى ذلك: «ولكن من أجل أن أبرهن لكما على أنني لا أخشى رجالكما وأنني مستعد لأن استجيب للتحدي، فهاأنذا أتبعكما لأقف على مسافة عشرين متراً من منزليكما أنتظر أن يخرج إليّ رجالكما». وتبعتهما.

- أهذا ممكن؟

- طبعا. كان ذلك حماقة مني، ولكن دمي كان فائراً فوراناً شديداً. هكذا جرتاني وراءهما مسافة تزيد على ثلاث كيلومترات، في جو خانق من الحر الشديد، حتى «معهد الأوانس». ثم دخلتا داراً من خشب بلا طوابق، داراً لائقة والحق يقال، تُرى من خلال نوافذها أزهار كثيرة، وطائران من طيور الكناري، وثلاثة كلاب صغيرة، وطائفة من لوحات ذات أطر. لبثت أمام البيت في وسط الشارع نصف ساعة. فرأيتهما تطلان ثلاث مرات خفية؛ ثم أسدلتا جميع الستائر. وأخيراً خرج من باب السياج موظف طاعن في السن، وإذا صدق ما تدل عليه سحنته قد كان نائماً وأيقظوه عمداً، وكان يرتدي ثوباً مما يلبس في المنزل، أو رداءً بسيطاً على كل حال، فوقف أمام الباب، ينظر إليّ واضعاً يديه وراء ظهره، ونظرت إليه، فحول بصره عني، ثم نظر مرة أخرى وابتسم لي. فأدرت ظهري، وانصرفت.

- ولكن هذا من شأن شيلر[8] يا صديقي. هناك أمر أثار دهشتي

Twitter: @ketab_n

دائماً: إن خديك لحمراوان، ووجهك ليفيض عافية. فهل يشمئز من النساء من كان كذلك؟ أيعقل أن لا تثير فيك المرأة شيئاً وأنت في هذه السن من ريعان الصبا يا عزيزي؟، كنت أنا في الحادية عشرة من عمري حين نبهني المربي الذي كان يتولى تنشئتي أنني أسرف في الاقتراب من تماثيل «حديقة الصيف» للنظر إليها.

- أتريد مني يا أمير أن أذهب إلى «امرأة» ما، إلى «جوزفين» ما، ثم أعود أنقل إليك أخباراً عنها. لا حاجة إلى هذا. أنا أيضاً رأيت عري المرأة كاملاً ولما أتجاوز الثالثة عشرة... ومنذ ذلك الحين بالذات إنما شعرت منه بالاشمئزاز.

- أتقول هذا جاداً؟ أم هازلاً يا cher enfant[9]، إن امرأة نضرة لهي تفاحة تفوح منها رائحة عبقة، فأين في ذلك ما يثير الاشمئزاز كله؟

- حين كنت في مدرستي الداخلية القديمة، عند توشار، أي قبل دخولي المدرسة الثانوية، كان لي رفيق اسمه لامبرت. كان لامبرت هذا يضربني دائماً، لأنه كان أكبر مني بثلاث سنين، وكنت أنا أخدمه وأخلع له حذاءيه. ففي يوم تثبيته بعد التعميد، جاء القس ريجو يزوره بمناسبة تناوله الأول، فرأيت الاثنين يرتمي كل منهما على عنق صاحبه والدموع تهطل من عينيه، ورأيت القس يضمه إلى صدره ويربت على ظهره. فبكيت أنا أيضاً، وحسدته حسداً كبيراً. فلما توفي أبوه خرج من المدرسة الداخلية، ثم لم أره بعد ذلك سنتين بل أكثر، إلى أن لقيته في الشارع مصادفةً في ذات يوم. فقال لي إنه قد يجيء إليَّ زائراً بعد حين. وكنت قد دخلت المدرسة الثانوية، وكنت أقيم لدى نيقولاي سيمينوفتش. فإذا هو يجيئني في ذات صباح، ويريني خمسمائة روبل، ويسألني أن أتبعه. لقد ظل يضربني في الماضي عامين كاملين، ومع ذلك ما يزال في حاجة إليَّ، لا لأخلع له حذاءيه فحسب. وقص عليَّ

Twitter: @ketab_n

أموره كلها. فقال إنه قد سرق هذا المال من أمه في ذلك اليوم نفسه، بعد أن صنع مفتاحاً مماثلاً لمفتاح صندوقها، لأن هذا المال حق له من إرث أبيه شرعاً، ولا يجوز لأمه أن تمنعه عنه بعد الآن. وقال إن القس ريجو قد جاءه أمس مساءً يريد أن يلقي عليه درساً في الأخلاق: دخل إلى البيت، ووقف أمامه، وأخذ يئن ويتذمر، مظهراً أشد الاستياء، رافعاً ذراعيه نحو السماء. «فما كان مني إلا أن استللت سكيني وقلت إني سأذبحه» (ولثغ لفظ هذه الكلمة). ومضينا معاً إلى شارع كوزنتسكي: فأسرَّ إليَّ أثناء الطريق أن أمه لها علاقة بالقس ريجو، وأنه قد لاحظ هو ذلك، وأنه أصبح لا يعبأ بشيء، ويرى أن كل ما يقال عن التناول سخافات. وتكلم كثيراً أيضاً. وكنت أشعر أنا بخوف. واشترى في كوزنتسكي بندقية، وخرجاً مما يحمله الصيادون، وخراطيش وسوطاً مجدولاً، ورطلاً من حلوى، ومضينا نصطاد في الضواحي. ففيما نحن في الطريق صادفنا رجلاً من صيادي الطيور يحمل أقفاصاً، فاشترى منه لامبرت عصفوراً من عصافير الكناري. ولما وصلنا إلى غابة صغيرة أطلق لامبرت العصفور الذي كان لا يستطيع أن يطير بعيداً عقب خروجه من القفص، فأطلق لامبرت عليه من بندقيته ولكنه أخطأه. كانت تلك أول مرة يطلق فيها، ولكنه كان يود أن يشتري بندقية منذ زمن طويل، منذ كنا معاً لدى توشار: كان ذلك حلماً لنا كلينا من ذلك الزمان. كان كالمختنق من فرط الانفعال. إن شعره أسود سواداً مخيفاً، ووجهه أبيض على احمرار بلون الأرجوان فكأنه قناع، وأنفه طويل أقنى كأنوف الفرنسيين، وأسنانه بيضاء وعينيه سوداوان. شد العصفور بخيط إلى غصن من الأغصان، وسدد إليه من مسافة شبر ثم أطلق عليه طلقتين من الماسورتين كلتيهما، فبعثره ألف ريشة

Twitter: @ketab_n

صغيرة... وقفلنا راجعين، فدخلنا أحد الفنادق، واستأجرنا غرفة وأكلنا وشربنا شمبانيا. ووصلت سيدة... أذكر أن بذخ ملابسها قد لفت انتباهي: كانت ترتدي فستاناً حريرياً أخضر خطف بصري. وهناك رأيت كل شيء... رأيت ما حدثتك عنه... ثم عدنا نشرب.. وعاد هو يغيظها ويشتمها. كانت خالعة ملابسها. وأخفى هو ثوبها، فلما ثار غضبها وطالبت بثوبها لترتديه، جلدها بسوطه جلدة قوية على كتفيها العاريتين. فنهضتُ وأمسكت به من شعره إمساكاً قوياً بلغ من الإحكام أنه سقط على الأرض فوراً. فتناول شوكة وأخذ يغرزها في فخذي. فلما أخذت أصيح هرع إلينا الناس، واستطعت أن أهرب. ومنذ ذلك الحين أصبح العري يثير في نفسي التقزز. وصدقني إذا قلت لك إنها كانت رائعة الجمال.

كنت وأنا أقص على الأمير هذه الحكاية أرى وجهه يتقلب بين الانشراح والحزن.

– Mon pauvre enfant! (ولدي المسكين). لقد كنتُ دائماً على اقتناع بأن طفولتك عرفتْ أياماً شقية كثيرة.

– لا يقلقنك شأني، أرجوك.

– ولكنك كنت وحدك. أنت نفسك قلت لي ذلك. أما ذلك الفتى لامبرت فقد رسمت لي صورته.. طير الكناري، ذاك التقديس الذي رافقته دموع على الصدر، ثم قصة أمه مع القس بعد عام.. آه يا عزيزي، مشكلة الطفولة هذه أمر رهيب في عصرنا هذا: فما ظلت هذه الرؤوس الذهبية ذات الضفائر والبراءة تتطور في طفولتها الأولى أمامنا وتنظر الينا بضحكاتها الصافية ونظراتها المشرقة، فإننا نحسبها ملائكة سماء أو عصافير صغيرة رائعة.. حتى إذا انقضى ذلك كله... فقد يحدث أن يكون من الأفضل أن لا يكونوا قد شبوا عن الطوق!

Twitter: @ketab_n

- يا لك من حسّاس أيها الأمير! حتى لكأن لك أولاداً بالفعل. ومع ذلك ليس لك أولاد ولن يكون لك أولاد في يوم من الأيام.

- عجيب، - هتف بذلك وقد تغير وجهه فجأةً وأضاف:

- أول أمس، هه هه! أول أمس تماماً، حين قلت لألكسندرا بتروفنا سينيتسكايا لا شك أنك صادفتها هنا منذ ثلاثة أسابيع حين قلت لها على سبيل المزاح إنني إذا تزوجت الآن فإنني أكون على الأقل مطمئناً إلى أنني لن أنجب.. أجابتني فجأة، بل أجابتني بشيء من حنق قائلةً: «بالعكس، ستنجب؛ إن رجالاً مثلك هم الذين لا بد أن ينجبوا حتماً، وستنجب منذ السنة الأولى، سترى». هه هه! إن جميع الناس يتصورون أنني سأتزوج بغتة. لا أدري لماذا يتصورون ذلك! يجب أن تعترف على كل حال أن كلامها فكه وطريف، رغم أنه قيل في خبث.

- فكه ولكنه مهين.

- أوه cher enfant! هناك أناس لا يجب أن يزعل المرء من كلامهم. وإن روح الفكاهة التي توشك أن تزول هي ما أقدره في الناس أكثر من أي شيء آخر؛ ثم هل يمكن أن يقيم المرء وزناً لكلام تقوله الكسندرا بتروفنا؟

- كيف؟ ماذا قلت؟ هل قلت إن هناك أناساً لا يمكن أن.. أهذا ما قلته؟ صدقت.. ليس كل إنسان يستحق أن يُلتفت إليه. تلك قاعدة رائعة! هذه القاعدة هي بعينها ما أنا في حاجة إليه. لسوف أسجلها. إنك لتنطق أحياناً بحِكَمٍ رائعة أيها الأمير!

وأشرق وجهه كله.

- ألست ترى يا بنيّ العزيز إن روح الفكاهة الحقيقية هي الآن بسبيل الزوال أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. آه.... إنني أنا مَنْ يعرف النساء (بالفرنسية في الأصل) صدقني إن قلت لك إن حياة كل امرأة، مهما

Twitter: @ketab_n

يكن كلامها، ليست إلا بحثا أبديا عن سيد تخضع له. . إن فيها ظمأ إلى الخضوع إن صح التعبير. . احفظ هذا الكلام ولا تستثن منهن واحدة.

- صحيح إطلاقا! رائع! كذلك هتفت متحمساً.

وكان يمكن أن نندفع فوراً في تأملات فلسفية حول هذا الموضوع، مدة ساعة على الأقل، لولا أن شعرت فجأة بأنني كمَنْ لسع، واحمر وجهي احمراراً شديداً. لقد خُيِّل إليّ أنني كنت بامتداح كلامه أتملقه من أجل ماله، وأنه سيظن ذلك على كل حال حين سأطلب إليه أجري. إنني أذكر هذه الواقعة هنا قصداً وعمداً.

- أيها الأمير، سأكون شاكراً لك أجزل الشكر إذا دفعت لي حالاً مبلغ الخمسين روبلاً، وهو راتبي عن هذا الشهر. كذلك سقت الكلام سريعاً بجملة واحدة، مع شيء من الاهتياج يوشك أن يكون فظاظة.

وإني لأذكر (لأنني أتذكر ذلك الصباح كله بأدق تفاصيله) أنه وقع عندئذ بيننا مشهد كريه في حقيقته الصارخة. إنه لم يفهم كلامي في أول الأمر، بل نظر إليّ طويلاً لا يدرك أي مال أعني. كان واضحاً أنه لم يكن يتصور أنني أتقاضى أجراً. وفيم عساي أستحق أجراً؟ صحيح أنه أكد لي بعد ذلك أنه كان قد نسي الأمر، ثم لم يلبث بعد أن فهم، أن تناول خمسين روبلاً مرة واحدة، بسرعة شديدة، واحمرار واضح. فلما رأيت ذلك كله، نهضت من مكاني وأعلنت له جازماً أنني أصبحت لا أستطيع أن أقبل مالاً وأن ما ذُكر لي من أنني سأتقاضى أجراً كان من قبيل الخطأ والخداع من غير شك، وذلك حتى لا أرفض الوظيفة، وأنني أفهم الآن أنه لم يكن من المفروض أن أتقاضى شيئاً، إذ لم يكن لي عمل أقوم به. فارتاع الأمير وحاول أن يقنعني بأنني قدمت له خدمات كبيرة، وبأنني سأقدم له مزيداً من الخدمات، وأن خمسين روبلاً مبلغ زهيد جداً، وأنه سيزيد لي هذا المبلغ، فذلك واجبه، وأنه

Twitter: @ketab_n

كان قد اتفق على هذا مع تاتيانا بافلوفنا، لكنه ارتكب «نسياناً لا يغتفر». فانفجرت وأعلنت جازماً أنني ألطخ شرفي إذا أنا تقاضيت أجراً على قصص فاضحة رويتها له عن ملاحقتي امرأتين حتى «معهد الأوانس»، وقلت إنني لم أدخل في خدمته من أجل أن «أسليه» بل من أجل أن أقوم بعمل جاد مفيد، فإذا لم يكن هنالك عمل أقوم به، فلا بد أن أمضي، الخ الخ. . ما كنت أتخيل أن أحداً يمكن أن يصيبه من الارتياع ما أصاب الأمير بعد سماعه كلماتي القليلة هذه. على أن الأمور انتهت بالطبع كما يلي: كففت عن الاحتجاج، ودس الأمير المبلغ في يدي قسراً. ما يزال جبيني يحمر حين أتذكر أنني قبلت هذا المال! إن كل شيء في هذه الدنيا ينتهي دائماً بصغار وحقارة. والأنكى من ذلك أنه كاد يبرهن لي على أنني كسبت هذا المال كحقّ لا مراء فيه؛ وكنت من الحماقة بحيث صدقته. لقد بدا لي أنه يستحيل عليّ إطلاقاً أن لا آخذه.

يا بنيّ العزيز، يا بنيّ العزيز! Cher enfant, Cher enfant (بالفرنسية في الأصل) هكذا صاح وهو يعانقني ويغرقني بالقبل (ويجب أن أعترف أنني كنت أوشك أن أبكي لا أدري لماذا، ولكنني ملكت زمام نفسي وحبست دموعي؛ وحتى الآن، وأنا أكتب هذه الأسطر، يصعد الدم إلى رأسي ويحمر وجهي) يا صديقي العزيز، أنت لي بمنزلة قريب، وقد أصبحت خلال هذا الشهر جزءاً من قلبي! ليس في «المجتمع الراقي» إلا «ناس»، ولا شيء غير ذلك. إن كاترين نيقولايفنا (ابنته) امرأة لامعة مرموقة، وإني لفخور بهذا، ولكنها كثيراً، بل وكثيراً جداً ما تجرح شعوري يا عزيزي. . أما أولئك البنات وهنّ في غاية الظُّرف واللطف (بالفرنسية في الأصل) وأمهاتهن اللواتي يأتين مباركات مهنئات بعيدي، فهن يحملن إليَّ الهدايا من جميل مطرزاتهن، ولكنهن عاجزات عن قول كلمة واحدة. إنني أملك الآن من هذه المطرّزات، من الكلاب والوعول

Twitter: @ketab_n

المطرّزة، حوالي ستين مخدة. إنني أحبهن كثيراً، أما أنت فإنني أكاد أشعر حين أجالسك بأني مع ابني، ليس مع ابني بل وقُلْ مع أخي، وما أكثر ما أحب أن تجاوبني وترد عليَّ. . إنك على حظ من المعرفة بالآداب. . لقد قرأت. . وأنت قادر على الإعجاب. . .

- أنا لم أقرأ شيئاً، وليس لي من المعرفة بالآداب أي حظ. قرأت ما اتفق أن وقع في يدي. وفي السنتين الأخيرتين لم أقرأ شيئاً البتة، ولن أقرأ بعد اليوم شيئاً البتة أيضاً.

- لماذا؟

- لي أهداف أخرى.

- Cher، لسوف يكون مؤسفاً أن تقول في أواخر حياتك ما أقوله أنا الآن: «أعرف كل شيء، ولكنني لا أعرف أيّ شيء نافع» (بالفرنسية). إنني لا أدري حقاً لماذا عشت! غير أنني. . . مدين لك بأمور كثيرة. . بل لقد كنت أريد. . .

وقطع الأمير حديثه فجأة، واسترخى، وأصبح حالماً. إنه بعد كل هزة (وكانت هذه الهزات يمكن أن توافيه في كل لحظة، لا يعلم سبب ذلك إلا الله)، يفقد في العادة قدرته على التفكير والتصرف بعض الوقت، إلا أنه يعود بسرعة إلى حاله الطبيعية، وكان ذلك كله لا يضيره كثيراً. وظللنا على هذه الحال مدة دقيقة. كانت شفته السفلى، السميكة، متدلية تدلياً تاماً. . والأمر الذي أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر هو أنه ذكر اسم ابنته، وخاصةً بهذه الصراحة كلها. وقد عزوت ذلك إلى ما انتابه من اضطراب الفكر. قال فجأة:

- Cher enfant أنت لا تؤاخذني إذا خاطبتك بصيغة المفرد[10]؟ أليس كذلك؟

- أبداً. على إنني أعترف لك أن ذلك قد ساءني في المرات

Twitter: @ketab_n

الأولى قليلاً، حتى لقد أردت أن أبادلك ذلك فأخاطبك بصيغة المفرد. ولكنني أدركت أن ذلك يكون حماقةً مني، لأنك لا تخاطبني بصيغة المفرد على سبيل الإهانة والإذلال.

ولاحظت أنه كان قد كف عن الإصغاء إليّ ونسي السؤال أساساً، بينما كنت أتكلم.

ورفع إليّ نظرته الشاردة فجأةً وسألني:

- حسناً، كيف أبوك؟

انتفضت. أولا لأنه سمى فرسيلوف أبي، وذلك ما لم يبحه لنفسه يوماً قط. وثانياً لأنه تكلم عن فرسيلوف، وذلك ما لم يحدث من قبل.

قلت في جفاف، وأنا احترق رغبةً في الاطلاع:

- إنه بلا مال، يجتر أفكاراً سوداء مظلمة.

- نعم، إنه بلا مال. وفي هذا اليوم نفسه إنما تُنظر قضيتهم في محكمة النقض والإبرام، وأنا أنتظر الأمير سرجي لأسمع ما سيقوله. لقد وعدني أن يجيء من المحكمة إلى هنا رأساً. إن مصيرهم كله يتقرر اليوم: والأمر أمر ستين ألفاً أو ثمانين. طبعاً أنا أحب الخير لآندره بتروفتش (أي فرسيلوف) أيضاً، وأظن أنه هو الذي سيكسب القضية. ولن ينال الأمراء شيئاً. ذلك هو القانون!

صحت مبهوتاً:

- اليوم يُفصل في القضية؟

لقد امتلأت انبهاتاً حين تصورت أن فرسيلوف لم يتنازل فينبئني بهذا الخبر. وسرعان ما قلت لنفسي «لا شك إذاً أنه لم يُطلع أمي ولعله لم يطلع أحدا قط، هذا هو طبعه!»

وفجأةً وافتني فكرة أخرى فسألت:

Twitter: @ketab_n

- وهل الأمير سوكولسكي الآن ببطرسبرج؟

- منذ أمس. جاء رأساً من برلين، لهذا اليوم.

وهذا نبأ آخر بالغ الخطورة عندي. «سيجيء اليوم إلى هنا، الرجل الذي وجّه الصفعة له!»

- أيْ نعم... (أردف الأمير يقول وقد تغير وجهه فجأة) هل لا يزال يَعِظ... ومن جديد يجري وراء الفتيات، الفتيات الصغيرات اللواتي ليس لهن في الحياة تجارب؟ هه هه! بالمناسبة، يبدو أن حادثاً مسلياً جداً سيقع الآن أيضاً... هه هه!

- من الذي يعظ؟ من الذي يجري وراء الفتيات؟

- أندريه بتروفتش! هل تصدق أنه كان لا ينفك يضايقنا جميعاً: ماذا نأكل؟ في أي شيء نفكر؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل. كان يخيفنا ويقول لنا سعياً إلى تطهيرنا: «إذا كنتم متدينين، فلماذا لا تدخلون الدير؟» هكذا، لا أكثر ولا أقل. Mais quelle idèe! (يا لها من فكرة) لعلها فكرة صحيحة، ولكن أليست قاسية جداً؟ وكان يحب أن يخيفني أنا خاصةً، بالحديث عن قيام الساعة ويوم الحساب.

- لم ألاحظ شيئاً من هذا وقد انقضى شهر على وجودنا معاً.

قلت ذلك نافذ الصبر، وقد ساءني أنه لم يعد إلى رشده وأنه لا يزال يتعثر في كلامه ويسوقه فوضى بغير ترتيب... ذلك أنه أصبح لا يقول الآن هذا الكلام. ولكن صدقني. هذا حق. إنه رجل ذكي لا يُجحد ذكاؤه، وإنه عميق العلم، ما في ذلك شك. ولكن هل هو متزن؟ لقد وقع له هذا كله بعد إقامته في الخارج ثلاث سنين. وإني لأعترف لك بأن ذلك هزني هزاً قوياً. كما هز سائر الناس على كل حال.... إنني أحبّ الله يا بني (بالفرنسية).

إنني مؤمن، مؤمن بقدر ما أستطيع.. ولكنه قد أخرجني عن طوري

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة. . ولنسلم بأنني استعملت وسيلة كان فيها شيء من طيش. . لقد فعلت ذلك عامداً، من قبيل النكاية. ثم أن اعتراضي كان في حقيقة الأمر لا يقل جديةً عنه منذ بدء العالم. قلت له: «إذا كان يوجد كائن أسمى، وإذا كان يوجد وجوداً شخصياً، لا على صورة روح مبثوثة في الخليقة، على صورة سائل مثلاً (لأن هذا أعسر على الفهم أيضاً)، فأين يسكن، إذاً هذا الكائن الأسمى؟ أين مكانه؟» لقد كان هذا الكلام هراء يا صديقي من غير شك. ولكن ألا ترتد جميع الاعتراضات إليه؟ وقد غضب غضباً رهيباً. ذلك أنه كان قد اعتنق الكاثوليكية هنالك.

- سمعت من يقول هذا. ولا شك في أنه كذب واختلاق.

- أؤكد لك أن هذا هو الواقع، وأحلف عليه بأقدس ما أقدِّس. انظر إليه وأنعم النظر! ثم إنك أنت نفسك تقول إنه تبدل. فهل تصدقه يوم كان يرهقنا ذلك الإرهاق كله؟ كان يصطنع أوضاع قديس. فلا يكاد ينقصه إلا أن يقوم بمعجزات. كان يحاسبنا على سلوكنا حساباً عسيراً، أقسم لك. معجزات. . . وإليك شيئاً آخر (بالفرنسية): وسواء أكان راهباً أم زاهداً، فهو هنا يرتدي مسوحاً على كل حال. . . وبعد هذا يتكلم على المعجزات! ألا إنها لرغبة غريبة لدى إنسان من المجتمع الراقي. لست أدعي طبعا أن. . فتلك أشياء مقدسة، وكل شيء يمكن أن يقع. . أضف إلى ذلك أن هذا كله de l’inconnu (من الأشياء المجهولة) لكن الأمر لا يليق بإنسان من المجتمع الراقي. وإني لأقسم لك صادقاً أن هذا الشيء لو وقع لي أو عرض عليَّ لرفضته. هبني أتناول اليوم طعام الغداء في النادي، ثم إذا بي أصنع المعجزات على حين غرة! لسوف يضحكون عليَّ. وقد أفصحت له عن هذا كله عندئذ. . وهل تعلم أنه كان يحمل سلاسل؟

Twitter: @ketab_n

احمر وجهي غضباً فسألته:

- هل رأيت أنت هذه السلاسل؟

- لم أرها، ولكن. . .

- إذاً فتلك أكاذيب، تلك أراجيف باطلة، تلك نميمة أعداء بل قل إنها نميمة عدو واحد، عدو رئيسي لدود، لأنه ليس له إلا عدو واحد، هو ابنتك!

وانفجر الأمير هو أيضاً قائلاً:

- Mon cher أرجوك وألح في الرجاء أن لا يُذكر اسم ابنتي بعد اليوم بصدد هذه الحكاية البشعة!

وهممت أن أنهض. لقد خرج الأمير عن طوره، وكانت ذقنه ترتجف ارتجافاً.

- هذه القصّة البشعة (بالفرنسية في الأصل) أنا لم أصدقها. . . ولم أشأ يوماً أن أصدقها. . ولكنهم يقولون لي باستمرار: صدق، صدق، وأنا. . .

ودخل علينا خادم في تلك اللحظة يبلغ عن قدوم زائرين. فقعدت من جديد.

- 4 -

دخلت سيدتان، بل قل فتاتان. . إحداهما هي زوجة ابن أحد أبناء عمومة المرحومة زوجة الأمير، أو هي شيء من هذا القبيل. إنها واحدة ممن يرعاهن الأمير، وكان قد وهب لها مهراً، وهي تملك ثروة ضخمة (أذكر هذا الآن للمستقبل). أما الثانية فهي آنا أندريفنا فرسيلوفا، بنت فرسيلوف، التي تكبرني بثلاث سنين وكانت تعيش مع أخيها لدى فاناريوتوفا، والتي لم أكن قد رأيتها قبل ذلك إلا مرة واحدة، مصادفةً

Twitter: @ketab_n

في الشارع، رغم إنني كنت قد تشاجرت مع أخيها، مصادفةً كذلك، في موسكو (قد أجيء على ذكر هذه المشاجرة فيما بعد، إذا وجدت متسعاً لذلك، لأنها لا تستحق في الواقع عناء الحديث عنها). إن آنا أندريفنا هذه كانت منذ طفولتها أثيرة الأمير الكبرى (كانت علاقات الأمير بفرسيلوف قد بدأت منذ زمن بعيد جداً). كنت قد بلغت من الاضطراب بسبب ما حدث قبيل دخولهما حدّ أنني لم أنهض، رغم أن الأمير هبّ واقفاً لاستقبالهما. ثم قدرت بعد ذلك أنه سيكون أمراً مخجلاً أن أنهض بعد فوات الأوان، فلبثت جالساً في مكاني. وكنت على وجه الخصوص متحيراً لا أدري ماذا أفعل، بعد أن صرخ الأمير في وجهي هذا الصراخ قبل دقائق ثلاث؛ ولبثت لا أدري أيجب أن أنصرف أم يحسن أن أبقى. ولكن العجوز الطيب كان قد نسي كل شيء على عادته، وانتعش انتعاشاً لطيفاً حين رأى الفتاتين. حتى لقد استطاع أن يسارع فيغيّر سحنته، ويغمزني غمزةً سرية، ليهمس في إذني على عجل قبيل دخولهما قائلاً:

- انظر إلى اولمبيادا جيداً، أنعم النظر فيها... وسأروي لك فيما بعد...

رقد أنعمت النظر إليها فعلاً، فلم أجد فيها شيئاً خاصاً يلفت النظر: هي فتاة متوسطة القامة، بدينة الجسم، حمراء الخدين احمراراً شديداً. وجه ممتع على كل حال، من تلك الوجوه التي ترضي الشهوانيين. ولقد يعبّر عن طيبة، لكنه يعبر أيضاً عن خفايا. ليس الذكاء هو الذي يمكن أن يجعل هذه الفتاة لامعة، وأعني بالذكاء معناه العالي في أقلّ تقدير، لأن المكر واضح في عينيها. إنها لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها. لا شيء فيها يخطف البصر إذاً. فلو كنا في المدرسة الثانوية لوصفناها قائلين: مخدة طرية. (إذا كنت أصفها هذا الوصف المفصّل

Twitter: @ketab_n

كله فما ذلك إلا لأنه سيفيدني فيما بعد).

هذا إلى أن كل ما وصفته حتى الآن مفصلا هذا التفصيل الذي قد يبدو نافلا لا حاجة إليه، إنما هو توطئة لازمة لما سيلي من حديث؛ إني لم أستطع أن أتحاشى ذكر هذه التفاصيل، فإن وجدتم كلامي مملاً باعثاً على السأم فلا تقرأوا.

أما بنت فرسيلوف فهي شخص آخر مختلف كل اختلاف: هي فتاة فارعة القوام، أمَيَل إلى النحافة، ذات وجه بيضاوي واضح الشحوب، ولكن شعرها فاحم غزير؛ عيناها قاتمتان واسعتان. نظرتها عميقة. شفتاها رقيقتان بلون الارجوان. فمها غض نضير. إنها أول امرأة لم توقظ مشيتها في نفسي شيئاً من اشمئزاز. ثم إنها رقيقة الحاشية على شيء من جفاف. وجهها لا يعبر عن طيبة القلب بقدر ما يعبر عن الجد والاتزان. وهي في الثانية والعشرين من عمرها ولا يكاد مظهرها يشبه مظهر فرسيلوف في شيء. ومع ذلك، يشعر المرء، لا أدري كيف، بأن بينها وبينه شبهاً عجيباً خارقاً في تعبير الوجه والسحنة. لا أدري أهي تعد جميلة أم لا، فالأمر هنا أمر ذوق. وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان ملابس بسيطة متواضعة، ليس فيها ما يستحق أن يوصف. وكنت أتوقع أنني لن ألبث أن تجرح شعوري نظرةٌ من فرسيلوفا أو حركة. وتهيأت للأمر. لقد أهانني فعلاً أخوها في موسكو منذ أول لقاء بيني وبينه في هذه الحياة. وما كان يمكن أن تعرفني إذا رأتني، ولكن لا شك أنها كانت قد سمعت عن ترددي على الأمير. فقد كان كل ما ينتويه الأمير أو يشرع فيه أو يقوم به يثير اهتماماً سريعاً ويبدو حدثاً كبيراً لدى كل هذه العصبة من الأقرباء و«المتوسلين»: فكان شغفه بي على حين فجأة أحقَّ باهتمامهم. وكنت أعلم علم اليقين أن الأمير مهتم أشد الاهتمام بمصير آنا آندريفنا، وأنه كان يبحث لها عن خطيب. ولكن العثور على خطيب

Twitter: @ketab_n

لفرسيلوفا كان أعز منالاً من العثور على خطيب لواحدة من أولئك اللواتي كن يطرزن له أغطية الوسائد.

وعلى خلاف كل ما كنت أتوقع رأيت فرسيلوفا، بعد أن صافحتْ الأمير وبادلته بعض الملاطفات الاجتماعية، تلقي عليَّ نظرة استطلاع قوية، حتى إذا لاحظت أنني أرنو إليها ببصري أيضاً، انحنت على حين فجأة مبتسمة. صحيح أنها كانت قد دخلت منذ هنيهة قصيرة، وأنها انحنت كما انحنت في المرة السابقة، ولكن ابتسامتها قد بلغت من اللطف مبلغاً يدل دلالة واضحة على أنها كانت مقصودة. وما زلت أذكر أنني شعرت من ذلك عندئذ بمتعة رائعة تبعث على الدهشة.

تمتم الأمير متلعثماً وقد لاحظ أنها حيتني وأنني لبثت قاعداً:

- وهنا... هنا... صديقي العزيز الشاب أركادي آندريفتش دول... - وانقطع فجأة عن إتمام جملته. لعله خجل أن يقدمني إليها (أي أن يقدم أخاً لأخته). وحيتني المخدة الطرية أيضاً. ولكنني ما لبثت أن غلى الدم في عروقي فجأة، بحماقة شديدة، فوثبت عن مقعدي: هي اندفاعة زهو مصطنع لا معنى لها البتة. هي أنانيّتي نفسها لم تتغيّر!.

قلت أقاطع الأمير مقاطعة عنيفة، ناسياً أنه كان عليَّ أن أرد تحية السيدتين كما تقتضي آداب اللياقة:

- عذرا أيها الأمير، أنا لست آركادي آندريفتش، بل آركادي ماكاروفتش.

- Mais tiens!

كذلك هتف الأمير وهو يلطم جبينه بأصبعه.

ودوَّى فوق رأسي سؤال غبي بطيء، ألقته عليَّ «المخدة الطرية» وهي تقترب مني اقتراباً شديداً:

- أين تعلمت؟

Twitter: @ketab_n

- بموسكو طبعا، في المدرسة الثانوية.

- ها... نعم. قيل لي ذلك. هل التعليم فيها جيد؟

- جيد جداً.

كنت لا أزال واقفا أجيب كما يجيب جندي رئيسه.

لا تدل أسئلة هذه الفتاة على كثير من الخيال طبعاً. لكن هذا لا ينفي أنها وجدت ما يُنسي الآخرين اندفاعتي الحمقاء السخيفة، وما يهدىء اضطراب الأمير، الذي أخذ يصغي، بابتسامة فرحة، إلى الأشياء المرحة التي كانت تهمس له بها فرسيلوفا (كان واضحاً أن الحديث بينهما لم يكن عنّي). ولكن لماذا قدرت هذه الفتاة التي لا أعرفها البتة أن من المفيد أن تقول ما يُنسي حماقتي الهوجاء وغير ذلك؟ إن من المستحيل على المرء أن يصدق أنها فعلت معي ذلك لغير سبب: لا شك أن لها نية. وكانت تنظر إليّ نظرة استطلاع شديد. لكأنها كانت تريد، هي أيضاً، أن أكثر من النظر إليها ما أمكن. أدركت هذا كله فيما بعد، ولم يخطئ ظني.

صاح الأمير يقول فجأة وهو ينهض عن مقعده:

- كيف؟ اليوم؟

فقالت فرسيلوفا مدهوشة:

- إذاً أنت لا تعرف ذلك. (Oh Olympe!) (يا آلهة الأولمب ـ بالفرنسية) كان الأمير لا يعلم أن كاترين نيقولايفنا تصل اليوم. وأضافت فرسيلوفا: لقد ذهبنا إليها وكنا نظن أنها ركبت قطار الصباح، وأنها في الدار منذ زمن طويل. ولكننا التقينا بها أمام سلم الباب، واصلةً من المحطة رأساً، فطلبت منا أن ندخل إليك، وستجيء إلى هنا بعد قليل... بل ها هي ذي قد وصلت!

انفتح الباب الجانبي وظهرت تلك المرأة!

Twitter: @ketab_n

كنت أتخيل وجهها من قبل، وذلك من صورة لها رائعة كانت معلقة في مكتب الأمير. كنت قد درست هذه الصورة طوال ذلك الشهر. وفي حضورها، قضيت في ذلك المكتب ثلاث دقائق، لا أُحول بصري عن وجهها لحظة واحدة. فلو كنت لا أعرف الصورة، ثم سألوني بعد تلك الدقائق الثلاث: «كيف وجدتها؟»، لما أجبتهم، لأنني كنت لا أرى رؤية واضحة.

لقد بقيت لي من تلك الدقائق الثلاث ذكرى امرأة رائعة، كان الأمير يقبّلها ويباركها بيده، ثم إذا هي، على حين غرة، بعد دخولها فوراً على وجه التقريب، أصبحت ترنو إليّ. وسمعت بوضوح كيف دمدم لها الأمير بضع كلمات، وهو يومىء إليّ من غير شك، وكيف أطلق ضحكة صغيرة في حق سكرتيره الجديد وهو يسمِّيني.

ورأيتها تبوِّز وترمقني بنظرة سيئة وتبتسم ابتسامة بلغت من الوقاحة أنني تقدمت خطوة إلى أمام، فاقتربت من الأمير، وتمتمت مرتعشاً ارتعاشاً جنونياً، دون أن أستطيع انهاء كلمة واحدة، مصطك الأسنان فيما أظن:

- إذاً. . أنا. . أنا الآن. . مشغول. . أنا ذاهب.

وأدرت ظهري وخرجت. لم يقل لي أحد شيئاً، ولا الأمير. اقتصروا جميعاً على ملاحقتي بأبصارهم. وقد أسرَّ لي الأمير فيما بعد أنني بلغت من اصفرار الوجه أنه «شعر بخوف».

ولكن، لم يكن هناك داع للخوف!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

- 1 -

لم يكن هناك داعٍ للخوف حقاً: كان هنالك اعتبار واحد يستغرق جميع التفاصيل، كانت هنالك عاطفة قوية تعوض عندي كل ما عدا ذلك.

خرجت وأنا أشعر بنوع من الحماسة. وحين وضعت قدمي في الشارع كنت على استعداد لأن أصدح مغنياً. وبصدفة كأنها ميعاد، كان ذلك الصباح رائعاً: شمس، ومارة، وضوضاء، وحركة، وفرح، وازدحام. كيف لم أشعر بأن هذه المرأة أهانتني؟ وممن كان يمكنني أن أحتمل نظرة كهذه النظرة وابتسامة وقحة كهذه الابتسامة، دون أن أردّ رداً مباشراً مهما يكن أحمق؟ لاحظوا أنها إنما جاءت خصيصاً بنيّة إهانتي بأسرع ما يمكن، من قبل أن تراني. كنت في نظرها «سمسار فرسيلوف»، وكانت مقتنعة آنذاك وقد ظلت على هذه القناعة زمناً طويلاً بعد ذلك. إن فرسيلوف كان يقبض بيديه على مصيرها كله، وكان قادراً على تدميرها في أي ساعة، إذا هو أراد ذلك، بواسطة وثيقة من الوثائق. . أو هذا ما كانت تشتبه فيه على كل حال. كانت المبارزة مبارزة موت. ومع ذلك لم أشعر بأنني أُهنت! كان ثمة إهانة، لكنني لم أحسها! بل أكثر من ذلك! لقد شعرت بفرح. لقد جئت من أجل أن أكره، فإذا أنا أحس إنني بدأت أحبها. «إني لأتساءل هل يستطيع العنكبوت أن يكره الذبابة التي يتربص بها وليقبض عليها؟ أيتها الذبابة المسكينة! يخيل إليَّ أن المرء يحب

Twitter: @ketab_n

فريسته، أو أنه يستطيع أن يحبها على الأقل. هكذا أحببت أنا عدوي. إني لسعيد سعادة عظيمة بأنها جميلة هذا الجمال. إنني يا سيدتي لسعيد سعادة هائلة بأن تكوني متعجرفة هذه العجرفة كلها متكبرة هذا التكبر كله: لو كنت أكثر تواضعاً لكنتُ أنا أقل تلذذاً. لقد بصقت عليَّ، وأنا المنتصر في الواقع. لو أنك بصقت في وجهي فعلاً، لما زعلت، لأنك ضحيتي، ولأنك لي أنا، لا له هو! ما أشد فتنة هذه الفكرة! لا، لا شك في أن شعور المرء شعوراً خفياً بالقدرة أمتع كثيراً من السيطرة الظاهرة. لو كنت غنياً أملك الملايين، لطاب لي، فيما أظن، أن أرتدي ثياباً مرقعة، وأن أوهم غيري بأنني أبأس الناس طراً، وبأنني شبه متسول، وأن أجعلهم يزدرونني ويحتقرونني: حسبي عند ذلك شعوري بثرائي».

بهذا كنت أستطيع أن أفسر أفكاري وفرحي وكثيراً مما شعرت به يومذاك. لكنني أضيف الآن أن ما كتبته في هذه اللحظات أكثر سطحية في واقع الأمر: فالحق أنني كنت أعمق إحساساً وأشد حياءً. وربما ما زلت إلى الآن أشد حياءً في حقيقتي مما أقول ومما أفعل، والحمد لله!

ولعلني أخطأت، إذ أخذت أكتب: إنّ ما يبقى في أعماق النفس من أمور أكثر كثيراً مما يظهر في الكلمات. ما ظل تفكيرك في داخلك، فإنه مهما يكن ضعيفاً يظل أعمق مما حين تفصح عنه. أن تفكيرك، متى عبرت عنه، يصبح أقرب إلى الإضحاك وأبعد عن الصدق. لقد قال لي فرسيلوف إن نقيض هذا لا يصدق إلا على الأشرار من الناس. إن هؤلاء لا يزيدون على أن يكذبوا، فالكذب سهل عليهم. أما أنا فإنني أحاول أن أكتب الحقيقة كلها: وفي هذا صعوبة هائلة!

— 2 —

وفي ذلك اليوم 19، قمت «بخطوة» أخرى أيضاً.

Twitter: @ketab_n

لأول مرة منذ وصولي، كان في جيبي مال، لأن الستين روبلاً التي كنزتها خلال سنتين، كنت قد أعطيتها لأمي، كما سبق أن ذكرت ذلك. ولقد قررت منذ بضعة أيام أن أقوم، متى قبضت راتبي، «بتجربة» حلمت بها زمناً طويلاً. وكنت في اليوم السابق قد قصصت من إحدى الجرائد إعلاناً صادراً عن «المأمور الوزاري لدى مجلس محاكم الصلح في بطرسبرج»، إلخ إلخ... يقول إنه في «19 سبتمبر، عند الظهر، في حي تازان، مديرية رقم كذا، الخ الخ... في العمارة رقم كذا، ستباع بالمزاد العلني أثاثات السيدة لبرخت»، وأن «الجرد وتقدير الأسعار والأشياء المعروضة للبيع، يمكن الاطلاع عليها يوم البيع نفسه»، إلخ إلخ.

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية، فمضيت إلى المكان المعين سيراً على الأقدام. إنني منذ ثلاث سنين لا أتنقل بعربات وقد عاهدت نفسي على ذلك (ولولا ذلك ما استطعت أن أدخر ستين روبلاً). ولم أكن أذهب إلى المزادات يوماً، لم أكن قد أبحت لنفسي هذا بعد، وإذا كانت الخطوة التي أقوم بها الآن هي من قبيل التجريب، فإنني كنت قد قررت أن لا أقوم بها إلا بعد التخرج من المدرسة، وبعد أن أقطع صلتي بالعالم كله، فأعود إلى قوقعتي وأملك حريتي كاملة. صحيح، إنني كنت بعيدا عن أن أكون في «قوقعتي» وأملك حريتي، غير أنني كنت قد قررت أن لا أقوم بمثل هذه الخطوة إلا على سبيل التجربة، من أجل أن أرى، أو من أجل أن أحلم قليلاً، ثم قد لا أعود إلى مثل ذلك زمناً طويلاً بعدئذ، إلى أن يأتي اليوم الذي قد أعود فيه إلى هذا العمل جاداً. كان ذلك المزاد، عند غيري، مزاداً صغيراً لا قيمة له. أما عندي أنا فكان أول خشبة في المركب الذي سافر عليه كريستوفر كولومبس يستكشف أميركا. تلكم هي العواطف التي كانت تملأ نفسي حينذاك.

فلما بلغت المكان نفذت في مدخل من فناء العمارة التي حددها

Twitter: @ketab_n

الإعلان، ودخلت شقة السيدة لبرخت. إن الشقة تتألف من فسحة وأربع غرف صغيرة واطئة السقف. فأما في الغرفة الأولى بعد الباب فكان يزدحم جمهور يبلغ نحواً من ثلاثين شخصاً، نصفهم من الذين يشتركون في المزاد، والآخرون لا يخفى على الناظر إليهم من أول وهلة أن بعضهم فضوليون أو هواة أو أناس يشاركون في المزاد لمصلحة أسرة لبرخت؛ وكان هنالك تجار، وكان هناك يهود يترقبون أن يقعوا على أشياء مذهبّة، وكان هنالك أشخاص «مهندمون»، انطبعت وجوه بعضهم في ذاكرتي انطباعاً عميقاً. وعند الباب المفتوح من الغرفة الواقعة في الجهة اليمنى، وُضعت بين المصراعين منضدة تحول بين المرء وبين أن يستطيع الدخول إلى تلك الغرفة: فهناك كانت توجد الأشياء التي تضمها القائمة والتي تعرض للبيع. وعلى اليسار غرفة أخرى، لكن بابها مغلق ينشق من حين إلى حين فيُرى وراءه شخص ينظر: لا شك أن هذا الشخص هو أحد أفراد أسرة لبرخت الكثيرين، ولا شك أن السيدة لبرخت نفسها كانت تشعر في هذا الوقت بغير قليل من الخجل طبعاً. ووراء المنضدة، في مواجهة الجمهور تماماً، كان يجلس «مأمور الوزارة» متزيناً بشارته، يتولى البيع. وحين وصلت كان قد انتهى من المزاد نصفه تقريباً. فأسرعت أشق لنفسي طريقاً حتى بلغت المنضدة. كانت تُعرض عندئذ شمعدانات من البرونز. ونظرت.

نظرت ثم ما لبثت أن قلت لنفسي: ما عساي أشتري هنا؟ وأين أدس هذه الشمعدانات من البرونز؟ هل يتحقق هدفي؟ أهكذا تتم الأمور؟ هل يصدق حسابي؟ ترى ألم يكن حساب صبية صغار؟ كنت أدير هذه المعاني في نفسي وأنتظر. وذلك هو على وجه التقريب الشعور الذي يحسه إمرؤ أمام مائدة مقامرة قبيل «الحط» حينما يقترب بورقته. إنه يتساءل: «إن في وسعي أن «أحط»، وفي وسعي أن أمضي، وكل شيء

Twitter: @ketab_n

رهن بي». إن قلبه لا يكون قد أخذ يدق دقاً شديداً بعد، ولكنه يكون قد أخذ يتهالك ويخفق خفقاناً خفيفاً وذلك إحساس لا يخلو من لذة. ولكن التردد ما يلبث أن يثقل عليك، فأنت كالأعمى: تمد يدك، تتناول ورقة، ولكن على غير إرادة منك، وربما على رغم إرادتك، كأن شخصاً آخر هو الذي يحرك يدك. وها أنت ذا تقرر أخيراً، «فتحط». إن إحساسك يختلف عندئذ اختلافاً كبيراً، إنه إحساس آخر تماماً، إحساس كبير واسع. لست أتكلم الآن عن المزاد، وإنما أتكلم عن نفسي: من ذا غيري الذي لعله يشعر بخفقان القلب أثناء بيع بالمزاد؟

كان هنالك من يتحمسون، وكان هنالك من يصمتون ويترقبون. وكان هنالك من يشترون ثم يندمون. وما شعرت بشفقة قط على ذلك السيد الذي أخطأ السمع حين المناداة على إبريق من معدن الملخور، فحسبه من فضة فاشتراه بخمسة روبلات بدلاً من روبلين اثنين، حتى لقد أفرحني ذلك كثيراً. وكان مأمور المحكمة ينوّع الأشياء التي يعرضها للبيع: فبعد الشمعدانات، عرض قرطين مما تزين به النساء آذانهن، ثم مخدة من جلد مطرز، ثم صندوقاً صغيراً. ولعله كان ينوع هذا التنويع إما للتنويع ذاته، وإما استجابةً لمطالب الجمهور. لم أستطع أن أنتظر أكثر من دقيقتين، فاقتربت من المخدة أولا، ثم من الصندوق الصغير، لكنني كنت في كل مرة أتوقف في اللحظة الحاسمة: مستحيل أن أشتري أشياء كهذه. وأخيراً ظهر بين يدي المأمور «ألبوم».

«ألبوم، مجلد بجلد أحمر، مستعمل، عليه رسوم بالتلوين المائي والحبر الصيني، في علبة من عاج محفور، مع مغاليق من فضة: روبلان!».

تقدمت: كان الألبوم يبدو أنيقاً، إلا أن في شغل عاجه عيباً. كنت الشخص الوحيد الذي مضى ينظر في «الألبوم». صمت الجميع. ما من

Twitter: @ketab_n

منافس. كان في إمكاني أن أسِلّ الألبوم من علبته لأدقق النظر فيه، لكنني لم أستعمل هذا الحق، وأشرت إلى المنادي بيد ترتعش:

- روبلان وخمسة كوبيكات.

كذلك قلت وأسناني تصطك فيما أظن.

وقع المزاد عليَّ. فسحبت الثمن فوراً من جيبي، دفعته وأخذت الألبوم، ومضيت إلى ركن من الغرفة، فأخرجته من علبته، وأخذت أتأمله محموماً مسرعاً: إذا صرفنا النظر عن العلبة فإن «الألبوم» أبأس «ألبوم» في الدنيا بأسرها. . هو ألبوم صغير ليس أكبر من ورقة صغيرة من أوراق الرسائل، نحيل شديد النحول، قد حال تذهيب غلافه وأطراف أوراقه أو كاد، يشبه تماماً تلك «الألبومات» التي كنا نراها لدى الفتيات بعد انتهائهن من المعاهد الداخلية. وقد رسمت عليه بالتلوين المائي والحبر الصيني رسوم معابد فوق جبال، ملائكة الحب، وغدير تسبح في مائه بجعات؛ وكتبت كذلك أبيات شعر:

أنا ذاهب مسافر بعيدا

أنا تارك موسكو ولن أعود

تحية الوداع يا أحبتي

إلى بلاد الكرم صارت وجهتي

(لقد بقيت هذه الأبيات في ذاكرتي!) وخلصت من ذلك إلى أنني «أخفقت إخفاقاً ذريعاً». إذا كان هناك شيء لا حاجة بأحد إليه في العالم كله، فهو هذا الشيء عينه.

قلت لنفسي: «لا ضير. . إن أول رهان خاسر دائماً. حتى لقد يكون خسراني هذا بشير خير».

لقد كنت فرحاً حقاً.

وفجأة دوى صوت في إذني قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- آ. . . وصلتُ متأخراً. هو معك؟ هل اشتريته؟

- كان صوت سيد يرتدي معطفاً أزرق، حسن القامة، جميل الهندام. لقد جاء متأخراً. وأضاف يقول:

- نعم، وصلت متأخراً. يا لها من خسارة! بكم اشتريته؟

- بروبلين وخمسة كوبيكات.

- خسارة! ألا تتنازل لي عنه؟

فهمست في أذنه قائلاً وقد أخذ قلبي يخفق:

- لنخرج!

وخرجنا إلى الفسحة أمام باب المنزل.

- أتنازل لك عنه بعشرة روبلات.

قلت له ذلك بينما كانت تسري في ظهري قشعريرة برد.

- عشرة روبلات! اسمح لي ما هذا الذي تقول؟

- أنت حر.

نظر إليّ الرجل ملياً. كنت حسن الملبس، فما أشبه أن أكون يهودياً أو متاجراً. قال:

- ولكن، حنانيك! هذا ألبوم عتيق لا قيمة له! فيم عساه ينفعك؟ إن العلبة في الواقع لا تساوي شيئاً. ولن تجد من يشتريه منك.

- ومع ذلك فأنت تريد أن تشتريه.

- لسبب خاص، عرفته أمس فقط. أنا إنسان فريد. . لن تجد أحداً مثلي! تلطّف قليلاً!

- كان يجب أن أطلب خمسة وعشرين روبلاً، ولكن لما كان يمكن أن تعدل عندئذ عن شرائه فقد اكتفيت بطلب عشرة روبلات، زيادةً في الضمان. ولن أخفض الثمن كوبيكاً واحداً.

قلت ذلك ثم أدرت ظهري وانصرفت.

Twitter: @ketab_n

فأدركني في فناء الدار، وقال:

- خذ أربعة روبلات، بل إليك خمسة!

فظللت أسير دون أن أجيب.

- طيب. خذ! قال ذلك وهو يمدّ إليَّ عشرة روبلات، فأعطيته «الألبوم».

قال:

- أعترفُ أن هذا ليس من الشرف في شيء. شيء تشتريه بروبلين ثم تبيعه بعشرة!

- ولماذا لا يكون من الشرف في شيء؟ هذا سوق!

- أي سوق؟ (وأخذ يغضب).

- حيث يكون طلب يكون سوق. لولا أنك طلبته لما قدّر لي أن أبيعه بأربعين كوبيكاً.

جهدت أن لا أنفجر ضاحكاً، وأن أحتفظ بمظهر الجد، فضحكت في داخل نفسي ضحكت لا عن حماسة، ولكن دون أن أعرف لماذا! وكنت كمن تختنق أنفاسه قليلاً.

جمجمت أقول له، رغم إرادتي تماماً، ولكن بلهجة الصديق، وعلى شعور بالمودة له:

- اسمع ما سأقوله لك. إن المرحوم جيمس روتشيلد الباريسي، الذي خلف تركة تقدر بمليار وسبعمائة مليون فرنك (هز الرجل رأسه موافقاً)، حين علم في شبابه، مصادفةً، قبل غيره ببضع ساعات، بمقتل الدوق بيرى)[11]، أسرع يبلغ من يجب إبلاغه، فكسب بذلك عدة ملايين في طرفة عين. هكذا يُعمل!

- أأنت إذاً روتشيلد؟

كذلك صاح مستاءً كأنه يوجه كلامه إلى غبي أبله.

Twitter: @ketab_n

خرجت من البيت نشطاً. مسعى واحد بربح سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكا! لقد كانت مجازفتي حمقاء، كانت لعبة طفل. إنني أسلم بذلك. ولكنها كانت تتفق مع فكرتي ولا يمكن إلا أن تملأ نفسي انفعالاً عميقاً. . . ولكن لا داعي إلى وصف عاطفتي. إن الورقة النقدية في جيب صدرتي، وأنا أدس إصبعي في الجيب أتلمسها وأجسها، وأسير هكذا لا أستل يدي من جيبي. حتى إذا صرت على مسافة مائة متر من الدار، تناولت الورقة النقدية أنظر فيها، وأتفحصها، حتى لقد اشتهيت أن أقبلها. وفجأة توقفت أمام أحد المنازل عربة. ففتح البواب الباب وصعدت إلى العربة سيدة باذخة المظهر، في ريعان الصبا، بارعة الجمال، واسعة الثراء، ترفل في حرير ومخمل، ويبلغ ذيل ثوبها متراً ونصف متر. وفجأة أفلتت من يديها محفظة جميلة صغيرة فسقطت على الأرض. واستقرت السيدة في موضعها من العربة، فمال الخادم على الأرض يريد أن يتناول المحفظة، ولكنني أسرعت فالتقطتها بوثبة سريعة، ومددتها إلى السيدة رافعاً قبعتي (وهي قبعة عالية. لقد كنت أرتدي ملابس شاب يعنى بهندامه). فقالت لي السيدة في وقار وتحفظ، لكن مع ابتسامة لطيفة غاية اللطف: «Merci يا سيدي». ومضت العربة. وقبّلت ورقة العشرة روبلات.

– 3 –

في ذلك اليوم نفسه كان عليَّ أن ألقى إيفيم زفيريف، وهو واحد من رفاقي في المدرسة تركها ليدخل مدرسةً خاصةً ببطرسبرج. إنه لا يستحق أن أصفه الآن، ولم تكن تربطني به أي صداقة، ولكنني وجدته في بطرسبرج. إن في وسعه (وذلك بسبب ظروف لا تستحق أن تذكر أيضاً) أن يدلني على عنوان رجل اسمه كرافت، كنت في حاجة ماسة

Twitter: @ketab_n

إليه، فور رجوعه من فلنو. وكان زفيريف ينتظر وصوله في ذلك اليوم نفسه، أو في الغد، وأعلمني بذلك أول أمس. كان يجب عليَّ أن أذهب إلى بطرسبرجسكايا ستوروونا[12]. لكنني لم أكن أشعر بتعب.

وجدت زفيريف (وهو في التاسعة عشرة من عمره أيضاً)، في فناء منزل عمته التي كان يقيم عندها مؤقتاً. كان قد تناول غداءه، فهو يتنزه الآن في الفناء فوق عكازين طويلين. فأسرع ينبئني أن كرافت وصل أمس، وأنه نزل شقته القديمة هنا، في بطرسبرجسكايا ستوروونا، وأنه يريد هو أيضاً أن يراني في أقرب وقت ممكن، لأنه يحمل نبأ مستعجلاً يريد أن ينقله إليَّ وختم إيفيم كلامه بقوله:

- وسيسافر إلى مكان ما من جديد.

ولما كان لقائي كرافت على جانب عظيم من خطورة الشأن عندي، في الظروف الراهنة، فقد رجوت إيفيم أن يقودني إليه فوراً، ما دام يقيم في شارع صغير مجاور، على بعد خطوتين من هناك. ولكن زفيريف قال إنه صادفه منذ ساعة ذاهباً إلى درجاتشيف. وأردف يقول:

- فلنذهب إلى درجاتشيف! ما لك تتنصل دائماً؟ أأنت خائف؟

وبالفعل فقد يتأخر كرافت عند درجاتشيف، فأين عساي أجده بعدئذ؟ ولم أكن أخاف درجاتشيف، لكنني لا أحب أن أذهب إليه، رغم أن إيفيم حاول أن يأخذني إليه غير مرة. هذه هي المرة الثالثة على الأقل. وكان يطرح عليَّ دائماً هذا السؤال: «أأنت خائف؟» مبتسماً ابتسامة خبيثة. ولم يكن الأمر أمر خوف مع ذلك، أقول هذا سلفاً، وإذا كنت أشعر بشيء من خشية، فذلك شأن آخر. وقررت هذه المرة أن أذهب إلى درجاتشيف وكان المكان على مسافة خطوتين أيضاً. سألت إيفيم أثناء الطريق إذا كان لا يزال عازماً على الهروب إلى أميركا[13]. فأجاب يقول ضاحكا ضحكة يسيرة:

Twitter: @ketab_n

- قد أتريَّث.

لم أكن أحبه كثيراً، بل لم أكن أحبه البتة. إن شعره يشبه من شدة شقرته أن يكون أبيض وإن وجهه مدوّر مسرف في بياضه إلى حد غير لائق، يكاد يكون وجه صبي صغير. ورغم أنه أطول مني، فلقد كان من المستحيل أن يحسبه المرء فوق السابعة عشرة من العمر. أما أن يقوم بينك وبينه حديث فذلك مستحيل.

سألته لأضفي الجدية:

- وماذا يجري هنالك؟ أما تزال تجتمع عنده جمهرة غفيرة؟

فقال مرة أخرى ضاحكاً:

- ولكن لماذا لا تزال خائفا؟

أجبت غاضباً:

- كفاك سخفاً!

- لا جمهرة ولا شيء من ذلك. ليس يجيء إلا أصحاب. ما من غريب واحد، اطمئن بالا[14].

- وفيم يعنيني أن يكونوا أصحاباً أو غرباء؟ ثم، ألست أنا غريباً هناك؟ كيف تريد أن يثقوا بي؟

- يكفي أنني أقودك أنا إليهم. لقد سمعوا عنك. ومن الجائز أيضاً أن يقول كرافت رأيه فيك.

- اسمع، هل سيكون فاسين هناك؟

- لا أدري.

- إذا كان هناك فالكزني بكوعك ودلني عليه. متى دخلنا فوراً. سمعت؟

كنت قد سمعت كثيراً عن فاسين، وكنت أهتم به منذ زمن طويل.

كان درجاتشيف يسكن مع زوجته وأختها وإحدى قريباتهما في جناح

Twitter: @ketab_n

صغير بفناء المنزل الخشبي الذي تملكه امرأة أحد التجار، ولكنه كان يحتل الجناح كله. وكان الجناح يضم ثلاث غرف جميلة. إن ستائر النوافذ الأربع جميعها مسدلة. والرجل فني، شبه مهندس، له وظيفة في بطرسبرج. وقد علمت مصادفةً أنهم يعرضون عليه منصباً هاماً في المحافظة، وأنه كان يستعد للالتحاق بمنصبه هناك.

فما كدنا ندخل حجرة المدخل حتى سمعت أصواتاً تلعلع. لكأنهم في مناقشة حادة. وكان أحد ما يصيح باللاتينية: «ما لا تشفيه الأدوية يشفيه الحديد. وما لا يشفيه الحديد تشفيه النار».

شعرت بقلق حقاً. لم أكن قد تعودت صحبة المجتمع، أياً كان هذا المجتمع. صحيح إنني كنت أخاطب زملائي في المدرسة بصيغة المفرد، ولكن يمكنني أن أقول إنه لم يكن لي أي رفيق، فلقد جعلت لنفسي ركناً أنزوي فيه. على أن هذا ليس هو ما أقلقني يومئذ. وكنت قد وعدت نفسي، تحوّطاً، بأن لا أشارك في أي مناقشة، وأن لا أقول من الكلام إلا ما لا بد من قوله، حتى لا يستطيع أحد أن يخرج برأي عني. كنت قد قررت خاصة أن لا أناقش. . . خاصة أن لا أناقش.

كان في الغرفة سبعة أشخاص، فإذا عددت النساء صاروا عشرة. إن درجاتشيف في الخامسة والعشرين من عمره، وهو متزوج، ولزوجته أخت وقريبة أخرى كانتا تقيمان عنده أيضاً، أثاث الغرفة مهمل ولكنه كافٍ بل ونظيف. وعلى الجدار تُرى صورة مطبوعة بطريقة الليتوغرافيا، ولكنها لا قيمة لها؛ وفي الزاوية أيقونة لا يزينها معدن، لكن أمامها قنديلاً مشتعلاً. تقدم درجاتشيف يستقبلني، فصافحني، وقدم إليَّ مقعداً.

- اجلس. أنت هنا بين أصحابك.

وفي الحال أضافت سيدة شابة، لطيفة الوجه متواضعة الملبس، تقول:

Twitter: @ketab_n

- تفضل، أرجوك.

ثم خرجتْ فوراً بعد أن حيتني تحية خفيفة. إنها إمرأته. ويظهر أنها كانت تشارك في المناقشة. وقد مضت الآن تطعم طفلها. ولكن بقيت في الغرفة سيدتان، إحداهما قصيرة القامة جداً، في نحو العشرين من عمرها، ترتدي ثوباً أسود، لا بأس به؛ والثانية في نحو الثلاثين، جافة المظهر ثاقبة العينين. وكانت السيدتان جالستين، تصغيان إصغاء شديداً، لكنهما لا تشاركان في الحديث.

أما الرجال فقد كانوا جميعاً واقفين، إلا أنا وكرافت وفاسين اللذين سمّاهما لي إيفيم فوراً، لأنني أرى كرافت أول مرة أيضاً، فنهضت مقترباً منه للتعارف. لن أنسى أبداً وجه كرافت: ما من جمال خاص يلفت النظر، غير أن في وجهه رهافة خالية من أي خبث أو مكر، إلى وقار شخص يتجلى واضحاً في كل شيء. هو في السادسة والعشرين من العمر، نحيل بعض النحول، أطول من متوسط طول الرجال، أشقر، توحي إليك سحنته بالجد على رقة وعذوبة. إن نوعاً من هدوء يشع في شخصه كله. ومع ذلك أقول لك، إذا شئت أن تعرف هذا، إنني لا أرضى أبداً أن استبدل بوجهي الذي قد يكون حتى مبتذلاً للغاية، وجهه ذاك الذي بدا لي على هذا الجانب العظيم من الفتنة والإغراء. لقد كان في وجهه شيء لا أتمنى أن يكون في وجهي، شيء لا أدري ما هو؛ شيء من هدوء مفرط من الناحية الأخلاقية، شيء من كبر خفي يجهل نفسه. وعلى كل حال فأظن أنني لم أكن قادراً على أن أحكم في الأمر على هذا النحو تماماً. إنما الآن، أي بعد وقوع الحادث، يبدو لي أن حكمي قد قام على هذا الأساس حينذاك. قال كرافت:

- أنا سعيد بمجيئك. وعندي رسالة تهمك. سنلبث هنا لحظة، ثم نمضي إلى بيتي.

Twitter: @ketab_n

كان درجاتشيف متوسط القامة، قوي الجسم، أسمر اللون، عريض المنكبين، ذا لحية كبيرة. إنك ترى في نظرته الذكاء العملي، والرزانة في كل شيء، وشيئاً من تروٍ لا يخطئه قط. ومع أنه صامت أكثر الوقت، فقد كان واضحاً أنه هو الذي يدير دفة الحديث. أما فاسين فلم يلفت وجهه نظري كثيراً، رغم كل ما كنت قد سمعته عن ذكائه النادر: شاب أشقر اللون، واسع العينين، لونهما رمادي أشهب، شديد انبساط الوجه، ولكن على شيء من صلابة مفرطة. يشعر المرء أنه ليس بالرجل الاجتماعي كثيراً، لكن نظرته ذكية حقاً، أذكى من نظرة درجاتشيف، وأعمق منها، أي أذكى من نظرات سائر الحضور، ولكن من الممكن أنني أبالغ الآن في ذلك. وأما الآخرون جميعاً من هؤلاء الشباب فإنني لا أتذكر من بينهم إلا اثنين: واحداً طويل القامة، برونزي اللون، له شامات سوداء، كثير الكلام، في نحو السابعة والعشرين من العمر، هو معلم أو ما يشبه ذلك؛ وفتى في مثل سني، يرتدي عباءةً قصيرة واسعة مما يلبسه الفلاحون الروس، مخدد الجبين، شديد الصمت لا يتكلم، ولكنه يصغي إصغاءً قوياً. وقد اتضح فعلاً أن أصله من الفلاحين.

– لا . . ما هكذا يجب أن تطرح المسألة! فيما يتعلق بالبراهين الرياضية، ليس لي ما أعترض عليه. ولكنني، فيما يتصل بهذه الفكرة، مستعد لقبولها بغير براهين رياضية. . .

كذلك بدأ يتكلم المعلم ذو الشامات السوداء، يستأنف الحديث الذي كانوا آخذين فيه منذ قليل متحمساً أكثر من سائر الحضور.

فقاطعه درجاتشيف صاخباً يقول:

– مهلا يا تيخوميروف، إن الحضور الجدد لا يعرفون الموضوع

وهنا التفت فجأة نحوي وحدي (وإني لأعترف أنه إذا كان ينوي أن يمتحن الشخص «الجديد»، أو كان يريد أن يجبرني على الكلام، فقد

Twitter: @ketab_n

أحسن اختيار الوسيلة البارعة؛ لقد شعرت بذلك رأساً وتأهبت) الموضوع هو أن السيد كرافت، وهو معروف لدينا جميعاً بصلابة طبعه وقوة اقتناعاته، قد انتهى من النظر في أمر عادي جداً إلى استخلاص نتيجة خارقة أذهلتنا جميعاً. لقد انتهى إلى أن الشعب الروسي شعب من الدرجة الثانية. . .

صاح أحدهم:

- بل من الدرجة الثالثة!

- . . من الدرجة الثانية، شعب قُدِّر له أن يكون مجرد مادة لعرق أسمى وأنبل، فليس له أي دور مستقل في مصائر الإنسانية. وعلى أساس هذه النتيجة - التي ربما كانت صادقة - وصل السيد كرافت إلى أن نشاط أي روسي، أياً كان، لا بد أن تشله هذه الفكرة، فلا بد أن تُسبل أذرع الجميع إن صح التعبير و. . .

قال تيخوميروف نافد الصبر:

- اسمح لي يا درجاتشيف. ما هكذا يجب أن تطرح المسألة. (فأذعن درجاتشيف وترك له أن يتم كلامه) فقال تيخوميروف - لما كان كرافت قد قام بدراسات جدية، واستخرج مستنداً على علم الفيزيولوجيا استنتاجات يعدّها رياضية، ولعله ضيّع سنتين من وقته على فكرته (التي لا أرفض أن أقبلها هادئا a priori)[15] فلذلك، أي بسبب مخاوف كرافت وجديته، فإن الأمر يبدو لي ظاهرة خارقة. إن كل شيء يعونا إلى التساؤل عما عجز كرفت عن فهمه، وبهذا إنما يجب أن نُعنى به الآن، أقصد أن علينا أن نعرف سبب عجز كرافت عن فهم هذه المسألة. هذه ظاهرة يجب أن ننظر فيها، فنرى أهي حالة مفردة من اختصاص الطب، أم هي خاصةٌ يمكن أن تتكرر تكرراً طبيعياً في حالات أخرى. تلكم مسألة تهم القضية المشتركة. أما فيما يتعلق بروسيا فأنا أصدِّق كرافت،

Twitter: @ketab_n

بل أقول إن ذلك يسرني؛ فإذا سلَّم جميع الناس بهذه الفكرة فكَّت هذه الفكرة الوثاق الذي يقيد أيدينا، وحررت كثيراً من الناس من وهم الوطنية. . .

قال كرافت بشيء من جهد:

- لا شأن لهذا بالوطنية!

وكان يبدو عليه أن هذه المناقشات كلها تضايقه وتزعجه.

قال فاسين الذي ظل صامتاً مدة طويلة:

- وطنية، لا وطنية، دعوا هذا جانباً.

صاح الأستاذ (كان وحده يصيح، أما الآخرون فكانوا يتكلمون بصوت خافت):

- ولكن قولوا لي: هل يمكن للنتيجة التي وصل إليها كرافت أن تضعف التطلع إلى العمل المشترك الذي يجب أن تحققه الإنسانية؟ لنسلم جدلاً بأن روسيا قد قُدِّر لها أن تكون في المرتبة الثانية، أفلا يمكن العمل من أجل غيرها. ثم كيف يمكن أن يظل كرافت وطنياً إذا فقد الإيمان بروسيا؟

قال صوت من الأصوات:

- وفوق ذلك فهو ألماني، وليس روسياً.

- أنا روسي. قال كرافت.

- تلك مسألة لا تتعلق بصميم الموضوع.

كذلك قال درجاتشيف الذي قاطع الأستاذ.

قال تيخوميروف متابعاً كلامه كأنه لا يريد أن يسمع شيئاً:

- اخرجوا من الحيز الضيق لفكرتكم. إذا لم تكن روسيا إلا مادة لعروق أسمى وأنبل، فلماذا لا تقبل روسيا هذا الدور؟ إنه دور مشرف على كل حال. لماذا لا نرضى بهذه الفكرة إذا ما اتسعت حدود

Twitter: @ketab_n

المسألة؟ إن الإنسانية على أبواب تغيرها، وقد بدأ هذا التغير فعلاً. لا بد أن يكون المرء أعمى حتى لا يرى المهمات التي سيكون علينا أن ننهض بها. دعوا روسيا وشأنها إذا كنتم قد أصبحتم لا تؤمنون بها، واعملوا من أجل المستقبل، مستقبل شعب لمَّا يزل مجهولاً، ولكنه سيتألف من الإنسانية كلها، دون تفريق بين عروق. ستموت روسيا في يوم من الأيام على كل حال. إن الشعوب، مهما تكن موهوبة، تعيش ألفاِ وخمسمائة سنة، أو ألفي سنة في أقصى تقدير. وما من فرق تقريباً بين ألفي سنة ومائتي سنة. إن الرومانيين لم يبقوا ألفاً وخمسمائة سنة على حالة الحياة، وإنما تحولوا هم أيضاً إلى مادة. لا وجود لهم منذ زمان طويل، لكنهم أورثوا الإنسانية فكرة، وكانت هذه الفكرة عنصر تقدم للإنسانية. كيف يمكن إذاً أن نقول لإنسان إنه لم يبق هنالك شيء يُعمل؟ لا أستطيع أن أتصور حالة من الحالات لم يبق فيها شيء يُعمل! اعملوا من أجل الإنسانية، وانسوا كل ما عدا ذلك! ثمة أعمال لا يكفيها العمر إذا أنتم أنعمتم النظر!

- يجب على المرء أن يعيش وفق قانون الطبيعة والحقيقة.

كذلك قالت السيدة درجاتشيفا من وراء الباب. كان الباب مشقوقاً، فهي تُرى واقفةً أمام شق الباب، حاضنةً طفلها، مغطاة الصدر نصف تغطية، مصيخةً بسمعها في حماسة.

أصغى إليها كرافت وهو يبتسم ابتسامة خفيفة. وأخيراً، قال وقد بدا على وجهه الإعياء، ولكن في صدق قوي:

- أنا لا أفهم كيف يستطيع المرء، إذا هو كان خاضعاً لتأثير فكرة مسيطرة يرتبط بها عقله وقلبه ارتباطاً تاماً، أن يعيش أية حياة خارج هذه الفكرة؟

- ولكن إذا قيل لك بالحجج المنطقية والرياضية إن النتيجة التي

Twitter: @ketab_n

انتهيت إليها خطأ، وإن فكرتك كلها خطأ، وإنه لا يحق لك البتة أن تبعد نفسك عن العمل المشترك المفيد لمجرد أن روسيا محكومة حكماً لا راد له على أن تأتي قيمتها في المرتبة الثانية، وإذا أشير لك إلى أفق لا نهاية له ولا حدود، بدلاً من الأفق الضيق الذي يحجب نظرك، وإذا أمكن بدلاً من الفكرة الضيقة هذه عن الوطنية. . .

قال كرافت وهو يحرك يده متململاً:

- سبق أن قلت لكم إن الامر ليس أمر وطنية.

فتدخل فاسين فجأة يقول:

- ها هنا سوء تفاهم. الخطأ هو أننا لا نجد لدى كرافت مجرد استنتاج منطقي، وإنما نجد لديه استنتاجاً انحدر فصار إلى عاطفة إن صح التعبير. طبائع البشر ليست واحدة: كثير من البشر يتحول الاستدلال المنطقي عندهم أحياناً إلى عاطفة قوية تستولي على وجودهم كله، فيصعب جداً طردها أو تعديلها. فلكي نشفي إنساناً أصيب بهذا الداء علينا أن نغير هذه العاطفة بالذات، وهذا لا يكون ممكناً إلا بأن نحل محل هذه العاطفة عاطفة أخرى تساويها. وذلك صعب دائماً، حتى لقد يكون في بعض الأحيان مستحيلاً.

صاح المجادل:

- خطأ! إن النتيجة المنطقية تبدد بذاتها الأحكام السابقة والأوهام المستقرة. والاقتناع المعقول يولد عاطفة تناسبه. إن الفكر ينبع من العاطفة، حتى إذا استقر في الإنسان قام يولِّد بدوره عاطفة جديدة!

- الناس متفاوتون، فبعضهم يغيّر عاطفته بسهولة، وبعضهم بصعوبة.

كذلك قال فاسين وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يطيل المناقشة. أما أنا فقد راقتني فكرته وأعجبتني أيما إعجاب.

Twitter: @ketab_n

فقلت له على حين بغتة أحطم الجليد وأبدأ الكلام:

- صحيح تماماً ما قلت! فالحق أنك لا تستطيع أن تزيل عاطفة إلا بإحلال عاطفة أخرى يمكن أن تقوم مقامها. أذكر أنه منذ أربع سنوات.. وكان ذلك في موسكو.. وقع لجنرال من الجنرالات... أنا لم أكن أعرفه... ولكن يمكن أن لا يكون ممن يوحون بالاحترام... أضيفوا إلى ذلك أن الواقعة نفسها يمكن أن تبدو غير معقولة... المهم أن هذا الجنرال قد فقد ابنةً له.. بل فقد ابنتين، واحدةً بعد أخرى.. بالحمّى... إن هذا الرجل قد بلغ فجأة من الإرهاق حدّاً جعله لا ينسى مصيبته لحظة واحدة... كان في حداد دائم لا يملك المرء حين يراه إلا أن يتألم... ثم لم يمض نصف سنة حتى مات. أما أنه مات حزناً وألماً فتلك واقعة لا ريب فيها!

والسؤال: بما كان يمكن شفاؤه؟ والجواب: بعاطفة تساوي قوة عاطفته! كان ينبغي عندئذ إخراج ابنتيه من القبر وردهما إليه! أقصد.. شيئاً من هذا القبيل! لقد مات الرجل! ولكن كان يمكن أن تقدم له براهين رائعة: أن يقال له إن الحياة قصيرة، وإن كل إنسان إلى فناء؛ كان يمكن أن تؤخذ له أرقام من سجلات الوفيات عن عدد الأطفال الذين ماتوا بالحمى القرمزية... لقد كان الجنرال محالاً على التقاعد...

هنا توقفت عن الكلام مختنقاً، ونظرت حولي.

قال أحدهم:

- الأمر مختلف!

قال فاسين ملتفتاً نحوي:

- إن الواقعة التي ذكرتها، على كونها من طبيعة أخرى غير ما نحن بصدده، تشبهه بعض الشبه وتلقي عليه ضوءاً.

Twitter: @ketab_n

يجب أن أعترف هنا لماذا افتتنت بالحجّة التي أدلى بها فاسين عن «الفكرة- العاطفة»؛ ويجب علي أن أعترف في الوقت نفسه أنني شعرت بعار جهنمي. نعم لقد كنت أخاف أن أذهب إلى منزل درجاتشيف، ولكن لسبب آخر غير السبب الذي كان يظنه إيفيم. كنت أخاف، لأنني كنت أخشى هؤلاء الناس منذ كنت بموسكو. كنت أعرف أنهم (هم أو أضرابهم، الأمر سيان) أناس مجادلون من أنصار الديالكتيك، وأن من الجائز جداً أن يمزقوا «فكرتي» إرباً إرباً. كنت على ثقة تامة بأنني لن أبوح لهم بها. ولكن كان يمكن (هم أو أضرابهم، أقولها مرة أخرى) أن يقولوا أشياء قد تفقدني ثقتي بفكرتي حتى دون أن أشير لهم إليها. لقد كان في «فكرتي» مشكلات لم أحلها، ولكنني لا أريد لهذه المشكلات أن يحلها أحد عني. حتى لقد انقطعت في هاتين السنتين الأخيرتين عن القراءة، مخافة أن أقع على فقرة من الفقرات لا تؤيد «فكرتي» حتى وقد تزعزعني. وهذا فاسين يحل المسألة من أول وهلة، ويهدىء روعي إلى أقصى حد. ما الذي كان يخيفني فعلاً، وماذا كان في وسعهم أن يفعلوه لي بكل ما يملكون من جدل؟ لعلني الشخص الوحيد الذي فهم ما أراد أن يقوله فاسين حين تحدث عن «الفكرة-العاطفة»! ليس يكفي أن تدحض فكرةً جميلة، وإنما ينبغي لك أن تحل محلها فكرة تضارعها جمالاً. وبدون ذلك فإنني إذ أرفض التخلي عن عاطفتي بحال من الأحوال، أستطيع أن أدحض دحضهم في قرارة قلبي، ولو إكراهاً وإجباراً مهما تكن أدلّتهم. وما الذي كان في وسعهم، أن يعطوني بديلاً عن فكرتي؟ أما كان ينبغي إذن أن أكون أكثر شجاعة. كان عليَّ أن أملك مزيداً من البسالة. ولذا فإنني حين تحمست لرأي فاسين شعرت بعار، وأحسست إنني طفل لا يستحق الاحترام!

Twitter: @ketab_n

وثمة أمر آخر أشعرني بالعار. إن تلك العاطفة المحتقرة التي تدفع المرء إلى تغليب رأيه ليست هي التي حملتني على تحطيم الجليد والأخذ بالكلام؛ وإنما حملتني على ذلك رغبة في الوثوب إلى «معانقة» الناس، من أجل أن يجدوا أنني رجل طيب، من أجل أن يأخذوا بتقبيلي، أو شيء من هذا القبيل (شيء دميم قبيح على كل حال). وأعتقد أن هذه الرغبة هي أبشع الرغبات التي تثير الشعور بالخزي في نفسي. لقد لاحظت وجود هذه الرغبة في نفسي منذ زمن طويل؛ لاحظتها وأنا قابع في ذلك الركن الذي قبعت فيه ذلك العدد كله من السنين، دون أن أشعر بندامة. كنت أعرف أن عليَّ أن أكون بين الناس أشد جهامة. على أن الشيء الوحيد الذي كان يعزيني، بعد كل مرة من مرات شعوري بالعار هذا، هو أن «فكرتي» لا تزال رغم كل شيء ملكي، كامنة في مخبئها، وأنني ما أفضيت بها إلى أحد. كان ينقبض صدري حين أتصور أحياناً أنني في اليوم الذي سأبوح بفكرتي لأحد فلن يبقى لي بعدئذ شيء، وسأكون بعدئذ شبيهاً بسائر الناس، وأنني قد أترك فكرتي نفسها حينذاك. لذلك كنت أحافظ عليها، وأصونها، وأخشى الثرثرات. وهاأنذا فقدت تحفظي عند درجاتشيف منذ أول لقاء تقريباً: صحيح أنني لم أبح بشيء، لكنني لغوت لغواً كثيراً لا يغتفر. شعرت بالعار. ذكرى أليمة! لا، لن أستطيع أن أعيش مع البشر. ما زلت مقتنعاً بهذا إلى اليوم. إني لأتحدث عن أربعين سنة سلفاً. إن فكرتي هي ملاذي ومأواي.

– 5 –

ما إن أيد فاسين كلامي حتى تملكتني رغبة في الكلام لا سبيل إلى مقاومتها.

Twitter: @ketab_n

- في رأيي أن من حق كل إنسان أن يكون له مشاعر وعواطف. . شريطة أن يكون ذلك عن اقتناع. . . وليس لأحد أن يأخذ عليه ذلك.

قلت هذا متجهاً بالكلام إلى فاسين. وقد نطقت بالعبارة حارة سريعة، ولكن خيِّل إليَّ أن إنساناً آخر هو الذي فعل، حتى لكأن لساناً، غير لساني كان يتحرك في فمي.

- يا. . . سلا. . . م. .

بذلك نطق هازئاً الصوت نفسه الذي قاطع درجاتشيف منذ هنيهة، والذي صاح يصف كرافت بأنه ألماني. وإذ عددته إنساناً تافهاً لا قيمة له البتة، التفتّ نحو الأستاذ، كأنه هو الذي صاح. وقلت:

- يقيني أنه ليس لي حق في أن أحكم على أحد.

وكنت قد أخذت أرتجف لعلمي سلفاً بأنني لن أتوقف عن الكلام.

- لماذا هذا التكتم؟ - تردد صوت الشخص التافه ثانية.

وقلت وأنا أحدق في الأستاذ الذي لزم الصمت وراح ينظر إليَّ مبتسماً:

- لكل إنسان فكرته.

صاح التافه يسأل:

- وأنت ما فكرتك؟

- يطول شرحها كثيراً. . .

ولكن إذا أردت أن أذكر لك شيئاً منها فإن فكرتي هي ليدعني الناس وشأني. ما بقي معي روبلان، فإنني أريد أن أعيش وحيداً، أن لا أكون رهناً بأحد (هدىء روعك، إنني أعرف الاعتراضات)، وأن لا أعمل حتى ولا من أجل الإنسانية الكبيرة المقبلة التي أرادوا أن يقحموا السيد كرافت في خدمتها. إن الحرية الفردية، أعني حريتي أنا، هي قبل كل شيء. ولا أريد أن أعرف شيئاً عداها.

Twitter: @ketab_n

وكان خطئي أنني غضبت.

- يعني أنك تدعو إلى هدوء البقرة الشبعانة، أليس كذلك؟

- فليكن. ليس في البقرة ما يؤذي. لست مديناً لأحد بشيء: إنني أدفع للمجتمع ما عليّ في صورة ضرائب، حتى لا أُسرق، حتى لا أُضرب، حتى لا أُقتل، وليس لأحد أن يطالبني بأكثر من ذلك. قد تكون لي، شخصياً، أفكار أخرى، وربما كنت أريد أن أخدم الإنسانية، ولسوف أخدمها، ولعلني سأخدمها أكثر من جميع الواعظين عشر مرات. ولكنني أريد ألا يطالبني أحد بهذه الخدمة، لا أريد أن يكرهني عليها أحد إكراها، كما تريدون إكراه السيد كرافت. أريد لحريتي أن تبقى كاملة، حتى ولو لم أحرك إصبعي. أما أن أركض وأمضي أتشبث بأعناق الناس حباً بالإنسانية، وأن أذرف الدموع رقة وحناناً، فما ذلك إلا «موضة». ثم لماذا يجب عليَّ أن أحب جاري، أو أن أحب الإنسانية المقبلة التي تتحدثون عنها، الإنسانية التي لن أراها يوماً، والتي لن تعرفني يوماً، والتي ستزول هي أيضاً من غير أن تخلف لا أثراً ولا ذكرى حين تستحيل الأرض بدورها إلى كتلة جليدية وتطير في الفضاء بلا هواء مع طائفة لا حصر لها من كتل جليدية أخرى مثلها. ألا إن هذا أسخف ما يمكن أن يتخيله خيال! هذه عقيدتكم، فانظروا ما هي! قل لي: لماذا يجب عليَّ حتماً أن أكون كريماً، خاصة إذا كان كل شيء لا يدوم إلا لحظة!

صاح صوت:

- هو و ا ه!

كنت قد أطلقت هذه العبارات كلها في غضب وخبث، محرقاً جميع سفني. كنت أعلم أنني أطير إلى الهاوية، ولكنني كنت أسرع خشية الاعتراض. كنت أحس أنني أسوق كلامي فوضى على غير هدى، بلا

Twitter: @ketab_n

تسلسل ولا نظام، ولكنني كنت أتعجل إقناعهم وسحقهم. كان هذا على جانب عظيم من خطورة الشأن في نظري! لقد تأهبت ثلاث سنين! والأمر العجيب الذي يلفت النظر أنهم صمتوا دفعة واحدة، كأنهم لم يقولوا شيئاً، واكتفوا جميعاً بالإصغاء. وأردفت أقول موجهاً كلامي إلى الأستاذ:

- تماماً. إن هناك رجلاً عظيم الذكاء قال يوماً فيما قال إنه لا شيء أصعب من الإجابة عن هذا السؤال: «لماذا يجب على المرء أن يتمسك بالفضيلة؟» إن في هذه الحياة الدنيا ثلاثة أنواع من الأوغاد: أوغاد سذج مقتنعين بأن رذالتهم هي الفضيلة المثلى، وأرذال خجلين هم أولئك الذين يحمرّون حياءً من رذالتهم ومن إصرارهم على أن يمضوا فيها إلى النهاية، وأرذال أرذال، أرذال محض. واسمحوا لي أن أضرب لكم هذا المثال: لي رفيق اسمه لامبرت، كان يقول لي، ولـمَّا نتجاوز السادسة عشرة من العمر، إنه حين سيصير غنياً ستكون أعظم لذة يتمتع بها هي أن يغذي كلاباً بخبزٍ ولحم بينما يموت أولاد الفقراء جوعاً، وأنه إذا رأى هؤلاء الفقراء يرتعدون من شدة البرد ولا يملكون ما يستدفئون به، فسيشتري أكواماً كبيرة من الحطب فيمضي بها إلى العراء يحرقها هنالك ليدفىء بها الهواء دون أن يعطيهم منها عوداً واحداً. انظروا إلى عواطف هذا الفتى ثم قولوا بماذا عساي أجيب هذا الوغد المحض إذا هو سألني: «لماذا يجب عليَّ قطعاً أن أتمسك بالفضيلة؟»، ولا سيما في هذا العصر الذي جعلتموه على هذه الصورة. إن الأمور لم تكن في يوم من الأيام أسوأ منها الآن. إن الوضع في مجتمعنا أيها السادة، خالٍ من أي وضوح. إنكم تجحدون وجود الله، وتجحدون القداسة، فما عسى أن تكون القاعدة الصماء العمياء البهيمة التي يمكن أن تجبرني على أن أسلك سلوكاً ما إذا كان من الأنفع لي أن أسلك سلوكاً آخر؟ تقولون:

Twitter: @ketab_n

«إن تصرفي الحكيم تجاه الإنسانية هو من مصلحتي أنا أيضاً». ولكن إذا كنت أعتبر كل هذه الأشياء الحكيمة، كل هذه الثكنات، كل هذه الكتائب[16]، غير حكيمة، فماذا أصنع بهذا كله، وماذا أصنع بمستقبلكم وليس لي إلا حياة واحدة أعيشها! دعوني أعرف مصلحتي بنفسي: فسأستخرج من ذلك لذة أكبر. ما شأني أنا بما سيجري في إنسانيتكم هذه بعد ألف عام، إذا كان قانونكم لا يهب لي جزاء ذلك لا حباً ولا حياة آخرة ولا شهادة بفضيلتي؟ لا يا سادتي، إذا كان الأمر كذلك، فسأحيا لنفسي كأوقح ما تكون حياة امرىء لنفسه. وإلى الجحيم فليذهب الآخرون!

- يا لها من رغبة كريمة وتمنيات لطيفة تتمناها للناس!
- وأنا مستعد مع ذلك لأن أتبعهم.
- أحسنت! (ذلك الصوت نفسه قال هذا).

وظل الآخرون صامتين جميعاً، ينظرون إليَّ ويلاحظونني. ولكن سرعان ما أخذت تظهر شيئاً فشيئاً في أركان شتى من الغرفة، ضحكاتٌ بدأت متخفيةً ثم سفرت فراحوا يهزأون مني جميعاً وجهاً لوجه، إلا فاسين وكرافت. وكان ذو الشامات السوداء يبتسم أيضاً: يحدق إليَّ ويصغي. قلت وأنا أرتعش من قمة رأسي إلى أخمص قدمي:

- أيها السادة، لن أقول لكم فكرتي مهما كلف الأمر. ولكنني، بالعكس، أسألكم، من وجهة نظركم أنتم، لا من وجهة نظري أنا، لأنني ربما كنت أحب الإنسانية ألف مرة أكثر منكم مجتمعين! أسألكم أن تقولوا لي، وأنتم مضطرون أن تجيبوني الآن، لا بدّ أن تجيبوني لأنكم تضحكون: ما الذي تستطيعون إغرائي به لكي أتبعكم؟ كيف تبرهنون لي على أن الأمور ستكون أفضل في ظلّ نظامكم؟ ماذا أنتم فاعلون باحتجاجي في ثكنتكم؟ منذ زمان، أيها السادة، كنت أرغب أن

Twitter: @ketab_n

ألتقي بكم! سيكون لديكم الثكنة والمساكن المشتركة والاكتفاء بالضروري فقط، والإلحاد والزوجات المشاع بغير أولاد. ذلك هو خاتمة مطافكم، أنا أعرفه. وفي سبيل هذا الجزء اليسير الزهيد من المصلحة المتوسطة التي سيكفلها تنظيمكم العقلي، في سبيل قطعة خبز وقليل من دفء، وشيء من مَلْبَس تريدون أن تأخذوا كل شخصيتي في مقابل ذلك! انتظروا قليلاً! لنفرض أن أحداً انتزع مني امرأتي. فهل تقيدونني تقييداً كافياً يمنعني من قتل غريمي؟ رب قائل منكم يقول لي: ولكنك ستصبح أنت نفسك أعقل من ذلك يومئذ. ولكن امرأتي، ما عساها تقول عن بعل متعقل كل هذا التعقل، إذا كانت تحترم نفسها أقل احترام؟ اعترفوا أن هذا مخالف للطبيعة. ألا تخجلون؟

هتف صوت الرجل التافه قائلاً في سخرية:

- أأنت اختصاصي.. في شؤون النساء؟

فمرت بي لحظة تمنيت فيها أن أنهض له مسرعاً فاوسعه ضرباً مبرحاً. إنه رجل قصير أحمر أنمش.. على كل حال، ليس مظهره بالأمر الذي يهمني!

- طمّن بالك. إنني ما عرفت النساء بعد.

أطلقت هذه الجملة ملتفتاً إليه أول مرة.

- اعتراف غريب كان يمكن أن يقال بلغة أقرب إلى التهذيب والأدب في حضور سيدات.

ولكن جميع المجتمعين أخذوا يتحركون؛ فهم يتناولون قبعاتهم ويلوح عليهم أنهم منصرفون لا بسببي، بل لأنه آن الأوان. غير أن هذه الطريقة في معاملتي بالصمت ملأتني شعوراً بالعار. ونهضت أنا أيضاً.

- اسمح أن أعرف اسمك رغم كل شيء. إنك لم تكفّ عن النظر إليّ.

Twitter: @ketab_n

كذلك سألني الأستاذ وهو يتقدم نحوي خطوة، مبتسماً ابتسامة خبيثة.

- دولجوروكي.

- الأمير دولجوروكي؟

- بل دولجوروكي فحسب، ابن قن قديم اسمه ماكار دولجوروكي، وابن زنا لمولاي السابق السيد فرسيلوف. طمّنوا بالكم يا سادتي، فلست أقول هذا من أجل أن ترتموا جميعاً على عنقي وأن نذرف جميعاً الدموع تأثراً كالعجول!

فانفجرت عاصفة من الضحك تدوي بلا تحرج حتى استيقظ من شدة أصواتها الطفل الذي كان نائماً في الجهة الأخرى وأخذ يبكي. كنت أرتعش غيظاً. وصافح الجميع درجاتشيف وانصرفوا دون أن يولوني أي التفات.

قال كرافت وهو يلكزني بكوعه: - هيا بنا.

فتقدمت نحو درجاتشيف فصافحته بكل قواي وهززت يده مرات، بكل قواي أيضاً.

قال لي كرافت:

- معذرة من أن كودريوموف قد آذاك. (إن كودريوموف هو الرجل القصير الأحمر).

وتبعت كرافت، لا أشعر بخجل من شيء.

- 6 -

بديهي أن بيني اليوم وبيني يومئذٍ مسافة هائلة.

ظللت أمضي «غيرَ خجل من شيء» حتى أدركت فاسين على السلم، تاركاً كرافت، لأني اعتبرته شخصاً من الدرجة الثانية، فسألته بلهجة

Twitter: @ketab_n

طبيعية وهيئة عادية كأن شيئاً لم يحدث:

- أعتقد أنك تعرف أبي، أقصد فرسيلوف؟

فأجاب على الفور (دون اصطناع ذرة من تلك اللباقة الرقيقة، ولكن الجارحة، التي يعمد إليها أولئك الأشخاص اللطاف مع أناس كانوا منذ لحظة قد ارتكبوا فضيحة)، أجاب قائلاً:

- لا أعرفه معرفة خاصة، ولكنني أعرفه قليلاً، فقد التقيت به وسمعته.

- إذا كنت قد سمعته فقد عرفته، لأنك أنت ما أنت! فما رأيك إذاً فيه؟ اغفر لي هذا السؤال المباغت، ولكنني في حاجة إلى جوابك؛ في حاجة إلى أن أعرف رأيك أنت فيه، رأيك بالذات.

- سؤال صعب. يخيل إليَّ أن هذا الإنسان قادر على أن يفرض على نفسه أشياء كبيرة، وربما كان قادراً على أن ينفذها، ولكنه يأبى أن يحاسبه أحد.

- هذا صحيح. هذا صحيح كل الصحة. إنه شديد الكبرياء! ولكن أهو نقي تماماً؟ اسمع. ما رأيك في كاثوليكيته؟ ولكنني نسيت أنك ربما كنت لا تعلم...

لولا أنني كنت مضطرباً هذا الاضطراب كله فلا شك أنني ما كنت لألقي مثل هذه الأسئلة مباغتةً على إنسان لم أكلمه قبل ذلك في حياتي قط، ولا كنت أعرفه إلا من السمعة. وأدهشني أن فاسين لم يبد عليه أنه يلاحظ جنوني هذا.

- لقد سمعت كلاماً من هذا القبيل أيضاً، ولكنني لا أدري إلى أي حد يمكن أن يكون ذلك صدقاً.

كذلك أجاب بلهجة لا تزال معتدلة هادئة. قلت:

- ليس في ذلك أي صدق! ليس ذلك إلا كذباً! هل تتصور أن من

Twitter: @ketab_n

الممكن أن يؤمن بالله؟

- إنه إنسان شديد الكبرياء والإعجاب بنفسه، كما قلت أنت ذلك منذ هنيهة، وكثير من المتكبرين جداً يحبون أن يؤمنوا بالله، وخاصةً أولئك الذين يحتقرون الناس بعض الاحتقار. كثير من الناس الأقوياء يشعرون بنوع من حاجة طبيعية إلى أحد أو إلى شيء يعبدونه. إن الإنسان القوي يشق عليه كثيراً في بعض الأحيان أن يحتمل قوته.

صحت أقول:

- اسمع إذاً! ذلك ما لا بد أنه الحقيقة الصادقة صدقاً رهيباً! ولكنني أريد أن أفهم..

- السبب في هذا واضح: إنهم يختارون الله، حتى لا يعبدوا البشر، طبعاً دون أن يدركوا هم أنفسهم ما يجري في قرارة أنفسهم: أولئك هم أشد المؤمنين حماسة للإيمان، أو قل أولئك هم أشد المؤمنين رغبة في الإيمان، غير أنهم يحسبون رغبتهم هذه إيماناً. وهؤلاء أنفسهم هم أيضاً أولئك الذين يفقدون آخر الأمر أوهامهم في أكثر الأحيان. أما السيد فرسيلوف، فأحسب أن في طبعه صفات صادقة كل الصدق. وهو على كل حال إنسان يلفت نظري.

هتفت أقول:

- فاسين، إن كلامك يسرني! ليس ذكاؤك هو ما يدهشني، وإنما يدهشني أن إنساناً له هذا الصفاء كله، ويتفوق عليَّ هذا التفوق الذي لا حدود له، يرضى أن يسير إلى جانبي وأن يكلمني بمثل هذه البساطة وبمثل هذا التأدب حتى لكأن شيئاً لم يحدث.

ابتسم فاسين:

- أنت تمتدحني فوق ما أستحق. إن ما حدث هنالك لا يدل إلا

Twitter: @ketab_n

على أنك مسرف في حب المناقشات المجردة. أظنّ أنك كنت قد صَمَتَّ حتى ذلك الحين زمناً طويلاً.

- صمتُّ ثلاث سنين؛ ثلاثَ سنين كنت أتأهب للكلام... ولئن لم أظهر لك غبياً فلأنك أنت ذكي إلى أقصى حدود الذكاء، أما سلوكي أنا فكان يستحيل أن يكون أشد حماقة وأكثر غباء مما كان. ولكنني بدوت لك وغداً!

- وغداً؟

- نعم، بدون شك! قل لي بصراحة: ألا تحتقرني في داخل نفسك لأنني ذكرت أنني ابن زنا لفرسيلوف... ولأنني تفاخرت بأنني ابن قن؟

- أنت تسرف في تعذيب نفسك. إذا كنت ترى أنه ما كان لك أن تقول ذلك، فليس عليك إلا أن تمتنع عن قوله مرة أخرى. إن أمامك خمسين سنة.

- أنا أعلم أن عليَّ أن أكون صامتاً مع الناس. أسوأ مساوىء المرء أن يرتمي على أعناق الآخرين. لقد قلت لهم ذلك منذ قليل. وهاأنذا مع ذلك أرتمي على عنقك! إلا أن هناك فرقاً بين الأمرين، أليس هذا صحيحاً؟ فإذا كنت قد أدركت هذا الفرق، إذا كنت قد استطعت أن تدركه، فإنني أبارك هذه الدقيقة!

ابتسم فاسين مرة أخرى وقال:

- زرني إن شئت. عندي عمل وأنا مشغول الآن، لكن ستسرني زيارتك.

- أستنتج من النظر في وجهك أنك امرؤ مغلق جداً، وأنك قليل الرغبة في الإفصاح عن ذات نفسك.

- ربما كان هذا صحيحاً. لقد عرفت أختك اليزافيتا ماكاروفنا، العام الماضي، في لوغا... ها قد وقف كرافت، وهو ينتظرك فيما أظن. سيكون عليه أن ينعطف.

Twitter: @ketab_n

صافحت فاسين مصافحة قوية، ولحقت بكرافت الذي كان قد تقدم في الطريق أثناء حديثي مع فاسين. ومضينا صامتين إلى أن بلغنا منزله. كنت لا أريد ولا أستطيع، بعد، أن أكلمه. إن من أبرز صفات طبع كرافت أنه رقيق الحاشية.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

- 1 -

كان لكرافت في الماضي وظيفة رسمية، وكان عدا ذلك يساعد المرحوم آندرونيكوف (بأجر يتقاضاه منه) في معالجة بعض الشؤون الخاصة التي كان آندرونيكوف يقوم بها إضافة إلى أعمال وظيفته. والأمر الذي كان يهمني أنا أنه لما كان بينه وبين آندرونيكوف من صلة صميمية، كان يمكن أن يعرف بعض الأمور التي تعنيني. لكنني كنت أعلم من ماريا إيفانوفنا، زوجة نيقولاي سيمينوفتش، التي عشت لديها سنين طويلة أيام كنت في المدرسة - والتي كانت بنت أخت آندرونيكوف وكانت ربيبته الأثيرة - أن كرافت كان قد «كلف تكليفاً» بأن يسلمني شيئاً ما. فكنت أنتظره منذ شهر كامل.

كان كرافت يسكن شقة صغيرة من غرفتين، منعزلاً كل الانعزال، وإذ كان عائداً منذ برهة وجيزة، فإنه لم يكن لديه حتى خادم. كانت حقيبته مفتوحة، غير أن أشياءه التي لم يرتبها بعد لا تزال مبعثرة على الكراسي. وعلى منضدة أمام الكنبة كان كيس سفر، وصندوق صغير، ومسدس، إلخ. كان كرافت غارقاً في أفكاره حين دخلنا، كأنه نسيني نسياناً تاماً بل لعله لم يلاحظ أنني لم أخاطبه بكلمة واحدة أثناء الطريق. لم يلبث أن أخذ يبحث عن شيء ما، ولكنه لمح مرآةً على حين فجأة فتوقف وراح

Twitter: @ketab_n

ينظر إلى وجهه فيها محدقاً خلال دقيقة بكاملها. لاحظت هذا (وما أكثر ما تذكرته بعد ذلك) ولكنني كنت حزيناً ومضطرباً جداً. لم أكن أملك قدرةً على تركيز فكري. حتى لقد راودتني، في لحظة من اللحظات، رغبةٌ مفاجئة في الانصراف، في أن أدع كل شيء حيث هو، إلى الأبد. ما الذي كان يعنيني في حقيقة الأمر؟ ألست أصدع رأسي بهموم مصطنعة؟ ألم أكن أبدد، في ترهات سخيفة حقيرة، بداعي الحساسية وحدها، طاقةً كنت محتاجاً إليها لتحقيق هدف معين رسمته لنفسي. ولكن أنّى لي، من جهة أخرى، أن أصل إلى تحقيق هذا الهدف أنا الذي أصبح عجزي عن القيام بأي عمل جدي واضحَ البداهة بعد الذي حدث عند درجاتشيف.

سألت كرافت فجأة:

- كرافت، هل ستذهب إليهم بعد الآن؟

فالتفت نحوي ببطء، كأنه لم يفهم سؤالي. وجلست على مقعد.

قال كرافت فجأة:

- سامحهم!

خيِّل إلي بطبيعة الحال أنه يسخر مني. ولكنني حدقت إليه فرأيت في وجهه بساطة تبلغ من الغرابة بل تبلغ من الإدهاش أنني ذهلت أنا نفسي من الجد الظاهر في رجائه أن «أسامحهم». وتناول كرسياً وجلس قربي.

وبدأت أقول:

- أعرف أنني قد لا أكون إلا خليطاً من جميع أنواع حب الذات، ولكنني لا أسأل أحداً أن يسامحني.

- وممن عساك تطلب أن يسامحك.

قال ذلك هادئاً جداً. وكان يتكلم في رفق لطيف وبطء شديد. فقلت:

Twitter: @ketab_n

- هبني مذنباً في حق نفسي. . . إنني أحب أن أكون مذنباً في حق نفسي. . . سامحني، يا كرافت، إذا أنت سمعتني أقول هراء سخيفاً في هذه اللحظة. قل لي: أأنت عضو في هذه الحلقة، أنت أيضاً؟ ذلك ما أردت أن أسألك عنه.

- ليسوا أشد حماقة ولا أرجح عقلاً من الآخرين. إنهم مجانين كسائر الناس.

- هل سائر الناس مجانين؟

سألته هذا السؤال وأنا التفت إليه مستطلعاً على غير إرادة مني.

- جميع الطيبين في هذه الأيام مجانين. الأغبياء والعجزة وحدهم يمرحون. . . ولكن لا قيمة لهذا كله.

كان وهو يقول هذا الكلام ينظر في الهواء، يبدأ جملة ثم يقطعها. وقد لفت نظري شيء من ضجر في صوته بوجه خاص.

صحت أقول:

- وفاسين، أهو منهم أيضاً؟ إن فاسين يملك الذكاء ويملك فكرةً أخلاقية!

- ليس هناك أفكار أخلاقية في هذه الأيام. لقد اختفت الأفكار الأخلاقية بغتةً، اختفت جميعها بغير استثناء. حتى كأنه لم يكن ثمة وجود لها.

- لم تكن هناك أفكار أخلاقية في الماضي؟

قال متعباً بملل واضح:

- دعنا من هذا الموضوع.

تأثرت من هذا الجد المر الأليم. وخجلت من نفسي فجاريته.

استأنف يقول من تلقاء نفسه بعد دقيقتين من صمت وهو لا يزال ينظر في الهواء:

Twitter: @ketab_n

- إن العصر الراهن هو عصر فقدان التسامي، وفقدان الحساسية، وهو عصر الجهل، والكسل، والعجز عن العمل، والحاجة إلى كل ما هو جاهز مهيأ. ما من أحد يفكر اليوم قط. قليلون أولئك الذين يقدرون أن يصنعوا لأنفسهم فكرة.

وانقطع عن الكلام مرة أخرى وصمت لحظة. ولبثت أصغي.

- إنهم الآن يقطعون أشجار الغابات في روسيا، ويستنفدون خصوبة أرضها، ويحيلونها براري. إذا قام رجل يملأ نفسه الأمل ويعمرها الرجاء فغرس شجرة، انفجر الناس من حوله ضاحكين: «أأنت واثق أنك ستراها تكبر وتثمر؟» ومن جهة أخرى فإن الذين يريدون الخير يتناقشون فيما سيحدث بعد ألف سنة. إن الفكرة التي تولد الثبات والاستقرار قد زالت. نحن جميعاً كمن يقيم في فندق، متهيئاً للرحيل عن روسيا في الغد. كل فرد يعيش مهتماً بأن تكفي وسائل الحياة له وحده...

- عفوك يا كرافت! لقد قلت إن الناس يهتمون الآن بما سيحدث بعد ألف سنة. ولكن أليس يأسك... من مستقبل روسيا... نوع من الهمّ نفسه؟

قال حانقاً وهو ينهض بسرعة:

- ذلك... ذلك أهم سؤال يمكن أن يخطر بالبال!

ثم قال فجأة بصوت آخر وهو ينظر إليَّ مرتبكاً:

- ها! كدت أنسى! لقد جئت بك لأمر من الأمور... فلا تؤاخذني، أرجوك.

لكأنه يخرج من حلم. لقد كان كالخجلان. قال ذلك ثم تناول رسالة من حقيبة موضوعة على المنضدة ومدَّها إليَّ.

- إليك ما كنت أريد أن أسلمك إياه. هي وثيقة على جانب من خطورة الشأن.

Twitter: @ketab_n

قال ذلك مهتماً وقد بدا في وجهه الاحتفال بالأمر. لشد ما تعجبت، بعد ذلك بزمن طويل، حين فكرت في الموضوع، من هذه القدرة التي كان يملكها (في ساعات كهذه الساعات الخطيرة عنده!) على معالجة أمور الآخرين بمثل هذا القدر من روح المودة، وعلى الكلام فيها بمثل هذا القدر من الهدوء والحزم.

– هي رسالة من ذلك الرجل ستولبييف نفسه الذي أثارت وصيته، بعد موته، الدعوى بين فرسيلوف والأمراء سوكولسكي. إن هذه الدعوى يُنظر فيها الآن، وأغلب الظن أن الغلبة فيها ستكون لفرسيلوف: فالقانون في صفه. ولكن في هذه الرسالة الخاصة، التي كُتبت منذ سنتين، يعلن الموصي نفسه إرادته الصادقة أو قل: رغبته، وهي تدعم الأمراء سوكولسكي أكثر مما تدعم فرسيلوف. ويمكن القول في أقل تقدير إن النقاط التي يستند إليها الأمراء سوكولسكي لإنكار الوصية تجد في هذه الرسالة ما يأتي مصدقاً لها ومؤيداً. لا شك في أن خصوم فرسيلوف مستعدون لأن يعطوا كل شيء في سبيل الحصول على هذه الوثيقة، رغم أن قيمتها القانونية ليست قيمة مطلقة. إن ألكسي نيكانوروفتش (آندرونيكوف) الذي اهتم بقضية فرسيلوف كان يحتفظ بهذه الرسالة لديه؛ ثم أعطانيها قبل موته وأوصاني أن «أحافظ عليها أشد المحافظة». لعله كان يخشى على أوراقه وهو يرى دنو أجله. لا أريد أن أقطع برأي في نيات ألكسي فيكانوروفتش بصدد هذا الأمر. وأنا أعترف أنني أصبحت بعد وفاته متردداً تردداً شاقاً: ماذا أصنع بهذه الوثيقة؟ خاصةً والحكم في القضية يوشك أن يصدر؟ غير أن ماريا إيفانوفنا التي يظهر أن ألكسي فيكانوروفتش كان يوليها في حياته ثقة كبرى قد أخرجتني من الارتباك: فكتبت إليّ منذ ثلاثة أسابيع تطلب مني جازمةً قاطعة أن أسلمك هذه الرسالة، لأنه يبدو لها (ذلك هو تعبيرها) أن ذلك يتفق ونية آندرونيكوف.

Twitter: @ketab_n

فإليك الرسالة إذاً، وإنه ليسعدني أن أستطيع أخيراً أن أنقلها إليك.

قلت وقد أربكني هذا النبأ:

- وما عساي أصنع بهذه الرسالة؟ ما هو السلوك الذي يجب أن أسلكه؟

- هذا متوقف عليك وحدك.

- مستحيل. لست حراً قط.. لا بد أنك تقرني على ذلك! إن فرسيلوف ينتظر هذا الميراث على أحر من الجمر... وإنك لتعلم أنه بدونه ضائع لا محالة. ثم إذا بوثيقة كهذه الوثيقة توجد على حين فجأة فتغيّر الموقف!

- إنها لا توجد إلا هنا، في هذه الغرفة.

- أهو كذلك حقاً؟

ألقيت عليه هذا السؤال وأنا أنظر إليه بانتباه شديد.

- إذا لم تهتد بنفسك إلى السلوك الذي ينبغي لك أن تسلكه، فبماذا عساي أنصحك؟

- إنني لا أستطيع أن أسلم الوثيقة إلى الأمير سوكولسكي: وإلا قضيت على جميع آمال فرسيلوف؛ ثم ما عسى أن يكون موقفي منه عندئذ؟ سيكون موقف الخائن... ذلك من جهة، ومن جهة أخرى فإنني إذا سلمت الوثيقة إلى فرسيلوف كنت أغرق في البؤس أناساً أبرياء؛ كما أنني سأوقع فرسيلوف عندئذ في مأزق لا مخرج منه: فإما أن يتنازل عن الميراث، وإما أن يصبح لصاً.

- إنك تضخم خطورة الأمر.

- قل لي أيضاً: هل هذه الوثيقة حاسمة قاطعة؟

- لا. لست من رجال القانون. إن محامي الخصم قد يجد بطبيعة الحال وسيلةً لاستغلال الوثيقة وللاستفادة منها. ولكن ألكسي

Twitter: @ketab_n

نيكانوروفتش يقدر حقاً أن هذه الرسالة لن يكون لها قيمة قانونية كبيرة، وأن فرسيلوف يمكن أن يربح الدعوى رغم كل شيء. المسألة أقرب إلى أن تكون مسألة ضمير إن صح التعبير. . .

فقاطعته أقول:

- هذا هو الأمر الهام خاصة. لهذا قلت إن فرسيلوف سيكون في مأزق لا مخرج منه.

- قد يتلف فرسيلوف الوثيقة، فيكون عندئذ في منجى من أي خطر.

- أتملك من الأدلة الخاصة ما يجعلك ترى فيه هذا الرأي، يا كرافت؟ ذلك ما كنت أريد أن أعرفه، ومن أجل هذا إنما تراني عندك الآن!

- أعتقد أن كل إنسان في محله قد يفعل ذلك.

- وأنت أيضاً يمكن أن تفعله؟

- أنا لست انتظر ميراثاً أرثه، لهذا لا أدري ما الذي قد أفعله.

قلت وأنا أدسّ الرسالة في جيبي:

- طيب. والآن ننتهي من هذه القضية مؤقتاً. اسمع يا كرافت، إن ماريا إيفانوفنا التي أؤكد لك أنها كشفت لي عن أشياء كثيرة، قالت لي إنك تستطيع، أنت وحدك، أن تنبئني بحقيقة ما حدث في مدينة «إمس»(17) منذ سنة ونصف بين فرسيلوف وأسرة آخماكوف. لقد كنت أنتظرك كمن ينتظر الشمس تضيء له ما حوله. إنك لا تعرف وضعي يا كرافت. أتوسل إليك أن تذكر لي الحقيقة كاملةً. أريد أن أعرف حقيقة هذا الإنسان؛ أما الآن فأنا بحاجة إلى ذلك أكثر من أي وقت آخر!

- يدهشني أن ماريا إيفانوفنا لم تقصص عليك كل شيء بنفسها. فلا بد أن المرحوم آندرونيكوف قد أظهرها على الأمر كله، ولا شك في أنها قد سمعت منه أكثر مني، وأنها تعرف أكثر مني أيضاً.

Twitter: @ketab_n

– إن آندرونيكوف نفسه قد اختلط عليه الأمر: ذلك ما تقوله ماريا إيفانوفنا. تلك قضية ما أظن أن أحداً قادر على أن يفهمها. الشيطان نفسه لن يستطيع ذلك! وأنا أعلم أنك كنت يومئذ في «إمس»...

– لم أشهد كل شيء، وسأقص عليك ما أعرف. ولكن تُرى هل يكفيك ذلك ويرضيك؟

– 2 –

لن أعيد قصته نصاً، بل سوف أوجز جوهرها.

منذ سنة ونصف، استطاع فرسيلوف، الذي أصبح بواسطة الأمير العجوز سوكولسكي صديق أسرة أخماكوف (وكانوا أيامئذ جميعاً في الخارج، في مدينة إمس) أن يؤثر تأثيراً قوياً، أول الأمر، في أخماكوف الجنرال، الذي لم يكن قط طعن في السن كثيراً بعد، لكنه كان قد بدد في القمار المهرَ الكبير الذي مهرته إياه زوجته، كاترين نيقولايفنا، بدده خلال ثلاث سنين من الزواج، أصيب بعدها بالسكتة نتيجة لإسرافه وإفراطه. وقد أفاق من هذه السكتة فكان يستشفي في الخارج ويقيم في مدينة إمس من أجل ابنة له من زواج أول. كانت ابنته هذه فتاةً ممراضاً في نحو السابعة عشرة من عمرها، مصابة بالسل، فاتنة الجمال فيما يقال، وكذلك جامحة الخيال. ولم تكن تملك مهراً. وكانوا يعوِّلون في هذا الأمر على الأمير العجوز، كالعادة. ويقال إن كاترين نيقولايفنا كانت لابنة زوجها نعمَ الأم حناناً. ولكن الفتاة شغفت بفرسيلوف شغفاً خاصاً. وكان أيامئذٍ ينادي «بما لا أدري من الحماسة» (على حد تعبير كرافت)، ويدعو إلى «ما لا أدري من حياة جديدة»؛ وكان «مأخوذاً بحمية دينية سامية وقويّة»، على حدِّ ذلك التعبير الغريب، وربما الساخر، الذي نُقل إليَّ أن آندرونيكوف وصفه به. ويجب أن نذكر أن

Twitter: @ketab_n

فرسيلوف سرعان ما أصبح يكرهه جميع الناس. حتى أن الجنرال نفسه أخذ يحاذره ويخشاه. ولم يكذِّب كرافت الإشاعة التي راجت تقول إن فرسيلوف قد استطاع أن يدخل في روع زوج كاترين نيقولايفنا المريض أنها لا تخلو من عاطفة نحو الأمير سوكولسكي الفتى (الذي كان قد ترك مدينة إمس إلى باريس). فعل ذلك لا بكلام مباشر بل، «كعادته»، بتلميحات وإيحاءات وبأنواع من اللف والدوران، «وهو في هذه الأساليب أستاذ بارع»، كما قال كرافت. يجب أن أقول إن كرافت لم يكن يعدُّه ولا كان يريد أن يعده رجلاً تملكته حقاً فكرة عليا أو استولت عليه فكرة شاذة بل إنساناً نصاباً أو مراوغاً مخاتلاً بفطرته. وكنت أعرف، على كل حال، من مصدر آخر غير كرافت، أن فرسيلوف الذي أثَّر، أول الأمر، تأثيراً كبيراً في كاترين نيقولايفنا، انتهى شيئاً فشيئاً إلى قطع صلته بها، أما حقيقة هذه اللعبة كلها، فذلك ما لم أستطع أن أحصل من كرافت أيضاً على تفسير له، غير أن جميع من كانوا على بعض العلم بالأمر أكدوا أن الكره المتبادل وقع بعد الصداقة بينهما.
وحدث بعد ذلك حادث غريب. الفتاة الممراض، ابنة زوج كاترين نيقولايفنا، افتتنت بفرسيلوف، أو أعجبت بصفة من صفاته، أو ألهبت حماستها أحاديثه، لا أدري. . . ولكن المعروف أن فرسيلوف أصبح، خلال فترة من الزمن، يقضي كلَّ أيامه تقريباً قرب هذه الفتاة. ثم إذا بالفتاة تصرح لأبيها ذات يوم على حين فجأة أنها تريد فرسيلوف زوجاً لها. وقع هذا فعلاً، فقد أكده الجميع: أكده كرافت، وآندرونيكوف، وماريا إيفانوفنا، حتى أن تاتيانا بافلوفنا ألمحت إليه ذات يوم بحضوري. وقيل أيضاً إن فرسيلوف لم يتمنَّ هذا الزواج فحسب، بل أصرَّ عليه أيضاً، وإن الاتفاق بين هذين الإنسانين اللذين يختلف كل منهما عن الآخر، فأحدهما كهل متقدم في السن والآخر فتاة في ريعان الصبا، كان

Twitter: @ketab_n

اتفاقاً متبادلاً. لكن هذه الفكرة قد ذعر لها الأب، فعلى قدر ما كان ينفر من كاترين نيقولايفنا يوماً بعد يوم (وكان يحبها قبل ذلك حباً كبيراً) أصبح يزداد ولهاً بابنته وعبادةً لها، وخاصة بعد السكتة التي أصيب بها. غير أن الخصم الأكبر الذي كان يعارض مثل هذا الزواج معارضةً عنيفة إنما هو كاترين نيقولايفنا. فقامت في البيت صراعات هائلة خفية لكنها مزعجة إلى أبعد الحدود، ونشبت فيه مشاجرات ومشاحنات وآلام وأحزان، وشاعت فيه على وجه العموم أنواع لا نهاية لها من القذارات. وأخذ الأب ينصاع آخر الأمر، لما رأى من عناد وإصرار لدى ابنته المفتونة بفرسيلوف، «المتحمسة» له على حد تعبير كرافت. ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت ثائرة متمردة يملأ نفسها كره لا يرحم. وهنا إنما بدأ ذلك الإشكال الذي لا يفهم منه أحد شيئاً. وإليكم مع ذلك، الافتراض الذي بناه كرافت على بعض الوقائع، وما هو إلا افتراض على كل حال:

الافتراض هو أن يكون فرسيلوف قد استطاع أن يدخل في روع الفتاة، بأسلوبه الرقيق المرهف الذي لا سبيل إلى مقاومته أن كاترين نيقولايفنا إنما ترفض الموافقة على هذا الزواج، لأنها تحبه هو، فالغيرة تعذبها منذ زمن طويل: إنها تلاحقه، وتدبر له المكائد، حتى لقد صرحت له بحبها، وإنها الآن مستعدة لأن تحرقه حياً لأنه يحب امرأة غيرها. الخلاصة: شيء من هذا القبيل. والأنكى من ذلك أنه لعله قد «أسمع» الأب، زوج المرأة «الخائنة» أن الأمير لم يكن أكثر من تسلية. ومن البديهي أن حياة الأسرة تحولت إلى جحيم. وفي روايات أخرى أن كاترين نيقولايفنا كانت تحب ابنة زوجها حب العبادة، وأنها أصبحت الآن، بعد أكاذيب قيلت لها عنها، في حالة يرثى لها من الألم والعذاب، ناهيك عن علاقاتها بزوجها المريض. وهناك رواية أخرى

Twitter: @ketab_n

أيضاً آلمني كثيراً أن كرافت كان يصدقها تصديقاً كاملاً، وكنت أصدقها أنا نفسي أيضاً (لأنني سمعت بها أيضاً)، وهي أن فرسيلوف (ويقال إن آندرونيكوف قد علم هذا من كاترين نيقولايفنا نفسها) كان، على خلاف ما تقوله الروايات السابقة، قد عرض حبه على كاترين نيقولايفنا قبل ذلك، أي قبل أن تنشأ هذه العواطف في قلب الفتاة؛ وأن كاترين نيقولايفنا كانت صديقته حتى لقد تحمست له زمناً ما، ولكنها لم تكن تصدِّقه أبداً، والتي كانت تعارضه دائماً، قد استقبلت منه هذا التصريح ببغض شديد، وأثقلته سخرية مريرة وهزءاً لاذعاً؛ ثم طردته من بيتها طرداً حاسماً، لأنه اقترح عليها صراحة أن يتزوجها متنبئاً بأن زوجها سيموت وشيكاً بسكتة جديدة. لذلك شعرت كاترين نيقولايفنا نحو فرسيلوف بكره خاص حين رأته بعد ذلك يسعى بمثل هذه الصورة السافرة إلى خطبة ابنة زوجها. حين قصَّت عليَّ ماريا إيفانوفنا هذا كله في موسكو، كانت تصدق الروايتين كلتيهما أي كانت تصدق كل شيء معاً، قائلة إن ذلك كله يمكن ألا يتعارض، وإن الأمر كان «حباً في كره» كان نوعاً من كبرياء غرامية جريحة لدى الطرفين، الخ الخ، أي كان ضرباً من إشكال عاطفي لا يليق برجل جاد رصين، عدا أنه ممتزج بنميمة معيبة. ولكن ماريا إيفانوفنا كانت ممتلئة النفس بالروايات منذ طفولتها، فهي تقرأ القصص ليلاً ونهاراً، رغم ما تملكه من قوّة الطبع وروعة الخلق. ومهما يكن من أمر فإنه يخرج من هذا كله أن فرسيلوف رجل واضح الدناءة والكذب والكيد، إنه إنسان أسود النفس يبعث على الاشمئزاز، لا سيما وأن الخاتمة كانت مأساة أليمة: فالفتاة المسكينة التي ألهبها الحب قد سممت نفسها، فيما يقال، بفوسفور أعواد الثقاب. على أنني لا أدري حتى الآن أكانت هذه الإشاعة صادقة أم لا، ولكن كل الجهود كانت تبذل على كل حال لكتمان هذه الإشاعة. ولم يدم

Twitter: @ketab_n

مرض الفتاة إلا أسبوعين ثم لفظت أنفاسها. هكذا ظلت قصة أعواد الثقاب أمراً مشكوكاً فيه، ولكن كرافت يعتقد بصحة الإشاعة اعتقاداً راسخاً. وما لبث أن مات والد الفتاة بعد ذلك، من فرط حزنه عليها فيما قيل، إذ وافته سكتة جديدة، بعد ثلاثة أشهر. غير أن الأمير الفتى سوكولسكي الذي عاد من باريس إلى إمس بعد دفن الفتاة صفع فرسيلوف على مرأى من الناس في حديقة عامة، فلم يردَّ فرسيلوف على الصفعة بأي تحدٍ، بل أكثر من ذلك، كان يتنزه في اليوم التالي في نفس الحديقة كأن شيئاً لم يحدث. وعندئذ إنما أدار جميع الناس له ظهورهم وأشاحوا عنه أبصارهم، وفي بطرسبرج أيضاً. ولئن احتفظ فرسيلوف بعد ذلك ببعض المعارف، فلقد كان معارفه هؤلاء ينتمون إلى بيئة أخرى غير تلك البيئة. أما أصدقاؤه من أبناء المجتمع الراقي فقد أصبحوا جميعاً يتهمونه، مع أن قلةً منهم قد اطلعت على جميع التفاصيل، في حين أن الآخرين لا يعرفون إلا قصة عاطفية حول موت الفتاة وحكاية الصفعة. شخصان أو ثلاثة أشخاص فقط كانوا يملكون معلومات وافية على قدر الإمكان. وكان المرحوم آندرونيكوف أوسعهم علماً بالأمور، إذ كان بينه وبين أسرة أخماكوف علاقات أعمال منذ زمن طويل، ولأنه كان على صلة بكاترين نيقولايفنا خاصةً بسبب مناسبة من المناسبات. لكنه كتم السر حتى عن أسرته، ولم يفتح نفسه قليلاً إلا لكرافت وماريا إيفانوفنا، وذلك لاضطرار أيضاً.

قال كرافت يختم كلامه:

- المهم أن ههنا الآن وثيقة تخشاها السيدة أخماكوفا خشيةً هائلة.

وإليكم ما أبلغنيه في هذا الصدد:

إن كاترين نيقولايفنا قد ارتكبت بعض الطيش، حينما كان أبوها الأمير العجوز يستشفي من نوبته في الخارج، فكتبت إلى آندرونيكوف،

Twitter: @ketab_n

سراً، (وكانت تمحضه ثقة كاملة) رسالةً تسيء إليها كثيراً. وفي ذلك الوقت كان الأمير الذي يتماثل للشفاء قد أظهر، فيما قيل، ميلاً إلى تبديد ماله، حتى لكأنه يرميه في البحر رمياً: لقد أخذ يشتري في الخارج أشياء لا فائدة منها البتة، ولكنها غالية الثمن، من لوحات وآنيات وما أشبه ذلك، وأخذ يقدم الهدايا والهبات مبالغ طائلة حتى لمؤسسات شتى من تلك البلاد. وأوشك أن يشتري من نبيل روسي ذهبَ ماله عقاراً مهجوراً تقوم حوله دعاوى كثيرة، وذلك بثمن باهظ، دون أن يرى العقار. وكان فوق هذا كله يفكر في الزواج فعلاً. فلهذه الأسباب كلها، عمدت كاترين نيقولايفنا التي لم تترك أباها خطوةً واحدة أثناء مرضه، إلى كتابة رسالة إلى آندرونيكوف، من حيث هو رجل من رجال القانون، ومن حيث هو «صديق قديم»، تسأله هذا السؤال: «هل يجوز، بحكم القانون، أن يتم الحجر على أبيها، أو أن يُعترف به عديم الأهلية؟ فإذا كان هذا في الإمكان، فما هي الوسيلة المثلى لتحقيقه دون فضيحة، حتى لا يجد أحد ما يتقوله، وحتى تراعي عواطف أبيها في الوقت نفسه، الخ الخ.». يقال أن آندرونيكوف قد ردَّها إلى الصواب فنصحها بالعدول عن الشروع في مثل هذا الأمر. حتى إذا شفي الأمير شفاء كاملاً، لم يثر هذا الموضوع بعد ذلك قط، ولكن الرسالة ظلت محفوظة لدى آندرونيكوف. وقد مات الآن آندرونيكوف. فما لبثت كاترين نيقولايفنا أن فكرت في الرسالة: فلو اتفق أن عُثر على الرسالة بين أوراق المتوفى ووقعت بين يدي الأمير العجوز، فلا شك في أنه سيطردها إلى الأبد، وسيحرمها من الميراث، وأنه لن يعطيها كوبيكاً واحداً ما ظل حياً. إنه إذا عرف أن ابنته كانت لا تثق بسلامة عقله، حتى إنها أرادت في ذات يوم أن تعلن أنه مجنون، فقد ينقلب هذا الحمل الوديع إلى وحش كاسر. وهي بعد ترملها أصبحت بسبب زوجها المقامر لا تملك

Twitter: @ketab_n

أي ثروة، ولا تعوّل إلا على أبيها، وكان أملها كبيراً في أن تحصل منه على مهر جديد لا يقل عن مهرها الأول!

كان كرافت لا يعرف عن مصير هذه الرسالة شيئاً كثيراً. لكنه كان قد لاحظ أن آندرونيكوف كان «لا يمزق أبداً الأوراق التي قد تكون ذات فائدة في يوم من الأيام»، وأنه كان بالإضافة إلى ذلك واسع الفكر، لكنه «واسع الذمة» أيضاً. (لقد استغربت عندئذ هذا الاستقلال الخارق لآراء كرافت الذي كان يحب آندرونيكوف ويحترمه.) ولكن كرافت كان مقتنعاً مع ذلك بأن الوثيقة التي قد تؤذي كاتبتها لا بد أنها وقعت بين يدي فرسيلوف، وذلك لما بينه وبين أرملة آندرونيكوف وبناته من صلة حميمة: حتى لقد عرف منذ ذلك الحين أنهن وضعن تحت تصرفه، في كثير من المودة، جميع أوراق المرحوم. وكان كرافت يعلم أيضاً أن كاترين نيقولايفنا لا تجهل أن الرسالة موجودة عند فرسيلوف، وذلك ما كانت تخشاه، لتقديرها أن فرسيلوف سيمضي فوراً إلى الأمير العجوز ليظهره على الرسالة، وأنها حين عادت من الخارج قد بحثت عن الرسالة في بطرسبرج، فذهبت إلى عائلة آندرونيكوف، وأنها لا تزال تبحث عنها لأنها لا تزال تأمل رغم كل شيء ألا تكون الرسالة قد وصلت إلى فرسيلوف؛ وأنها لم تسافر إلى موسكو إلا لهذا الغرض، وأنها تضرعت هنالك إلى ماريا إيفانوفنا أن تنبش الأوراق التي لا تزال عندها. أما وجود ماريا إيفانوفنا، وما كان بينها وبين المرحوم آندرونيكوف من صلات، فقد علمته في الآونة الأخيرة حين عادت إلى بطرسبرج.

سألته وفي ذهني فكرتي:

- وهل تعتقد أنها لم تجد شيئاً عند ماريا إيفانوفنا؟

- إذا كانت ماريا إيفانوفنا لم تكشف حتى لك عن شيء، فمعنى ذلك أنها لم تجد شيئاً.

Twitter: @ketab_n

- أنت تقدِّر إذاً أن الرسالة عند فرسيلوف؟

- هذا هو الأرجح. ولكن، لا أدري، كل شيء ممكن.

قال ذلك بضجر ظاهر.

فكففت عن سؤاله. وفيم السؤال؟ إن الأمر الأساسي واضح، رغم ذلك الإشكال الكريه. إن كل ما كنت أخشاه قد ثبت. قلت بحزن عميق وأنا أتناول قبعتي:

- لكأن ذلك كله حلم أو هذيان.

فسألني كرافت بعطف كبير واضح قرأته في وجهه لحظتها:

- هل هذا الرجل عزيز جداً في نفسك؟

قلت:

- هذا ما كنت أوجسه: كنت أحس أنني لن أعرف لديك كل شيء. بقي أمل واحد هو أخماكوفا. لقد كنت أعول عليها كثيراً. قد أذهب إليها، وقد لا أذهب.

فنظر إليَّ كرافت حائراً مضطرباً.

- وداعاً يا كرافت! فيمَ يتعلق المرء بأناس لا يريدونه؟ أليس الأفضل أن يقطع بهم صلته؟

فسألني وقد أظلم وجهه وأطرق إلى الأرض:

- وبعد ذلك؟

- يعود المرء إلى ذاته! يقطع كل صلة، ويرجع إلى ذاته!

- إلى أميركا؟

قلت مهتاجاً:

- إلى أميركا! بل إلى ذاته، إلى ذاته وحده. تلك هي «فكرتي» كلها، يا كرافت!

فنظر إليَّ كرافت نظرة استطلاع غريبة.

Twitter: @ketab_n

- وهل لك ملاذ كهذا الملاذ، هل لك «هذه الذات»؟

- نعم. إلى اللقاء يا كرافت. أشكرك. ويؤسفني أنني أزعجتك! لو كنت أتصور روسيا على نحو ما تتصورها أنت، لما حفلت بشيء ولما همني من الأمر شيء ولكان لسان حالي يقول: إلى الشيطان فليذهب جميع الناس: امضوا في سبيلكم، كيدوا بعضكم لبعض، كلوا بعضكم بعضاً، فيما عسى أن يعنيني أنا هذا كله؟!

قال كرافت فجأة بعد أن شيعني حتى الباب:

- ابق قليلاً أيضاً.

فدهشت بعض الدهشة، وعدت أدراجي فجلست وجلس كرافت قبالتي. تبادلنا بضع ابتسامات: ما زلت أرى هذا كله كأنني ما زلت فيه. وأذكر أنني كنت على شيء من دهشة.

قلت فجأة:

- ما يعجبني فيك يا كرافت هو أنك إنسان مهذب جداً.

- حقا؟

- أقول ذلك لأنني يندر أن أستطيع أن أكون مهذباً، رغم ما أبذل في ذلك من جهد... ولكن ربما كان من الأفضل للمرء أن يُجرح من قبل الناس، فإنه على الأقل يتخلص عندئذ من عذاب محبتهم.

- أي ساعة من ساعات اليوم تفضل؟

واضح أنه سألني هذا السؤال دون أن يصغي إلى ما أقول.

- أي ساعة من ساعات اليوم أفضل؟ لا أدري. ولكنني لا أحب ساعة غروب الشمس.

- حقاً؟

قال ذلك بتطلع خاص، ثم ما لبث أن عاد إلى شرود فكره.

- أأنت مسافر إلى مكان ما؟

Twitter: @ketab_n

- نعم . . . مسافر .

- قريباً؟

- قريباً .

- هل لا بد للمرء من مسدس ليذهب إلى «فيلنو»[18]؟

سألته هذا السؤال دون أن يكون في ذهني أي فكرة مبيتة، بل دون أن يكون في ذهني أي فكرة البتة! وإنما راودني هذا السؤال لأنني لمحت مسدساً، وكنت لا أعرف ماذا أقول. فالتفت يحدِّق إلى المسدس، وقال:

- لا . . الأمر . . هكذا . . عادة . .

- لو كان عندي مسدس لدسسته في مكان ما، وأقفلت عليه بمفتاح. إن منظر المسدس يغري! أنا لا أؤمن بوباء الانتحارات[19]. ولكن المرء قد يمر بلحظات يستبد به فيها الإغراء إذا هو رأى هذا الشيء أمام عينيه دائماً.

- لا تقل هذا الكلام.

قال ذلك وهو ينهض فجأة.

أضفت أقول وأنا أنهض أيضاً.

- ما حديثي عن نفسي. فلو وُهبتْ لي ثلاثة أعمار ما اكتفيت بها.

- عش طويلاً.

وكأن هاتين الكلمتين قد أفلتتا من لسانه إفلاتا. وابتسم ابتسامة شاردة، واتجه رأساً نحو مخرج الغرفة اتجاهاً يدعو إلى الاستغراب كأنما هو يرغمني على الانصراف، دون أن يلاحظ طبعاً ماذا كان يفعل. قلت وأنا أضع قدمي على الفسحة أمام الباب:

- أتمنى لك كل التوفيق يا كرافت.

فقال حازماً:

- هذا جائز . .

Twitter: @ketab_n

- إلى اللقاء!
- وهذا أيضاً، جائز.
إنني أتذكر النظرة الأخيرة التي رمقني بها.

- 3 -

ذلكم هو إذاً الرجل الذي خفق قلبي له ذلك العدد كله من السنين! وماذا كنت أنتظر من كرافت؟ أي اكتشافات جديدة؟

حين خرجت من منزل كرافت كان بي جوع رهيب. إن المساء يهبط، ولم أكن قد تناولت غدائي بعد. دخلت مطعماً صغيراً واقعاً في شارع بولشوي بروسبيكت بحي بطرسبرجسكايا نفسه، على نية إنفاق عشرين كوبيكاً أو خمسة وعشرين على أكثر تقدير، فما كان لي أن أبيح لنفسي إنفاق أكثر من ذلك المبلغ في تلك اللحظة. طلبت حساءً، وما زلت أذكر أنني بعد أن احتسيت الحساء نظرت من النافذة. كان المطعم في الداخل حافلاً بجمهور من الطاعمين. رائحة زيت يحترق، ومنشفات وسخة، ودخان تبغ. جو فاسد. وفوق رأسي، هزار لا يغني، قاتم واجم، يضرب بمنقاره قاع قفصه. وفي صالة البلياردو ضجة وصخب. ولكنني بقيت جالساً في مكاني أفكر. إن غروب الشمس (لماذا أدهش كرافت أن يعرف أنني لا أحب ساعات غروب الشمس؟) يولِّد في نفسي إحساسات جديدة لا أتوقعها ولا أرى لها مسوِّغاً. لقد كنت أتمثل النظرة الحنون التي تلقيها عليَّ أمي، وأتمثل عينيها الجميلتين، وأتمثل كيف أصبحت منذ شهر كامل ترنو إليَّ خجلى. في الآونة الأخيرة كنت شديد الفظاظة في المنزل، وخاصةً معها. كان حقدي منصباً على فرسيلوف، ولكنني لجبني عن مخاطبته بفظاظة، على عادتي اللئيمة، كنت أعذبها هي. حتى لقد كانت تخافني: وما أكثر ما

Twitter: @ketab_n

كانت ترنو إليَّ بنظرة متوسلة ضارعة حين كان يدخل أندريه بتروفتش، مخافة أن تصدر عني حماقة ما. . . شيء غريب: إنني الآن، في هذا المطعم، إنما يخطر ببالي لأول مرة أن فرسيلوف كان يخاطبني بصيغة المفرد، وأنها كانت تخاطبني هي بصيغة الجمع. لقد سبق أن أدهشني هذا من قبل، دون أن تشتمل هذه الدهشة على شيء من الإكبار لها، ولكنني أتنبه هنا للأمر تنبهاً خاصاً، وها هي ذي خواطر غريبة تتلاحق في ذهني تلاحقاً سريعاً. لبثت ساكناً زمناً طويلاً، إلى أن انقضت فترة الغسق. وفكرت أيضاً في أختي. . .

كانت تلك اللحظة لحظة حاسمة بالنسبة لي. يجب علي أن اتخذ قراراً مهما كلف الأمر! أأنا إذن عاجز عن اتخاذ قرار؟ أية صعوبة في القطيعة، ولا سيما إذا كان الآخرون لا يريدونني؟ أمي وأختي؟ ولكنني لن أتركهما بأي حال من الأحوال مهما يحدث.

نعم. . . إن ظهور هذا الرجل في وجودي ومضةً من الزمن، في طفولتي الأولى، قد كان تلك الدفعة القدرية التي ابتدأ بها وعيي. فلولا أنني التقيت به عندئذ، لكان عقلي غير ما هو الآن، ولكانت طريقتي في التفكير غير ما هي الآن، ولكان مصيري غير ما هو الآن، رغم طبعي الذي آتانيه القدر ولم يكن في وسعي أن أتجنبه.

وها أناذا أدرك أن هذا الرجل لم يكن إلا حلماً، حلماً من أحلام أولى سني حياتي. أنا الذي تخيلته على هذه الصورة، ولكنه في الواقع مختلف عن هذه الصورة كل الاختلاف، إنه أحطّ كثيراً مما تصوره خيالي. لقد جئت في سبيل أن أجد إنساناً شريفاً، لا هذا الإنسان. ولكن لماذا فتنت به إلى الأبد أثناء تلك اللحظة القصيرة التي رأيته فيها طفلاً؟ يجب أن تزول هذه الـ«إلى الأبد». في يوم من الأيام، إذا أتيحت مناسبة ما، سأقص عليك قصة ذلك اللقاء الأول: إنه حكاية سخيفة لا

Twitter: @ketab_n

تستخرج منها أي نتيجة. ولكنني استخرجت منها يومئذ هرماً ضخماً. بدأت بناء ذلك الهرم تحت غطائي الذي كنت أتدثر به طفلاً، لحظةَ كنت أستطيع، قبل أن يغمض النوم عيني، أن أبكي وأن أحلم. بماذا كنت أحلم؟ أنا نفسي أجهل ذلك. أكنت أفكر في تركهم إياي؟ أكنت أفكر في ألوان العذاب التي كنت عرضةً لها؟ ولكنني لم أعذب كثيراً خلال قرابة سنتين قضيتهما في المدرسة الداخلية، مدرسة توشار التي حشرني فيها قبل أن يذهب إلى غير رجعة. وبعد ذلك لن يعذبني أحد قط. بالعكس، كنت أنا الذي أنظر إلى رفاقي نظرة استعلاء. ثم إنني لا أطيق أولئك اليتامى الذين يشكون حالهم على الدوام. ليس في الدنيا منظر أبشع من منظر هؤلاء اليتامى أو أبناء الزنا وسائر أولئك الذين نبذهم المجتمع، وجميع أولئك الحثالة الذين لا أشعر نحوهم بأي شفقة حين يهبون فجأة أمام الناس ويطفقون يصيحون ملء أفواههم استدراراً للشفقة قائلين: «انظروا كيف نعامل!» لو استطعت لجلدتهم جلداً، هؤلاء اليتامى! ما من أحد من هذه الجمهرة المنحطة يدرك أن الصمت أنبل عشر مرات من العويل، إذا كنت تحرم نفسك يا من جئت إلى هذه الحياة ثمرة حب، فقد نلت ما تستحق. ذلك رأيي أنا!

غير أن الأمر المضحك ليس تلك الأحلام التي كنت أسترسل فيها أيام طفولتي «تحت غطائي»، بل مجيئي إلى هنا من أجله، من أجل ذلك الإنسان الخيالي، ناسياً أهدافي الأساسية تقريباً. لقد جئت أساعده في التغلب على الأراجيف، وأساعده في سحق أعدائه. إن الوثيقة التي كان يتكلم عنها كرافت، أعني الرسالة التي كتبتها تلك المرأة إلى آندرونيكوف، وتخشاها تلك الخشية كلها، لأنها قد تحطم سعادتها وتغرقها في البؤس، والتي تظن تلك المرأة أنها بين يدي فرسيلوف، أقول إن تلك الرسالة ليست لدى فرسيلوف، بل هي معي أنا! فقد

Twitter: @ketab_n

خطتها في جيبي بنفسي، وليس في الدنيا أحد يعرف ذلك. ولئن رأت ماريا إيفانوفنا ذات الطبع الخيالي، وهي التي كانت «تحفظ» الوثيقة، أن تعهد بها إليَّ أنا، لا إلى أحد آخر، فذلك ثمرة أفكارها وإرادتها، وليس عليَّ أن أجد له تعليلاً. قد يتاح لي يوماً أن أقص هذا الأمر. لكنني وقد تسلحت على هذا النحو ارتجالاً، لم يكن في وسعي إلا أن أشعر بحاجة المجيء إلى بطرسبرج. وكنت أعول بطبيعة الحال أن أساعد هذا الرجل سراً، دون أن أتفاخر ودون أن أتحمس، ودون أن أنتظر منه لا أماديح ولا قبلات. وما كان ليخطر على بالي يوماً أن أوجه إليه أي لوم! أكان هو المذنب حين افتتنت به، وحين صنع منه خيالي مثلاً أعلى؟ ولعلني لم أكن أحبه إطلاقاً! إن فكره الشاذ، وطبعه الغريب ومكائده ومغامراته، ووجود أمي بقربه، كل ذلك أصبح فيما يبدو غير قادر على الوقوف في طريقي. يكفي أن دميتي الخيالية قد تحطمت، ولعلني أصبحت عاجزاً عن حبه بعد الآن. فما الذي لا يزال يوقفني، ما الذي لا يزال يمسكني؟ ذلكم هو السؤال. ومهما يكن من أمر، فالأحمق أنا، ولا أحد غيري.

ولكن لما كنت أحب في غيري الصراحة، فسأكون صريحاً أنا أيضاً. يجب أن أعترف أن الوثيقة المخيطة في جيبي لا توقظ في نفسي رغبةً جامحة في أن أخفَّ إلى نجدة فرسيلوف فحسب؛ لقد أصبح هذا واضحاً أشد الوضوح في ذهني الآن، رغم أنني كنت أحمرّ خجلاً حين أتصوره. إن خيال امرأة يتخاطر الآن في رأسي، امرأة متكبرة من المجتمع الراقي، سأقابلها وجهاً لوجه. إن هذه المرأة ستحتقرني، وستضحك مني ضحكها من فأر، دون أن يدور في خلدها أنني سيد مصيرها. كانت هذه الفكرة تسكرني حين كنت في موسكو، وخاصة حين كنت بالقطار في طريقي إلى هنا. لقد سبق أن اعترفت بهذا من قبل. نعم، لقد كنت أكره هذه المرأة، ولكنني قد كنت أحبها كما يحب

Twitter: @ketab_n

امرؤ ضحيته. هذا كله صحيح، هذا كله واقع. ولكن فيه صبيانية ما كنت لأتوقعها أبداً حتى من مخلوق مثلي. إنني أصف عواطفي في ذلك الوقت، أعني العواطف التي دارت في رأسي حين كنت جالساً في المطعم الصغير تحت الهزار، فقررت أن أقطع صلتي بهم، في ذلك المساء نفسه، قراراً لا رجعة عنه. إن صورة لقائي الأخير بتلك المرأة قد جعل دم الشعور بالعار يصعد إلى وجهي فجأة. يا له من لقاء مخجل! يا له من سلوك مخزٍ وغبي، برهن خاصةً أسطع برهان على أنني امرؤ عاجز عن الفعل! قلت لنفسي إن سلوكي يبرهن على أنني عاجز عن الصمود حتى أمام أسخف المغريات، مع أنني كنت قد صرحت لكرافت منذ قليل أن «لي مكانا تحت الشمس»، وأن لي مهمة خاصة بي، وأنني لو وهبت ثلاثة أعمار لكانت قليلة عليَّ. قلت ذلك باعتزاز وفخار. ولأن أكون قد هجرت فكرتي لأتدخل في شؤون فرسيلوف، فذلك ما قد يغتفر. أما أن أقفز يمنةً ويسرة كأرنب مبهور وأن أقحم نفسي في جميع أنواع التفاهات فذلك مني حماقة محضة ما في ذلك شك. هل كانت بي حاجة إلى الذهاب إلى درجاتشيف فأروح أطنب في الكلام وأطنب، بينما كنت مقتنعاً منذ زمن طويل بأنني عاجز عن أن أتحدث في أي أمر من الأمور حديثاً متسقاً معقولاً، وأن الخير كل الخير لي أن أصمت فما أقول شيئاً؟ وهذا إنسان مثل فاسين يلقنني درساً فيقول لي إنه لا يزال أمامي «خمسون عاماً من الحياة، فما عليَّ إذن أن أقلق». اعتراض رائع، أقر بذلك، اعتراض يشرِّف صاحبه هذا الذي يملك ذكاءً لا يمارى فيه... رائع لأنه بين الاعتراضات أبسطها، ولأن الأشياء البسيطة لا تُفهم أبداً إلا في النهاية، بعد أن يكون المرء قد جرب جميع التعقيدات وجميع الحماقات. ولكنني كنت أعرف هذا الاعتراض من قبل أن يقوله لي فاسين؛ كنت قد عانيت هذه الفكرة منذ ما يزيد على ثلاث سنين. أكثر من ذلك إنها بعض

Twitter: @ketab_n

«فكرتي» أنا. ذلكم ما كنت أفكر فيه وأنا في المطعم الصغير.

كنت أشعر بإعياءٍ شديد حين وصلت في المساء، بعد الساعة السابعة، إلى حي سيمينوفسكي، مكدوداً من السير والتفكير. كان الظلام كاملاً. ولقد تغير الجو، فهو الآن جاف، غير أن ريحاً شديدة كانت قد هبت. هي ريح بطرسبرج القاسية الثاقبة. كنت أشعر بها في ظهري، وكانت تثير من حولي رملاً وغباراً. كم من وجوه متعبة بين وجوه هؤلاء الناس المساكين الذين كانوا يسارعون عائدين إلى بيوتهم من العمل أو من أماكن كسب الرزق الأخرى! كان كل منهم يحمل همه القاسي في وجهه... وما من فكرة مشتركة واحدة تجمع هذا الجمهور بعضه إلى بعض! إن كرافت على حق: كل إنسان يسير في جهة. والتقيت بصبي صغير، هو من الصغر بحيث يستغرب المرء أن يراه في مثل هذه الساعة وحيداً في الشارع. لا بد أنه ضل طريقه. وهذه امرأة تقف لحظة لتسأله، ولكنها لم تفهم. فأومأت بيدها بما يدل على أنها لا تستطيع له نفعاً، ثم تابعت طريقها تاركة إياه في الظلام. واقتربت من الصبي، ولكنه خاف مني وهرب. حتى إذا وصلت إلى الدار، قررت ألاّ أذهب بعد اليوم إلى فاسين قط. وشعرت، وأنا أصعد السلم، برغبة محمومة في أن أجد أهلي وحدهم في البيت، من دون فرسيلوف، حتى يكون لي من الوقت ما يتسع لأن أقول لأمي قبل وصوله بضع كلمات طيبة، أو أن أقول بضع كلمات طيبة لأختي العزيزة التي لم أوجّه إليها كلمة خاصة واحدة طوال هذا الشهر. وذلك ما كان: لم يكن فرسيلوف في المنزل...

– 4 –

بالمناسبة: إن عليّ وأنا أدخل في «مذكراتي» هذه «الشخصية الجديدة» (أعني فرسيلوف) أن أورد موجزاً لسجل خدماته في الدولة،

Twitter: @ketab_n

وهي خدمات تافهة على كل حال. لكنني أتكلم عنه ليفهمني القارئ فهماً أكمل، ولأنني أنا نفسي لا أعرف أين يمكنني أن أتحدث عنه في تتمة هذه القصة.

لقد كان فرسيلوف في الجامعة، لكنه دخل بعد ذلك سلاح «الحرس» في فرقة من فرق الفرسان. وتزوج امرأة اسمها فاناريوتوفا، وأحيل على التقاعد. وقام بعدة أسفار إلى الخارج. كان في الفترات التي تتخلل هذه الأسفار يعيش بموسكو متمتعاً بمباهج الحياة في المجتمع الراقي. وحتى إذا ماتت زوجته مضى ينعزل في الريف. وهناك إنما حدثت له قصته مع أمي. ثم أقام مدةً طويلةً في مكان ما بالجنوب. فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد إلى الخدمة في الجيش، ولكنه لم يرسل إلى القرم[20] ولم يشارك في أي عمل. فلما انتهت الحرب أحيل على التقاعد، وسافر إلى الخارج، حتى لقد سافر مصطحباً أمي ثم تركها في كونيغسبرج[21]. وقد حكت لي المسكينة مراراً بنوع من الرعب، وهي تهز رأسها، كيف أنها مكثت وحيدة وحدة تامة مدة ستة أشهر، مع ابنتها الصغيرة، دون أن تعرف لغة البلاد، حتى لكأنها تعيش في غابة، عدا أنها كانت في المدة الأخيرة من إقامتها هناك بغير مال. وقد جاءتها تاتيانا بافلوفنا عندئذ، فأخذتها إلى روسيا إلى مكان في إقليم نيجنى-نوفجورود. ثم كان فرسيلوف في عداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»[22]، فقام بالمهام الموكولة إليه خير قيام فيما قيل. ولكنه لم يلبث أن ترك هذه المهام، وراح يتعاطى في بطرسبرج أعمالا مدنية شتى خاصة. وقد قدر آندرونيكوف كفاءاته قدراً عظيماً على الدوام. فكان يحترمه كثيراً، ولكنه كان يضيف إلى ذلك قوله إنه لا يفهم طبعه. ثم هجر فرسيلوف هذا النوع من الأعمال أيضاً، ورجع إلى الخارج، فأقام هذه المرة مدةً طويلة استمرت عدة سنين. وبعد ذلك بدأت علاقاته

Twitter: @ketab_n

الوثيقة جداً بالأمير العجوز سوكولسكي. وقد تقلبت أحواله المادية في أثناء ذلك الوقت مرتين أو ثلاثاً: فتارةً يهبط إلى الدرك الأسفل من الفقر والبؤس، وتارةً يصعد إلى ذروة الغنى والثراء.

آن الأوان، وقد وصلت إلى هذا الموضع من مذكراتي، أن أتكلم عن «فكرتي» لأول مرة منذ أن نبتت هذه الفكرة في نفسي. هاأناذا أجرؤ على أن أكشف عنها للقارىء وأفعل هذا أيضاً كذلك بغية وضوح قصتي اللاحقة. إن القارىء وأنا نفسي، مؤلف هذه القصة، كلينا نكون عرضةً للارتباك والتشوش إذا أنا حاولت أن أشرح سلوكي دون أن أبدأ بتوضيح الأسباب التي قادتني إليه وحضّتني عليه. ولكنني بهذا «الأسلوب من الإغفال» وقعت من خراقتي في عيوب «الحيل» التي يعمد إليها الروائي، والتي سخرت منها من قبل. إنني إذ بادرت إلى سرد قصتي ببطرسبرج مع كل ما فيها من أحداث مخزية لي، أجد أن هذه المقدمة كانت ضرورة لا غنى عنها. فليست «الحيل» هي التي جعلتني ألتزم الصمت حتى الآن، وإنما ألزمتني به طبيعة الأشياء، أي صعوبة القصة. إنني حتى في هذا اليوم، بعد كل ما جرى، لا أزال أشعر بصعوبة لا سبيل إلى تذليلها وأنا أريد أن أحكي تلك «الفكرة». ثم إن عليَّ طبعاً أن أعرضها في صورتها التي كانت عليها حينذاك، أي كما نشأت في نفسي وتصورها عقلي، لا في الصورة التي آلت إليها الآن، وهذه صعوبة جديدة. هناك أمور يكاد يستحيل على المرء أن يرويها. وإن أبسط الأفكار وأوضح الأفكار هي بعينها أعسرها على الفهم. لو أن كريستوفر كولومبوس أراد قبل اكتشاف أميركا أن يروي فكرته للآخرين لظلوا مدةً طويلة لا يفهمونه فيما أعتقد. وهم كانوا لا يفهمونه فعلاً. إنني إذ أقول هذا الكلام لا أدّعي مقارنة نفسي بكريستوفر كولومبوس. وما على الذي يستخلص هذه النتيجة إلا أن يشعر بخزي وعار، لا أكثر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

- 5 -

إن فكرتي هي أن أكون مثل روتشيلد. إنني أدعو القارىء إلى الهدوء والجد.

أكرر: إن فكرتي هي أن أكون مثل روتشيلد، هي أن أكون في مثل غنى روتشيلد. لا أن أكون غنياً فحسب؛ وإنما أن أكون مثل روتشيلد. أما غرضي من ذلك ودافعي إليه والأهداف التي أسعى إليها، فذلك كله ما سأعالجه فيما بعد. وحسبي أن أبرهن أول الأمر على أن تحقيق هدفي هذا مضمون بدقة رياضية.

المسألة بسيطة غاية البساطة، يكمن سرها كله في كلمتين: العناد، والمثابرة.

قد يقال لي: نحن نعرف هذا، فما هو علينا بجديد. ففي ألمانيا يردده كل فاتر (أب)[23] على مسامع أبنائه. ومع ذلك بقي صاحبك روتشيلد (المرحوم جيمس روتشيلد، الباريسي، الذي أتكلم عنه) فرداً واحداً، مع أن هناك من الفاترات والآباء ملايين.

فأجيب:

- تزعمون أنكم سمعتم هذا. والحق أنكم لم تسمعوا شيئاً البتة. ثمة نقطة أنتم فيها على صواب مع ذلك:

لئن قلت إن الأمر «بسيط غاية البساطة»، فقد نسيت أن أضيف إلى

Twitter: @ketab_n

ذلك أنه أيضاً أصعب أمر. إن جميع الأديان وجميع المذاهب الأخلاقية في العالم ترتد إلى ما يلي: «على المرء أن يحب الفضيلة وأن يتجنب الرذيلة». هل هناك ما هو أبسط من هذا؟ ألا فحاولوا إذاً أن تحققوا فضيلة من الفضائل، وأن تجتنبوا رذيلة واحدة من رذائلكم! هيا حاولوا قليلاً! إن الأمر كله يكمن هنا!

لذلك كان أولئك «الفاترات» الذين لا حصر لهم، والذين تعاقبوا دهوراً لا نهاية لها، يمكنهم أن يرددوا على مسامع أولادهم هاتين الكلمتين المدهشتين اللتين يكمن فيهما السر كله، ثم يبقى روتشيلد فرداً واحداً لا ثاني له. إذاً: ليس الأمر كذلك تماماً، و«الفاترات» يرددون فكرة تختلف عن ذلك كل الاختلاف.

أما العناد والمثابرة فلا شك أبداً في أنهم سمعوا عنها أيضاً. ولكن ما أنا في حاجة إليه ليس هو العناد الذي يتكلم عنه الآباء ولا هو المثابرة التي يتكلم عنها الآباء.

إن كلمة «فاتر» هذه وحدها - ولست أتكلم عن الألمان وحدهم - تعني أن يكون للفرد أسرة، وأن يعيش كما يعيش الآخرون، وأن تكون عليه التزامات كالتزاماتهم، فذلك كله يحول بينك وبين أن تصبح روتشيلد، ويضطرك أن تبقى إنساناً معتدلاً. أما أنا فأفهم أنني متى أصبحت روتشيلد أو متى رغبت في أن أصبح روتشيلد، لا بطريقة الفاترات، بل على نحو جاد، فإنني بذلك أخرج من المجتمع فوراً.

منذ بضع سنين قرأت في الجرائد أنه مات على ظهر مركب بخاري في نهر الفولجا شحاذ يرتدي أسمالاً بالية وخرقاً ممزقة كان يطلب الصدقات من الناس وكانت المنطقة كلها تعرفه. فبعد موته وجدت ثلاثة آلاف روبل مخيطةً في أطماره القذرة. وفي هذه الأيام الأخيرة قرأت قصة جديدة عن شحاذ هو رجل من طبقة النبلاء كان يمضي من نزل إلى

Twitter: @ketab_n

نزل يمد يده مستعطياً. وقد اعتقل الرجل فوجد حاملاً قرابة خمسة آلاف روبل. من هنا نخرج بنتيجتين: الأولى هي أن العناد في الكنز، ولو كان كنز كوبيكات، يؤدي في النهاية إلى ثمرات ضخمة (ولا شأن للزمن في هذا). والثانية هي أن أبسط شكل من أشكال تحصيل الغنى مضمون النجاح بالبرهان الرياضي متى توفّرت شرط المثابرة.

لكن هناك رجال محترمون أذكياء متواضعون، قد يكون عددهم غير قليل، لا يملكون ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف روبل (مهما بذلوا من جهد وتحملوا من عناء)، رغم حرصهم الشديد على أن يملكوا مبلغاً كهذا المبلغ. فلماذا؟ الجواب واضح: هو أنه لا أحد من هؤلاء يرغب في ذلك إلى درجة يقبل معها أن يصبح شحاذاً إذا كان ذلك هو السبيل الوحيد إلى الإثراء، مهما تكن رغبته في الإثراء قوية. ولا أحد منهم يبلغ من العناد أنه إذا أصبح شحاذاً لا ينفق الكوبيكات الأولى التي يستعطيها للحصول على لقمة زائدة له أو لأسرته. في حين أن على المرء إذا هو استعمل هذا الأسلوب في جمع المال، أعني الاستجداء، أن يتغذى بخبز وملح لا أكثر لكنز مثل هذه الأموال. أو هذا ما أتصوره أنا على الأقل. ولا شك في أن هذا ما يفعله ذانك الشحاذان اللذان ذكرتهما منذ قليل. فقد كانا يأكلان خبزاً يابساً وينامان في العراء ومن المؤكد جداً أنهما كانا لا ينويان أن يصبحا مثل روتشيلد: إنهما لم يكونا إلا بخيلين من نوع هارباجون أو بليوشكين[24] لا أكثر. وحتى الادخار الواعي أو الكنز المقصود الذي يتخذ صورة أخرى ويقصد صاحبه أن يصبح مثل روتشيلد، إن هذا الادخار لا يقتضي رغبة أقل أو إرادة أضعف مما يملكه ذانك الشحاذان من رغبة عنيفة وإرادة قوية. بل ما من «أب» يبدي مثل تلك القوة. إن القوى متنوعة تنوعاً كبيراً في هذا العالم، ولا سيما قوى الإرادة والرغبة. شتان بين درجة الحرارة اللازمة

Twitter: @ketab_n

لغليان الماء، وبين درجة الحرارة اللازمة لاحمرار الحديد.

هنا التقشف كما في الدير. هنا مآثر زُهَّاد فعلاً. هذه عاطفة لا فكرة. لماذا؟ في سبيل ماذا؟ أهو عمل أخلاقي أم هو شذوذ عجيب أن يرتدي المرء خرقاً خشنة وأطماراً بالية، وأن يظل حياته كلها يأكل خبزاً أسود، بينما هو يحمل ثروة طائلة؟ هذه مسائل سترد فيما بعد، أما الآن فأكتفي بالحديث حول احتمال الوصول إلى الهدف.

حين تخيلت «فكرتي» (وقوامها حرارة احمرار الحديد) أردت أن امتحن نفسي: أأنا خلقت للدير وللزهد؟ ومن أجل هذا الامتحان لبثت شهراً بكامله لا أطعم إلا خبزاً مع ماء. كنت لا أحتاج إلى أكثر من رطلين ونصف رطل من الخبز الأسود كل يوم. ولكي أستطيع تحقيق هذا التقشف اضطررت أن أخدع نيقولاي سيميونوفتش الذكي وماريا إيفانوفنا التي كانت تريد لي الخير. ما كان أبلغ حزن ماريا إيفانوفنا وما أشد حيرة نيقولاي سيميونوفتش المرهف حين أصررت على أن يحمل طعامي إلى غرفتي فأتلفه هناك بكل بساطة: كنت أصب الحساء من النافذة على نباتات القراص أو أرميه في المراحيض؛ وكنت ألقي باللحم إلى الكلب من النافذة أو أصرّه بورقة فأضعها في جيبي وأمضي بها إلى خارج المنزل وأتخلص من المأكولات الأخرى بنفس الطريقة. وإذ كانوا يعطونني أقل من رطلين ونصف رطل من الخبز، فقد كنت أشتري خبزاً في السر. وصمدت على ذلك الشهر كله، وإن أكن قد أفسدت معدتي قليلاً، فقد أخذت في الشهر التالي أضيف إلى الخبز حساء، وأشرب في الصباح والمساء كأساً من الشاي. وأؤكد لكم أنني قضيت على هذا سنة بأسرها في صحة تامة واكتفاء كامل، وكنت من الناحية النفسية في أثناء ذلك مفتتناً أشد الافتتان، وكنت في حماسة مكنونة مستمرة. لم آسف على المأكولات التي لم آكلها فحسب بل كنت مبتهجاً بذلك. فلما

Twitter: @ketab_n

انقضت السنة وصرت على يقين من أنني أستطيع احتمال أي صيام، عدت آكل كما يأكل سائر الناس، وأمضي أتعشى معهم. ثم لم تكفني تلك التجربة فكررتها مرةً أخرى: كان يحق لي أن أتقاضى مصروفاً قدره خمسة روبلات في الشهر، عدا نفقات الإقامة التي كانت تُدفع لنيقولاي سيميونوفتش. فقررت ألا أنفق من هذا المبلغ إلا نصفه. إن هذا امتحان صعب جداً. ولكنني بعد سنتين أو أكثر قليلاً كان في جيبي حين وصلت إلى بطرسبرج سبعون روبلاً عدا غيرها من المال، ادخرتها من تلك التقتيرات. إن النتيجة التي خرجت بها من هذين الامتحانين تجربة فخمة هائلة: لقد علمت علم اليقين أنني أملك الإرادة اللازمة للوصول إلى هدفي. تلكم هي «فكرتي» كلها. أما كل ما عدا ذلك فأمور تافهة.

– 2 –

مع ذلك فلننظر أيضاً في هذه الأمور التافهة.

لقد وصفت التجربتين اللتين قمت بهما. وأنتم تعلمون أنني في بطرسبرج قد قمت بتجربة ثالثة: مضيت إلى بيع بالمزاد العلني، فربحت سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكاً دفعة واحدة. ولم تكن هذه تجربة بمعنى التجربة طبعاً، وإنما كانت نوعاً من اللعب وضرباً من التسلية: لقد خطر ببالي أن أختلس من المستقبل دقيقة قصيرة لأرى كيف عساني أتصرف. والحق أنني منذ البداية، بموسكو، كنت قد أرجأت الشروع في تنفيذ فكرتي إلى اللحظة التي أصبح فيها حراً حرية تامة. كنت أدرك إدراكا واضحاً أن عليَّ قبل كل شيء، مثلاً، أن أفرغ من المدرسة (أما الجامعة فكنت قد ضحيت بها كما تعلمون.) ومما لا شك فيه أنني سافرت إلى بطرسبرج شاعراً بغضب خفي شديد: وما إن خرجت من المدرسة وغدوت حراً أول مرة حتى رأيت فجأة أن أمور

Twitter: @ketab_n

فرسيلوف ستلهيني عن مشروعي إلى أجل غير معلوم! ولكنني رغم الغضب سافرت مطمئناً إلى هدفي أكبر الاطمئنان.

صحيح أنني كنت أجهل الحياة العملية، لكنني كنت قد فكرت في المسألة ثلاث سنين متتالية، فلم يساورني أي ريب. قلبت الأمور على ألف وجه وأنا أتصور كيف أتصرف: تصورتني في إحدى عاصمتينا على حين غرة كأنني هابط من السحب (لقد اخترت العواصم بدايةً لمشروعي، ولا سيما بطرسبرج التي آثرتها بعد حساب)، ورأيتني - رغم هبوطي من السحب - حراً حريةً كاملة، فما أنا رهن بأحد، ورأيتني موفور الصحة، مع مائة روبل دسستها في جيبي بصفة رأس مال أولي، إذ يستحيل على المرء أن يبدأ بأقل من مائة روبل، وإلا كان يرجىء مرحلة النجاح الأولى مدةً طويلة جداً. وأنا كما تعلمون أملك، عدا المائة روبل، الشجاعة والعناد والمثابرة، والعزلة التامة، والسر المكتوم. ولا سيما العزلة: لشدّ ما كرهت العلاقات بالناس والاشتراك معهم كرهاً فظيعاً إلى آخر لحظة. لقد عزمت أمري على أن أنفذ «فكرتي» وحيداً، Sine qua[25]. إن الناس عبء ثقيل عليَّ، فلو أشركتهم في فكرتي لاضطرب ذهني ولأضر ذلك بهدفي. ثم إنني حتى هذا اليوم، خلال حياتي كلها، في جميع أحلامي عن علاقاتي بالناس كنت أدبر أموري تدبيراً ذكياً. ولكنني لا أكاد أترك أفق الحلم وأشرع في العمل حتى أتصرف تصرفاً أحمق. إنني أعترف بهذا مستاءً صادقاً. لطالما فضحت نفسي بأقوالي، ولطالما أسرفت في التسرع. وبسبب ذلك قررت أن ألغي البشر من مشروعي. الفائدة التي أجنيها من ذلك: الاستقلال، هدوء البال، وضوح الهدف.

رغم أن الأسعار ببطرسبرج فاحشة فقد اتخذت قراراً حاسماً بألا أنفق أكثر من خمسة عشر كوبيكاً لطعامي، وكنت أعلم أنني سأنفذ قراري لا

Twitter: @ketab_n

أحيد عنه. لقد درست مسألة الطعام هذه دراسة طويلة مفصّلة. قررت مثلاً أن آكل خبزاً وملحاً في يومين متتاليين ثم أنفق في اليوم الثالث ما أكون قد حققته من وفر. كان يبدو لي أن هذا أنفع لصحتي من صيام متساو متصل لا أنفق خلاله إلا خمسة عشر كوبيكاً في اليوم. أما عن المسكن فقد كنت في حاجة إلى ركن، إلى ركن لا أكثر، ركن أبيت فيه ليلاً، أو آوي إليه أيام يكون الجو رديئاً. وقد قررت أن أعيش في الشارع، وكنت مستعداً إذا اقتضى الأمر ذلك أن أبيت في ملاجىء الليل التي يعطى النائم فيها، عدا الغطاء، قطعة خبز وكأس شاي. آ. . . لسوف أعرف كيف أخبىء مالي في ركني أو في الملجأ فلا يسرقه أحد. حتى أنهم لن يحزروا شيئاً، أنا أضمن لكم ذلك! «أأُسرق أنا، أنا الذي أمسك عن سرقة الآخرين؟»: لقد سمعت هذه الكلمة الظريفة مرة في الشارع من فم مكّار مرح. وأنا لا أحتفظ منها طبعاً إلا بروح الحذر والمكر، فليس في نيتي أن أسرق أبداً. بل أكثر من ذلك أنني منذ كنت بموسكو، وربما منذ اليوم الذي شهد ولادة «فكرتي» قد قررت أنني لن أكون دائناً برهون، ولا مرابياً: فذلك له اليهود وله الروس الذين لا يملكون ذكاء ولا أوتوا خلقاً. إن الإقراض والربا لهو عمل منحط.

وأما الملابس فقد قررت أن يكون لي رداءان، واحد لكل الأوقات، وواحد لائق. وكنت واثقاً أنني متى ملكت هذا الرداء فسيدوم زمناً طويلاً. لقد قضيت سنتين ونصف سنة أتعلم كيف ألبس ثيابي، حتى لقد كشفت عن هذا السر: من أجل أن يبقى رداؤك جديداً على الدوام، وألا يبلى، فعليك أن تنظفه بالفرشاة كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً، خمس مرات أو ستاً في اليوم. فلا خوف على الصوف من الفرشاة، أقول لكم هذا عن علم مؤكّد، أما الخوف عليه فمن الغبار والأوساخ. إذا نظرت إلى ذرات الغبار بالمجهر وجدتها حصى صغيرة، أما الفرشاة فمهما تكن

Twitter: @ketab_n

قاسية ليست تختلف كثيراً عن الصوف. وقد تعلمت كذلك انتعال الحذاءين. إليكم السر: يجب عليك أن تضع قدمك في حذر، وأن تضع النعل كله دفعةً واحدة، وألا تضغط على إحدى الجهتين إلا أقل ضغط ممكن. ذلك علم يمكن تحصيله في أسبوعين، ثم يجري كل شيء من تلقاء نفسه. بهذه الوسيلة تستطيع أن تطيل عمر الحذاءين ما يساوي ثلثه في المتوسط. تلك تجربتي خلال سنتين.

بعد ذلك يأتي العمل نفسه.

انطلقت من الاعتبار التالي: إنني أملك مائة روبل. وفي بطرسبرج مزادات كثيرة، وتصفيات، وحوانيت، ومعوزون فيستحيل ألا يستطيع المرء أن يشتري شيئاً من الأشياء بثمن ما ثم يبيعه بسعر أعلى. لقد ربحت من بيع «ألبوم» سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكاً، وكان رأس المال الذي صرفته روبلين وخمسة كوبيكات. وقد حققت هذا الربح الضخم بدون مجازفة: قرأت في عيني المشتري أنه لن يتراجع. بالطبع أنا أدرك تماماً أن هذه كانت مصادفة. لكنني إنما أبحث عن مصادفات مثل هذه، ومن أجل ذلك إنما قررت أن أعيش في الشارع. قد تكون هذه المصادفات نادرة جداً، إنني أسلم بذلك. لكن هذا لا يغير قاعدتي الأساسية وهي إلا أجازف. وأما قاعدتي الثانية فهي أن أربح كل يوم أكثر من الحد الأدنى الذي أنفقه على تأمين معيشتي، حتى لا ينقطع الادخار يوماً واحداً.

رب قائلٍ يقول: لكن هذه أحلام. فأنت لا تعرف الشارع، وستُخدع منذ الخطوة الأولى. لقد فات القائل أنني أملك الإرادة وقوة العزيمة، وأن علم الشارع علم كسائر العلوم، وأن تحصيل هذا العلم يكون بالإصرار، والانتباه، واليقظة والمقدرة والكفاءة. لقد كنت في المدرسة بين الأوائل دائماً حتى الصف السابع، وكنت قديراً في الرياضيات.

Twitter: @ketab_n

هل يجوز أن تبجّلوا التجربة وعلم الشارع تبجيلكم للأصنام حتى تتنبأوا لي بالإخفاق حتماً؟! إن الذين يقولون هذا الكلام هم دائماً أولئك الذين لم يقوموا يوماً بأي تجربة ولا عَمَل ولا شرعوا في حياة، وإنما عاشوا في عفونة الكسل. لسان حالهم يقول: «إن فلاناً قد كسر أنفه، فلا بد أن يكسر فلان الآخر أنفه حتماً». لا لن أكسر أنفي. إن لي عزيمة قوية، ولأتعلمنَّ بقليل من الانتباه أي شيء. هل يمكنكم أن تتخيلوا أن المرء يعجز بالإصرار المستمر واليقظة المستمرة والتفكير الدائب والحساب الدقيق والنشاط غير المتناهي والحركة الدائمة عن أن يحصّل العلم اللازم لكسب عشرين كوبيكاً زيادةً في كل يوم؟ لا سيما وأنني قررت إلا أسعى أبداً إلى الحد الأقصى من الربح، وأن أحتفظ دائماً بهدوء أعصابي وبرودة دمي. وفي المستقبل، حين أملك ألف روبل أو ألفين سأترك السمسرة والبيع بطبيعة الحال. ولئن كنت لا أزال قليل العلم بأمور البورصة والأسهم والبنوك والخ.، فإنني في مقابل ذلك كنت أعلم، علمي بأصابع يدي، أنني سأعرف جميع هذه البورصات وهذه البنوك وسأدرسها في حينها كما لن يدرسها أي إنسان آخر، وأن هذا العلم سيسعى إليَّ سعياً متى آن الأوان. هل يحتاج المرء من أجل هذا إلى كثير من الذكاء؟ هل هذه حكمة من حكم سليمان الحكيم؟ يكفي المرء أن يكون قوي العزيمة. أما المهارة والحذق والمعرفة فذلك كله يأتي من تلقاء نفسه. وإنما المهم ألا يكف المرء عن «أن يرغب».

ويجب خاصةً إلا يجازف، وذلك لا يتيسر إلا بقوة العزيمة. منذ مدة قصيرة، بعد وصولي بقليل، كان في بطرسبرج اكتتاب بأسهم سكة حديد. فالذين أمكنهم أن يكتتبوا جنوا ربحاً كبيراً. وخلال بعض الوقت كانت أسعار الأسهم ترتفع ارتفاعاً كبيراً. وهذا شخص تأخر عن

Twitter: @ketab_n

الاكتتاب أو بخيل يرى أسهماً بين يديَّ على حين فجأة، فيعرض عليَّ أن أبيعه إياها بربح يساوي نسبةً مئوية معينة من ثمنها. لسوف أبيعه الأسهم، بل سوف أبيعه إياها حالاً. ولسوف يتهكم الناس عليَّ طبعاً، إذ لو تريثت لنلت ربحاً يقدر بعشرة أضعاف هذا الربح. صحيح، ولكن ربحى الآن أضمن، لأنني أملكه في جيبي، أما ربحكم أنتم فإنه لا يزال في علم الغيب. فإن قلتم إن هذا ليس هو السبيل إلى جني ربح كبير قلت: عفوكم، ذلكم هو خطؤكم، ذلكم هو خطأ جميع أصحابنا هؤلاء أمثال كوكوريف وبولياكوف وجوبونين[26]. تعلموا هذه الحقيقة: أن الاستمرار والعناد في الربح، ولا سيما في الجمع والكنز، أقوى من فوائد مباغتة ولو بلغت مائة بالمائة!

قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بباريس رجل اسمه «لاو»[27] تخيَّلَ مشروعاً يستحق أن يعد عبقرياً من ناحية المبدأ حقا (لكنه انتهى في التطبيق إلى فشل ذريع). لقد هاجت باريس كلها حينذاك، فكان الناس يتنافسون على شراء الأسهم متشاجرين بل متدافعين. كان البيت الذي يجري فيه بيع الأسهم يبتلع أموال باريس كلها. ثم ضاق البيت عن استيعاب الوافدين للاكتتاب، فكان الناس يحتشدون في الشارع من جميع المهن وجميع الطبقات وجميع الأعمار، من البورجوازيين والنبلاء وأولادهم، ومن كونتيسات ومركيزات ومومسات. فكان هؤلاء جميعاً كتلة واحدة حانقة تشبه أن تكون مجنونة كأنما عضها كلب مسعور. إن جميع المشاعر التي يحملها كثير من الناس عن نبالة دمائهم وعُلوّ مراكزهم وسُمُوّ ألقابهم وحتى رفعة الشرف وحُسن السمعة، إن ذلك كله قد ديس بالأقدام. كان الناس يضحّون بكل شيء (وحتى النساء) في سبيل الحصول على عدد من الأسهم. وانتقل الاكتتاب أخيراً إلى الشارع، ولكن لم يكن ثمة مائدة يُكتب عليها. وعندئذ إنما عرضوا

Twitter: @ketab_n

على رجل أحدب أن تتخذ حدبته طاولةً للكتابة برهة. فقبل الأحدب العرض، وفي وسعكم أن تتخيلوا الأجر الذي طلبه! وبعد قليل (بل بعد قليل جداً) أفلس المشروع: تهدّم كل شيء، أرسلت الفكرة كلها إلى الجحيم، وفقدت الأسهم كل قيمة. فمن ذا الذي جنى ربحاً في هذه القضية كلها؟ الأحدب، الأحدب وحده، لأنه لم يؤجر حدبته بأسهم بل بنقود ذهبية! أنا ذلك الأحدب! فقد ملكت القدرة على ألا آكل، وأن أجمع من توفير الكوبيكات اثنين وسبعين روبلاً. وسوف أقدر حتى أيضاً على أن أصمد حين تعصف حمّى بسائر الناس، وأن أوثر مبلغاً مضموناً على مبلغ آخر أضخم منه لكنه غير مضمون. أنا لست ضعيفاً إلا في الأشياء الصغيرة، أما الأمور الكبيرة فلا! كثيراً ما فاتتني قوة العزيمة في الشؤون الصغيرة، حتى بعد ولادة «فكرتي»، بسبب نفاد الصبر. أما إذا كان الأمر خطيراً فلا تعوزني قوة العزيمة أبداً. حين كانت أمي تقدم لي قبل الذهاب إلى العمل قهوة فترت سخونتها، فقد كنت أغضب، وأقول لها كلاماً فظاً، ومع ذلك فإنني ذلك الشخص نفسه الذي عاش شهراً كاملاً لا يأكل إلا خبزاً ولا يشرب إلا ماء.

الخلاصة أنه ليس طبيعياً ألا يعرف المرء كيف يربح، وألا يفلح في تعلم الربح. لا وليس طبيعياً ألا يصبح المرء مليونيراً إذا هو واظب على الادخار بغير انقطاع، وإذا ملك انتباهاً مستمراً بارداً، وإذا بذل جهداً دائماً للتوفير، وطاقةً ما تنفك تزداد وتتسع. كيف ربح الشحاذ ثروته إن لم يكن قد ربحها بقوة العزيمة وشدة الحماسة، واستمرار المثابرة؟ أأنا أسوأ منه؟ «على كل حال، قد لا أجني شيئاً، وقد لا يكون حسابي صحيحاً، وقد أفلس وأنهار. . . فلا ضير. سأظل أسير إلى أمام. أسير لأنني أريد أن أسير». كذلك كنت أقول لنفسي في موسكو.

فإن قلتم إن هذا ليس فيه شيء من «فكرة»، وليس فيه شيء جديد،

Twitter: @ketab_n

قلت لكم آخر مرة: بل إن فيه أفكاراً لا نهاية لها، وإن فيه جدة لا نهاية لها.

آ... لقد أوجست جميع هذه الاعتراضات المبتذلة، ولشد ما أكون أنا نفسي مبتذلاً إذا أنا عرضت «فكرتي»! ما الذي قلته أنا في حقيقة الأمر؟ إنني لم أشرح عشر معشار فكرتي. إنني أشعر أن كل ما قلته يبدو تافهاً، فظاً، سطحياً، وربما حتى أصغر من سني.

– 3 –

بقي أن أجيب عن الأسئلة التالية: «لماذا؟ ما الهدف؟ أهذا أمر أخلاقي أم لا؟»، الخ الخ. وهي أسئلة وعدت بالإجابة عنها.

أشعر بالحزن لأنني سأخيِّب آمال القارىء دفعة واحدة، بل أشعر بالحزن والفرح معاً. إن أهداف «فكرتي» لا تضم أية رغبة في الانتقام، ولا أية رغبة بايرونية: لا لحقد اليتيم ولا لدموع ابن الزنا أي شأن في هذا. إن السيدة الرومانطيقية التي قد يخطر ببالها أن تتصفح مذكراتي هذه سوف تخفض أنفها خائبة الأمل. إن كل الهدف من «فكرتي» هو: العزلة.

– إن بلوغ العزلة يمكن أن يتم بدون أن يبذل المرء جهده لكي يصبح من أمثال روتشيلد. ما شأن روتشيلد في هذه القصة؟.

– إن له مكانه فيها. لأنني، عدا العزلة، في حاجة إلى القدرة.

اسمحوا لي بتمهيد: قد يفزع القارىء من صراحتي في الاعتراف، فيتساءل بغير قليل من السذاجة كيف لم يحمرَّ كاتب هذا الكلام خجلاً؟ فأجيب بأنني لا أكتب للنشر، وأنني قد لا أُقرأ إلا بعد عشر سنين، وذلك حين تكون الأمور قد تمت على الوجه الأكمل، فلا يكون عليَّ أن أحمر خجلاً من شيء. فإذا كنت في هذه المذكرات أخاطب قارئاً

Twitter: @ketab_n

أحياناً، فواضح أن ذلك ليس إلا أسلوباً في الكتابة لا أكثر. إن قارئي شخص خياليّ.

لا، لا ولادتي غير الشرعية التي كانوا يغيظونني بها كثيراً في مدرسة توشار، ولا الحزن الذي عشته في سني طفولتي، ولا أية رغبة في الانتقام أو الاحتجاج، لا شيء من ذلك كله كان له شأن في ولادة «فكرتي»: لقد ولدت فكرتي من طبعي ولادة عادية. لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمري، أي منذ بداية الإدراك السليم، كما أظن، أصبحت لا أحب الناس، أو على الأصح أصبح وجودهم يثقل على صدري وتضيق به نفسي. وقد شق عليَّ أحياناً في لحظات صفائي، أن لا أستطيع البوح للقريبين مني بما يزخر به قلبي، بل قل إنني كنت أستطيع ذلك ولكن لا أريده. كان شيء ما يصدني. كنت شكاكاً، نافراً من صحبة الناس، متجهم النفس. عدا ذلك، لحظت أنني، منذ طفولتي تقريباً، شديد الميل إلى اتهام الآخرين، ولكنني سرعان ما أرتد إلى نفسي فأسائلها سؤالاً يثقل عليَّ ثقلاً شديداً: «ألست أنا المذنب؟» وكثيراً ما كنت أدين نفسي ظلماً! فمن أجل أن أتقي أزمات الضمير هذه، كنت أجهد أن أعتزل الناس. ثم أنني لم أجد شيئاً في مجتمع الناس مهما بذلت من الجهد. كان رفاقي جميعاً أقل ذكاءً مني، لا أستثني منهم أحداً.

نعم، كنت قاتم المزاج، فلا أكف عن الانغلاق على نفسي، ولا أكف عن الرغبة في الانسحاب من المجتمع. ولعلني كنت أستطيع أن أصنع خيراً للناس، ولكنني كنت في كثير من الأحيان لا أرى ما يدعوني إلى أن أصنع لهم خيراً. ليس الناس أخياراً فأهتم بهم. لماذا لا يأتون هم إليَّ؟ لماذا يكون عليَّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى؟ ذلك ما كنت أقوله لنفسي. إنني قادر على الاعتراف بالجميل، وقد برهنت على ذلك بألف حماقة ارتكبتها. إنني أرد على البادرة الحسنة ببادرة أحسن.

Twitter: @ketab_n

الصراحة أقابلها بالمودة. هذا ما كنت أفعله، ولكنهم جميعاً كانوا يخدعونني في الحال وينغلقون على أنفسهم ساخرين مني. الشخص الوحيد الذي كان يفتح لي قلبه هو لامبرت الذي طالما ضربني ضرباً مبرحاً في سني طفولتي الأولى. وحتى هو فلم يكن سوى سافل ووغد صريح، وصراحته كانت ترجع إلى غبائه وحده. تلك كانت أفكاري حين وصلت إلى بطرسبرج.

حين خرجت من عند درجاتشيف (أي شيطان دفعني إلى بيته؟)، اقتربت من فاسين، وباندفاعة مودة، أزجيت له المديح. ولكن تلك المودة قد نقصت منذ ذلك المساء نفسه. لماذا؟ لا شيء إلا لأني مدحته. فبدا لي أنني بذلك قد خفضت قدري. مع ذلك ألا يرتفع قدر المرء حين يطري ولو على حساب نفسه أحداً يستحق هذا الإطراء؟ ذلك كان رأيي ومع ذلك نقص حبي لفاسين، بل نقص كثيراً. هذا مثال تعمّدت أن أسوقه والقارىء يعرفه. وأصبحت لا أفكر في كرافت أيضاً إلا وأشعر بمرارة. أما ذنبه فهو أنه شيّعني متلطفاً حتى الباب. وهذا الشعور بالمرارة لم يتبدد حتى في الغد حين اتضح كل شيء ولم يبق هناك ما يمكن أن أؤاخذه عليه. إنني منذ أيام دراستي في الصفوف الأولى للمدرسة كنت غضوباً إذا تفوق عليَّ أحد رفاقي في امتحان، أو بزَّني في تمارين الرياضة البدنية، أقاطعه فلا أكلمه. لا لأنني أكرهه أو أغار من نجاحه، بل لأن هذا طبعي.

نعم، لقد استولى عليَّ حلم القوة والعزلة طوال حياتي، حتى في سن لو أتيح لأحد أثناءها أن يرى ما كان يدور في رأسي من خواطر لضحك ضحكاً شديداً. لذلك أحب السرَّ كثيراً. وكنت أسترسل في الأحلام استرسالاً لا يُبقي لي وقتاً للحديث مع الناس. وقد استنتج الناس من ذلك أنني متوحش، وكان ذهولي يبعثهم على تأويلات أشد إيغالاً في الخطأ

Twitter: @ketab_n

بصدد صحتي. ولكن خديَّ المتوردين كانتا تبرهنان على نقيض ذلك.

وما كان أشد فرحي حين كنت أطمر نفسي تحت أغطيتي في المساء، فتهدأ من حولي ضجة الحياة المشتركة، وتأخذ أحلامي في بناء العالم على ما يشاء لي هواي في وحدة الليل! إن حالة الاسترسال في الحلم هذه قد لازمتني إلى أن اكتشفت «فكرتي»: فإذا بأحلامي تصبح معقولة بعد أن كانت غبية، وتتحول إلى صورة واقعية منطقية بعد أن كانت في صورة خيالية روائية.

انصهر كل شيء في هدف واحد. الواقع أن تلك الأحلام لم تكن غبية حتى قبل ذلك، وإن كانت كثيرة لا حصر لها. وكان بينها أحلام أفضِّلها على ما عداها... ولكن لا داعي إلى الكلام عنها هنا.

القدرة! قد يضحك بعض الناس حين يرون شخصاً «حقيراً» مثلي يتطلع إلى القدرة. ولسوف يدهشون أكثر من ذلك أيضاً إذا أنا قلت لهم إنني منذ طفولتي - أو نحو ذلك - لم أستطع في يوم من الأيام أن أتخيل نفسي إلا في المنزلة الأولى في كل تقلبات الأحوال وعلى الدوام. إليكم اعترافا غريباً آخر: قد لا أزال أتصف بهذه الصفة، ولا أستغفر عنها أحداً.

هذه «فكرتي» - وهذه قوّتها -: إن المال وحده يستطيع أن يقود امرىء إلى المنزلة الأولى، ولو كان تافهاً «لا قيمة له». قد لا أكون تافهاً. لكنني أعلم مثلاً، من النظر في المرآة، أن مظهري الخارجي يضرّ بي، لأن وجهي عادي لا يتميز بشيء. أما لو كنت غنياً مثل روتشيلد، فمن ذا الذي كان يمكن أن يهتم بوجهي؟ لو كنت غنياً مثل روتشيلد لكان يكفي أن أصفر صفرة واحدة حتى تهرع إليَّ ألوف النساء تعرض علي محاسنها. بل إني لمقتنع بأنها ستظنني في النهاية جميلاً، صادقات كل الصدق. وقد أكون ذكياً. ولكن يكفي أن يكون جبيني سبع بوصات

Twitter: @ketab_n

حتى يغلبني جاري إذا كان له من البوصات ثمانياً. أما إذا كنت غنياً مثل روتشيلد، فإن ذلك الحكيم الذي يبلغ جبينه ثماني بوصات سيكون شخصاً لا قيمة له، حتى أنهم لا يتيحون له أن يفتح فمه في حضوري! وقد أكون فكهاً خفيف الظل. ولكن هذا تاليران، وهذا بيرون[28].. فإذا أنا أُمحى أمامهما فلا يبقى لي وجود. أما إذا كنت غنياً مثل روتشيلد، فأين يكون بيرون؟ بل أين يكون تاليران؟ لا شك في أن المال قوة طاغية، ولكنها بمعنى من المعاني تحقق نوعاً من المساواة. ذلك ما خلصت إليه وقررته وأنا بموسكو.

قد لا يبدو لكم هذا كله إلا وقاحة واستهتاراً، وقد تظنون أنه يهدف إلى تغليب التفاهة على الموهبة. صحيح، ولكن هذه الفكرة جَسورة (وهي بهذا نفسه لذيذة). هل تعتقدون أنني كنت أرغب في القوة بهدف الانتقام أو الاضطهاد؟ حقاً، لا بد لشخص تافه أن يسلك هذا السلوك. أكثر من ذلك فإنني لمقتنع بأن أبرز الأفراد الموهوبين والأذكياء لا بد أن يتصرفوا هذا التصرف الذي تنسبه إليّ ظلماً إذا هم أوتوا ما أوتي روتشيلد من ثراء. أما أنا ففكرتي مختلفة عن هذا كل الاختلاف. إنني لا أخشى المال: إن المال لن يضطهدني ولن يحملني على اضطهاد أحد.

ما أنا في حاجة إلى مال، أو قل ليس المال هو ما أنا في حاجة إليه - حتى ولا القدرة. وإنما أنا في حاجة إلى ما تتيح القوة للمرء أن يحصل عليه، ولا يمكنه أن يحصل عليه إلا بها: أعني الشعور المعتزل الهادئ بالقوة! هوذا أكمل تعريف للحرية والذي يعكف العالم على صياغته! الحرية! أخيراً كتبت هذه الكلمة الكبيرة... نعم، إن الشعور المعتزل بالقوة جميل جاذب في ذاته ومسكِر. إنني أملك القوة، وإنني هادئ البال. إن الرعود بين يدي جوبيتر، ولكن جوبيتر هادئ. هل تسمع

Twitter: @ketab_n

جوبيتر يرعد أحياناً كثيرة؟ رب أحمق يظن أن جوبيتر نائم. أحلَّ محل جوبيتر رجلاً من هؤلاء الأدباء أو امرأة حمقاء من تلك القرويات لتسمعنَّ الرعد عندئذ لا ينقطع قصفه!

إنني كنت أفكر فأقول لنفسي: متى ملكت القوة فلن أحتاج إليها. وإنني لعلى ثقة بأنني، من تلقاء نفسي، وبكامل رضاي، سأحتل المنزلة الأخيرة عندئذ في كل مكان. لو كنت روتشيلد، لتجولت مرتدياً معطفاً مرقعاً، حاملاً بيدي مظلة. ولن يؤذيني عندئذ أن يصدمني أحد في الشارع أو أن أركض في الوحل حتى لا تدوسني العربات. حسبي شعوري بأنني أنا روتشيلد حتى أكون فرحاً في تلك اللحظة. أن أعرف أن في إمكاني أن أصيب وجبة من طعام لا يصيب أحد مثلها، وجبة يهيئها لي أحسن طباخ في العالم: يكفيني أن أعرف هذا. وسوف آكل قطعة من خبز وشريحة من الجمبون، فأكون راضياً كل الرضى. وما زال هذا هو تفكيري إلى الآن.

لست أنا من يسعى عندئذ إلى معاشرة الأرستقراطية، بل الأرستقراطيون هم الذين سيسعون عندئذ إليَّ ينشدون صحبتي. لست أنا من سيجري وراء النساء، بل النساء هن اللواتي سيتهافتن عليَّ تهافت الذباب، ويقدمن إليَّ كل ما تستطيع امرأة أن تقدمه. فأما «المبتذلات» منهن فسيجذبهن المال، وأما من كان لهنّ فكر فسيجذبهن إليَّ حب التعرف إلى إنسان غريب الأطوار متكبر مغلق على نفسه غير مكترث بشيء. وسوف ألاطف هؤلاء وأولئك على السواء. ولقد أعطيهن مالاً، لكني لن أقبل منهن شيئاً. وحب الاطلاع يولّد الهوى: فلقد أوقظ في نفوسهن الهوى أيضاً. وأؤكد لكم أنهن لن يظفرن مني بشيء اللهم إلا بعض الهدايا. ولن يورثني هذا إلا مزيداً من الدهشة والاستغراب:

«حسبي هذا الإدراك..»[29]

Twitter: @ketab_n

إن الشيء الغريب هو أن هذه الصورة (وهي صحيحة على كل حال) قد أغرتني وفتنتني منذ كنت في السابعة عشرة من عمري.

لا أريد ولا أنتوي أن أضطهد أحداً ولا أن أعذب أحداً. ولكنني أعلم أنني إذا أردت أن أضيّع أحداً من الناس، عدواً من أعدائي، فلن يمنعني أحد من ذلك، وأن الجميع سوف يعاونونني في هذا جاهدين. وهنا أيضاً حسبي ذلك. بل إنني لن أنتقم من أحد. لطالما أدهشني أن جيمس روتشيلد قد قبل أن يحمل لقب «بارون»! علام؟ لماذا؟ ما حاجته إلى اللقب وهو بدونه تفوَّقَ على جميع الناس في هذه الحياة الدنيا؟ «أوه! في وسع ذلك الجنرال الوقح أن يهينني في محطة تبديل الأحصنة التي كنا فيها معاً ننتظر الخيول. فلو عرف من أنا لركض يتولى بنفسه قرن خيول عربتي، ولساعدني على الصعود إلى مركبتي المتواضعة! لقد كتب أحدهم يقول إن رجلاً أجنبياً يحمل لقب كونت أو بارون كان في قطار فيينا مع رجل من أصحاب البنوك في تلك المدينة فألبس قدميه بابوجيهما، وكان صاحب البنك من الابتذال بحيث قبل ذلك! أوه! وفي وسع تلك الحسناء الرهيبة (أقول الرهيبة لأن بين الحسناوات من هنَّ رهيبات!) في وسع تلك الفتاة التي هي بنت تلك الارستقراطية الفخمة الجليلة، إذا هي لقيتني عرضاً في سفينة أو غير ذلك، أن تنظر إليَّ شزراً وأن تشمخ بأنفها وأن تدهش باحتقار من هذا الرجل الصغير الوضيع الهزيل الذي يحمل بيده كتاباً ويتجرأ أن يجلس بجانبها في الدرجة الأولى! ولكنها لو علمت من ذاك الذي يجلس إلى جانبها! ولسوف تعلم ذلك، سوف تعلمه فتأتي تجلس إلى جانبي من تلقاء نفسها، خاضعة خجلى ملاطفة، ساعية إلى نظرة ألقيها إليها، فرحة بابتسامة أنعم بها عليها. . .» إنني أتعمّد إدخال هذه المشاهد التي كنت أتصورها قبلاً، لأعبر عن فكرتي تعبيراً أوضح. ولكنها مشاهد

Twitter: @ketab_n

شاحبة، ولعلها مبتذلة. إن الواقع يؤكد أو ينفي، وحده يبرر كل شيء.

رُبّ قائل يقول إن حياة المرء على هذا النحو سخيفة: فلماذا لا يكون له فندق، لماذا لا يكون له منزل مفتوح للناس، لماذا لا يستقبل ممثلي المجتمع الراقي ويكون له تأثير ونفوذ، ولماذا لا يتزوج؟ ولكن ما الذي سيصير إليه روتشيلد عندئذ؟ سوف يكون كسائر الناس. سوف يزول كل ما في «الفكرة» من فتنة وقوة أخلاقية. لقد حفظت على ظهر القلب في طفولتي، الحوار الداخلي الذي دار بين «الفارس البخيل» الذي صوره بوشكين وبين نفسه. إن بوشكين لم ينتج ما هو أعلى من هذا الكلام بمقياس الفكرة! وأنا ما زلت أحرص على هذه الأفكار إلى اليوم. وقد يقال لي باحتقار:

- ولكن مَثَلَك الأعلى منحط جداً. المال! الثراء! فأين مصلحة المجتمع، وأين المآثر الإنسانية؟

ولكن هل يعرف أحد في أي وجه من الوجوه سأستعمل ثرائي؟ أين النأي عن الأخلاق وأين الحطة في أن تنزل هذه الملايين من براثن يهودية قذرة ضارة إلى يدي زاهد ثابت عاقل يلقي على العالم نظرة ثاقبة؟ على أن أحلام المستقبل هذه ليست الآن بوجه الإجمال إلا نوعاً من حكاية، ولعلني أخطأت إذ دونتها، ولعله كان يجدر أن تبقى في رأسي لا تخرج منه. وأنا أعلم أيضاً أن أحداً قد لا يقرأ هذه الأسطر. ولكن إذا قرأها أحد، فهل يقدِّر أنني قد لا أحتمل ملايين روتشيلد؟ نعم، قد لا أستطيع أن أحتملها، لا لأنها يمكن أن تسحقني، بل بمعنى آخر هو نقيض هذا المعنى تماماً. لطالما عانقت مراراً، في أحلامي، اللحظة المستقبلة التي سيكون فيها شعوري قد ارتوى ارتواء تاماً، وأصبحت أرى أن القوة لا تكفيني. لسوف أرد جميع تلك الملايين إلى الناس حينذاك، لا عن ضجر ولا عن سَأَم بغير هدف بل لأن مطالبي

Twitter: @ketab_n

تفوق هذا كثيراً: إلا فلتقتسم الإنسانية ثروتي عندئذ كما تشاء، أما أنا فأنضم إلى التافهين من جديد! لقد أستحيل يومذاك إلى ذلك الشحاذ الذي مات في السفينة، مع فارق واحد هو أنهم لن يجدوا شيئاً من مال خيط في أسمالي البالية. إدراكي وحده بأنني كان بين يدي ملايين فرميتها في الوحل مثل الغراب[30]، سيكفيني غذاء في صحرائي. إنني ما زلت مستعداً لأن أفكر هذا التفكير نفسه حتى اليوم. نعم، إن «فكرتي» هي القلعة التي يمكنني في كل وقت وفي كل ظرف أن أختبىء فيها من جميع الناس، ولو كنت شحاذاً مات في المركب. تلكم هي قصيدتي! واعلموا أنني في حاجة إلى إرادتي السيئة كاملةً، لا لشيء إلا أن أبرهن لنفسي أنني أملك القدرة على العدول عنها.

ولا بد من معترض يقول إن هذا الكلام شعر، وإنني لن أتخلى عن ملاييني أبداً متى ملكتها، وإنني لن أستحيل يوماً إلى شحاذ ساراتوف. والحق أنني قد لا أتخلى عن ملاييني فعلاً. وأنا لم أزد هنا على أن رسمت لكم الخطوط العريضة من المثل الأعلى الذي يتصوره فكري. ولكنني أضيف الآن إلى كلامي جاداً أنني إذا بلغت من كنز المال إلى الرقم الذي بلغته ثروة روتشيلد، فلقد أستطيع فعلاً أن أرمي هذه الثروة في وجه المجتمع. (أما قبل الوصول إلى هذا الرقم فقد يكون من الصعب أن أفعل). وليس نصف الثروة هو ما سأهبه، وإلا كان عملي مبتذلاً، وكنت أُفقر نفسي إلى النصف لا أكثر. وإنما سأهب ثروتي كلها، إلى آخر كوبيك منها، لأنني إذ أصبح شحاذاً، أصبح رأساً أغنى من روتشيلد ضعفين! إذا لم تفهموني فليس الذنب ذنبي. ولن أدخل في شروح.

سوف يقول الناس جازمين: «هذا من الدروشة، هذا شعر التفاهة والعجز، هذا انتصار اللاموهبة والسبيل الوسط!» نعم، أعترف لكم بأن

Twitter: @ketab_n

هذا انتصار اللاموهبة والسبيل الوسط، ولكنه ليس انتصار العجز. لقد شعرت بفرح جنوني حين تصورت نفسي غير موهوب وتافهاً، أقف أمام الناس فأقول لهم مبتسماً: أنتم أمثال غاليليو وكوبرنيك، وشارلمان ونابوليون، وبوشكين وشكسبير[31]، ومارشالات القتال والبلاط، أما أنا فرجل بلا موهبة وابن زنا ولكنني مع هذا فوقكم، لأنكم خاضعون لهذه الحقيقة من تلقاء أنفسكم. إنني أعترف بأنني مضيت في هذا التخيل إلى أقصاه، حتى تصورتني بغير تعليم. فبدا لي أن الأمر يكون أجمل إذا كان هذا الرجل جاهلاً جهلاً بشعاً. وقد كان لهذا الحلم الذي يشتمل على مبالغة وغلو أثر في نجاحاتي المدرسية في الصف السابع. فانقطعت عن الدرس تعصباً فكان يبدو لي أن المثل الأعلى يزداد جماله بانتقادي الثقافة بدون التعليم. وقد تغير رأيي الآن في هذه النقطة. فصرت أعتقد أن التعليم لن يكون فيه ضرر.

يا سادتي، هل يعقل أن يكون استقلال الفكر، مهما يكن استقلالاً محدوداً، شاقاً على أنفسكم إلى هذا الحد؟ سعيد مَنْ كان له مثل أعلى للجمال ولو كان خاطئاً! ولكنني مؤمن بصحة مثلي الأعلى. كل ما هنالك أنني عرضته عرضاً أخرق، ولم أحسن الإفصاح عنه. ولا شك في أنني سأستطيع بعد عشر سنين أن أعرضه عرضاً أفضل. وبانتظار ذلك سأحتفظ بهذا كله للذكرى.

– 4 –

ها قد انتهيت من «فكرتي». وإذا كنت قد وضعتها وضعاً مبتذلاً سطحياً فهذا ذنبي أنا لا ذنبها هي. لقد سبق أن نبَّهت إلى أن أبسط الأفكار هي أعسرها فهماً. وأضيف الآن إلى ذلك إنها أعسرها عرضاً. لا سيما وأنني حكيت «فكرتي» في صورتها السابقة. وعكس هذا

Twitter: @ketab_n

صحيح أيضاً: إن الأفكار المسطحة السريعة يفهمها الناس بسرعة خارقة، ولا سيما الجمهور، الشارع. وأكثر من ذلك إنها تعد أعظم الأفكار وأكثرها عبقرية، ولكنها لا تعد كذلك إلا في يوم ظهورها. فما هو رخيص الثمن لا يدوم طويلاً. إن الفهم السريع دليل على ابتذال الشيء الذي يجب فهمه. إن فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية على الفور، وبسمارك نفسه أصبح رجلاً عبقرياً[32]، ولكنْ هذه سرعة تدعو إلى الاشتباه: إنني أنتظر بسمارك عشر سنين، فأرى عندئذ ماذا يبقى من فكرته، بل ربما ماذا يبقى من السيد المستشار نفسه أيضاً. هذه ملاحظة عرضية تماماً، ولا شأن لها بالموضوع، ومن الواضح أنني لم أدخلها على سبيل المقارنة، وإنما للذكرى أيضاً. (هذا شرح أخص به القارىء الكثيف ذهنه).

والآن سأقصّ حادثتين لأنتهي من «فكرتي» تماماً وعلى نحو لا تربكنا معه في الحديث القادم إطلاقاً.

في الصيف، في شهر تموز، قبل سفري إلى بطرسبرج بشهرين، وكنت خالياً خلواً تاماً، طلبت مني ماريا إيفانوفنا أن أذهب إلى بلدة ترويتسكي بوساد لأقوم بمهمة لها لدى عانس كانت تقيم هناك، والمهمة أتفه من أن أعرض لها هنا بالتفصيل. فأثناء عودتي في ذلك اليوم نفسه لاحظت في عربة القطار شاباً نحيفاً، في وجهه بثور، يلبس ثياباً حسنة، لكنه غير نظيف، هو واحد من أولئك السمر الذين يضرب لونهم إلى البرونز المتسخ. وكان الشاب يلفت النظر بأنه في كل محطة أو موقف كان ينزل من القطار حتما ليشرب شيئاً من الفودكا. وفي خاتمة المسير كانت قد تحلقت حوله عصبة فرحة وإن تكن خبيثة جداً. وكان أكثر أفراد هذه العصبة حماسة رجل من التجار كان هو أيضاً ثملاً بعض الشيء، وقد أعجب بما يملكه الشاب من قدرة على أن يشرب بغير

Twitter: @ketab_n

انقطاع دون أن يسكر. وكان لا يقل عنه رضاً وارتياحاً فتى غبي غباء رهيباً، كثير الكلام، يرتدي ثياباً على الزي الأوروبي، وتفوح منه رائحة كريهة جداً: إنه خادم كما عرفت ذلك فيما بعد. وقد انعقدت بينه وبين عاشق الفودكا الشاب صداقة، فكان هو الذي يدعوه إلى النزول عند كل موقف قائلاً: «آن الأوان لنشرب الفودكا»، ثم ينزلان متعانقين. وقد أصبح الشاب بعد الشرّاب صامتا لا يكاد يقول كلمة واحدة، ولكن عدد المتحادثين الذين يتحلقون حوله ما ينفك يزداد. فكان يكتفي بالإصغاء إليهم، ولكنه لا يني يقهقه ويريل، ويرسل من حين إلى حين أصواتاً من هذا النوع: «تور لور لو!»، يرسلها فجأة بغير توقع، ويجري حركة كاريكاتورية فيحمل إصبعه إلى أنفه. وكان ذلك هو ما يبهج التاجر والخادم وسائر الناس بهجة كبيرة، فكانوا يضحكون ضحكاً مجلجلاً جلجلة خارقة بغير تحرج. إنه ليستحيل عليك أحياناً أن تدرك لماذا يضحك الناس. واقتربت أنا أيضاً. فلا أدري لماذا أثار هذا الشاب شعوراً بالإعجاب في نفسي أيضاً. لعل ما أعجبني فيه هو هذا الخروج الواضح على الرسميّات المألوفة المتحجرة. والمهم على كل حال أنني لم ألاحظ حماقته. لذلك سرعان ما أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد من غير كلفة. فلما غادرت القطار علمت منه أنه سيأتي في المساء بعد الساعة الثامنة إلى شارع تفرسكوي. واتضح أن الشاب طالب ترك الجامعة. وذهبت إلى الموعد المضروب، فإليكم اللعبة التي علمني إياها. نتجول معاً في المنتزهات والشوارع، وبعد قليل، متى رأينا امرأة حسنة ليس حولها أحد، أسرعنا نعاكسها؛ وبدون أن نقول لها كلمة واحدة، نحدق بها أنا من طرف وهو من طرف آخر، ونأخذ بيننا حديثاً بذيئاً إلى أبعد حدود البذاءة، محتفظين بمظهر هادىء كل الهدوء، كأننا لا نراها البتة. نسمي الأشياء بأسمائها، جادين جداً لا يعكره معكر،

Twitter: @ketab_n

كأن الأمر طبيعي إلى أقصى درجة؛ ومن أجل أن نأتي على أبشع الحقارات والدناءات ندخل في تفاصيل لا يستطيع أقدر خيال فاسق أن يتخيلها. (وكنت قد تعلمت هذه التفاصيل كلها في المدارس طبعاً، حتى قبل المدرسة الثانوية، ولكنني تعلمتها قولاً لا فعلاً). فكانت المرأة تفزع طبعاً، وتغذّ الخطى، ولكننا نغد الخطى مثلها ونستمر في الحديث موغلين فيه مزيداً من الإيغال. ولم يكن في وسع ضحيتنا أن تفعل شيئاً بطبيعة الحال، ولا يمكنها حتى أن تصرخ، ولا شهود علينا، ثم إنها لو شكتنا لكان ذلك منها أمراً مستهجناً غريباً. سلخنا في هذه التسلية ثمانية أيام. ولست أفهم كيف أمكنني أن أستطيبها. وما كنت أستطيبها في الواقع.. وإنما حدث هذا.. هكذا... بدا لي الأمر في البداية طريفاً خارجاً على المألوف وعلى المواضعات المقررة المقبولة. وكنت عدا ذلك لا أطيق النساء. وقد أسررت في ذات مرة إلى الطالب أن جان جاك روسو، في كتابه «الاعترافات»[33]، قد روى أنه في شبابه كان يحب أن يكشف عوراته عارية كل العري ويلبث على هذا الوضع في إحدى الزوايا إلى أن تمر نساء فتراها. فلم يجبني الطالب إلا بأصواته «تور - لور - لو». فلاحظت أنه جاهل جهلاً مطبقاً رهيباً، وأنه لا يهتم بشيء ذي بال. ولم أكتشف عنده فكرة واحدة من تلك الأفكار الأصيلة التي كنت أتوقع أن أجدها عنده. لم أقع لديه على أصالة بل على تكرار رتيب مرهق. فأصبح كرهي نحوه يزداد. ثم انتهى كل شيء على نحو لم يكن في الحسبان: ففي ليلة تكاثفت فيها الظلمات لاصقنا فتاة في ريعان الصبا كانت تسير في الشارع مسرعة وجلة. لعل عمرها ستة عشر عاماً أو يَقِل. ثيابها نظيفة جداً على بساطة. أغلب الظن أنها تعيش من عملها، وربما كانت في تلك الساعة عائدة إلى البيت حيث تنتظرها أم عجوز هي أرملة فقيرة مثقلة بأعباء أسرة. ولكن لا داعي إلى الانقياد

Twitter: @ketab_n

للعواطف. ظلت الفتاة تسمع حديثنا بعض الوقت، ثم غذت الخطى، ثم مالت برأسها وغطت وجهها بحجابها خائفة مرتعشة. ثم إذا بها تتوقف على حين فجأة، فتكشف عن وجهها الذي كان حلواً إذا صدقت ذاكرتي، لكنه كان نحيلاً هزيلاً، وصرخت تقول لنا وقد قدحت عيناها شرراً:

- يا لكما من وغدين!

ولعلها كانت تهم أن تبكي، ولكن حدث شيء آخر. فها هي ذي ترفع يدها الصغيرة الهزيلة مهتاجة، وتهوي على وجه الطالب بصفعة سُمع صوتها، ولعلها لا تضارعها في إحكامها صفعة! فقذفها الطالب بشتيمة وهمّ أن يهجم عليها، ولكنني أمسكته فاستطاعت الفتاة أن تهرب. فلما صرنا وحيدين تشاجرنا، ونددت به مخرجاً كل ما كان قد تراكم في نفسي أثناء ذلك الوقت، وقلت له إنه ليس إلا امرءًا عاجزاً تافهاً، وإنه لم تساور ذهنه في يوم من الأيام فكرة. فأجابني بشتائم... (وكنت قد ذكرت له مرة أنني ابن زنا)، ثم افترقنا وقد بصق كل منا احتقاراً، ولم أره بعد ذلك قط. وقد شعرت في تلك الليلة بغضب شديد. وكان غضبي في الغد أقلّ. أما في غداة غد فكنت قد نسيت كل شيء. وبعد ذلك كنت أتذكر تلك الفتاة من حين إلى حين، ولكنني أتذكرها مصادفة، وأتذكرها عرضاً. حتى إذا وصلت إلى بطرسبرج بعد أسبوعين تذكرت المشهد على حين بغتة. تذكرته فسرعان ما استولى عليَّ شعور بالعار بلغ من الشدة أن الدموع سالت على خديَّ فعلاً. وظللت أعاني عذاباً شديداً طوال المساء، وطوال الليل، وما زلت أعاني شيئاً من هذا العذاب إلى الآن. ولقد عجزت في أول الأمر أن أفهم كيف أمكنني أن أسقط إلى ذلك الدرك الأسفل، وأن أنسى الحادث خاصة، وأن لا أحمّر منه خجلاً، وأن لا تلتهمني الندامة التهاماً. والآن

Twitter: @ketab_n

فقط إنما أدرك حقيقة الأمر. لقد كان الذنب ذنب «الفكرة». إن النتيجة التي أخلص إليها هي أنه متى استقر في ذهنك شيء ثابت، دائم، قوي، يملأ عليك نفسك، فإنك تنفصل من جراء ذلك عن العالم معتصماً بالعزلة، وكل ما يحدث يمرّ عابراً دون أن يمس شيئاً رئيسياً. حتى الانطباعات تصبح غير صحيحة. وعدا ذلك، وخاصة، لا تعدم أن تجد لنفسك عذراً في كل وقت. لشد ما عذّبت أمي في ذلك الأوان! ما أكثر ما كنت أهجر أختي هجراً مخجلاً! «ولكن لا! إن لي «فكرتي»، وكل ما عداها لا قيمة له!» ذلك ما كنت أقوله لنفسي. وكان يحدث أن أُهان، بل أن أُهان بقسوة، فكنت أمضي لا ألوي على شيء، قائلاً لنفسي بعد ذلك: «هه! لنسلم بأنني حقير ولكن لي «فكرتي» وهم لا يعرفون عنها شيئاً». كانت «الفكرة» تعزيني عن العار وعن التفاهة. ولكن جميع دناءاتي كانت كأنها تحتمي تحت «الفكرة» أيضاً. كانت «الفكرة» تسهل عليَّ كل شيء، ولكنها كانت تحجب عني كل شيء كذلك. على أن فهم الظروف والأشياء فهماً يبلغ هذا المبلغ من الغموض لا يمكن إلا أن يضر بالفكرة نفسها، ناهيك عما عدا ذلك.

والآن، إليكم الحادثة الثانية:

في أول نيسان من السنة الماضية كانت ماريا إيفانوفنا تحتفل بعيد شفيعها. وجاء في المساء عدد من المدعوين، عدد ليس بالكبير. وهذه آجرافينا تدخل على حين فجأة لاهثة لهاثاً شديداً، فتعلن أن في الدهليز أمام المطبخ وليداً متروكاً يصيح... وأنها لا تدري ماذا تفعل. فأهاج هذا النبأ جميع الحضور، وهرعنا جميعاً إلى هناك فرأينا قِفّةً من قش، ورأينا في القِفّة بنتاً عمرها ثلاثة أسابيع أو أربعة كانت تبكي معولة. فتناولت القِفّة وحملتها إلى المطبخ، وعثرت في الحال على ورقة مطوية نصفين قد كتب عليها ما يلي: «أيها المحسنون الأعزاء، أنعموا بعطفكم

Twitter: @ketab_n

الجميل على هذه البنت التي عمدت باسم آرينا. إننا، نحن وهي، سوف نظل نرفع دموعنا إلى السماء أبد الآبدين، داعين لكم بالخير. ونتمنى لكم عيداً سعيداً: أناس لا تعرفونهم». وعندئذ إنما أحزنني نيقولاي سيمينوفتش أشد الحزن، وكنت أحترمه كثيراً. فلقد تجهّم وجهه، وقرر إرسال الطفلة إلى ملجأ الأيتام فورا. فتألمت أشد الألم. لقد كانت الأسرة تعيش عيشة ضيقة. ولكن لم يكن لها أولاد، وكان نيقولاي سيمينوفتش يغبط نفسه على هذا دائماً. أخرجت الصغيرة آرينا من القِفّة بحذر، وأنهضتها من كتفيها. ففاحت من القفة رائحة حامضة قوية كالتي تفوح من رضيع أهملوه ولم يغسلوه مدة طويلة. وبعد أن ناقشت نيقولاي سيمينوفتش برهة، أعلنت له على حين فجأة أنني سوف أتكفّل بالطفلة. فأخذ يعترض اعتراضات فيها شيء من الصرامة، رغم رقّة طبعه، ثم ختم كلامه بمزاحة، ولكنه أصر على رأيه بضرورة إرسال الطفلة إلى ملجأ الأيتام. ومع ذلك جرى كل شيء كما أردت. كان يسكن في العمارة نفسها، ولكن في جناح آخر، نجار فقير جداً، مسنّ وسكّير. وكانت زوجته، وهي امرأة شابة قوية، قد فقدت منذ مدة قصيرة وليداً لها رضيعاً، وكان الوليد وحيدها الذي أنجبته بعد ثماني سنين من زواج عقيم، وكان الوليد بنتاً كذلك، بل كان من المصادفات الغريبة ومن حسن الحظ أن اسم البنت المتوفاة كان آرينا أيضاً. أقول من حسن الحظ، لأن هذه المرأة وقد عرفت بالنبأ بينما كنا نتناقش في المطبخ، أسرعت تجيء إلينا لترى، فما إن عرفت أن الصغيرة اسمها آرينا حتى رقّ لها قلبها. وكان ثدياها لا يزالان يدران، فكشفت عن صدرها وأخذت ترضع الطفلة. فجثوت عند قدميها وابتهلت إليها أن تأخذ البنت متعهداً بأن أدفع نفقات معيشتها كل شهر. فكانت تخشى أن زوجها لن يسمح لها بذلك. ولكنها أخذتها لتؤويها هذه الليلة على كل

Twitter: @ketab_n

حال. حتى إذا كان الصبح سمح زوجها بحضانة الطفلة على أن يتقاضى ثمانية روبلات في الشهر. فنقدته على الفور نفقات شهر سلفاً. فمضى يشرب بها خمراً. وقد رضي نيقولاي سيمينوفتش الذي كان لا يزال يبتسم ابتسامة غريبة، أن يكفلني لدى النجّار متعهداً بأن لا أتخلف عن دفع المبلغ - وهو ثمانية روبلات - كل شهر. حتى إني حاولت أن أقدم الستين روبلا لنيقولاي سيمينوفتش لكي يكون مطمئن البال إلى كفالته، ولكنه لم يأخذها. وكان يعرف على كل حال أن معي مالاً وكان يثق بي. فكان من شأن هذه البادرة اللطيفة منه أن محت ما حدث بيننا من فتور لحظة. ولم تقل ماريا إيفانوفنا شيئاً، ولكنها استغربت مني أن أرضى تحمل هذا الهمّ. وإني لأشكر لهما كثيراً ما أظهر كلاهما من رقة الذوق إذ لم يسمح أحد منهما لنفسه بأية مزحة في حقي، حتى لقد نظرا إلى الأمر نظرة فيها كل ما يليق من جد. وأصبحت أثب إلى عند داريا روديفونوفنا كل يوم ثلاث مرات؛ وبعد أسبوع نفحتها ثلاثة روبلات زيادة، على أن يكون هذا المبلغ لها هي، بغير علم زوجها. وبثلاثة روبلات أخرى اشتريت للطفلة غطاء وأقمطة. ولكن لم تمض عشرة أيام حتى مرضت الصغيرة آرينا. فاستدعيت لها الطبيب فوراً، فوصف لها لا أدري أي دواء، وقضينا الليلة كلها نعذّب الطفلة المسكينة بهذا الدواء اللعين. وجاء الطبيب في الغد فقال إن الأوان قد فات، فلما أخذت أتضرع إليه، وربما أخذت ألومه أيضاً قال مترفّعاً: «أنا لست الرب». كان لسان الطفلة وشفتاها الصغيرتان وفمها كله قد غطاه طفح أبيض دقيق. وما إن جاء المساء حتى ماتت وهي تحدق إليَّ بعينيها الواسعتين السوداوين كأنما كانت تدرك وهي في تلك السن. لا أدري لماذا لم يخطر ببالي أن التقط للميتة الصغيرة صورة فوتوغرافية. على كل حال. . هل تصدقون أنني ما بكيت في ذلك المساء بكاء، وإنما طفقت

Twitter: @ketab_n

أعول عويلاً، وذلك أمر لم أسمح به لنفسي من قبل في يوم من الأيام قط. حتى لقد اضطرت ماريا إيفانوفنا أن تعزيني. ومرة أخرى لم يشتمل موقفها ولا موقف زوجها على أي شيء من سخرية. وقد تولى النجار بنفسه صنع التابوت الصغير. وزيّنته ماريا إيفانوفنا ببعض الدانتيل، ووضعت فيه وسادة صغيرة لطيفة. واشتريت أنا أزهاراً فنثرتها على الطفلة. وهكذا أخذت زهرتي الصغيرة المسكينة، زهرة الحقول، التي لا أستطيع إلى اليوم أن أنساها، أصدقتم هذا أم لا تصدقوه. ولكن هذا الحادث الذي يكاد يكون مفاجئاً قد حملني بعد مدة قصيرة على التفكير، بل حملني على التفكير جاداً كل الجد. صحيح أن آرينا لم تكلفني مالاً كثيراً: فنفقات التابوت، والدفن، والطبيب، والأزهار، وأجر داريا روديفونوفنا، لم تزد على ثلاثين روبلاً. وحين سافرت إلى بطرسبرج استعدت هذا المبلغ توفيراً من الأربعين روبلا التي أرسلها إليَّ فرسيلوف للرحلة، وربحاً من بيع عدد من الأشياء الصغيرة، فبقي «رأسمالي» سليماً كأنه لم يمس. ولكنني قلت لنفسي: «إذا انحرفت انحرافات أخرى من هذا النوع، فلن أمضي إلى بعيد». إن حكاية الطالب قد برهنت على أن «الفكرة» يمكن أن تؤدي بالمرء إلى غموض انطباعاته وأن تصرفه عن الواقع. أما حكاية آرينا فإنها تبرهن على نقيض ذلك: تبرهن على أنه ما من «فكرة»، تستطيع أن تبلغ من فتن المرء (من فتني أنا على الأقل) حدّ منعه من التوقف فجأة أمام حادث قاهر، والتضحية بكل ما قام به خلال سنين من عمل في سبيل «الفكرة». ومع ذلك كانت النتيجتان كلتاهما صحيحة.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

- 1 -

لم تتحقق آمالي تحققاً كاملاً. كان فرسيلوف غائباً. ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت عند أمي، وهي رغم كل شيء غريبة. فسرعان ما تبدد نصف ما كان يملأ نفسي من عاطفة حسنة كريمة. غريب أمري: ما أسرعني إلى التغير والتبدل في مثل هذه الظروف: تكفي ذرة غبار أو شعرة حتى يزول صفاء مزاجي ويحل محله الكدر. ومن سوء الحظ أن مشاعري الكدرة أقل سرعة إلى التبدد، رغم أنني لست بالحقود. حين دخلت لاحظت أن أمي كانت قد أسرعت تقطع الحديث الذي يجري بينها وبين تاتيانا بافلوفنا والذي كان واضحاً أنه حديث حامٍ. وكانت أختي قد رجعت من عملها قبل وصولي بدقيقة واحدة، ولمّا تعد إلى الخروج من غرفتها بعد.

إن الشقة تضم ثلاث حجرات: الحجرة التي يلتئم فيها شمل الجميع كما جرت العادة؛ والحجرة الوسطى أو الصالون وهي حجرة واسعة كافية وتكاد تكون لائقة، ففيها مقاعد حمراء طرية - لكنها مهترئة اهتراء شديداً (كان فرسيلوف لا يطيق الأغطية الواقية)، وفيها بضع سجادات وعدة طاولات ومناضد لا فائدة منها؛ ثم غرفة فرسيلوف التي تقع على اليمين، وهي غرفة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة، فيها مكتب حقير ألقيت عليه عدة كتب مهجورة وأوراق منسية، وأمام المكتب مقعد رخو

Twitter: @ketab_n

لا يقل عنه حقارة قد برز نابضه المكسور فانتصب في الهواء، وذلك ما كان يحمل فرسيلوف كثيراً على الأنين والتشكي والتجديف. وفي تلك الغرفة نفسها إنما جُعل له سرير رخو مهترئ أيضاً. ولقد كان فرسيلوف يكره هذا المكتب، وأظن أنه كان لا يستعمله أبدا، وإنما يؤثر أن يبقى في الصالون ساعات كاملةً بغير عمل. وعلى يسار الصالون توجد غرفة صغيرة مماثلة تماماً كانت تنام فيها أمي وأختي. وسبيل الوصول إلى الصالون دهليز يؤدي إلى المطبخ الذي تسكن فيه الطباخة لوكيريا. فإذا كانت لوكيريا تطبخ انتشرت رائحة فضلات الطعام في الشقة كلها. فكان يتفق لفرسيلوف في بعض اللحظات أن يلعن حظه وحياته كلها بصوت عال بسبب روائح المطبخ هذه، وكنت أنا من هذه الناحية وحدها أوافقه كل الموافقة. إنني أكره هذه الروائح أنا أيضاً، رغم إنها كانت لا تصل إليَّ حينذاك، فلقد كنت أسكن في أعلى، في حجرة تحت السقف أصعد إليها على سلم شديد الصرير، وعر وعورة فظيعة. وكان من طرائف هذه الحجرة التي أسكنها أن لها كوة صغيرة نصف دائرية، وسقفاِ واطئاً إلى حد رهيب، وأن فيها كنبة مغطاة بقماش مشمع كانت لوكيريا تغطيه في المساء بشرشف وتضع عليه مخدة. أما باقي الأثاث فهو شيئان: طاولة من ألواح خشبية بسيطة، وكرسي خاسف من خيزران.

الحق أن الشقة كانت لا تزال تضم رغم ذلك بقايا شيء من رخاء سابق: ففي الصالون مثلاً يوجد مصباح جميل من الخزف، وقد علقت بالحائط صورة محفورة كبيرة رائعة لـ«مادونا» درسدن[34]، وقبالتها، على الحائط الآخر، صورة فوتوغرافية ثمينة وكبيرة جداً، تمثل الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسا[35]. وفي هذه الغرفة نفسها علقت في ركن من الأركان خزانة أيقونات قديمة تملكها الأسرة: فإحدى هذه الأيقونات (وهي أيقونة جميع القديسين) كانت في إطار مكسو بفضة

Twitter: @ketab_n

مذهبة - وهذه هي الأيقونة التي كان يراد رهنها - والأيقونة الثانية (أيقونة العذراء) كانت في إطار مكسو بمخمل مطرز بلآلئ. وأمام هذه الأيقونات كان يعلق مصباح يشعل في عشيات الأعياد. ولقد كان واضحاً أن فرسيلوف لا يحفل بهذه الأيقونات من حيث دلالتها: فهو يكتفي بتقطيب حاجبيه محاولا ضبط نفسه حين يرى نور المصباح تعكسه الزخرفات المذهبة، متشكياً في رفق من أن ذلك يضر بنظره، لكنه كان لا يمنع أمي من إشعال المصباح.

ولقد كنت أدخل في العادة متجهم الوجه، موجهاً بصري إلى ركن من الأركان، وأحياناً حتى دون أن أحيِّي. وكنت أعود إلى البيت دائماً قبل هذه الساعة التي عدت فيها هذه المرة فإنني حين دخلت قلت لأمي فجأة: «يومك سعيد يا ماما»، وذلك ما لم يكن يحدث أبداً من قبل. ولكنني بنوع من الخجل الزائف لم أستطع حتى في هذه المرة أن أنظر إليها، وجلست في الزاوية المقابلة من الغرفة. كنت متعباً جداً، ولكنني كنت لا أفكر في ذلك.

قالت تاتيانا بافلوفنا هامسةً:

- هذا القليل الأدب لا يزال يدخل عليك دخولاً وقحاً كما كان يفعل من قبل.

وكانت تاتيانا بافلوفنا تبيح لنفسها أن تقول كلمات جارحة من هذا القبيل، حتى لقد أصبح ذلك نوعاً من العادة بيني وبينها.

أجابت أمي تقول وكأنها قد ارتبكت حالاً من تحيتي لها:

- يومك سعيد. . .

وأضافت بما يشبه اضطراب الخجل:

- العشاء مهيأ منذ مدة طويلة. آمل أن لا يكون الحساء قد برد. أما الكستليتات فسآمر بها فوراً. . .

Twitter: @ketab_n

وهمت أن تنهض مسرعة لتذهب إلى المطبخ. فشعرتُ - ربما لأول مرة منذ شهر - بخجل مفاجىء من رؤيتها تسارع إلى خدمتي هذه المسارعة كلها، على حين أنني كنت إلى ذلك اليوم أطالبها بذلك بنفسي.

قلت لها:

- أشكرك يا ماما، لقد تعشيت. إذا لم يكن هذا يزعجك فأستريح هنا.

- آ. . . لا مانع. . . إبقَ. . .

- ولا تقلقي يا ماما، فلن أقول لآندره بتروفتش بعد الآن كلمات فظة.

كذلك أعلنت لها فجأة. . .

فهتفت تاتيانا بافلوفنا تقول:

- الله الله. . . يا للنبل والشهامة! عزيزتي صوفيا، هل يعقل أن تظلي تخاطبينه بصيغة الجمع؟ من هو حتى يستحق هذا التكريم. . . من أمه؟ ثم ما هذا؟ ما لي أراك مضطربة أمامه؟ هذا مخجل!

قلت:

- سيسرني أنا نفسي أن تخاطبيني بصيغة المفرد يا ماما.

فأسرعت أمي تقول:

- آ. . . طيب. . اتفقنا. . لم أكن أخاطبك على هذا النحو في جميع المرات. . . ابتداء من اليوم، اتفقنا.

واحمرت احمراراً شديداً. إن وجهها في بعض الأحيان فتان. . . وجه طيب. . وليس ساذجاً البتة. . وجه شاحب قليلاً. هو وجه إنسان مصاب بفقر الدم. خداها نحيلتان جداً، بل خاسفتان، وقد أخذت تتراكم على وجهها غضون كثيرة، ولكن الغضون لم تظهر حول عينيها

Twitter: @ketab_n

بعد. وهاتان العينان، الواسعتان المنفتحتان، تلتمعان دائماً ببريق ناعم هادئ جذبني منذ أول يوم. والشيء الذي كنت أحبه أيضاً هو أن وجهها ليس فيه شيء من حزن أو مذلة. بالعكس: كان تعبير وجهها يمكن أن يعد جذلاً لو لم تكن تقلق غالباً بدون أي سبب على الإطلاق في بعض الأحيان. إنها ترتاع حتى لقد ترتجف أحياناً لأمر تافه كل التفاهة أو إذا أصغت إلى حديث جديد كانت تصغي مذعورة، إلى أن تقتنع اقتناعا تاما بأن الأمور لا تزال تجري مجرى حسناً كالعادة. وكانت جملة «كل شيء يجري مجرى حسناً» ترادف في ذهنها أن «كل شيء لا يزال يجري كالعادة». كل ما يهمها هو أن لا يحدث تغير، كل ما يهمها هو أن لا يقع جديد، وإن يكن هذا الجديد سعيداً!.. في وسع المرء أن يتصور أنها قد خُوفت في طفولتها تخويفاً رهيباً. وعدا العينين كنت أحب فيها بيضوية وجهها أيضاً، حتى لأظن أنها لو كانت وجنتاها أقل عرضاً بقليل، لكان يمكن أن تعد جميلة، لا في شبابها فقط، بل اليوم أيضاً. إن عمرها الآن لا يزيد على تسعة وثلاثين عاماً، ولكن شعرها الكستنائي قد خالطه بياض كثير منذ الآن.

نظرتْ إليها تاتيانا بافلوفنا باستياء قاطع وقالت لأمي:

- أترتعدين هذا الارتعاد أمام غر كهذا؟ إنك مضحكة يا صوفيا! لسوف تثيرين غضبي وحنقي!

- آه... تاتيانا بافلوفنا، لماذا تقسين عليه هذه القسوة الآن بالذات؟ ولكنك تمزحين أليس كذلك؟

أضافت أمي هذا السؤال الأخير إذ لاحظت في وجه تاتيانا بافلوفنا نوعاً من التبسم. صحيح أن تقريعات تاتيانا بافلوفنا لا يمكن أن يعبأ بها كثيراً، ولكنها كانت تبتسم هذه المرة لأمي وحدها (إن كانت قد تبسمت)، لأنها كانت تحب طيبة أمي حباً شديداً، ولأنها لاحظت حتماً

Twitter: @ketab_n

ما بعثه خضوعي في نفس أمي من سعادة كبيرة في تلك اللحظة.

فاضطررت أخيراً أن أخاطب تاتيانا بافلوفنا:

- إنك تهجمين على الناس هجوماً فيه شيء من الخشونة، وكان هجومك عليَّ أنا اليوم في غير محله يا تاتيانا بافلوفنا، هجمت، إذ قلتُ حين دخولي: «يومك سعيد يا ماما». وهو ما لم أقله يوماً.

فانفجرت في الحال تقول:

- اسمعوا هذا الكلام! أنه يعد ذلك مأثرة منه! هل يجب علينا إذاً أن نركع أمامك لأنك كنت مهذباً مرة في حياتك؟ بل هل كنت مهذباً بالفعل؟ لماذا تنظر إلى ركن الغرفة حين تدخل؟ أتظن أنني لا أعرف كيف تعاملها؟ وكان في وسعك أن تحييني أنا أيضاً. لقد كنت أتولى تقميطك، وأنا عرابتك!

ولم أتنازل فأرد عليها طبعاً، ودخلت أختي في تلك اللحظة، فقلت لها فوراً:

- رأيت اليوم فاسين يا ليزا. وقد سألني عنك. هل تعرفينه؟

فأجابتني ببساطة كبيرة وهي تجلس إلى جانبي وتلقي عليَّ نظرة لطيفة:

- نعم، تعرفنا في لوغا، في السنة الماضية.

لا أدري لماذا كان يبدو لي إنها لا بد أن تحمّر حين أكلّمها عن فاسين. إن أختي شقراء، شُقرةٌ زاهية. شعرها ليس كشعر أبي ولا كشعر أمي. ولكن عينيها تكادان تكونان عيني أمي، وكذلك وجهها البيضوي. أنفها مستقيم صغير متسق. وهناك خاصة أخرى: إن في وجهها نمش، وذلك ما لا تجده في وجه أمي. من فرسيلوف ليس فيها شيء، ربما باستثناء القامة الممشوقة الحلوة، وشيء من فتنة في المشية لا أدري ما هي. أما أنا فليس بيني وبينها أي شبه: بل نحن نقيضان.

Twitter: @ketab_n

أضافت ليزا تقول:

- عرفتهم ثلاثة أشهر.

- هل عن فاسين تقولين هم؟ يجب أن تقولي عرفته لا عرفتهم؟ اغفري لي يا أختي إنني أصحح لك خطأك، ولكن يؤلمني أن يكون أمر تعليمك قد أهمل كل هذا الإهمال.

فانفجرت تاتيانا بافلوفنا قائلة:

- عيب عليك أن تبدي هذه الملاحظة بحضور أمك. ثم إنك تكذب. إن ليزا لم يهمَل أمر تعليمها أبداً.

فقلت بلهجة جازمة:

- أنا ما عنيت بهذا أمي. اعلمي يا ماما أن رأيي في ليزا كرأيي فيك. لقد جعلت منها رائعة من روائع الطيبة والنبل، فهي تذكِّر حتماً بما كنت عليه أنت في الماضي، وبما لا تزالين عليه، وبما ستظلين عليه إلى الأبد. . . وإنما أنا عنيت بكلامي ذلك الطلاء الخارجي الاجتماعي الذي أعرف أنه تافه ولكنه ضروري. إنني ليسوءني أن يسمعك فرسيلوف قائلة عن فاسين هم بدلاً من هو، ثم لا يصحح لك خطأك من شدة تعاليه علينا وقلة اكتراثه بنا. ذلك هو ما يحنقني!

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول وهي ترشقني بنظرة صاعقة:

- انظروا إلى هذا الدب الصغير يتصدى لتعليم غيره الآداب! حذار يا سيد أن تقول بعد اليوم «فرسيلوف» وبحضور أمك وبحضوري أنا أيضاً. فلن أطيق ذلك!

- ماما، قبضت اليوم أجري خمسين روبلاً، فخذيها، أرجوك. هي ذي!

قلت هذا لأمي وتقدمت منها ماداً إليها المال، فظهر عليها في الحال الارتياع، ثم قالت وكأنها تخشى حتى أن تمسه بيدها:

Twitter: @ketab_n

- ولكن. . . ولكنني لا أدري كيف آخذ هذا المال!

فلم أفهم. وقلت:

- ولكن يا ماما إذا كنتما تعداني ابناً وأخاً، فعندئذ. . .

- آه. . . إنني مذنبة في حقك يا آركادي . هناك أشياء يجب أن أعترف لك بها، ولكنني شديدة الخوف منك. . .

قالت ذلك وهي تبتسم في وجل ابتسامة ضارعة. فلم أفهم أيضاً وقاطعتها قائلاً:

- بالمناسبة، هل تعلمين يا ماما أن القضاء قد فصل اليوم في قضية أندره بتروفتش وآل سوكولسكي؟

فهتفت تقول وهي تعقد كفيها من الذعر أمامها (وتلك حركة مألوفة فيها):

- نعم أعلم!

وارتعشت تاتيانا بافلوفنا ارتعاشاً شديداً، وقالت تسأل:

- اليوم؟ مستحيل. لو أن الحكم قد صدر لأعلمني بذلك.

ثم أضافت وهي تلتفت إلى أمي:

- هل أبلغك أنت؟

- لا، لم يقل إن فصل القضاء يتم اليوم بالذات. ولكنني خائفة خوفاً شديداً منذ أسبوع كامل. . . ألا فلنخسر القضية وأصلي للرب شاكرة على شرط أن نتخلص من هذا الأمر ويجري كل شيء كالعادة.

فهتفت أسأل أمي:

- إذاً لم يبلغك أنت أيضاً! يا له من رجل عجيب! هذا مثال على شدة تعاليه وقلة اكتراثه. ألم أقل لكم ذلك منذ قليل؟

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تسأل:

- ولكن ماذا كان الحكم؟ ماذا كان الحكم؟ من قال لك؟ هلا قلت أخيراً!

Twitter: @ketab_n

- ولكن ها هو بنفسه قد وصل! فلعله يطلعنا على ما حدث.

كذلك أعلنتُ إذ سمعت وقع خطاه في الدهليز، وأسرعت أجلس بقرب ليزا، فقالت لي ليزا هامسة:

- أخي، ناشدتك الله.. ارحم ماما، اصبر على أندريه بتروفتش...

- سأصبر. على هذه النية إنما وعدت.

وشددت على يدها. فرشقتني ليزا بنظرة مليئة بالارتياب. وكانت على حق.

- 2 -

دخل فرسيلوف راضياً عن نفسه مسروراً بها، حتى أنه لم يجد أن من الضروري أن يخفي ذلك. وقد اعتاد في الآونة الأخيرة على وجه العموم أن يكشف عن نفسه أمامنا بدون أي كلفة أو تحرج لا في لحظات اعتكار مزاجه فحسب، بل في نوبات مرحه أيضاً، وذلك أمر يتهيبه كل إنسان أكثر ما يتهيب. وكان يعلم مع ذلك حق العلم أننا سنفهم كل شيء حتى أدق التفاصيل. لقد أصبح يهمل هندامه إهمالاً شديداً في هذه السنة الأخيرة، كما لاحظت ذلك تاتيانا بافلوفنا: صحيح أنه يرتدي دائماً ملابس لائقة، ولكنها ملابس عتيقة بغير أناقة. أصبح مستعداً لأن يلبس قميصاً واحداً مدة عشرة أيام، وكان هذا حتى يحزن أمي حزناً شديداً، ولكنه يُعدُّ في المنزل تضحية منه وبطولة، وكانت تلك الجمهرة كلها من النساء المخلصات يرين فيه مأثرة. إن قبعاته رخوة سوداء عريضة الحافات دائماً. وكان إذا خلع قبعته نزلت على جبينه خصلة من شعره الذي كان شديد الكثافة والغزارة وإنما يخالطه بياض كثير. وكنت أنا أحب أن أنظر إلى شعره حين يخلع قبعته.

- يومكم سعيد. أرى الشمل ملتئماً فليس أحد غائباً. وحتى هذا أراه

Twitter: @ketab_n

معكم. لقد سمعت صوته وأنا في المدخل. لا شك أنه كان يقول فيَّ سوءاً، أليس كذلك؟

إذا بادر يمزح في حقي كان ذلك دليلاً على أنه رائق المزاج. ولم أجب طبعاً. ودخلت لوكيريا وهي تحمل كيساً ممتلئا بمشتروات ووضعته على الطاولة.

- انتصرت يا تاتيانا بافلوفنا! ربحت الدعوى ولن يجرؤ الأمراء سوكولسكي أن يلجأوا إلى محكمة النقض والإبرام. أصبحت القضية في الجيب! ولقد وجدت من يقرضني ألف روبل حالاً. صوفيا، اتركي شغلك هذا، لا تتعبي عينيك. ليزا، أأنت عائدة من العمل؟

فأجابت ليزا وقد لاح في وجهها الحنان:

- نعم يا بابا.

لقد كانت ليزا تسميه بابا. أما أنا فلم أرغب أن أذعن لهذا في حال من الأحوال.

- أأنت تعبانة؟

- نعم.

- اتركي هذا العمل، لا تذهبي إليه غداً، إهجريه هجراً تاماً.

- ولكن ترك العمل سيضايقني مضايقة أكبر.

- أرجوك. . . إنني أكره عمل النساء يا تاتيانا بافلوفنا.

- وكيف تعيش بغير عمل؟ امرأة لا تعمل! . .

- أعرف، أعرف. . . هذا الكلام كله حسن، وأنا موافق عليه سلفاً ولكنني أقصد خاصة أشغال الخياطة والتطريز. وهذا يرجع إلى إحساس من أحاسيس الطفولة هو من آلمها في نفسي، بل قولوا هو من أكثرها إيغالاً في الخطأ. ففي ذكرياتي الغامضة عن العهد الذي كانت سني فيه خمسة أعوام أو ستة ما أزال أرى في أكثر الأحيان، بشيء من الاشمئزاز

Twitter: @ketab_n

طبعاً، مجمعاً من النساء أشبه بمجمع كرادلة قد جلسن إلى مائدة مستديرة عابسات الوجه متجهمات الهيئة، وأرى مقصات وأقمشة و«بترونات» وصور موضة، وأرى هذه النساء كلها تناقش وتجادل، هازةً رؤوسها بوقار وبطء وهي تقيس وتحسب وتتهيأ للقص. إن جميع تلك الوجوه الأنيسة التي تحبني كثيراً قد أصبحت لا أستطيع الاقتراب منها على حين فجأة. وإذا ارتكبت أي عمل من أعمال العفرتة التي يقوم بها الأطفال، طردت على الفور حتى دادتي المسكينة تمسكني من يدي وتكف عن الاستجابة لصراخي وتبرمي لكنها كلها أعين وآذان أمام الشغل الذي هن منصرفات إليه، فكأنها تتأمل طائراً من الجنة. فتلك القسوة في الوجوه الذكية، وتلك الرصانة في الهيئة قبل القص، لا تزال تؤلمني إلى الآن حين أتصورها. تاتيانا بافلوفنا، إنك تحبين القص حباً شديداً! أما أنا فإنني أوثر للمرأة أن لا تعمل شيئاً البتة، مهما يكن هذا أرستقراطياً. لا يذهبن بك الظن إلى أنني أعنيك أنت يا صوفيا. . . هل تستطيعين فهم ذلك؟ إن المرأة بدون هذا كله قوة كبرى. ثم إنك يا صوفيا تعرفين هذا أيضاً. ما رأيك يا آركادي ماكاروفيتش؟ لا شك في أنك ستعترض، أليس كذلك؟

أجبت قائلاً:

- لا، أبدا. هذا تعبير رائع: المرأة قوة كبرى. ولكنني لا أرى لماذا تربط بين هذا الأمر وبين الأشغال التي تقوم بها السيدات! ثم إنك تعرف بنفسك أنه يستحيل على المرء ألا يعمل إذا كان لا يملك مالاً.

- حسنا، كفى الآن، - قال هذا والتفت إلى أمي التي كانت مشرقة الوجه أيما إشراق (على حين أنها ارتعدت حين اتجه إليَّ بالكلام)-.

واصل كلامه فقال: في الآونة الأولى على الأقل، لا أريد أن أرى شغلاً هنا. لنفسي إنما أطلب منكم هذا. أما أنت يا آركادي، فلا بد أن تكون اشتراكياً بعض الشيء، حيث أنك شاب من هذا العصر. ولكن

Twitter: @ketab_n

هل تصدق يا صديقي أن الذين يحبون الفراغ أكثر من سائر الناس إنما هم أبناء الشعب الذي لا يكف عن العمل!

- لعلهم يحبون الراحة، لا الفراغ.

- بل الفراغ، الكسل المطلق، ذلك هو مثلهم الأعلى! لقد عرفت واحداً من هؤلاء الذين لا يكفون عن العمل، ولم يكن من أبناء الشعب على كل حال، وكان رجلاً مثقفاً يقدر على فهم الظواهر العامة. لقد كان يحلم بالفراغ الكامل والبطالة التامة كل يوم تقريباً، ويجد في هذا الحلم لذة عظيمة ومتعة كبيرة. حتى أنه كان يمضي بهذا المثل الأعلى إلى تخوم المطلق إن صح التعبير، إلى الاستقلال الذي لا حدود له، إلى الحرية المستمرة في الانقياد للحكم والتأمل خالياً من كل عمل. وقد لازمه هذا إلى اليوم الذي تحطم فيه تحطماً من العمل، حتى صار يستحيل «إصلاحه»، ومات في المستشفى. فاستخلصت من ذلك جاداً كل الجد أن فكرة مباهج العمل إنما اخترعها أناس عاطلون عن العمل، أناس فضلاء طبعاً. هذه فكرة من «أفكار جنيف»[36] في نهاية القرن الماضي. آ. . . تاتيانا بافلوفنا، لقد قصصت من الجريدة أمس الأول إعلانا. إليك الإعلان. . - وأخرج من جيب صديرته قطعة من ورق وتابع كلامه هذا - . هذا واحد من أولئك «الطلبة» الأبديين الذين يعرفون اللغات القديمة والرياضيات ويعلنون عن استعدادهم للسفر إلى الأرياف، لسكنى غرف الأسطح، للرحيل إلى أي مكان. إسمعوا هذا الكلام: «معلمة تحضر التلاميذ لدخول جميع مؤسسات التعليم (هل تسمعون؟ جميعها)، وتعطي دروساً في الحساب». هو سطر واحد، لكنه كلاسيكي! إنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم: يبدو للمرء أن الحساب داخل في هذا. ولكن لا. إنها تذكر الحساب على حدة. ذلك هو الجوع حقاً، تلك هي آخر درجة من درجات البؤس. إن هذه الخرافة هي التي تؤثر في نفسي:

Twitter: @ketab_n

طبعاً، هي لم تكن معلمة في يوم من الأيام، ومن المستبعد أن تكون قادرة على تعليم أي شيء. ولكن لا سبيل: يجب أن تحمل إلى الجريدة آخر روبل تملكه، وأن تعلن أنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم، وأنها عدا ذلك تعطي دروساً في الحساب. . Per tutto mundo e in altri siti (في العالم كله وفي أماكن أخرى)[37].

هتفت تاتيانا بافلوفنا تقول:

– آه يا أندريه بتروفتش، حبذا لو ساعدناها! أين تقيم؟

– آه ما أكثرهم!

ودسّ العنوان في جيبه. ثم استأنف كلامه فقال:

– في هذه الصرة هدايا لك يا ليزا، ولك أنت يا تاتيانا بافلوفنا. أنا وصوفيا لا نحب الحلويات. ولك أنت أيضاً يا فتى! اخترت كل شيء بنفسي من عند ايليسييف وباليه[38]. لقد طالما «متنا جوعاً»، كما تقول لوكيريا (ملاحظة: لم يمت أحد من الجوع عندنا في يوم من الأيام). ههنا عنب وسكاكر وكمثرى وفطيرة بالفراولة. بل لقد اشتريت خمرة رائعة. واشتريت بندقاً كذلك. غريب بقاء ولعي بالبندق من الطفولة حتى الآن يا تاتيانا بافلوفنا. وليزا مثلي. هي أيضاً تحب قضم البندق حباً شديداً كسنجاب صغير. ذكريات لذيذة يا تاتيانا بافلوفنا: إنني أرى نفسي في بعض الأحيان طفلاً أتجول في الغابة وأقطف بندقاً. . . الفصل يوشك أن يكون خريفاً، ولكن الأيام مضيئة، والجو بارد أحياناً، وأوغل في أعماق الغابة، وأطوف في أبعد أرجائها، واتنسم رائحة أوراق الشجر العطرة. . . إنني أرى في نظرتك شيئاً لطيفاً يا آركادي ماكاروفتش!

– أنا أيضاً قضيت في الريف أولى سني طفولتي.

– كيف؟ يخيّل إليّ عكس ذلك، يخيّل إليَّ أنك عشت بموسكو، اللهم إلا أن أكون مخطئاً.

Twitter: @ketab_n

فقالت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة:

- عند آل آندرونيكوف، كان يعيش بموسكو، حين وصلت أنت إليها. لكنه قبل ذلك كان عند المرحومة عمتك فارفارا ستيبانوفنا في الريف.

- خذي يا صوفيا، إليك هذا المال، احفظيه: لقد وُعدت بخمسة آلاف في غضون بضعة أيام.

- ألم يبق للأمراء أي أمل؟

- إطلاقاً يا تاتيانا بافلوفنا.

- لقد أحببتك دائماً يا أندره بتروفتش، وأحببت جميع ذويك؛ كنت صديقة الأسرة دائماً. ولكنني مهما أكن غريبة عن الأمراء ومهما يكونوا غرباء عني، أظل أشفق عليهم. أحلف لك. لا تزعل يا أندريه بتروفتش!

- لا أنوي أن أقاسمهم يا تاتيانا بافلوفنا.

- أنت تعرف رأيي يا أندريه بتروفتش. لقد كان يمكن أن يتنازلوا عن الدعوى لو أنك عرضت عليهم الاقتسام منذ البداية. أما الآن فقد فات الأوان طبعاً. وما أقوله أنا إنما أبنيه على اعتقادي بأن المتوفى ما كان يمكن أن ينساهم في وصيته.

- ما كان يمكن أن ينساهم طبعاً، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول ما كان يمكن إلا أن يورثهم كل شيء. ما كان يمكن أن ينسى أحداً إلا أنا لو أنه طبق القواعد وحرر الوصية كما يجب. ولكن القانون معي الآن وانتهى الأمر. فلا أستطيع أن أقاسم، ولا أريد أن أقاسم يا تاتيانا بافلوفنا. لقد بُتَّ في القضية.

قال هذه الكلمات في غضب وضيق، وذلك شيء كان يندر أن يبيحه لنفسه. فسكتت تاتيانا بافلوفنا. وخفضت أمي عينيها على شيء من

Twitter: @ketab_n

الحزن: كان فرسيلوف يعلم أنها تؤيد كلام تاتيانا بافلوفنا.

حدثت نفسي قائلاً لها: «هذه صفعة مدينة إمس!» وفكرت أيضاً في الوثيقة التي سلمني إياها كرافت والتي كانت معي في جيبي، وفكرت في المصير القاسي الذي ستؤول إليه لو وقعت في يديه. وأحسست فجأة بأنني ما زلت أحمل هذه القضية كلها على ظهري. فكان من شأن هذا الإحساس، بالإضافة إلى سائر ما عداه، أن أشعل طبعاً نيران غضبي.

- آركادي ، أريد أن تكون ملابسك أحسن مما هي الآن يا صديقي. ما هي الآن رديئة طبعاً. ولكن لعلك ستسمح لي، نظراً للتطورات القادمة، أن أوصي بك خياطاً فرنسياً حاذقاً صاحب ذوق رفيع.

فانبريت أقول بخشونة:

- أطلب منك أن لا تعرض عليَّ عرضاً كهذا في يوم من الأيام.

- لماذا؟

- لست أرى في هذا شيئاً من المذلة طبعاً، ولكننا لسنا على وفاق تام، بل لعلنا على خلاف شديد، لأنني في الأيام القريبة. . . بل غداً. . . سأنقطع عن الذهاب إلى الأمير ما دمت لا أرى أن لي عنده عملاً أقوم به. . .

- ولكن، أليس عملاً أن ترافقه أو أن تمكث إلى جانبه!

- هذه أفكار فيها إذلال.

- لست أفهم. ثم، إذا كنت حساساً إلى هذا الحد، فما عليك إلا أن لا تأخذ منه مالاً، مع استمرارك في البقاء معه. لسوف تحزنه حزناً شديداً إذا انقطعت عنه. إنه متعلق بك تعلقاً قوياً. . . صدقني. . . على كل حال، لك ما تشاء. . .

كان واضحاً أنه مستاء.

- تقول إن في إمكاني أن لا آخذ منه مالاً. ولكنني في هذا اليوم

Twitter: @ketab_n

ارتكبت بسببك عملاً دنيئاً: لم تكن قد نبهتني فطالبته اليوم بمرتب الشهر.

- معنى هذا أنك قد فعلت ذلك. أعترف لك بأنني لم أكن أظن أنك ستطالبه. آ... ما أحذقكم جميعاً في هذا الزمان رغم كل شيء! لم يبق شباب يا تاتيانا بافلوفنا.

كان شديد المرارة، وكنت أنا كذلك. قلت:

- كان عليَّ أن أصفِّي حسابي معك... انت الذي اضطررتني. والآن لا أدري ماذا أعمل.

- بالمناسبة يا صوفيا: ردي الستين روبلاً إلى آركادي على الفور. وأنت يا صديقي لا تغضب من هذا السداد السريع. إنني أحزر من النظر في وجهك أن في رأسك مشروعاً ما، وأنك في حاجة... إلى رأس مال... أو شيء من هذا القبيل.

- لا أدري عمَّ يعبر وجهي، ولكنني لم أكن أتوقع أن تحدثك أمي عن ذلك المبلغ بعد أن رجوتها أن لا تفعل.

ونظرت إلى أمي، وكانت عيناي تقدحان شرراً. لا أستطيع أن أصف مدى ما كان يضطرم في نفسي من غضب.

- آركاشا، بنيَّ، سامحني، ناشدتك الله. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أحكي له...

وقال فرسيلوف متجها إليَّ:

- لا تؤاخذها يا صديقي على أنها كشفت لي عن أسرارك. ثم أن نيتها كانت حسنة: لقد أرادت الأم أن تتباهى بعواطف ابنها. ولكن صدقني إذا قلت لك إنني كنت أستطيع أن أحزر أنك رأسمالي بدون أن تحكي لي أمك شيئاً. إن جميع أسرارك مكتوبة على وجهك النزيه. إن له «فكرته» يا تاتيانا بافلوفنا، كما سبق أن قلت لك ذلك.

Twitter: @ketab_n

أتممت كلامي ساخطاً أقول:

- دع وجهي النزيه. إنني أعرف أنك تقرأ أفكار الناس في كثير من الأحيان، رغم أنك في حالات أخرى لا ترى ما هو أبعد من طرف أنفك. لقد أدهشني نفاذ بصيرتك دائماً. طيب، لتكن لي «فكرتي». واضح أنك إنما استعملت هذا التعبير مصادفة، ولكنني لا أخشى من الاعتراف بأن لي «فكرتي». لست أشعر من ذلك لا بخوف ولا بخجل.

- لا تشعر بخجل خاصة!

- ومع ذلك لن أكشف لك عن «فكرتي» هذه في يوم من الأيام.

- معنى هذا أنك لن تتفضل بأن تكشف لي عنها. ولكن لا جدوى يا صديقي! إنني أعرف جوهر فكرتك بدون أن تكشف عنها. هي على كل حال:

انسحب إلى الصحراء...(39)

يا تاتيانا بافلوفنا، إن رأيي أنا هو أنه يريد. . . أن يصبح روتشيلد، أو شيئاً من هذا القبيل، وأن يمضي معتصماً بعظمته. ولسوف يمن علينا أنا وأنت بمرتب يكفل لنا معيشتنا. قد لا يهب لي أنا شيئاً، ولكن من المحقق أنه سيمر بنا كما يمر شهاب. أنه بيننا كالقمر الطالع: ما أن يظهر حتى يختفي.

ارتعشت في قرارة نفسي. لا شك أن هذا مصادفة. أنه لا يعرف شيئاً، وهو يتكلم عن شيء آخر تماماً، رغم أنه ذكر اسم روتشيلد. ولكن كيف استطاع أن يحدد عواطفي هذا التحديد الدقيق كله: أنفصل عنهم، وأنزوي؟ لقد حزر كل شيء. وهو يريد أن يلطخ بصفاقته ما في الأمر من عنصر المأساة. لقد كان غاضباً غضباً شديداً. ليس في ذلك شك.

قلت وأنا أحاول أن أضحك وأن أقلب كل شيء إلى مزاح:

Twitter: @ketab_n

- اغفري لي ما أظهرت من اندفاع وغضب منذ قليل يا ماما! واضح أنه من المستحيل أن يخفي المرء نفسه عن أندريه بتروفتش.

- أحسن شيء يا عزيزي أنك ضحكت. لا تستطيع أن تتصور مدى ما تسبغه ضحكة جميلة على المرء من سحر وفتنة، حتى من ناحية مظهره. أقول هذا جاداً كل الجد. يا تاتيانا بافلوفنا، إن هيئته تنم دائماً عن أن في رأسه أمراً يبلغ من الخطورة أنه يشعر هو نفسه بخجل منه.

- أرجوك جاداً يا أندريه بتروفتش أن تكون أكثر تحفظاً.

- إنك على حق يا صديقي. ولكن كان لا بد لي أن أقول هذا مرة حتى أنتهي منه ولا أعود إليه. إنك لم ترجع من موسكو إلا لتثور. ذلك ما نعلمه حتى الآن عن الغرض من مجيئك. وأما إنك جئت منتوياً أن تدهشنا بشيء يبهر الأبصار، فذلك أمتنع طبيعياً عن الإشارة إليه. ثم إنك منذ وصلت قبل شهر لا تكف عن الاستهزاء بنا والسخرية منا. وأنت مع ذلك رجل ذكي، ففي وسعك أن تدع هذا الضحك وهذا التهكم لأولئك الذين لا يملكون إلا هذه الوسيلة انتقاماً لتفاهتهم. إنك مغلق دائماً، مع أن مظهرك شريف وخدَّيك المتوردتين تشهدان بأن في وسعك أن تنظر إلى جميع الناس وجهاً لوجه ببراءة تامة. إنه سوداوي يا تاتيانا بافلوفنا. لا أستطيع أن أفهم لماذا هم جميعاً سوداويون في هذا الزمان؟

- إذا كنت تجهل حتى أين نشأت وربيت، فأنَّى لك أن تعرف لماذا أنا سوداوي؟

- ذلك هو السر كله: أنت غاضب لأنني نسيت أين نشأت وربيت!

- لا، أبدا. لا تنسب إليَّ حماقة كهذه الحماقة. يا ماما، إن أندريه بتروفتش قد هنأني منذ لحظة بأنني ضحكت. فلنضحك إذاً. علام نبقى متجهمين هذا التجهم؟ هل تحبون أن أقص عليكم حوادث مضحكة

Twitter: @ketab_n

عني؟ لا سيما وأن أندريه بتروفتش لا يعرف شيئاً عن مغامرات حياتي!

كان كل ما احتبس في نفسي يغلي ويفور. كنت أعلم أننا لن نلتقي بعد الآن جميعاً كما نلتقي اليوم، وأنني متى خرجت من هذا المنزل فلن أعود إليه أبداً. لذلك لم أستطع في عشية ذلك كله أن أضبط نفسي. وقد حرص هو نفسه على الوصول إلى هذه النتيجة. قال وهو يلقي عليَّ نظرة ثاقبة:

- هذا لطيف ممتع، بشرط أن يكون مضحكاً حقاً! لقد توحشت قليلاً يا صديقي في ذلك المكان الذي نشأت وربيت فيه. على أنك ما تزال لائقاً رغم كل شيء. إنه اليوم فاتن يا تاتيانا بافلوفنا، ولقد أحسنت جداً إذ فضضت هذه الصرّة.

ولكن تاتيانا بافلوفنا قطبت حاجبيها، حتى أنها لم تلتفت واستمرت تفض الصرة وترتب الهدايا في أطباق. وبقيت أمي حائرة مضطربة، وكانت تدرك وتتوجّس طبعاً أن الأمور تجري مجرى سيئاً. ومرةً أخرى لكزتني أختي بكوعها.

- 3 -

بدأت أتكلم بهيئة طلقة فقلت:

- أريد فقط أن أحكي لكم كيف لقي أب ابنه العزيز أول مرة. وقد حدث هذا في ذلك المكان نفسه «الذي نشأت وربيت فيه». . .

- ولكن ألا ترى يا صاحبي أن هذا سيكون باعثاً على الضجر؟ أنت تعلم أن «جميع فنون القصص. . .».

فقاطعته قائلاً:

- لا تقطب حاجبيك يا أندريه بتروفتش. ليس ما سأحكيه هو ما تظن. . أبدا! أن غايتي هي أن أضحككم جميعاً.

Twitter: @ketab_n

فقال بصوت اصطنع له طلاقة كاذبة:

- سمع الله منك يا عزيزي. أنا أعرف أنك تحبنا جميعاً، وأنك.. لا تريد أن تعكر علينا صفو سهرتنا.

- لا شك أنك من وجهي إنما حزرت أنني أحبكم؟

- نعم، من وجهك قليلاً..

- وأنا حزرت من وجه تاتيانا بافلوفنا، منذ مدة طويلة، أنها مغرمة بي. لا ترشقيني بنظرات قاسية هذه القسوة كلها يا تاتيانا بافلوفنا! الضحك أفضل! الضحك أفضل!

فالتفتت تاتيانا بافلوفنا إليَّ بحركة مباغتة، وتأملتني ببصر نافذ مدة نصف دقيقة، ثم قالت وهي تهددني بأصبعها:

- حذار!

وكانت تبلغ من الجد في تهديدها أن ذلك لا يمكن أن يكون مرده إلى مزحتي الحمقاء، وإنما هو نوع من الإنذار فكأنها تقول: «أتراك تريد أن تبدأ؟»

- أندريه بتروفتش، أأنت لا تتذكر كيف التقينا في الحياة أول مرة؟

- أحلف لك أنني نسيت، وأستغفرك عن هذا صادقاً. كل ما أتذكره أن ذلك حدث في زمان بعيد جداً.. في مكان ما...

- وأنت يا ماما، هل تتذكرين متى كنتِ في الريف، في القرية التي ربيت فيها حتى السنة السادسة أو السابعة من عمري؟ أأقمتِ في وقت ما في تلك القرية فعلاً، أم أنني في الحلم إنما بدا لي أنني رأيتك هناك أول مرة؟ إنني منذ مدة طويلة أحب أن ألقي عليك هذا السؤال، ولكنني كنت أتراجع دائماً. وقد حان الوقت الآن.

- كيف لا أتذكر يا صغيري آركادي! طبعا أتذكر! لقد جئت أزور فارفارا ستيبانوفنا ثلاث مرات؛ مرةً حين كانت سنك لا تكاد تبلغ عاماً

Twitter: @ketab_n

واحداً؛ ومرة حين كنت في نحو السنة الرابعة من العمر، ثم حين كنت قد تجاوزت السادسة.

- ها.. نعم! لقد ظللت أريد أن ألقي عليك هذا السؤال طول هذه المدة!

احمرت أمي احمراراً شديداً من سيل الذكريات المباغت هذا، وسألتني بعاطفة حنون:

- هل يمكن حقاً يا صغيري آركادي أن تحفظ زيارات أمك بعد انقضاء هذه المدة كلها؟

- لا أتذكر شيئاً ولا أعرف شيئاً، غير أنني قد بقي لي من وجهك شيء في قرارة قلبي على مدى حياتي، وبقي لي عدا ذلك أنني عرفت أنك أمي. تلك القرية كلها إنما أراها اليوم كحلم من الأحلام حتى دادتي قد نسيتها، أما فارفارا ستيبانوفنا، أتذكرها قليلاً لأن خديها كانتا دائماً معصوبتين بسبب آلام أسنانها. وحول المنزل ما زلت أرى أشجاراً كبيرة أظن أنها كانت أشجار زيزفون، وأرى في بعض الأيام شمساً قوية تدخل من النوافذ المفتوحة، وأرى مساكب أزهار وممر أشجار، وأراك أنت يا ماما، لكنني لا أراك رؤية واضحة إلا في لحظة واحدة هي لحظة تناولي في كنيسة القرية التي حملتني فيها بين ذراعيك لأتناول القربان وأقبّل الكأس. كان ذلك في الصيف، واجتازت القبةَ حمامة من نافذة إلى أخرى..

قالت أمي:

- رباه! ما أصدق هذه الذكريات! صفقت أمي بيديها. وتابعت تقول:

- إنني أتذكرها، تلك الحمامة. وقد تحركت أنت في لحظة التناول نفسها وصحت تقول: «الحمامة، الحمامة!»

Twitter: @ketab_n

- إن وجهك، أو شيئاً منه، فيه تعبير، قد بلغ من عمق الرسوخ في ذاكرتي أنني بعد خمس سنين عرفتك بموسكو فوراً وعرفت أنك أمي، رغم أن أحداً لم يذكر لي ذلك. ثم سُحبت من منزل آل آندرونيكوف بعد لقائي الأول بأندريه بتروفتش. كنت قد مكثت عندهم زمناً طويلاً في هدوء ومرح، خمس سنين. إنني أتذكر أدق التفاصيل في شقتهم الواقعة في أحد مباني الدولة، وأتذكر جميع تلك السيدات والآنسات اللواتي هرمن اليوم هرماً شديداً، أتذكر البيت زاخراً، وأتذكر آندرونيكوف نفسه الذي كان يتولى بنفسه شراء المؤونة من المدينة، وجلب الدواجن والأسماك والخنازير الرضيعة، وكان ينوب على المائدة مناب زوجته التي تصطنع الكبرياء فيسكب لنا الحساء بنفسه. وكنا نتندر على هذا دائماً، وكان هو بيننا أول المتندرين. هناك إنما علمتني الفتيات اللغة الفرنسية، ولكنني كنت أحب حكايات كريلوف خاصة(40)، فحفظت منها عدداً كبيراً عن ظهر قلب، وكنت أنشد آندرونيكوف واحدةً في كل يوم: كنت أدخل مكتبه الصغير رأساً، سواء أكان منهمكاً في عمل أم لا. وبسبب حكاية من تلك الحكايات إنما تعارفنا يا أندريه بتروفتش... أرى أنك بدأت تتذكر.

- حقاً.. أتذكر بعض التذكر يا عزيزي.. ماذا أنشدتني حينذاك؟ أحكاية من حكايات كريلوف أم جزءاً من مسرحية «ذو العقل يشقى»؟ ما أقوى ذاكرتك على كل حال!..

- ذاكرتي؟ وكيف لا؟ لم أكن أحفظ فيها طول حياتي إلا هذه الأشياء.

- عظيم، عظيم، يا صديقي! حديثك يشوقني.

حتى لقد ابتسم. وبعده ابتسمت أمي وأختي. لقد عادت الطمأنينة، إلا إلى تاتيانا بافلوفنا التي كانت جالسة في ركن بعد أن رتبت الهدايا

Twitter: @ketab_n

على الطاولة، فقد ظلت ترشقني بنظرة شزراء. وتابعت كلامي فقلت:

- فإليكم القصة: في ذات صباح، جاءت صديقة طفولتي، تاتيانا بافلوفنا، التي كانت تنبجس في حياتي على حين غرة دائماً، جاءت تأخذني من عند آل آندرونيكوف. أركبوني عربة، وأودعوني في شقة فخمة في منزل من منازل الأسياد. كنت قد نزلت عند فاناريوتوفا يا أندريه بتروفتش، في منزلها الذي كان خالياً حينذاك. وكانت قد اشترته منك في الماضي. كانت هي مسافرة في الخارج. وكنت ما أزال ألبس بلوزات. فألبسوني هناك رداء لطيفاً أزرق وملابس داخلية ناعمة، دفعة واحدة. وقضت تاتيانا بافلوفنا النهار كله محتفية بي، واشترت لي أشياء كثيرة جداً. وأخذت أطوف في الغرف الخالية، وأنظر إلى نفسي في جميع المرايا. حتى إذا كان صباح الغد، في نحو الساعة العاشرة، بينما كنت أتجول في أرجاء البيت، رأيتني - لا أدري كيف - أدخل مكتبك مصادفة. وكنت قد رأيتك بالأمس، لحظة وصولي إلى هذا المنزل، ولكنني لم أرك إلا عابراً، وذلك على السلم. كنت أنت نازلاً لتركب العربة ذاهباً لا أدري إلى أين. كنت في ذلك الوقت وحيداً بموسكو، بعد غياب طويل جداً، وكنت لا تريد أن تمكث إلا وقتاً قصيراً، فكنت تُطلب في كل مكان، فلا تكاد تبقى في البيت أبداً. فلما صادفتنا أنا وتاتيانا بافلوفنا، لم تزد على أن قلت: «ها!»، حتى دون أن تتوقف.

قال فرسيلوف مخاطباً تاتيانا بافلوفنا:

- إنه يصف الواقعة بحب.

فأشاحت تاتيانا بافلوفنا وجهها دون أن تجيب.

- إني لأتصورك الآن كما كنت في ذلك الحين جميلاً مزدهراً. ما أسرع ما دب إليك الهرم وما نالك من دمامة أثناء هذه السنين التسع، اغفر لي صراحتي. ولقد كنت آنذاك في السابعة والثلاثين على كل

Twitter: @ketab_n

حال، ولكنني كنت لا أتعب من النظر إليك. ما كان أجمل شعرك! كان غزيراً، أسود، لامعاً، لا تخالطه شعرة واحدة بيضاء. أما شارباك وسالفاك فكأنها من حسن الاتقان قد صنعها صائغ جواهر. لا أجد تعبيراً أفضل من هذا التعبير. وكان وجهك شاحباً كابياً، لا شحوب المرض كشحوبه الآن، بل.. بل كشحوب وجه ابنتك آنا أندرييفنا التي شُرّفتُ برؤيتها منذ قليل. وكان في عينيك حرارة وحلكة. وكانت أسنانك لامعة، خاصة حين تضحك. ذلك أنك انفجرت تضحك حين نظرت إليّ عند دخولي مكتبك. لم أكن أحسن تمييز الأشياء في ذلك الأوان. فأبهجت ابتسامتك قلبي. كنت ترتدي في ذلك الصباح سترة من مخمل كحلي وتتدثر بوشاح أخضر، وتلبس قميصاً مزداناً بتخاريم فرنسية من آلانسون. وكنت واقفاً أمام المرآة، ممسكاً بكتاب في يدك، منهمكاً في استظهار وإنشاد أقوال تشاتسكي[41]، ولاسيما صيحته الأخيرة:

عربتي، عربتي!

هتف فرسيلوف يقول:

- آه.. ما أصدق ما يذكر! كنت قد رضيت، رغم قصر إقامتي بموسكو، أن أمثل دور تشاتسكي عند ألكسندرا بتروفنا فيتوفتوفا، على مسرحها المنزلي، بسبب مرض جيلايكو.

هتفت تاتيانا بافلوفنا تسأله:

- نسيت إذاً؟

- لقد ذكّرني! الواقع أن تلك الأيام القصيرة بموسكو لعلها كانت أجمل فترات حياتي! كنا جميعاً في عز الشباب آنذاك.. كنا ننتظر كل شيء بحرارة شديدة... وقد التقيت في موسكو عندئذ بعدد كبير من... ولكن أكمل، يا عزيزي، أكمل، لقد أحسنت أيما إحسان هذه المرة إذ دخلت في التفاصيل..

Twitter: @ketab_n

- وكنت واقفاً أنظر إليك. فإذا أنا أصيح فجأة: «آ. . . رائع! هذا هو تشاتسكي الحقيقي!» فالتفتّ حالا وسألتني: «أأنت تعرف تشاتسكي؟» ثم جلست على الديوان، وأقبلت على قهوتك رائع المزاج جذلاً أشد الجذل. فذكرت لك حينذاك أن الجميع في منزل آل آندرونيكوف يقرأون كثيراً، وأن الآنسات يحفظن شعراً كثيراً، وأنهن يمثلن فيما بينهن مشاهد من مسرحيات جريبويدوف، وأننا طوال الأسبوع الماضي كنا نقرأ معاً في المساء بصوت عال «مذكرات صياد»[42]، وأنني أحب خاصة حكايات كريلوف وأحفظها تماماً، فدعوتني أن أنشدك شيئاً، فأنشدتك حكايته «الخطيبة المتعنتة»:

خطيبة تحلم بالخطيب

فهتف فرسيلوف من جديد:

- نعم، نعم، الآن تذكرت كل شيء! ولكنني أتذكرك أنت أيضاً يا صاحبي. كنت في ذلك الحين فتى لطيفاً ظريفاً، كنت فتى صغيراً لذيذاً. يميناً لقد فقدت أنت أيضاً كثيراً أثناء هذه السنين التسع.

عندئذ ضحك الجميع وضحكت تاتيانا بافلوفنا نفسها. لقد كان واضحاً أن أندريه بتروفتش كان يمزح ويثأر لنفسه مما قلته له أنا. وابتهج الجميع. لقد أحسن الرد على الغمز بمثله. وتابعت:

- وفيما كنت أنا أنشد كنت أنت تبتسم. ولكن قبل أن أبلغ نصف الحكاية استوقفتني وقرعت الجرس وأمرت الخادم الذي دخل في تلك اللحظة بأن يدعو تاتيانا بافلوفنا. فجاءت تاتيانا بافلوفنا فوراً وقد بلغت هيئتها من التعبير عن شدة الفرح أنني بعد أن كنت رأيتها بالأمس لم أكد أعرفها اليوم. وبحضور تاتيانا بافلوفنا أعدت إنشاد «الخطيبة المتعنتة»، ونجحت في إنشادها نجاحاً باهراً. فابتسمت لي تاتيانا بافلوفنا، حتى أنك أنت يا أندريه بتروفتش قد هتفت تقول لي: «مرحى!» وأضفت

Twitter: @ketab_n

تقول بحرارة: «إن إنشاد حكاية «الزيز والنملة» إنشاداً حسناً أمر يستطيعه كل فتى ذكي في سني. فلا يستغرب المرء حسن إنشاده، أما إنشاد حكاية «الخطيبة المتعنّتة» فشأنه شأن آخر:

خطيبة شابة تحلم بالخطيب

لا إثم في هذا ولا تثريب.

اسمعي كيف ينشد هذا الشطر: «لا أثم في هذا ولا تثريب!» الخلاصة أنك تحمست كثيراً. وقد أخذت تكلم تاتيانا بافلوفنا عندئذ باللغة الفرنسية. فقطبت حاجبيها في الحال وأخذت تواجهك باعتراضات، حتى لقد كانت تبدي اعتراضاتها بحرارة شديدة. ولكن لما كان يستحيل على أحد أن يعارض أندريه بتروفتش إذا هو أراد شيئاً، فقد أسرعت تاتيانا بافلوفنا تقتادني إلى غرفتها. وهناك غُسل وجهي ويداي مرة أخرى، وغُيرت ملابسي الداخلية، ودُهنت بالعطر، حتى لقد جُعِّد لي شعري. حتى إذا جاء المساء ارتدت تاتيانا بافلوفنا هي نفسها ثياباً فخمة، ثياباً أفخم مما كنت أتوقع، وركبنا عربة، وأُخذت لأول مرة في حياتي إلى المسرح، فشهدت عرضاً قام به هواة عند فيتوفتوفا: شموع، ثريات، سيدات، عسكريون، جنرالات، آنسات، الستارة، صفوف الكراسي، إلخ... تلك كلها أشياء لم يسبق أن رأيت مثلها في حياتي. وقد اختارت تاتيانا بافلوفنا مكاناً متواضعاً في صف من الصفوف الخلفية وأجلستني بقربها. وكان هناك أطفال غيري طبعاً، ولكنني كنت لا أنظر إلى شيء، وإنما أنتظر بدء التمثيل خافق القلب. حتى إذا ظهرت أنت على المسرح يا أندريه بتروفتش، بلغت أنا من الحماسة حداً سالت معه دموعي. لا أدري لماذا يا أندريه بتروفتش؟ لماذا دموع الحماسة تلك؟ ذلك أمر ظل يبدو لي غريباً كلما تذكرته خلال هذه السنين التسع! وأخذت أتابع المسرحية منهار القلب. كل ما فهمته طبعاً هو أنها خانته،

Twitter: @ketab_n

وأن أناساً أغبياء لا يستحقون حتى أن يلمسوا أصبعاً في قدمه كانوا يسخرون منه. وحين كان يخطب في حفلة الرقص كنت أدرك أنه رجل أُذل وأُهين، وأنه يقرّع جميع أولئك الحقراء، ولكنه رجل كبير، كبير جداً! لا شك أن ما كنت قد تعلمته عند آل آندرونيكوف ساعدني على الفهم، ولكن تمثيلك ساعدني أيضاً يا أندريه بتروفتش! كنت أرى مسرحاً لأول مرة! وفي لحظة الانصراف، حين صرخ تشاتسكي منادياً: «عربتي، عربتي!» (ولقد صرخت صرخة دهشة!) وثبت عن كرسيي وطفقت أصفق مع كل من كانوا في الصالة، وصحت أقول بكل ما أملك من قوة: مرحى! أتذكر أيضاً أنني أحسست في تلك اللحظة نفسها بما يشبه أن يكون وخزة دبوس «تحت الظهر قليلاً». إن تاتيانا بافلوفنا هي التي قرصتني غاضبة غضباً شديداً، ولكنني لم أول ذلك انتباهاً! حتى إذا انتهى التمثيل قادتني تاتيانا بافلوفنا إلى البيت، قائلة لي: «لا يمكن أن تحضر حفلة الرقص، رغم أنني سأُحرم بسببك من حضورها»، وقد ظللتِ تؤنبينني طول الطريق يا تاتيانا بافلوفنا ونحن في العربة. وهذيت أنا إلى آخر الليل. وفي الساعة العاشرة من اليوم التالي كنت أقف أمام مكتبك. ولكن الباب كان مغلقاً: كنت تستقبل بعض الناس، وتعالج بعض الأعمال. ثم غبت فجأة طول النهار ولم تعد إلا في الليل، فلم أرك بعد ذلك أبداً! أما ما الذي كنت أريد أن أقوله لك، فقد نسيته طبعاً، بل كنت لا أعرفه حتى في ذلك الوقت، ولكنني كنت أحترق شوقاً إلى رؤيتك في أسرع وقت. لقد سافرت في صباح اليوم التالي منذ الساعة الثامنة إلى سربوخوف: كنت قد بعت أرضك في ضواحي تولا منذ مدة قصيرة لترد إلى دائنيك ديونهم، ولكن كانت قد بقيت لك من أرضك قطعة لا بأس بها، وسمح ذلك لك أن تجيء عندئذ إلى موسكو التي كنت لا تستطيع أن تظهر فيها حتى ذلك الحين خوفاً من الدائنين

Twitter: @ketab_n

وكان ذلك الرجل الفظ الغليظ من سربوخوف هو الوحيد بين سائر الدائنين الذي لم يرض أن يقبض نصف الدين بديلاً عن تمامه. ولم ترض تاتيانا بافلوفنا حتى أن تجيب عن أسئلتي، وكانت لا تزيد على أن تقول لي: «اطمئن! سأذهب بك بعد غد إلى مدرسة داخلية. حضِّر نفسك. خذ دفاترك. رتِّب كتبك. وتعلم كيف ترتب حقيبتك بنفسك. إنك لم تخلق لتعيش عيشة أمير يا سيد»، الخ الخ. ما أكثر ما صدَّعت أنني بهذا الكلام في تلك الأيام الثلاثة يا تاتيانا بافلوفنا! واقتادوني فعلاً إلى مدرسة توشار الداخلية، أنا الغر البريء، أنا المغرم بك يا أندريه بتروفتش. صحيح أن ذلك اللقاء لم يكن إلا مصادفة شاذة، ولكن صدقني إذا قلت لك إنني بعد ستة أشهر كنت ما أزال أريد أن أهرب من عند توشار وأن أذهب إليك!

قال فرسيلوف موقعاً كلامه:

- لقد قصصت فأبدعت، فأيقظت جميع ذكرياتي. غير أن ما يخطف انتباهي خاصة فيما قصصته إنما هو غناه ببعض التفاصيل الغريبة، فيما يتعلق بديوني مثلاً. فإني لا أفهم كيف استطعت أن تطلع على هذه التفاصيل، ناهيك عن أنها غير لائقة؟

- هذه التفاصيل؟ كيف اطلعت عليها؟ إنني أعود فأكرر لك أنني خلال هذه السنين التسع لم يشغلني شيء كما شغلني الاهتمام بجمع تفاصيل عنك.

- اعتراف غريب، وشاغل غريب!

وأدار لي ظهره، مضطجعاً على مقعده نصف اضطجاع، وفتح فمه بتثاؤب خفيف لا أدري أهو تعمده تعمداً أم لا.

- هل تريد أن أحكي لكم كيف أردت أن أهرب من عند توشار؟

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول:

Twitter: @ketab_n

– إمنعه يا أندريه بتروفتش! اردعه واطرده من هنا!

فأجابها فرسيلوف بجد:

– لا يا تاتيانا بافلوفنا! لا شك أن في ذهن آركادي مشروعاً. فيجب أن نتيح له إكمال كلامه قطعاً. فليستمر! ليقصص ما يريد أن يقصه فيتخلص! وذلك هو شيء رئيسي بالنسبة له... أن يتخلص إلى الأبد. هيا يا عزيزي، ابدأ قصتك الجديدة. وأنا إنما أصفها بأنها جديدة من باب التجوز، لأنني أعرف نهايتها سلفاً، ثق بهذا.

– 4 –

– أردت أن أفر من المدرسة هارباً إليكم، بصورة بسيطة. تاتيانا بافلوفنا، تذكرين أن توشار، بعد دخولي المدرسة بأسبوعين تقريباً، بعث إليك برسالة. لا؟ لقد أطلعتني ماريا إيفانوفنا على هذه الرسالة فيما بعد، وكانت بين أوراق آندرونيكوف المرحوم أيضاً. لقد ارتأى توشار فجأة أن المبلغ الذي كان قد طلبه ضئيل جداً، فكتب يقول لك «بوقار» إنه يربّي في مدرسته الداخلية أمراء وأولاد أعضاء في مجلس الشيوخ، ويرى أنه لا يليق بمؤسسته أن تحتفظ بتلميذ أصله كأصلي، اللهم إلا أن يُدفع له أجر إضافي.

– يا عزيزي، في وسعك أن...

فقاطعتها قائلاً:

– ليس هذا بشيء ذي بال: لكنني أريد أن أقول كلمة عن توشار. لقد أجبته من الريف يا تاتيانا بافلوفنا، بعد أسبوعين، بأنك ترفضين طلبه رفضاً قاطعاً. إنني ما زلت أراه في خيالي داخلاً على الصف وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً. إنه فرنسي قصير القامة مدوَّر الجسم، في نحو الخامسة والأربعين من العمر، باريسي الأصل حقاً، من أسرة إسكافيين

Twitter: @ketab_n

طبعاً، ولكنه استقر بموسكو منذ زمن بعيد مدرِّسا للغة الفرنسية ويحمل كذلك رتباً كان يعتز بها أعظم الاعتزاز. هو رجل جاهل فظ حقاً. ولقد كنا في مدرسته الداخلية ستة لا أكثر. وكان بين هؤلاء التلاميذ واحد هو ابن أخت عضو في مجلس الشيوخ من موسكو. وكنا نعيش في مدرسته عيشة أسرة، تحت إشراف زوجته في أكثر الأحيان، وهي امرأة متكلفة متصنعة كانت ابنة موظف روسي لا يُعرف من هو. وكنت في خلال هذين الأسبوعين أتكبر على رفاقي تكبراً شديداً، وأتباهى بسترتي الزرقاء وأعتز بأبي أندريه بتروفتش، فإذا سألوني لماذا أسمى دولجوروكي وليس فرسيلوف، لم أضطرب من السؤال البتة، لأنني كنت أجهل أنا نفسي سبب ذلك.

صرخت تاتيانا بافلوفنا تقول بلهجة فيها ما يشبه التهديد:

- أندريه بتروفتش!

وأمي أيضاً، كانت تصغي إلى كلامي لا تغيب عنها منه كلمة واحدة، وترغب رغبة واضحة في إتمامه.

قال فرسيلوف من بين أسنانه:

- توشار... إنني أتذكر الآن فعلاً أنه رجل صغير كثير الحركة. ولكنه قد زُكيَّ لي كثيراً...

واصلت حديثي قائلاً:

- دخل السيد توشار حاملاً الرسالة بيده، وتقدم من الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب السنديان، التي كنا نحن الستة جالسين إليها منهمكين في تعلم درس نسيت الآن ما هو، فأمسك كتفي إمساكاً قوياً، وأنهضني، وأمرني بأن آخذ دفاتري، قائلاً لي:

- مكانك ليس هنا، - ودلّني على غريفة صغيرة تقع على يسار حجرة المدخل، وتوجد فيها طاولة حقيرة مع كرسي من خيزران وسرير

Twitter: @ketab_n

مغطى بقماش مشمع، تماماً كالغريفة التي أعيش فيها الآن تحت السقف. فذهبت إلى هناك مدهوشاً ومرتاعاً جداً. إنني لم أُعامل قبل اليوم بمثل هذه الغلظة والفظاظة. وبعد نصف ساعة، حين غادر توشار الصف، مضيت أبادل رفاقي النظرات والضحك. وكانوا هم يضحكون عليَّ ساخرين، ولكني أنا لم يخطر ببالي شيء من ذلك، وظننت أننا نضحك معاً لما يملأ نفوسنا من فرح وجذل. وفي تلك اللحظة انبجس توشار. فأمسك خصلة من شعري، وشدّها قائلاً لي:

- إياك أن تخالط هؤلاء الأولاد الذين ينتمون إلى أسر كريمة. أنت حقير المنبت. ما أنت إلا نوع من خادم!

ولطم خدي المدورة الحمراء لطمة آلمتني إيلاماً شديداً.

وأعجبته اللطمة فكررها ثانية فثالثة. كنت أغص بالبكاء. كنت مصعوقاً. فلبثت ساعة كاملة أبكي دافناً رأسي في يدي. لا بد أن شيئاً لا أتوصل إلى إدراكه قد حدث. لم أفهم كيف يستطيع إنسان غير شرير مثل توشار، وهو رجل أجنبي، حتى أنه كان يبتهج أعظم الابتهاج لتحريز الفلاحين الروس، كيف يستطيع أن يضرب طفلاً ساذجاً مثلي. الحق أنني في قرارة نفسي كنت مندهشاً لا أكثر. لم أشعر بأنني أُهنت. كنت لا أعرف بعد شعور الإهانة، خُيِّل إليَّ أنني قد ارتكبت غلطة من الغلطات، وأنني بعد أن أنصلح سيُغفر لي كل شيء، فنغدو جميعاً مرحين من جديد، ونمضي نلعب في فناء المدرسة، ونستأنف حياة حلوة.

قال فرسيلوف وهو يبتسم ابتسامة فيها إهمال إنسان اعتراه السأم:

- ليتني عرفت هذه الأمور يا صاحبي... إن توشار هذا رجل وغد حقاً! على كل حال، أنا لم أفقد أملي في أن تسترد شجاعتك، فتغفر لنا أخيراً جميع هذه الأشياء ونستأنف حياة حلوة.

Twitter: @ketab_n

وأتبع ذلك بتثاؤب قوي. فهتفت أقول محتاراً:

- ولكنني لا أتهم توشار، لا أتهمه قط، بل لا أشتكي منه! ثم أنه لم يضربني إلا مدة شهرين. أذكر أنني كنت أريد دائماً أن أسترضيه، فكنت أرتمي على يديه لأقبّلهما، وكنت أقبّلهما ذارفاً كل ما في عيني من دموع. وكان رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني لأن توشار كان يستعملني في بعض الأحيان خادماً، فيأمرني أن أجيئه بملابسه حين كان يرتدي ثيابه. وهنا شُحذت صفات الخادم في نفسي بالغريزة، فكنت أبذل كل ما أملك من طاقة لإرضائه، دون أن أشعر بأي شيء من المهانة، لأنني كنت لا أزال عاجزاً عن فهم الأمر، بل إنني ليدهشني حتى هذا اليوم كيف لم أدرك أنني دون كافة رفاقي كثيراً. صحيح، أن رفاقي قد شرحوا لي حينذاك كثيراً من الأمور، فنحن في مدرسة راقية. على أن توشار قد أصبح في النهاية لا يلطم خدي بل يركلني بركبته على قفاي. حتى أنه بعد نصف سنة أخذ يلاطفني من حين إلى حين ولكنني كنت واثقاً بأنه لا بد أن يضربني مرةً في الشهر، ليذكّرني بأن عليَّ أن أبقى في مكاني لا أتجاوزه. ولم ألبث أن أُرجعت إلى سائر الأولاد، وسُمح لي بأن ألعب معهم، ولكن توشار لم يستطع مرةً واحدة خلال هذه المدة كلها وهي سنتان ونصف سنة أن ينسى ما بيني وبينهم من فرق في المنزلة الاجتماعية. ويغلب على ظني أنه إن كان لم يفته أن يستعملني خادماً له على الدوام، ولو بغير مبالغة، فإنما كان يفعل ذلك ليذكرني بذلك. ثم هربت. أقصد فكرت في الهروب بعد انقضاء خمسة أشهر على ذينك الشهرين الأولين. على وجه العموم كنت بطيئاً في عزم أمري على اتخاذ قرار دائماً. وكنت حين أرقد في فراشي وأخفي نفسي تحت غطائي، لا ألبث أن أحلم بك فوراً يا أندريه بتروفتش، بك وحدك. لا أدري إطلاقاً لماذا كان يحدث ذلك. حتى لقد كنت أراك في المنام. وكنت أحلم

Twitter: @ketab_n

خاصة بأنك ستجيء فجأة ذات يوم، فإذا أنا أرتمي بين ذراعيك، فتنتشلني من هذا المكان، وتأخذني إلى عندك، إلى ذلك المكتب، وأحلم بأننا نذهب إلى المسرح، الخ، وأننا - وهذا هو الشيء الأساسي - لن نفترق بعدئذ أبداً. وفي الغداة، حين أضطر إلى أن أستيقظ من النوم، يستأنف الصبية سخرياتهم ويعودون إلى احتقارهم. وقد بدأ أحدهم في ضربي وإجباري على إلباسه حذاءيه، ووصفني بكل النعوت، وحرص حرصاً خاصاً على إفهامي أصلي، فأفرح ذلك السامعين فرحاً عظيماً. حتى إذا وصل توشار أحسست في داخل نفسي بشيء لا يُطاق. أدركت أنني هنا لن يُغفر لي أبداً في يوم من الأيام. آه. . . بدأت شيئاً فشيئاً أفهم الأمر الذي لن يُغفر لي، وأعرف ما هي جريمتي! وهكذا قررت أن أهرب. حلمت بالهرب مدة شهرين، واتخذت قراري أخيراً. كان ذلك في شهر أيلول. إن يوم السبت يناسبني: فرفاقي ينصرفون لقضاء عطلة الأحد. حزمت من أمتعتي ما لا غنى لي عنه في صرة. وكان كل ما معي من مال روبلين. كنت أريد أن أنتظر حلول الغسق. قلت لنفسي: «عندها سأهبط على السلم، وأخرج ثم أنصرف قدماً». إلى أين، كنت أعرف أن آندرونيكوف قد سافر إلى بطرسبرج، فقررت أن أجد منزل فاناريوتوفا في شارع آربات. وحدثت نفسي قائلاً: «سوف أقضي الليل في مكان ما، متجولاً أو جالساً على دكة، حتى إذا طلع الصبح سألت أحداً في فناء الدار: أين هو أندريه بتروفتش الآن، وإذا لم يكن بموسكو ففي أي مدينة هو أو في أي بلد من البلاد؟ وسيرضون أن يذكروا لي المكان فأمشي. ومن حين إلى حين أسأل أحداً عن الاتجاه الذي يجب أن أسير فيه للوصول إلى مدينة كذا وكذا. فأمشي، وأمشي. وأظل أمشي. وأقضي الليل في أي مكان تحت الأدغال، ولا آكل إلا خبزاً، فيكفيني الروبلان مدة طويلة». ولكن

Twitter: @ketab_n

استحال عليَّ في يوم السبت أن أهرب. فكان يجب أن أنتظر إلى يوم الأحد. وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يغيب توشار وامرأته. ولم يبق في البيت إلا آجاتي وأنا. فانتظرت حلول الليل مضطرباً اضطراباً رهيباً. كنت جالساً - ما زلت أتذكر ذلك - أمام نافذة صالتنا، أنظر إلى الشارع الأغبر، وبيوته الخشبية الصغيرة، والمارة القلائل. كان توشار في آخر العالم. ومن نوافذنا كان يُرى باب المدينة. قلت لنفسي: «ليته هو الباب الذي يجب أن أخرج منه» وكانت الشمس تغرب محمرة احمراراً رائعا، وكان الهواء باردا، وكانت تهب ريح قارصة تثير الغبار؛ كهذا اليوم تماماً. وعم الظلام أخيرا؛ فوقفت أمام الأيقونة، وصليت، لكنني صليت مسرعا، مسرعا كل الإسراع، لأنني كنت أستعجل الهرب حالا. تناولت صرتي، ونزلت السلم سائراً على رؤوس الأصابع، فكانت درجاته تصر، وكنت أشعر بخوف رهيب من أن تسمعني آجاتي في المطبخ. وكان المفتاح على الباب، ففتحت، وإذا بالظلام الدامس يحدق بي كشيء مجهول خطر لا حدود له، وأطارت الريح طاقيتي. أصبحت في خارج الدار. ودوى على الرصيف الآخر صراخ أجش أبح هو صراخ سكير كان يطلق الشتائم تلو الشتائم. فتوقفت، ونظرت، ثم إذا بي أعود أدراجي على مهل، ثم أصعد السلم في رفق؛ وفي رفق أخذت أخلع ملابسي بعد أن وضعت صرتي على الأرض، ثم رقدت على بطني بدون دموع أذرفها وبغير فكرة واحدة تخطر ببالي. منذ تلك اللحظة إنما أخذت أفكر يا أندريه بتروفتش! نعم، منذ اللحظة التي أدركت فيها أنني لست خادماً فحسب، بل جباناً رعديداً أيضاً! عندئذ إنما بدأ تطوري الحقيقي المطرد!

هنا صاحت تاتيانا يافلوفنا تقول وهي تثب عن مكانها فجأة وثوباً لم يكن في حسباني قط:

Twitter: @ketab_n

– وعندئذ إنما بدأت أنا أعرف ما أنت في واقع الأمر! إنك لم تكن خادماً في ذلك الأوان فحسب، بل ما زلت خادماً إلى الآن: أن نفسك نفس خادم! ما الذي كان يمنع أندريه بتروفتش من أن يعهد بك إلى إسكافي يعلمك حرفة الأحذية؟ كان سيحسن إليك لو علمك حرفة! من ذا الذي يمكن أن يطالبه بأكثر من هذا؟ إنّ أباك، ماكار إيفانوفتش كان يرجو أن لا يخرج أولاده من الفئة الاجتماعية الدنيا حتى لقد كان يطالب بهذا مطالبة ويكاد يصر عليه إصراراً. لا، لا، إنك لا تحسن تقدير صنيع أندريه بتروفتش إذ أوصلك إلى الجامعة. إنك بفضله إنما تتمتع الآن بحقوق خريجي المدارس. انظروا: كان الصبيان يسخرون منه ويناكدونه، فحلف لينتقمنَّ من الإنسانية بأسرها... ما أنت إلا نذل!

يجب أن أعترف أن غضبة تاتيانا بافلوفنا قد صعقتني. فنهضت عن مكاني ونظرت لحظة وأنا لا أجد ما أجيبها به.

وقلت أخيراً وأنا التفت إلى فرسيلوف عامداً بعد تفكير:

– إن ما قالته تاتيانا بافلوفنا الآن شيء جديد حقاً. إن فرسيلوف قد تفضل فلم يجعلني إسكافياً. فيا لي من خادم حقاً، لأن هذا لم يرضني حتى «الحقوق» لم ترقق قلبي وإنما طالبت بفرسيلوف نفسه، طالبت به كله كاملاً! طالبت بأبي... فهل يمكن أن يكون امرؤ خادماً أكثر من هذا؟ يا أمي، ما تزال ماثلةً في ضميري، منذ ثمانية أعوام حتى الآن، تلك اللحظة التي جئتني فيها وحيدةً إلى عند توشار، وتلك الطريقة التي استقبلتك بها. ولكن ليس هذا أوان الحديث عن هذا الأمر. إن تاتيانا بافلوفنا لا تسمح به. فإلى الغد يا أمي، فلعلنا سنلتقي مرة أخرى. ويا تاتيانا بافلوفنا، وما عساك قائلة إذا ما كنت لا أزال خادماً فلا أستطيع أن أقبل أن يكون لرجل امرأة، فإذا هو يتزوج امرأة أخرى؟ تلك مغامرة كادت تقع لأندريه بتروفتش في «إمس»! يا أمي، إذا كنت لا تريدين البقاء مع

Twitter: @ketab_n

زوج قد يتزوج امرأة أخرى في الغد، فاذكري أن لك ابناً يعد بأن يكون ابناً يحترم أمه إلى الأبد، اذكري هذا ثم ننصرف، ولكن يجب الاختيار «فإما أنا وإما هو»، فهل توافقين؟ إنني لا أطلب جواباً على الفور. فأنا أعرف أن هذه الأسئلة لا يستطيع المرء أن يجيب عنها حالاً . . .

لم أستطع أن أكمل كلامي، لأنني اندفعت اندفاعاً شديداً وطاش صوابي. شحبت أمي شحوباً قوياً، وخانها صوتها فلم تستطع أن تقول كلمة واحدة. وانبرت تاتيانا بافلوفنا تتكلم صاخبة، حتى أنني لم أستطع أن أميز ما كانت تقوله، بل لقد لطمتني على كتفي بقبضة يدها مرتين. لكنني أتذكر إنها أعولت تقول إن أقوالي مدروسة محسوبة، قد هيأتها نفس وضيعة معقدة. وكان فرسيلوف جالساً لا يتحرك، وكان جاداً لا يبتسم. وصعدت إلى حجرتي تحت السقف. وكانت النظرة الوحيدة التي شيعتني هي نظرة الاستنكار من أختي التي كانت تهز رأسها وقد لاحت في وجهها القسوة.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

- 1 -

إنني أصف جميع هذه المشاهد دون مراعاة أو مداراة لنفسي، وذلك حتى يكون كل شيء واضحاً، ذكريات كان أو انطباعات. حين صعدت إلى حجرتي كنت أجهل جهلاً مطلقاً هل يجب عليَّ أن أحمر خجلاً أو أن أشمخ انتصاراً لأنني قمت بواجبي. ولو كنت ذا تجربة أوسع لأدركت أن أي شيء حول مثل هذا الأمر يشير إلى نتيجة سيئة. على أن هناك ظرفاً آخر حيَّرني: إنني لا أعرف ما الذي كان يمكن أن يبهجني، ولكن واقع الحال هو أنني كنت أحس بفرح جنوني، رغم شكوكي ورغم شعوري بأنني قد أخفقت منذ قليل إخفاقاً ذريعاً حين كنت تحت. حتى الشتائم المقذعة التي رمتني بها تاتيانا بافلوفنا كانت تبدو لي باعثة على الضحك، وكانت لا تحنقني البتة. أغلب الظن أن مرد ذلك إلى أنني قد حطمت أغلالي على كل حال، وشعرت بحريتي أول مرة.

وكنت أحس أيضاً أنني أفسدت مصالحي: ما عساي أفعل الآن بالوثيقة التي تتعلق بالميراث؟ وكان في هذا السؤال مزيد من الاضطراب. لسوف يظنون حتما أنني أردت الانتقام من فرسيلوف. ولكنني منذ أن كنت تحت، كنت قررت - أثناء المناقشات - أن أرجع في هذه المسألة إلى حكم وسيط يفصل فيها، وأن أختار فاسين حكماً،

Twitter: @ketab_n

أو أن أختار أحداً غيره إذا لم يمكن أن أختاره هو، وكنت منذ ذلك الوقت أعرف من ذا الذي سأختاره. لقد حدثت نفسي قائلاً: سأذهب يوماً إلى فاسين، أذهب إليه مرة وحيدة، ثم، ثم أغيب عن أبصار الناس قاطبة، زمناً طويلاً، أشهراً عدة، أغيب حتى عن فاسين، بل أغيب خاصة عن فاسين، وقد أرى أمي وأختي وحدهما من حين إلى حين. ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً. وكنت أحس أن شيئاً ما قد عملته، ولكنه لم يُعمل كما ينبغي. . . وكنت مغتبطاً. أكرر: كنت رغم كل شيء سعيداً.

وقررت عندئذ أن أنام قبل أوان نومي في العادة، متوقعاً أن يكون عليَّ أن أسير في الغد مسافات طويلة. لقد اتخذت قرارات عقدت النية على تنفيذها بطريقة أو بأخرى، عدا استئجار مسكن والانتقال إليه. ولكن السهرة لم تختتم دون أن يحدث شيء لم يكن في الحسبان، فهذا هو فرسيلوف يفلح في أن يدهشني إلى أبعد حدود الدهشة. كان لا يجيء إلى حجرتي أبداً، أبداً. ولكن ما أن انقضت ساعة واحدة حتى سمعت وقع خطاه على السلم، وسمعته يناديني طالباً أن أنير له الطريق. فتناولت شمعة، ومددت إليه إحدى يدي فأمسكها، وساعدته على التسلق إليَّ.

- Merci. يا صديقي. إنني لم أصعد إلى هنا مرة واحدة، حتى يوم استأجرت البيت. كنت أقدّر ما عسى يكون هذا المكان. ومع ذلك لم أتوقع أبداً أن يكون حجرة كلب كهذه التي أرى.

وقف في وسط حجرتي ينظر فيما حوله مستطلعاً، وقال:

- هذا تابوت، تابوت حقيقي!

والحق أن حجرتي كان بينها وبين جوف التابوت شبه، حتى لقد أعجبت بدقة تشبيهه إياها بالتابوت. إنها غريفة ضيقة طويلة. وفي

Twitter: @ketab_n

مستوى كتفي، لا أعلى منه، تبدأ الزاوية التي تتشكل من التقاء جدارها بسقفها الذي كنت أستطيع أن ألمسه بكفي. وقد وقف فرسيلوف في اللحظة الأولى محنياً خشية أن يصطدم رأسه بالسقف. ولكن رأسه لم يصطدم بالسقف؛ فجلس بهدوء على ديواني الذي كان قد أمسى سريراً. أما أنا فلم أجلس، وإنما كنت أنظر إليه مندهشاً أعمق الاندهاش. قال:

- إن أمك لا تدري هل يجب عليها أن تأخذ المال الذي عرضته عليها منذ قليل نفقات لإقامتك عندنا هذا الشهر. والحق أن هذا التابوت الذي تقيم فيه لا يستحق أن تدفع عنه أجراً، بل لعلنا أن نكون نحن المدينين لك! أنني لم أجيء إلى هنا مرة واحدة... وإنه ليصعب عليَّ أن أتخيل أن يعيش إنسان في هذا المكان.

- لقد تعودت هذه السكنى. ولكن الشيء الذي لا يمكنني أن أتعوده هو أن أراك عندي بعد الذي حدث تحت.

- حقاً لقد كنتَ شديد الفظاظة تحت... ولكن لي، أنا أيضاً، غايات خاصة سأشرحها لك، وإن يكن وجودي هنا، في حقيقة الأمر، ليس بالشيء الخارق. وحتى ما حدث تحت ليس شاذا في الواقع، وإنما هو طبيعي. ولكن هناك نقطة تفصيلية أرجوك أن توضحها لي: هل ما رويته تحت، وما ألقيته على مسامعنا بتلك الاحتفالية والاهتمام هو كل ما كان في نيتك أن تكشف لنا عنه أو أن تفضي إلينا به؟ أليس عندك شيء آخر؟

- ذلك كل شيء. أو فلنفرض أنه كل شيء.

- هو إذاً قليل يا صديقي. إن دخولك في الموضوع، وأسلوبك في دعوتنا إلى الضحك، ورغبتك الشديدة في الكلام، كل ذلك جعلني أتوقع أن يتمخض عن أكثر مما تمخض عنه.

Twitter: @ketab_n

- ولكن فيم يهمك هذا؟

- يهمني لأنه يفتقد الإحساس بالاعتدال. علام كل هذا اللغط والصخب؟ أتقضي شهراً كاملاً في صمت وتحضير من أجل أن تتمخض فجأة عن.. لا شيء؟!

- كان في نيتي أن أحكي أكثر مما حكيت، ولكنني خجلت حتى مما قلته. ما كل شيء يمكن أن يحكى بالكلام. هناك أمور يحسن بالمرء أن لا يجيء على ذكرها أبداً. لقد قلت ما فيه الكفاية ثم إنك قد فهمت.

- إذاً أنت أيضاً يعذبك في بعض الأحيان أن فكرك لا تسعه قوالب الألفاظ! يا صديقي، هذا العذاب لم يوهب إلا لصفوة مختارة من الناس. أما الغبي الأحمق فهو راض دائماً عما يقول؛ وهو عدا ذلك يقول دائماً أكثر مما يجب أن يقول. أولئك أشخاص يحبون الزيادة.

- مثلما كنت أنا تحت. أنا أيضاً قلت أكثر مما كان يجب أن أقول. طالبت «بفرسيلوف كله». هذا أكثر من اللازم. لست في حاجة إلى فرسيلوف.

- أرى يا صديقي أنك تريد أن تعوض ما خسرته تحت. إنك نادم. ولما كان الندم يعني عندنا أن يتهجم المرء فوراً على أحد، فقد عزمت أمرك على أن لا تخطئني مرة أخرى. لقد جئت إليك قبل الأوان، فما تزال نارك مستعرة لم تنطفىء. ثم إنك لا تتحمل النقد. ولكن إجلس، أرجوك. أريد أن أبلغك شيئاً. شكراً، أحسنت! إن ما قلته لأمك لحظة انصرافك يدل دلالة واضحة على أن من الأفضل أن نفترق على كل حال. وقد جئت لأنصحك بأن تفارقنا في هدوء كامل وبغير فضيحة، حتى لا تحزن أمك مزيداً من الحزن وحتى لا تروّعها مزيداً من الترويع. إن مجرد صعودي إليك الآن قد خفف عنها وأحسن إليها: إنها مقتنعة بأننا نستطيع أن نتصالح، وبأن كل شيء سيظل يجري كما كان يجري. وأعتقد

Twitter: @ketab_n

أننا إذا استطعنا، أنا وأنت، أن نضحك ضحكاً صاخباً، مرة أو مرتين، سوف نزرع الفرح في قلبيهما الوجلين، كلتيهما. إن قلبيهما بسيطان، ولكنهما زاخران بالحب والصدق والبراءة. فلماذا لا نفرحهما قليلاً إذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً؟ هذه هي النقطة الأولى. وإليك النقطة الثانية: هل من المحتم أن نفترق ونحن نكزّ أسناننا، ونحترق ظمأ إلى الانتقام، ونصب اللعنات، وما إلى ذلك! صحيح أننا لن نتعانق، ولكن من الممكن أن نفترق ونحن نتبادل الاحترام إن صح التعبير، أليس كذلك؟

- هذا كله سخافات! أعدك بأن أنصرف دونما فضيحة، ويكفي ذلك! أيقلقك أمر أمي؟ يخيل إليَّ مع ذلك أن طمأنينة أمي لا تهمك كثيراً. هذا منك كلام لا أكثر.

- ألا تصدقني؟

- إنك تكلمني كما يكلّم الطفل حقاً!

- يا صديقي، أنا مستعد لأن أستغفرك عن هذا ألف مرة، وأن أستغفرك أيضاً عن كل ما تنسبه إليَّ، عن سني طفولتك، وهلم جراً. ولكن ما عسى ينتج عن ذلك يا ولدي العزيز؟ أظن أنك أذكى من أن تضع نفسك في مثل هذا الوضع السخيف؟ دعك من أنني لا أفهم في الواقع طبيعة المآخذ التي تأخذها عليَّ فهماً واضحاً، ولكنني أسألك: ما الذي تتهمني به؟ بأنك لم تُسمَّ عند ولادتك باسم فرسيلوف؟ ليس هذا ما تتهمني به؟ إنك تضحك وقد لاح في وجهك احتقار، ولوحت بيدك تحمي بها نفسك. إذاً ليس ذلك هو ما تتهمني به؟

- لا، صدقني. صدِّق أنني لا أرى أي شرف في أن يكون اسمي فرسيلوف.

- دعنا من الشرف. ثم، لا بدّ من أن يكون جوابك ديموقراطياً. ما الذي تتهمني به إذاً؟

Twitter: @ketab_n

- لقد نطقت تاتيانا بافلوفنا منذ ساعة بكل ما كنت أريد أن أعرفه ولم أتوصل إلى فهمه حتى سمعتها: إنك لم تشأ أن تجعلني إسكافياً، وأن عليَّ إذاً أن أشكر لك جميلك. إنني لا أدرك سبب نكراني الجميل حتى الآن، حتى بعد أن أُلقي عليّ هذا الدرس. ألا يمكن أن يكون دمك المتغطرس هو الذي يتحدث فيَّ الآن يا أندريه بتروفتش؟

- لا أظن ذلك. يجب عليك أن تسلم، عدا هذا، أن جميع هجماتك التي أردت لها أن تسقط عليَّ أنا منذ قليل، لم تزد على أن آلمتها وعذبتها، هي وحدها. ويخيل إليَّ مع ذلك أنك لست أنت من يحق له أن يدينها. وما هو ذنبها في حقك؟ بالمناسبة: اشرح لي هذه النقطة أيضاً يا صديقي: لأي سبب وعلى أي نية أذعت في المدرسة وفي المدرسة الثانوية وطوال حياتك وحتى لأي إنسان تلقاه (لقد ذُكر لي هذا) أنك ابن زنا؟ لقد علمت أنك تتلذذ بإذاعة هذا. وما ذلك منك في الواقع إلا غباوة ونميمة دنيئة: أنت دولجوروكي، الابن الشرعي لماكار إيفانتش دولجوروكي، الشخص المحترم، المتميز ذكاء وخلقاً. وإذا كنت قد أصبت حظاً من تعليم عال، فإنما يرجع الفضل في ذلك إلى فرسيلوف، مولاك سابقاً. ولكن ما الذي نتج عن ذلك؟ إنك بما أذعته من أنك ابن زنا - وتلك نميمة - إنما فضحت أمك، ولطّختها بالوحل منطلقاً من كبرياء كاذب. وذلك يا صديقي ليس من النبل في شيء، لاسيما وأن أمك ليست هي الآثمة: إن لأمك خلقاِ هو الصفاء الكامل والطهارة التامة. وإذا لم تُسمَّ باسم فرسيلوف، فلسبب وحيد هو أنها لا تزال متزوجة.

- كفى! إنني أوافقك كل الموافقة، وأثق بذكائك ثقة تبلغ من القوة أنني آمل أن تكف عن هذه التقريعات التي أظن أنها طالت كثيراً. أنت رجل تهوى الاعتدال.. وهناك اعتدال في كل شيء، حتى في حبك

Twitter: @ketab_n

المفاجىء لأمي. فدعنا من هذا وقل لي: إذا كنت قد قررت أن تجيء إليَّ وأن تقضي عندي ربع ساعة أو نصف ساعة (وأنا ما زلت لا أعرف لماذا جئت، ولكن لنسلم بأنك جئت لإدخال الطمأنينة والسكينة إلى قلب أمي)، وإذا كنت عدا ذلك تجد لذة كبيرة في الحديث معي رغم كل ما جرى تحت، فحدثني إذن عن أبي، عن ماكار إيفانوف، هذا الجوّاب. منك أنت إنما أريد أن أسمع شيئاً عنه. إنني أنتوي منذ مدة طويلة أن أطلب منك هذا. وأحب كذلك، ونحن نفترق - ربما إلى أمد طويل - أن أحصل منك على جواب عن هذا السؤال الآخر: هل يعقل أن لا تكون قد استطعت خلال هذه السنين العشرين أن تؤثر في أوهام أمي، وكذلك الآن في أوهام أختي، فتبدد الظلمات الأولى التي تخيم على بيئتها القديمة؟ لست أتكلم في طهارتها طبعا! فإنها كانت دائماً أسمى منك كثيراً في مجال الأخلاق، معذرة.. ولكن ما هي إلا جثة سامية. أما الحياة فهي لفرسيلوف وحده. وكل ما عداه ممن حوله، كل ما له ارتباط به، إنما هو أشبه بنبات... نبات يغذيه بطاقاته وبما فيه من عصارة الحياة. غير أنها كانت هي أيضاً حية في الماضي أليس كذلك؟ وهل وجدت فيها ما تحبه؟ كانت هي أيضاً امرأة، أليس كذلك؟

- يا صديقي، إذا أردت أن تعرف ذلك، فاعلم أنها لم تكن امرأة في يوم من الأيام.

قال ذلك وهو يجعد وجهه ذلك التجعيد القديم الذي أحفظ ذكراه والذي كان يحنقني أشد الحنق، أقصد ذلك التجعيد الذي يوهم المرء أنه إزاء إنسان يملك طيبة صادقة أشد الصدق، مع أن نفسه لا تشتمل في الواقع إلا على سخرية واستهزاء، حتى لقد كنت لا أستطيع في بعض الأحيان أن أفهم من هيئته شيئاً. وعاد يقول:

- لا، لم تكن امرأة في يوم من الأيام. ما من امرأة روسية بامرأة.

Twitter: @ketab_n

- هل البولندية أو الفرنسية هي المرأة؟ أم أن الإيطالية، الإيطالية المشبوبة، هي التي تأسر لب روسي متحضر من الطبقة العليا مثل فرسيلوف؟

- هذا ما كان ينقصني! كان ينقصني أن ألقى هنا واحداً من المتعصبين للسلافية[43]!

وانفجر فرسيلوف ضاحكاً.

إنني أتذكر ما رواه كلمة كلمة. حتى لقد كان يتحدث راضياً مسروراً. وكان واضحاً لي أنه لم يأتِ إليَّ ليثرثر معي أو ليطمئن أمي، وإنما جاء مبيتاً نيات أخرى.

- 2 -

بدأ فرسيلوف ثرثرته المصطنعة فقال:

- لقد عشنا أنا وأمك هذه السنين العشرين كلها في صمت. وكل ما جرى بيننا إنما جرى في صمت أيضاً. فالسمة الرئيسية التي تتسم بها هذه العلاقة التي دامت عشرين عاماً هي الصمت. حتى أنني أظن أننا لم نتشاجر مرة واحدة. صحيح أنني تغيبت كثيراً، فكنت أتركها وحيدة، لكنني كنت أعود في النهاية دائماً. إننا نعود دائماً، هذه أبرز صفة يتصف بها الرجال، وهي من عظمتهم. فلو كان الزواج رهناً بالنساء وحدهن لما استمر زواج. والسمة التي تتميز بها أمك إنما هي الطواعية والمذلة والخضوع، التسليم والرضى، ولكنها تتصف أيضاً بالصلابة والقوة، القوة الحقيقية. أحب أن تلاحظ أنها بين النساء اللواتي لقيتهن خيرهن جميعاً. إن لها قوة، أشهد بذلك: لقد رأيتُ كيف دعمتها هذه القوة. فمتى كان الأمر قناعات (لا قناعات حقيقية فهذا ليس محل بحث، بل ما يمكن أن يسمى عندها قناعات) ومتى كان الأمر أمر تبعاً لذلك أمر شيء

Twitter: @ketab_n

تعده مقدساً، كانت مستعدة لأن تتحمل جميع أنواع العذاب كما يتحملها شهداء. فانظر بنفسك: أأنا أشبه جلاداً يعذب الناس؟ ذلك هو السبب الذي حملني على الصمت في جميع الأحيان تقريباً، وليس السبب هو أن الصمت أسهل. ولست نادماً على ذلك، أعترف لك. فبهذه الطريقة جرى كل شيء بيننا من تلقاء نفسه على نحو إنساني رحب. حتى أنني لا أنسب لنفسي في هذا أي فضل. يجب أن أقول لك في هذه المناسبة إنني أميل إلى أن أظن أنها لم تؤمن بعواطفي الإنسانية في يوم من الأيام، وأنها لذلك ارتعشت من الخوف دائماً. ولكنها رغم ارتعاشها من الخوف لم ترغب في الحصول على أي ثقافة. هؤلاء أناس يحسنون تصريف أمورهم أكثر منا. إنهم على وجه الإجمال يعرفون كيف يدبرون شؤونهم خيراً مما نعرف ذلك نحن. إنهم يستطيعون أن يواصلوا الحياة على ما يشاؤون في أكثر الظروف مناقضة لطبيعتهم، وأن يبقوا في تلك الظروف ما هم فلا يتغيروا. أما نحن فلا نملك هذه البراعة التي يملكون.

- من هؤلاء الذين تعنيهم؟ إنني لا أفهم عنك فهماً واضحاً.

- الشعب يا صديقي. الذين أعنيهم هم الشعب. لقد برهن الشعب على قوته الحية الكبيرة خلال التاريخ، أخلاقياً وسياسياً على حد سواء. ولكن لنرجع إلينا: أستطيع أن أقول إن أمك لم تكن دائمة الصمت. إنها تتكلم أحياناً، ولكنها تتكلم بطريقة تجعلك تدرك إدراكاً واضحاً أنك قد أضعت وقتك سدى فيما سقته إليها من أحاديث ولو كنت قد سلخت من عمرك خمس سنين في تهيئتها لهذه الأحاديث شيئاً بعد شيء. وما أعجب الاعتراضات التي تواجهك بها ولم تخطر لك ببال! لاحظ مرة أخرى أنني لا أصفها بالغباء البتة. بالعكس: إن في هذا نوعاً من ذكاء، بل إن فيه ذكاء فذاً. ولكن لعلك لن تعترف لها بهذا الذكاء. . .

Twitter: @ketab_n

- لم لا؟ أن ما لا أصدقه هو أن تؤمن أنت حقاً بذكائها، وأن لا تكون في ذلك مرائياً.

- صحيح؟ أأنت تعدّني حرباء؟ يا صديقي، إنني أسرف في مداراتك... كولدي المدلل... ولكن ليكن الأمر كذلك هذه المرة.

- حدثني عن أبي. قل لي الحقيقة إن استطعت.

- ماكار إيفانوفتش؟ نعم، إن ماكار إيفانوفتش هو كما تعلم قن خادم أحبَّ فيما يقال أن يصبح ذا شهرة..

- أراهن على أنك في هذه اللحظة تغار منه!

- بالعكس يا صديقي، بالعكس. وإذا شئت أن تعرف الحقيقة فاعلم أنني مرتاح أشد الارتياح إلى أن لك مزاجاً معقداً هذا التعقيد كله. أحلف لك أنني أعاني الآن ندامة قوية عميقة، وأنني في هذا اليوم نفسه، بل في هذه اللحظة التي تمر، أحس ربما للمرة الألف بالأسف في غير طائل لما حدث منذ عشرين سنة. شهد الله أن كل ما حدث قد حدث مصادفة إلى أقصى الحد... ثم جرى بصورة إنسانية فيما يخصني أنا على الأقل بحسب الفكرة التي كانت قائمة في ذهني عن فضيلة الاتصاف بالروح الإنسانية. آه.. لشد ما كنا نحترق في ذلك الحين شوقاً إلى فعل الخير وخدمة المجتمع والفكرة العليا، ولشد ما كنا نُدين الألقاب والرتب، وامتيازاتنا الموروثة، وتملك الأطيان، وحتى بنك تسليف الفقراء، في رأي بعضنا على الأقل... أحلف لك. كان عددنا قليلاً، ولكننا كنا نحسن الكلام، بل كنا في بعض الأحيان نحسن العمل أيضاً، أؤكد لك.

- أيامَ كنت تنتحب على الكتف مثلاً؟

- يا صديقي، إنني أوافقك سلفاً على كل شيء. بالمناسبة: حكاية الكتف هذه، أنا الذي رويتها لك، فأنت في هذه اللحظة تسيء استغلال

Twitter: @ketab_n

صدقي وثقتي. لاحظ أن الانتحاب على الكتف لا يضعني في وضع سيئ إلى الحد الذي يبدو لأول وهلة، ولا سيما إذا رددته إلى زمانه. لقد كنا عندئذ مبتدئين في أمرنا. صحيح أن ذلك كان مني تصنعاً وتكلفاً. ولكنني كنت أجهل حينذاك أنني لم أكن صادقاً. انظر إلى نفسك مثلاً: أأنت لا تتصنع أبداً في الحياة العملية؟

- حين كنا تحت، منذ قليل، أسرفت في العاطفية بعض الإسراف، وما إن رجعت إلى هنا حتى أحسست بالخجل إذ تصورت أنك قد تظن أنني فعلت ذلك عامداً. صحيح أن المرء يمثّل في بعض الأحيان، مهما يكن صادقاً. ولكنني أحلف لك أنني كنت اليوم، تحت، طبيعياً بغير تصنع البتة.

- حسن ما تقوله. لقد أجدت التعبير: «إن المرء يمثّل في بعض الأحيان، مهما يكن صادقاً». فذلك بعينه هو ما جرى لي أنا: لقد انتحبت صادقاً رغم أنني كنت أمثّل تمثيلاً. أوافقك: كان في إمكان ماكار إيفانوفتش أن يعدّ الانتحاب على كتفه زيادة في السخرية، لو كان أذكى قليلاً. ولكن استقامته أساءت عندئذ إلى نفاذ بصره. والشيء الذي أجهله هو: أأخذته بي شفقة حينئذ أم لا. أذكر أنني كنت أحترق شوقاً إلى أن يرثى لحالي.

قاطعته قائلاً:

- والآن إذ تقول هذا الكلام إنما أنت تسخر أيضاً. إنك على وجه الإجمال، في جميع ما قلته لي خلال هذه المدة كلها، طوال هذا الشهر كله إنما كنت تسخر. لماذا كنت تتصرف معي دائماً هذا التصرف حين تكلمني؟

أجاب يقول بوداعة:

- أتظن ذلك؟ إنك شديد الوسوسة. إذا كنت أضحك فلست

Twitter: @ketab_n

أضحك منك أو على الأقل لست أضحك منك وحدك، فاطمئن. لكنني في هذه اللحظة لا أضحك. لنعد إلى ما كنا فيه. لقد عملت حينذاك كل ما كان في وسعي أن أعمله، وصدقني إذا قلت لك إنني لم أعمل ما عملت في سبيل مصلحتي. لقد كنا نحن، أعني معشر الممتازين عاجزين عن العمل في ذلك الزمان لمنفعتنا بالقياس إلى أبناء الشعب. بالعكس: كنا نسيء إلى أنفسنا أكبر الإساءة، وأظن أن هذا بعينه هو ما كنا نعده «المصلحة العليا التي هي مصلحتنا» بأسمى معاني هذه الكلمة طبعاً. إن المثقف في هذا الزمان وكذلك الأشخاص التقدميين أشد تعلقاً بالمنفعة وسعياً إليها من جيلنا. في ذلك الزمان شرحت لماكار إيفانوفتش كل شيء، بصراحة خارقة، حتى قبل ارتكاب الخطيئة. إنني أسلم اليوم بأن كثيراً من تلك الأشياء لم يكن في حاجة إلى شرح، ولا سيما بمثل تلك الصراحة. فلو أقصرت في الشرح لكان ذلك أقرب إلى الأدب والتهذيب، ناهيك عن العاطفة الإنسانية. لكن أين للمرء أن يكبح جماح نفسه حين يريد أن يغامر فيقوم أثناء الرقص بخطوة جميلة بعد أن يكون سكرُ الرقص قد أخذ منه كل مأخذ! لعل هذا ما كانت تقتضيه في الواقع ضرورات الجمال والخير: إنني لم أجد جواباً عن هذا السؤال بعد. على كل حال، هذه مشكلة أعمق من أن يتناولها حديث سطحي كالحديث الذي يدور بيننا الآن. لكنني أحلف لك أنني ما زلت أموت خجلاً من هذه الذكرى في بعض الأحيان. آنذاك عرضت عليه ثلاثة آلاف روبل. كان صامتاً. وكنت وحدي أتكلم. تصور: لقد خُيّل إليّ أنه خائف مني، أي خائف مما للسيد من حقوق على العبد، فبذلت أقصى جهدي لأشجعه. إنني أتذكر هذا. حضضته على أن يفصح عن جميع رغباته دون أن يخشى شيئاً، بل حضضته على أن ينتقد ما شاء أن ينتقد. وعلى سبيل الضمان قطعت له عهداً على نفسي أنه إذا رفض

Twitter: @ketab_n

شروطي، أي الثلاثة آلاف روبل وإعتاقه (هو وامرأته طبعاً) ورحيله (بدون امرأته طبعاً) ما عليه إلا أن يعلن ذلك صراحة حتى أعتقه فوراً، وأرد إليه امرأته، وأهديهما كليهما هذه الثلاثة آلاف روبل نفسها، فلا يكون عليهما هما أن يرحلا عندئذ، وإنما أرحل أنا إلى إيطاليا وحيداً لمدة ثلاث سنين. لو حدث هذا فإنني ما كنت سأصطحب الآنسة سابوجكوفا إلى إيطاليا، ثق بهذا. كنت بذلك الحين أطهر من أن أفعل ذلك. وماذا إذاً؟ لقد أدرك ماكار هذا حق الإدراك أنني سأفعل ما أقول. ولكنه بقي صامتاً لا يتكلم، ثم لم يتحرك إلا حين أردت أن أرتمي على كتفه مرة ثالثة، فإذا هو يتقهقر، ويجري يده بشارة تنم عن قلة الاكتراث، ويخرج حتى بغير تحرج، فأدهشني منه ذلك، وأؤكد لك. ونظرت إلى نفسي عندئذ في مرآة عرضاً، وهذه ذكرى لن أنساها في يوم من الأيام. إنهم بوجه عام حين يصمتون فلا ينطقون، يكون الأمر أرهب ما يكون. ولقد كان ماكار قاتم المزاج، فكان لا يوحي إليَّ بالثقة، حتى أنني كنت إذا دخل عليَّ أشعر بذعر هائل: إن في هذه البيئة أفراداً، أفراداً كثيرين، تتجسد فيهم قلة الذمة إن صح التعبير. وهذا أحق أن يُخشى من الطعنات. فما أكثر ما جازفت وعرضت نفسي للخطر! فلو أن «أوريا» القروي هذا قد أخذ يزعق ويصرخ، فما عسى كان يحدث لي أنا «داود» الصغير[44] وما عسى كنت أستطيع أن أفعل؟ ذلك هو السبب في أنني عرضت الثلاثة آلاف روبل منذ البداية مدفوعاً إلى ذلك بغريزتي. ولكنني أخطأت الظن لحسن الحظ: فلقد كان ماكار إيفانوفتش هذا شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف. . .

- قل لي: هل كانت الخطيئة قد وقعت؟ لكأنك قلت لحظة إنك استدعيت الزوج قبل حدوث الخطيئة؟

- أعني. . . أقصد. . .

Twitter: @ketab_n

- إذا كانت الخطيئة قد وقعت. وقلت منذ لحظة إنك أخطأت الظن فيه، وإنه كان مختلفاً كل الاختلاف عما صوَّر لك خيالك. . . فماذا كان؟

- ماذا كان؟ آه. . . إنني لا أزال أجهل ما هو. لكنه إنسان مختلف كل الاختلاف، بل إنسان مستقيم جداً، هل تتصور؟ إنني أخلص إلى هذه النتيجة لأن الإحساس بارتكاب ذنب في حقه قد تضاعف مثنى وثلاث. لقد قبل الرحيل في الغداة، بدون كلام، وبدون أن يغفل شيئاً من التعويضات التي عرضتها عليه طبعاً.

- أخذ المال؟

- كيف لا؟ حتى لقد أدهشني في هذه الناحية يا صديقي. لم أكن أحمل ثلاثة آلاف روبل طبعاً. فأخرجت من جيبي سبعمائة وقدمتها إليه دفعة أولى. فهل تعرف ماذا فعل؟ طلب مني سنداً قيمته ألفان وثلاثمائة روبل، واشترط أن يحرر السند لأمر تاجر. وبعد ذلك بسنتين تسلح بهذا السند وطالبني بالمال مع فوائده عن طريق المحاكم، فأدهشني مرة أخرى، لا سيما وأنه كان يجول جامعاً صدقات لبناء كنيسة، وما يزال يجول منذ عشرين سنة إلى الآن. إنني لا أفهم: ما حاجة جوال مثله إلى ذلك المبلغ كله لنفسه؟ . . . إن المال شيء يرغب فيه من يعيش في المجتمع. . . وأنا كنت قد عرضت عليه ذلك المبلغ صادقاً، أو قل في إبان الحرارة الأولى، والاندفاع الملتهب، أما بعد ذلك، فقد كان طبيعياً أن أثوب إلى رشدي. . . وكنت أظن أنه سيعفيني. . . أو قل سيعفينا أنا وهي، أو أنه سيمهلنا بعض الوقت على الأقل. ولكنه لم يقبل حتى أن يمهلنا. . .

(يجب أن أسوق هنا ملاحظة لا غنى عنها: لو مات السيد فرسيلوف قبل أمي فتبقى في أواخر أيامها بغير كوبيك واحد. ولكن الثلاثة آلاف

Twitter: @ketab_n

روبل التي بقيت كاملة غير منقوصة حتى لقد ضاعفتها الفوائد المتراكمة قد أوصى بها ماكار إيفانوفتش لأمي في السنة الماضية. كان قد فهم حقيقة فرسيلوف منذ ذلك الحين).

- قلت يوماً إن ماكار إيفانوفتش كان يجيء إليكم عدة مرات، وإنه كان ينزل دائماً إلى شقة أمي...

- نعم يا صديقي، وأعترف لك أنني كنت في البداية أخشى تلك الزيارات كثيراً. ولقد جاء طوال هذه المدة، أي خلال هذه العشرين سنة، ست مرات أو سبعاً لا أكثر. فكنت في الزيارات الأولى أختبئ إذا اتفق أن كنت بالمنزل. حتى أنني في أول الأمر كنت لا أفهم: ما معنى هذا؟ لماذا يجيء؟ ولكنني بعدئذ، بدا لي من بعض العلائم أن ذلك لم يكن منه غباء إلى الحد الذي صوّره لي خيالي. ثم ثار حب الاطلاع في نفسي عرضاً، فمضيت أراه، فخرجت من ذلك بانطباع طريف، أؤكد لك. كانت تلك زيارته الثالثة أو الرابعة، وكنت قد عينت منذ برهة وجيزة وسيط صلح، وصرفت همي، كما ينبغي أن أفعل، إلى دراسة روسيا. فعرفت منه أشياء جديدة لا حصر لها. وعدا ذلك وجدت فيه ما لم أكن أتوقع أن أجده البتة: وجدت نفساً طيبة ومزاجاً متساوياً، حتى لقد وجدت فيه ما يشبه أن يكون جذلاً، فكان هذا أدعى إلى دهشتي من كل ما عداه. لم يشر إلى الأمر أيسر إشارة، هل تفهم؟ ورأيته يعبر عن جوهر الأشياء بلغة واضحة رائعة، أي لم أقع في أحاديثه على تلك الجمل المزوقة المشوشة التي يلاحظها المرء في حديث الأقنان الخدم والتي أعترف لك بأنني لا أطيقها رغم جميع آرائي الديمقراطية، ولم أقع في أحاديثه على تلك الألفاظ الروسية الصميمة المزعومة التي يستعملها «روس صادقون» في رواياتنا ومسارحنا. لا ولا رأيته يتكلم في الدين إلا قليلاً جداً، ما لم تسأله، حتى لقد رأيته يروي أقاصيص فكهة ظريفة عن

Twitter: @ketab_n

الأديرة وحياة الرهبان إذا كنت تهتم بسماعها. ولكنني وجدت فيه خاصة، ذلك الاحترام، احترام المرء على تواضع وبغير تبجح، ذلك الاحترام الذي أرى أنه الشرط الذي لا بد منه للمساواة القصوى، بل أرى أنه يستحيل على المرء بدونه أن يبلغ التفوق. فبهذه القدرة على عدم التغطرس إنما يستطيع المرء أن يصل إلى الدرجة العليا من الاستقامة، وبها إنما يتجلى الإنسان الذي يحترم نفسه حقاً أياً كانت حاله، وأياً كان قدره. ولسوف ترى إذا عشت أن قدرة المرء على احترام نفسه في حالته هو نادرة كندرة الكرامة الصادقة. . . غير أن الشيء الذي خطف بصري وأثار انتباهي أكثر من كل ما عداه بعد ذلك، بعد ذلك لا في البداية (أكد فرسيلوف الكلمات الأخيرة)، هو أن ماكار هذا على جانب عظيم جداً من مهابة الهيئة، وأؤكد أيضاً أنه على جانب عظيم جداً من الوسامة والجمال. صحيح أنه شيخ، ولكنه:

«ملوح الوجه، فارع الطول، ممشوق القوام»[45]

بسيط المظهر، جليل الطلعة. حتى لقد أدهشني أن صوفيا المسكينة فضلتني عليه، كان عندئذ في الخمسين من عمره، ولكن هذا لا ينفي أنه كان رجلاً قوياً جسوراً، وأنني كنت بالقياس إليه شاباً قميئاً متحذلقاً. على أنني أتذكر أن شيب شعره كان شديداً، فلا بد أنه كان شائباً حين تزوجها. . . فلعل هذا أن يكون قد أثّر فيها.

إن هذا الرجل فرسيلوف يتصف بما يتصف به أبناء المجتمع الراقي من تلك العادة الكريهة الباعثة على الاشمئزاز. فبعد أن قال أشياء فيها كثير من الذكاء وكثير من الانصاف (حين لم يستطع أن يفعل غير ذلك)، إذا هو يسف هذا الإسفاف عامداً فيسوق ملاحظة حمقاء غبية من نوع هذه الملاحظة عن بياض شعر ماكار إيفانوفتش وعن أثر ذلك في أمي. لقد فعل ذلك عامداً، ربما دون أن يدرك هو نفسه لماذا فعله. إنها عادة

Twitter: @ketab_n

من عادات أبناء المجتمع الراقي. ولو سمعته لاعتقدت أنه يتكلم جاداً كل الجد، ولكنه في قرارة نفسه إنما كان يسخر أو يضحك.

- 3 -

لا أدري لماذا اعتراني حنق شديد على حين فجأة. إنني أمتعض الآن امتعاضاً كبيراً كلما تذكرت بعض ثورات غضبي أثناء الحديث. نهضت عن كرسيي بغتة وقلت له:

- اسمع. لقد زعمت أنك إنما جئت إليَّ خاصة من أجل أن تظن أمي أننا تصالحنا. وقد انقضى من الوقت ما يكفي لإيهامها بذلك. فهلا تركتني وحيداً؟

فاحمر قليلاً ونهض قائلاً:

- يا عزيزي، إنك تتصرف معي بفجاجة. إلى اللقاء. لا تُفرض الصداقة فرضاً. لكنني أبيح لنفسي أن ألقي عليك هذا السؤال: هل تريد أن تترك الأمير فعلاً؟

- آه.. آه... كنت أعلم أنك تبيت نيات معينة...

- أتظن أنني جئت لأحضك على البقاء مع الأمير لأن لي في ذلك منفعة؟ ولكن ألا تعتقد أيضاً يا صديقي أنني استدعيتك من موسكو لأنني أجني من ذلك فائدة ما؟ ألا ما أشد وسوستك! بالعكس: فعلت هذا كله لخيرك أنت. إنني أتمنى، حتى اليوم وقد تحسنت أحوالي المالية، أن تتيح لنا، أنا وأمك، أن نمد إليك يد المعونة...

- أنا لا أحبك يا فرسيلوف.

- وتناديني باسم «فرسيلوف» أيضاً. بالمناسبة: يؤسفني أشد الأسف أنني لم أستطع أن أترك لك هذا الاسم. وذلك هو كل ذنبي إجمالاً، إذا كان ثمة ذنب، أليس كذلك؟ ولكنني أكرر لك أنني لم يكن في وسعي

Twitter: @ketab_n

أن أتزوج امرأة متزوجة، فكر في الأمر بنفسك.

- لعلّه لهذا السبب أردت أن تتزوج امرأة لا زوج لها، هه؟

فطاف بوجهه تقبض خفيف قصير وقال:

- تقصد مدينة «إمس». اسمع يا آركادي! لقد أبحت لنفسك هجمة من هذا النوع منذ ساعة مشيراً إليَّ بإصبعك أمام أمك. فاعلم أن هذا هو الأمر الذي تخطيء فيه أكبر الخطأ؛ إنك عن هذه الحكاية مع المرحومة ليديا آخماكوفا لا تعرف شيئاً البتة. لا ولا تعرف أن أمك قد ساهمت فيها مساهمة كبيرة، رغم أنها لم تكن معي هناك. إذا كنت قد رأيت في حياتي امرأة تتحلى بالفضيلة، فإنما وقع لي هذا في ذلك الوقت حين نظرت إلى وجه أمك. ولكن كفى. هذا كله لا يزال سراً، وأنت تتكلم عما تجهل، وتعتمد في كلامك على أقاويل.

- لقد قال الأمير، في هذا اليوم، إنك من عشاق الفتيات الصغار اللواتي لا خبرة لهن.

- الأمير قال هذا؟

- نعم. اسمع: هل تريد أن أقول لك، على وجه الدقة، السبب الذي حضك على المجيء إليَّ؟ لقد ظللت أتساءل طول الوقت عن سر هذه الزيارة، وهأنذا أكتشفه أخيراً.

كان فرسيلوف قد همّ أن ينصرف، ولكنه وقف فجأة والتفت إليَّ منتبهاً. قلت:

- لقد أفلت من لساني منذ ساعة أن الرسالة التي بعثها إلى تاتيانا بافلوفنا، والتي وقعت بين أوراق آندرونيكوف، صارت بعد موته إلى يدي ماريا إيفانوفنا بموسكو. وقد رأيت حين قلت هذا الكلام، رأيت في وجهك نوعاً من التقبض. فلما رأيت الآن ذلك التقبض نفسه يلم بوجهك مرة أخرى أدركت حقيقة الأمر: لقد راودتك هذه الفكرة حين

Twitter: @ketab_n

كنا تحت: إذا عثر عند ماريا إيفانوفنا على رسالة كانت بين أوراق آندرونيكوف، أفلا يمكن أن يعثر عندها على الرسالة الأخرى أيضاً؟ لا شك أن آندرونيكوف قد ترك رسائل تبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة الشأن، أليس كذلك؟

- في رأيك إذاً أنني إنما جئتك لاستدراجك إلى الكلام؟

- أنت تعرف.

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً.

- هذه الفكرة ليست من عندك. إنني أشتم رائحة المرأة وراء أقوالك الزاخرة بالكراهية وظنونك الفظة!

- المرأة؟ هذه المرأة قد رأيتها أنا في هذا اليوم نفسه! ولعلك من أجل أن تتجسس عليها إنما تريد أن تبقيني عند الأمير؟

- أرى أنك ستوغل في طريقك الجديد إيغالاً بعيداً جداً. أتكون هذه هي «فكرتك»؟ أكمل يا صديقي أكمل، إنك تملك من مواهب التجسس ما لا سبيل إلى جحوده! حين يؤتى المرء موهبة من المواهب فيجب عليه أن ينميها.

وتوقف عن الكلام ليسترد أنفاسه.

- حذار يا فرسيلوف! لا تجعلني عدوك!

- يا صديقي، لا أحد في مثل هذه الحالة يفصح عن كل أفكاره، وإنما هو يحتفظ بها لنفسه. والآن هات ضوءاً، أرجوك. مهما تكن عدوي، فما أظن أنك تتمنى لي أن يدق عنقي على سلّمك.

ثم أضاف يقول وهو ينزل:

- Tiens, mon ami، ما رأيك يا صديقي في أنني، طوال هذا الشهر، كنت أحسبك فتى طيبا؟ إلا أنك تبلغ من شدة الرغبة في الحياة، والظمأ إلى الحياة أنك لو وهبت ثلاثة أعمار لما اكتفيت بها! هذا

Twitter: @ketab_n

مكتوب على وجهك. وأمثالك أكثرهم طيبون. كم أخطأ ظني فيك!

- 4 -

ليس في طاقتي أن أصف شدة انقباض صدري حين خلوت إلى نفسي: لكأنني قد قطعت قطعة من لحمي! أما لماذا ثارت ثائرتي فجأة، ولماذا أغلظت له الإهانة والإيذاء إلى هذا الحد عامداً، فذلك سؤال لا أعرف له الآن جواباً، ولا عرفت له جواباً في ذلك الحين أيضاً. ولشد ما اصفرّ وجهه! ألم يكن ذلك الاصفرار تعبيراً عن العاطفة أصفاها وأصدقها، وعن الحزن أعمقه وأقواه، لا تعبيراً عن الغضب والإساءة؟ لقد بدا لي دائماً أنه في بعض من اللحظات كان يحبني جداً، فلماذا، لماذا لا أصدّق اليوم هذا، لاسيما وأن أموراً كثيرة قد اتضحت بعد ذلك؟

ولكنني قد ثارت ثائرتي فجأة، فطردته، ربما لأنني افترضت ذلك الافتراض الذي ساورني بغتة وهو أنه جاء إليَّ آملاً أن يعرف إن كان لا يزال عند ماريا إيفانوفنا رسائل أخرى من رسائل آندرونيكوف؟ أما أنه كان مضطراً أن يبحث عن تلك الرسائل وأنه بحث عنها فعلاً، فذلك ما كنت أعرفه. ولكن لعلني في تلك الدقيقة بعينها قد أخطأت الظن كثيراً! ومن يدري؟ لعلني أنا الذي جعلته، بخطأ ظني، يفطن إلى ماريا إيفانوفنا بعد ذلك، وأوحيت إليه إنها قد يكون عندها رسائل!

وإليكم في النهاية هذا الشيء الغريب الآخر: مرة أخرى ردد ما يجول في خاطري كلمة كلمة (عن الأعمار الثلاثة)، وذلك ما كنت قد عبرت عنه لكرافت بهذه الألفاظ نفسها. صحيح أن توارد الألفاظ مصادفة. ولكن يا لها من معرفة جيدة بجوهر طبيعتي! يا لها من بصيرة نافذة ومن حدس صادق! ولكن إذا فهم شيئاً من الأشياء فهما يبلغ هذا

Twitter: @ketab_n

المبلغ من القوة، فلماذا لا يفهم الشيء الآخر؟ هل يستطيع المرء أن يصدّق أنه كان لا يتظاهر تظاهراً، بل كان عاجزاً بالفعل عن أن يدرك أن ما كنت في حاجة إليه ليس هو نبالة محتد فرسيلوف، وأن ما كنت لا أستطيع أن أغفره له ليس هو مولدي من زنا، وأنني على مدى حياتي كلها إنما كنت في حاجة إلى فرسيلوف نفسه، فرسيلوف الإنسان، فرسيلوف الأب، وأن هذه الفكرة قد خالطت دمي؟ هل يمكن لرجل أوتي هذا الفكر المرهف أن يكون ضيق النظرة بليد الإحساس إلى هذا الحد؟ وإذا لم يكن كذلك، فعلام يغيظني، وعلام يتظاهر؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

– 1 –

حاولت في الصباح التالي أن أستيقظ في أبكر وقت ممكن. وكانت العادة في بيتنا أن ننهض في نحو الساعة الثامنة، أقصد أنا وأمي وأختي؛ أما فرسيلوف فقد كان نؤوم الضحى فلا ينهض إلا في التاسعة والنصف. وكانت أمي تأتيني بالقهوة في الثامنة والنصف تماماً. لكنني في هذه المرة لم أنتظر القهوة، واختفيت من البيت في الساعة الثامنة بالضبط. وكنت منذ العشية قد وضعت لنهاري خطة عمل عامة. ولكني رغم عزمي المشبوب على وضع هذه الخطة موضع التنفيذ فوراً، كنت أحس بالتردد وأن أهم نقاط هذه الخطة ينقصها الكثير من الثبات والوضوح لذلك قضيت الليل كله نصف نائم، حتى لأكاد أهذي، ووافتني أحلام كثيرة، فلا أستطيع أن أقول إني نمت حقاً. ومع ذلك نهضت منتعشاً مرتاحاً كما لم أكن منتعشاً ولا مرتاحاً في أي وقت مضى. وكانت أمي هي التي أحب أن أتحاشى لقاءها خاصة. إنني معها لا أستطيع أن أتكلم إلا في موضوع معين، فكنت أخشى أن أتحول عن أهدافي بانطباع جديد مفاجىء.

كان الصباح بارداً، وكان يتموج على الطبيعة كلها ضباب رطب أبيض. لا أدري لماذا تعجبني دائماً أصباح بطرسبرج التي تضج بالحركة

Twitter: @ketab_n

رغم مظهرها الدميم، ولماذا يفتنني كثيراً منظر هذه الجمهرة من الناس الأنانيين المهمومين المنصرفين إلى أعمالهم مسرعين في الساعة السابعة من البكور. وإني لأحب خاصة، وأنا على عجلة في الطريق، أن أتجه إلى أحد فأسأله عن شيء متعجلاً، أو أن يتجه إليّ أحد بسؤال: إن السؤال والجواب مقتضبان دائماً، واضحان، جليان، ينطق بهما السائل والمجيب دون أن يقفا، ويتبادلانهما بما يشبه الصداقة في جميع الأحيان. هذه لحظة من النهار يكون المرء فيها مستعداً للإجابة أحسن استعداد. إن ساكن بطرسبرج يكون في الظهر وفي المساء أقل استعداداً لتبادل الكلام. حتى أنه يكون متأهباً للتأنيب والتقريع، أو للسخرية والاستهزاء، لأيسر الأسباب. ولا كذلك في البكور قبل العمل، فهذا وقت الرصانة والجد. لاحظت ذلك.

اتجهت إلى بطرسبرجسكايا ستورونا من جديد. وإذ كان عليّ أن أعود حتماً إلى فونتانكا ظهراً للقاء فاسين في بيته (لأنه إنما يكون بالبيت ظهراً في أغلب الأحيان)، فقد حثثت الخطى دون أن أتوقف في أي مكان، رغم ما كنت أشعر به من رغبة قوية شديدة في ابتلاع فنجان من القهوة هنا أو هناك. ذلك أنني كان يجب عليّ أن ألحق إيفيم زفيريف في بيته قطعاً قبل أن يخرج؛ فاتجهت إليه، وكدت أن أصل بعد فوات الأوان، إذ كان قد فرغ من احتساء قهوته وتأهب للخروج.

- ما الذي يجيء بك إليّ كثيراً؟

بهذا استقبلني دون أن يتحرك من مكانه. قلت له:

- سأشرح لك حالاً.

إن الأصباح المبكرة، ومنها أصباح بطرسبرج، تُحْدِثُ في الطبيعة الإنسانية أثراً منبّهاً. هناك أحلام ملتهبة تراود المرء في الليل، حتى إذا طلع النور وهبّ البرد، تبخرت تبخراً كاملاً. وقد اتفق لي أن تذكرت

Twitter: @ketab_n

في الصباح بعض أحلام الليل التي لم أكد أفرغ منها أو حتى بعض أفعاله، فإذا أنا أنظر إليها نظرة فيها لوم واشمئزاز. ولكن يجب أن أذكر مع ذلك، عابراً، أن أصباح بطرسبرج، حتى أكثرها خلواً من الشعر، هي عندي بين أصباح سائر الكرة الأرضية، أروعها وأشدها إثارة للخيال. هذا رأيي أنا أو قل هو شعوري أنا، ولكنني أصر عليه. وفي نظري أن الحلم الفظيع الذي يراه هرمان في قصة «البنت البستونية» (وهو شخصية رائعة، غير عادية، تمثل نموذج الشخص البطرسبرجي[46]، نموذج العهد البطرسبرجي!) ينبغي له، في صباح من أصباح بطرسبرج هذه، المتعفنة الرطبة المضبّبة، أن يقوى مزيداً من القوة. مائة مرة تراءت لي من خلال الضباب هذه الرؤيا العجيبة، ولكن الثابتة: «حين سينقشع هذا الضباب ويرتفع، ألن يحمل معه كل هذه المدينة المتعفنة الدبقة؛ وهذه المدينة، ألن تصعد مع هذا الضباب وتزول كالدخان، ولا يبقى في مكانها إلا المستنقع الفنلندي القديم، ويبقى في وسط المستنقع - من أجل الجمال إن شئتم - هذا التمثال البرونزي، تمثال الفارس الممتطي صهوة حصانه اللاهث المنهوك؟»[47] لست أستطيع على كل حال أن أعبّر عن جميع مشاعري، ما دام هذا كله خيالاً، وما دام كله شعراً في آخر الأمر، أي سخافات! ومع ذلك فإنني كثيراً ما ألقيت على نفسي ولا أزال ألقي على نفسي سؤالاً هو في هذه المرة سؤال جنون مطبق: «ها هم أولاء جميعاً يسرعون. فمن يدري؟ إلا يمكن أن لا يكون هذا كله إلا حلماً. ألا يمكن أن لا يكون ههنا إنسان واحد حقيقي، وفعل واحد واقعي، فيكفي أن يستيقظ شخص فجأة، أعني الشخص الذي يرى هذا الحلم، حتى يتبدد كل شيء؟» ولكن هاأناذا نأيت عن موضوعي.

أقولها سلفاً: إن في حياة كل إنسان مشاريع وأحلام تبلغ من الشذوذ والغرابة، فيما يبدو، حدّ أن المرء يستطيع من أول نظرة ودون تعرض

Twitter: @ketab_n

للخطأ أن يعدها جنوناً. وإن خيالاً من هذا النوع هو ما كنت أحمله في ذلك الصباح إلى زفيريف، إلى زفيريف لأنني ليس لي أحد غيره ببطرسبرج يمكن أن أتجه إليه في هذه المرة. والحق أنني لو كنت أملك حرية الاختيار لكان إيفيم آخر من أستطيع أن أعرض له اقتراحي. وحين جلست أمامه أحسست أن الهذيان والحمى مجسدين قد جلسا أمام الاعتدال والعادية مشخّصين. ولكن بينما كنت أنا مؤيداً بالفكرة والعاطفة الصحيحة، كان هو لا يؤيده شيء إلا هذه النتيجة العملية: ذلك لا يعمل أبدا! الخلاصة: أوضحت له أنني ليس لي ببطرسبرج أحد أستطيع أن أتخذه شاهداً غيره، في قضية شرف تبلغ مبلغاً كبيراً من الخطورة، وأنه رفيق قديم وأنه لا يحق له أن يرفض، وأنني أريد أن أدعو إلى المبارزة ضابطاً من الحرس برتبة ملازم هو الأمير سوكولسكي، لأنه منذ أكثر من سنة قد صفع أبي فرسيلوف بمدينة «إمس». يجب أن أذكر أن إيفيم كان على علم بجميع تفاصيل حياتي العائلية، وموقفي من فرسيلوف، وكان يعرف تقريباً كل ما أعرفه أنا نفسي عن حياة فرسيلوف. كنت قد أفضيت إليه بهذا كله مراراً، باستثناء بعض الأسرار طبعا. وقد أصغى إلى كلامي جالساً على عادته، مشعثاً كعصفور في قفص، صامتاً رصيناً منتفخاً مع شعره الأشقر المنفوش. وكانت ابتسامة جامدة ساخرة قد ارتسمت على شفتيه لا تبارحهما. ومما زاد هذه الابتسامة خبثاً أنها لم تكن مقصودة قط، وإنما هي مرتسمة على شفتيه بغير إرادة منه. كان واضحاً أنه في تلك اللحظة كان يحس إحساساً حقيقياً واقعياً بأنه يتفوق عليّ تفوقاً كبيراً في الذكاء والإرادة على السواء. حتى لقد تراءى لي أنه يحتقرني بسبب ما حدث أمس عند درجاتشيف. فلا بد أن يكون الأمر كذلك: إن إيفيم هو الجمهور، إن إيفيم هو الشارع، والشارع لا يعبد إلا النجاح دائماً.

Twitter: @ketab_n

قال يسألني:

- وفرسيلوف، ألا يعرف عن الأمر شيئاً؟

- طبعا لا يعرف.

- فبأي حق تتدخل في شؤونه؟ ثم... ما الذي تريد أن تبرهن عليه بهذا العمل؟

كنت أعرف هذه الاعتراضات، فأوضحت له فوراً أن الأمر ليس سخيفاً إلى الحد الذي يتصوره. فأولا: سأبرهن لذلك الوقح الذي هو أمير أنه لا يزال يوجد رجال يفهمون الشرف حتى بين أبناء طبقتنا. وثانيا: سأخزي فرسيلوف وألقنه درساً. وثالثاً - وذلك هو الشيء الأساسي: سوف يرى فرسيلوف، ولو كان على حق في أنه - لاقتناعات قائمة في نفسه - لم يدع الأمير إلى المبارزة بل تحمل الصفعة، سوف يرى على الأقل أن هناك مخلوقاً قادراً على أن يشعر بالإهانة التي ألحقت بفرسيلوف كشعوره بإهانة ألحقت به هو، ومستعداً لأن يضحي بحياته في سبيله... مع أنه ينفصل عنه إلى الأبد...

- على مهلك.. لا تصرخ.. إن عمتي لا تحب هذا. قل لي من فضلك: أليس بين فرسيلوف وبين هذا الأمير سوكولسكي نفسه دعوى ينظر فيها القضاء بشأن ميراث؟ إنها إذن لوسيلة طريفة جديدة من أجل كسب الدعوى بقتل الخصم في مبارزة.

فأوضحت له أنه ليس إلا غبياً ووقحاً وأنه إذا كانت ابتسامته الساخرة تتسع لحظة بعد لحظة، فما هذا إلا دليل على صلف نفسه وتفاهته، وأنه لا يستطيع أن يفترض أن هذه الاعتبارات الخاصة بالدعوى التي ينظر فيها القضاء لم تخطر ببالي أيضاً ومنذ البداية بالذات، وأن هذه الاعتبارات لا يمكن أن تشرف بوجودها إلا رأسه الخاوي. ثم عرضت له أن القضاء قد فصل في الدعوى، وأن فرسيلوف قد كسبها، وأن

Twitter: @ketab_n

الدعوى لا تستهدف الأمير سوكولسكي، فإذا مات منهم واحد بقي الآخرون، ولكن يحسن طبعاً تأجيل التحدي إلى ما بعد انقضاء المهلة القانونية لرفع الدعوى إلى محكمة النقض (رغم أن الأمراء سوكولسكي لا ينتوون رفعها إلى محكمة النقض)، وإنما يحسن ذلك من باب التقيد بالمواضعات المألوفة، حتى إذا انقضت المهلة القانونية قامت المبارزة، ولقد جئت وأنا أعلم أن المبارزة لن تتم اليوم. ولكنني في حاجة إلى اتخاذ احتياطاتي، لأنني ليس لي أحد أتخذه شاهداً لي ولا أعرف أحداً، فإذا رفض إيفيم أن يكون ذلك الشاهد، كان لي من الوقت ما يتسع للبحث عن شخص غيره على الأقل. فلهذا السبب إنما جئت.

- ما كان عليك إلا أن تجيء بعد انقضاء المهلة القانونية، بدلاً من أن تقطع عشرة فراسخ بدون طائل.

قال ذلك ونهض وتنازل كسكيتته. فسألته:

- أتكون شاهدي عندئذ؟

- طبعا لا.

- لماذا؟

- أولاً لأنني إذا وافقت الآن على أن أكون شاهداً لك، فسوف تجيء إلى هنا كل يوم طوال مدة المهلة القضائية. وثانياً لأن هذا كله سخافات لا أكثر. أتظن أنني أرضى أن أدمر مستقبلي من أجلك؟ وماذا لو سألني الأمير: «من أرسلك؟» فقلت له: - «دولجوروكي»، فقال لي: «وما شأن دولجوروكي بفرسيلوف؟» قد يكون عليّ عندئذ أن أشرح له أصلك، أليس كذلك؟ لسوف يفطس إذن من فرط الضحك!

- فما عليك عندئذ إلا أن تلطمه على خطمه!

- سخف!

- أتخاف بقامتك الطويلة هذه؟ لقد كنت أقوانا جميعاً في المدرسة.

Twitter: @ketab_n

- أخاف. طبعاً أخاف. ثم إن الأمير سيرفض أن يبارزك. إن المرء يبارز نداً له.

- أنا أيضاً بثقافتي سيد. إن لي امتيازات. إنني ند له... وإذا كان أحدنا لا يرقى إلى مستوى الآخر فهو الذي لا يرقى إلى مستواي.

- لا، لا، أنت صغير جداً.

- صغير؟ كيف؟

- هكذا! نحن كلانا صغير، وهو كبير.

- غبي! إنني بحكم القانون أستطيع أن أتزوج منذ سنة.

- تزوج ما شئت أن تتزوج. ولكنك غُرٌّ لم يشبّ عن الطوق بعد.

أدركت طبعا أنه يريد أن يسخر مني. ولقد كان في وسعي طبعاً أن أستغني عن رواية هذا الجزء الغبي من قصتي، بل لعله كان يستحسن أن يغيب هذا الجزء في المجهول. أضف إلى ذلك أنه منفر بما يتصف به من تفاهة وقلة فائدة، رغم أنه كانت له نتائج خطيرة.

ولكن من أجل أن أعاقب نفسي مزيداً من العقاب، سأروي الخاتمة. فبعد أن أدركت أن إيفيم يسخر مني، أبحت لنفسي أن ألكزه في كتفه بيدي اليمنى، أو على الأصح، بقبضة يدي اليمنى. فأمسكني عندئذ من المنكبين، وأدارني إلى جهة الشارع، وبرهن لي فعلاً على أنه كان أقوانا جميعاً في المدرسة.

- 2 -

لا شك أن القارىء سيتخيل أنني حين تركت إيفيم كنت معتكر المزاج غاضباً، ولكن القارىء سيخطىء إذا هو تخيل ذلك. فلقد كنت أدرك أن الحادث هو مما يقع بين تلاميذ مدرسة، وأنه لا يمسّ جوهر القضية. وقد شربت قهوة في جزيرة فاسيليفسكي متعمداً أن أتجنب

Twitter: @ketab_n

مطعم الأمس في بطرسبرجسكايا ستورونا: فإن هذا المطعم وهزاره يثيران الآن في نفسي كرهاً مضاعفاً. إن بي صفة غريبة: هي أنني يمكن أن أكره الأماكن والأشياء ككرهي للأشخاص تماماً. ومع ذلك أحب في بطرسبرج أماكن معينة سعيدة، أعني أماكن سعدت فيها يوماً. ومن أعجب الأمور أنني أدخر تلك الأماكن السعيدة، أي أتعمد أن أغيب عنها زمناً طويلاً، لأذهب إليها فيما بعد، حين أكون وحيداً وحدة تامة، وحين أكون شقياً شقاء شديداً، فأمضي إلى هناك نشداناً للعزاء وإحياء للذكرى. وفيما كنت أشرب القهوة، أثنيت بيني وبين نفسي على إيفيم وقدرت فيه ما يتصف به من رصانة. نعم، إنه يملك من الحسّ العملي أكثر مما أملك، ولكن هل هو في قلب الواقع أكثر مني؟ أن الواقعية التي لا ترى ما هو أبعد من الأنف أشد خطراً من الخيال الجامح المجنون، لأنها عمياء. ولكني مع ثنائي على إيفيم (الذي لا شك أنه كان في تلك اللحظة مقتنعاً بأنني أغمره بالشتائم مطوفاً في الشوارع)، لم أتخل عن شيء من اقتناعاتي كما لم أتخل عن شيء منها إلى هذا اليوم. لقد رأيت أناساً ما أن ينصب عليهم سطل من ماء بارد حتى يجحدوا لا أعمالهم فحسب، بل أفكارهم أيضاً، وحتى يضحكوا أنفسهم مما كانوا منذ ساعة واحدة يعدونه مقدساً. ما أسهل ذلك عليهم! لعل إيفيم كان على حق أكثر مني حتى في جوهر الأمر، ولعلني أشد الأغبياء غباء وكنت أتصنع فقط، ولكن هذا لا ينفي أن في قرارة المسألة نقطة كنت فيها أنا أيضاً على حق، وأن عندي أنا أيضاً شيئاً صحيحاً عجز الناس عن فهمه على الدوام.

وصلت إلى بيت فاسين في الزاوية التي يلتقي فيها فونتانكا وجسر سميونوفسكي عند تمام الظهر تقريباً، ولكنه لم يكن في البيت. إنه يعمل في جزيرة فاسيليفسكي، ولا يعود إلا في مواقيت معينة، ومن هذه

Twitter: @ketab_n

المواقيت ساعة الظهر في جميع الأيام تقريباً. وإذ كان ذلك اليوم عيداً نسيت الآن ما هو، فقد كنت أقدر أن أجده حتماً. فلما لم أجده وطنت نفسي على انتظاره رغم أنني أجيئه أول مرة.

إليكم كيف فكرت في الأمر: إن مسألة الرسالة التي تتعلق بالميراث هي مسألة ضمير. فإذا احتكمت إلى فاسين كنت أعلن له بذلك أنني أحترمه احتراماً عميقاً فلا بد أن يرضيه هذا إرضاء كبيراً. صحيح أن أمر هذه الرسالة كان يشغل بالي حقا وأنني كنت مقتنعاً اقتناعاً شديداً بضرورة الاحتكام إلى أحد. ولكن أظن أنني كنت أستطيع، حتى في تلك اللحظة، أن أخرج من هذه الصعوبة دون الاستعانة بشخص غريب. والمهم، كنت أعرف أنا نفسي ذلك، أنه يكفي أن أسلم الرسالة إلى فرسيلوف، يداً بيد، ثم فليفعل بها ما يشاء. ذلك كان الحل. أما أن أنصب نفسي قاضياً أعلى في قضية من هذا النوع فذلك أمر غير لائق البتة. وحين أسلم الرسالة، يداً بيد، وحتماً بدون أن أقول شيئاً، فأضع نفسي بذلك خارج القضية، أكون فوراً في حالة الكاسب لأنني إذ أفعل ذلك أعلو على فرسيلوف علواً واضحاً، لأن تنازلي وحده، من جهتي، عن منافع الميراث (لأن جزءاً من الميراث كان سيؤول إليّ، بصفتي ابن فرسيلوف، في الحال أو في المسقبل)، يهب لي حقاً معنوياً إلى أبد الأبدين في الحكم على سلوك فرسيلوف في المسقبل. وما من أحد كان يستطيع أن يأخذ عليّ بأنني دمرت الأمراء، لأن الوثيقة ليس لها قيمة قضائية حاسمة. هذا كله فكرت فيه وقلته لنفسي بوضوح في غرفة فاسين الخالية، حتى لقد خطر ببالي فجأة أنني إنما جئت إلى فاسين راغباً في أن أعرف منه السلوك الذي يجب عليّ أن أسلكه، لا لشيء إلا أن أبرهن له في هذه المناسبة على أنني أنبل الناس وأنزههم، فبذلك أنتقم لنفسي من مذلة الأمس.

Twitter: @ketab_n

وشعرت بكدر شديد بعد أن أدركت هذا كله. ولكنني لم أنصرف بل بقيت، رغم علمي بأن كدري سيزداد دقيقة بعد دقيقة.

يجب أن أذكر أولاً أنني بدأت أكره غرفة فاسين كرهاً شديداً. من حقهم أن يقولوا: «أرني غرفتك فأقول لك من أنت!» كان فاسين يستأجر غرفة مفروشة عند مستأجرين فقراء يتخذون من التأجير مهنة، وكان في البيت مستأجرون آخرون. إنني أعرفها... هذه الحجرات الضيقة التي لا تكاد تكون مفروشة، والتي تطمع مع ذلك في أن تبدو مريحة مترفة. إن فيها - بالضرورة - ديواناً رخواً مشترى من «سوق العتيق»، ديواناً يخشى المرء تحريكه، وحوضاً، وسريراً من حديد وراء حاجز. لا بد أن فاسين كان أحسن المستأجرين وأكثرهم ضمانة: إن لكل مؤجرة مستأجراً مفضلا تحمل له الامتنان والشكر حتما. فغرفته ترتب ترتيباً أفضل، وتكنس كنساً أحسن، وفوق ديوانه توضع صورة من الصور، وتحت طاولته تفرش سجادة نحيلة. والناس الذين يحبون هذا النوع من النظافة التي تفوح منها رائحة العفن ويحبون - خاصة - هذا النوع من العناية والاحترام من جانب المؤجرين، يكونون هم أنفسهم محل شبهة. ولقد كنت مقتنعاً بأن لقب «أحسن المستأجرين» كان يتملق فاسين. ولا أدري لماذا أخذ الحنق يجتاح نفسي شيئاً فشيئاً من رؤية هاتين الطاولتين المزدحمتين بالكتب. كانت الكتب والأوراق والمحبرة، كان ذلك كله مرتباً ترتيباً يبعث على أشد الاشمئزاز والنفور. إنه ذلك الترتيب الذي يوافق المثل الأعلى لفلسفة الجمال عند مؤجرة ألمانية وخادمتها. إن الكتب كثيرة. وهي كتب حقاً، لا جرائد ولا مجلات، ولا بد أنه كان يقرؤها. وأغلب الظن أنه حين يقرأ أو يكتب، يصطنع هيئة تعبّر عن أشد الوقار والدقة. أما أنا فلا أدري لماذا أفضّل أن تكون الكتب فوضى، فهذا على الأقل ينبئ بأن المرء يعمل بدون أن يجعل من ذلك طقساً.

Twitter: @ketab_n

صحيح أن فاسين هذا مهذب مع الزائرين إلى أقصى حد، ولكن كل حركة من حركاته كأنها تقول: «يسرني أن أقضي معك ساعة من الزمن، ولكنني، متى انصرفت أنت، سأنشغل بأمور ذات شأن». وربما يستطيع المرء أن يجري معه حديثاً شائقاً جداً، وأن يتعلم منه جديداً، ولكن كل إشارة من إشاراته تكاد تنطق عنه قائلة: «سنتحدث معاً، وسأشوقك كثيراً، حتى إذا انصرفت أنت عدت أنا إلى ما هو شائق حقاً». . . ومع ذلك لم انصرف بل بقيت. وقد أصبحت الآن على يقين كامل من أنني لست في حاجة إلى نصائحه.

مكثت ساعة بل تزيد، جالساً أمام النافذة، على أحد الكرسيين المصنوعين من خيزران، اللذين كانا هناك. وكان مما يزيد حنقي أن الوقت يمضي، وأن عليّ أن أجد مسكناً قبل المساء. وتمنيت أن أتناول كتاباً عسى أن أبدد الضجر، ولكنني لم أفعل: فلقد كانت فكرة التسلي وحدها تضاعف اشمئزازي. إن صمتاً مطبقاً يخيم منذ أكثر من ساعة. ولكن هاأناذا أميز فجأة، على مقربة مني، وراء الباب الذي يسده ديوان، بدون أن أريد ذلك، وعلى نحو تدريجي، همساً ما ينفك يقوى شيئاً بعد شيء. هما صوتا امرأتين، يسمعهما المرء واضحين، ولكن يستحيل عليه أن يميز الكلام. ولكنني من فرط ضجري حاولت أن أميز ما تقوله المرأتان. كان واضحاً أنهما تتكلمان بحرارة، واندفاع، وأن حديثهما لا يدور على ترهات بل تحاولان الاتفاق وتتجادلان. إن أحد الصوتين يتضرع ويتوسل، وإن الصوت الثاني يجيب رفضاً معارضاً. لا شك أن المرأتين مستأجرتان أخريان. وسرعان ما تسرب إليَّ الملل، وأَلِفت أذناي هذه الأصوات، فكنت أصغي، ولكنني أصغي كالآلة، حتى لقد كنت في بعض الأحيان أنسى نسياناً تاماً أنني أصغي، ثم إذا بحادث خارق يقع على حين بغتة: لكأن أحداً قد نط من على كرسيه بكلتا

Twitter: @ketab_n

ساقيه، أو اندفع فجأة وأخذ يقرع الأرض بقدميه. ثم سُمع أنين، ثم سمعت صرخة، بل قل سمع زئير كزئير وحش غاضب لا يهمه أن يسمعه غرباء أو لا يسمعوه. فوثبت إلى الباب ففتحته، وفتح في الوقت نفسه باب آخر في نهاية الممر (وقد علمت فيما بعد أنه باب المؤجرة)، وخرج من الباب رأسان غريبان مستطلعان. فانقطع الصراخ في الحال، ولكن الباب الذي يجاور بابي فتح فجأة، وخرجت منه امرأة شابة - فيما بدا لي - ولّت هاربة ونزلت السلم مسرعة. وقد أرادت امرأة أخرى مسنة أن تصدها عن الهرب ولكنها لم تفلح في ذلك، فلم تزد على أن أخذت تناديها في أنين وشكاة:

- أوليا! أوليا! إلى أين تركضين؟ آه!...

ولكنها وقد أبصرت بابينا المفتوحين أسرعت ترد بابها دون أن تغلقه، وإنما تركته مشقوقاً لتسمع ما يحدث على السلم، إلى أن غاب وقع خطى أوليا الهاربة غياباً تاماً. رجعت إلى نافذتي. وعاد الهدوء يخيم. حادث لا قيمة له، بل لعله سخيف، وكففت عن التفكير فيه.

بعد ذلك بربع ساعة دوى في الدهليز، أمام باب فاسين، صوت رنان طلق هو صوت رجل. أمسكت يد بقبضة الباب وشقته، فاستطعت أن أبصر في الدهليز رجلاً طويل القامة لا بد أنه لمحني أيضاً، بل لا بد أنه كان يتفرس فيّ، ولكنه لم يدخل بعد، وظل يكلم المؤجرة من آخر الدهليز ويده على قبضة الباب. فكانت المؤجرة ترد عليه بصوت نحيل منغم جذل، وكان في وسع المرء أن يدرك من هذا الصوت وحده أن المرأة تعرف هذا الزائر معرفة قديمة وأنها تحترمه وتقدره قدراً كبيراً، سواء من حيث هو زائر يحظى بثقتها، أو من حيث هو سيد مرح لطيف. وكان الرجل المرح يصيح ويمزح، ولكن الكلام كله يدور على أن فاسين ليس في غرفته، وأنه لن يعثر عليه أبداً، وأن هذا هو حظه، وأنه

Twitter: @ketab_n

سينتظر كما انتظر في المرة السابقة، وكان هذا كله يبدو للمؤجرة أمراً يبلغ غاية الفكاهة. وأخيراً دخل الزائر فاتحاً الباب على سعته كلها.

إنه رجل حسن الهندام، يرتدي ثياب «سيد» كما يقال، ولكن ليس في هيئته ما ينم عن أنه سيد، رغم رغبته الواضحة في الظهور بهذا المظهر. وكان طلقاً غير متحرج، بل قل كان وقحاً على السجية، وهذا أقل كراهية إلى النفس من رجل وقح درس نفسه مدة طويلة أمام مرآة. وكان شعره الكستنائي الذي خطه الشيب قليلاً، وحاجباه الأسودان، ولحيته الكبيرة، وعيناه الواسعتان، كان ذلك كله لا يهب له طابعاً خاصاً، بل يسبغ عليه لا أدري أي نوع من الشبه بجميع الناس. إن رجلاً مثله يضحك، ويهم أن يضحك، ولكنك لا تشعر في صحبته بشيء من المرح أبداً. ومن الهزل ينتقل بسرعة إلى الوقار، ومن الوقار إلى المرح، أو إلى غمزات بالأعين، ولكن هذا كله يتعاقب فوضى وبغير علة ظاهرة. . . على كل حال، لا داعي إلى وصفه سلفاً. لقد عرفت هذا السيد مزيداً من المعرفة فيما بعد، لذلك رسمت له لا إرادياً هنا ملامح أدق كثيراً من الملامح التي كان يمكنني أن أرسمها له لحظة فتح الباب ودخل الغرفة. ومع هذا يصعب عليّ حتى هذا اليوم أن أقول عنه أي شيء محدد دقيق، لأن الطابع الرئيسي الذي يطبع أمثاله هو أنهم أناس غير مكتملين، أناس مبعثرون، أناس غير محددين.

ما أن جلس حتى خطر ببالي فجأة أنه لا بد أن يكون زوج أم فاسين، وهو رجل يقال له السيد ستيبلكوف، سبق أن سمعت عنه شيئاً، ولكنني سمعت ما سمعته عرضاً فيستحيل عليّ أن أتذكر ما هو: كل ما أتذكره هو أن ما سمعته لم يكن خيراً. كنت أعلم أن فاسين اليتيم قد لبث مدة طويلة في كنفه، ولكنه تحرر من سلطانه منذ سنين كثيرة، وأن أهدافهما ومصالحهما متعارضة، وأنهما يعيشان الآن منفصلين في كل أمر من

Twitter: @ketab_n

الأمور. وقد تذكرت أيضاً أن ستيبلكوف هذا يملك بعض الثراء، بل حتى إنه رجل نصاب يمارس المضاربة، أي لعلني كنت قد عرفت عنه أشياء فيها مزيد من التفاصيل، لكنني نسيتها. شملني بنظره دون أن يحييني. ووضع قبعته العالية على الطاولة أمام الديوان، وأبعد الطاولة بقدمه بدفعة قوية متسلطة، وجلس على الديوان الذي لم أجرؤ أنا أن أجلس عليه، بل تهاوى عليه تهاوياً بلغ من الثقل أنني سمعت الديوان يقرقع تحته، وترك ساقيه تتدليان، ثم رفع طرف قدمه اليمنى التي تنتعل حذاء لماعاً وأخذ يتأمل الحذاء. ولكنه لم يلبث أن التفت إليّ وقاسني بعينيه الواسعتين الجامدتين قليلاً. وقال وهو يهز لي رأسه هزاً خفيفاً:

- لا أستطيع أن أجده!

فلم أجب بكلمة.

- ليس سليماً. له آراء في كل أمر. قادم من بطرسبرجسكايا ستورونا؟

سألته:

- هل تقصد أنك قادم من بطرسبرجسكايا ستورونا؟

- بل أنا الذي أسألك هذا السؤال.

- أنا. . . أنا قادم من هناك فعلاً، ولكن كيف عرفت ذلك؟

- كيف؟ هم. . .

وغمز بعينه. ولكنه لم يتنازل فيتفضّل بالشرح.

قلت:

- أنا لا أقيم في بطرسبرجسكايا ستورونا، ولكنني كنت هناك، فمنها إنما جئت إلى هنا.

وظل يبتسم صامتاً، وكانت ابتسامته تصطنع طابع الخطورة، فكرهتها كرهاً شديداً. كان في غمزته هذه شيء أبله.

Twitter: @ketab_n

وقال أخيراً:

- عند السيد درجاتشيف؟

- ماذا عند السيد درجاتشيف؟

وحملقت.

فنظر إليّ وقد لاح في هيئته معنى الانتصار. قلت:

- أنا لا أعرف درجاتشيف.

- هم...

قلت:

- كما تشاء.

وأصبحت لا أطيقه.

- هم.. نعم.. لا!.. اسمح لي. هب أنك تشتري شيئاً من دكان وأن مشترياً ثانياً يشتري شيئاً آخر من دكان آخر مجاور، فما هو هذا الشيء الآخر في رأيك؟ هو مال عند بائع يسمونه مرابياً.. ذلك أن المال هو أيضاً شيء، وأن المرابي هو أيضاً تاجر.. هل تتابع كلامي؟

- أظن.

- ويمر مشتر ثالث فيقول مشيراً إلى أحد الدكانين «هذا حسن» ويقول مشيراً إلى الدكان الآخر «هذا غير حسن»، فما عسى يكون رأيي في هذا المشتري؟

- ما يدريني أنا!

- لا، اسمح لي. أريد أن أضرب مثلاً. لا بد للإنسان من أن يسترشد بأمثلة طيبة. هب أنني أتجول في شارع نفسكي، فلاحظت على الرصيف المقابل في الجهة الأخرى من الشارع رجلاً آخر أحب أن أعرف طبعه. ثم وصلنا كلانا إلى شارع مورسكايا حيث «المخزن الإنجليزي»، فلاحظنا هناك بالضبط متجولاً ثالثاً داسته عربة لتوه. انتبه

Twitter: @ketab_n

الآن انتباهاً قوياً: إن شخصاً رابعاً يمر فيريد أن يعرف طباعنا نحن الثلاثة جميعاً ومنا الرجل الذي داسته العربة، أقصد يريد أن يعرف طباعنا من حيث الروح العملية والميل إلى الأمور الجدّية. . . هل تتابع كلامي؟

– معذرة، بصعوبة شديدة.

– نعم، هذا ما قدرته. فسأغير الموضوع. هب أنني في مدينة من مدن المياه المعدنية بألمانيا، كما سبق أن ذهبت إلى هناك مراراً كثيرة. ليس مهماً أن أعين اسم المدينة. وأتجول فأرى إنجليزاً. إنك تعلم أنه من الصعب على المرء أن يتعارف مع إنجليزي. ولكن ها نحن أولاء جميعاً، بعد شهرين، وقد انتهى العلاج، نلتقي في الجبال، ونمضي نتسلق معاً، متوكئين على عصى مدببة الأطراف، فنصعد في هذا الجبل أو ذاك. فليس مهماً هذا. ولكن هب أنني عند المنعطف، أي في خاتمة الشوط، هناك حيث يُقطر الرهبان خمرتهم، التقيت بواحد من سكان الجبل وقف جامداً معتزلاً ينظر في صمت، فأردت أن أعرف مدى ما يتصف به من روح الجدّ: فما رأيك؟ هل أستطيع أن أتجه بالاستيضاح إلى الإنجليز الذين أسير معهم بعد أن لم أستطع تبادل الحديث معهم في مدينة المياه؟

– ما يدريني. معذرة. إنني أجد في متابعة كلامك عناء كبيراً.

– كبيراً؟

– نعم، إنك تتعبني.

– هم. .

وطرف بعينه وحرك يده بإشارة لا شك إنها كانت تعبر عن معنى الانتصار والظفر. ثم استل من جيبه بوقار كبير وهدوء شديد، جريدة لا بد أنه اشتراها منذ برهة قصيرة، ففضها وأخذ يقرأ في الصفحة الأخيرة منها، كأنه يريد أن يدعني في راحة تامة. ولبث خمس دقائق لا يرفع إليّ بصره.

Twitter: @ketab_n

- لم تنزل أسعار أسهم سكة حديد «بريست جرايفو»، هه؟ إنها لا تزال في ارتفاع! ما أكثر الأسهم التي تدهورت أسعارها.

قال ذلك وهو ينظر إليَّ مهتماً أبلغ الاهتمام. قلت:

- ما زلت لا أعرف عن شؤون البورصة كثيراً.

- أأنت تستنكر؟

- أستنكر ماذا؟

- المال.

- لا أستنكر المال. . ولكنني أرى أن منزلة الفكرة قبل منزلة المال.

- أي. . معذرة. . هب أن رجلاً هو رأسمالي كما يقال. .

- الفكرة أولاً، والمال بعد ذلك. فبدون فكرة عليا ينهار المجتمع رغم كل ما يملكه من مال.

لا أدري حقاً لماذا تحمست. ونظر إليّ بشيء من البلادة، كرجل أصبح لا يعرف كيف يخرج من المأزق، ثم تهللت أساريره فجأة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة ماكرة وقال:

- وفرسيلوف، هه؟ حظي بالغنيمة، هه؟ حكموا له أمس، هه؟

فرأيت فجأة، وعلى دهشة كبيرة مني، أنه يعرف من أنا منذ مدة طويلة، وأنه ربما كان يعرف أشياء كثيرة أيضاً. ولكنني لا أفهم لماذا احمر وجهي فوراً، وشخصت ببصري إليه شخوصاً غبياً أبله فلا أشيح عنه لحظة. فكان واضحاً أنه يشهر انتصاره، وكان ينظر إليّ فرحاً كأنه قبض عليّ بحيلة ماكرة، وأمسكني متلبساً بالجرم. ثم رفع حاجبيه وقال:

- لا! اسألني أنا عن السيد فرسيلوف! ماذا قلت لك منذ هنيهة عن الجدّ في الأمور؟ منذ سنة ونصف كان في وسعه أن يتم صفقة كبيرة بواسطة ذلك الطفل، ولكن ضربته لم تصب هدفها، ودق عنه.

Twitter: @ketab_n

- بواسطة أي طفل؟

- بواسطة طفل لا يزال رضيعاً، وهو ينفق على حضانته سراً. ولكنه لن يجني من ذلك شيئاً، لأن. .

- أي طفل رضيع؟ ما هذا؟

- هو ولده طبعاً، هو ولد له من mademoiselle «الآنسة» ليديا آخماكوفا. «**فتاة فتانة كانت تلاطفني...**»،[48] هه؟ أعواد ثقاب فوسفورية، هه؟

- ما هذه السخافات؟ إنه لم يولد له ولد من آخماكوفا أبداً!

- غريب أمرك! أين كنت أنا إذاً؟ إنني مع ذلك طبيب ومولّد. أن اسمي ستيبلكوف. ألا تعرفني؟ صحيح أنني في ذلك الحين كنت قد انقطعت عن ممارسة مهنة التوليد منذ مدة طويلة. ولكنني كنت أستطيع أن أسدي بنصيحة عملية في حالة عملية.

- أنت مولّد. . هل ولدت آخماكوفا؟

- لا، لم أولدها أبداً. وإنما كان هناك، في فورشتادت[49]، طبيب اسمه جرانتس، مثقل بأعباء أسرة، أُعطي نصف طالر[50]، وهو المبلغ الذي يدفع هناك للأطباء، ثم إنه عدا ذلك لم يكن أحد يعرفه. فقد ذهب وناب منابي. . . فأنا الذي أوصيت به لتزداد الظلمات كثافة. هل تتابع كلامي؟ أنا من جهتي لم أزد على أن أسديت بنصيحة جواباً عن سؤال من فرسيلوف، من أندريه بتروفتش، سؤال التمس فرسيلوف جوابه مني سراً، ولكن فرسيلوف فضّل أن يطارد أرنبين في آن واحد.

كنت أصغي إلى كلامه مندهشاً أعمق الاندهاش.

- والمثل يقول عندنا، بل عند الشعب: «من يطارد أرنبين لم يستطع أن يصطاد أياً منهما». وأنا أقول: إن الاستثناءات إذا تكررت أصبحت هي القاعدة العامة. لقد طارد أرنباً ثانياً، أو قل بالروسية الفصيحة طارد

Twitter: @ketab_n

سيدة ثانية، فلم يظفر بأية نتيجة! إذا أمسكت شيئاً فلتتشبث به، عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة. إنه يتردد حيث يجب الإسراع. فرسيلوف! ألا أنه «نبي للنساء»، كما وصفه أمامي الأمير الشاب سوكولسكي فأحسن الوصف أيما إحسان. لا، لا بد لك أن تأتي إليّ! إذا أردت أن تعرف أشياء كثيرة عن فرسيلوف، فتعال اسألني أنا!

كان واضحاً أنه معجب بفمي المفغور من فرط الدهشة. إنني لم أسمع شيئاً عن هذا الطفل الرضيع قبل ذلك أبداً. وفي تلك اللحظة قرقع باب غرفة الجارتين، ودخل على غرفتهما شخص مسرع.

- فرسيلوف يسكن في سيمينوفسكي بولك، شارع موجايسك، عمارة لتفينوفا، رقم 17؛ أنا قادمة من مكتب العناوين!

بذلك صاح صوت امرأة غاضبة. وكانت كل كلمة من كلماتها مسموعة. فقطب ستيبلكوف حاجبيه، ورفع أصبعه أعلى من رأسه وقال:

- نحن نتكلم عنه هنا، وها هو ذا يظهر هناك... تلك هي الاستثناءات التي تتكرر! صدق المثل: «اذكر الديب وحضّر القضيب» (بالفرنسية).

ونهض عن مكانه بوثبة فجلس على الديوان ووضع أذنه على الباب الذي كان يسده هذا الديوان.

دهشت أنا أيضاً دهشة شديدة. لقد أدركت أن تلك الصرخة لا بد أنها صادرة عن المرأة الشابة التي هربت منذ قليل مهتاجة اهتياجا كبيراً. ولكن ما شأن فرسيلوف هنا؟ وعاد الصراخ الذي سمعته منذ قليل يدوي مسعوراً. إنه صراخ إنسان قد جن غضباً لأنه يُمنع عنه شيء ما، أو يصد عن فعل شيء ما. وكان الفرق الوحيد هو أن الصرخات أو الإعوالات قد دامت الآن مدة أطول. كان ثمة صراع، وكلمات عجلى سريعة: «لا أريد، لا أريد، ردوه هذا، ردوه هذا، حالا»، أو شيئاً من هذا القبيل لا

Twitter: @ketab_n

أستطيع أن أتذكره تذكراً دقيقاً. وكما حدث من قبل، وثب أحد إلى الباب فجأة ففتحه، واندفعت المرأتان في الدهليز تحاول إحداهما أن تصد الأخرى عن الهروب، كما وقع منذ قليل. فإذا بستيبلكوف الذي كان قد نهض من الديوان وراح يصغي متلذذاً، إذا به يثب إلى الباب فوراً ويندفع علانية إلى الدهليز متجهاً إلى المرأتين. واقتربت أنا أيضاً راكضا من الباب بطبيعة الحال. ولكن ظهور ستيبلكوف في الدهليز كان له أثر كأثر سطل من ماء بارد: فما أن رأته الجارتان حتى أسرعتا تغيبان في غرفتهما، وتغلقان بابهما بقرقعة. وقد همّ ستيبلكوف أن يركض وراءهما، لكنه توقف رافعاً إصبعه مبتسماً مفكراً. فرأيت في ابتسامته هذه المرة شيئاً فيه أقصى الخبث والشر واللؤم. حتى إذا أبصر المؤجرة واقفة أمام بابها من جديد، أسرع إليها سائراً على رؤوس الأصابع، ولبث يهامسها مدة دقيقتين، فكان واضحاً أنه حصل منها على بعض المعلومات، ثم قفل راجعاً إلى الغرفة بخطى فيها اختيال وثبات، وتناول من على الطاولة قبعته العالية ونظر عابراً إلى وجهه في المرآة، ورتب شعره، ومضى إلى باب الجارتين بوقار مغرور حتى دون أن ينظر إليّ، فظل يتنصت عليهما دقيقة، وقد ألصق بالباب إذنه وراح يرسل إلى المؤجرة عند الطرف الآخر من الدهليز غمزات تحمل معنى الانتصار، فكانت المؤجرة تهدده بإصبعها وتهز رأسها كأنها تقول: «آ. . يا للعفريت. . . يا للعفريت» ثم ها هو ذا ينقر على بابهما بيده وقد لاح في وجهه عزم يخالطه ترقق وتلطف. حتى كان يبدو أنه تحدب من شدة رقته. وها هو ذا صوت من الداخل يسأل:

- هل يؤذن لي بالدخول، لأمر بالغ الخطورة؟

كذلك أجاب ستيبلكوف بصوت عال فيه وقار ورصانة.

فلم يُفتح الباب بسرعة، ثمّ فُتح، فتح في أول الأمر قليلاً أو قل شق

Twitter: @ketab_n

شقاً، غير أن ستيبلكوف أمسك قبضته إمساكاً قوياً، فلا يستطيع أحد أن يعيد إغلاقه. وبدأت المحادثة، فكان ستيبلكوف يتكلم بصوت عال، وما ينفك يحاول أن يدخل الغرفة. لا أتذكر الكلمات التي قالها، ولكن حديثة كان يدور على فرسيلوف، وكان يذكر أنه يستطيع أن يجيء بأخبار، وأن يزوِّد بإيضاحات، وكان يردد: «لا، اسألاني أنا، تعالا إليّ» وهلم جرا. ولم يلبث أن أُدخل بسرعة. فرجعت إلى ديواني، وأخذت أنصت، لكنني لم أستطع أن أميز كل شيء، وإنما كنت أسمع اسم فرسيلوف يتردد كثيراً. وحزرت من نبرة الصوت أن ستيبلكوف قد سيطر على الحديث، فهو الآن لا يتكلم مخاتلاً بلف ودوران، بل يجري كلامه طلقا حاسم اللهجة، كحديثه معي منذ قليل، فتارة يسأل قائلاً: «هل تتابعان ما أقول؟»، وتارة يقول آمراً: «هلا تفضّلتما الآن بأن تدركا» وما إلى ذلك. ولكن لا بد أنه كان لطيفاً غاية اللطافة مع النساء. وقد جلجل ضحكه مرتين، وأغلب الظن أنه كان ضحكاً في غير محله، لأنني كنت أسمع، عدا صوته وأعلى من صوته أحياناً، صوتي المرأتين اللذين لا يعبران عن أي ابتهاج، ولا سيما صوت المرأة الشابة الذي أطلق الصرخات قبل ذلك. كانت تتكلم كثيراً، بلهجة عصبية، وسرعة ظاهرة، من أجل أن تتهم وتتشكى وتطالب بالعدل حتماً. ولكن ستيبلكوف لا يبقى هادئاً: فها هو ذا يرفع صوته أكثر فأكثر، ويزداد ضحكه لحظة بعد لحظة. إن أشخاصاً من نوعه لا يحسنون الإصغاء إلى الآخرين. ولم ألبث أن نزلت عن الديوان، إذ بدا لي أن من العيب أن أتنصت، ورجعت إلى مكاني السابق أمام النافذة على كرسي الخيزران. وكنت مقتنعاً بأن فاسين لا يضمر لهذا السيد أي اعتبار، ولكن لو أفصحت له عن رأيي، لهبّ يدافع عنه برصانة ووقار، ولأخذ يلقنني درساً فيقول: «هذا رجل عملي، إنه واحد من رجال الأعمال هؤلاء

Twitter: @ketab_n

المحدثين الذين يستحيل أن نحكم عليهم من وجهة نظرنا العامة المجردة». وإني لأتذكر من جهة أخرى أنني كنت في تلك اللحظة محطم النفس وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً ولا ريب في أنني كنت أنتظر أن يقع حادث ما. وانقضت حوالي عشر دقائق، فإذا أنا أسمع فجأة، في وسط ضحكة داوية، وثوب أحد عن كرسيه، كما حدث منذ برهة، وأسمع المرأتين تصرخان، وأسمع وثوب ستيبلكوف أيضاً، وألاحظ أنه أصبح يتكلم بلهجة أخرى، كأنه يحاول أن يبرر نفسه، كأنه يضرع إلى المرأتين أن تتكرما فتسمعا كلامه إلى نهايته... ولكنهما لم تصغيا إليه. ودوت صرخات: «اخرج من هنا! ما أنت إلا وغد! ما أنت إلا وقح!» كان واضحاً إذن أنه يُطرد. وقد فتحت الباب في اللحظة التي خرج فيها ستيبلكوف إلى الدهليز من عند الجارتين مدفوعا بأيديهما دفعا. فلما رآني صرخ مشيراً إليّ قائلاً لهما:

- هذا ابن فرسيلوف! إذا لم تريدا أن تصدقاني، فانظرا إذن! هذا هو ابنه بنفسه، هذا هو بعينه! - وقبض على يدي قبضاً قوياً، وهو يقتادني إلى المرأتين، دون أن يضيف إلى ما قاله شيئاً.

كانت المرأة الشابة في الدهليز. وكانت المرأة المسنة في شق الباب على مسافة خطوة منها. أتذكر أن الفتاة المسكينة كانت مليحة: إنها في نحو العشرين من العمر، ولكنها نحيلة هزيلة مريضة الهيئة، يضرب لونها إلى الحمرة، وتشبه أختي بعض الشبه وجها، وتلك سمة خطفت بصري، ونقشت في ذاكرتي. ولكن ليزا ما اجتاحتها في يوم من الأيام - ولا أمكن أن تجتاحها في يوم من الأيام - نوبة غضب شبيهة بنوبة الغضب التي تهز الإنسانة التي تقف أمامي الآن. كانت شفتاها بيضاوين، وكانت عيناها الشهباوان تقدحان شرراً، وكانت ترتعش من شدة الحنق من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. أذكر أيضاً أنني أنا نفسي

Twitter: @ketab_n

كنت في وضع يبلغ غاية الغباء والخزي، فلم أجد كلمة أقولها، بجريرة هذا الرجل الفظ الوقح.

- هبه ابنه! ما قيمة ذلك؟ وإذا كان في صحبتك فلا بد أن يكون وغداً حقيراً مثلك.

والتفتت إليّ فقالت لي:

- إذا كنت ابن فرسيلوف فأبلغ أباك عني أنه سافل، منحط، وأنني لست في حاجة إلى ماله... خذ.. خذ.. خذ.. ردّ إليه هذا المال فوراً!

واستلت من جيبها أوراقاً نقدية. ولكن المرأة المسنة (وهي أمها كما عرفت ذلك فيما بعد) أمسكت ذراعها وقالت لها:

- ولكن قد لا يكون كلامه صحيحاً يا أوليا! قد لا يكون هذا ابنه!

فألقت عليها أوليا نظرة سريعة، وفكرت، وتفرست فيّ باحتقار، وعادت تدخل غرفتها، ولكنها قبل أن تغلق الباب، وقفت على العتبة، وشملت ستيبلكون بنظرة، وأطلقت صرخة حانقة أخرى في وجهه:

- اخرج من هنا!

حتى لقد قرعت بقدمها الأرض. ثم خبطت الباب فأغلقته، وسمع صوت إقفاله من الداخل بالمفتاح. وكان ستيبلكوف ما يزال قابضاً على كتفي، فرفع إصبعه وقد تمدد فمه بابتسامة طويلة تنم عن تفكير، ثم حدق إليّ بنظرة مستفهمة، فجمجمت أقول له:

- أرى سلوكك معي سخيفاً ومعيباً.

ولكنه كان لا يصغي إلى كلامي، رغم أنه لم يحول بصره عني. وتمتم يقول حالم الهيئة:

- هذا ما ينبغي أن يُد.. ر.. س!

- ولكن كيف تجرأت أن تقحمني في هذه الأمور؟ من هذه

Twitter: @ketab_n

المرأة؟ لقد أمسكت كتفي وجررتني. ما هذا كله؟

- أوه! امرأة فقدت بكارتها... «الاستثناء الذي يتكرر كثيراً». هل تتابع كلامي؟

وحاول أن يغرز إصبعه في صدري. فقلت وأنا أدفع إصبعه:

- دعني! شيطان يأخذك!

ولكنه أخذ يضحك فجأة، أخذ يضحك ضحكا هادئا طويلاً جذلا. وأخيراً وضع قبعته على رأسه، ثم قال وقد تغيرت سحنته وأربد وجهه وتقطب حاجباه:

- يجب نصح المؤجرة... عليها أن تطردهما من الشقة بأقصى سرعة، وإلا... سوف ترى! احفظ ما أقوله لك، سوف ترى! وفجأة ظهر عليه الابتهاج، وقال يسألني:

- أتنتظر حتى يجيء جريشا؟

فأجبته بجزم:

- لا، لن أنتظره.

- طيب، سيان...

وبدون أن يضيف حرفاً واحداً، أدار ظهره وخرج، وأخذ يهبط السلم حتى دون أن يلقي نظرة على المؤجرة التي كان يبدو عليها أنها تنتظر منه إيضاحات وأنباء. وتناولت قبعتي أنا أيضاً، وأسرعت أنزل بعد أن رجوت المؤجرة أن تبلغ فاسين أنني، دولجوروكي، جئت إليه.

- 3 -

أضعت وقتي. فهاأنذا أبادر إلى البحث عن مسكن منذ خرجت. كنت ذاهلاً. وظللت أطوف في الشوارع عدة ساعات. ودخلت خمسة بيوت مفروشة أو ستة، لكنني واثق بأنني مررت بنحو عشرين بيتاً دون

Twitter: @ketab_n

أن ألاحظها. ما كنت لأتصور أن العثور على مسكن أمر يبلغ هذا المبلغ من الصعوبة. لذلك ضاق صدري ضيقاً شديداً. إن جميع الغرف التي رأيتها تشبه غرفة فاسين، بل هي أسوأ منها، وكراؤها مع ذلك باهظ جداً، أو هو فوق طاقتي المالية. ولم أكن في حاجة إلى أكثر من ركن اضطجع فيه. فكنت إذا أفصحت عن هذا أُجاب في احتقار بأن عليّ أن أتجه إلى أناس ممن «يؤجرون أركانا». زد على ذلك أن جميع البيوت التي رأيتها كانت تزدحم بمستأجرين شاذين يكفي أن أنظر إلى سحنتهم حتى أحس أنني لا أستطيع أن أساكنهم، بل إنني مستعد لأن أدفع مالاً من أجل إلا أعيش بجوارهم. ففي أحد البيوت مثلا رأيت أناساً بغير ردنجوت، يبلغ عددهم عشرة أشخاص، يرتدون صديرة، وقد تشعثت لحاهم، وظهر عليهم الفضول، وليس في سلوكهم أي تحرج، قد احتشدوا في غرفة ضيقة شديدة الضيق وراحوا يلعبون بالورق ويشربون البيرة. وقد عرضت عليّ في ذلك البيت غرفة إلى جانب تلك الغرفة. وفي بيوت أخرى انهمرت عليّ أسئلة المؤجرين فكنت أنا الذي أجيب عن الأسئلة، وبلغت إجاباتي من الغباء أنهم كانوا ينظرون إليّ دهشين. وفي إحدى الشقق وصل الأمر حتى إلى المشاجرة. ولا داعي إلى وصف هذه التفاصيل التافهة على كل حال. وإنما أريد أن أقول إنني قد تعبت تعباً شديداً، أصبت شيئاً من طعام في مطعم حقير حين هبط المساء وكاد الظلام أن يخيم. وانتهيت إلى اتخاذ قرار حاسم أن أذهب وحدي وبنفسي إلى فرسيلوف، فأسلمه الرسالة الخاصة بالميراث (دون أي شرح)، ثم أصعد إلى فوق فآخذ أمتعتي فأملأ بها حقيبتي وصرة، وأمضي ولو إلى فندق أبيت ليلتي فيه. كنت أعلم أن في آخر شارع أوبوخوف، بقرب «قوس النصر» عدة نُزُل يستطيع المرء أن يكتري فيها لنفسه غرفة مستقلة بثلاثين كوبيكاً. فقررت أن أبذل هذه التضحية في

Twitter: @ketab_n

تلك الليلة حتى لا أبقى عند فرسيلوف مدة أطول. ولكنني حين مررت أمام «معهد التكنولوجيا»، خطر ببالي فجأة أن أدخل على تاتيانا بافلوفنا التي تسكن في شقة أمام المعهد. وكانت حجتي التي عللت بها نفسي للدخول على تاتيانا بافلوفنا هي هذه الرسالة نفسها التي تتعلق بالميراث، ولكن رغبتي هذه التي لا تقاوم إنما كانت لها أسباب أخرى طبعاً، وهي أسباب أعجز اليوم أيضاً عن وصفها: كان قد حدث في فكري خلط عجيب بين «الطفل الرضيع» و»الاستثناءات التي تصبح قاعدة عامة»، وما إلى ذلك. ترى أكنت أريد أن أروي شيئاً، أم كنت أريد أن اصطنع أوضاعاً، أم كنت أريد أن أشاجر أحداً، أم حتى كنت أريد أن أبكي؟ لست أدري، ولكنني صعدت سلم تاتيانا بافلوفنا. لم أكن قد زرتها إلا مرة واحدة قبل اليوم، في بداية إقامتي بعد وصولي من موسكو، وذلك لأنقل إليها رسالة من أمي لا أذكر الآن ما هي، أذكر أنني دخلت على تاتيانا بافلوفنا ونقلت إليها الرسالة وانصرفت بعد دقيقة، فلا أنا جلست ولا هي طلبت مني أن أبقى.

قرعت الجرس. ففتحت لي الطباخة الباب فوراً، وأدخلتني صامتة لا تتكلم. إن هذه التفاصيل ضرورية جداً من أجل أن نفهم كيف أمكن وقوع ذلك الحادث الخارق الجنوني الذي كان له شأن خطير في كل ما تبعه من أحداث. ولأبدأ بالكلام على الطباخة. إنها فنلندية سيئة الطبع فطساء الأنف أظن إنها كانت تكره مولاتها تاتيانا بافلوفنا ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت لا تستطيع أن تنفصل منها، وكانت تتعلق بها تعلقاً شديداً كتعلق العوانس بكلابها ذات الأنوف الرطبة، أو بقططها الغافية دائماً. كانت الفنلندية تتقلب بين حالتين: فهي إما متأففة متذمرة، وإما صامتة في إثر شجار تظل خرساء لا تنطق بحرف واحد خلال أسابيع بكاملها عقاباً لمولاتها. ولا شك أن مجيئي قد صادف يوماً من أيام الصمت

Twitter: @ketab_n

هذه، لأنها حين سألتها: «هل السيدة في البيت؟» وأتذكر جيداً أنني قد ألقيت عليها هذا السؤال بوضوح - لم تجبني بكلمة، ورجعت إلى مطبخها دون أن تفتح فمها. وإذ ظننت عندئذ طبعاً أن السيدة في البيت، دخلت غرفة الاستقبال، ولكنني لم أجد أحداً، فانتظرت، ظناً مني أن تاتيانا بافلوفنا لن تلبث أن تخرج من غرفتها، وإلا فهل كان للطباخة أن تدخلني؟ ولبثت واقفاً مدة دقيقتين أو ثلاث. وكان الظلام يخيم، وكانت شقة تاتيانا بافلوفنا المظلمة في ذاتها تبدو أكثر تجهماً من كثرة ما يتدلى فيها من قماش هنا وهناك. ولنقل الآن كلمتين عن هذه الشقة الكريهة من أجل أن يتصور القارئ هذا المكان الذي وقع فيه الحادث.

إن تاتيانا بافلوفنا، بسبب طبعها المستبد العنيد، وبسبب تعلقها بالعادات الاقطاعية القديمة، لم تستطع أن تكتفي بغرفة مفروشة، فاستأجرت هذا المسكن الذي يحاكي شقة، لا لشيء إلا أن تعيش فيه مستقلة وأن تكون سيدة بيتها. والحق أن الغرفتين اللتين تتألف منهما هذه الشقة أشبه بقفصين من أقفاص عصافير الكناري، قد التصق أحدهما بالآخر، وكان كل منهما أصغر من أخيه. وهما تقعان في الطابق الثاني، وتطلان على فناء العمارة. إنك حين تدخل هذه الشقة يطالعك في أول الأمر ممر صغير ممطوط، لا يزيد عرضه على متر، ثم ترى قفصي عصافير الكناري المذكورين على يسارك، فإذا نظرت إلى أمام، عند آخر الممر، أبصرت مدخل مطبخ صغير. إن المتر ونصف المتر المكعبة من الهواء، التي لا بد منها للإنسان حتى يعيش اثنتي عشرة ساعة، قد تكون متوفرة في هذا البيت، ولكن لا شك أنه لا يتوفر فيه من الهواء أكثر من ذلك. الغرفتان واطئتان إلى حد مخيف، والأبشع من هذا أن النوافذ والأبواب والأثاث، إن كل ذلك، كان مكسواً أو مغطى بقماش قطني فرنسي جميل مشجّر، لذلك تبدو الغرفة أشد ظلمة من واقعها مرتين، حتى

Twitter: @ketab_n

لكأنها جوف عربة. ولقد كان المرء يستطيع في الغرفة التي كنت أنتظر فيها أن يتحرك ملتفتاً إذا أراد، رغم أن المكان مزدحم بالأثاث، ولم يكن الأثاث رديئاً: ففي الغرفة أنواع شتى من الطاولات الصغيرة المصنوعة من خشب مرصع مزدان بالبرونز، وفيها أنواع من العلب، ومنضدة لأدوات الزينة رائعة الجمال بل واسعة الثراء. أما الغرفة الصغيرة الأخرى التي كنت أتوقع أن تخرج منها تاتيانا بافلوفنا، وهي غرفة النوم التي تفصلها عن الأولى ستارة، فليس فيها إلا سرير كما عرفت ذلك من بعد. إن هذه التفاصيل كلها ضرورية لفهم الحماقة التي ارتكبتها.

انتظرت لا يساورني أي شك. وإني لكذلك إذا بالجرس يرن. وسمعت الطباخة تجتاز الممر بغير تعجل، وتُدخل عدداً من الزوار صامتة، كما فعلت معي منذ قليل. هما سيدتان تتكلمان كلتاهما بصوت عال. ولكن ما كان أشد دهشتي حين تعرفت صوت إحداهما فعرفت أنها تاتيانا بافلوفنا، وتعرفت صوت الثانية فعرفت إنها المرأة التي لم أكن متهيئاً لأن ألقاها الآن أبداً، ولا سيما في هذا المكان! لم يكن ثمة مجال للخطأ: إنه الصوت الرنان القوي، المعدني الذي سمعته أمس. صحيح أنني سمعته خلال ثلاث دقائق فقط ولكنه ظل يرن في قلبي. لا شك في أنها هي، «امرأة الأمس»! فما العمل؟ إنني لا ألقي هذا السؤال على القارئ. وإنما أنا أتخيل تلك الدقيقة لنفسي، وما زلت إلى اليوم عاجزاً عجزاً مطلقاً عن أن أفسر لنفسي كيف ارتميت فجأة وراء الستارة، فصرت في غرفة نوم تاتيانا بافلوفنا! المهم أنني اختبأت، وما كدت أثب تلك الوثبة التي أخفتني عن الأنظار حتى دخلت السيدتان. لماذا لم أهبّ إلى لقائهما بدلاً من أن أختبىء؟ لا أدري. لقد حدث هذا كله مصادفة، على غير وعي مني إطلاقاً.

Twitter: @ketab_n

واختبأت قرب السرير، فلم ألبث أن لاحظت أن للغرفة باباً يفضي إلى المطبخ، أي مخرجاً يمكن اللجوء إليه والهروب منه إذا وقع مكروه! ولكن يا للهول! لقد كان الباب مقفلاً بالمفتاح، ولم يكن المفتاح بالقفل. فتهالكت على السرير يائساً. ولقد كان واضحاً لي أنني سأستسمع الآن إلى حديثهما. وأدركت منذ الجمل الأولى، منذ الأصوات الأولى، أن حديث المرأتين سري جداً وحرج جداً. أوه! لا شك أن الرجل النبيل الشريف يجب عليه، حتى في مثل تلك اللحظة، أن يخرج ويقول بصوت عال: «أنا هنا، انتظرا!»، وأن يخرج مهما يكن وضعه عندئذ مضحكاً. ولكنني لم أنهض ولم أخرج. لم أجرؤ وخفت أحقر خوف.

قالت تاتيانا بافلوفنا متوسلة ضارعة:

- كاترين نيقولايفنا، عزيزتي، إنك تحزنينني كثيراً. فهدئي نفسك مرة وإلى الأبد، أرجوك، إن هذا الاضطراب ليس من طبعك. حيثما تكوني يكن الفرح، فما بالك فجأة. . . آمل أن تظلي واثقة بي، فأنت تعرفين مدى إخلاصي لك. وتعرفين أن هذا الإخلاص لك يساوي على الأقل إخلاصي لأندريه بتروفتش الذي لا أكتمه وفائي له إلى الأبد. . . صدقيني إذن! أحلف لك بشرفي أنه لا يملك هذه الوثيقة، وربما كان لا يملكها أحد على الإطلاق. ثم إنه لا يقدر على هذا النوع من المكائد، فليس حسناً منك أن تضعيه في موضع شبهة. أنتما كلاكما تخيلتما هذه العداوة. . .

- الوثيقة موجودة. وهو لا يتورع عن شيء. أمس دخلت، فكان أول شخص لقيته هو ذلك الجاسوس الصغير الذي فرضه على الأمير.

- دعكِ من هذا الكلام. أولا، ما هو ذلك الجاسوس الصغير espion. أنا التي ألححت على وضعه عند الأمير. ولولا ذلك لفقد عقله

Twitter: @ketab_n

في موسكو أو مات جوعاً. أو هذه هي على الأقل المعلومات التي تلقيناها من هناك. ثم إن هذا الصبي الفظ ليس أكثر من أبله. فكيف يمكن أن يُتخذ جاسوساً؟

- هو شبه أبله، نعم، ولكن ذلك لا يمنعه من أن يصبح وغداً. لقد كنت معتكرة المزاج بالأمس، ولولا ذلك لفطست من الضحك: اصفر وجهه، وتقدم مسرعاً، وراح يسلم متلطفاً، وأخذ يرطن بالفرنسية. ومع ذلك كانت ماريا إيفانوفنا تحدثني عنه في موسكو حديثها عن عبقري! إن تلك الرسالة المشؤومة لم تتلف، وهي بين أيد خطرة، استنتجت ذلك من هيئة ماريا إيفانوفنا.

- عزيزتي الجميلة! ألم تقولي أنت نفسك إن ماريا إيفانوفنا ليس عندها شيء؟

- هي تزعم ذلك. ولكنها تكذب بل هي حاذقة في الكذب! قبل رحلتي إلى موسكو كان لا يزال يساورني أمل في ألا تكون قد بقيت أي ورقة؛ أما هنا، هنا. . .

- ولكن يقال يا عزيزتي إنها إنسانة طيبة جداً عاقلة جداً، وأن المرحوم كان يقدرها أكثر من سائر بنات إخوته وأخواته. أنا لا أعرفها طبعاً، ولكن كان يجب عليك أن تلاطفيها قليلاً يا عزيزتي الجميلة! ليس صعباً عليك أن تفتنيها: إنني أنا العجوز مغرمة بك، حتى لأكاد أقبلك. . . فهل كان يعز عليك أن تغويها؟

- لاطفتها يا تاتيانا بافلوفنا. حاولت. حتى إنها سرت بذلك سروراً كبيراً. هي أيضاً ماكرة جداً. لا، لا. هذه شخصية ذات طباع أصيلة، خاصة، طباع موسكوفية. . . تصوري أنها نصحتني بأن التجيء إلى رجل اسمه كرافت، كان مساعد آندرونيكوف، فلعله يعرف شيئاً. وأنا أعرف من هو كرافت هذا، بل إنني أذكره قليلاً. ولكن ما إن كلمتني عن

Twitter: @ketab_n

كرافت حتى أيقنت فوراً أنها لا تجهل شيئاً، بل تعرف كل شيء، وإنما هي تكذب.

- ولكن لماذا تكذب؟ على كل حال، يمكن التماس معلومات من كرافت! إن هذا الألماني ليس بالرجل الثرثار، وهو شريف جداً فيما أذكر. صحيح، لا بد من سؤاله! ولكن أظن أنه ترك بطرسبرج...

- رجع أمس. إنني قادمة من عنده... وهذا بعينه هو السبب في أنك ترينني على هذه الحال من التخوف والارتعاش الشديد. كنت أريد أن أسألك يا ملاكي تاتيانا بافلوفنا، ما دمت تعرفين جميع الناس، أما من وسيلة للبحث بين أوراقه؟ لا بد أنه ترك أوراقاً. فمن الذي تؤول إليه هذه الأوراق؟ ذلك أنها قد تقع من جديد بين أيد خطرة. لقد جئت أسألك أن تسدي إليّ بنصيحة.

- أي أوراق تعنين؟ ألم تقولي إنك قادمة من عند كرافت؟

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا التي لم يفهم من سؤالها شيئاً. فأجابت اكاترينا نيقولايفنا:

- نعم، نعم، إنني قادمة من عنده. ولكنه انتحر! مساء أمس.

فقفزت من على السرير. لقد استطعت أن أبقى ساكناً حين سمعتها تصفني بأنني جاسوس وبأنني أبله. وكنت كلما أوغلتا في حديثهما مزيداً من الإيغال، أحس إحساساً قوياً بأنني لا أستطيع أن أظهر لهما إذ كان من المستحيل حتى تصور ذلك! كنت قد عزمت في قرارة نفسي، بعد أن كف قلبي عن خفقانه الشديد، أن أنتظر اللحظة التي تشيع فيها تاتيانا بافلوفنا زائرتها (هذا إذا واتاني الحظ فلم تحتج إلى دخول غرفتها قبل ذلك) فمتى انصرفت آخماكوفا كنت مستعداً لأن أظهر فأخوض معركة مع تاتيانا بافلوفنا!.. أما الآن وقد علمت بانتحار كرافت فقد قفزت واعتراني نوع من التشنج، وأصبحت عاجزاً عن التفكير في أي شيء،

Twitter: @ketab_n

عاجزاً عن التبصر بعواقب الأمور، فإذا أنا أرفع الستارة وأجدني واقفاً أمامهما. ولم تكن حلكة الظلام قد اشتدت بعد، فكان يمكنهما أن ترياني شاحباً مرتعشاً. فهاهما تصرخان. وكيف لا تصرخان؟

تمتمت أقول ملتفتاً إلى آخماكوفا:

- كرافت؟ انتحر؟ مساء أمس؟

فأعولت تاتيانا بافلوفنا تسألني وقد غرزت أصابعها في كتفي:

- أين كنت؟ من أين خرجت؟ كنت تتجسس علينا؟ كنت تتنصت على حديثنا؟

وقالت اكاترينا نيقولايفنا وهي تنهض عن الديوان وتشير إليّ بإصبعها:

- ماذا قلت لك عنه لتوي؟

فقاطعتها صارخاً وقد استبد بي غضب مسعور:

- هذه كلها أكاذيب وسخافات! لقد وصفتني من لحظة بأنني جاسوس. يا إلهي! فاعلمي إذاً أنه لا شيء يستحق من المرء عناء أن يتجسس، بل لا شيء يستحق منه عناء أن يعيش في هذه الحياة الدنيا مع أناس من أمثالكم! إن الأخيار ينتهون إلى الإنتحار. لقد انتحر كرافت في سبيل الفكرة، من أجل هيكوب(51). ولكن أنّى لك أن تعرفي شيئاً عن هيكوب؟.. لقد حكم على الإنسان هنا أن يحيا في وسط مكائدكم، وأن يتخبط في أوحال أكاذيبكم وأخاديعكم ودسائسكم المستترة الخفية... كفى!

صرخت تاتيانا بافلوفنا قائلة:

- اصفعيه! اصفعيه!

ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت تنظر إليّ (أذكر هذا كله بأدق تفاصيله) دون أن تحول بصرها عني لحظة واحدة، ودون أن تتحرك من مكانها

Twitter: @ketab_n

قيد شعرة، فما كان من تاتيانا بافلوفنا إلا أن هبت واقفة تريد أن تتولى تنفيذ النصيحة بنفسها. . فرأيتني أرفع يدي بغير إرادة مني لأحمي وجهي من صفعتها. فإذا هي تتصور من هذه الحركة التي قمت بها أنني أهددها. فصرخت تقول لي:

- هيا! اضرب! إضرب! فتبرهن على أنك بمحتدك خادم! أنت الأقوى، فلماذا تتحرج من نساء مسكينات؟

فصرخت أقول:

- كفى تخرصاً، كفى! ما رفعت يدي على امرأة في يوم من الأيام! لكنك سفيهة يا تاتيانا بافلوفنا. ولقد كنت تحتقرينني دائماً. علامَ احترام الناس؟ وأنت يا كاترين نيقولايفنا، أراك تضحكين. فلا شك أنك تضحكين من هيئتي: نعم، إن الله لم يهب لي وجهاً كوجوه مرافقيك لكنني لا أشعر أمامك بهوان ومذلة. بل على العكس: أنا أحس بأنني أعلى منك. . . ولا قيمة للتعابير على كل حال، فإنما المهم أنني لم أرتكب ذنباً! لقد جئت إلى هنا عرضاً يا تاتيانا بافلوفنا. والمذنب الوحيد إنما هو طباختك الفنلندية، بل قولي إن الذنب ذنبك بسبب تعلقك الشديد بها. لماذا لم تجبني حين سألتها عنك، لماذا أدخلتني إلى هنا رأساً؟ ولعلكما تدركان أنني ما كنت لأستطيع أن أخرج من غرفة امرأة على حين فجأة. . هكذا. . وإلا كان ذلك أمراً فظيعاً. . لذلك آثرت أن أسمع شتائمكما على أن أظهر لكما. أما تزالين تضحكين يا كاترين نيقولايفنا؟

صاحت تاتيانا بافلوفنا قائلة وهي تكاد تدفعني دفعاً:

- اخرج من هنا، أخرج من هنا! لا تأبهي لأكاذيبه يا كاترين نيقولايفنا. سبق أن قلت لك أنه وُصف لي من هناك بأنه مجنون!

- مجنون؟ من هناك؟ من وصفني بأنني مجنون؟ ولكن لا ضير،

Twitter: @ketab_n

كفى هذا! يا كاترين نيقولايفنا، أحلف لك بكل ما أقدس، أن هذا الحديث الذي سمعته سيظل مكتوماً لا أبوح به لأحد. . . هل ذنبي أنني اكتشفت أسراركم؟ وأعلمي خاصة أنني تارك أباك منذ الغد. فتستطيعين أن تطمئني وأن تهدئي بالا فيما يتعلق بالوثيقة التي تبحثين عنها!

- ماذا؟ أي وثيقة تعني؟

اضطربت كاترين نيقولايفنا اضطراباً بلغ من القوة أن لونها شحب شحوباً شديداً. أو هذا ما بدا لي أنا. فأدركت أنني قلت أكثر مما كان ينبغي أن أقول.

وخرجت مسرعاً. وشيعتاني بنظراتهما صامتتين. وكنت أقرأ في وجهيهما دهشة قصوى. الخلاصة أنني ألقيت لغزاً. . .

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

– 1 –

أسرعت أعود إلى البيت. ومن أشد العجب أنني كنت راضياً عن نفسي مغتبطاً. صحيح أن المرء لا يكلم النساء بهذه اللهجة، ولا سيما مثل هذه النساء، بل قل مثل هذه المرأة، ذلك أنني لا أدخل تاتيانا بافلوفنا في حسابي. لعله لا يجوز لرجل أن يقول لامرأة من هذا النوع في وجهها: «أنا لا أعبأ بمكائدك ودسائسك!» ولكنني قلت ذلك، وهذا بعينه هو ما كان يجعلني راضياً. كنت موقناً على الأقل أنني إذ خاطبتها بهذه اللهجة قد بددت كل ما كنت فيه من وضع مضحك، ناهيك عما عدا ذلك. غير أن وقتي لم يتسع للتفكير في هذا كله زمناً طويلاً: ذلك أن كرافت كان يملأ جوانب نفسي كلها. لا أقصد أن انتحاره كان يؤلمني ويعذبني كثيراً، وإنما أقصد أن نفسي قد اهتزت للنبأ اهتزازا قوياً. وحتى اللذة العادية التي يشعر بها الناس حين يرون مصيبة تنزل بغيرهم، كأن تكسر ساق أحد أو يلطخ شرفه أو يموت له عزيز أو ما إلى ذلك، حتى هذه اللذة العادية التي يولدها الرضى الدنيء، قد حل محلها شعور آخر، شعور خالص إلى أقصى الحدود بالحسرة أو بالجزع على كرافت: . لا أدري. . ولكنه شعور يبلغ غاية القوة والحسن. وعن هذا أيضاً كنت راضياً وبهذا أيضاً كنت مغتبطاً. أمر

Twitter: @ketab_n

عجيب: ما أكثر الأفكار الغريبة التي يمكن أن تتدفق وتتلاحق في ذهنك حين يهزك نبأ ضخم كان ينبغي له في الظاهر أن يخنق سائر المشاعر وأن يبعثر جميع الخواطر التي لا تمت إليه بصلة، ولا سيما الخواطر التافهة. ومع ذلك فإن هذه الخواطر التافهة هي التي عرضت لي وملأت نفسي. ما أزال أذكر أنني قد اجتاحتني هزة عصبية قوية، شيئاً بعد شيء، دامت عدة دقائق، بل دامت طول الوقت الذي قضيته في البيت متحدثاً مع فرسيلوف.

وقد جرى هذا الحديث مع فرسيلوف في ظروف غريبة غير مألوفة. سبق أن قلت إننا أقمنا في جناح بفناء عمارة وهذا المسكن رقمه 13؛ فقبل أن أصل إلى بوابة المبنى سمعت امرأة تسأل بصوت عال، وقد نفد صبرها واشتد ضيقها: «أين يقع المسكن رقم 13؟» إنها سيدة فتحت باب دكان خردوات صغير مجاور. ولكن أحداً لم يجب عن سؤالها، بل لعلهم طردوها، لأنني رأيتها تهبط الدرجات غاضبةً مكروبة، وصرخت تقول وهي تخبط الأرض بقدمها:

- فأين البواب إذاً؟

وكنت قد تعرفت هذا الصوت منذ مدة. فقلت وأنا أتقدم منها:

- أنا ذاهب إلى المسكن رقم 13؛ عمن تسألين؟

- إنني أبحث عن البواب منذ ساعة. سألت جميع الناس، وصعدت جميع السلالم.

- إن المسكن الذي تسألين عنه يقع في فناء العمارة. ألم تعرفيني؟

ولكنها كانت قد تعرفتني. وواصلت كلامي فقلت:

- تريدين أن تري فرسيلوف؟ لك معه شأن، ولي أنا معه شأن أيضاً. إنني آت إليه لأودعه إلى الأبد. فهيا بنا.

- أأنت ابنه؟

Twitter: @ketab_n

– لا قيمة لهذا. هبيني ابنه، رغم أن اسمي دولجوروكي أنا ولد غير شرعي. إن لهذا السيد عدداً لا يُحصى من الأولاد غير الشرعيين. ورب ابن شرعي يترك منزل أبيه إذا دفعه الضمير والشرف إلى ذلك. جاء هذا حتى في الكتاب المقدس[52]. ثم أنه قد نال ميراثاً فلا أريد أن أقاسمه هذا الميراث. أريد أن أكتفي بكدِّ يميني. ومن كان كريم القلب ضحى حتى بحياته إذا لزم ذلك. لقد انتحر كرافت، في سبيل الفكرة. تصوري، كرافت الشاب الذي كانت تعقد عليه آمال كبار. . . تفضلي إلى هنا، فنحن نقيم في الجناح. حتى في الكتاب المقدس جاء أن على الأولاد أن يتركوا آباءهم وأن يبنوا لأنفسهم أعشاشاً. . حين تجرفهم الفكرة. . حين يكون لهم فكرة. . آه. . أن الفكرة هي الأمر الرئيسي. . كل شيء قائم في الفكرة. . .

واصلت هذه الثرثرة طول الوقت الذي كنا نصعد فيه إلى بيتنا. لا شك أن القارئ لاحظ أنني لا أراعي نفسي ولا أداري نفسي، وإنما أصفها بما هي. إنني أريد أن أتعلم قول الحق. كان فرسيلوف بالبيت. دخلت دون أن أخلع معطفي. وكذلك فعلت هي. كانت ثيابها خفيفة جداً: فستان قاتم اللون تتحرك فوقه قطعة من قماش لا أدري ما هي، ولكنها وضعت هنالك لتكون بمثابة رداء أو عباءة؛ وطاقية عتيقة مجرودة تغطي الرأس لا تكاد. حين دخلنا الصالة كانت أمي في مكانها المألوف منكبة على شغلها، وخرجت أختي من غرفتها لتنظر، ووقفتْ عند العتبة. وكان فرسيلوف، على عادته، لا يعمل شيئاً، فنهض يستقبلنا. وحدَّق إليّ بنظرة قاسية مستفهمة فأسرعت أقول وأنا أتنحى:

– أنا لا شأن لي في الأمر. لقد التقيت بها أمام البوابة، وكانت تسأل عنك، فلا يدلها أحد. .لكن لي أنا أيضاً قضية سوف يسرني أن أشرحها لك بعد قليل. . .

Twitter: @ketab_n

ولكن فرسيلوف ظل يتأملني مستطلعاً.

وبدأت الفتاة تتكلم وقد نفد صبرها فقالت:

- هل تسمح؟

فالتفت فرسيلوف إليها، فأردفت تقول:

- لقد فكرت طويلاً في السبب الذي دعاك إلى أن تترك لي هذا المال بالأمس... فانتهيت إلى.. الخلاصة: إليك مالك فخذه! وأطلقت صرخةً كما فعلت من قبل، وألقت على الطاولة حزمة من الأوراق المالية. واستطردت تقول: اضطررت أن أذهب إلى مكتب العناوين لأعرف أين تسكن، ولولا ذلك لجئت قبل الآن. ثم أضافت: وهي تلتفت فجأة إلى أمي التي شحب لونها شحوباً شديدا: - اسمعي أنت! إنني لا أريد أن أهينك. فوجهك يدل على أنك سيدة شريفة، وربما كانت هذه الفتاة ابنتك. لا أدري أأنت زوجته أم لا. ولكن اعلمي أن هذا الرجل يقص من الصحف الإعلانات التي تنشرها المربيات والمعلمات بآخر ما يملكن من نقود، ويطوف على هؤلاء المسكينات سعياً إلى منافع غير شريفة مغرياً إياهن بالمال. لا أدري كيف أمكنني أن أقبل ماله أمس! كانت هيئته تدل على استقامة وصدق.. قف مكانك! لا تقل كلمة واحدة! أنت رجل دنيء يا سيد! وهبك شريف النيات فإنني لا أريد مالك! آه.. لا تقل كلمة واحدة! ما أشد سروري بأن أفضحك وأخزيك أمام نسائك! لعنة الله عليك!

وهربت مسرعة. ولكنها عند العتبة التفتت، لا لشيء إلا أن تصرخ قائلة:

- يقال إنك نلت ميراثا!

ثم اختفت كما يختفي الظل. يجب أن أذكر مرة أخرى أنها كانت بشدة غضبها كمجنونة. دُهش، بل ذهل فرسيلوف على نحو عميق. ولبث في

Twitter: @ketab_n

مكانه حالماً، وكأنه يفكر في شيء ما. ثم التفت إليَّ فجأة وسألني:

- ألا تعرفها البتة؟

- رأيتها هذا الصباح مصادفة في بيت فاسين. كانت تضطرب في الدهليز وتطلق الصرخات وترسل إليك اللعنات. ولكنني لم أدخل في حديث، ولا أعرف عنها شيئاً. وقد التقيت بها الآن أمام البوابة. لا بد أنها معلمة الأمس، «تلك التي تعطي دروساً في الحساب».

- هي نفسها. مرةً في حياتي قمت بعمل حسن، و.. وأنت ماذا جاء بك؟

فأجبته بقولي:

- إليك رسالة. لا داعي إلى أن أشفعها بإيضاحات. إنها من كرافت. وقد تلقاها كرافت من المرحوم آندرونيكوف. اقرأها فينيرك مضمونها. ولكنني أضيف أن أحداً في العالم لا يعرف الآن بوجود هذه الرسالة سواي، لأن كرافت الذي أعطانيها أمس قد انتحر فوراً بعد زيارتي له...

فيما كنت أتكلم لاهثاً متعجباً، تناول هو الرسالة، فجعلها في يده اليسرى، وتابع النظر إليَّ بانتباه. وحين أبلغته نبأ انتحار كرافت أنعمت النظر في وجهه لأرى ما أحدثه النبأ في نفسه. فما رأيكم إذا قلت لكم أن النبأ لم يحدث في نفسه أي أثر؟ حتى حاجباه لم يرتفعا! بالعكس: حين رآني أتوقف عن الكلام استل نظارته التي ترتكز على الأنف ويتدلى منها شريط أسود (وكان لا يفارق هذه النظارة أبدا) وقرَّب الرسالة من شمعة، وأخذ يقرؤها بإمعان بعد أن ألقى نظرة على التوقيع الذي يذيلها. ليس في وسعي أن أصف لكم عمق الجرح الذي أصابتني به كبرياؤه وقلة إحساسه. لا بد أنه يعرف كرافت معرفة جيدة. وهذا نبأ خارق على كل حال! ولقد كنت أتمنى طبعاً أن أحدث في نفسه أثراً.

Twitter: @ketab_n

انتظرت نصف دقيقة، وإذ كنت أعرف أن الرسالة طويلة، فقد أدرت له ظهري وانصرفت. كانت حقيبتي مهيأة منذ مدة طويلة، ولم يبق عليَّ إلا أن أجعل بعض أمتعتي في صرة. وخطرت ببالي أمي: لم أكن قد اقتربت منها. وبعد عشر دقائق كنت قد تهيأت تهيؤاً تاماً، وهممت أن أمضي باحثاً عن عربة، فإذا بأختي تدخل عليَّ في حجرتي تحت السقف.

- خذ. إن ماما ترسل إليك الستين روبلا، التي أعطيتها إياها، وترجوك مرة أخرى أن تغفر لها إنها قالت عنها لأندريه بتروفتش. ثم إليك عشرين روبلاً أخرى. فقد دفعت بالأمس نفقات إقامتك خمسين روبلاً، وماما تقول إنها لا يحق لها أن تأخذ منك إلا ثلاثين، لأنها لم تنفق عليك أكثر من ذلك، فهي ترد إليك العشرين روبلاً الزائدة.

- شكرا، لكنني أرجو أن يكون ما قالته حقاً. أستودعك الله يا أختي. أنا راحل!

- إلى أين!

- إلى النزل مؤقتا، حتى لا أقضي في هذا البيت ليلة أخرى. قولي لماما إنني أحبها.

- هي تعرف ذلك. وهي تعرف أنك تحب أندريه بتروفتش أيضاً. كيف لم تخجل من الإتيان بتلك الفتاة المسكينة؟

- أنا لم آت بها، أحلف لك. وإنما لقيتها أمام البوابة.

- بل أنت الذي أتيت بها.

- أؤكد لك. . .

- فكر جيداً، واسأل نفسك، تجد أنك أنت أيضاً كنت سبباً في مجيئها.

- كل ما هنالك أنني سررت جداً بإخزاء فرسيلوف. تصوري أن له

Twitter: @ketab_n

ولداً رضيعاً من ليديا آخماكوفا. . . ولكن لماذا أقول لك هذا الكلام؟ . .

- هو؟ له ولد رضيع؟ خطأ. . ليس الولد منه! من ذا الذي قصَّ عليك هذه الأكذوبة؟

- ما أدراك أنت؟

- ما أدراني أنا؟ أنا التي ربيت هذا الولد في لوغا. اسمع يا أخي: ألاحظ منذ مدة طويلة أنك، بدون أن تعرف شيئاً، تهين أندريه بتروفتش، وبذلك نفسه تهين ماما أيضاً.

- طيب. إذا كان هو على حق، فالذنب عليَّ. هذا كل ما في الأمر. ولكن هذا لا ينفي أنني أحبكما كثيراً. لماذا تحمرين يا أختي؟ طيب، طيب. هاأنت ذي تزدادين احمراراً. على كل حال، سوف أطلب مبارزة ذلك الأمير الصغير، انتقاما للصفعة التي كالها لفرسيلوف بمدينة «إمس». وإذا كان فرسيلوف غير مخطىء في حق آخماكوفا، فيكون هذا أفضل. . .

- ما هذا الذي تقوله يا أخي؟ ألا فكرت قليلاً؟

- من حسن الحظ أن الدعوى قد فصل القضاء فيها. هاأنت ذي الآن تصفرِّين.

ابتسمت ليزا ابتسامة شاحبة من خلال ذعرها وقالت:

- ولكن الأمير لن يبارزك.

- عندئذ سأخزيه على رؤوس الأشهاد. ما بك يا ليزا؟

لقد بلغت ليزا من شحوب الضعف والوهن أنها أصبحت لا تستطيع أن تثبت على قدميها، فإذا هي تتهالك على الديوان.

- ليزا!

هكذا نادتها أمنا من تحت.

Twitter: @ketab_n

فاستجمعت ليزا قوتها ونهضت، وابتسمت لي ابتسامة زاخرة بالحنان، وقالت:

- أخي، دع هذه السخافات، أو فانتظر حتى تعرف من الأمر أكثر مما تعرف الآن. إن ما تعرفه قليل جداً.

- لسوف أتذكر يا ليزا أنك شحبت حين علمت أنني سأبارز الأمير!

- نعم، نعم، تذكر هذا أيضاً.

وابتسمت مرةً أخرى مودعة، ونزلت.

ناديت حوذياً، ونقلت أمتعتي بمعاونته. لم يعترضني في البيت أحد، ولا استوقفني أحد. ولم أودع ماما حتى لا ألقى فرسيلوف. وفيما أنا أركب العربة، برقت في خاطري فكرة سريعة، فإذا أنا أقول للحوذي:

- فونتانكا، جسر سيميونوفسكي!

وأعود إلى عند فاسين.

- 2 -

قدرت أن فاسين لا بد أن يكون مطلعاً على نبأ انتحار كرافت، وأنه أعرف مني كثيراً بالأمر. وذلك ما كان فعلاً. فروى لي فاسين في الحال جميع التفاصيل ملبياً رغبتي ولكن بغير حرارة. فاستنتجت من ذلك أنه متعب، وكان الأمر ذلك حقاً. لقد ذهب في الصباح إلى كرافت. وكان كرافت قد أطلق على نفسه رصاصة مسدس (ذلك المسدس نفسه) بالأمس، منذ هبط المساء، كما يستخرج ذلك من يومياته. إن الكلمات الأخيرة التي دونها في يومياته إنما كتبها قبيل انتحاره بلحظات، وفيها يذكر أنه يكتب في العتمة تقريباً وأنه لا يكاد يميز الأحرف، ولكنه لا يريد أن يشعل شمعة، مخافة أن يخلف وراءه حريقاً، ثم هو يضيف إلى ذلك في السطر الأخير تقريباً قوله الغريب هذا: «أما أن أشعل الشمعة

Twitter: @ketab_n

لأطفئها قبل إطلاق الرصاص مع إطفاء حياتي، فذلك ما لا أريده».

وكان كرافت قد بدأ كتابة يوميات ساعة الموت هذه أمس الأول، فور عودته إلى بطرسبرج، قبل زيارته درجاتشيف. وكان بعد انصرافي يدون شيئاً كل ربع ساعة، أما مرات التدوين الثلاث أو الأربع الأخيرة فلم يكن يفصل بين الواحدة والأخرى منها إلا خمس دقائق. أفصحت عن دهشتي من أن فاسين، وقد أصبحت هذه اليوميات تحت بصره مدة طويلة (إذ أُعطيها ليقرأها) لم يحاول أن ينسخها، لاسيما وأنها لا تملأ أكثر من ورقة واحدة، وأن جميع التدوينات قصيرة، «لو نسخ الصفحة الأخيرة على الأقل!» وذكر لي فاسين مبتسماً أنه يتذكر كل ما ورد في اليوميات، وأن كلامها فوضى لا ينظمه ناظم وإنما هي تسجيل لكل ما كان يخطر ببال المنتحر. وقد هممت أن أؤكد له بأن قيمتها إنما تكمن في هذا نفسه، ولكنني أمسكت عن الكلام، وآثرت أن ألح على أن يتذكر شيئاً مما قرأ. فتذكر بضعة أسطر فعلا. كان كرافت قد كتبها قبل إطلاق الرصاص على نفسه بنحو ساعة، وفيها يقول إنه «يشعر بقشعريرة» وإنه «تمنى أن يشرب كأسا من الخمرة طلباً للدفء، ولكنه تصور أن شرب الخمرة سيزيد غزارة الدم المسفوح، فامتنع عن الشرب». قال فاسين إن كل ما كتبه هو من هذا النوع تقريباً.

هتفت أقول:

- أفهذا ما تسميه سخافات؟

- متى تكلمت عن سخافات؟ كل ما هنالك أنني لم أنسخ اليوميات. وأنا أرى إنها عادية وإن لم تكن سخيفة، أو قل إنها طبيعية، أي هي ما لا بد أن يكون في مثل هذه الحالة. . .

- ولكن الأفكار الأخيرة، الأفكار الأخيرة!

- الأفكار الأخيرة تكون في بعض الأحيان تافهة تفاهة عجيبة. أعرف

Twitter: @ketab_n

منتحراً تشكى في يومياته من أنه لم تزره في مثل هذه الساعة الخطيرة أي «فكرة عليا»: فلا شيء إلا أفكار جوفاء تافهة.

- وهل القشعريرة فكرة جوفاء أيضاً؟

- أتقصد القشعريرة أم غزارة الدم المفسوح؟ أنه لأمر معروف جداً أن كثيراً من الذين يقدرون على التفكير في موتهم الوشيك، سواء أكان موتهم بإرادتهم أم كان بغير إرادتهم، يهتمون في كثير من الأحيان بحسن حالة جثمانهم. وبهذا إنما كان كرافت يخشى انسكاب دم غزير..

جمجمت أقول:

- لا أدري هل هذه واقعة معروفة... وهل هذا الذي تقوله صحيح، ولكن يدهشني أن ترى في الأمر كله شيئاً طبيعياً إلى هذا الحد. إن كرافت كان منذ وقت قصير يتكلم ويقلق ويجلس بيننا. فهل يعقل أن لا تأخذك به أي شفقة؟

- بل تأخذني به شفقة طبعاً. ولكن هذه قضية أخرى. ثم إن كرافت نفسه، على كل حال، قد صور موته في سورة استنتاج منطقي. وقد تبين أن كل ما قيل عنه بالأمس عند درجاتشيف صحيح. لقد ترك دفتراً ضخماً ضمنه نتائج علمية تذهب إلى أن الروس جنس من الطبقة الثانية، وأقام نتائجه على علم الهيئة ودراسة الجمجمة، بل على الرياضيات أيضاً، واستخلص من ذلك أن المرء إذا كان روسيا فلا داعي إلى أن يحيا. إن السمة التي يتميز بها هذا كله، إذا شئت أن تجد له صفة تميزه، أنه في وسع المرء أن يستخلص من الاستنتاجات المنطقية ما يشاء، أما أن ينتحر تدعيماً لهذا الاستنتاج، فذلك ما لا يحدث كل يوم طبعاً.

- يجب أن نكبر قوة إرادته على الأقل.

قال فاسين متهرباً:

- وربما كان يجب أن نكبر غير ذلك أيضاً. ولكن كان واضحاً أن ما

Twitter: @ketab_n

يدور في خلد فاسين إنما هو الغباء وضعف العقل. فكان ذلك يثير حنقي.

- قلت: بالأمس تحدثت أنت نفسك عن العواطف يا فاسين.

- ولست اليوم أنكرها. لكنني إزاء عنف الأمر الذي وقع لا أملك إلا أن أجد فيه من فحش الخطأ ما يجعل حكمي قاسياً يطرد من نفسي حتى الشعور بالشفقة.

- لقد أدركت منذ قليل من النظر في عينيك أنك ستقول سوءاً في حق كرافت. ومن أجل أن لا أسمع ما ستقوله، قررت أن لا أسألك رأيك. ولكنك أفصحت عن رأيك من تلقاء نفسك، فلا يسعني إلا أن أوافق برغم إرادتي على رأيك. ولكنني مستاء منك يا فاسين! إنني حزين على كرافت.

- أرى أننا نغالي قليلاً...

فقاطعته قائلاً:

- نعم، نعم... ولكن ما يبعث العزاء والسلوان على الأقل أن الأحياء الذين يحكمون على المتوفى يستطيعون دائماً في مثل هذه الحالة أن يقولوا لأنفسهم: «مهما يكن المنتحر جديراً بالشفقة والتسامح، فما نزال نحن أحياء، فلا داعي أن نسرف في الحزن».

- طبعا... من هذه الناحية كلامك صحيح... ولكن أظن أنك تمزح! طريفة نكتتك. اسمع. لقد اعتدت أن أشرب الشاي في مثل هذه الساعة فسآمر لنفسي بشاي. وستشاركني طبعاً.

قال ذلك ثم خرج وهو يشمل ببصره حقيبتي وصرتي.

والحق أنني أردت أن أسخر منه انتقاما لكرافت. فقلت ما قلته على نحو ما استطعت. ولكن أغرب ما في الأمر أنه في البداية قد أخذ جملتي مأخذ الجد: «ما نزال نحن أحياء». ومع ذلك، ومهما يكن من

Twitter: @ketab_n

أمر، فقد كان أقرب مني إلى الحق والصواب، حتى في موضوع العاطفة. اعترفت بذلك لنفسي دون أي امتعاض. ولكنني أحسست أنني لا أحبه.

فلما صار الشاي أمامنا أعلنت له أنني أريد أن يستضيفني هذه الليلة، فإذا كان ذلك مستحيلاً فما عليه إلا أن يصارحني، فأذهب إلى النزل. ثم بسطت له خلاصة الأسباب التي تدفعني إلى طلب هذه الضيافة، ذاكراً صراحة وبكل بساطة أنني على شقاق مع فرسيلوف، ولكن دون أن أدخل في التفاصيل. فأصغى إليَّ فاسين بانتباه، غير أنه لم يظهر عليه شيء من انفعال. وكان يقتصر على الإجابة عن أسئلتي، ولكن إجاباته كانت لا تخلو من إفاضة، وكانت لهجته لا تخلو من لطف ومودة. ولم أقل كلمة واحدة عن الرسالة التي جئت إلى بيته في الصباح لأسأله النصح في أمرها. وإنما ذكرت أن زيارتي السابقة لم يكن لها من غرض غير الزيارة. إنني بعد الذي قطعته على نفسي لفرسيلوف، وهو أن لا يعرف أحد عن هذه الرسالة شيئاً سواي، قد أصبحت أعتقد أنه ليس من حقي أن أجيء على ذكرها لأحد أبداً. وكان يزعجني كثيراً أن أكلم فاسين في بعض الأمور، أقول في بعض الأمور لا في جميع الأمور، حتى لقد أفلحت في إثارة اهتمامه حين قصصت عليه المشاهد التي وقعت في الدهليز وفي غرفة الجارتين، واختتمت في بيت فرسيلوف. فكان ينصت إليَّ بانتباه شديد، ولا سيما حين كان الحديث يتناول فرسيلوف. حتى أنه استعادني الكلام مرتين، ثم شرد فكره حين أتيت على ذكر الأسئلة التي ألقاها ستيبلكوف عن درجاتشيف. على أنه ابتسم في النهاية ابتسامة ساخرة. فبدا لي فجأة في تلك اللحظة أنه لا شيء ولا أحد يمكن أن يربك فاسين في يوم من الأيام. وإني لأذكر أن هذه الفكرة قد عرضت لذهني في صورة تشرفه كثيراً. وقلت أختم حديثي عن ستيبلكوف:

Twitter: @ketab_n

- لم أستطع أن أستخلص كثيراً مما قاله السيد ستيبلكوف، فإنه ينطق بكلام مبهم متهرب. . . ويبدو فيه شيء طائش. فظهر الجد في هيئة فاسين فوراً. وقال:

- صحيح أنه لم توهب له ملكة الكلام، ولكن ذلك يبدو للوهلة الأولى فقط، فقد يتفق له أن يبدي ملاحظات تبلغ غاية الصحة والصواب. ثم إن أمثال هذا الرجل أناس عمليون، أو قل إنهم رجال عمل لا رجال فكر. فيجب أن نحكم عليهم بهذا المقياس. . .

وذلك بعينه ما كنت قد أدركته من قبل.

- قلت: ومع ذلك أحدث عند جارتيك فضيحة رهيبة، فلا يستطيع أحد أن يتنبأ بما كان يمكن أن ينتهي إليه هذا كله.

وعن هاتين الجارتين أسرَّ إليَّ فاسين أنهما هنا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، وأنهما قادمتان من الأقاليم، وأنهما تشغلان غرفة صغيرة جداً، وأن جميع الدلائل تشير إلى أنهما فقيرتان فقراً مدقعاً، وأنهما تنتظران هنا شيئاً ما. كان لا يعرف أن الفتاة نشرت إعلانا في الجريدة تذكر فيه أنها معلمة، ولكنه علم أن فرسيلوف زارهما. وقد وقعت الزيارة في غيبته، غير أن المؤجرة ذكرتها له. وكانت الجارتان لا تخالطان أحداً، ولا تلقيان حتى المؤجرة. وقد لاحظ فاسين في الأيام الأخيرة أن لدى الجارتين مشكلات لا تجد سبيلها إلى الحل فعلاً، ولكن لم يسبق أن وقعت عندهما مشاهد كالمشاهد التي وقعت اليوم. إنني أتذكر حديثنا عن الجارتين بسبب الأحداث التي تلت ذلك. وكان يخيِّم في غرفتهما آنئذ صمت كصمت الموت. وقد ظهر على فاسين اهتمام شديد حين ذكرت له أن ستيبلكوف رأى أن عليه أن يكلم المؤجرة عن هاتين الجارتين، وأنه ردد مرتين قوله: «سترى، سترى!»

وأضاف فاسين يقول:

Twitter: @ketab_n

- سوف ترى أن هذه الفكرة لم تساوره لغير سبب. إن له في بعض الأمور نظرة حادة صائبة.

- أتعتقد إذاً بأن من الواجب أن تُنصح المؤجرة بطردهما من البيت؟

- لا، ليست المسألة مسألة طردهما من البيت. ولكنني أخشى أن تقع حادثة... على كل حال، فإن جميع هذه الحوادث لا بد أن تنتهي أخيراً على نحو من الأنحاء... دعنا من هذا!

وامتنع فاسين امتناعاً قاطعاً عن إبداء رأيه في زيارة فرسيلوف للجارتين.

- كل شيء ممكن. أحسَّ الرجل بأن في جيبه مالاً... ومن الجائز مع ذلك أن لا يكون قد أراد إلا إعطاء صدقة، فهذه أمور هي من تقاليده، بل لعلها قائمة في طبيعته وميوله.

فلما ذكرت له أقاويل ستيبلكوف عن «الطفل الرضيع»، قال فاسين بتأكيد خاص بلهجة جادة خاصة (ما زلت أسمعها):

- هنا يخطىء ستيبلكوف كل الخطأ. إن ستيبلكوف يبالغ أحياناً في الاعتماد على حسه العملي والركون إليه، وقد يتسرع في استخلاص النتائج بمنطقه الذي كثيراً ما يكون صادقاً نافذاً. فرب حادث قد يتخذ في الواقع صوراً خارقة ليست في الحسبان بالنظر إلى الأشخاص المشتركين فيه، وذلك ما وقع: فإن ستيبلكوف وقد عرف جزءا من القضية استنتج أن الطفل ابن فرسيلوف، والحق أنه ليس من فرسيلوف.

وألححت على فاسين مستزيداً من المعرفة، فما كان أشد دهشتي حين علمت أن الولد من الأمير سرجي سوكولسكي. إن ليديا آخماكوفا، بسبب مرضها أو لطبيعتها الخيالية كانت تتصرف في بعض الأحيان تصرف مجنونة. لقد تولهت بحب الأمير قبل وصول فرسيلوف، ولم «يجد الأمير حرجاً في قبول حبها» حسب قول فاسين.

Twitter: @ketab_n

واستمرت العلاقة لفترة قصيرة، تشاجرا بعدها كما يعرف العارفون، فطردت ليديا الأمير، ويبدو أن الأمير «ابتهج بهذا الطرد وسر به سروراً كبيراً».

كانت ليديا فتاة غريبة الأطوار (كذلك أضاف فاسين): ومن الجائز جداً إنها لم تكن سليمة العقل في بعض الأحيان. ولكن الأمير حين سافر إلى باريس كان يجهل كل الجهل أنه ترك ضحيته حبلى، وظل يجهل ذلك إلى النهاية، أي إلى حين عودته. وفي أثناء ذلك أصبح فرسيلوف صديق ليديا، فعرض عليها الزواج، لا سيما نظراً لظرفها هذا (الذي لم يفطن حتى والداها إليه حتى النهاية تقريباً). وكانت ليديا قد تولهت بحب فرسيلوف فطار لبها فرحاً بعرضه، «ولم تر في هذا العرض تضحية فحسب»، مع تقديرها للتضحية في الوقت نفسه. وقد أحسن طبعاً في تدبير ذلك - أضاف فاسين -. وولد الطفل (بنتاً) قبل الأوان بشهر أو بستة أسابيع، فعهد به إلى مرضعة بمكان في ألمانيا، ثم استرده فرسيلوف، وهو يعيش الآن في روسيا، ربما ببطرسبرج.

- وما حكاية أعواد الكبريت الفوسفورية؟

قال فاسين:

- لا أعرف عن هذا شيئاً البتة. وقد ماتت ليديا آخماكوفا بعد الولادة بأسبوعين. ما ظروف موتها؟ لا أدري. وقد علم الأمير بوجود الطفل بعد أن عاد من باريس لا قبل ذلك، ويبدو أنه في الوهلة الأولى لم يصدق أن الطفل منه... وعلى وجه العموم جهدت جميع الأطرف في إبقاء القصة سراً، وما تزال إلى اليوم محاطة بالغموض.

هتفت أقول مستاء:

- ولكن ما هذا الأمير؟ أهكذا تُعامل فتاة مريضة؟

- لم يكن مرضها في ذلك الحين قد تفاقم... ثم إنها هي التي

Twitter: @ketab_n

طردته. . . صحيح أنه ربما كان قد أسرع يستفيد من هذا الطرد، فرحل على الفور.

- أتبرر سلوك رجل نذل مثله؟

- لا. ولكنني لا أصفه بأنه نذل. إن في الأمر أشياء كثيرة أخرى غير النذالة المباشرة. على كل حال، هذه مسألة عادية مألوفة، وهو لا ينفرد بهذا السلوك من دون سائر الناس.

- قل لي يا فاسين: هل عرفته من قرب؟ إنني أحب كثيراً أن أعتمد على رأيك بسبب ظرف يمسني جداً.

ولكن فاسين أجاب هنا بكثير من التحفظ. فهو يعرف الأمير، ولكنه لم يقل عن عمد ظاهر كلمة واحدة عن ظروف تعرفه إليه. وقد أسرَّ إليَّ بعد ذلك أن طبع الأمير يجيز له أن يكون متسامحاً في الحكم عليه: «إن نفسه تزخر بميول خيرة، وهو إنسان يمكن التأثير فيه، لكنه لا يملك لا من العقل ولا من الإرادة ما يمكنه من السيطرة على رغباته وشهواته». وهو رجل لا ثقافة له، لكنه مهووس بالتنقل والتشرد بين أفكار وأمور لا قدرة له على فهمها. من ذلك أنه يصدع إذنيك بأقوال من هذا النوع: «أنا أمير، أنا سليل روريك»[53]. ولكن لماذا لا أكون مساعد إسكافي إذا احتجت إلى أن أجني رزقي وكنت عاجزاً عن عمل شيء آخر؟ سوف يقرأ الناس على لافتة دكاني حينئذ: «الأمير فلان، إسكافي»، بل إن في ذلك شيئاً «نبيلاً». إنه يقول هذا الكلام مستعداً لتنفيذه، وذلك هو الأمر الخطير. أضاف فاسين هذه الجملة، وأردف: ولكنه لا يقول هذا الكلام عن اقتناع، وإنما يقوله عن خفة عقل وسرعة تأثر. ثم تأتي الندامة بعد ذلك حتماً، فيكون على أتم الاستعداد للانتقال إلى النقيض تماماً. وهكذا تجري حياته كلها. إن في عصرنا أناساً كثيرين يقعون في مآزق لا لشيء إلا لأنهم ولدوا في عصرنا.

Twitter: @ketab_n

بذلك ختم فاسين كلامه. فشرد ذهني ووجمت حالماً مفكراً. ثم سألت فاسين:

- هل صحيح أنه طُرد في الماضي من الجيش؟

- لا أدري أطرد أم لا. ولكنني أعلم أنه ترك الجيش بعد بعض المضايقات. لعلك لا تجهل أنه في الخريف الماضي، وقد أحيل إلى التقاعد، قد قضى شهرين أو ثلاثة أشهر في لوغا؟

- أنا... أعلم أنك كنت حينذاك في لوغا.

- نعم، كنت في لوغا أيضاً بعض الوقت. وكان الأمير يعرف كذلك اليزافيتا ماكاروفنا.

هتفت أقول:

- صحيح؟ كنت أجهل هذا. إنني لم أكلم أختي إلا قليلاً... ولكن هل استقبلته أمي في بيتها؟

- لا. هذه معرفة بعيدة تمت في لقاء ببيت ثالث.

- نعم. ثم، ماذا قالت لي أختي عن ذلك الطفل؟ هل كان الطفل في لوغا أيضاً؟

- بعض الوقت.

- وأين هو الآن؟

- لا بد أن يكون ببطرسبرج.

صحت أقول مضطرباً أشد الاضطراب:

- لن أصدق أبداً أن تكون أمي قد شاركت أي مشاركة في هذه الألاعيب من قصة ليديا كلها!

فقال فاسين وهو يبتسم ابتسامة تسامح:

- في هذه القصة، التي لا أحاول أن أحلل عقدها على كل حال، لا أرى أن دور فرسيلوف يشتمل على شيء يستحق أن يلام عليه لوماً

Twitter: @ketab_n

شديداً في حقيقة الأمر.

وأظن أن فاسين كان قد سئم من الحديث معي، ولكنه لا يريد أن يظهر سأمه.

وهتفت أقول مرة أخرى:

- لن أصدق أبداً، أبداً، أن امرأة يمكن أن تتنازل عن زوجها لامرأة أخرى! لا، هذا شيء لن أصدقه أبداً! . . أحلف أن أمي لم تشارك أي مشاركة في هذا الأمر!

- يخيل إليّ مع ذلك أنها لم تعارضه؟

- لو كنت في مكانها لثرت وما عارضت، من باب العزة والشَّمَم على الأقل.

قال فاسين يختم كلامه:

- لا أريد من جهتي أن أقطع بحكم في هذا الموضوع.

والواقع أن فاسين، رغم ذكائه كله، كان لا يفهم في شؤون النساء شيئاً، فكانت دائرة كبيرة من الأفكار والحوادث غريبة عنه مجهولة لديه. وصمت. وكان فاسين يعمل مؤقتا في شركة مساهمة، وكنت أعلم أنه يحمل شيئاً من عمله إلى بيته. فلما ألححت في إلقاء الأسئلة عليه، أعلن لي أن هناك حسابات يجب عليه أن ينجزها، فرجوته رجاء حاراً أن لا يشعر من وجودي بحرج. وأظن أن ذلك قد سره. ولكنه قبل أن يجلس إلى مكتبه أراد أن يهيئ لي سريراً على الديوان. وكان قد عرض عليَّ أن أنام على سريره هو، ولكنني رفضت، وأظن أن هذا أيضاً قد سره. واستعرنا من المؤجرة مخدة وغطاء. وكان فاسين مهذباً ولطيفاً إلى أقصى حد، لكنني كنت أشعر بشيء من الضيق حين أراه يتكلف هذا العناء من أجلي. أذكر أنني قبل ثلاثة أسابيع، حين اتفق لي عرضاً أن بتُّ ليلة عند إيفيم في بطرسبرجسكايا ستورونا، كنت أكثر ارتياحا. فهو

Twitter: @ketab_n

أيضاً قد أعد لي سريري على الديوان بغير علم عمته، مفترضاً - لا أدري لماذا - أنها ستساء إذا علمت أن رفاقاً له يجيئون إليه للمبيت عنده. لقد ضحكنا كثيراً، واتخذنا من قميص شرشفاً نغطي به الديوان، ولففنا معطفاً فجعلناه مخدة. وأذكر أن زفيريف، بعد أن أتممنا هذا العمل كله، ربت على الديوان براحة يده قائلاً بعاطفة: Vous dormirez comme un petit roi (ستنام كملِك صغير)(54).

فكان من شأن هذا المرح الغبي، وهذه الجملة الفرنسية التي لا تناسبه أكثر مما يناسب البقرة أن تلبس مريلة، كان من شأن ذلك أن قضيت عند هذا المهرج ليلة بديعة. أما عند فاسين فما كان أشد ارتياحي حين رأيته يجلس أخيراً إلى مكتبه ويدير لي ظهره. اضطجعت على الديوان، وطفقت أفكر في أمور كثيرة وأنا أنظر إلى ظهره.

- 3 -

كان ثمة أشياء كثيرة تبعث على التفكير. وكانت نفسي مضطربة، فلا شيء فيها مكتمل. صحيح أن بعض الإحساسات أبرز من بعض، ولكن ما من إحساس بينها كان يجرني وراءه جراً تاماً، وذلك من فرط وفرتها وغزارتها. كان كل شيء يبرق برقاً إن صح التعبير، بغير ترابط ولا تماسك، وكنت أنا نفسي لا أريد أن أتلبث على شيء، ولا أن أقيم أي نظام. حتى ذكرى كرافت تراجعت شيئاً فشيئاً، فأصبحت في المقام الثاني من اهتمامي. إن ما يبث الاضطراب في نفسي أكثر من كل ما عداه إنما هو حالتي الشخصية. إنني الآن قد «قطعت صلتي» فها هي ذي حقيبتي، وهاأنذا بعيد عن البيت، وهاأنذا أبدأ حياة جديدة. لكأن كل ما سبق أن عقدت النية عليه وهيأت له الأسباب إنما كان قبل الآن لهواً وضحكاً، ثم إذا بكل شيء «يبدأ الآن في الواقع على حين فجأة، على

Twitter: @ketab_n

حين غرة خاصة». فكانت هذه الفكرة تشجعني، وكانت تبهجني رغم الاضطراب الذي كنت أحسه لأسباب شتى. ولكن... ولكن كان ثمة إحساسات أخرى. وكان بينها إحساس يتمنّى أن يتقدمها جميعاً وأن يستولي على نفسي كلها. ومن غريب الأمر أن هذا الإحساس كان هو أيضاً يشجعني، ويدفعني إلى فرح شديد. ومع ذلك كان هذا الإحساس قد بدأ بخوف: لقد خفت منذ مدة طويلة، منذ زيارتي لبيت تاتيانا بافلوفنا، أن أكون قد أسرفت في الكلام عن موضوع الوثيقة مع آخماكوفا، بدافع الحماسة والمفاجأة. قلت أحدث نفسي: «نعم، لقد قلت أكثر مما كان يجب أن أقول، فلا بد أنهما حزرتا شيئاً... يا للمصيبة! لا شك في أنهما لن تدعا لي راحة إذا ساورتهما شبهة. ولكن... ليكن! لعلهما لن تعثرا عليّ. سوف أتوارى عن الأنظار! ولكن ماذا إذا لاحقتاني فعلاً؟.» فإذا أنا أتذكر، بتلذذ متزايد، ما وقع لي مع كاترين نيقولايفنا كاملاً لا ينقصه شيء من التفاصيل. فأرى نظرتها، التي كانت جريئة ولكنها كانت كذلك مدهوشة أشد الدهش، تحدق إليّ. وتذكرت أنني حين خرجت تركتها مشدوهة أيضاً؛ «ليست عيناها سوداوين سواداً حالكاً مع ذلك... وإنما السواد الحالك في الأهداب وحدها... فهذا ما يضفي على العينين مظهر السواد الشديد...»

أذكر أن هذه الذكرى قد أثارت في نفسي اشمئزازا قوياً على حين فجأة، اشمئزازاً وتقززاً منهما ومني على السواء. فأخذت أكيل لنفسي أنواعاً من اللوم، وحاولت أن أصرف فكري إلى شيء آخر. وخطر ببالي هذا السؤال فجأة: «لماذا لم يساورني أي استياء من فرسيلوف بسبب حكايته تلك مع الجارة؟» كنتِ من جهتي مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنه مثل دور العاشق الولهان، وأنه لم يجىء إلا نشداناً للتسلية، ولكن ذلك لم يثر غضبي في الواقع. حتى لقد بدا لي أنه يستحيل على المرء أن يتصوره

Twitter: @ketab_n

في غير هذه الصورة. ولئن سرني أنه أخزي، فإنني ما اتهمته ولا أدنته قط. وليس هذا ما كان يهمني. وإنما كان الشيء الذي يهمني هو نظرة الكراهية تلك التي ألقاها عليّ حين دخلت عليه مع الجارة. لقد قلت محدثاً نفسي خافق القلب: «ها قد أخذني أخيراً مأخذ الجد!» آه. . . هل كان يمكن أن أغتبط لكراهيته هذا الاغتباط كله لولا أن كنت أحبه؟

وغفوت في النهاية، ثم نمت نوماً عميقاً. وفيما يشبه الحلم، رأيت فاسين وقد أنهى عمله - يرتب كل شيء بعناية، ويلقي على ديواني نظرة ثابتة، ثم يخلع ملابسه ويطفئ الشمعة. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل.

— 4 —

بعد ساعتين، استيقظت منتفضاً وجلست كالمخبول على ديواني. كان ينبعث وراء الباب في غرفة الجارتين صراخ رهيب وانتحاب وبكاء وعويل. وكان باب غرفتنا نحن مفتوحاً على مداه، وكان الدهليز مضاء، وكان فيه أناس يصيحون ويركضون. فأردت أن أنادي فاسين، لكنني أدركت أنه لم يكن في سريره. ولم أعرف أين يمكنني أن ألتمس أعواد الثقاب، فتناولت ملابسي تلمسا، وارتديتها مسرعاً في الظلام. لكأن المؤجرة وجميع المستأجرين كانوا على موعد في غرفة الجارتين. إن العويل يصدر عموماً عن صوت واحد، هو صوت الجارة المسنة، أما صوت الفتاة الذي سمعته أمس وما أزال أتذكره تذكراً واضحاً كل الوضوح، فقد كان صامتاً صمتاً مطلقاً. هذه هي الملاحظة الأولى التي برقت في خاطري. وما أن انتهيت من ارتداء ملابسي حتى دخل فاسين مسرعاً، فتناول أعواد الثقاب في لحظة واحدة بيد تعرف المكان، وأنار الغرفة. وكان يلبس قميصاً وثوباً للمنزل وخفين، فأخذ يرتدي ثيابه فوراً.

Twitter: @ketab_n

هتفت أسأله:

- ماذا حدث؟

فقال بما يشبه الغضب:

- قصة مزعجة مربكة! إن الجارة الشابة التي حدثتني عنها بالأمس قد شنقت نفسها في غرفتها.

فانطقلت من صدري صرخة. لن أستطيع أن أصف الألم الشديد الذي اعتراني! وهرعنا إلى الدهليز. أعترف أنني لم أجرؤ أن أدخل غرفة الجارتين. ولم أر الفتاة المسكينة إلا فيما بعد حين فكوها. بل لم أنظر إليها إلا من بعيد. كانت مغطاة بشرشف برز تحته نعلا حذاءيها الضيقان. لم أنظر إلى وجهها. كانت الأم في حالة فظيعة مخيفة. وكانت معها المؤجرة التي لم ألاحظ فيها كثيراً من الارتياع. وكان المستأجرون قد تجمعوا في هذه الغرفة. ولم يكن عددهم كبيراً: بحار عجوز دائم التذمر متشدد في مطالبه، لكنه اليوم هادىء كل الهدوء، وعجوزان - زوج وامرأته - قدما من إقليم «تفير»، وهما شخصان محترمان من رتبة معينة. لن أصف بقية تلك الليلة، ولا الذهاب والإياب، ولا الزيارات الرسمية. لقد ظللت إلى مطلع الصبح ارتعش ارتعاشاً سريعاً من شدة الاضطراب، ورأيت أن من واجبي أن لا أرقد، رغم أنني لا أقوم بأي عمل. وكانت وجوه الجميع تعبر عن يقظة شديدة على كل حال، بل كانت تعبر عن همة ونشاط. أما فاسين فقد ذهب حتى إلى مكان ما. وبرهنت المؤجرة على أنها في هذه الأحوال امرأة ذات شهامة، على غير ما كنت أظنّ. وقد أقنعتها (وذلك أمر شعرت منه بفخر) بأنه لا يجوز أن تترك الأم وحيدة مع جثمان ابنتها، وبأن عليها أن تنقلها إلى غرفتها حتى الغد على الأقل. فوافقت فوراً على رأيي. ورغم أن الأم أخذت تتخبط وتبكي رافضة أن تترك جثمان ابنتها، فقد رضيت

Twitter: @ketab_n

أن تذهب إلى غرفة المؤجرة أخيراً، ولم تلبث المؤجرة أن سارعت تأمر بإشعال السماور. وتفرق المستأجرون بعد ذلك ذاهبين إلى غرفهم وأقفلوا أبوابهم بالمفاتيح. ولكنني لم أشأ أن أرقد بحال من الأحوال، وظللت عند المؤجرة طوال الليل، فسرت المؤجرة بأن يكون في غرفتها شخص آخر، وأن يكون هذا الشخص عدا ذلك قادراً على أن يحدثها في الأمر. وكان السماور نعم الجليس. وعلى وجه العموم السماور في روسيا ضرورة لازمة جداً، وخاصة في جميع الكوارث والنوازل، ولا سيما ما كان منها فظيعاً مفاجئاً شاذاً. . فحتى الأم شربت فنجانين من الشاي، ولكن بعد أنواع من التوسل والتضرع طبعاً، حتى لكأننا أجبرناها على الشرب إجباراً. والحق أنني لم أر في حياتي كرباً أقسى من كرب هذه الأم المسكينة ولا يأساً أوضح من يأسها. وقد طاب لها بعد الانتحاب الشديد والصراخ المسعور أن تأخذ في الكلام عما جرى لابنتها، فأصغيت إلى قصتها بنهم قوي. إن بين التعساء الذين نزلت بهم المصائب، ولا سيما النساء منهم، أناساً يجب عليك في مثل هذه الحالة أن تدعهم يتكلمون ما شاءوا أن يتكلموا. وعدا ذلك فهناك نفوس حرثتها أنواع الشقاء والمحن والأحزان حرثاً إن صح التعبير، واصطبرت طول حياتها وعانت آلاماً ضخمة وآلاماً تافهة لا نهاية لها، فلا شيء يدهشها بعد ذلك، ولو كانت كوارث مفاجئة، ولا شيء ينسيها قاعدة من قواعد فن الكياسة والتماس المودة والشفقة التي كلفها استيعابها غالياً، ولو كان منظر جثمان أعز مخلوق لديها. ولست أحكم على هؤلاء الناس. فليس مصدر هذا عندهم أنانية مبتذلة ولا تربية فجة. بل لعل في هذه القلوب من صفاء الذهن ما ليس في قلوب أبطال لهم من النبل أعظم مظهر؛ ولكن التعود الطويل على المذلة، وغريزة البقاء، واستمرار ما يعانون من الخوف والاضطهاد، قد غلبهم على أمرهم

Twitter: @ketab_n

أخيراً. فمن هذه الناحية كانت المنتحرة المسكينة لا تشبه أمها. ولكنهما متشابهتان في ملامح الوجه تشابهاً تاماً، وإن تكن الفتاة المرحومة جميلة حقاً. إن الأم لم تطعن في السن، فهي في نحو الخمسين من عمرها؛ وكانت شقراء هي أيضاً، ولكن عينيها غائرتان وخديها خاسفان وأسنانها كبيرة صفراء متفاوتة. وكل ما فيها يميل إلى الاصفرار: فجلد الوجه واليدين أشبه بالرق؛ وفستانها القاتم قد اصفر من فرط قدمه؛ وظفر السبابة من اليد اليمنى كان مدهوناً بشمع أصفر لا أدري لماذا.

ولقد كانت القصة التي روتها المرأة المسكينة مشوشة في بعض الأحيان. وسوف أروي لكم الآن ما فهمته وما أتذكره.

- 5 -

لقد جاءتا من موسكو. وهي أرملة منذ مدة طويلة، ولكنها أرملة «مستشار». كان زوجها موظفاً، ولم يترك لها شيئاً، «إلا مائتي روبل هي راتب المعاش، ولكن ما قيمة مائتي روبل؟» ومع ذلك ربت أوليا، وأرسلتها إلى المدرسة الثانوية.. «وما كان ألمعها في الدراسة، ما كان ألمعها! لقد نالت عند تخرجها من المدرسة ميدالية فضية...» (هنا ذرفت المرأة دموعاً غزيرة بطبيعة الحال.) وكان زوجها قد خسر عند تاجر من بطرسبرج مبلغاً يساوي قرابة أربعة آلاف روبل. وفجأة استرد التاجر ثراءه. «لديّ أوراق، واستنصحت، فقيل لي: طالبي بالدين، وستقبضين المبلغ حتماً..» ففعلت ذلك، فأخذ التاجر يوافق. فقيل لي: اذهبي إليه بنفسك. فحزمنا أمتعتنا، أنا وأوليا، وجئنا إلى بطرسبرج، ونحن فيها منذ شهر. وكنا نملك قليلاً من المال. واستأجرنا هذه الغرفة لأنها أصغر الغرف، ولكنها في بيت شريف. لاحظنا هذا بأعيننا، وهو الشيء الهام في نظرنا: فإننا ونحن امرأتان بغير خبرة يمكن

Twitter: @ketab_n

أن يسيء إلينا الناس وأن ينالونا بأذى. ودفعنا لك أجرة شهر سلفاً. ولكن المعيشة في بطرسبرج باهظة التكاليف. ورفض التاجر أن يدفع لنا حقنا. قال: «أنا لا أعرفكما ولا أريد أن أعرفكما»، وكانت الأوراق التي بيدي غير كافية. أدركت ذلك بنفسي. ونصحوني بأن أستشير محامياً شهيراً. كان المحامي الذي نصحوني باستشارته أستاذاً. لم يكن محامياً عادياً بل كان من رجال التشريع، فلا بد أن يقول لي ما الذي يجب عليّ أن أعمله. ذهبت إليه حاملة له آخر ما نملك، خمسة عشر روبلاً. لم يصغ إلي كلامي ثلاث دقائق. وقاطعني يقول: «فهمت، فهمت. أعرف. إذا أراد التاجر أن يدفع دفع، وإذا لم يشأ أن يدفع فلن يدفع. وإذا أقمت دعوى، فقد يحكم عليك بدفع النفقات. فالأفضل أن تحلي المسألة معه صلحاً»، حتى لقد زج في كلامه آيات من الإنجيل مازحاً متهكماً: «كن مراضياً لخصمك ما دمت معه في الطريق، حتى توفي الفلس الأخير»[55]. وشيعني ضاحكاً. هكذا ضيعت خمسة عشر روبلاً! رجعت إلى أوليا. وجلست كل منا أمام الأخرى. وكنت أبكي. . أما هي فإنها لم تبك. بل بقيت ساكنة، شامخة، متألمة. هكذا كان شأنها طول حياتها. لا «آه» و«أوه»! لا تذرف دمعة. وتظل عيناها قاسيتين. وكنت إذا رأيتها على هذه الحال تسري في ظهري رعدة. صدقني إذا أردت أن تصدق: كنت أخاف منها، أخاف منها حقاً، منذ مدة طويلة. وكنت أشتهي في بعض الأحيان أن أتشكى، ولكنني لا أجرؤ أن أتشكى أمامها. عدت إلى التاجر مرة أخيرة، وذرفت دموعاً غزيرة. فلم يزد على أن قال لي: «طيب»، حتى دون أن يصغي إلى كلامي. يجب أن أذكر لكما أننا كنا لا ننوي أن نمكث مدة طويلة، لذلك نفد كل ما كان معنا. رهنت جميع أثوابي واحداً بعد واحد، فكنا نعيش مما نقترض. ونفدت ثيابنا كلها. فأعطتني آخر قميص عندها.

Twitter: @ketab_n

فذرفت دمعة مريرة. وقرعت بقدمها الأرض من شدة غضبها، وهرعت تذهب إلى التاجر بنفسها. إنه رجل أرمل. فكلمها هكذا: «تعالي غداة غد في الساعة الخامسة، فقد يكون عندي ما أقوله لك». فرجعت إلى البيت فرحة جذلى. وأبلغتني ما قاله لها: «سيكون عندي ما أقوله لك». فسررت أنا أيضاً. ولكن شعرت في الوقت نفسه بثقل يجثم على صدري. قلت لنفسي: سوف يحدث شيء! ولكن هل كنت أجرؤ أن أفاتحها بما يساورني؟ وفي غداة الغد رجعت من عند التاجر شاحبة شحوباً شديداً، مرتعشة ارتعاشاً قوياً، وارتمت على السرير. ففهمت كل شيء، ولم أجرؤ حتى أن أسألها عما حدث. هل يمكنك أن تصدق ما وقع؟ لقد أخرج لها هذا اللص الحقير خمسة عشر روبلاً، وقال: «إذا وجدتك عذراء زدت المبلغ أربعين روبلاً». قال لها هذا، في وجهها، دون خجل. فما كان منها إلا أن هجمت عليه - فيما روت لي - ولكنه دفعها عنه برجله، ومضى إلى غرفة أخرى أقفل عليه بابها بالمفتاح. وإني لأعترف لكما صادقة أننا كنا مع ذلك لا نكاد نملك ما نقتات به. وأخذنا صديرة مبطنة بجلد أرنب فبعناها. ثم ذهبت إلى الجريدة، ونشرت إعلانا تقول فيه: أعطي دروساً لجميع العلوم، وللحساب. وقالت لي: «سأقبل أن يدفع لي ثلاثون كوبيكاً». وأصبحت في النهاية، يا سيدتي، أرتاع حين أراها. أمست لا تقول لي شيئاً، بل تبقى جالسة قرب النافذة ساعات بكاملها تنظر إلى سطح المنزل المقابل، ثم تصرخ قائلة على حين فجأة: «لسوف أعمل غسالة، أو أعمل حفارة إذا لزم الأمر!» تقول ذلك ثم تقرع الأرض بقدمها. ذلك أننا ليس لنا أحداً يمكن أن نلتجئ إليه. كنت أفكر: «ما المصير الذي ينتظرنا؟» ولكن ما أزال أخاف أن أتحدث معها. ونامت مرة في وضح النهار، ثم إذا هي تستيقظ فجأة فتفتح عينيها وتنظر إليّ. وكنت أنا جالسة على الصندوق،

Twitter: @ketab_n

أنظر إليها أيضاً. فإذا هي تنهض دون أن تقول شيئاً، وتدنو مني، فتقبلني بقوة، بقوة، ثم تفقد كلتانا الصبر، فنأخذ نبكي، ونظل متعانقين لا تترك إحدانا الأخرى. لم يحدث لها هذا في حياتها إلا تلك المرة. وفيما نحن كذلك دخلت علينا خادمتك ناستاسيا وقالت: «هناك سيدة تسأل عنكم». حدث هذا منذ أربعة أيام. ودخلت تلك السيدة: إنها ترتدي ثياباً حسنة، وتتكلم الروسية، ولكن بلكنة ألمانية. قالت: «هل أعلنت في الجريدة أنك تعطين دروسا؟»، فاحتفينا بها، وأجلسناها، وكانت تضحك بلطف ومودة. وأضافت تقول: «لست أجيء من أجلي أنا، بل من أجل ابنة أخي التي لها أولاد صغار. فتعالي إلينا إذا شئت، وسنتفاهم». وأعطت عنوانها: شارع كذا، عمارة كذا، شقة كذا. إن العمارة تقع قرب جسر كوزنتسكي. وانصرفت. ذهبت أوليا إلى العنوان. بل سعت إليه في ذلك اليوم نفسه. ثم إذا هي تعود بعد ساعتين مصابة بنوبة عصبية رهيبة. وقد روت لي ما حدث لها فيما بعد فقالت: سألت البواب: «أين الشقة رقم كذا؟»، فنظر إليّ البواب وقال: «ما حاجتك إلى هذه الشقة؟» وكان في لهجته غرابة شديدة، حتى لتراود المرء ريبة من سماع هذه اللهجة وحدها. ولكن أوليا قوية الكبرياء، نافدة الصبر، فلا تستطيع أن تطيق الأسئلة الكثيرة والكلمات الفظة. فقال لها البواب مشيراً بإصبعه إلى السلم: «طيب. هي ذي الشقة فاذهبي إليها». وأدار لها ظهره وعاد إلى حجرته. فهل تتصورون ما الذي حدث؟ دخلت أوليا الشقة، وسألت، فسرعان ما هرعت نساء من جميع الجهات تقول لها: «أدخلي، ادخلي!»، وقد هرعن جميعاً ضاحكات، مبهرجات، مخضبات الوجوه بالأصباغ والمساحيق؛ نساء ساقطات يعشن على التقزز، نظرن إليها وجررنها جراً، وكان هناك من يعزف على البيانو. قالت لي أوليا: «أردت أن أهرب، ولكنهن لم يتركنني».

Twitter: @ketab_n

فخافت، وخارت ساقاها فلا تكادان تحملانها. والنساء ما يزلن ممسكات بها، يكلمنها بلطف ورقة، ويشجعنها. وفتحن زجاجة من خمرة بورتو يردن أن يسقينها. فانتفضت وأخذت تصرخ مرتعشة مرددة: «أتركنني، اتركنني!» وهجمت على الباب فأمسكنها، فأخذت تعول. وعندئذ وثبت الأخرى، تلك التي جاءت إلينا، فصفعت أوليا صفعتين، ودفعتها إلى الخارج وهي تقول لها: «أنت لا تستحقين يا قاذورة، أنت غير جديرة بسكنى بيت لائق!» وهتفت امرأة ثانية قائلة لها وهي تهبط على السلم: «أنت جئت تعرضين نفسك، لأنك ليس في بيتك طعام تسدين به رمقك، وإلا لما رضينا أن ننظر إليك وأنت على ما أنت عليه من هذه الدمامة كلها!» وقد قضت ليلتها في حمى وهذيان. وفي الصباح كانت عيناها تسطعان. نهضت وقالت: «سأرفع دعوى عليها!». ولم أقل شيئاً، ولكني فكرت بيني وبين نفسي: «كيف تمكن الشكوى؟ أين الأدلة؟» وأخذت أوليا تسير في الغرفة طولاً وعرضاً، وتلوي يديها؛ وأخذت الدموع تسيل من عينيها، ولكنها تكز أسنانها متجلدة مكابرة. وقد صار وجهها بلون التراب منذ تلك اللحظة، وظلت على هذه الحال طوال اليوم. وتحسنت في غداة الغد، وسكتت عن الكلام، وكأنها هدأت. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من ذلك اليوم إنما جاء السيد فرسيلوف.

أقول بصراحة: إنني ما زلت غير قادرة على أن أفهم كيف أمكن أن تصغي أوليا إليه من أول كلمة وهي على ما عليه من شدة الارتياب؟ والحق أن ما جذبنا كلتينا إليه هو هيئته الجادة الرصينة، بل القاسية، وكذلك أسلوبه في الكلام وهو أسلوب رقيق، مهذب، لا مهذب فحسب، بل فيه توقير واحترام أيضاً، بدون أي تملق مع ذلك: إن المرء يحس أن كلامه نابع من قلبه. قال: «قرأت إعلانك في الجريدة. وأرى

Twitter: @ketab_n

أنك لم تحسني كتابته، وذلك قد يسيء إليك». ثم ذكر بعد ذلك شيئاً لم أفهمه، شيئاً عن الحساب. ولكنني رأيت أوليا تحمر وتنتعش وتنصت إلى كلامه وتدخل في الحديث بسرور (فلا بد أنه رجل ذكي جداً!)، حتى لقد سمعتها تشكره. وألقى عليها عدداً من الأسئلة. وعرفت أنه كان يقيم بموسكو فترات طويلة، وأنه يعرف مدير المدرسة معرفة شخصية. وأضاف يقول: «سوف أجد لك دروساً، لأنني أعرف كثيراً من الناس هنا، بل أستطيع أن أوصي بك أشخاصاً لهم نفوذ كبير. بل، إذا شئت الحصول على وظيفة ثابتة فأظنه أمراً ممكناً... ولكن اسمحي لي، بانتظار أن يتحقق ذلك، أن ألقي عليك سؤالاً صريحاً بغير لف ولا دوران: ألا أستطيع أن أساعدك في شيء على الفور؟ وثقي بأنك أنت التي تحسنين إليّ إذا أتحت لي أن أساعدك، فيكون عليّ أنا أن أشكر لك صنيعك. والأمر بسيط: سوف تردين إليّ المساعدة متى حصلت على الوظيفة. وأقسم لك بشرفي أنني من جهتي إذا وقعت يوماً في ضائقة كالضائقة التي تعانين منها، فلن أخجل من أن أطلب مساعدتك، إذا كنت ميسورة الحال ولسوف أرسل إليك عندئذ زوجتي وابنتي»... لن أروي لكما كل حالة، وحسبي أن أذكر أنني ذرفت دمعة حين رأيت شفتي أوليا تختلجان شكراً وعرفاناً بالجميل. ولقد أجابته هكذا: «إذا قبلت مساعدتك، فإنما أقبلها لثقتي برجل شريف مستقيم إنساني يمكن أن يكون بمثابة أبي»... لقد عبرت عما في ذهنها بكلام يبلغ هذا المبلغ من الحسن والإيجاز والنبل: «رجل إنساني». فما كان منه إلا أن نهض فوراً وهو يقول: «سأجد لك دروساً ووظيفة، حتماً؛ سأهتم بهذا الأمر منذ اليوم، لا سيما وأنك حاصلة على شهادات كافية»... ولكنني نسيت أن أقول لكما أنه منذ دخل قد دقق في شهادات المدرسة لأنها أرته إياها، وأنه سألها في موضوعات كثيرة... وقد قالت لي أوليا بعد

Twitter: @ketab_n

انصرافه: «هل تعرفين يا ماما أنه امتحنني امتحاناً. . . ما أذكاه! ما أمتع الحديث مع رجل في مثل علمه وثقافته». . . كان وجهها يشع فرحاً. وكان على الطاولة ستون روبلاً. قالت لي: «خُذيها يا ماما. حين نحصل على وظيفة. نرد إليه القرض في أقرب وقت. سوف نبرهن على أننا أناس شرفاء، وأن لنا شعوراً مرهفاً وإحساساً رقيقاً، ولقد لاحظ هو ذلك طبعاً». ثم صمتت. ورأيت أنها تتنفس تنفساً عميقاً. وقالت لي بعد برهة: «لو كنا أناس أفظاظاً يا ماما، لرفضنا مساعدته كبرياء وأنفة ولكننا بقبولنا هذه المساعدة برهنا على رقة شعورنا، وعلى أننا نثق به رجلاً جديراً بالاحترام، شائب الشعر، أليس كذلك؟» فلم أفهم في أول الأمر شيئاً، وقلت: «ولكن علام نرفض مساعدة رجل نبيل غني يا أوليا، إذا هو فوق ذلك طيب القلب؟» فقطبت حاجبيها وقالت: «لا يا ماما، ليس هذا هو الأمر، ليس الأمر أمر مساعدة بل الأمر «روح إنسانية». أما المال فلعله كان ينبغي أن لا نأخذه. ألم يعد بأن يجد لي وظيفة؟ كان هذا يكفي. . . رغم شدة حاجتنا إلى المال». قلت «كفاك يا أوليا، ما نحن في حال تسمح لنا بالرفض»، حتى لقد ضحكت وأنا أقول لها هذا الكلام. كنت بيني وبين نفسي مسرورة. ولكن ها هي ذي أوليا تعود إلى الموضوع بعد ساعة قائلة: «تريثي يا ماما. لا تنفقي من هذا المال شيئاً». قالت ذلك بلهجة قاطعة. فسألتها: «لماذا؟»، قالت: «نعم يا ماما، تريثي». ثم لم تنطق بعد ذلك بشيء. وإنما ظلت مساءها كله صامتة. حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، استيقظت فسمعت أوليا تتقلب على سريرها وتسألني: «ألست نائمة يا ماما؟»، فأجبتها: «لا»، فقالت: «هل تعلمين؟ لقد أراد أن يهينني». قلت: «- ما هذا الكلام؟». قالت: «حتماً، حتماً، إنه رجل دنيء. إياك أن تنفقي كوبيكاً واحداً من ماله». وهممت أن أجيبها، حتى لقد بدأت أبكي على

Twitter: @ketab_n

سريري، ولكنها انقلبت إلى جهة الحائط قائلة لي: «لا تجيبيني، دعيني أنام!» ونظرت إليها في الصباح، فلم أتعرفها من فرط تغيرها. صدقا أو لا تصدقا، لكنني أحلف لكما أمام الله أنها قد جنت! إنها منذ عوملت تلك المعاملة في ذلك البيت الساقط القذر، قد اختل قلبها. . . واختل عقلها أيضاً. نظرت إليها في ذلك الصباح، فاستبدت بي الحيرة واستبد بي الخوف. قلت لنفسي: «يجب أن لا أعارضها في شيء». قالت: «إنه يا ماما، لم يترك عنوانه». فقلت: «أنت على خطأ يا أوليا. لقد سمعت حديثه أمس، فأثنيت عليه، ثم أوشكت أن تذرفي دموع الشكر والعرفان بالجميل». ما إن قلت هذا حتى أخذت تصرخ، وتضرب الأرض بقدمها قائلة لي: «ليس في قلبك إلا عواطف ذل! هي تربية عهد العبودية، القديمة!». . . ورغم كل ما قلت لها لم تسمعني بل تناولت قبعتها، وهربت. وصحت أناديها على السلم. ثم تساءلت ماذا دهاها؟ إلى أين هربت؟ لقد ذهبت إلى مكتب العناوين، لتعرف أين يسكن السيد فرسيلوف. وقالت لي حين عادت: «في هذا اليوم نفسه سأرد إليه ماله، سأرمي ماله في وجهه. لقد أراد أن يهينني، كما فعل سافرونوف (التاجر)، ولا فرق بينهما إلا في أن سافرونوف فعل ما فعله بفظاظة فلاح، أما هو فبمكر واحتيال». ولسوء الحظ، في تلك اللحظة نفسها نقر على الباب ذلك السيد الذي جاءنا أمس، وقال: سمعتكما تتكلمان عن فرسيلوف، فأستطيع أن أزودكما بأنبائه». فما أن سمعت اسم فرسيلوف حتى وثبت إلى الرجل مستعرة الغضب. وأخذت تتكلم، وتتكلم. فكنت أنظر إليها فلا أصدق عيني. عهدي بها شديدة الصمت، ما رأيتها في حياتها تتدفق في الكلام هذا التدفق، فكيف تندفع الآن في الحديث هذا الاندفاع، ولا سيما مع رجل لا تعرفه؟ وكان خداها حمراوين، وكانت عيناها تسطعان. . . قال الرجل لها: «إنك على حق

Twitter: @ketab_n

يا آنسة. إن فرسيلوف يشبه كل الشبه أولئك الجنرالات الذين يوصفون في الصحف. يتزين واحدهم بجميع أوسمته، ويسعى إلى المربيات اللواتي ينشرن إعلانات في الجرائد، يسعى ويجد مطلبه. وإذا لم يجده يتكلم، ويبذل الوعود البراقة، ثم يرجع من حيث أتى! يكون قد تسلى على الأقل». حتى أوليا ضحكت، ولكن ضحكها كان مغتاظاً عجيباً. وتناول ذلك السيد يدها وحملها إلى قلبه قائلاً: «أنا أيضاً أملك ثروة في إمكاني دائماً أن أعرضها على فتاة جميلة. ولكن حسبي في أول الأمر أن أقبل يدها»... ورأيت أنه يجذب يدها ليقبلها، فوثبت أوليا، ووثبت أنا معها في هذه المرة، وتعاونا كلتينا على طرده. وفي المساء اختطفت أوليا المال مني وخرجت مسرعة، ثم رجعت وقالت لي: «ماما، انتقمت من ذلك الرجل الحقير!» قلت لها: «أوليا، من يدري أننا لم ندمر سعادتنا بأيدينا، من يدري أنك لم تهيني رجلاً شريفاً محسناً!» وبكيت ألماً وحسرة. لم أستطع أن أسيطر على نفسي. فإذا هي تصرخ قائلة: «لا أريد، لا أريد! هبيه أشرف إنسان في العالم. لا أريد صدقاته! لا أريد أن يشفق عليّ أحد!» ورقدت خالية البال من أية فكرة. لم يدر في خلدي شيء. لطالما نظرت إليه، هذا المسمار المدقوق في الجدار من بقايا مرآة، فلم يخطر في ذهني شيء، لا أمس، ولا قبله، ولا في يوم من الأيام. لم أُقَدّر أن يحدث حادث. لا سيما وأنني كنت لا أتوقع هذا من عزيزتي أوليا. ومن عادتي أنني أنام نوماً ثقيلاً، وأشخر؛ إنه الدم يصعد إلى رأسي. وقد ينزل الدم إلى قلبي فأصرخ في نومي، توقظني أوليا في الليل وتقول لي: «ما هذا يا ماما؟ إنك تنامين نوماً يبلغ من الثقل أنه يصعب إيقاظك عند الحاجة». فأقول لها: «آ... نعم نعم يا صغيرتي أوليا، إن نومي ثقيل، ثقيل جداً». ولا بد إذن أنني كنت في هذه الليلة أشخر ذلك الشخير. وهذا ما كانت تنتظره أوليا:

Twitter: @ketab_n

فنهضت دون أن تخشى شيئاً. وكان عندنا سير طويل نحزم به حقيبتنا، وكان السير ملقى في الغرفة ظاهراً للعيان طول هذا الشهر. ولقد حدثت نفسي صباح أمس قائلة: إن عليّ أن أضعه في مكان، فليس يليق أن يبقى ملقى في الغرفة هكذا! أما الكرسي فلا بد أنها دفعته بقدمها؛ ومن أجل أن لا تحدث ضجة وضعت تحته تنورتها. ولا شك أنني لم أستيقظ إلا بعد مدة طويلة، بعد ساعة أو أكثر. فناديتها. «أوليا! أوليا! أوليا!» لكأن نوعاً من رؤيا قد وافاني فناديتها. وإما لأنني لم أسمع تنفسها في السرير، وإما لأن سريرها بدا لي في الظلام خالياً، فقد رأيتني أثب دفعة واحدة وأمد ذراعي أتلمس السرير: لم يكن في السرير أحد، وكانت المخدة باردة. عندئذ انقبض قلبي، وتجمدت في مكاني كأنني تمثال من حجر، واضطرب عقلي. قلت لنفسي: «لا بد أنها خرجت». ثم لاح لي بقرب السرير، في الزاوية، أمام الباب، أنني أراها واقفة. فنظرت إليها دون أن أقول كلمة، ونظرت إليّ هي أيضاً في الظلام دون أن تتحرك... وفكرت: «لماذا هي واقفة على الكرسي؟» وقلت لها خائفة بصوت خافت جداً: «أوليا، أوليا، هل تسمعينني؟» عندئذ اتضح لي كل شيء فجأة. فتقدمت خطوة إلى أمام، ومددت ذراعي نحوها، وطوقتها. فكانت تترجح بين يدي. وأمسكتها فظلت تترجح. أدركت كل شيء. ولم أشأ أن أدرك... وأردت أن أصرخ ولكن صوتي لم يخرج... تأوهت في داخلي: آه... وهويت على الأرض، وعندئذ صرخت...

قلت لفاسين في الصباح، بين الساعة الخامسة والساعة السادسة:

– لولا صاحبك ستيبلكوف يا فاسين، كان يمكن أن لا يحدث شيء مما حدث.

– ما يدريك؟ بل كان سيحدث حتماً. لا يجوز للمرء أن يحكم في

Twitter: @ketab_n

الأمور على هذا النحو. لقد كان كل شيء يسير إلى هذه الخاتمة... صحيح أن ستيبلكوف هذا، في بعض الأحيان...

ولم يكمل فاسين جملته، وقطب حاجبيه ممتعضاً؛ وانصرف بعد الساعة السادسة ليهتم بتدبير الأمور. فخلوت أخيراً إلى نفسي. لقد طلع النهار. وكنت أشعر بشيء من دوار. ووافتني صورة فرسيلوف: إن القصة التي روتها عنه السيدة تظهره في ضوء جديد. ومن أجل أن أفكر في الأمر على مهل، استلقيت على سرير فاسين بملابسي وحذائي لحظة، وليس في نيتي أن أنام أبداً. لكنني لم ألبث أن نمت، لا أذكر كيف تم هذا. نمت قرابة أربع ساعات. ولم يوقظني أحد.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

– 1 –

استيقظت في نحو الساعة العاشرة والنصف، فلبثت مدة لا أصدق عيني: فعلى الديوان الذي نمت عليه في الليلة البارحة كانت تجلس أمي، وبجانبها الجارة المسكينة، أم المنتحرة. وكانت الاثنتان قد أمسكت كل منهما يد الأخرى، وراحتا تتحدثان بصوت خافت حتى لا توقظاني طبعاً، وكانتا كلتاهما تبكيان. نهضت ووثبت لأقبل أمي، فأشرق وجهها وقبلتني، ورسمت عليَّ إشارة الصليب بيدها اليمنى ثلاث مرات. فدخل فرسيلوف وفاسين. نهضت أمي فوراً وخرجت بصحبة الجارة. مدّ إليَّ فاسين يده. ولم يخاطبني فرسيلوف بكلمة، بل تهالك على المقعد. أغلب الظن أنه جاء إلى هنا هو وأمي منذ وقت. وكان وجهه مشدوداً، وكانت هيئته تنم عن هم وقلق.

ولا شك أنه كان قد بدأ حديثاً مع فاسين، فها هو ذا يكمل حديثه قائلاً له بصوت واضح جداً:

– إن ما آسف له أكثر من كل شيء آخر هو أنني لم أستطع أن أعالج هذا الأمر كله مساء أمس. ولولا ذلك لما وقعت هذه الحادثة الرهيبة! كان في الوقت متسع. لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد. وما إن خرجت من عندنا هاربة حتى قررت بيني وبين نفسي أن أدركها هنا، فأبدد ما قام في

Twitter: @ketab_n

ذهنها من فهم خطأ. ولكن تلك القضية المستعجلة التي لم تكن في الحسبان، والتي كان يمكنني مع ذلك أن أرجئها إلى اليوم... بل كان يمكنني أن أرجئها أسبوعاً... تلك القضية المزعجة هي التي حالت بيني وبين اللحاق بالفتاة إلى هنا، فأفسدت كل شيء. أمور تحدث!

فقال فاسين معترضاً:

- لعلك ما كنت لتستطيع أن تقنعها. إن أحقاداً مريرة كثيرة كانت قد تجمعت في نفسها قبل أن تلقاها.

- بل كنت سأفلح في إقناعها. كنت سأفلح حتما. وكانت في ذهني فكرة أخرى، هي أن أرسل إليها صوفيا آندرييفنا نيابة عني. لقد خطرت هذه الفكرة ببالي، ولكنها لم تستقر فيه. كان يمكن أن تفلح صوفيا آندرييفنا، فلو نفذنا هذه الفكرة لأمكن أن تكون المسكينة حية الآن. لا، لا! لن أقحم نفسي بعد اليوم في... «أعمال خير»... ها قد جربت فكان مسعاي وبالاً! ما كان أغباني حين ظننت أنني ما أزال من أبناء هذا العصر، وأنني أفهم طبيعة الشباب في هذا الزمان! نعم، إن جيلنا قد شاخ حتى قبل أن ينضج. بالمناسبة: إن عدداً هائلاً من الناس لا يزالون بحكم العادة يظنون أنفسهم من جيل الشباب لأنهم كانوا حتى الأمس ينتمون إلى جيل الشباب، ولا يدركون أنهم قد أُقصوا ونُحُّوا.

قال فاسين بتعقل وحكمة:

- وقع هنا خطأ واضح في فهم المسألة. إن أم الفتاة تعترف بأن ابنتها، بعد الحادث الذي وقع لها في بيت المومسات، قد أصبحت كمن فقد عقله. أضف إلى ذلك الظروف القاسية، والإهانة الأولى التي ألحقها بها التاجر... إن هذا كله يمكن أن يحدث في الماضي على هذا النحو نفسه، وليس هو في رأيي صفةً تتميز بها شبيبة هذا العصر.

- إن شبيبة هذا الزمان نافدة الصبر قليلاً، ناهيك طبعاً عما تتصف به

Twitter: @ketab_n

الشبيبة في جميع الأزمنة من ضعف إدراك الواقع، ولا سيما شبيبة الزمان الحاضر. . . قل لي: ماذا لفق السيد ستيبلكوف هنا؟

فانبريت أتدخل في الحديث فجأة فقلت:

- إن السيد ستيبلكوف هو سبب البلاء كله. فلولاه لما حدث شيء. لقد صبَّ على النار زيتا.

فأصغى فرسيلوف، ولكنه لم ينظر إليّ. وقطب فاسين حاجبيه. ثم استأنف فرسيلوف كلامه فقال ماطاً كلماته بدون تعجل:

- هناك شيء آخر سخيف ألوم نفسي عليه. يخيل إليَّ أنني بحكم عادة سيئة مستحكمة قد أبحت لنفسي شيئاً من المرح معها، فضحكت ضحكة خفيفة، أي أنني لم أكن قاطعاً وجافاً وجهماً بالقدر الكافي، وهذه صفات ثلاث أظن أن الجيل الجديد يقدّرها قدراً كبيراً. لعلني أتحت لها أن تحسبني سبلادون متجولا[56].

فعدت أقاطعه مرة أخرى قائلاً بعنف:

- بالعكس: إن الأم تؤكد أنك أحدثت في نفسها أثراً حسناً رائعاً، وأن الفضل في هذا الأثر إنما يرجع إلى ما كان فيك من جدٍ بل من قسوة، وما كان فيك من صدق. هذه أقوالها هي نفسها. إن الفتاة الراحلة قد أثنت عليك بعد انصرافك ثناء يحمل هذا المعنى ذاته.

فتمتم فرسيلوف وهو يلقي عليَّ أخيراً نظرة سريعة خاطفة:

- هـ. . . كذا؟

ثم أضاف قائلاً لفاسين وهو يمد إليه ورقة صغيرة.

- خذ إذاً هذه الورقة، فلا بد منها للقضية.

فتناول فاسين الورقة؛ وإذ رأى أنني أنظر إليها مستطلعاً، أعطانيها لأقرأها. إنها بطاقة كتب فيها سطران مضطربان كُتبا خربشةً بالقلم الرصاص، وأغلب الظن أنهما كتبتا في الظلام: «ماما، ماما العزيزة، اغفري

Twitter: @ketab_n

لي أنني قد رسبت في مطلع الحياة: ابنتك أوليا التي أورثتك آلاماً».

قال فاسين شارحاً:

- وُجدت البطاقة في هذا الصباح.

فهتفت أقول مندهشاً:

- يا لها من رسالة غريبة!

فسألني فاسين:

- غريبة؟ لماذا؟

- هل يستطيع المرء، في لحظة كتلك اللحظة، أن يكتب بهذا الأسلوب الهزلي؟

فنظر إليَّ فاسين مستفهماً. فتابعت كلامي أقول:

- هذا الهزل نفسه غريب. إنه من اللغة التي يتخاطب بها تلاميذ المدرسة... من ذا الذي يستطيع، في مثل تلك اللحظة، وفي رسالة لأمه الشقية، التي يحبها هذا الحب الذي نراه واضحاً في الرسالة نفسها، - أن يكتب: «رسبت في مطلع الحياة»؟

فسألني فاسين وهو لا يزال لا يفهم: - لماذا؟

وقال فرسيلوف أخيراً:

- ليس ههنا أي هزل. قد يكون التعبير غير مناسب، قد يكون ناشزاً، قد يكون من بقايا اللغة التي يتخاطب بها التلاميذ في المدرسة أو الرفاق فيما بينهم كما تقول، أو قد يكون مستمداً من المقالات الساخرة في الجرائد، ولكن لا شك في أن الفتاة المرحومة حين استعملته لم تلاحظ أنها تستعمل لهجة فيها هزل، وإنما هي استعملته في هذه الرسالة الفظيعة بسذاجة تامة وجد كامل.

- مستحيل. لقد أنهت دراستها، وحصلت عند تخرجها على ميدالية فضية.

Twitter: @ketab_n

قال فرسيلوف:

- لا شأن للميدالية الفضية في هذا. كثيرون من ينهون دراستهم في هذا الزمان على هذا النحو.

فقال فاسين مبتسماً:

- تتهجم على الشبيبة من جديد!

فأجابه فرسيلوف وهو ينهض ويتناول قبعته:

- لا، أبداً.

ثم أضاف يقول بجد غير معهود فيه:

- لئن كان الجيل الحالي أقل معرفة بالأدب، فمما لا شك فيه . . . أن له مزايا أخرى. ثم إن قولي «كثيرون» لا يعني «الجميع». فأنت مثلاً لا يمكنني أن أتهمك بأن ثقافتك الأدبية ناقصة، ومع ذلك فأنت لا تزال شاباً.

فلم أستطع أن أمنع نفسي عن أن أقول:

- ولكن فاسين لا يعد هذا «الرسوب» سوءاً!

مدَّ فرسيلوف يده إلى فاسين صامتاً. وتناول فاسين كسكيتته ليخرج معه قائلاً لي «إلى اللقاء». وخرج فرسيلوف دون أن يوليني انتباها. وكنت أنا أيضاً على عجلة من أمري، لا أملك من الوقت ما أستطيع أن أضيعه سدى: كان عليَّ أن أسعى باحثاً لنفسي عن مسكن يؤويني. إن حاجتي إلى هذا أقوى منها في أي وقت مضى! وكانت أمي قد انصرفت مصطحبة الجارة. فلما خرجت إلى الشارع وجدتني مشرق المزاج . . . إن إحساساً جديداً رحباً قد نبت في نفسي. وشاءت المصادفة أن ينجح مسعاي. فسرعان ما وقعت على مسكن مناسب. سوف أعود إلى هذا من بعد. أما الآن فلأفرغ من الشيء الأساسي.

حين عدت إلى بيت فاسين لأخذ حقيبتي لم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة كثيراً. وكان فاسين في البيت فما أن رآني حتى هتف يقول لي

Twitter: @ketab_n

جذل الهيئة صادق النبرة:

- كم يسعدني أنك وجدتني! كنت على وشك أن أخرج. هناك حادث يجب أن أنقله إليك، وأنا على يقين من أنه سيهمك كثيراً.

فهتفت أقول:

- أنا على يقين من ذلك سلفاً!

- هيه! ما أشد هذه الخفة في هيئتك! قل لي: ألم تكن تعرف شيئاً عن رسالة كانت عند كرافت، ووقعت أمس بين يدي فرسيلوف، في أمر الميراث الذي آل إليه؟ إن كاتب الوصية قد عبر في هذه الرسالة عن إرادته بما يناقض حكم المحكمة. ويرجع تاريخ الرسالة إلى زمن بعيد. الخلاصة أنني لا أعرف ماذا تتضمن الرسالة على وجه الدقة، ولكن ألا تعرف أنت شيئاً عن ذلك؟

- أعرف، طبعاً. لقد اقتادني كرافت أمس الأول إلى بيته... من عند أولئك السادة، فأعطاني الرسالة. وأنا الذي سلمتها أمس إلى فرسيلوف.

- صحيح؟ ذلك ما قدرته. تصور أن القضية التي تكلم عنها فرسيلوف هنا منذ قليل، والتي حالت بينه وبين اللحاق بالفتاة في مساء الأمس ليبدد ما وقع في وهمها من سوء الظن، إنما هي قضية أثارتها تلك الرسالة. لقد ذهب فرسيلوف إلى محامي الأمير سوكولسكي رأساً، في مساء الأمس، وأعطاه الرسالة وتنازل عن كل الميراث الذي كسبه. وقد اكتسب هذا التنازل الآن صفة شرعية. فإن فرسيلوف لا يهب هبة، وإنما يعترف في صك التنازل بأن الميراث حق كامل للأمراء.

ذهلت. ولكنه أعجبني. الحق أنني كنت مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن فرسيلوف كان سيتلف هذه الرسالة التي تعرّض مصلحته للخطر، وأكثر من ذلك أنني قلت لكرافت: إن إتلاف الرسالة عمل غير شريف، حتى أنني كررت هذا القول لنفسي في المطعم، وأنني «جئت إلى إنسان نزيه

Twitter: @ketab_n

وليس إلى هذا الإنسان»، ولكنني كنت في قرارة نفسي أحس أن هذا الحل يفرض نفسه، وأنه طبيعي سواء كان الرجل شريفاً أم لا. وإذا أمكنني أن أتهم فرسيلوف فيما بعد، فإنما يكون ذلك مني تظاهراً، أي أنني كنت سأصدر الاتهام عامداً لأحتفظ بتفوقي على فرسيلوف. أما الآن، وقد علمت بالمأثرة التي قام بها، فقد أحسست بحماسة صادقة تامة. وأسفت لاستخفافي بالفضيلة وقلة اكتراثي بالواجب، وسرعان ما وضعت فرسيلوف في منزلة أعلى كثيراً من منزلتي. وأوشكت أن أقبّل فاسين. وهتفت أقول فيما يشبه الهذيان من النشوة:

- ما أعظمه من رجل! ما أعظمه من رجل! من ذا الذي كان يمكن أن يفعل ما فعله؟

قال فاسين:

- أعترف معك بأن كثيراً من الناس ما كانوا ليفعلوا ما فعل... وأن عمله عمل نزيه للغاية...

- «ولكن»؟ أكمل يا فاسين... هل عندك ما تعترض عليه؟

- طبعاً، عندي «ولكن». إن العمل الذي قام به فرسيلوف يشتمل في رأيي على تسرّع، ويشتمل على شيء من الزيف... قال فاسين ذلك وابتسم.

- الزيف؟

- نعم. لقد أراد بهذا أن يرفع قدر نفسه، بل كان كمن يبني لنفسه «نصباً» يرفعه. لقد كان في وسعه أن يقوم بهذا العمل نفسه دون أن يلحق بنفسه ضرراً. لقد كان في وسعه - والظروف هي ما عرفت من أن حكم القضاء صدر ومن أن الوثيقة ليس لها قيمة حاسمة - كان في وسعه أن يحتفظ لنفسه بنصف الميراث أو بجزء كبير منه في أقل تقدير، دون أن يعترض على ذلك أي وجدان مهما يكن شديد الإحساس. وهذا رأي

Twitter: @ketab_n

محامي الخصوم نفسه. لقد تحدثت مع المحامي منذ برهة. فلو فعل فرسيلوف ذلك لكان قد قام بعمل لا يقل جمالاً عن العمل الذي قام به. ولكنه فعل ما فعل حباً بالظهور ورغبة في المباهاة. لقد تحمس السيد فرسيلوف كثيراً وأسرف في التسرع. وقد قال هو نفسه منذ قليل إنه كان يستطيع أن يرجىء الأمر أسبوعاً...

- اسمع يا فاسين... لا يسعني إلا أن أوافق على أن ما تقوله سليم... ولكنني أفضل أن أرى الأمور تجري كما جرت!

- هذه مسألة ذوق. أنت الذي حرضتني على الكلام. ولولا ذلك لصمتّ وما قلت شيئاً.

وتابعت كلامي فقلت:

- هب عمله نُصباً يرتقيه إعلاءً لقدر نفسه فإن هذا رغم ذلك أفضل. إن النصب، رغم كونه نصباً، فهو في حد ذاته شيء هام للغاية. إن هذا «النصب» هو «المثل الأعلى» ذاته. وإذا كانت بعض النفوس تخلو منه الآن فما أظن ذلك أفضل. وليكن مشوهاً بعض التشويه، ولكنني أفضل أن يوجد على أن لا يوجد! ولا شك أنك تفكر هذا التفكير نفسه صديقي فاسين، يا عزيزي فاسين! أنا أعرف أنني أسرف في الحماسة حتى لكأنني أهذي، ولكنك تفهم عني طبعاً، وإلا لم تكن فاسين. على كل حال، فإنني أعانقك وأقبلك يا فاسين!

- من شدة الفرح؟

- من شدة الفرح! ذلك أن هذا الرجل «كان ميتاً فبعث، وكان ضائعاً فرجع!»(57) أنا فتى سيئ يا فاسين، أنا لا أساويك. أعترف لك بذلك لأنني أشعر أحياناً بأنني أصبح إنساناً آخر، أسمى وأعمق في آن واحد. إنني بعد أن كلت لك المديح أمس الأول (وما مدحتك في الواقع إلا لأنني أذللت وسُحقت)، ظللت أكرهك يومين كاملين! وقد عاهدت

Twitter: @ketab_n

نفسي في تلك الليلة على أن لا أجيئك من بعد أبداً، لئن جئت إليك في صباح أمس، فإنني لم أفعل ذلك إلا من حنق، هل فهمت؟ من حنق! وحين جلست هنا على هذا الكرسي وحيداً، أخذت انتقد غرفتك، وانتقدك أنت نفسك، وانتقد كل كتاب من كتبك، وانتقد مؤجرتك، كنت أحاول أن أخفض قيمتك وأن أسخر منك. . .

- ما كان ينبغي أن تقول لي هذا. . .

- في مساء أمس، حين استنتجت من إحدى عباراتك أنك لا تفهم النساء، أسعدني كثيراً أنني استطعت أن أغلبك. ومنذ قليل، بمناسبة الكلام عن «الرسوب في مطلع الحياة»، سعدت مرة أخرى سعادة هائلة لأنني استطعت أن أخطّئك. وما ذلك كله إلا لأنني مدحتك في ذلك اليوم. . .

كان فاسين لا يزال يبتسم، دون أن يدهش أي دهش. وهتف يقول أخيراً:

- ولكن هذا أمر طبيعي! هذا ما يحدث دائماً، لجميع الناس تقريباً، بل هذا هو الشعور الأول الذي يشب في النفس. ولكن لا أحد يعترف به، ولا ينبغي الاعتراف به على كل حال، لأنه ينقضي ولا تترتب عليه أية نتيجة.

- يحدث لجميع الناس؟ هل هذا ممكن؟ هل جميع الناس على هذه الشاكلة؟ هل يمكن أن يعرف المرء هذه الحقيقة ثم يحافظ على هدوئه؟ بمثل هذه الأفكار، تصبح الحياة مستحيلة!

- فأنت إذن ترى ما يراه القائل:

لَوَهمٌ يسمو بالنفس
خير من ألف حقيقة دنيئة(58)

فهتف أقول:

- هذا صحيح كل الصحة. إن هذا البيت من الشعر يعبر عن بديهية مقدسة!

Twitter: @ketab_n

- لا أدري! لا أريد أن أجزم بأن هذا البيت من الشعر صادق أو كاذب. إن الحقيقة قائمة في مكان بالوسط. كذلك شأنها دائماً. فرب أمر واحد يكون حقيقة مقدسة تارة، ويكون كذباً سفيهاً تارة أخرى. غير أن هناك شيئاً أعلمه علم اليقين هو أن هذه الفكرة ستظل إحدى النقاط الهامة التي يثور حولها الجدال بين الناس. وإني لألاحظ على كل حال أن بك الآن رغبة في الرقص. فهيا ارقص! الرقص متعة ولكنني في هذا الصباح قد تلقيت ركاماً ضخماً من العمل... وأرى أنني تأخرت بسببك!

صحت أقول وأنا أمسك حقيبتي:

- سأنصرف حالاً، سأنصرف حالاً! ولكن لي كلمة واحدة. لئن حدث لي مرة أن «ارتميت على عنقك»، فما ذلك إلا لأنك نقلت إليَّ النبأ منذ وصولي بفرح صادق، ولأنك «قد أسعدك» أنني وجدتك في البيت، حتى بعد قضية «الرسوب في مطلع الحياة». فهذا السرور الصادق قد رد «قلبي الفتي» إليك زاخراً بالمحبة. أستودعك الله، أستودعك الله، سوف أحاول أن لا أجيء إليك إلا بعد مدة طويلة، وأنا أعرف أنك ترتاح لغيابي ارتياحاً عظيماً. أقرأ هذا في عينيك. وعلى كل حال، إن في غيابي عنك خيراً لنا كلينا...

وفيما أنا في هذه الثرثرة التي تكاد تخنقني مرحاً وجذلاً، سحبت حقيبتي ومضيت بها إلى مسكني الجديد. وكان الشيء الذي يرضيني إرضاء خاصاً هو أن فرسيلوف قد غضب مني حينذاك، ورفض أن يكلمني وأن ينظر إليَّ. فما أن أودعت حقيبتي في المسكن الجديد، حتى طرت إلى صاحبي الأمير العجوز. يجب أن أعترف بأن بعدي عنه خلال هذين اليومين قد شق على نفسي قليلاً. ولا بد من جهة أخرى أنه علم بما فعله فرسيلوف.

Twitter: @ketab_n

- 2 -

كنت أعرف أنه سيفرح برؤيتي فرحاً شديداً، وأقسم أنني كنت سأذهب إليه في ذلك اليوم بصرف النظر عن رغبتي في سماع ما سيقوله عن فرسيلوف. ولكن كان يخيفني أمس، وقبل ساعات، أنني قد ألقى عنده كاترين نيقولايفنا، أما الآن فلا أخشى شيئاً.

عانقني من شدة فرحه.

وهجمت فوراً على الموضوع الأساسي، فبدأت حديثي معه قائلاً:

- هيه! ما رأيك فيما فعله فرسيلوف؟

فبادرني بقوله:

Cher enfant، يا صديقي العزيز، هذا عمل عظيم، هذا عمل نبيل! حتى كيليان (الموظف الذي يعمل تحت) قد شده منه شدها كبيراً! هذا العمل جنون من جهته طبعاً، ولكنه عمل باهر! إنه مأثرة عظيمة! يجب على المرء أن يعرف كيف يقدر المثل الأعلى!

- أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ لقد كنا دائماً على اتفاق في هذه النقطة.

- يا عزيزي نحن دائماً متفقان. أين كنت؟ لقد أردت أن أذهب إليك حتماً، ولكنني كنت لا أعرف أين يمكنني أن أجدك. . . ولم يكن في وسعي أن أذهب إلى فرسيلوف طبعاً. . . رغم أنني اليوم، بعد ما حدث. . . هل تعلم يا صديقي؟ أنه بمثل هذه الميزات إنما أتيح له أن ينتصر على النساء. أنا من هذا على يقين. . .

- بالمناسبة، قبل أن أنسى. . . لقد سمعت تعبيراً قيل في حقه، فحفظته لأقوله لك خاصة. أمس، قال شخص بذيء حقير إن فرسيلوف «نبي للنساء». يا له من تعبير عجيب! التعبير نفسه، هه؟ حفظته لأقوله لك. . .

Twitter: @ketab_n

- «نبي للنساء!» يا له من تعبير أخّاذ (بالفرنسية)! هأهأهأ! تعبير ينطبق عليه تماماً! بل قل إنه لا ينطبق عليه إطلاقاً، لكنه تعبير أصاب هدفاً، بل قل إنه لم يصب أي هدف. . . ولكن. .

- لا بأس، لا بأس! لا تقلق! انظر إليه نظرتك إلى الكلمة الموفقة فحسب. . .

- الكلمة رائعة، وإن لها لمعنى عميقاً. . . الفكرة صحيحة كل الصحة! أقصد. . لعلك ستصدق ما سأقوله لك. . . الخلاصة. . . سأفضي إليك بسر صغير جداً. هل لاحظت في ذلك اليوم أولمبيادا تلك؟ هل تصدق أنها أغرمت بأندريه بتروفتش؟ بل إنني أعتقد أن أملاً يساورها. . .

صحت أسأله مستاء:

- أي أمل؟

- يا عزيزي لا تصح هذا الصياح. كل هذا صحيح. وأنت من جهة أخرى على حق، من وجهة نظرك. بالمناسبة: قل لي يا صديقي، ماذا حدث لك في المرة الماضية أمام كاترين نيقولايفنا؟ لقد رأيتك تترنح، وكدت تسقط. . . حتى أنني هممت أن أثب لأمسك بك.

- ليس هذا أوان الكلام في هذا الأمر. على كل حال، اضطربت بعض الاضطراب، لسبب من الأسباب. . .

- وهأنت ذا يحمر وجهك.

- وهل أنت في حاجة إلى مزيد من الإلحاح؟ إنك تعرف أن بينها وبين فرسيلوف شقاقاً. . . ثم هنالك تلك الأمور كلها. . المهم أنني اضطربت. دعنا من هذا إلى حين آخر!

- فلندعه، فلندعه، أنا نفسي سعيد بأن ندع كل هذا. . . باختصار أنا أشعر بأنني مذنب كثيراً في حقها، بل كنت أتذمر حينذاك أمامك،

Twitter: @ketab_n

أتذكر؟ . . فلتنس ذلك يا صديقي، فهي أيضاً ستغير رأيها فيك، إنني أحدس ذلك جيداً. . . وها هو الأمير سرجي!

ورأيت ضابطاً شاباً جميلاً يدخل. فنظرت إليه بعين نهمة، لأنني لم أكن قد رأيته من قبل أبداً. وإذا قلت إنه جميل، فلأن جميع الناس كانوا يقولون عنه ذلك، ولكن يجب أن أذكر أن وجهه الشاب الجميل كان فيه شيء منفر. إنني أسجل هنا شعوراً أحسسته في الوهلة الأولى، شعوراً خامرني منذ أول نظرة، ثم بقي في نفسي لم يبارحها. إنه نحيل الجسم، حسن القامة، كستنائي الشعر، نضر البشرة على شيء من صفرة، جازم النظرة، تبدو في عينيه، القاتمتين قليلاً، قسوة، حتى حين يكون هادئاً. ولكن نظرته الجازمة هذه هي الشيء المنفر فيه، لأن المرء يحس أنها لا تكلفه إلا ثمناً بخساً جداً. الخلاصة. . إنني لا أعرف كيف أعبر عما أريد أن أقوله. . . على كل حال، كان وجهه قادراً على الانتقال من القسوة إلى المودة فجأة، وذلك بصدق لا يستطيع المرء أن يماري فيه أو أن يجحده. فهذا الصدق كان فيه جذاباً. وثمة سمة أخرى: لقد كانت سحنته، رغم هذه المودة وهذا الصدق، خالية من الفرح على الدوام. فحتى حين كان هذا الأمير يضحك، تحس رغم كل شيء أن قلبه لا بد أن يكون خالياً من الفرح، الفرح الحق، الفرح الرشيق المضيء. . . ولكن ما أصعب رسم صورة لوجه من الوجوه من هذه الناحية! إنني عاجز عن هذا كل العجز. وسرعان ما اندفع الأمير الشيخ فوراً يعرف أحدنا بالآخر، على ما جرت به عادته المستحكمة الحمقاء.

- صديقي الشاب آركادي آندريفتش (مرة أخرى آندريفتش!) دولجوروكي.

فالتفت الأمير الشاب إلى جهتي معبراً بوجهه عن احترام عظيم. ولكن كان واضحاً أنه لم يسمع باسمي من قبل. وتابع صاحبي الأمير المضجر.

Twitter: @ketab_n

- هو . . قريب أندريه بتروفتش . .

(ما أثقل هؤلاء الأمراء العجائز أحياناً بعاداتهم المستحكمة!) تابع كلامه قائلاً:

وسرعان ما حزر الأمير الشاب من أنا. فقال بسرعة:

- آ . . نعم . . سمعت عنك منذ مدة طويلة . . . وقد سررت كثيراً بمعرفة أختك اليزافيتا ماكاروفنا، السنة الماضية، في مدينة لوغا . . . وقد حدثتني عنك أيضاً . . .

دهشت دهشة كبيرة: إن سروراً صادقاً مخلصاً قد التمع في وجهه. وتمتمت أقول وأنا أعقد ذراعيّ على ظهري:

- اسمح لي يا أمير. يجب أن أقول لك بصراحة - ويسرني أن أقول هذا الكلام بحضور أميرنا الغالي - إنني أرغب في لقائك رغبة شديدة، وإن هذه الرغبة قد استبدت بي في الآونة الأخيرة، واشتدت بالأمس اشتداداً خاصاً، ولكن لنية أخرى وغرض آخر. أقول لك هذا بصراحة مهما يدهشك. خلاصة الأمر أنني كنت أريد أن أدعوك إلى المبارزة بسبب الإهانة التي ألحقتها منذ سنة ونصف بفرسيلوف في مدينة «إمس». فإذا اتفق أن رفضت التحدي بحجة أنني تلميذ في المدرسة وأنني فتى مراهق، فإنني كنت سأوجه إليك هذا التحدي أياً كان جوابك، وأياً كان العمل الذي تستطيع أن تقوم به . . . وما أزال عاقداً عزمي على إنفاذ هذه النية نفسها. أعترف لك بذلك.

وقد ذكر لي الأمير العجوز فيما بعد أنني ألقيت هذا الكلام بكثير من النبل والشمم.

وارتسم على وجه الأمير الشاب أسى صادق. وأجابني بلهجة فيها حرارة:

- إنك لم تترك لي أن أتم كلامي. لئن كنت قد وجهت إليك بضع

Twitter: @ketab_n

كلمات نابعة من القلب، فإنما السبب في ذلك ما أحمله الآن لأندريه بتروفتش من عواطف صادقة. يؤسفني أنني لا أستطيع أن أذكر لك على الفور جميع الظروف والملابسات، ولكنني أحلف بشرفي أنني منذ مدة طويلة أشعر بأعمق الأسف للفعل المؤسف الذي بدر مني بمدينة «إمس».

وحين عدت إلى بطرسبرج كنت قد عقدت العزم على أن أقدم لأندريه بتروفتش كل الترضيات الممكنة أي أن أطلب منه العفو والمغفرة صراحة على النحو الذي يحدده هو نفسه. إن مؤثرات سامية جداً وقوية جداً هي التي كانت سبب هذا التبدل في الرأي. أما إننا كان بيننا دعوى ينظر فيها القضاء، فذلك أمر لم يكن له أي تأثير فيما اتخذت من قرار. ولكن موقفه مني بالأمس قد هزني هزاً قوياً. وصدقني إذا قلت لك إنني حتى هذه اللحظة ما زلت مضطرباً أشد الاضطراب لم أسترد توازني بعد. اعلم أنني إنما أجيء الآن إلى الأمير لأبلغه أمراً في غاية الخطورة: منذ ثلاث ساعات، أي - على وجه التحديد - في اللحظة التي كان يحرر فيها ذلك الصك مع المحامي، جاءني الرجل الذي هو محل ثقة أندريه بتروفتش، ونقل إليَّ منه دعوة إلى المبارزة... دعوة رسمية.. ثأراً لحادثة «إمس»...

هتفت أقول: - دعاك إلى المبارزة؟ - وأحسست بعيني تلتهبان، وبالدم يصعد إلى وجهي.

- نعم، دعاني إلى المبارزة. وقد قبلت التحدي فوراً. لكنني قررت، قبل النزال، أن أبعث إليه رسالة أعلن له فيها رأيي في الفعل الذي صدر عني، وأعرب له فيها عن أسفي لهذه الخطيئة الرهيبة التي ارتكبتها... ذلك أنها كانت خطيئة رهيبة، خطيئة فظيعة مشؤومة! أرجو أن تلاحظ، نظراً لمنزلتي في الجيش، أن هذه الخطوة التي أقوم بها قبيل المبارزة، أعني هذه الرسالة عشية النزال، أمر مشين يحرك ألسنة الناس بما يسيء إلى سمعتي، هل تفهم ما أعني؟ ومع ذلك اتخذت قراري

Twitter: @ketab_n

وعزمت أمري. ولكن الوقت لم يتسع لإرسال الرسالة، فبعد انقضاء ساعة واحدة على دعوته إياي للنزال، وصلتني منه رسالة جديدة يرجوني فيها أن أغفر له أنه أزعجني، وأن أنسى تحديه، ويضيف إلى ذلك أنه «يأسف لهذه النوبة الطارئة من الضعف والأنانية التي اعترته عرضاً». تلك ألفاظه نفسها. وبذلك يسهل عليَّ أمر القيام بتلك الخطوة، أعني إرسال الرسالة. وأنا لم أرسلها بعد، ولكنني جئت أباحث الأمير قليلاً بهذا الصدد. . . وصدقني إذا قلت لك أن ما عانيته من عذاب الضمير يفوق ما عاناه أي إنسان. . . هل يرضيك هذا الإيضاح، ولو إلى حين على الأقل، يا آركادي ماكاروفتش؟ هل تقبل أن تسبغ عليَّ شرف اعتقادك بصدق ما أقول صدقاً كاملاً؟

غُلبت. لقد رأيت صراحة لا مراء فيها، صراحة لم أكن أنتظرها أبداً. لا ولا كنت أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط. فتمتمت أجيبه بكلمات لا أدري ماذا كانت، ومددت إليه يدي مستقيمتين، فهزهما بيديه فرحاً. ثم خلا بالأمير، وتحدث معه في غرفته نحو خمس دقائق.

حتى إذا خرج من غرفة الأمير قال لي بصوت عال صريح:

- إذا رغبت أن ترضيني رضاءً خاصاً فهيا نذهب الآن إليّ وسأطلعك على الرسالة التي سأرسلها إلى أندريه بتروفتش وأطلعك كذلك على الرسالة التي تلقيتها منه.

فوافقته على ذلك مسروراً أعظم السرور. وانهمك الأمير العجوز بتوديعي وتشييعي، وناداني أيضاً إلى غرفته دقيقة فقال لي هناك:

- يا صديقي، ما أسعدني، ما أسعدني. . . وسنتكلم في هذا من بعد على كل حال. أما الآن فإن هنا في محفظتي رسالتين: ينبغي إيصال إحداهما بنفسك وشرح القضية شخصياً، والرسالة الأخرى إلى البنك، فهناك أيضاً. . .

Twitter: @ketab_n

قال ذلك وكلفني بعملين يقتضيان مني، فيما زعم، أشد اليقظة والانتباه، وشرح لي أن عليَّ أن أذهب إلى البنك، فأودع رسالة، وأوقع على ورقة، إلخ. . .

فهتفت أقول له ضاحكاً وأنا أتناول الرسالتين:

- ما أشد مكرك! يميناً ليس هذا منك إلا تظاهراً وادعاء، وليس هناك أي عمل يجب عليَّ أن أقوم به. وما هاتان المهمتان المزعومتان إلا من صنع خيالك لفقتهما تلفيقاً لتوهمني بأن لوجودي معك نفعاً، وأني أتقاضى أجري عن جدارة واستحقاق!

- أحلف لك إنك لمخطىء يا بني، هما مهمتان مستعجلتان كل الاستعجال. . . - ثم هتف يقول وقد فاض قلبه رقة وعاطفة فجأة:

- بني العزيز! (ووضع يديه على رأسي) وأردف يقول: إنني أباركك، وأبارك مستقبلك. . . لتكن قلوبنا عامرة بالطهارة والعفة كما نحن الآن. . . ولنتحلّ بالخير والجمال إلى أقصى ما يمكن. لنحب الجمال. . . في جميع صوره وكافة أشكاله. . . هيا. . . أخيراً. . . لنشكر الله على نِعَمِه وآلائه. . . إنني أباركك. . .»

ولم يكمل كلامه، بل أخذ يبكي فوق رأسي. وأعترف بأنني كدت أن أبكي أنا أيضاً. ولئن لم أبك فإنني على الأقل قد قبلت صاحبي الشاذ صادقاً مسروراً. بل تبادلنا قبلات كثيرة.

- 3 -

قادني الأمير سرجي (أقصد سرجي بتروفتش، وبهذا الاسم سأسميه بعد الآن) إلى بيته في مركبة أنيقة، فأخذت أعجب بما في شقته من فخامة وأبهة، أو دعك من الفخامة والأبهة وقل إنها شقة كالشقق التي يملكها أناس من «علية القوم»: غرف واسعة عالية وضاءة (رأيت منها

Twitter: @ketab_n

غرفتين وكانت الغرف الأخرى مغلقة)، وأثاث إن كان لا يذكّر بقصر فرساي أو عصر النهضة، فإنه لين طري مريح وافر أنيق غاية الأناقة، إلى سجاد ثمين، وخشب محفور، وتماثيل صغيرة. ومع ذلك كان الناس مجمعين على أن هذه الأسرة فقيرة معدمة، وأنها أصبحت لا تملك شيئاً البتة. ولكن يجب أن أضيف إلى هذا أن الأخبار كانت تقول إن الأمير سرجي كان يحب أن يذر الرماد في العيون حيث يكون، سواء هنا أو في موسكو أو في الجيش، وأنه مقامر، وأنه مدين. وكنت أنا أرتدي ردنجوتا مهترئاً، وكان الردنجوت عدا ذلك مغطى بالزغب بعد أن نمت من غير أن أخلع ثيابي، ولم أكن قد بدلت قميصي منذ أربعة أيام. على أن الردنجوت لم يكن رديئاً إلى حد يبعث على الاشمئزاز، ولكنني ما أن وجدت نفسي عند الأمير حتى تذكرت ما أوصاني به فرسيلوف من تفصيل رداء جديد.

قلت شارد الذهن:

- تصور أنني قضيت الليل دون أن أخلع ثيابي، بسبب حادثة انتحار.

فلما رأيته يصيخ بسمعه منتبهاً على الفور، رويت له القصة بإيجاز. غير أن ما كان يهمه أكثر من كل ما عداه إنما هو الرسالة التي ينتوي أن يبعثها إلى فرسيلوف. وقد استغربت من جهتي أنه لم يظهر فيه حتى شيء من تبسم، بل لم تبدر منه حتى حركة يسيرة تحمل هذا المعنى، حين أعلنت له بغتة منذ قليل، أنني أريد أن أدعوه إلى مبارزة. فأغلب الظن أنني عرفت كيف أجبره على أن لا يضحك، غير أن الأمر يظل محل استغراب من رجل مثله. جلسنا متقابلين في وسط الغرفة أمام مكتب كبير، وأراني رسالته إلى فرسيلوف، وكانت مهيأة تهيئة كاملة. كانت الرسالة تتضمن جميع المعاني التي عبر عنها عند أميري. حتى لقد كتبت بلهجة فيها حرارة. والحق أنني كنت لا أعرف بعد ماذا يجب أن أراه من

Twitter: @ketab_n

رأي حاسم في هذه الصراحة الظاهرة وهذه الميول الطيبة الخيرة، ولكنني قد بدأت أنقاد للافتتان بالرجل، حتى لقد تساءلت ما الذي يدعو إلى أن لا أصدقه؟ إنه مهما يكن طبعه، ومهما تكن الإشاعات التي تروج عنه، قد يتصف بميول حسنة وسجايا كريمة. ورأيت الرسالة الأخيرة التي بعثها إليه فرسيلوف أيضاً، وهي سبعة أسطر يعلن له فرسيلوف فيها عدوله عن دعوته إلى مبارزته. فرأيت أن هذه الرسالة رغم ما ضمنها في جملته فرسيلوف من كلام عن «ضعفه» وعن «أنانيته» تتميز في جملتها بنوع من الاستعلاء... أو قل إن المرء يحس حين يقرؤها أن الخطوة التي قام بها فرسيلوف تشتمل على نوع من الاحتقار، وقد حاذرت أن أبدي له هذه الملاحظة.

قلت أسأله:

- ولكن ما رأيك أنت في عدوله هذا؟ ألا تعتقد أنه جَبُنَ؟

فابتسم الأمير، ولكن ابتسامته كانت تشتمل على كثير من الجد، وقال: - لا، قطعاً. - وكان يبدو عليه من جهة أخرى مزيد من الهم - وتابع كلامه يقول: إنني أعرف شجاعة هذا الرجل. ولكن له - وهذا رأي خاص بي طبعاً - طرزاً فريداً في النظر إلى الأمور...

فقاطعته قائلاً بحرارة:

- قطعاً. إن شخصاً اسمه فاسين يرى أن في حكاية الرسالة والتنازل عن الميراث نوعاً من إقامة «نصب» يرتقيه إعلاء لقدره في نظر الناس عن عمد... أما رأيي أنا فهو أن هذه الأشياء لا يفعلها المرء حباً بالظهور، وإنما هي تقابل شيئاً عميقاً وعاطفة صادقة...

قال الأمير:

- إنني أعرف السيد.فاسين معرفة جيدة.

- آ.. نعم.. لا بد أنك رأيته في لوغا.

Twitter: @ketab_n

فنظر كل منا في صاحبه فجأة، وأذكر أنني قد احمر وجهي قليلاً. وانقطع الحديث على كل حال. وكنت أنا ميالاً إلى الكلام. كنت أتصور اللقاء الذي تم بالأمس، فيحضني ذلك على أن ألقي عليه بعض الأسئلة، ولكنني لا أعرف كيف أتصرف في الأمر، وكنت أشعر بغير قليل من الارتباك. ومما خطف بصري أيضاً ما لاحظته فيه من حسن أدب ورقة تهذيب وطلاقة حركة، أي ما رأيته فيه من ذلك البريق الذي يكتسبه أمثال هؤلاء الناس وهم لا يزالون في المهد. لكنني وقعت في رسالته على خطأين فاحشين من أخطاء النحو. وأنا في لقاء أمثال هؤلاء الناس لا أخفض رأسي أبداً، حتى إني أزداد حدة، الأمر الذي قد يكون سيئاً في بعض الأحيان. ولم يكن من شأن ردنجوتي المغطى بالزغب أن يهدىء ما يضطرم في نفسي. وكنت قد لاحظت أن الأمير يتفرس فيّ أحياناً بكثير من الاستطلاع.

قلت فجأة:

- قل لي يا أمير: إلا ترى في قرارة نفسك أنه أمر مضحك أن يدعوك «غر» مثلي إلى مبارزة، ولا سيما بسبب إساءة لحقت شخصاً غيره؟

فأجابني برصانة ووقار:

- أنه لأمر طبيعي أن يغضب المرء لإساءة ألحقت بأبيه. فلست أرى في عملك شيئاً سخيفاً يبعث على السخرية.

- أما أنا فأرى عملي سخيفاً سخفاً رهيباً. . من وجهة نظر شخص آخر طبعاً، لا من وجهة نظري أنا. ولا سيما أن اسمي هو دولجوروكي، وليس فرسيلوف. فإذا كنت لا تقول الحقيقة، أو إذا كنت تلطف الأمور من باب الكياسة التي يلتزمها أبناء المجتمع الراقي، فأنت إذن تخدعني في سائر الأمور الأخرى.

فكرر يقول بجد كبير:

Twitter: @ketab_n

- لا، لا أرى في هذا شيئاً سخيفاً. إنك لا تستطيع أن لا تحس بدم أبيك فيك. أليس كذلك؟ صحيح أنك ما تزال فتى يافعاً، و. . لا أدري. . لكن يخيل إليَّ أنه لا يجوز لقاصر أن يبارز، وأنه لا يجوز لأحد أن يلبي دعوته إلى النزال. . فيما توجبه الأنظمة. . . غير أن هناك اعتراضاً واحداً يجدر أن ننظر فيه: إنك حين تدعو إلى المبارزة على غير علم من الشخص الذي لحقت به الإهانة والذي تريد أن تثأر له، ألا تكون بذلك قد انتقصت من قدره ولم توله ما يجب له من احترام؟

وفجأة دخل خادم ليبلغ عن شيء ما، فانقطعت محادثتنا. وأغلب الظن أن الأمير كان ينتظر الخادم، فما أن رآه حتى نهض دون أن يكمل كلامه، وتقدم إلى لقائه مسرعاً، فكلمه الخادم بصوت خافت، فلم أسمع من كلامه شيئاً. وقال لي الأمير:

- معذرة. سأرجع بعد دقيقة.

وخرج. وبقيت وحيداً. وأخذت أذرع الغرفة ذاهباً آيباً وأنا مسترسل في التفكير. غريب: لقد أعجبني الأمير ولم يعجبني. إن فيه شيئاً لا أستطيع أن أحدده، لكنه شيء منفر. قلت أحدث نفسي: «إذا كان لا يسخر مني فإنه إذن ممتلىء استقامة، ولو كان يسخر مني. . . لبدا لي أكثر ذكاء. . .» برقت هذه الفكرة الغريبة في ذهني. ودنوت من الطاولة فأعدت قراءة رسالته إلى فرسيلوف. ومن ذهولي لم أشعر بانقضاء الوقت، حتى إذا أفقت من شرودي لاحظت فجأة أن دقيقة الأمير دامت ربع ساعة. فاضطربت من ذلك بعض الاضطراب. وعدت أسير في الغرفة ذاهباً آيبا. ثم تناولت قبعتي أخيراً وقررت أن أنصرف. إنني أتذكر هذا. قلت لنفسي: إذا رأيت أحداً بعثته يستدعي الأمير، حتى إذا جاء ودعته مؤكداً أن ثمة عملاً يناديني وأنني لا أستطيع المكوث معه أكثر مما مكثت. فبدا لي أن هذا أحفظ للكرامة، لأنني تصورت أنه بتركي هذه

Twitter: @ketab_n

المدة الطويلة إنما يدل على أنه يزدريني.

وكان للغرفة بابان اثنان يقعان في طرفي جدار واحد. وكان البابان كلاهما مغلقين. وكنت قد نسيت من أي باب دخلنا، أو قل إنني لذهولي فتحت واحداً من البابين بغير تفكير، فإذا أنا أفاجأ بأختي ليزا جالسة على ديوان في غرفة طويلة ضيقة. ولم يكن في الغرفة أحد غيرها، فلا بد أنها كانت تنتظر أحداً. ولكن ما أن أعترتني هذه الدهشة الأولى حتى سمعت صوت الأمير يتكلم بصوت عال راجعاً إلى المكتب. فأغلقت الباب فوراً، ودخل الأمير من الباب الآخر فلم يلاحظ شيئاً. أتذكر أنه أخذ يعتذر عن تأخره أشد الاعتذار، وأنه جاء على ذكر امرأة سماها آنا فيدوروفنا... ولكنني كنت قد بلغت من الاندهاش والاضطراب أنني لم أكد أفهم من كلامه شيئاً، وتمتمت أقول إن عليّ أن أعود إلى بيتي حتماً. ثم خرجت متعجل الخطى. ولا شك أن هذا الأمير المهذب ذلك التهذيب كله قد بدا له سلوكي غريباً. وقد شيعني إلى الباب وهو ما يفتأ يتكلم ويتكلم، بينما أنا لا أجيبه بشيء ولا أنظر إليه.

- 4 -

صرت في الشارع، فاستدرت يسرة، وأخذت أسير على غير هدى. كان كل شيء في رأسي مختلطاً ومضطرباً. وكنت أسير سيراً بطيئاً. أظن أنني قطعت مسافة طويلة، تبلغ نحو خمسمائة خطوة. وإني لكذلك إذا أنا أحس ربتاً رفيقاً على كتفي. فالتفت. فرأيت أختي ليزا. لقد أدركتني، ولامست كتفي بمظلتها. وكان في نظرتها المتلألأة فرح عظيم، وشيء من مكر.

- يسرني جداً أنك سرت في هذا الطريق، وإلا لما استطعت أن

Twitter: @ketab_n

ألقاك طول النهار! كانت تلهث قليلاً من سرعة السير.

- ما أشد لهاثك!

- ركضت كثيراً لأدركك.

- ليزا، أأنت من رأيت منذ قليل؟

- أين؟

- عند الأمير... الأمير سوكولسكي...

- لا، ليست أنا. لا يمكن أن تكون قد رأيتني...

فصمتّ. وسرنا نحو عشر خطوات. انفجرت ليزا ضاحكة، وقالت:

- طبعا أنا التي رأيتني! رأيتني وحدقت إلى عيني، وحدقت إليك أنا أيضاً. فلماذا تلقي هذا السؤال؟ ما أغرب طبعك! ولقد راودتني رغبة قوية في الضحك حين حدقت إليّ. كانت هيئتك مضحكة جداً.

وضحكت ضحكاً شديداً. فبدد ضحكها قلقي.

- ولكن ما جاء بك إلى هناك؟

- زرت آنا فيدوروفنا.

- أية آنا فيدوروفنا؟

- السيدة ستولبييفا. حين كنا نقيم بمدينة لوغا، كنت أقضي عندها أياماً كاملة. كانت تستقبلنا أنا وماما، وكانت تجيء إلينا أيضاً. وكانت لا تزور أحداً غيرنا تقريباً. إنها تمت إلى أندريه بتروفتش بقرابة بعيدة، وكذلك إلى الأمراء سوكولسكي. أظن أنها للأمير بمثابة جدة.

- فهل تقيم عند الأمير؟

- بل الأمير يقيم عندها.

- لمن الشقة إذن؟

- لها. إنها تملك الشقة منذ سنة. وقد وصل الأمير منذ قليل فنزل ضيفاً عليها. وهي نفسها لم تجيء إلى بطرسبرج إلا منذ أربعة أيام.

Twitter: @ketab_n

- طيب. . حفظها الله هي وشقتها. . .

- ولكنها سيدة لطيفة. . .

- لا أنكر عليها ذلك. نحن أيضاً أناس لطاف! انظري إلى هذا النهار ما أجمله! ما أبدع هذا الجو! وما أجملك اليوم يا ليزا! ما أنت إلا طفلة على كل حال.

- قل لي يا آركادي : أرأيت إلى حكاية تلك الفتاة بالأمس ما كان أهولها! . .

- آه. . شيء محزن جداً يا ليزا، محزن جداً!

- محزن حقاً! يا لهذا المصير ما أشد هوله! حتى لأظن أنه من الخطيئة يا آركادي أن نكون نحن فرحين هذا الفرح كله بينما تهوم روحها الآن في الظلمات، في ليل بهيم ليس له قرار، مهانة، حاملة إثمها معها. . . قل لي يا آركادي : من المسؤول عن الإثم الذي ارتكبته؟ آه. . . ما أشد هول هذا كله! هل تفكر أحياناً في تلك الظلمات؟ آه. . لشد ما أخاف من الموت! إنني لا أحب الظلمة. هذه الشمس أحلى كثيراً! تقول ماما إن الخوف من الموت خطيئة. . . قل لي يا آركادي : هل تعرف ماما حق معرفتها؟

- لم أعرفها بعد إلا قليلاً يا ليزا. قليلاً.

- يا لها من إنسانة! يجب أن تعرفها، يجب أن تعرفها. يجب على المرء أن يفهمها خاصة. . .

- أنت أيضاً كنت لا أعرفك، وهاأنذا أعرفك الآن معرفة تامة. في دقيقة واحدة، نفذت إلى حقيقتك كلها. ليزا، مهما تخافي من الموت، فلا بد أنك ذات كبرياء، وجسارة وشجاعة. أنت خير مني، خير مني كثيراً! أحبك حب الجنون يا ليزا. ليزا، يستطيع الموت أن يجيء متى شاء، أما الآن فلنعش، فلنعش! لنا أن نتألم لتلك البائسة، ولكن فلنبارك

Twitter: @ketab_n

الحياة. ألست على حق؟ إن لي «فكرتي» يا ليزا. ليزا، هل تعلمين أن فرسيلوف تنازل عن الميراث؟

– كيف لا أعرف ذلك؟ لقد تعانقنا أنا وماما.

– إنك لا تعرفين ما بنفسي يا ليزا، لا تعرفين ماذا كان هذا الرجل في قلبي...

– دعك من هذا الكلام، إنني أعرف كل شيء!

– تعرفين كل شيء؟ نعم، حتماً! أنت ذكية. أنت أذكى من فاسين. إن لك ولماما عيوناً نافذة، إنسانية، أقصد النظرة، لا العيون.. لقد أخطأت التعبير. ما أغباني أحياناً يا ليزا.

– بل أنت في حاجة إلى من يسيطر عليك. هذا كل شيء!

– سيطري عليّ إذاً يا ليزا. ما أحلى النظر إليك اليوم يا ليزا! هل تعلمين أنك رائعة الجمال؟ لم أر عينيك قبل اليوم أبداً.. رأيتهما الآن أول مرة... من أين جئت بهما يا ليزا؟ من أين اشتريتهما؟ كم دفعت ثمنهما؟ ليزا، أنا لم يكن لي أصدقاء، حتى لقد كانت هذه الفكرة حماقة، أما الصداقة معك أنت فليست حماقة... هل تقبلين أن نكون صديقين؟ هل تفهمين ماذا أريد أن أقول؟

– أفهم كل الفهم.

– أقصد صداقة بغير عقد، بغير شروط. نكون صديقين وكفى، ببساطة!

– نعم، صداقة وكفى، ببساطة.. غير أن لي شرطاً: إذا اتفق أن اتهم أحدنا الآخر يوماً، إذا ساءنا أمر من الأمور، إذا اعتكر مزاجنا، بل إذا نسينا أيضاً كل شيء فلن ننسى أبداً هذا اليوم ولا هذه الساعة! فلنتعاهد على هذا. لنتعاهد على أن نتذكر إلى الأبد، هذا اليوم الذي سرنا فيه معاً وقد أمسك كل منا يد الآخر، وضحكنا فيه كثيراً، وسعدنا

Twitter: @ketab_n

فيه هذه السعادة كلها. . . هل تقبل؟

- نعم يا ليزا، أقسم لك. يخيل إليّ يا ليزا أنني أسمعك الآن أول مرة. . . ليزا، هل قرأت كثيراً؟

- لم تلق علي هذا السؤال قبل اليوم! أمس فقط، حين أخطأت في كلمة، تفضلت فانتبهت إلى هذا أيها السيد الفيلسوف!

- لماذا لم تبادريني أنت بالحديث بعدما رأيت أنني غبي إلى ذلك الحد من الغباء؟

- كنت أنتظر أن تصبح أكثر ذكاء. لقد عرفتك منذ البداية يا آركادي ماكاروفتش، فسرعان ما قلت لنفسي: «لسوف يجيء، لسوف يجيء آخر الأمر حتماً». وآثرت أن أدع لك شرف القيام بالخطوة الأولى. قلت لك في سري: «لا، عليك أنت أن تجري الآن ورائي!»

- ها. . يا للصغيرة المغناج! طيب قولي بصراحة يا ليزا: لا بد أنك ضحكت مني كثيراً طوال هذا الشهر، أليس كذلك؟

- طبعا. لأنك مضحك فعلاً، مضحك جداً يا آركادي! ولكن هل تعلم؟ لعلني لهذا السبب إنما أحببتك هذا الشهر، ذلك أنك كنت طريفاً. غير أن طرافتك رديئة أحياناً. أقول لك هذا حتى لا تتباهى وتغتر. ولكن هل تعلم مَنْ ضحك منك أيضاً؟ ماما. ضحكنا معاً. كنا نتهامس قائلين: «غريب الأطوار! ما أغرب أطواره!» وكنت أنت تظن طوال هذا الوقت اننا نرتعد رعباً منك.

- ليزا، ما رأيك في فرسيلوف؟

- هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقال فيه. لكننا لن نتكلم عنه الآن. ليس هذا اليوم أوان الحديث عنه، أليس كذلك؟

- أنت على حق! لا، لا، إن ذكاءك رهيب حقاً يا ليزا! إنك أذكى مني حتماً. انتظري قليلاً، إنني متى فرغت من هذه الشؤون كلها،

Twitter: @ketab_n

سوف أذكر لك في النهاية بعض الأشياء. . .

– ما بالك تقطب حاجبيك؟

– لم أقطب يا ليزا، ما هذا بشيء. . . اسمعي يا ليزا. . الأفضل أن أقولها بصراحة: إن لي سمة خاصة هي أن في نفسي نقاطاً حساسة لا أحب أن يلمسها أحد. . . أو قولي إن لي مشاعر معينة لا أحب عرضها طلباً لإعجاب الناس. مخجل، أليس كذلك؟ ولهذا أفضل أحياناً أن أقطب الحاجبين ولا أقول شيئاً. أنت ذكية، فعليك أن تفهمي.

– ولكنني مثلك. إنني أفهمك فهماً كاملاً. وماما أيضاً مثلك. هل تعرف هذا؟

– آه يا ليزا! كل ما أتمناه هو أن نعيش في هذه الحياة الدنيا مدة طويلة! ماذا قلت؟

– لم أقل شيئاً.

– لماذا تنظرين إليَّ؟

– وأنت تنظر إليَّ أيضاً. إنني أنظر إليك، وإنني أحبك.

رافقتها حتى البيت تقريباً. وذكرت لها عنواني. وحين تركتها، قبلتها لأول مرة في حياتي. . .

– 5 –

هذا كله كان حسناً، لولا أن هناك ظلاً كان يعكره: إن فكرة ثقيلة كانت تضطرب في نفسي منذ الليل ولا تبارح خيالي. ذلك أنني حين التقيت في مساء الأمس بتلك المسكينة قلت لها إنني سأترك البيت، وأن على المرء أن يبني عشه بعيداً عن الأشرار، وأن لفرسيلوف عدداً من أولاد الزنا، فلا شك أن هذه الكلمات التي يقولها ابن عن أبيه قد أكدت جميع شكوكها في فرسيلوف، وعززت إحساسها بأنه أهانها أو أراد بها

Twitter: @ketab_n

سوءاً. لقد كنت أتهم ستيبلكوف، ولعلني أنا الذي صببت على النار زيتاً. فكرة رهيبة، رهيبة حتى اليوم... ولكنني في ذلك الصباح، رغم كل ما عانيت من عذاب في أول الأمر، قد بدا لي أن الأمر ليس من الخطورة إلى الحد الذي تصوّرته، وكنت أكرر لنفسي من وقت إلى آخر: «دعك من هذا الكلام، فإن في نفسها ما فيها من الحقد المتراكم قبل أن تراها وقبل أن تقول لها شيئاً، ما كان سيدفعها على الإقدام على فعل ما فعلته حتماً! هيا... سينقضي الأمر، وسأبرأ من هذه الوساوس! وسأكفر عن غلطتي بطريقة من الطرق.. بعمل من الأعمال الحسنة... فما يزال أمامي خمسون عاماً!»

ولكن الفكرة ظلت تتحرك وتضطرب في نفسي.

Twitter: @ketab_n

الجُزءُ الثّاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

– 1 –

انقضى شهران تقريباً. وأرجو من القارئ أن لا يقلق: فسوف يتضح كل شيء. وكما دوّنت في بداية يومياتي تاريخ 9 أيلول (سبتمبر)، فإنني أسجّل هنا تاريخ 19 تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو يوم لا أنساه، وذلك لأسباب كثيرة. يجب أن أذكر أولاً أن من رآني منذ شهرين لن يعرفني إذا هو رآني الآن. هذا من جهة المظهر على الأقل. أقصد أنه سيعرفني، ولكنه لن يفهم شيئاً. إنني أرتدي الآن ثياباً تبلغ غاية الأناقة، بل الغندرة. هذه نقطة أولى. إن الخياط الذي أراد فرسيلوف أن يوصيني به يوماً ووصفه بأنه «فرنسي دقيق في عمله رفيع الذوق» قد خاط لي ثياباً كاملة، ولكنني لا أرتديها فهي لا تبلغ المستوى الرفيع الذي يليق بأنيق مثلي وإنما لي الآن خياطون من درجة أعلى، خياطون من الدرجة الأولى. حتى أنهم فتحوا لي حساباً. ولي حساب مفتوح أيضاً في مطعم راقٍ. ولكنني ما أزال في هذا المجال تعوزني الجسارة: فما أن أملك مالاً حتى أبادر إلى سداد الدين، رغم علمي بأن هذا أمر نابٍ أعرّض به مهابتي للانتقاص. ولي في شارع نفسكي حلاق فرنسي الأصل يعاملني معاملة ودية، يروي لي النوادر والملح كلما ذهبت إليه لتصفيف شعري. وأعترف بأنني أتمرن معه على الكلام بالفرنسية. إنني أعرف اللغة الفرنسية، بل أعرفها معرفة مناسبة، ولكنني في المجتمع

Twitter: @ketab_n

الراقي أشعر دائماً بخجل فلا أجرؤ على التكلم بها مجازفاً. هذا عدا أن لهجتي كما أظن بعيدة عن اللهجة الباريسية. ولي كذلك عربة وحوذي هو ماتفي، يلبيني كلما ناديته. إنه يقود مركبة فخمة يجرها حصان كميت سريع العدو (أنا لا أحب الخيل الصهباء). غير أن هناك أشياء ليست كما أحب. نحن الآن في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني وقد حلّ البرد القارس منذ ثلاثة أيام. ومعطفي قديم مصنوع من فراء الراتون، وهو معطف فرسيلوف البالي، فلو شئت أن أبيعه لما جاءني بأكثر من خمسة وعشرين روبلا. لا بدّ لي من أن أحصل على مال لهذا المساء، بأي شكل من الأشكال. وإلا فإنني «تعيس وهالك». هذه هي الألفاظ التي كنت أستعملها في ذلك الوقت... يا للشقاء! من أين جاءت هذه الألوف، وهذه الخيول، وهذه المطاعم (أمثال مطعم بوريل)[59] على حين فجأة؟ كيف أمكن أن أنسى كل شيء، وأن أتغير كل هذا التغير؟ يا للخزي والعار! أيها القارىء، إني محدثك الآن عن خزيي، عن تلطخي بالعار، ولا شيء يمكن أن يحمل إليّ عاراً أكبر من هذه الذكريات!

إنني أحكم في الأمر كما يحكم قاضٍ، وأعرف أنني مذنب. فرغم أنني والزوبعة تجرفني، كنت وحيداً بلا مرشد ولا ناصح، فوالله لقد كنت أشعر بسقوطي، وليس لي إذاً من عذر. ومع ذلك كنت شبه سعيد خلال ذينك الشهرين. لماذا شبه سعيد؟ بل لقد كنت سعيداً مسرفاً في السعادة، حتى لقد بلغت من فرط السعادة أن شعوري بتلطخ شرفي، وهو شعور يخالجني في لحظات (كثيرة متكررة!)، ويهز نفسي هزاً قوياً، كان يغمرني بمزيد من النشوة والسكر، هل يصدق القارئ؟ كان لسان حالي يقول: «ما دمت أسقط، فلأسقط إلى الدرك الأسفل؛ على أنني لن أسقط، بل سأخرج. إن لي نجماً يهديني!» على جسر هزيل نحيل من نثارة، جسر بغير درابزين، كنت أسير فوق الهاوية، وكان

Twitter: @ketab_n

يسرّني أن أسير هذا السير حتى أنني كنت ألقي النظرات إلى الهاوية. كان يفرحني أن هناك مخاطرة. و «الفكرة»؟ لا خوف عليها، سوف تأتي من بعد، في وسعها أن تنتظر. ما هذا كله إلا «انحرافة»: «. . . لماذا لا يهب المرء لنفسه شيئاً من مسرة؟» ذلكم هو عيب «فكرتي» وأكرر هذا من جديد: إنها تتسامح في جميع الانحرافات. لو كانت أقل صلابة وجذرية لربما كنت أخشى الانحراف عنها.

ما أزال محتفظاً بشقتي الصغيرة. لقد احتفظت بها دون أن أسكنها، وأودعتها حقيبتي وصرتي وأشياء أخرى. أما إقامتي فأكثرها عند الأمير سرجي سوكولسكي. أمكث عنده، وأبيت عنده، وأقيم أسابيع كاملة. . . أما كيف حدث هذا، فسوف ترون ذلك بعد قليل. ولأحدثكم الآن عن مسكني الصغير. إنه عزيز في نفسي. إليه إنما جاء يزورني فرسيلوف بنفسه أول مرة، بعد المشاجرة التي قامت بيننا آنذاك، ثم جاء مراراً كثيرة. أكرر أن تلك المدة كانت عاراً فظيعاً، ولكنها كانت سعادة كبيرة أيضاً. . . كنت في تلك الفترة أوفق في كل شيء، وكان كل شيء يبتسم لي! وكنت أقول لنفسي في تلك اللحظات من النشوة: «علام ذلك التجهم السابق؟ فيم تلك الآلام القديمة الموجعة، وتلك الطفولة المنعزلة المكتئبة والأحلام السخيفة تحت الغطاء في الفراش، وتلك الأيمان والحسابات، وحتى «الفكرة»؟ ذلك كله أخيلتي وأوهامي! العالم شيء آخر كما اتضح. وكنت فرحان جذلاً. كان لي أب: فرسيلوف. وكان لي صديق: الأمير سرجي. وكان لي أيضاً. . .» لكن دعونا من هذا. واحزناه! إن كل ما حدث عندئذ باسم الحب والنبل والشرف قد ثبت بعد ذلك أنه كان قبحاً شنيعاً وغشاً.

كفى!

Twitter: @ketab_n

جاء إليَّ أول مرة بعد قطيعتنا آنذاك بثلاثة أيام.

ولم أكن في البيت. فانتظرني. ورغم أنني انتظرته طوال هذه الأيام الثلاثة فإنني حين دخلت غرفتي الصغيرة، كأن عينيَّ ضربت عليهما غشاوة وقلبي خفق خفقاً شديداً، فوقفت في العتبة. ومن حسن الحظ أن مؤجري قد استحسن أن يتعارف مع الزائر فوراً وقد بدأ يقص عليه حكاية من الحكايات مندفعاً بحرارة حتى لا يصيبه ضجر. إنه مستشار اعتباري، في نحو الأربعين من العمر، مجدور الوجه، مدقع الفقر، مثقل بعبء زوجة مصدورة وابن مريض، له طبع منفتح مسالم وديع رقيق. فابتهجت بوجوده، بل إن وجوده قد أخرجني من مأزق، وإلا فما عساي أقول لفرسيلوف وكيف كان يمكن أن أكلمه؟ كنت أعرف طوال هذه الأيام الثلاثة أن فرسيلوف سيجيء من تلقاء نفسه، وأنه سيكون هو البادىء بالسعي إليَّ، كما كنت أريد تماماً، لأنني ما كنت لأبدأ أنا بالسعي إليه مهما يكن من أمر، لا معاندة له، بل حباً به، مدفوعاً إلى ذلك بنوع من غيرة المحب، لا أعرف كيف أعبر عنها. ولا بد أن القارئ قد أَلِفَ أن لا يجد في كتابتي فصاحة أو بلاغة. ولكن رغم أنني انتظرته طوال هذه الأيام الثلاثة، وكنت أتصوره بلا انقطاع داخلا عليَّ، فقد كنت عاجزاً عن تخيّل الحديث الذي سيجري بيننا بعد كل ما حدث، مع أنني بذلت جهوداً كثيرة في سبيل أن أتصور ما قد يدور عليه كلامنا.

قال لي دون أن ينهض:

- ها... هاأنت ذا...

ومد إليَّ يده في ودّ، واستطرد يقول:

- اجلس هنا، إلى جانبنا. إن بيتر ايبوليتوفتش يروي لي قصة شائقة

Twitter: @ketab_n

جداً عن تلك الصخرة التي كانت تُرى قريبة من ثكنة بافلوفسكي، أو ربما قريبة من هنا...

فأسرعت أجيب قائلاً وأنا أجلس على كرسي بجانبهما:

- نعم، أعرف تلك الصخرة...

كانا أمام الطاولة. وكانت الغرفة الصغيرة مربعاً لا يتجاوز طول ضلعه أربعة أمتار. وكنت أتنفس بمشقة.

التمع في عيني فرسيلوف وميض فرح: لا شك أنه لم يكن هادئ النفس وكان يتوقع أن أقوم بحركات، ثم اطمأن الآن. وأردف متوجهاً إلى مؤجري:

- أرجوك يا بيتر ايبوليتوفتش أن تعيد قصتك من جديد.

كانا قد أخذا يتخاطبان منذ الآن بالاسم الثنائي، اسم الشخص وأبيه. فالتفت بيتر ايبوليتوفتش إليَّ وبدأ كلامه يقول بعصبية وبعض الاضطراب كأنما هو يخشى سلفاً أن لا يكون لقصته التأثير المطلوب:

- نعم، حدث الأمر في عهد الإمبراطور الراحل[60]. أنت تعرف إذن تلك الصخرة التي تجثم في وسط الشارع ولا تزيد على أن تزعج. لا فائدة منها ولا جدوى. أليس كذلك؟ لقد مر الإمبراطور بذلك المكان مراراً كثيرة، وكانت الصخرة في مكانها دائماً. فضاق بها أخيراً. الحق إنها كانت أشبه بجبل، أشبه بجبل في وسط الشارع، يؤذي منظرها الأبصار. فها هو ذا الإمبراطور الراحل يقول: «فلتختف الصخرة من هذا المكان!» نعم قال: «فلتختف!» تعرفون ماذا يعني أن يقول الإمبراطور الراحل: «فلتختف الصخرة من هذا المكان!» هل تتذكرون الإمبراطور الراحل؟ فما العمل بالصخرة؟ طاش صواب الجميع. وكان الأمر يشغل بال المجلس البلدي والأهم يشغل بال واحد لا أذكر الآن من هو بالضبط، غير أنه من أعلى شخصيات ذلك العهد قد كلَّف بتنفيذ أمر

Twitter: @ketab_n

الإمبراطور الراحل. فإليكم ما عمله ذلك الرجل: لقد قيل له إن تنفيذ أمر الإمبراطور سيكلف خمسة عشر ألف روبل، لا تنقص كوبيكاً واحداً، بل تكلف خمسة عشر ألف روبل فضة (ذلك أن الأوراق المالية قد بدِّلت روبلات فضة في عهد الإمبراطور). «خمسة عشر ألف روبل؟ هل يعقل هذا؟» أراد الإنجليز في أول الأمر أن يمدوا سككاً حديدية، فيزلقوا الصخرة فوقها، ثم يجرونها بقاطرة بخارية. ولكن كم كان يمكن أن يكلف هذا من نفقات؟ لم تكن قطارات السكك الحديدية قد وجدت بعد، وكان خط تسارسكويه سيلو هو الخط الوحيد الذي يعمل...[61]

فقاطعته أقول متبرماً ممتلئ النفس أسفاً وخجلاً أمام فرسيلوف:

- ألم يكن في الإمكان قطعها؟

ولكن فرسيلوف كان يصغي إلى كلام المحدث بسرور ظاهر للعيان. فأدركت أنه يرحب بوجود الرجل، لأنه كان هو أيضاً يشعر بخجل أمامي، ويحس بحرج من الانفراد بي. كان هذا واضحاً لي، حتى لقد كان ذلك منه بادرة مؤثرة.

- قطعها؟ تلك هي بعينها الفكرة التي خطرت بالبال حينذاك. هي فكرة مونفران الذي كان يبني في ذلك العهد كاتدرائية القديس إسحاق. قال سوف نقطع الصخرة نشراً بالمنشار، ثم ننقلها. نعم، ولكن ما النفقات؟

- لا مجال لأي نفقات، تُقطع نشراً بالمنشار ثم تنقل، هذا كل شيء!

- لا، اسمح. كان لا بد من تركيب ماكينة، ماكينة بخارية. ثم إلى أين تنقل الصخرة؟ إلى أين ينقل جبل هذه ضخامته؟ قيل إن النفقات لن تقل عن عشرة آلاف روبل، عشرة آلاف أو اثني عشر ألفا.

- اسمع يا بيتر ايبوليتوفتش. هذه سخافات. لم يحدث هذا كله على هذا النحو...

Twitter: @ketab_n

ولكن فرسيلوف رماني في تلك اللحظة بغمزة خفيفة لا ترى، رأيت فيها إشفاقاً كبيراً على مؤجري بل تألماً شديداً له، فأعجبني ذلك منه كثيراً، وضحكت مجاملاً.

لم يلاحظ الرجل شيئاً وكان يخشى أكبر الخشية كسائر أمثاله من القصاصين أن يقاطعه أحد بإلقاء أسئلة، فقال فرحاً جذلاً:

- نعم، هو كذلك، هو كذلك. لقد جاء شاب من عامة الناس، روسي السحنة تماماً، له لحية صغيرة مدببة، يرتدي قفطاناً طويلاً يغطي الكعبين، ثمل بعض الثمل... بل لم يكن ثملاً. جاء في اللحظة التي كان فيها الإنجليز ومونفران يعقدون مؤتمراً يتبادلون الآراء، ووقف يراقبهم ويستمع إلى أحاديثهم. ووصل الشخص الكبير المكلف بالإشراف على تنفيذ أمر الإمبراطور راكباً عربة فخمة، فأصغى إلى كلام المؤتمرين فثارت ثائرته: كيف تطول المناقشات هذه المدة كلها ثم لا يتوصلون إلى نتيجة؟ وفجأة وقع بصره على ذلك الشاب واقفاً على مسافة غير قريبة، مبتسماً ابتسامة زائفة... لا... ليست زائفة.. ليس هذا هو اللفظ المناسب.. بل.. بل..

فقال فرسيلوف يحاول مساعدته في العثور على الكلمة المناسبة بلباقة:

- ساخرة.

- نعم ساخرة! أقصد ساخرة قليلاً... إنها تلك الابتسامة الروسية الطيبة التي تعرفونها. ومن شدة استياء الرجل الكبير زعق يسأل الشاب:

- «وأنت يا ذا اللحية هناك؟ ما وقوفك؟ ماذا تنتظر؟ من أنت؟»

فأجاب الشاب: - «أنظر إلى الصخرة الصغيرة يا سمو الأمير». نعم بهذا ناداه: سمو الأمير. يبدو لي أنه كان الأمير سوفوروف الإيطالي... بل لا... ليس سوفوروف من أخلاف القائد العسكري[62]... خسارة:

Twitter: @ketab_n

نسيت من هو. ولكن هبه أميراً فلقد كان روسياً صرفاً، كان نموذجاً روسياً حقاً، رجلاً وطنياً، قلباً روسياً رحباً واسعاً. فاستطاع أن يدرك كل شيء. وقال يخاطب الشاب الآتي من الضواحي: - «هيه! أتتولى أنت نقل الصخرة؟ وإلا فما ابتسامتك؟» «يضحكني الإنجليز يا سمو الأمير. فلأن الخزينة الروسية عامرة، ولأن ليس في بلادهم ما يأكلونه، تراهم يطلبون أسعاراً فاحشة! أعطني مائة روبل يا سمو الأمير، فلا ترى للحجر أثراً في مساء غد». في وسعكما أن تتصورا أثر هذا العرض. أراد الإنجليز بالطبع أن يلتهموه. وضحك مونفران. والأمير وحده هذا القلب الروسي الطيب قال: «أعطوه مائة روبل! أتنقل الصخرة حقاً؟» «في مساء غد نكون قد عملْنا عملَنا يا سمو الأمير». «وكيف تعمل حتى تنقلها؟» «لا يسيئنك جوابي يا سمو الأمير إذا قلت: هذا سرنا نحن». قال له ذلك بلغة روسية أصيلة. فأعجب الأمير، وقال: «أعطوه كل ما يريد!» وتركوه هناك، فما تظنّان: هل وفىٰ بما قال؟

توقف المتحدث لحظة عن الكلام، وأجال علينا نظرة رقيقة زاخرة بالعاطفة. فقال فرسيلوف مبتسماً:

- لا أدري.

وكنت أنا متجهم الهيئة.

فهتف المتحدث هتاف المنتصر، كأنه هو الذي حقق المعجزة، هتف يقول:

- إليكما ما عمل. استأجر فلاحين ومجارف... فلاحين روس بسطاء... وبدأوا يحفرون حفرة بجانب الصخرة تماماً. ظلوا يحفرون طول الليل. حفروا حفرة ضخمة، بضخامة الصخرة نفسها... بل أعمق قليلاً. حتى إذا فرغوا من حفر الحفرة، أمَرَهم أن ينزعوا التراب شيئاً فشيئا وباحتراس من تحت الصخرة نفسها، فبعد أن انتهوا من العمل

Twitter: @ketab_n

لم يعد للصخرة بالطبع ما تعتمد عليه وفقدت الصخرة توازنها. دفعوها بأيديهم إلى الحفرة من الجانب الآخر، على الطريقة الروسية الصرفة، وبدون أي استعداد. فسقطت الصخرة في الحفرة! ثم أسرعوا يهيلون عليها بالتراب، ومهدوا التراب بمخباط، وعبدوا الطريق بأحجار صغيرة فعاد الطريق كما كان ولم يبقَ للصخرة أثر!

قال فرسيلوف:

- عظيم!

- وجاء ناس كثير، هرعت جماهير كبيرة. واغتاظ الإنجليز الذين أدركوا كل شيء منذ زمن طويل. ووصل مونفران وقال: هذه طريقة فلاحين، عمل بسيط جداً! ولكن ذلك بعينه هو السر: عمل بسيط جداً، ثم لم يخطر لكم على بال أيها الأغبياء! أما الرئيس الكبير، الشخص الحكومي العظيم، فاحتضن الرجل وقبله، ثم سأله: «من أين أنت؟» فأجابه الرجل: «من إقليم ياروسلافل يا سمو الأمير. مهنتي خياط، وفي الصيف أجيء إلى العاصمة أبيع فاكهة». ووصل الأمر إلى علم السلطات. فأمرت للرجل بميدالية تتدلى من عنقه. ومضى يتجول والوسام في عنقه، ثم مضى يشرب كثيراً كما يقولون. تعلمان أننا معشر الروس لا نستطيع أن نسيطر على أنفسنا. وذلك هو السبب في أننا ما نزال ندع للأجانب أن يأكلونا، أليس كذلك!

بدأ فرسيلوف يقول:

- حتماً، الذكاء الروسي...

ولكن شاء حسن الحظ أن تنادي القصاص امرأته في تلك اللحظة، فهرع إليها. ولولا ذلك لما استطعت أن أصبر. وأخذ فرسيلوف يضحك.

- لكنه يا عزيزي قد سلاّني ساعة كاملة قبل أن تصل... إن قصة

Twitter: @ketab_n

هذه الصخرة. . . هي من أتفه ذلك الركام من القصص المعبرة عن الوطنية الشائعة بين الناس في بلادنا. ولكن كيف أقاطعه؟ لقد كان يذوب فرحاً كما رأيت. عدا ذلك، أظن أن الصخرة لا تزال في مكانها إذا لم أخطىء، ولم ينزلها أحد في حفرة. . .

فهتفت أقول:

- آه! يا ربي! صحيح هذا! كيف تجرأ فزعم ما زعم؟ . .

- ما هذا الذي تقول؟ ما بالك تستاء هذا الاستياء فلا داعي لذلك. لا بد أنه مزج بين شيئين: لقد سمعت في طفولتي قصة من هذا النوع عن صخرة، ولكنها ليست هذه الصخرة بالطبع. كما أن الرواية كانت مختلفة. اسمع: «وصل الأمر إلى علم السلطات». كانت نفسه كلها تغني لحظة قال هذا. إن أمثال هذه الحكايات ضرورية في هذه البيئة المسكينة. وإن عندهم ذخيرة كبيرة منها، ولا سيما بسبب ميلهم إلى المغالاة. إنهم لم يتعلموا شيئاً، ولا يعرفون أمراً من الأمور معرفة دقيقة صحيحة. فهم إلى جانب قيامهم بأعمال مهنتهم ولعبهم الورق، يشتاقون إلى الحديث عن شيء إنساني، شعري. . . من هو بيتر ايبوليتوفتش هذا؟

- إنسان فقير وبائس.

- أرأيت؟ ولعله لا يلعب بالورق أبداً. أكرر قولي إنه إذا روى هذه الحكايات التافهة كان يرضي بذلك ما يملأ نفسه من حب الإنسان لأخيه الإنسان: لقد أراد أن يسرنا. وهو يرضى بذلك أيضاً ما يزخر به قلبه من روح وطنية. يروون مثلاً قصة أخرى عن أن الإنجليز عرضوا على زوفيالوف[63] مليوناً في مقابل أن لا يضع ماركته على بضاعته. . .

- آه! نعم. نعم! أعرف هذه الحكاية. . .

- لا يوجد أحد لا يعرفها، وهو أيضاً كان يعرف تماماً حين روى

Twitter: @ketab_n

لك قصته أنك قد سبق لك أن سمعتها حتماً، ولكنه يرويها مع ذلك، متخيلاً عن عمد أنك لا تعرفها. إن الحكاية التي تتحدث عن رؤيا ملك السويد[64] قد أصبحت قديمة بينهم فيما يبدو، ولكن الناس كانوا في أيام شبابي يتناقلونها في همس ذي دلالة متلذذين. وكذلك تلك القصة الأخرى التي كانت تروى عن شخصية في مطلع هذا القرن أنها جثت راكعة أمام أعضاء مجلس الشيوخ في أحد اجتماعاته[65]. وقد راجت أيضاً قصص كثيرة عن الكومندان باشوتسكي، ومن بين تلك القصص تلك التي تتحدث عن انتزاع النصب التذكاري. إنهم مولعون كثيراً بالقصص المتعلقة بالبلاط. من ذلك مثلاً حكاياتهم عن تشرنيشيف[66]، وهو وزير في عهد الإمبراطور السابق عمره سبعون عاماً استطاع فيما تروي القصة أن يبدل سحنته تبديلاً كبيراً، فإذا رآه أحد لم يخطر بباله أن يكون قد تجاوز من عمره الثلاثين، حتى أن الإمبراطور الراحل كان لا يصدق عينيه حين يراه في الاستعراضات. . .

- هذه أيضاً أعرفها.

- من ذا الذي لا يعرفها؟ إن هذه الحكايات كلها تبلغ الذروة من فساد الذوق. ولكن إعلم أن هذا النوع من فساد الذوق أوسع وأعمق ذيوعاً مما نظن. إن هذه الرغبة في الكذب من أجل مسرة الآخرين تراها حتى في أرقى مجتمع، لأننا نعاني جميعاً من داء الغلو الذي يضطرم في قلوبنا. كل ما هنالك من فرق هو أن قصصنا تنتمي إلى نوع آخر؛ وتصل الحكايات عندنا، عن أميركا وحدها، إلى درجة الخيالية الرهيبة ومن بين القصاصين حتى رجال الدولة. لا أكتمك أنني أنا نفسي أنتمي إلى هذه الفئة المتميزة بفساد الذوق وعانيت من ذلك طول حياتي. . .

- أنا نفسي قصصت حكايات تشرنيشيف مراراً.

- أنت نفسك؟

Twitter: @ketab_n

– في هذا البيت يسكن عداي مستأجر آخر هو موظف مجدور الوجه أيضاً، متقدم في السن، لكنه واقعي إلى درجة رهيبة، فما أن يفتح بيتر ايبوليتوفتش فمه، حتى يأخذ يقاطعه ويعارضه. وقد وصل الأمر إلى أن بيتر ايبوليتوفتش يتملقه ويخدمه كعبد، لا لشيء إلا أن يحمله على الإصغاء إليه.

– وهذا نوع آخر من فساد الذوق، بل لعله أدعى إلى النفور من النوع الأول. الأول حماسة كله. «كل ما أطلبه هو أن تتيح لي أن أكذب، وسوف ترى أن ما سأقوله جميل جداً». أما النوع الثاني فهو خال من روح الشعر، وكله كآبة: «لن أدعك تكذب. أين وقع هذا؟ متى؟ في أية سنة؟» بكلمة هو إنسان لا قلب له. يا صديقي، اسمح دائماً للناس أن يكذبوا قليلاً. هذا شيء بريء. بل إسمح لهم أن يكذبوا كثيراً. فأنت بذلك تبرهن أولاً على رقة شعورك، وأنت بذلك تحصل ثانياً على حق الكذب أيضاً: فائدتان في آن واحد. Que diable (يا للشيطان)[67] يجب على الإنسان أن يحب أخاه الإنسان.

وأضاف فرسيلوف قائلاً وهو ينهض عن كرسيه:

– إنني مستعجل يجب أن أنصرف. مسكنك رائع. سأذكر لصوفيا آندريفنا ولأختك أنني زرتك فوجدتك في صحة حسنة. إلى اللقاء يا عزيزي.

كيف؟ أهذا كل شيء؟ أنا لم تكن حاجتي إطلاقاً إلى هذا. كنت أنتظر شيئاً آخر، كنت أنتظر الشيء الجوهري، رغم أنني أدركت تماماً أن الأمور لا يمكن أن تجري على غير هذا النحو. وسرت معه إلى السلم حاملاً شمعة. وهمَّ المؤجر أن يخرج من غرفته بسرعة، ولكنني أمسكت ذراعه بشدة ورددته بقسوة، دون أن يلاحظ فرسيلوف ذلك، فنظر إليَّ مدهوشاً، ولكنه اختفى فوراً.

Twitter: @ketab_n

قال فرسيلوف في بطء ماطا كلماته، لا لسبب إلا أن يقول شيئاً وخشية أن أقول أنا شيئاً:

- هذه السلالم. . . هذه السلالم. . . نسيت عادة صعودها. . وأنت في الطابق الثالث. . طيب. . الآن أهتدي إلى طريقي. . لا تقلق. . يا عزيزي. . لا تنزل أكثر. . . قد تصاب بزكام.

ولكنني لم أتركه. ونزلنا معاً إلى الطابق الأول. فإذا أنا أقول له:

- انتظرتك ثلاثة أيام.

أفلتت مني هذه الجملة كأنما برغم إرادتي. وكنت أختنق من شدّة الانفعال.

- شكراً يا عزيزي.

- كنت أعلم أنك آت إليَّ حتماً.

- وأنا كنت أعلم أنك تعلم أنني آت إليك حتماً. شكراً يا عزيزي.

وصمت. صرنا أمام الباب الخارجي. وما أزال أتبعه. وفتح الباب، فإذا بالريح تندفع بشدة فتطفىء الشمعة. فأمسكت فجأة ذراعه. وكان الظلام حالكاً. فارتعش ولكنه لم ينطق بكلمة. وارتميت على يده، وأخذت أقبلها بشراهة عدة مرات، بل مراراً كثيرة.

قال:

- لماذا تحبني هذا الحب كله يا بني العزيز؟

إن صوته الآن صوت آخر، صوت مختلج، له نبرة جديدة كل الجدة، لكأن المتكلم شخص غيره.

وأردت أن أجيب، لكنني عجزت عن ذلك، ورجعت أصعد السلم مسرعاً. ولبث هو في مكانه ينتظر. ولم أسمع الباب الخارجي يفتح ثم يغلق مقرقعاً إلا حين صرت في طابقي. وانسللت إلى غرفتي متحاشياً المؤجر الذي خرج مرة أخرى لسبب ما، وشددت المزلاج لأحكم

Twitter: @ketab_n

إغلاق الباب؛ وبدون أن أشعل شمعة، ارتميت فوق سريري مكباً بوجهي على المخدة، وبكيت، وبكيت. تلك أول مرة أبكي فيها بعد مدرسة توشار! وكان نشيجي يخرج من صدري قوياً جداً. . . وكنت أنا سعيد جداً. . . ولكن ما فائدة الوصف!

خططت الآن هذه الأسطر دون أن أشعر بالخجل، لأن ذلك كله لعله كان حسناً رغم كل ما فيه من غرابة مستحيلة.

– 3 –

ولكن أبي حصل على جزائه مني في مقابل ذلك! فقد صرت طاغية. طبيعي أنه لم يجر فيما بعد أي حديث بيننا عن ذلك المشهد الذي جرى في الظلام. التقينا بعد ثلاثة أيام، وكأن شيئاً لم يحدث. حتى لقد كنت فظاً تقريباً أما هو فكان يبدو أيضاً جافاً. وتم اللقاء الثاني في غرفتي كاللقاء الأول، ذلك أنني رغم رغبتي في رؤية أمي لم أردّ له زيارته.

ظلت أحاديثنا طوال تلك المدة، أي خلال هذين الشهرين، تدور على نظريات عظيمة ومسائل مجردة. وهي طبعاً، مسائل إنسانية عامة وضرورية، كنا نحرص حرصاً شديداً على تحاشي الأمر الجوهري. بينما كان هذا الأمر الجوهري بجوانبه الكثيرة هو بعينه ما يتطلب إيضاحاً، بل يتطلب إيضاحاً سريعاً. حتى لم أتكلم لا عن أمي ولا عن ليزا (كنت أزورهما كل أسبوع) ولا عن نفسي في نهاية الأمر، ولا عن قصتي كلها. أفكان هذا الصمت خجلاً، أم كان نوعاً من حماقة الشباب؟ لا أدري. أظن أنه كان نوعاً من حماقة الشباب، لأن الخجل يستطيع المرء أن يتغلب عليه بطريقة من الطرق. . لقد سمت فرسيلوف سوء العذاب. حتى لقد كنت في معاملته وقحاً عدة مرات، وكان ذلك على مضض مني أيضاً: كانت الوقاحة تنطلق من تلقاء ذاتها، على نحو لا سبيل إلى مغالبته

Twitter: @ketab_n

ومقاومته، فكنت لا أملك أن أنهي نفسي عنها. وكان في لهجته هو شيء من سخرية، على عهدي به، وإن تكن هذه اللهجة رقيقة دائماً في منتهى الرقة مهما يكن من أمر. ومما أدهشني أيضاً أنه كان يفضل أن يجيء إليَّ، حتى صرت في النهاية لا أذهب إلى أمي إلا قليلاً، مرة واحدة في الأسبوع لا أكثر، ولا سيما في الآونة الأخيرة، حين طاش صوابي تماماً. وكان يأتي دائماً في المساء، فيجالسني ويثرثر، وكان يحب أيضاً أن يثرثر مع مؤجري، فكان يحنقني أن يصدر هذا عن رجل مثله. وقد برق في ذهني خاطر: أتراه ليس له أحد عداي يذهب إليه؟ ولكنني كنت أعلم علم اليقين أن له معارف، حتى أنه في المدة الأخيرة قد جدد كثيراً من العلاقات القديمة بالمجتمع الراقي، بعد أن أهمل تلك العلاقات في السنة الماضية. ولكن كان لا يبدو مفتوناً بهذه العلاقات كثيراً، ولم يجدد عدداً كبيراً منها إلا تجديداً رسمياً شكلياً، وإنما هو يؤثر في أن يجيء إليَّ. ومما يؤثر في قلبي أحياناً أنه حين يجيء في المساء، يكاد يشعر كلَّ مرة تقريباً بشيء من الخجل لحظة يفتح الباب، فينظر إليَّ في البرهة الأولى بعينين تعبران عن قلق خاص كأنه يسأل: «ألا أضايقك؟ إذا كنت أضايقك فقل لي ذلك فأنصرف!» بل كان يلقي السؤال أحياناً. ففي ذات مرة، مثلاً، في الآونة الأخيرة، دخل عليَّ وكنت قد فرغت من ارتداء بدلة جديدة جاءتني من عند الخياط منذ لحظة، وكنت أتهيأ للخروج ذاهباً إلى «الأمير سرجي» من أجل أن نمضي معاً إلى مكان نقصده (أما ما هذا المكان، فسوف أشرح ذلك فيما بعد). دخل فرسيلوف وجلس، ربما دون أن يلاحظ أنني أتهيأ للخروج. إن له ذهولا عجيباً في بعض الأحيان. وبما يشبه المصادفة، أدار الحديث عن المؤجر. فثارت ثائرتي، وقلت:

– آه! ليذهب المؤجر إلى الشيطان!

فإذا هو ينهض فجأة، ويقول:

Twitter: @ketab_n

- آه! يا عزيزي. أظن أنك تتهيأ للخروج، وأنني أضايقك، فسامحني، أرجوك. . .

وأسرع يخرج بمذلة. إن هذه المذلة يظهرها لي رجل مثله، رجل يبلغ منزلته في المجتمع الراقي، ويتصف بما يتصف به من روح الاستقلال، ويملك ما يملكه من أصالة الشخصية، إن هذه المذلة كانت لا تلبث أن تثير في قلبي على الفور كل ما يضمره له من محبة وحنان، وكل ما يحمله له من ثقة به. ولكن إذا كان يحبني هذا الحب كله فلماذا لم يزجرني حين لطخت نفسي بالعار؟ كان يكفي أن يقول لي حينئذ كلمة واحدة حتى أتوقف وأسيطر على نفسي. أو ربما كان لا يكفي ذلك. ولكنه كان يرى فرط غندرتي، ويلاحظ تعاليَّ وتبجّحي، ويبصر سائق عربتي الحوذي ماتفي (حتى لقد أردت مرة أن أوصله إلى بيته بعربتي فرفض، بل لقد تكرر ذلك مراراً فكان في كل مرة يرفض). وكان يرى أنني أتلف أموالاً طائلة، ثم هو لا يقول كلمة واحدة، ولا ينطق بحرف واحد، بل لا يبدي أي ميل إلى الاستطلاع! إن هذا لا يزال يدهشني حتى اليوم. وكنت أنا لا أتحرج أمامه. بل كنت أعرض كل شيء، دون أي شرح أو تعليق طبعاً. كان هو لا يسألني، وكنت أنا لا أتكلم من تلقاء نفسي.

ومع ذلك أوشكنا مرتين أو ثلاث مرات أن نتكلم عن الأمر الجوهري، فسألته مرة في البداية بعد التنازل عن الميراث بفترة قصيرة مم سيعيش الآن، فأجابني قائلاً بصوت هادىء هدوءً خارقاً:

- سأدبر أمري بطريقة ما يا صديقي.

إنني أعلم الآن أن المبلغ الصغير الذي تملكه تاتيانا بافلوفنا، والذي يصل إلى خمسة آلاف تقريباً قد أُنفق نصفه على فرسيلوف في هاتين السنتين الأخيرتين.

Twitter: @ketab_n

ومرة تكلمنا عن أمي. قال فجأة بحزن:

- كثيراً ما قلت لصوفيا آندريفنا في مطلع حياتنا المشتركة، بل في مطلعها ووسطها ونهايتها: «يا عزيزتي، إنني أعذبك وسأظل أعذبك عذاباً شديداً؛ ولست آسف لذلك ما دمت أمامي. ولكنني أعلم أنني سأموت ندماً إذا أنت مت».

وإني لأذكر من جهة أخرى أنه كان في ذلك المساء صريحاً صراحة خاصة، وقال:

- ليتني على الأقل كنت امرءاً تافهاً لا إرادة له، متألماً من أنه كذلك! ولكن لا. فأنا أعلم أنني قوي قوة لا نهاية لها. ما مكمن قوتي في رأيك؟ إن قوتي هي في هذه القدرة المباشرة على التلاؤم مع كل شيء، وهي قدرة يتميز بها جميع الروس الأذكياء من أبناء جيلنا. لا شيء يستطيع أن يدمرني ويقضي عليّ، ولا شيء يستطيع أن يدهشني. إنني قوي التحمل ككلب الحراسة. أستطيع أن أحس عاطفتين متعارضتين في لحظة واحدة معاً، بسهولة لا تفوقها سهولة، ودون أن تشارك في ذلك إرادتي طبعاً. ولكنني أعرف مع ذلك أن هذا أمر فيه حطة، لأن فيه فرط تعقل. لقد عشت حتى الآن قرابة خمسين عاماً، وما أزال إلى الآن أجهل أهو شر أم هو خير أن أبلغ هذه السن. لا شك في أنني أحب الحياة، وهذا ما تشهد به الوقائع. ولكن حب الحياة عند رجل مثلي، شيء فيه خسة. هناك أمور جديدة في هذه الأزمنة الأخيرة: فأمثال كرافت لا يتلاءمون فينتحرون. واضح أن أمثال كرافت حمقى. ومعنى ذلك أننا نحن أذكياء. فليس هناك تواز يمكن أن نقيمه، وتبقى المسألة مفتوحة. هل يعقل أن لا تكون الأرض قد وجدت إلا لأناس مثلنا؟ أغلب الظن أن الجواب سيكون بالإيجاب... ولكن هذه الفكرة تحزن النفس. على كل حال تبقى المسألة مفتوحة.

Twitter: @ketab_n

كان يتكلم بحزن. ومع ذلك لا أدري أكان صادقاً أم لا؟ إن في نفسه على الدوام نوعاً من سر لا يريد أن يكشف عنه بحال من الأحوال.

– 4 –

أغرقته عندئذ بالأسئلة. هجمت عليه هجوم الجائع على قطعة خبز. فكان يجيبني دائماً بمودة وصراحة، ولكنه ينتهي في الختام إلى حِكَم عامة وأقوال مأثورة، فيستحيل عليَّ أن أستخرج من أقواله شيئاً. وكانت هذه الأسئلة جميعها قد أقلقتني طوال حياتي. وإني لأعترف بأنني كنت أرجىء طلب الإجابة عنها دائماً في موسكو إلى حين لقائنا في بطرسبرج. حتى لقد أعلنت له ذلك، فلم يسخر مني، بل شد على يدي على ما أتذكر. فيما يتعلق بالسياسة العامة والمسائل الاجتماعية لم أستطع أن أنتزع منه شيئاً على وجه التقريب؛ وكانت هذه المسائل مع ذلك هي التي تقلقني أكثر من كل ما عداها، بحكم «فكرتي». وفيما يتعلق بأناس مثل درجاتشيف استطعت أن أنتزع منه في ذات مرة هذه الملاحظة: «إنهم أدنى من أي نقد». ولكنه سرعان ما أردف يضيف بغرابة أنه «يحتفظ لنفسه بهذا الحق: وهو أن لا يخلع على رأيه هذا أي قيمة ذات بال». أما ما ألقيته عليه من أسئلة عن الدول المعاصرة ما مآلها، وعن العالم ما مصيره، وعن العالم الاجتماعي كيف يتجدد، فإنه أصم أذنيه عن سماعه زمناً طويلاً، ثم استطعت في النهاية أن أنتزع منه بصعوبة بالغة بضعة كلمات. فقال ذات مرة:

– أظن أن هذا كله سيتم على نحو عادي جداً. إن جميع الدول، رغم توازن الميزانيات، و«عدم وجود عجز» ستفيق ذات صباح، فإذا هي متورطة تورطاً حاسماً، وترفض جميعها أن تدفع وإذا هي جميعها في إفلاس شامل. ولكن جميع العناصر المحافظة في العالم بأسره

Twitter: @ketab_n

ستناهض هذا، لأن هذه العناصر ستكون هي مالكة الأسهم وستكون هي الدائنة، فلا تريد أن تقبل الإفلاس. وبطبيعة الحال، ستحدث عندئذ الأكسدة العامة إذا جاز التعبير: يزداد كثيراً عدد اليهود، ويقوم حكمهم، وبعد ذلك، فإن جميع الذين لم يملكوا أسهماً في يوم من الأيام، ولا ملكوا شيئاً بعامة، أي جميع الشحاذين، سيرفضون المساهمة في الأكسدة طبعاً. . . فتقوم المعركة. . وبعد سبع وسبعين هزيمة يبيد الشحاذون مالكي الأسهم، ويأخذون أسهمهم، ويحلون محلهم، كمساهمين أيضاً بطبيعة الحال. وقد يقولون شيئاً جديداً، وقد لا يقولون. وأغلب الظن أنهم سيفلسون هم أيضاً. أما فيما عدا هذا يا صديقي، فإنني لا أستطيع أن أوغل مزيداً من الإيغال في قراءة المصائر التي سوف تغير وجه العالم. على كل حال، إقرأ رؤيا يوحنا. . .

- ولكن هل ستكون الأمور مادية إلى هذا الحد؟ هل شؤون المال وحدها هي التي ستنهي العالم الحاضر؟

- آه! أنا لم أنظر إلا إلى زاوية من اللوحة طبعاً، ولكن هذه الزاوية مرتبطة بسائرها ارتباطاً لا انفصام له.

- فما العمل إذن؟

- أوه، يا ربي! لا تسرف في التسرع، هذا كله ليس وشيك الحدوث. أفضل شيء على كل حال، هو أن لا يعمل المرء شيئاً البتة. فيكون ضميرك مرتاحاً على الأقل، لأنك لا تكون شاركت في أي شيء. . .

- دعنا من هذا الكلام. لنتكلم جادين. أريد أن أعرف ما الذي يجب عليَّ أن أفعله، وكيف ينبغي أن أعيش؟

- ما الذي يجب عليك أن تفعله يا عزيزي؟ كن شريفاً، لا تكذب أبداً، لا تشته أن تملك منزل جارك. . . الخلاصة: عليك بالوصايا

Twitter: @ketab_n

العشر فاقرأها. . . إن كل شيء مدون فيها إلى الأبد.

- كفى، كفى، هذا كله قديم جداً، وما هو إلا ألفاظ، وإنما المهم أن نعمل.

- طيب، إذا كنت فريسة ضجر شديد، فحاول أن تحب أحداً أو أن تحب شيئاً، أو حتى أن تتعلق بشيء.

- إنك لا تزال تسخر! ثم ما عساي أفعل وحدي، باتباع وصاياك العشر؟

- تطبقها غير متشرد بين المشكلات والشكوك فتصبح إنساناً عظيماً.

- مجهولاً من جميع الناس.

- لا سر يبقى خافياً.

- إنك ما تزال تسخر!

- طيب، إذا كنت تأخذ كل شيء مأخذ الجد إلى هذه الدرجة، فالأفضل أن تسارع إلى التخصص: كن مهندساً أو محامياً. فيكون لك شاغل حقيقي جدي، وتهدأ بالاً، وتنسى جميع هذه الأمور الصبيانية التافهة.

سكت. ما عسى أستطيع أن أستخرج منه؟ ولكنني كنت بعد كل حديث من هذه الأحاديث أضطرب مزيداً من الاضطراب، ويزداد قلقي عما كان عليه من قبل. ثم إنني كنت أرى رؤية واضحة أنه لا يزال في نفسه نوع من سر لا يكشف عنه. وكان هذا ما يجذبني إليه مزيداً من الجذب يوماً بعد يوم.

قاطعته يوماً أقول:

- اسمع، لقد ساورني دائماً أنك لا تقول هذا الكلام إلا عن غضب وألم، أما في قرارة نفسك فإنك شديد الحماسة لفكرة عليا تخفيها أو تخجل من الاعتراف بها.

Twitter: @ketab_n

- شكراً يا عزيزي.

- اسمع! لا شيء أسمى من أن يكون المرء نافعاً. فقل لي: في أي شيء يمكنني في اللحظة الحالية أن أكون نافعاً أكبر نفع؟ أعرف أنك لن تحل المسألة. ولكنني في حاجة إلى رأيك: قل لي رأيك، فآخذ به! حدّد لي ما هي الفكرة العظيمة إذاً؟

- تبديل الحجارة خبزاً[68]، هذه هي الفكرة العظيمة.

- أعظم فكرة؟ الواقع أنك رسمت طريقاً كبيراً. ولكن قل لي: أهذه أعظم فكرة؟

- هي عظيمة جداً يا صديقي، عظيمة جداً. ولكنها ليست العظمى. هي عظيمة، ولكن عظمتها من مرتبة ثانية، وهي عظيمة في الوقت الراهن فحسب: فمتى شبع الإنسان لم تبق عظيمة. بل إن الإنسان سرعان ما سيقول: «طيب، هاأنذا شبعت، فماذا أعمل الآن؟». ويبقى السؤال قائماً إلى الأبد.

- لقد تكلمت ذات مرة عن «آراء جنيف». ولم أفهم أنا ما «آراء جنيف» هذه.

- «آراء جنيف» يا صديقي، هي الفضيلة بغير يسوع المسيح[69]. تلك هي أفكار هذه الأيام، بل قل هي فكرة الحضارة الحديثة كلها. الخلاصة: هذه حكاية من تلك الحكايات الطويلة التي تبعث على الضجر والسأم. فأحرى بنا أن نتكلم عن شيء آخر، والأفضل أن نصمت.

- تود دائماً لو تصمت!

- تذكر يا صديقي أن الصمت جيد، لا خطر منه، وأنه جمال.

- الصمت جميل؟

- طبعاً. الصمت جميل دائماً، والصامت أجمل من المتكلم دائماً.

Twitter: @ketab_n

ولكن الكلام على نحو ما نتكلم أنا وأنت أشبه بالصمت على كل حال. تباً لهذا الجمال، وأكثر من ذلك، تباً لهذه الفائدة.

قال لي فجأة وهو يغير لهجته قليلاً، حتى لقد كان كلامه عاطفياً وكان فيه شيء من إلحاح خاص:

- يا عزيزي، لا أريد أبداً أن أغويك فأبدل مثلك العليا بفضيلة من الفضائل البرجوازية. لا أريد أن أقول لك إن «السعادة خير من البطولة». بالعكس: البطولة أسمى من أي سعادة، واستعداد المرء للبطولة هو في ذاته سعادة. ذلك الأمر لا جدال فيه بيننا. تلك مسألة محلولة. وإذا كنت أحترمك فلأنك استطعت في عصرنا العفن هذا أن تنشىء لك في قرارة قلبك «فكرة» (اطمئن، أنني أتذكر هذا الأمر). ولكن يستحيل عليك أن لا تفكر أيضاً في الاعتدال. ذلك أنك تحلم الآن بحياة لها دوي، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا، وأن تحطّم لا أدري ماذا، أن تسمو فوق روسيا كلها، أن تمر مرور سحابة رعد، أن تغرق العالم كله في الرعب والإعجاب، ثم تمضي تختفي في الولايات الأميركية الشمالية. إن في قلبك شيئاً كهذا بظني، لذلك أرى أن من المفيد أن أحذرك، لأنني أحمل لك عاطفة صادقة.

ماذا كان في وسعي أن أستخرج من هذا أيضاً؟ إن هذا الكلام لا يتضمن إلا قلقاً عليَّ بصدد حالتي المادية. هو الأب بعواطفه الخالية من كل روح شعرية، وإن تكن عواطف طيبة. ولكن أهذا ما كنت في حاجتي إليه إزاء أفكار ينبغي لكل أب صادق أمين أن يرسل ابنه إلى الموت تضحية في سبيلها، كما فعل هوراس القديم بأبنائه في الزمان الخالي من أجل الفكرة الرومانية؟[70]

وكنت أسأله كثيراً عن الدين، ولكن الضباب في هذا المجال كان أكثف من الضباب في كل مجال آخر. فإذا سألته عن رأيه في هذا

Twitter: @ketab_n

المجال؟ أجابني أغبى إجابة، كما يجاب طفل صغير، فقال: «يجب أن تؤمن بالله يا عزيزي!».

وقد اشتد حنقي مرة فهتفت أقول له:

- فإذا كنت لا أؤمن بهذا كله؟

فإذا هو يقول لي:

- ذلك حسن جداً يا عزيزي!

- حسن جداً؟ كيف؟

- هذه علامة طيبة جداً يا صديقي، بل هي أضمن علامة، لأن الملحد الروسي - هذا إذا كان ملحداً حقاً وكان على شيء ولو قليل من الذكاء - هو خير إنسان في هذا العالم، فهو يميل دائماً إلى أن يعامل الله بالحسنى لأنه طيب من كل بد، وهو طيب لأنه مسرور بإلحاده سروراً كبيراً. إن الملحدين في بلادنا روسيا أناس جديرون بالاحترام، أناس يوثق بهم إلى أقصى حد، وهم دعامات الوطن إن صح التعبير...

هذا شيء طبعاً. لكنه ليس كل ما كنت أريده. مرة واحدة فقط أفصح عن فكرته، ولكن بطريقة تبلغ من الغرابة أن دهشتي ازدادت، ولا سيما بعد الذي ترامى إلى سمعي عما يأخذ به نفسه من كفارات ومن عبادات كاثوليكية. قال لي يوماً، ولم تكن في البيت بل في الشارع، بعد حديث طويل، وكنت أوصله إلى منزله:

- يا عزيزي، يا صديقي، إن حب البشر على ما هم عليه أمر مستحيل. ومع ذلك يجب أن تحبهم. لذلك يجب أن تصنع لهم خيراً وأن تكظم عواطفك وتسد أنفك وتغمض عينك (هذا الشرط الأخير لا غنى عنه). تحمل ما يفعلون من شر ولا تؤاخذهم إن استطعت، «متذكراً أنك أنت أيضاً إنسان». هذا لا ينفي أن من حقك أن تقسو

Twitter: @ketab_n

عليهم إذا وهب لك أن كان ذكاؤك أعلى ولو بقليل من متوسط ذكائهم. البشر منحطون بطبيعتهم، وهم يحبون أن يحبوا عن خشية وخوف. فلا تستسلم لهذا الحب، ولا تكف عن احتقارهم. في سورة من سور القرآن يأمر الله نبيه بأن ينظر إلى الكفار نظرته إلى فئران، وأن يحسن إليهم، ويمضي في طريقه. إن في هذا شيئاً من تعال، ولكنه صدق وحق. فاحتقر البشر، حتى حين يكونون طيبين، فحين ذلك إنما هم أشد ما يكونون عفناً ونتناً. آه، يا عزيزي، أنا لا أقول هذا الكلام إلا لأنني أعرف نفسي معرفة جيدة! لا يملك إنسان غير غبي إلا أن يحتقر نفسه، شريفاً كان أو غير شريف. يستحيل على الإنسان أن يحب أخاه الإنسان ولا يحتقره. رأيي أن الإنسان خُلق بتكوين جسمه عاجزاً عن حب أخيه الإنسان. لقد وقع خطأ لغوي منذ البداية. ما ينبغي أن تفهم من «حب الإنسانية» إلا الإنسانية التي خلقتها لنفسك في قرارة قلبك (بتعبير آخر: أنا أخلق نفسي وأخلق لها الحب)، أي الإنسانية التي لن توجد حقيقة واقعة في يوم من الأيام أبداً.

- لن توجد أبداً؟

- أعترف يا صديقي بأن ذلك أمر سخيف، ولكن ليس الذنب ذنبي أنا. وكما لم أُسأل رأيي حين خُلق العالم، فإني أحتفظ لنفسي بالحق أن يكون لي رأي.

هتفت أقول:

- كيف يمكن بعد هذا أن يقال عنك أنك مسيحي متحمس ومبشّر، وأنك راهب تأخذ نفسك بكفارات وعبادات؟ لا أفهم!

- من ذا يقول عني هذا؟

فقصصت عليه ما سمعت. فأصغى إلى كلامي بانتباه شديد، ولكنه توقف عن الحديث. . .

Twitter: @ketab_n

لا أفلح في تذكر المناسبة التي جرتنا إلى هذا الحديث الذي لا أنساه. ولكنني أذكر أنه زعل، وذلك أمر كان لا يكاد يحدث له أبداً. كان يتكلم باندفاع، وبغير سخرية، كأنما هو يوجه كلامه إلى شخص غيري. ولكنني هنا أيضاً لم أصدقه: أيعقل أنه يتناول جدياً مع شخص مثلي موضوعات كهذه؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

- 1 -

في ذلك الصباح من 15 تشرين الثاني رأيته عند «الأمير سرجي». إنني أنا الذي وصلت بينهما، ولكن كان بينهما نقاط التقاء كثيرة من قبل أن أصل أنا بينهما (أقصد تلك القصص التي وقعت بينهما في الخارج، إلخ). وعدا ذلك كان الأمير قد قطع له عهداً بأن يخصص له ثلث الميراث على الأقل، أي قرابة عشرين ألف روبل من كل بد. وأذكر أنني قد دهشت من أن يخص فرسيلوف بثلث الميراث لا بنصفه. ولكنني لم أقل شيئاً. ولقد بذل الأمير هذا الوعد بمبادرة منه. أما فرسيلوف فلم ينطق بنصف كلمة، لم ينبس بحرف. إن الأمير هو الذي قدَّم العرض، فلم يقابله فرسيلوف إلا بالصمت، ولا ذكَّر به في يوم من الأيام، ولا بدا عليه أن يتذكره البتة. يجب أن أشير عابراً إلى أن الأمير قد افتتن به في أول الأمر افتتاناً كبيراً، ولا سيما بأحاديثه، حتى لقد تحمس له، وأعرب لي عن ذلك مراراً. بل إنه كان في بعض الأحيان، حين يخلو إلي، يهتف قائلاً عن نفسه بما يشبه اليأس «إنه إنسان ضئيل الحظ من الثقافة، وإنه يسير في طريق خطأ»... آه! كنا حينئذ صديقين حميمين! وقد حاولت من جهتي أن أوحي إلى فرسيلوف برأي حسن في الأمير، مدافعاً عن عيوبه، مع أنني أراها. ولكن فرسيلوف كان يبقى صامتا أو كان يبتسم.

Twitter: @ketab_n

وقد صحت ذات يوم أقول لفرسيلوف منفرداً به:

- إذا كانت له عيوب، فإن له مزايا تساويها.

فأجابني فرسيلوف وهو يضحك ساخراً:

- إنك تبالغ في مدحه وأي مبالغة!

- أين المبالغة؟ لست أفهم؟

- تقول إن مزاياه تساوي عيوبه. فلو كانت له مزايا بقدر عيوبه لغدا قديسا!

ولم يكن هذا رأياً بطبيعة الحال. حينئذ كان يتحاشى الكلام عن الأمير كتحاشيه الكلام عن الأمور الجوهرية عامة، بل كان تجنبه الكلام عن الأمير أشد من تجنبه الكلام عن تلك الأمور الجوهرية. وكنت أقدر أنه يزور الأمير في غيابي، وأن بينهما علاقات خاصة. ولكنني كنت راضياً بالأمر. وكان لا يثير غيرتي أن يكون في حديثه مع الأمير من الجد والوضوح والإيجابية إذا صح التعبير أكثر مما في حديثه معي من مثل ذلك كله، وأن يتميز حديثه إليه بسخرية أقلّ من سخرية حديثه إليّ. بل قد بلغت من فرط السعادة أن ذلك كان يرضيني ويعجبني. وكان يشفع لفرسيلوف في هذا عندي أن الأمير رجل محدود الذكاء قليلاً، فيحتاج حتى يفهم إلى دقة في العبارات، ويفوته إدراك معنى بعض الأمازيح. ولكن ها هو ذا قد أخذ يتحرر في الآونة الأخيرة. وبدا أن عواطفه نحو فرسيلوف قد تتغير. ولاحظ فرسيلوف ذلك بما أوتي من رهافة الحس. ولاحظت تغيراً كهذا في علاقات الأمير بي. حتى لقد كان هذا التغير واضحاً كل الوضوح. فلم يبق من صداقتنا الأولى الحارة إلا صور ميتة. ومع ذلك ظللت أذهب إليه. وهل كان يمكنني أن أفعل غير هذا بعد أن أبحرت؟ آه. . . ما كان أشد سذاجتي! أمعقول أن بساطة القلب يمكنها أن تودي بإنسان إلى مثل هذه الدرجة من الخراقة والحطة؟

Twitter: @ketab_n

كنت أقبل منه مالاً، وفي ظني أن ذلك ليس له شأن، وأنه من طبيعة الأمور. بل قل لم يكن الأمر كذلك: لقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذا ليس ما كان يجب علي أن أعمله، ولكنني كنت لا أفكر في الأمر كثيراً، ولا أتلبث عليه طويلاً. ولم أكن أذهب إليه من أجل المال، رغم حاجتي الشديدة الرهيبة إلى المال. وكنت أعلم أنني لا أذهب إليه من أجل المال، ولكنني أدرك أنني أجيء كل يوم فآخذ مالاً. على أنني أدور في الزوبعة وكانت نفسي عدا ذلك مشغولة بشيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف. كانت نفسي كلها تغنِّي!

حين دخلت في نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح، وجدت فرسيلوف عند الأمير مشارفاً على ختام حديث مستفيض. كان الأمير يصغي وهو يذرع الغرفة ذاهباً آيباً. أما فرسيلوف فكان جالساً. وكان يبدو على الأمير شيء من الاضطراب. إن فرسيلوف يبث في نفسه بعض الاضطراب دائماً تقريباً. فالأمير شديد التأثر إلى درجة السذاجة، وكان هذا يجعلني أنظر إليه من عل في أكثر الأحيان. ولكنني أعود فأكرر أنه في هذه الأيام الأخيرة قد ظهر فيه شيء من خبث وشر. فلما رآني توقف، وتقبض وجهه قليلاً. وكنت أعرف بيني وبين نفسي كيف أفسر هذا الظل يظهر على وجهه في ذلك الصباح، ولكنني لم أتوقع أن تتبدل سحنته هذا التبدل. كنت أعلم أن هناك أنواعاً شتى من المنغصات قد تراكمت عليه، ولكن المؤسف أنني كنت لا أعرف إلا عشر معشارها، وكان ما عدا ذلك سراً أجهله جهلاً تاماً. وكان من الحماقة والوقاحة أنني كنت أحياناً كثيرة أحاول أن أواسيه وأن أسدي إليه بالنصح، دون أن يفوتني أن أسخر من ضعفه في استعلاء قائلاً له: ما هذا الاضطراب بسبب هذه «الترهات»! وكان يلتزم الصمت. ولكن يستحيل أن لا يكرهني كرهاً رهيباً في تلك اللحظات: لقد كنت في وضع زائف دون

Twitter: @ketab_n

أن يخطر ببالي ذلك. آه... شهد الله أن الأمر الجوهري ما كان يدور في خلدي، ولا كان يخطر لي على بال!

ومع ذلك مد إليَّ يده بحركة مهذبة. وهز فرسيلوف رأسه محيياً دون أن يقطع حديثه. وتمددت على الديوان. يا لها من لهجة ويا لها من أساليب كنت ألجأ إليها في ذلك الوقت! كنت أزداد غلواً في الطيش، وأعامل أصدقاءه معاملة أصدقائي. آه... لو كان يمكن أن أتقهقر الآن في الزمان إلى الوراء، لسلكت سلوكاً آخر...

كلمتان أخيرتان قبل أن أنسى: كان الأمير ما يزال يسكن تلك الشقة نفسها، لكنه يشغلها الآن كلها تقريباً، فإن مالكتها ستولبييفا لم تقض فيها إلا شهراً واحداً ثم سافرت.

- 2 -

كانا يتكلمان عن طبقة النبلاء. يجب أن أذكر أن هذه المسألة كانت تشغل بال الأمير كثيراً في بعض الأحيان، رغم ما يصطنعه من مظاهر التقدمية؛ حتى لأعتقد أن كثيراً من الجوانب السيئة في حياته قد نشأت عن ذلك، أو بدأت بذلك: إنه من فرط ولوعه بلقب الأمير قد قضى حياته كلها يبذر المال ويغرق في الديون مدفوعاً بزهو باطل وكبرياء كاذبة، رغم أنه لا يملك ثروة. وقد أسمعه فرسيلوف مراراً أن النبالة ليست في هذا، وحاول أن يدخل في قلبه تصوراً أرفع من هذا التصور. ولكن الأمير تأذى في آخر الأمر، وأهانه أن يلقنه أحد دروساً. ولا شك أن مشهداً من هذا النوع كان يجري في ذلك الصباح، ولكنني لم أحضر بدايته. وقد بدت لي أقوال فرسيلوف في البداية رجعية، ولكنه استدرك بعد ذلك.

كان يقول (وأنا أنقل المعنى وحده بقدر ما تسعفني الذاكرة):

Twitter: @ketab_n

- إن كلمة شرف تعني الواجب. فحين تسيطر في دولة من الدول طبقة عليا، فإن البلاد تكون قوية عزيزة الجانب. ولهذه الطبقة دائماً شرفها ولها دائماً ديانة شرف تعتنقها. وقد تكون هذه الديانة خطأ ولكنها رباط يحقق تلاحم البلاد دائماً تقريباً، فهي نافعة في الأخلاق، وهي نافعة في السياسة خاصة. ولكن العبيد يتألمون وأعني بالعبيد جميع أولئك الذين لا ينتمون إلى تلك الطبقة؛ فمن أجل أن لا يتألموا توهب لهم المساواة في الحقوق. هذا ما حدث عندنا، وهو أمر حسن جداً. غير أن جميع التجارب التي تمت حتى الآن، وفي كل مكان (أي في أوروبا)، تدل على أن المساواة في الحقوق تؤدي إلى انخفاض في مستوى الشرف، وفي مستوى الواجب تبعاً لذلك. فالأنانية حلت محل الفكرة القديمة التي كانت تشد البلاد برباط قوي، وصار كل شيء إلى حرية للأفراد. فلما تحرر البشر، وخلوا من فكرة تشد بعضهم إلى بعض، بلغوا في آخر الأمر من فقدان كل رابطة عليا أنهم أصبحوا لا يدافعون عن حريتهم. ولكن النبالة الروسية لم تشبه النبالة الأوروبية في يوم من الأيام. وحتى في أيامنا هذه، بعد أن فقدت حقوقها، تظل نبالتنا قادرة على أن تبقى طبقة عليا تحافظ على الشرف والأنوار والعلم والفكرة السامية، ولا سيما إذا هي كفت عن أن تكون طبقة مغلقة، وإلا كان في انغلاقها موت الفكرة. وقد ظلت أبواب النبالة في بلادنا مشقوقة منذ مدة طويلة، والآن حان الوقت الذي يجب أن تفتح فيه هذه الأبواب على مصاريعها. فإذا كل مأثرة من مآثر الشرف أو العلم أو الشجاعة تهب لصاحبها في بلادنا حق الانتماء إلى هذه الطبقة العليا فبذلك تستحيل الطبقة من تلقاء نفسها إلى جمع يضم خيار الناس بالمعنى الصادق الحق لهذه الكلمة، لا بالمعنى القديم من حيث أنها طبقة مغلقة ذات امتيازات. ففي هذه الصورة الجديدة، أو قل هذه الصورة المجددة

Twitter: @ketab_n

يمكن أن تبقى هذه الطبقة وأن تستمر.

فكشف الأمير عن أسنانه قائلاً:

- وماذا يبقى عندئذ من النبالة؟ إن ما تتصوره لهو محفل ماسوني لا طبقة نبلاء.

يجب أن أعود فأكرر أن الأمير رجل جاهل جهلاً رهيباً، حتى لقد استدرت على ديواني غضباً، رغم أنني لم أوافق فرسيلوف على ما قاله موافقة تامة. وأدرك فرسيلوف أن الأمير حانق. فأجاب يقول له:

- لا أدري ماذا تعنيه بالماسونية. ولكن إذا رفض حتى أمير روسي هذه الفكرة، كان معنى ذلك أن الوقت لم يحن بعد، وأن الفكرة سابقة لأوانها. صحيح أن الفكرة القائلة بأن الشرف والثقافة شرطُ الانتماء إلى طبقة لا تغلق أبوابها ولا تجمد على حالها بل ما تنفك تتطور وتتجدد، هي طوباوية، ولكن هل هي مستحيلة؟ يكفي أن هذه الفكرة قائمة ولو في عدد قليل من الأذهان حتى تقول إنها لم تضع، فهي تسطع كسطوع نقطة مضيئة في ظلمات كثيفة. قال الأمير:

- أراك تحب أن تستعمل هذه الألفاظ: «فكرة عليا»، «فكرة كبيرة»، «فكرة تربط الناس وتشدهم بعضهم إلى البعض» إلخ. فأريد أن أفهم ما الذي تعنيه على وجه الدقة من قولك: «فكرة كبيرة»؟

فأجاب فرسيلوف بتهكم ناعم:

- لا أدري في الواقع بماذا أجيبك يا عزيزي الأمير. بل لعلني أكون أقرب إلى الصدق إذا قلت لك إنني عاجز عن الإجابة. إن الفكرة الكبيرة هي في العادة عاطفة تظل أحياناً بدون تعريف خلال مدة طويلة جداً. ولكنني أعلم أن هذه العاطفة هي ما ولد الحياة الحية دائماً، أقصد الحياة التي ليست حياة مصطنعة قائمة على الألفاظ، بل حياة حقة، حياة يتدفق فيها الفرح ولا يخالطها ضجر. فالفكرة العليا التي تنبع منها هذه الحياة

Twitter: @ketab_n

هي إذن ضرورة لا غنى لها، وإن ساءت الناس طبعاً.

- ولماذا تسوء الناس؟

لأن الناس يسأمون أن يعيشوا بأفكار، ويبهجهم أن تخلو معيشتهم منها.

وبلع الأمير هذه الغمزة. ثم قال يسأل (وقد استعر غضبه بوضوح):

- وما تلك الحياة الحية في رأيك؟

- لا أدري أيضاً يا أمير. ولكنني أعرف أنها شيء بسيط غاية البساطة، شيء عادي إلى أبعد الحدود، شيء ظاهر للعيان كل يوم في كل دقيقة، بل شيء يبلغ من البساطة أننا لا نصدق إطلاقاً أنها تبلغ هذا المبلغ من البساطة، ونمر بها طبعاً منذ ألوف السنين دون أن نلاحظها أو أن نتعرفها.

قال الأمير:

- لكنني أردت أن أقول إن فكرتك عن النبالة هي في الوقت نفسه إنكار النبالة ونفي لها.

- فاعلم إذاً، ما دمت حريصاً على ذلك، أن النبالة لعلها لم توجد عندنا في يوم من الأيام.

- هذا الكلام كله غامض غموضاً رهيباً، مبهم إبهاماً فظيعاً. حين يتكلم الإنسان، يجب عليه في رأيي أن يشرح ويوضح. . .

وتغضَّن جبين الأمير، وألقى نظرة سريعة على الجدار. فتناول فرسيلوف قبعته ونهض وهو يقول:

- يشرح ويوضح؟ لا بل الأفضل أن لا يشرح وأن لا يوضح. وهذه آفة من آفاتي على كل حال: فأنا لا أفيض في الشرح والإيضاح. نعم، هو كذلك. وثمة سمة غريبة أخرى من سمات طبعي: إذا اتفق لي أن أخذت أشرح وأن أوضح فكرة أؤمن بها، فإنني في جميع الأحيان تقريباً

Twitter: @ketab_n

أكف أنا نفسي عن الإيمان بها في ختام شرحي. وأخشى أن تجري الأمور اليوم هذا المجرى. إلى اللقاء يا عزيزي الأمير. إنني أسترسل في الحديث وأنقاد للثرثرة عندك دائماً، وهذا أمر لا يغتفر.

وخرج. فشيعه الأمير بأدب، ولكنني تأذيت وجرح شعوري.

وقال لي الأمير فجأة دون أن ينظر إليَّ، ودون أن يتوقف وهو يتجه إلى مكتبه:

- ما بال وجهك يتجهم؟

فأجبته أقول متهدج الصوت:

- يتجهم وجهي لأنني أرى تبدلاً في لهجتك معي وحتى مع فرسيلوف... تبدلاً يبلغ من الغرابة أن... لا شك أن كلام فرسيلوف قد كان في البداية رجعياً إلى حد ما ولكنه استدرك فيما بعد، و... لعل أقواله كانت فكرة عميقة، ولكنك لم تفهمها، و...

- لا أريد أن يلقنني أحد دروساً، وأن يعاملني معاملة صبي صغير.

كذلك قال الأمير بلهجة قاطعة فيها شيء من الغضب. فقلت له:

- يا أمير، إن هذه الأقوال...

- دعنا من الحركات المسرحية، من فضلك! إنني أعلم أن ما أفعله فيه حطة، فأنا مبذر، وأنا مقامر؛ وربما كنت لصاً... نعم؛ ربما كنت لصاً؛ لأنني أتلف مال أسرتي، ولكنني لا أريد إطلاقاً قضاة يحكمون عليَّ من فوق. لا أريد ذلك، ولا أقبله. أنا قاضي نفسي. وما معنى هذا الكلام الملتبس الذي يقوله؟ إذا كان يريد أن يقول لي شيئاً، فليعبر عنه بصراحة بدلاً من الإيغال في هذه المتاهات المظلمة والنبوءات الغامضة. ومع ذلك ينبغي أن يكون قبل كل شيء أهلاً لأن يقول لي شيئاً، يجب أن يكون هو نفسه رجلاً شريفاً...

- أولا: أنا لم أحضر بداية الحديث، وأجهل عمَّ كنتما تتكلمان. ثم

Twitter: @ketab_n

لماذا تقول إن فرسيلوف ليس شريفاً؟ هلا إذنت لي بإلقاء هذا السؤال!

- كفى، كفى، أرجوك. لقد طلبت مني بالأمس ثلاثمائة روبل. فإليك هي!

قال ذلك ووضع المال أمامي على الطاولة، وجلس في مقعد، وارتد مسنداً ظهره بحركة عصبية، ووضع ساقاً على ساق. فوقفت في حيرة وتمتمت أقول:

- لا أدري. لقد طلبت منك هذا المبلغ فعلاً. . . وأنا في حاجة ماسة إليه حقا. . . ولكن إزاء هذه اللهجة التي تخاطبني بها، فإنني. . .

- دعك من اللهجة. وإني لأعتذر إليك إذا قد نطقت بكلام يجرح شعورك. وأؤكد لك أن هناك هموماً أخرى تملأ نفسي! اسمع، لقد تلقيت رسالة من موسكو. إنك تعلم أن أخي ساشا قد مات وهو صبي منذ ثلاثة أيام. وتعلم أن أبي مصاب بشلل منذ سنتين. وقد كتبوا إليَّ أن حالته ساءت حتى أصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة، ولا يقدر أن يتعرف أحداً. وهم هناك مبتهجون منذ الآن، بسبب الميراث؛ ويريدون أن يذهبوا به إلى خارج البلاد. ولكن الطبيب كتب إليَّ قائلاً إن من المشكوك فيه أن يبقى أبي حياً أكثر من أسبوعين آخرين. وهكذا سنبقى أنا وأمي وأختي. . . فكأنني سأكون وحيداً. بل هاأنذا وحيد. . وذلك الميراث، ذلك الميراث، آه. . . ألا ليته لم يجىء أبداً! ولكن إليك ما كنت أريد أن أبلغك إياه: لقد وعدت أندريه بتروفيتش أن يناله من هذا الميراث ما لا يقل عن عشرين ألف روبل. . . ولكن، تصور، أننا بسبب الإجراءات الرسمية لم نستطع بعد أن نحصل على هذا الميراث حتى الآن. حتى أنني. . أقصد. . حتى أننا. . . أقصد حتى أن أبي لم يصبح بعد مالك هذه الضيعة. ومع ذلك ما أضخم المبالغ التي أنفقها في هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة!. . وما أكبر الفائدة التي يأخذها هذا الوغد

Twitter: @ketab_n

الدنيء ستيبلكوف. . . إنني أعطيتك الآن آخر ما معي. . .

– آه، يا أمير، إذا كان الأمر كذلك. . .

– ليس هذا ما أقصده. أن ستيبلكوف سيجيئني اليوم بمال قطعاً، وسيكون ما يجيئني به كافياً لوقت ما. ولكن الشيطان وحده يعرف هذا الرجل! لقد توسلت إليه ضارعاً أن يجد لي عشرة آلاف روبل، فأستطيع أن أعطي أندريه بتروفتش عشرة آلاف على الأقل. إن الوعد الذي بذلته بأن أترك له ثلث الميراث يعذبني تعذيباً شديداً. لقد قطعت على نفسي عهداً، وينبغي أن أفي به. وأحلف لك أنني أحترق رغبة في تحقيق التزاماتي ولو من هذه الناحية. إنها ثقيلة على نفسي؛ ثقيلة جداً لا تطاق! إن هذه العلاقة ترهقني. . . إنني لا أستطيع أن أرى آندريه بتروفتش، لأنني لا أستطيع أن أنظر إليه وجهاً لوجه. . . لماذا يسيىء استغلال حالتي هذه؟

– كيف يسيىء استغلال حالتك يا أمير؟

قلت له ذلك وأنا أقف أمامه مبهوتاً. وأضفت:

– هل ألمح أو غمز أو عرّض أحياناً؟

– آه. أبداً. إنني لأقدر له هذا. لكنني أنا الذي ألمح إلى نفسي. وأخيراً أزداد تورطاً وارتباطاً. . . إن ستيبلكوف هذا. . .

– اسمع يا أمير، هدىء نفسك، أرجوك. أرى أنك كلما أمعنت في هذا السبيل اشتد اضطرابك. وقد لا يكون الأمر مع ذلك إلا سراباً. . . آه. . . أنا أيضاً تورطت تورطاً دنيئاً لا يغتفر. لكنني أعرف أن هذا عارض طارئ. . . سوف يكفيني أن أربح مبلغاً معيناً ثم. . . قل لي: إن دينك عليَّ يصبح ألفين وخمسمائة روبلاً إذا أنا أخذت هذه الثلاثمائة، أليس كذلك؟

– يبدو إنني لا أطالبك بسداد هذا الدين.

قال الأمير ذلك وكشر فجأة.

Twitter: @ketab_n

قلت :

- تقول إنك ستعطي فرسيلوف عشرة آلاف روبل، فإذا قبلت الآن ما أخذته منك فيجب أن يدخل في حساب العشرين ألفا التي ستخص بها فرسيلوف. ولن أقبل أن يكون الأمر غير ذلك. ولكن. . . ولكنني سأرد إليك المبلغ بنفسي حتماً. هل تظن أن فرسيلوف يجيء إليك من أجل هذا المال؟

قال الأمير بلهجة تحمل معنى اللغز :

- ليت مجيئه كان من أجل المال لكان ذلك أسهل عليَّ.

- تكلمت عن «علاقة ترهقك». . . فإذا كنت تعني فرسيلوف وتعنيني فهذا والله! كلام جارح. وقلت أيضاً: لماذا لا يكون هو كما يريد من الناس أن يكونوا؟ هذا هو منطقك، فاسمح لي أن أقول لك إن هذا ليس بمنطق. هبه لا يلتزم بما يطلبه من غيره، إن هذا لا يمنعه من الدعوة إلى الحقيقة. ولماذا كلمة الدعوة هذه؟ ثم إنك تستعمل كلمة النبوءات، فقل لي: هل أنت الذي وصفته في ألمانيا بأنه «نبي للنساء»؟

- لا، لست أنا.

- ذكر لي ستيبلكوف أنك قائل هذه الجملة.

- كذب. لست قادراً على خلع ألقاب فكهة. ولكن إذا أراد أحد أن يدعو إلى الشرف، فليكن شريفاً هو نفسه: ذلك منطقي. . . سواء لديّ أن يكون هذا المنطق خطأ. أريد هذا، وسيكون. فلا يجرؤن أحد بعد على أن يجيء إليَّ ليحكم عليَّ ويعاملني معاملة صبي صغير.

وهتف يقول وهو يحرك يده بإشارة تهيب بي أن لا أعقّب على كلامه :

- كفى! آه. . . أخيراً.

وفتح الباب ودخل ستيبلكوف.

Twitter: @ketab_n

- 3 -

لا يزال كما كان، حسن الهندام أنيقاً، ناهداً بصدره إلى أمام، محدقاً بنظره تحديقاً أبله، ظاناً نفسه أمكر من غيره، راضياً عن ذاته أعظم الرضى. ولكنه حين دخل هذه المرة ألقى على الغرفة نظرة مستطلعة غريبة، وكان في نظرته شيء من روية وتفرس، فكأنه يحاول أن يحزر من رؤية وجهينا شيئاً من الأشياء. على أنه لم يلبث أن اطمأن بالاً، وأضاءت شفتيه ابتسامة غرور فيها «طلب وقح»، كنت أتقزز منها كثيراً.

ولقد كنت أعلم منذ مدة طويلة أنه يزعج الأمير كثيراً. وسبق أن جاء إلى الأمير، وأنا عنده، مرة أو مرتين. وأنا أيضاً. . كان لي معه شأن في الشهر الأخير، ولكنني في هذه المرة استغربت زيارته بعض الاستغراب لسبب من الأسباب.

قال له الأمير دون أن يحييه:

- حالا.

وأدار لنا ظهره وأخذ يخرج من مكتبه أوراقاً وحسابات. ولقد كنت من جهتي متأذياً من الكلمات الأخيرة التي قالها لي الأمير تأذياً شديداً. فإن إشارته إلى أن فرسيلوف رجل غير شريف كانت تبلغ من شدة الوضوح (وشدة ما تبعثه في النفس من الدهشة أيضاً) أنه كان يستحيل أن لا أطالب لها بإيضاح مستفيض. ولكن كان لا يمكن أن يخطر هذا بالبال أثناء وجود ستيبلكوف. وعدت أتمدد على الديوان، وفتحت كتاباً كان أمامي، فرأيتني أصيح للأمير بلهجة بدت غير طبيعية إلى أبعد الحدود:

- بيلنسكي! الجزء الثاني! . . .[71] هذا شيء جديد! هل تريد أن تتثقف؟

وكان الأمير منهمكاً في أوراقه وبدت عليه العجلة، ولكنه ما إن سمع

Twitter: @ketab_n

كلماتي حتى التفت إليَّ وقال لي بخشونة:

- دع هذا الكتاب وشأنه، من فضلك!

فكانت جملته هذه تتجاوز الحدود المألوفة، ولا سيما أمام ستيبلكوف! وبمصادفة تشبه العمد جعَّد ستيبلكوف وجهه بحركة دنيئة ماكرة، وأومأ برأسه مشيراً إلى الأمير خلسة. فأشحت وجهي عن هذا الرجل الغبي. وقلت أخاطب الأمير:

- لا تزعل يا أمير، فهاأنذا أدعك للرجل الرئيسي، وأنسحب. . .

كنت قد قررت أن لا أتحرج في كلامي. فقال ستيبلكوف جذلاً وهو يشير إلى نفسه بإصبعه:

- أأنا الرجل الرئيسي؟

- نعم أنت. أنت الرجل الرئيسي، وإنك لتعرف ذلك حق معرفته!

- لا، اسمح لي. إن في كل مكان على هذه الأرض رجلاً ثانياً. فأنا الرجل الثاني. ثمة رجل أول، ورجل ثان. الرجل الأول يفعل، والرجل الثاني يأخذ. فبذلك يصبح الثاني أولاً ويصبح الأول ثانياً. أصحيح أم لا؟

- جائز، ولكنني لا أفهم قصدك، على عادتي.

- اسمح لي. لقد قامت في فرنسا ثورة. وأُعدم الناس بالمقصلة. ثم جاء نابوليون فأخذ كل شيء. فالثورة هي الأولى، ونابليون هو الثاني. ولكن نابوليون أصبح هو الأول، وأصبحت الثورة هي الثانية. أصحيح أم لا؟

يجب أن أذكر عابراً أنني حين أخذ يتكلم عن الثورة الفرنسية رأيت في كلامه ذلك المكر نفسه الذي لاحظته سابقاً فأضحكني كثيراً. إنه ما يزال ينظر إليَّ نظرته إلى رجل ثوري، فكلما لقيني رأى من واجبه أن يتناول موضوعاً من هذا النوع.

Twitter: @ketab_n

قال الأمير:

- هيا بنا! وخرجا كلاهما إلى غرفة أخرى. حتى إذا خلوت إلى نفسي اتخذت قراراً قاطعاً بأن أرد إليه الثلاثمائة روبل متى انصرف ستيبلكوف. لقد كنت في حاجة ماسّة إلى هذا المال؛ ولكنني عزمت أمري واتخذت قراري.

لبثا نحو عشر دقائق لا يُسمع لهما صوت، ثم إذا هما يتكلمان بصوت عال على حين فجأة. أصبحا يتكلمان كلاهما في آن واحد، ولكن الأمير لم يلبث أن أخذ يصرخ، فلو سمعته لقلت إنه غاضب غضباً يبلغ درجة الحنق الشديد. وكان يندفع في بعض الأحيان اندفاعاً قوياً إلى درجة كنت حتى أنا أتسامح معه فيها. ولكن خادماً دخل في تلك اللحظة نفسها، فدللته على الغرفة التي فيها الأمير، فما إن دخل عليهما حتى هدأ كل شيء في الغرفة دفعة واحدة. وسرعان ما خرج الأمير مهموم الهيئة ولكنه مبتسم. ورجع الخادم راكضاً، فما انقضى نصف دقيقة حتى دخل زائر.

إنه رجل مهيب الطلعة، يزدان كتفا بزته العسكرية بأشرطة، ويحمل صدره رقما إمبراطورياً، ولا يزيد عمره على ثلاثين عاماً، وهو من أبناء المجتمع الراقي، تعبر هيئته عن صرامة ورصانة. يجب أن أنبه القارىء إلى أن سرجي بتروفتش كان لا ينتمي حقاً إلى المجتمع البطرسبرجي العالي، رغم شوقه المحرق إلى ذلك، (كنت أعرف فيه هذه الرغبة)، فلا بد أن يقدر مثل هذه الزيارة قدراً عظيماً. ولقد تم التعارف بين الرجلين منذ مدة قصيرة بعد جهود كبيرة بذلها الأمير، (كنت أعرف ذلك)، والزائر إنما يردُّ الآن للأمير زيارة سابقة، ولكن شاء سوء الحظ أن يجيئه مباغتاً. فرأيت ما زخرت به سحنة الأمير من ألم، وما كان في نظرته من حيرة حين التفت لحظة إلى ستيبلكوف. ولكن ستيبلكوف

Twitter: @ketab_n

احتمل هذه النظرة كأن شيئاً لم يكن، ولم يخطر بباله أبداً أن يرتبك، بل جلس على الديوان طلق الحركة منبسط الأسارير، وأخذ ينكش شعره بيده إظهاراً لاستقلاله في أغلب الظن. حتى لقد اكتسى وجهه الوقار والمهابة. الخلاصة أنه كان لا يطاق! أما أنا فكنت حينها قد عرفت طبعاً كياسة السلوك، فما كان لأحد أن يحمر خجلاً من وجودي. ولكن ما كان أشد دهشتي حين لمحت في الأمير تلك النظرة نفسها، النظرة الحائرة المسكينة الكارهة، فأدركت أنه خجل من وجودنا كلينا، وأنه لا يفرق بيني وبين ستيبلكوف من هذه الناحية! فأحنقتني هذه الفكرة. فرأيت نفسي أسترخي على المقعد استرخاء أدعى إلى الراحة، وأخذت أقلب الكتاب غير مكترث، كشخص لا يعنيه شيء البتة. وكذلك ستيبلكوف، فقد حملق عينيه، ومال إلى أمام، واصاخ بسمعه إلى الحديث، ولعله كان يظن أن هذا من الأدب واللطف. فألقى عليه الزائر نظرة أو نظرتين. وكذلك فعل لي على كل حال.

أخذ الأمير والزائر يتناقلان أنباء عائلية. كان الزائر قد عرف أم الأمير التي هي سليلة أسرة كريمة المحتد مشهورة. وإذا صح ما أدركته فقد كان الزائر، رغم ما بدا عليه من بساطة ولطافة، في غاية الصرامة والاستعلاء ويحسُّ بأنه يبلغ من رفعة القدر أن زيارة منه لا بد أن تكون شرفاً عظيماً لمن يحظى بها مهما تكن مكانته. ويقيني أن الأمير، لو خلا الرجلان أحدهما إلى الآخر، لأظهر وقاراً أكبر وحذقاً أعظم، غير أن شيئاً من الاختلاج في ابتسامته التي لعلها كانت مفرطة في التودد، وشيئاً من الذهول الغريب، كانا يفضحان ما في داخله من حرج وضيق.

وما إن انقضت خمس دقائق أو يكاد حتى أُعلن عن وصول زائر آخر شاءت المصادفة التي تشبه العمد أن يكون حضوره هو أيضاً مسيئاً إلى سمعة الأمير. إنني أعرف هذا الزائر: سمعت عنه كثيراً وإن لم يعرفني

Twitter: @ketab_n

هو يوماً. إنه شاب في غضارة الشباب، وإن يكن في الثالثة والعشرين من العمر، يرتدي أجمل الثياب، وينتمي إلى أسرة كريمة، ويتمتع بوسامة، ولكن لا شك أنه لا يختلف إلى المجتمع الراقي. ولقد كان في العام الماضي ما يزال ضابطاً في فوج من أشهر أفواج فرسان الحرس، ولكنه اضطر أن يستقيل من الخدمة، وعلم جميع الناس سبب ذلك. حتى أن أهله أعلنوا في الصحف أنهم غير مسؤولين عن ديونه. ولكن هذا لم يمنعه من الاستمرار في اللّهو والمجون، مقترضاً بفائدة تبلغ عشرة في المائة كل شهر، مقامراً بمبالغ ضخمة في مجتمعات القمار، مبذّراً في سبيل فرنسية شهيرة. ولقد ربح منذ أسبوع، في سهرة واحدة، قرابة اثني عشر ألف روبل؛ فاحتفل بهذا النصر. وهو على علاقة ودية بالأمير، حتى لقد كانا يقامران بمبالغ مشتركة في كثير من الأحيان. ارتعش الأمير حين رآه. لاحظت ذلك وأنا قابع في مكاني. وكان هذا الفتى يشعر أنه في بيته حيث كان، ويتكلم بصوت عال دون أي تحرج أمام أي إنسان، ويقول كل ما يخطر بباله مرحاً فرحاً. وما كان له أن يلاحظ طبعاً أن مضيفنا يرتجف اضطراباً وقلقاً بسبب صحبته أمام زائره العظيم.

وسرعان ما بادر يقاطعهما متحدثاً عن لعب الليلة البارحة حتى قبل أن يجلس. قال مخاطباً الضيف الكبير وهو يحسبه واحداً من الصحب:

- أظن أنك كنت حاضراً أيضاً.

ولكنه بعد أن أنعم النظر فيه استدرك يقول هاتفاً:

- آ. . . معذرة. . . ظننتك واحداً من عصبة الأمس.

فأسرع الأمير يعرف الرجلين أحدهما بالآخر.

- ألكسي فلاديميروفتش دارزان! إيبوليت الكسندروفتش ناشوكين!

وكان من الممكن للأمير أن يقدم إليه هذا الفتى إذ إن أسرته كانت

Twitter: @ketab_n

كريمة ومعروفة، أما نحن أنا وستيبلكوف فلم يقدمنا إليه، فلبثنا في ركنينا. وأبيت أنا إباء قاطعاً أن ألفت وجهي نحو الجمع. ولكن ستيبلكوف ابتسم ابتسامة فرحة حين رأى الفتى، وهمَّ أن يفتح فاه متكلماً. وأخذ هذا كله يسليني.

قال دارزان:

- كنت في العام الماضي ألقاك كثيراً عند الأميرة فيريجينا.

فأجاب ناشوكين بظرف:

- أذكرك. ولكنك كنت في ذلك الوقت ترتدي بزة عسكرية فيما أظن.

- نعم، كنت أرتدي بزة عسكرية، ولكن بسبب... هه! قد جاء ستيبلكوف إلى هنا! ما شأنه هنا؟... بسبب أمثال هؤلاء السادة أصبحت لا أرتدي البزة العسكرية.

قال ذلك وهو يشير إلى ستيبلكوف صراحة، وانفجر ضاحكا. وعدّ ستيبلكوف هذه العبارة تودداً لطيفاً، فضحك هو أيضاً فرحاً. واحمر الأمير خجلاً؛ وأسرع يلقي على ناشوكين سؤالاً ما؛ بينما اقترب دارزان من ستيبلكوف وانخرط معه في حديث حار، ولكن بصوت خافت.

سأل الزائر الأمير:

- يبدو أنك عرفت في الخارج معرفة جيدة كاترين نيقولايفنا آخماكوفا؟

- آ. طبعاً عرفتها...

- أظن أن نبأ سيذاع هنا في القريب. يقال إنها ستتزوج البارون بيرونج.

فصاح دارزان يقول: - هذا صحيح!

فقال الأمير يسأل ناشوكين باضطراب واضح ونبرة خاصة:

Twitter: @ketab_n

- أأنت تعلم هذا. . . علم اليقين؟

- بل ذُكر لي. وأظن أن الناس قد بدأت تتحدث فيه منذ الآن. لكنني لا أعلمه علم اليقين.

قال دارزان وهو يدنو منهما:

- آ. . . النبأ أكيد، قال هذا لي دوباسوف أمس، ودوباسوف دائماً أول من يعلم أمثال هذه الأخبار. ولا بد أن الأمير يعرف على كل حال. . .

انتظر ناشوكين أن يفرغ دارزان من كلامه، ثم التفت إلى الأمير من جديد يقول له:

- أصبحتْ لا تختلف إلى المجتمع إلا نادراً.

فقال الأمير بلهجة جافة:

- كان أبوها مريضاً في الشهر الماضي.

فإذا بدارزان يقول فجأة دون تفكير:

- هذه سيدة لها مغامرات كما أظن.

فرفعت رأسي ونصبت جذعي، وقلت:

- يسرني أنني أعرف كاترين نيقولايفنا معرفة شخصية، وأظن أن من واجبي أن أؤكد لكم أن تلك الشائعات جميعها ليست إلا أكاذيب دنيئة. . . اختلقها أولئك الذين حاموا حولها ثم لم يظفروا بطائل. . .

وصمتّ بعد هذه المقاطعة الحمقاء، وظللت أنظر إلى الحضور ملتهب الوجه قائم الجذع. فالتفت الجميع إليَّ، ولكن ستيبلكوف لم يلبث أن ضحك ساخراً. ودهش دارزان فابتسم أيضاً.

وقال الأمير مشيراً إليَّ، معرفاً بي دارزان:

- آركادي ماكاروفتش دولجوروكي!

فقال دارزان لي صريح الهيئة باش الوجه:

Twitter: @ketab_n

- أه! صدقني يا أمير: لست أنا من يتحدث في الأمر. ثمة شائعات، ولست أنا من يذيعها وينشرها.

فأجبته قائلاً بسرعة:

- أواه! لست أقصدك!

ولكن ستيبلكوف كان قد انفجر يضحك كما لا يليق بأحد أن يضحك، وكان سبب هذا الضحك، كما اتضح فيما بعد أن دارزان ناداني بقوله «يا أمير». هذا مقلب آخر يدبره لي هذا الاسم المشؤوم! وما زلت إلى الآن أحمرّ خجلاً حين أتذكر أنني لم أجرؤ - بسبب ذلك الخجل طبعاً - على أن أصحح ذلك الخطأ الأحمق فوراً وأن أعلن أنني لست الأمير دولجوروكي، بل دولجوروكي فحسب. تلك أول مرة يحدث لي فيها هذا. وكان دارزان ينقل بصره مدهوشاً بين ستيبلكوف الضاحك وبيني وهو مبهوت.

ثم اتجه إلى الأمير يسأله فجأة:

- ها... نعم... مَنْ تلك الفتاة الجميلة التي رأيتها الآن على سلم بيتك شقراء ثاقبة العينين؟

فأسرع الأمير يجيبه وقد احمر وجهه:

- حقا لا أدري!

فقال دارزان ضاحكا:

- فمن يدري إذن؟

فتلعثم الأمير يقول:

- مع ذلك.. من الجائز.. من الجائز أن..

فقال ستيبلكوف وهو يشير إليّ على حين فجأة:

- نعم نعم... هي أخته، أليزافيتا ماكاروفنا. أنا أيضاً رأيتها منذ مدة قصيرة...

Twitter: @ketab_n

فقال الأمير مؤيداً، ولكن بهيئة وقورة جادة في هذه المرة:

- ها... نعم! لا بد إنها أليزافيتا ماكاروفنا، من أقرب معارف آنا فيودوروفنا ستولبييفا التي أسكن الآن في بيتها. لا بد أنها زارت اليوم داريا أونيسيموفنا - وهي أيضاً من أقرب المعارف - التي عهدت إليها آنا تيودوروفنا بالبيت حين سافرت.

وكان الأمر تماماً كما قال الأمير. إن داريا أونيسيموفنا هي أم تلك الفتاة المسكينة أوليا التي سبق أن تكلمت عنها. لقد جاءت بها تاتيانا بافلوفنا في نهاية الأمر إلى ستولبييفا التي آوتها. وكنت أعلم حق العلم أن ليزا تجيء إلى ستولبييفا، وأنها كانت ترى أحياناً داريا أونيسيموفنا المسكينة التي أصبح جميع أهل بيتنا يعطفون عليها ويحبونها. ولكنني في تلك اللحظة، بعد ذلك الكلام - وأقول بالمناسبة إنه كلام حصيف جداً - الذي قاله الأمير، ولا سيما بعد تلك الفورة السخيفة من ستيبلكوف، وربما أيضاً لأنني سميت أميراً، احمر وجهي فجأة إحمراراً شديداً. ومن حسن الحظ أن ناشوكين نهض في تلك اللحظة نفسها مودعاً، ومد يده إلى دارزان أيضاً. فلما لم يبق معي إلا ستيبلكوف، أومأ ستيبلكوف إلى دارزان الذي كان في العتبة مديراً لنا ظهره، فلوحتُ لستيبلكوف بقبضة يدي.

وما إن انقضت دقيقة حتى انصرف دارزان هو أيضاً، بعد أن اتفق على موعد مع الأمير غداً في بيت سبق لهما أن اختاراه، في بيت من بيوت القمار طبعاً. وأثناء خروجه هتف يقول شيئاً لستيبلكوف، وانحنى لي انحناء خفيفاً أيضاً. فما إن انصرف حتى وثب ستيبلكوف من مكانه، وتسمر في وسط الغرفة رافعاً إصبعه في الهواء، وقال:

- إن هذا السيد الصغير قد اقترف في الأسبوع الماضي ما يلي: وقَّع على سند توقيعاً مزيفاً باسم آفريانوف. ما يزال السند موجوداً. هذه

Twitter: @ketab_n

جريمة. ثمانية آلاف روبل!

فسألته وأنا أرشقه بنظرة كاسرة:

- وهل السند عندك أنت؟

- أنا عندي مصرف؛ عندي بنك إقراض، لا سند. هل تعرف ما يعني بنك إقراض بباريس؟ هو خبز وخير للفقراء. فأنا عندي مثل هذا البنك...

فلما رجع الأمير، أوقفه عن الكلام بقسوة، وقال له بلهجة عنيفة:

- ما عملك هنا؟ لماذا بقيت؟

فقال له ستيبلكوف وهو يطرف عينيه بسرعة:

- آ... والمسألة؟ أليست المسألة؟

فصرخ الأمير قائلاً وهو يضرب بقدمه الأرض:

- كلا، ثم كلا، ثم كلا! قلت لك...

- طيب... إذا كان الأمر كذلك، فليكن كذلك.. ولكن الأمر لن يكون كذلك...

قال ستيبلكوف هذا، ثم استدار بحدة وخرج على حين فجأة خافضاً رأسه، حانياً ظهره. وصرخ الأمير يقول له في العتبة:

- واعلم أنني لست خائفاً منك إطلاقاً يا سيد!

كان الأمير مستعر الغضب والحنق. وأراد أن يجلس، لكنه رآني فلم يفعل. وكانت نظرته كأنها تقول لي: «وما بقاؤك أنت أيضاً؟» فبدأت أتكلم فقلت له:

- يا أمير... أنا...

لكنه قاطعني قائلاً:

- لا وقت عندي يا آركادي ماكاروفتش! حقاً لا وقت عندي! يجب عليَّ أن أخرج.

Twitter: @ketab_n

- لحظة قصيرة يا أمير. أمر هام جداً. إليك أولا الثلاثمائة روبل.

- ما معنى هذا؟

لقد كان يمشي فتوقف. قلت:

- بعد الذي حدث... وبعد الذي قلته عن فرسيلوف من أنه رجل غير شريف... ثم بعد لهجتك هذه في الكلام طول الوقت... الخلاصة، لا يمكنني أن أقبل أخذ هذا المال.

- ومع ذلك ظللت تقبل طوال شهر كامل.

وجلس فجأة على كرسي. وكنت واقفاً أمام الطاولة أفرك كتاب بيلنسكي بإحدى يدي، وأمسك قبعتي بالأخرى. قلت:

- كانت العواطف تختلف يا أمير... وما كان لي أن أصل إلى ذلك المبلغ الضخم لولا هذا القمار... الخلاصة أنني لا أستطيع أن أقبل!

- أنت غاضب لأنك لم تستطع أن تجلّي في أي أمر من الأمور. هلا أرحت هذا الكتاب، من فضلك!

- ماذا تعني بقولك إنني لم «أستطع أجلّي في أي أمر من الأمور»؟ ثم إنك، بحضور ضيوفك، قد عاملتني كمعاملتك ستيبلكوف وجعلتني في مثل منزلته.

فقال وهو يضحك ضحكة لاسعة:

- آ... ذلك هو السرّ وعدا هذا فقد تحيرت حين سمّاك دارزان أميراً.

كانت ضحكته شريرة. فانفجرت أقول:

- لست أفهم... ثق أن لقب الأمير هذا الذي تحمله أنت، لا أرضى أنا أن أشيله من الأرض...

- أعرف طبعك. لشد ما صحت صياحاً مضحكاً لتدافع عن آخماكوفا... اترك هذا الكتاب!

Twitter: @ketab_n

فهتفت أقول:

- ما معنى كلامك؟

فإذا هو ينتصب على مقعده غاضباً كأنه يهم أن يثب، ويزأر قائلاً:

- اترك الكتاب!

فقلت وأنا أسارع إلى الخروج من الغرفة:

- ذلك ما يجاوز أخيراً جميع الحدود.

ولكن ما كدت أتجاوز الصالون حتى سمعته يناديني من عتبة مكتبه:

- ارجع يا آركادي ماكاروفتش! تعال.. تعال.. حالاً!

فلم أستمع له، وانصرفت. لكنه لحق بي بخطوات حثيثة وأمسك ذراعي وجرَّني إلى مكتبه، فلم أقاوم.

قال لي وقد شحب لونه من شدة الانفعال، ومدَّ إليَّ الثلاثمائة روبل التي تركتها:

- خذها! خذها ضروري!.. وإلا فإننا.. ضروري خذها!

- ولكن كيف يمكنني أن آخذ يا أمير؟

- أنا مستعد لأن أعتذر إليك. هل تريد؟ هاأنذا أعتذر: معذرة.

- يا أمير، أنا قد أحببتك دائماً، فإذا كنت أنت أيضاً أحببـ...

- أنا أيضاً... خذها!

فأخذتها. وكانت شفتاه ترتجفان.

- إنني أفهمك يا أمير. إنك غاضب من ذلك الوغد... ولكنني لن أقبل أن آخذ المال إلا إذا تبادلنا القبلات، كما كنا نفعل بعد مشاجراتنا السابقة...

وكنت أرتجف أنا أيضاً وأنا أقول هذا الكلام.

فدمدم الأمير وهو يبتسم بحيرة:

- يا للعواطف الرقيقة!

Twitter: @ketab_n

لكنه مال عليَّ وقبلني. فسرت رعدة في جسمي: ذلك أنني حين قبلني رأيت في وجهه اشمئزازاً واضحاً.

- هل جاءك بالمال على الأقل؟

- آ. . . لا قيمة لهذا!

- من أجلك إنما. . .

- جاء بالمال، جاء به. . .

- يا أمير، لقد كنا أصدقاء. . وأخيراً. . إن فرسيلوف. . .

- طيب. . . طيب. . .

- ما زلت لا أدري حقاً هل هذه الثلاثمائة روبل. . .

وكان المبلغ بيدي. فقال:

- خذها! خذها!

وعاد يبتسم من جديد، لكن ابتسامته كانت تشتمل على شر وسوء.

أخذت المال.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

– 1 –

أخذت المال منه لأنني كنت أحبه. ولمن لا يصدقني سأقول إنني في اللحظة التي أخذت فيها المال كنت مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن في وسعي أن أحصل على المال من مصدر آخر لو شئت. ومعنى هذا أنني لم آخذه عن حاجة، بل أخذته على سبيل الكياسة حتى لا أجرح شعور الأمير. كذلك كنت أفكر في ذلك الحين. واأسفاه! على أنني حين تركت الأمير كنت أحس بضيق شديد رغم كل شيء. لقد أحسست بتبدل ضخم في سلوكه معي ذلك الصباح. إنه لم يسبق أن استعمل في مخاطبتي لهجة كتلك اللجهة يوماً. أما على فرسيلوف فقد كانت ثورته صريحة معلنة. لا شك أن ستيبلكوف كان قد عكر مزاجه. ولكن تبدل سلوكه قد بدأ قبل ذلك. أعود فأقول: إن هذا التبدل كان يلاحظ منذ الأيام السابقة، ولكنه لم يكن قوياً هذه القوة، لم يكن قد بلغ هذه الدرجة.

ولعل من العوامل التي كان لها تأثيرها أيضاً، ذلك النبأ الأحمق الذي يتعلق بالبارون بيورنج، ذلك الضابط من ضباط حاشية القيصر... ولقد انصرفت مضطرباً أنا أيضاً... ولكن كل ما في الأمر أن شعاراً آخر كان يلوح أمام عيني حينذاك، فكنت أفوّت كثيراً من الأمور خالي البال، وكنت أتعجل انقضاءها، أطرد كل ما هو مظلم، والتفت إلى كل ما هو

Twitter: @ketab_n

مضيء لامع ساطع . . .

ان الساعة لم تبلغ الواحدة بعد. ومن عند الأمير ذهبت مع سائق عربتي ماتفي رأساً إلى - إلى مَن؟ هل تصدقون؟ - إلى ستيبلكوف! كل ما في الأمر أنه لم تفاجئني زيارته للأمير (وكان قد وعده بأن يجيء إليه) بقدر ما فاجأتني غمزات أرسلها إليّ، على عادته السخيفة، ولم تتناول ما كنت أتوقع أن تتناوله. كان ستيبلكوف قد بعث إليّ بالبريد رسالة ملغزة استلمتها في مساء أمس يتوسل إليّ فيها أن أزوره اليوم بين الساعة الواحدة والساعة الثانية، قائلاً: «إن هناك أشياء غير متوقعة يريد أن يبلغني إياها». ولم يشر إلى هذه الرسالة بكلمة واحدة حين كنا عند الأمير. ما عسى يكون بيني وبين ستيبلكوف من أسرار! إن الفكرة وحدها مضحكة. ومع ذلك فإنني، بعد كل ما جرى، كنت أشعر بشيء من الانفعال وأنا ذاهب إليه. صحيح أنني اتجهت إليه مرة، منذ أسبوعين، لاقتراض بعض المال، وقد عرض عليّ أن يقرضني، ولكننا لم نصل إلى اتفاق لسبب ما ورفضت العرض: لقد جمجم عندئذ بكلمات غامضة على عادته، وبدا لي أنه يريد أن يعرض عليّ شيئاً ما وأن يفرض عليّ شروطاً خاصة. وإذ أنني أعامله باستعلاء كلما التقينا عند الأمير، فقد رفضت فكرة فرض شروط خاصة، رفضتها بإباء وشمم، وخرجت رغم أنه ركض ورائي إلى الباب يحاول صدي عن الخروج. واقترضت المال يومئذ من الأمير.

إن ستيبلكوف يعيش حياة باذخة: يسكن في منزل يتألف من أربع غرف رائعة، جميلة الأثاث، مع خادمين، رجل وامرأة، ومع مدبرة للبيت متقدمة في السن. دخلت غاضباً. وبدأت أتكلم منذ أن اجتزت الباب، فقلت:

- اسمع، يا عزيزي، قل لي أولاً: ما هذه الرسالة التي بعثتها إلي؟

Twitter: @ketab_n

إنني أرفض أن يكون بيننا مكاتبة. ولماذا لم تقل ما تريد قوله، حين كنا منذ قليل عند الأمير؟ كنت بين يديك!

- وأنت، لماذا لم تتكلم حينئذ أيضاً؟ لماذا لم تسألني عن شيء؟

قال ذلك وفتح فاه بابتسامة تعبر عن رضا كامل.

فضرخت أقول غاضباً:

- الجواب بكل بساطة هو أن المحتاج منا إلى الآخر هو أنت لا أنا.

- فلماذا تجيء إليّ إذاً؟

وكاد يقفز من شدة سروره. فسرعان ما استدرت أريد أن أنصرف، ولكنه أمسك كتفي وقال:

- لا، لا، كنت أمزح. إن الأمر جد. سترى. فجلست. أعترف بأن الفضول قد انتصر. جلسنا متقابلين عند طرف مكتب كبير. ورأيته يبتسم ابتسامة ماكرة، ويرفع إصبعه، فهتفت أقول له غاضباً من جديد:

- أرجوك، لا مكر ولا إصبع! ولا رموز بخاصة! هلمّ إلى الوقائع رأساً، وإلا انصرفت فوراً.

فقال عاتباً عتباً غبياً وهو يترجح على كرسيه مائلاً إلي ويرفع جميع غضون جبينه:

- إنك... متكبر.

- بالتكبر تجب معاملتك!

- أخذت اليوم... مالاً من الأمير: ثلاثمائة روبل. وأنا أملك مالاً. ومالي خير من ماله.

- من أين عرفت أنني قبلت؟ أهو الذي قال لك؟ وشدهت شدهاً قوياً.

- هو قال لي. ولكن هدئ نفسك. لم يقل لي ذلك إلا عرضاً. لم يقله متعمداً. ولكنه قال لي. وكان في إمكانك مع ذلك أن لا تقبل. أهذا صحيح أم لا؟

Twitter: @ketab_n

- ولكنني، فيما سمعت عنك، تسلخ جلود الناس سلخاً بما تأخذه من فائدة لا تطاق؟

- إن لي بنك تسليف. أما أنا فلا أسلخ جلد أحد، ولا أعطي إلا للأصدقاء. أما غير الأصدقاء فيمكنهم أن يقترضوا من بنك التسليف...

إن بنك التسليف هذا الذي يشير إليه ستيبلكوف ما هو إلا تسليف مبالغ من المال على رهون، ومقره في مسكن آخر مسجل باسم ما، وكانت أحواله مزدهرة.

وأردف ستيبلكوف يقول:

- وللأصدقاء أعطي مبالغ ضخمة.

- هل الأمير واحد من هؤلاء الاصدقاء؟

- هو واحد منهم. لكنه يقول سخافات. ويجب أن ينتبه ويحاذِر.

- أهو بين يديك إلى هذه الدرجة؟ هل ديونك عليه ضخمة؟

- عليه... ضخمة!

- سيدفع لك. إن له ميراثاً...

- هذا الميراث ليس له. وهو مدين لي بمال، وبغير المال أيضاً!... الميراث لا يكفي. سأقرضك بغير فائدة.

قلت ضاحكاً:

- بصفتي «صديقاً» كذلك؟ ما الذي جعلني استحق هذه الصداقة؟

- سوف تستحقها.

وتقدم نحوي من جديد بكل جسمه وهمّ أن يرفع إصبعه، فهتفت له:

- ستيبلكوف! لا إصبع! والا انصرفت.

فقال وهو يغمز غمزة ماكرة:

- اسمع... قد يتزوج آنا آندريفنا!

Twitter: @ketab_n

- اسمع يا ستيبلكوف، إن حديثك يتخذ طابع الفضيحة... كيف تجرؤ أن تجيء على ذكر اسم آنا اندرييفنا؟

- لا تغضب!

- إنني أجبر نفسي على الاستماع إليك، لأنني أرى بوضوح أن ثمة مكيدة تدبر، فأريد أن أعرفها... ولكن قد ينفد صبري يا ستيبلكوف!

- لا تغضب. دعك من التكبر. دع التفكير لحظة قصيرة للاستماع إليّ ثم تعود إليه من جديد. أنت تعرف ما يتعلق بآنا آندرييفنا؟ وتعرف أن الأمير قد يتزوجها؟

- سمعت عن مثل هذا المشروع طبعاً. أعرف كل شيء. ولكنني لم أكلم الأمير في هذا الموضوع يوماً، وإن كنت أعرف أن الفكرة إنما هي فكرة الأمير سوكولسكي العجوز الذي هو الآن أيضاً مريض. وأنا لا يد لي في هذه القصة كلها، ولم أقل شيئاً في يوم من الأيام. أقول هذا لك لشرح المسألة فقط، والآن أريد أن ألقي عليك سؤالين: أولاً - لماذا تكلمني في هذا الموضوع؟ ثانياً - هل كاشفك به أنت؟

- ليس هو الذي يكلمني في هذا الأمر. هو لا يريد أن يكلمني فيه، ولكنني أكلمه فيه أنا، فلا يريد أن يصغي إليّ. وقد أخذ يصرخ صراخاً قوياً حين كنا عنده منذ قليل.

- إنني أفهمه! وإنني أؤيده!

- إن الأمير سوكولسكي، العجوز، سيعطي آنا آندرييفنا مهراً كبيراً، فهو راض عنها. فإذا خطبها الأمير سوكولسكي الشاب استطاع أن يرد إليّ مالي. وسوف يرد إليّ الدين الآخر أيضاً. سيرده إليّ حتما! أما الآن فلا يستطيع ذلك.

- ولكن قل لي: ما شأني أنا في الامر، وما النفع الذي ترجوه مني؟

- تستطيع أن تنفعني في أمر أساسي. إنك على صلة بهم. وأنت

Twitter: @ketab_n

معروف في كل جهة. فتستطيع أن تطلع على كل شيء.

- آه! وما الذي يجب أن أطلع عليه؟

- يجب أن تعرف: هل الأمير يريد؟ هل آنا آندرييفنا تريد؟ هل الأمير العجوز يريد؟ تستطيع أن تعرف الحقيقة.

فانتفضت حانقاً وقلت له:

- كيف تجرؤ أن تعرض عليّ أن أكون لك جاسوساً، وأن أكون لك جاسوساً في سبيل مال أيضاً؟

- لا تتكبر! لا تتكبر! دع التكبر مدة قصيرة أخرى، خمس دقائق لا أكثر!

وأجلسني. وكان واضحاً أنه لا يهاب لا إشارات يدي، ولا صيحات صوتي. وقررت أن أصغي إليه حتى النهاية.

- وإنما يجب عليّ أن أعرف بسرعة، أن أعرف بسرعة... فقد يفوت الأوان بعد حين! لقد لاحظتَ كيف بلع الأمير المسألة حين تكلم الضابط عن البارون وآخماكوفا، أثناء وجودنا عنده منذ قليل، ألم تلاحظ؟

شعرت بإذلال لأنني أواصل الإصغاء إلى كلامه، ولكن فضولي كان قد ثار فلا سبيل إلى مغالبته.

قلت بلهجة قاطعة:

- اسمع! انت... أنت وغد. وإذا كنت أبقى هنا، وأصغي إلى كلامك، وأسمح لك بأن تتكلم عن هؤلاء الأشخاص... وحتى إذا كنت أجيبك، فليس معنى ذلك أبداً أنني أعترف لك بهذا الحق. كل ما هنالك أنني أرى أن ثمة مكيدة تدبر... ما عسى أن يكون أمل الأمير فيما يتعلق بكاترين نيقولايفنا؟

- ليس له أي أمل. غير أنه ساخط.

Twitter: @ketab_n

- غير صحيح.

- إنه ساخط. فيما يتعلق بآخماكوفا، انتهى الأمر. بقي مخرج واحد: آنا آندرييفنا. سأعطيك ألفي روبل، بلا فوائد ولا سند.

قال ذلك وارتد إلى ظهر مقعده بحركة حازمة مهيبة، وحملق ناظراً إليّ. وحملقت أنا أيضاً.

- انك ترتدي بدلة مشتراة من شارع «ميليونايا الكبير»[72]. فانت في حاجة إلى مال، في حاجة إلى مال. ومالي خير من ماله. سأدفع أكثر من ألفي روبل...

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ لست أفهم!

وضربت الأرض بقدمي غاضباً، فمال عليّ وقال بلهجة معبرة.

- حتى لا تعرقل؟

فصرخت أقول:

- ولكنني لا أتدخل!

- أعرف أنك تصمت. وهذا حسن.

- لست في حاجة إلى استحسانك. وهبني تمنيت لهذا الزواجِ أن يتم، فسأظل لا أتدخل، لأنني أرى أن لا شأن لي في الأمر وأن تدخلي لا يليق!

- صحيح، أفهم أنه لا يليق!

ورفع إصبعه. ثم أردف قائلاً:

- نعم، لا يليق؟

وانفجر ضاحكاً. ثم تابع كلامه فقال:

- أفهم، أفهم! لا يليق بك أن تتدخل! ولكنك لن تصنع حواجز، أليس كذلك؟

وغمز بعينه، لكنني رأيت في غمزته وقاحة فظيعة، بل رأيت فيها

Twitter: @ketab_n

سخرية وحطة. لقد افترض وجود دناءة في نفسي، وكان يعوّل على هذه الدناءة. ذلك واضح. لكنني لم أدرك بعد ما الذي كان يريد أن يصل إليه.

وهذا هو يقول بلهجة ذات دلالة:

- إن آنا آندرييفنا هي أيضاً أختك.

- أمنعك من الكلام عن هذا الموضوع. وليس من حقك أن تتكلم عنها.

وتابع ستيبلكوف بنفس اللهجة:

- لا تتكبر، دقيقة أخرى. لا أكثر. اسمعني: سوف يقبض مالاً. فيكفل الجميع، الجميع. هل تتابع كلامي؟

وقد شدد على قوله «الجميع» قلت:

- أتظن إذن أنني سأقبل ماله؟

- ألست تقبله الآن؟

- الآن آخذ النصيب الذي يخصني.

- النصيب الذي يخصك؟

- النصيب الذي يخصني من مال فرسيلوف: أنه مدين لفرسيلوف بعشرين ألف روبل.

- هو مدين لفرسيلوف، لا لك أنت.

- فرسيلوف أبي.

- لا. أنت اسمك دورجوروكي، وليس فرسيلوف، على أن النتيجة واحدة.

والحق أنني فكرت حينئذ هذا التفكير. كنت أعلم أن لهذا شأناً هاماً جداً. فلم أكن غبياً إلى ذلك الحد. ولكنني أكرر مرة أخرى أنني ما فكرت هذا التفكير إلا «كياسة».

Twitter: @ketab_n

صرخت أقول:

- كفى. إنني لا أفهم شيئاً البتة. وكيف تجرؤ فتدعوني لمثل هذه السخافات؟

- هل يعقل أنك لم تفهم حقاً؟ أتراك تتعمد عدم الفهم تعمداً؟

قال ستيبلكوف ذلك في بطء وهو يرشقني بنظرة نافذة تصحبها ابتسامة شك. فقلت أجيبه:

- أحلف لك أنني لا أفهم.

- أقول إنه سيكفل الجميع، الجميع. وإنما المهم أن لا تعرقل أنت ولا تصرفه عن الأمر...

- يبدو أنك فقدت عقلك! ما الذي تعنيه بقولك الجميع. أتراه يكفل فرسيلوف مثلا؟

- لن يكفلك وحدك، ولن يكفل فرسيلوف وحده، بل سيكفل آخرين... إن آنا آندرييفنا اختك، مثل أليزافيتا ماكاروفنا سواء سواء.

نظرت إليه محملقاً. فإذا أنا أرى في نظرته الدنيئة إليّ نوعاً من شفقة عليّ. وقال:

- لا تفهم؟ طيب! هذا أحسن! أنه لحسن جداً أن لا تفهم. هذا أمر محمود... إذا صح أنك لا تفهم حقاً!

فبلغ حنقي ذروته، فصرخت أقول وأنا أتناول قبعتي:

- شيطان يأخذك أنت وسخافاتك! إنك رجل مختل العقل.

- ماهذه سخافات! هل اتفقنا؟ اسمع... سوف ترجع.

فأجبته قائلاً بلهجة قاطعة وقد صرت في العتبة:

- لا.

- بل سوف ترجع... وسنقول عندئذ كلاماً آخر. سيدور بيننا حديث هام. ألفا روبل. تذكر هذا لا تنسه!

Twitter: @ketab_n

- 2 -

لقد أحدث في نفسي أثراً يبلغ من الاضطراب والدناءة أنني حين خرجت من عنده حاولت أن لا أفكر فيه، واقتصرت على أن بصقت، اشمئزازاً. وكنت كلما تصورت أن الأمير كلمه عني وعن هذا المال أحسست بما يشبه وخز الأبر. وقلت أحدث نفسي بلهجة قاطعة! «سوف أربح، فأرجع إليه أمواله في هذا اليوم نفسه».

وأصبحت أرى ستيبلكوف وغداً ساطعاً متألقاً، رغم كل غبائه وركاكته، لا سيما وأنني قدرت أن ثمة مكيدة تحاك حتماً. غير أن وقتي كان لا يتسع للاهتمام بالكشف عن مكائد، وذلك هو السبب الرئيسي في عماوتي العابرة! نظرت في ساعتي قلقاً، فرأيت أنها لم تبلغ الثانية. أستطيع إذن أن أقوم بزيارة، والا لهلكت من فرط الانفعال إلى أن تحين الساعة الثالثة. فذهبت إلى آنا آندرييفنا فاسيلوفا، أختي. كانت قد انعقدت الصلة بيني وبينها منذ مدة غير قصيرة عند الأمير العجوز أثناء مرضه. وكان شعوري بأنني لم أره منذ ثلاثة أيام أو أربعة يعذب ضميري. ولكن آنا آندرييفنا هي التي ساعدتني: كان الأمير يتعلق بها تعلقاً عظيماً، فلقد وصفها حتى أمامي بأنها ملاكه الحارس. يجب أن أقول بالمناسبة: إن فكرة تزويجها الأمير سرجي بتروفتش إنما نبتت فعلاً في رأس صاحبي الأمير العجوز، حتى لقد عبر لي عن هذا غير مرة، في السر طبعاً وقد نقلت الخبر إلى فرسيلوف لأنني كنت قد لاحظت أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالأنباء التي أنقلها إليه عن لقاءاتي بآنا آندرييفنا، رغم أنه قليل الاكتراث بسائر الأمور الجوهرية. وقد جمجم فرسيلوف عندئذ قائلاً إن آنا آندرييفنا تملك من الذكاء ما يجعلها قادرة على الاستغناء عن نصائح الآخرين في أمر يبلغ هذا المبلغ من الدقة والحرج. لا شك أن

Twitter: @ketab_n

ستيبلكوف كان على حق حين افترض أن العجوز سيخص آنا آندرييفنا بمهر ضخم، ولكن كيف اجترأ أن يعوّل على شيء له هو؟ إن الأمير الشاب قد صرخ يقول، وهو يخرج، إنه لا يخافه: ولكن ألم يكن مدار حديثهما في مكتب الأمير على آنا آندرييفنا في الواقع؟ إنني أتصور الحنق الذي كان يمكن أن يستعر في نفسي لو كنت في مكانه.

ولقد كنت في الآونة الأخيرة أذهب إلى آنا آندرييفنا أحياناً كثيرة. ولكن كان يحدث دائماً شيء غريب: إنها هي التي كانت تحدد لي موعداً في جميع المرات، وكانت تنتظرني حتماً، ولكن ما أن أدخل حتى تشعرني بأنني وصلت على غير توقع. لاحظت ذلك فيها، ولكنه لم يضعف تعلقي بها. وكانت تقيم عند فاناريوتوفا، جدتها، كربيبة لها طبعاً (كان فرسيلوف لا يدفع شيئاً لإعالتها)، ولكن دورها عندها يختلف كل الاختلاف عن الدور الذي يسند عادة إلى ربيبات السيدات الكبيرات، كما نلاحظ ذلك مثلاً في قصة بوشكين «البنت البستونية»، ربيبة الكونتيسة العجوز. لقد كانت آنا آندرييفنا نوعاً من كونتيسة هي نفسها. كان لها في المنزل مسكنها الخاص، المستقل كل الاستقلال، رغم أنه يقع في الطابق نفسه الذي تسكنه فاناريوتوفا، وفي الشقة نفسها، ولكنه يتألف من غرفتين منفصلتين، فلم أصادف أحداً من آل فاناريوتوفا في يوم من الأيام، لا حين كنت أدخل، ولا حين كنت أخرج. وكان من حقها أن تستقبل من تشاء، وأن تصرف وقتها كما تحب. صحيح أنها كانت قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها. وقد انقطعت عن التردد إلى المجتمع منذ السنة الماضية انقطاعاً يكاد أن يكون تاماً، رغم أن فاناريوتوفنا كانت لا تضن بأية نفقة على حفيدتها التي كانت تحبها كثيراً فيما سمعت. وكان يعجبني في آنا آندرييفنا أنني كنت ألقاها في ثياب بسيطة دائماً، وأراها عاكفة على شغل أو على كتاب في جميع الأحيان.

Twitter: @ketab_n

وكان في هيئتها شيء يكاد يكون رهبانياً، يذكرك بسكان الأديرة، فكان هذا يعجبني فيها أيضاً. وكانت قليلة الكلام، وتزن كلامها، وتعرف كيف تصغي إلى كلام غيرها، وذلك ما كنت أنا عاجزاً عنه. وكان وجهها يتخضب بالحمرة قليلاً إذا قلت لها إنها تذكرني كثيراً بفرسيلوف رغم أنني لا أرى بينهما أية سمة مشتركة. وكانت تحمرّ في كثير من الأحيان، تحمرّ احمراراً سريعاً، ولكن الحمرة التي تخضب وجهها حمرة ضئيلة دائماً، فكانت هذه الصفة من صفات وجهها تعجبني كثيراً. وكنت عندها لا أسمي فرسيلوف باسمه أبداً، وإنما اسميه أندريه بتروفتش، وكان هذا يتم من تلقاء نفسه حتى لقد لاحظت أن آل فاناريوتوف عامة يشعرون بخجل من فرسيلوف. لاحظت هذا على آنا آندرييفنا وحدها، وإن كنت لا أستطيع أن أقول هل كلمة «الخجل» هي الكلمة المناسبة. ولكن كان ثمة شيء من هذا القبيل. وكنت أكلمها أيضاً عن الأمير سرجي بتروفتش، فكانت تصغي إلى كلامي كثيراً، وكان يبدو لي أنها تهتم بما أحمل إليها من مثل هذه الأنباء. ولكن كان يحدث دائماً أنني أنا الذي أنقل إليها هذه الأنباء، أما هي فلم تسألني عن شيء في يوم من الأيام. ولم أجرؤ أبداً أن أكلمها عن إمكان زواج بينهما، رغم أنني رغبت أن أفعل ذلك مراراً كثيرة، لأن هذه الفكرة كانت تعجبني أنا أيضاً إلى حد ما. ولكن ما أكثر الأشياء التي أصبحت لا أجرؤ على أن أتعرض لها بحديث عندها، ومع ذلك كنت أشعر في غرفتها بارتياح كبير. ومما كنت أحبه كذلك حباً كبيراً أنها كانت واسعة الثقافة، فهي تقرأ كثيراً، بل تقرأ كتباً ليست سهلة، وكانت أكثر مني إقبالاً على القراءة وانهماكاً فيها.

إنها هي التي استدعتني إليها في المرة الأولى. وقد قدرت أنها ربما كانت تريد أن تعلم مني أمراً ما. آه. . . ما أكثر الأمور التي كان كثير من

Twitter: @ketab_n

الناس في ذلك الأوان يستطيعون أن يعلموها مني!... وكنت أقول لنفسي: «لاضير! إنها لا تستقبلني لهذا السبب وحده». الخلاصة أنني قد أسعدني أن أكون قادراً على أن أفيدها في أمر من الأمور، و... حين كنت أجلس بقربها، كان يبدو لي دائماً أن أختي هي التي تجلس بجانبي، رغم أننا لم نتكلم يوماً عن قرابتنا لا تصريحاً ولا تلميحاً. فكأن هذه القرابة لم توجد في يوم من الأيام. كان يبدو لي حين أزورها أنني يستحيل عليّ استحالة تامة أن أتعرض لهذا الموضوع، وكنت حين أنظر إليها تبرق في خاطري أحياناً فكرة عجيبة: إنها ربما كانت تجهل هذه القرابة ما دامت تقف مني هذا الموقف وتعاملني هذه المعاملة.

- 3 -

حين دخلت عليها وجدت عندها ليزا على غير توقع. فكدت أشده. كنت أعرف معرفة جيدة أنهما قد التقيا قبل الآن. حدث ذلك اللقاء عند «الطفل الرضيع». قد أتكلم فيما بعد، إذا عرضت لي فرصة، عن تلك النزوة التي اعترت آنا آندرييفنا، ذات الكبرياء والخفر، وهي أن ترى ذلك الطفل، وقد أتكلم أيضاً عن اللقاء الذي تم بينها وبين ليزا هناك. ولكن لم أكن أتوقع أبداً أن تقوم آنا آندرييفنا بدعوة ليزا إليها. لذلك دهشت حين رأيتهما، وكانت دهشة لذيذة. وبدون أن أظهر شيئاً من هذه الدهشة طبعاً، حييت آنا آندرييفنا، وصافحت ليزا مصافحة حارة، وجلست بقربها. وكانتا كلتاهما منكبتين على عمل خطير الشأن: كان فستان السهرة التي تملكه آنا آندرييفنا، وهو فستان غالٍ لكنه قديم، أي لُبس قبل الآن ثلاث مرات، كان ذلك الفستان ممدوداً على الطاولة وعلى ركبهما وقد رغبت آنا آندرييفنا في تغيير شكله. إن ليزا «فنانة» كبيرة في هذا المجال، وصاحبة ذوق مرهف. هذا إذن مجلس مهيب

Twitter: @ketab_n

تعقده «سيدات عاقلات». وتذكرت فرسيلوف، فضحكت، وكنت مشرق المزاج على كل حال.

قالت آنا آندرييفنا مبرزة كل كلمة من كلماتها بوقار:

- أنت اليوم جذل جداً. هذا شيء يدعو للسرور.

إن لها صوتاً واطئاً عميقاً دافئاً، ولكنها تنطق كلماتها دائماً بهدوء ورفق، خافضة أهدابها الطويلة قليلاً، على ابتسامة خاطفة تطوف بوجهها الشاحب.

قلت مرحاً:

- تعرف ليزا كم أكون مزعجاً حين لا أكون جذلاً.

فقالت ليزا بمكر:

- وربما كانت آنا آندرييفنا تعرف ذلك أيضاً.

هذه وخزة من ليزا العابثة. آه، يا ليزا العزيزة! لو أني عرفت ما كان يجثم على صدرها في ذلك الوقت!

وقالت آنا آندرييفنا تسألني:

- ماذا تعمل الآن؟

(لاحظوا أنها هي التي رجتني أن أجيء إليها اليوم).

قلت أجيبها:

- أنا الآن هنا. وإني لأتساءل لماذا يحلو لي دائماً أن أراك قارئة في كتاب أكثر مما يحلو لي أن أراك عاكفة على شغل من أشغال الخياطة؟ لا، حقاً إن أشغال الخياطة لا تناسبك. أنا من هذه الناحية أشارك أندريه بتروفتش رأيه.

- ألم تحزم أمرك على دخول الجامعة بعد؟

- أشكرك شكراً لا حدود له على أنك ما نسيت أحاديثنا السابقة. هذا دليل على أنني أخطر ببالك أحياناً. ولكن... فيما يتعلق بالجامعة،

Twitter: @ketab_n

لم أثبت على أمر بعد. ثم إن لي أهدافي.

قالت ليزا:

- أي إن له سره.

قلت:

- دعي هذه الأمازيح يا ليزا! إن رجلاً ذكياً قال منذ أيام إن حركتنا التقدمية كلها خلال عشرين عاماً قد برهنت قبل كل شيء على مدى إيغالنا في الجهل، ولا شك أنه ينسب هذا إلى جامعتنا طبعاً.

فقالت ليزا:

- لا بد أن بابا هو الذي قال هذا الكلام. فأنت في أكثر الأحيان لا تزيد على أن تكرر أقواله.

- لكأنك تفترضين يا ليزا أنني ليس لي شيء من فكر.

وقالت آنا آندرييفنا مدافعة عني قليلاً:

- من المفيد للمرء في هذا الزمان أن يحسن الاستماع إلى أقوال أشخاص أذكياء، ثم يحسن حفظها.

فاستأنفت كلامي قائلاً بحرارة:

- حقا يا آنا آندرييفنا. إن من لا يفكر الآن في روسيا ليس بمواطن! ربما كنت أنظر إلى روسيا من زاوية خاصة: لقد تحملنا الغزو التتري، ثم تحملنا قرنين من العبودية[73]، ولعل تحمُّلنا هذا مرده إلى أن الأمرين كليهما قد أرضيانا. والآن وهبت لنا الحرية، ويجب أن نتحملها: فهل نحن على ذلك قادرون؟ هل الحرية ترضينا وتتفق وذوقنا؟ هذا هو السؤال.

ألقت ليزا نظرة سريعة على آنا آندرييفنا. فسرعان ما غضّت آنا آندرييفنا طرفها، وأخذت تبحث عن شيء ما فيما حولها. ورأيت ليزا تحاول أن تسيطر على نفسها بكل ما أوتيت من قوة. ولكن بصرينا التقيا مصادفة على حين فجأة، فإذا بليزا تضحك. فانفجرت قائلاً.

Twitter: @ketab_n

- ليزا أنا لا أفهمك!

فكفت عن الضحك، وأسرعت تقول بلهجة يخالطها حزن:

- اغفر لي - لا أدري ماذا في رأسي. . .

واختلجت في صوتها دموع على حين فجأة. فخجلت خجلاً شديداً، وتناولت يدها فقبلتها بشدة.

فقالت آنا آندرييفنا برفق ووداعة. وهي تراني أقبل يد ليزا:

إنك طيب القلب نبيل النفس كثيراً.

- إني ليسعدني جداً يا ليزا أن أراك هذه المرة تضحكين. هل تصدقين يا آنا آندرييفنا أنني في هذه الأيام الأخيرة أرى في وجهها كلما لقيتها نظرة غريبة، فكأنها تتساءل: «ترى هل علم شيئاً؟ هل يجري كل شيء مجرى حسناً؟». حقاً إن فيها شيئاً من هذا النوع.

فألقت عليها آنا آندرييفنا نظرة بطيئة ثابتة، فخفضت ليزا عينيها. وقد أدركتُ على كل حال أن الصلة بينهما أوثق مما تصورتها حين دخلت. فسرتني هذه الفكرة وأبهجتني.

قلت مخاطباً آنا آندرييفنا بعاطفة:

- قلت منذ هنيهة إنني طيب القلب، فلا تستطيعين أن تتصوري يا آنا آندرييفنا مدى ما أصيب من تحسن حين أكون عندك، ومدى ما أشعر به من سعادة حين ألقاكِ.

فأجابتني قائلة بوقار:

- وأنا يسرني أن أسمعك تقول هذا الكلام في هذه اللحظة.

يجب أن أذكر أنها لم تكلمني في يوم من الأيام عن حياة الفوضى التي أعيشها، وعن الزوبعة التي كانت تجرفني أعاصيرها، رغم أنها كانت - فيما أعرف - على علم بكل شيء، حتى أنها سألت عني بعض الناس. فكان هذا أول الماع منها، فما زادني ذلك إلا ميلاً إليها.

Twitter: @ketab_n

وقلت أسألها:

- وكيف صحة مريضنا؟

- آه، تحسنت كثيراً. نهض عن فراشه. وقد خرج يتنزه أمس واليوم بالعربة. ولكن ألم تذهب إليه أنت اليوم؟ إنه ينتظرك.

- إنني مذنب في حقه - ولكنك أنت التي تزورينه الآن، فتحلين محلي تماماً. إنه رجل لا وفاء له، استغنى بك عني، واستبدلك بي.

اتخذت هيئة الجد الشديد، لأن مزاحتي يمكن أن تبدو عامية مبتذلة. فدمدمت:

- أنا آت من عند الأمير سرجي بتروفتش، وأنا... بالمناسبة يا ليزا: هل كنت منذ قليل عند دارنا أونيسيموفنا؟

فقالت ليزا باقتضاب، دون أن ترفع رأسها:

- نعم.

ثم سألتني فجأة، كأنما لتقول أي شيء:

- ولكن كنت أظن أنك تذهب إلى الأمير المريض كل يوم؟

فأجبت أقول ضاحكاً ضحكة قصيرة:

- أذهب. ولكنني لا أكمل الطريق إليه، فما إن أدخل البيت حتى أمضي يسرة.

قالت آنا آندرييفنا:

- حتى الأمير نفسه لاحظ أنك تزور كاترين نيقولايفنا كثيراً. تكلم عن هذا أمس وضحك كثيراً.

- مم ضحك؟

فأجابت آنا آندرييفنا وهي تضحك فجأة:

- كان يمزح كما تعلم. قال إن المرأة الجميلة الشابة لا تثير دائماً في قلب شاب سنُه سنّك إلا الاستياء والحنق...

Twitter: @ketab_n

هتفت أقول:

- اسمعي . . . إنها عبارة بارعة. لا شك أنها ليست منه، بل منك أنت. أليس كذلك؟

- لماذا؟ بل هي منه.

فإذا أنا أنبري فجأة فأسألهما بجرأة يخالطها التحدي:

- فما قولكما إذا كانت هذه المرأة الجميلة تتنبه إلى الشاب رغم أنه لا قيمة له ولا شأن، يقبع في ركنه حانقاً من أنه «صغير»، ثم إذا هي تفضله فجأة على جميع من يحومون حولها ويحيطون بها مولهين عابدين؟

كان قلبي يخفق. فانفجرت ليزا تقول ضاحكة:

- إذن لقد ضعت!

فهتفت قائلاً:

- ضعت؟ لا، لم أضع. وأظن أنني لن أضيع أبداِ. إذا وقفت امرأة في طريقي، فسوف تكون مضطرة أن تتبعني. لا يسد أحد طريقي إلا ويناله عقاب. . .

لقد قالت ليزا في ذات يوم، عرضاً، بعد ذلك بمدة طويلة، إنني قد نطقت بهذه الجملة على نحو غريب، بجد شديد، كأنني أستغرق في التفكير. ولكنها كانت في نفس الوقت «تبلغ من فرط الإضحاك أنه لم يكن للمرء سبيل إلى السيطرة على نفسه، والامتناع عن الضحك».

وقد انفجرت آنا آندرييفنا تضحك مرة أخرى بالفعل.

فصحت أقول منتشياً، لأن هذا الحديث والمجرى الذي سار فيه قد طاب لي كثيراً:

- اضحكي يا آنا آندرييفنا. اضحكي مني. ضحكك لذة لي. إنني أحب ضحككِ. إن لك موهبة مميّزة: تصمتين ساكنة، ثم إذا أنت

Twitter: @ketab_n

تنطلقين في ضحك ما كان لشيء في وجهك قبل ثانية واحدة أن ينذر به. عرفت سيدة بموسكو معرفة ليست قريبة. كنت أختلس النظر إليها من زاويتي: إنها تكاد تكون في مثل جمالك، ولكنها لا تحسن الضحك مثل ضحكك فكان وجهها، الذي لا يقل فتنة عن وجهك، يفقد هذه الفتنة متى ضحكت، أما وجهك فإنه يزداد فتنة بفضل هذه الموهبة... إنني منذ مدة طويلة أريد أن أذكر لك هذا.

ولقد مكرت حين نطقت بتلك الجملة عن السيدة التي «تكاد تكون في مثل جمالك». تظاهرت بأن الجملة أفلتت مني بدون إرادة، وحتى بدون أن ألاحظ ذلك. كنت أعرف أن مثل هذا المديح الذي يفلت من قائله «إفلاتا» يؤثر في المرأة أضعاف تأثير المديح الجميل المقصود. ولقد كنت واثقاً بأن آنا آندرييفنا سرّت رغم الحمرة التي تخضب بها وجهها. والسيدة كانت من تلفيق خيالي: فإنني ما عرفت في يوم من الأيام سيدة كهذه السيدة في موسكو. وما كان ذلك مني إلا بقصد إزجاء المديح لآنا آندرييفنا، وبعث المسرة في قلبها.

قالت وهي تبتسم ابتسامة لطيفة:

- في الحقيقة يمكن للمرء أن يفكر أنك في هذه الأيام الأخيرة كنت خاضعاً لتأثير امرأة جميلة...

فأحسست كأني أطير... واستولت عليّ الرغبة في أن أبوح لهما بشيء... لكنني سيطرت على نفسي وأمسكت عن الكلام.

- بالمناسبة، لقد كنت تتكلم منذ قليل عن كاترين نيقولايفنا بلهجة عدائية.

فقدحت عنياي شررا، وانبريت أجيب قائلاً:

- لقد أسأت التعبير... وإنما يرجع ذلك إلى تلك النميمة الخبيثة التي تزعم أن كاترين نيقولايفنا تناصب أندريه بتروفتش العداء. وهم

Twitter: @ketab_n

يقولون فيه النمائم أيضاً إذ يزعمون أنه أحبها وعرض عليها الزواج ويزعمون سخافات أخرى أيضاً. وليست هذه النميمة أخبث من تلك النميمة الثانية التي تزعم أنها وعدت الأمير سرجي بتروفتش، أثناء حياة زوجها، بأن تتزوجه متى ترملت، ثم لم تف بوعدها. إنني أعلم من المصادر الأولى أن الأمر ليس كذلك وهذا كله لم يكن إلا مزاحاً، أعلم من المصادر الأولى. ففي ذات مرة، قالت للأمير أثناء لحظة مرح في الخارج «ربما» في المستقبل. ولكن ألم يكن هذا كلاماً في الهواء؟ وأنا أعلم حق العلم أن الأمير من جهته لا يمكن أن يولي مثل هذا الوعد أي اعتبار.

ثم استدركت أضيف:

- وليست له أية نية اطلاقاً.

وأضفت أدسّ بمكر قولي:

- أظن أن في ذهنه أفكاراً أخرى. صدقاني إذا قلت لكما أنه، حين حدثه ناشوكين في بيته منذ قليل عن أن كاترين نيقولايفنا قد تتزوج البارون بيورنج، استقبل النبأ أحسن استقبال.

هنا سألت آنا آندرييفنا قائلة برصانة يخالطها نوع من الدهشة:

- ناشوكين كان عنده؟

- نعم، ناشوكين نفسه. أظن أنه واحد من أولئك الرجال الذين يوحون بالاحترام و . . .

- وناشوكين هو الذي كلّم الأمير عن هذا الزواج من بيورنج.

كذلك تابعت آنا آندرييفنا أسئلتها وقد استيقظ اهتمامها فجأة فقلت:

- عن الزواج، لا، بل هو تكلم عن احتمال الزواج، عن شائعة قال إنها تروج في المجتمع. أما أنا فإنني مقتنع بأنها حكاية ملفقة!

ففكرت آنا آندرييفنا ثم عكفت على شغلها.

Twitter: @ketab_n

وأضفت أقول بحماسة مباغتة:

- إنني أحب الأمير سرغي بتروفتش. صحيح أن له عيوبه، وقد سبق أن كلمتك عنه... أقصد أنه محدود الأفكار... ولكن ألا تشهد له هذه العيوب نفسها بأنه امرؤ نبيل النفس؟ في هذا اليوم مثلاً كدنا أن نتشاجر من أجل فكرة: هو مقتنع بأن على المرء إذا أراد الكلام عن النبل أن يكون هو نفسه نبيلاً، والا فإن كل ما يقوله كذب. فهل هذا الكلام منطقي؟ لا... ولكنه يشهد لقائله بأنه شديد المطالب فيما يتعلق بالنبل والواجب والعدالة. ألست على حق؟

وهتفت فجأة أقول وقد وقعت عيني مصادفة على الساعة الموضوعة فوق المدفأة...

- آ يا إلهي!... كم الساعة؟

فقالت آنا آندرييفنا بهدوء بعد أن نظرت إلى الساعة:

- الثالثة إلا عشر دقائق.

وكانت طول مدة حديثي عن الأمير تصغي إلى كلامي خافضة عينيها، بابتسامة فيها شيء من سخرية ماكرة لكنها لطيفة: لقد كانت تعرف لماذا أمدحه هذا المديح كله. وكانت ليزا تنصت مائلة على شغلها، ولكنها أصبحت لا تشارك في الحديث منذ مدة طويلة.

فقزت ناهضاً كمن أصابه حرق. فقالت آنا آندرييفنا تسألني:

- أأنت مستعجل؟

- نعم... لا... بل تأخرت، هذا صحيح. سوف انصرف بعد لحظة يا آنا آندرييفنا.

كذلك بدأت أقول منفعلاً انفعالاً شديداً وتابعت كلامي:

- كلمة واحدة يا آنا آندرييفنا... لا أستطيع أن لا أقول لك اليوم ما أريد قوله! أريد أن أعترف لك بأنني قد باركت مراراً ما أظهرته لي من

Twitter: @ketab_n

طيبة ولطف إذ دعوتني إلى زيارتك... وقد تركت معرفتي بك في نفسي أثراً عميقاً... إن نفسي هنا في حجرتك كأنما تتطهر من الأدران، فأخرج من عندك وأنا خير ما كنت قبل أن أجيء. هذا صحيح. حين أكون إلى جانبك لا أستطيع أن أقول سوءاً، بل لا أستطيع حتى أن تراودني أفكار سيئة. فالأفكار السيئة تتلاشى من ذهني متى رأيتني معك. فإذا برقت في خيالي ذكرى سيئة وأنا بقربك خجلت فوراً ووجلت وذبت خجلاً. ولقد سرني مسرة خاصة في هذا اليوم أن أجد أختي عندك... إن هذا يدل على كثير من النبل فيك... إنه يدل على معاملة جميلة... الخلاصة: لقد أظهرتِ أشياء «أخوية» جداً، إذا سمحت لي أخيراً أن أحطم الجليد، وأن...

كانت آنا آندرييفنا أثناء كلامي قد نهضت من مكانها، وأخذ وجهها يحمر مزيداً من الاحمرار شيئاً بعد شيء. وها هي ذي ترتاح فجأة كأن لكل شيء حدوداً ما ينبغي تجاوزها، وتسرع إلى مقاطعتي قائلة:

- ثق أنني سأقدر عواطفك بكل قلبي... ولقد كنت أفهمها حتى قبل أن أسمع كلامك... منذ مدة طويلة..

وقطعت كلامها مرتبكة وهي تصافحني مودعة. وأحسست فجأة يد ليزا تشدني من كمي بصورة غير ملحوظة. فودعت وانصرفت. وسرعان ما أدركتني ليزا في الغرفة الأخرى.

- 4 -

قلت أسأل ليزا:

- ليزا، لماذا شددتني من كمي؟

- إنها شريرة، إنها ماكرة، إنها لا تستحق... إنها لا تحرص عليك إلا لتستدرجك إلى الكلام...

Twitter: @ketab_n

كذلك أسرّت اليّ ليزا بهمس سريع مبغض حاقد. لم أرَ لليزا هيئة كهذه الهيئة في يوم من الأيام. قلت:

- أعوذ بالله يا ليزا، ماهذا الذي تقولينه؟ إنها فتاة عذبة جداً!

- إذن أنا الشريرة.

- ماذا بك يا ليزا؟

- أنا شريرة جداً. ربما كانت أعذب فتاة، وكنت أنا السيئة الشريرة. هيا، دعني. اسمع: إن ماما تطلب منك «ما لا تستطيع أن تكلمك فيه». هذه ألفاظها نفسها، يا عزيزي آكاردي، أترك القمار يا عزيزي، أرجوك، أتوسل إليك. . . وماما أيضاً. . .

- ليزا، أعلم هذا بنفسي، ولكن. . . أنا أعلم أنني بما فعلته قد برهنت على ضعف في الإرادة. . . ولكن ما هذه إلا سخافات عابرة لا أكثر. اسمعي: لقد راكمت على نفسي ديوناً رهيبة كما لا يفعل ذلك إلا رجل أحمق، وإنما أريد الآن أن أربح لمجرد أن أسدد تلك الديون. والربح ممكن. كنت حتى الآن أقامر على غير هدى، أقامر منقاداً للمصادفة، أقامر بغباء. أما الآن فلن ألقي كل روبل إلا بروية وتفكير. لن أكون أنا إذا لم أربح! أنا لم أدمن القمار. ليس القمار بالشيء الأساسي. ما هو إلا عرض طارئ. أؤكد لك ذلك! أنا أقوى من أن لا أكف متى شئت. . . سأرد الديون، ثم أكون لكم دون غيركم، وقولي لماما إنني لن أترككم. . .

- ما أبهظ الثمن الذي دفعته للحصول على تلك الثلاثمائة روبل!. . .

قلت مرتعشاً:

- من أين عرفت هذا؟

- سمعت داريا أونيسيموفنا كل شيء. . .

Twitter: @ketab_n

وفي هذه اللحظة دفعتني ليزا إلى وراء الستارة فوجدنا نفسينا داخل «المصباح» وهو حجرة صغيرة مدورة كلها نوافذ، فما أن أفقت من ذهولي حتى سمعت صوتاً أعرفه، وصليل مهماز، ومشية عرفت صاحبها. فهمست أقول لليزا:

- هو الأمير سرجي.

فأجابتني بهمس أيضاً:

- هو نفسه.

- لماذا أراك خائفة هذا الخوف كله؟

- هكذا! لا أريد بحال من الأحوال أن يراني هنا...

- Tiens! أتراه يحاول مغازلتك؟ لسوف أريه...

قلت هذا مبتسماً، ثم أردفت أسألها...

- إلى أين تذهبين؟

- لنخرج. أنا ذاهبة معك.

- هل ودعت هناك؟

- نعم، ومعطفي في حجرة المدخل...

وخرجنا. وفيما كنا نهبط السلالم ساورتني فكرة، فقلت:

- هل تعلمين يا ليزا؟ لعله جاء يعرض عليها الزواج.

فأجابت ليزا قائلة بهدوء وبطء ولهجة قاطعة:

- لا... لن يعرض عليها.

- هل تعلمين يا ليزا؟ أنني رغم المشاجرات التي وقعت بيني وبينه - ما دام قد روى لك كل شيء - أحبه حباً صادقاً وأتمنى له النجاح، أحلف لك. لقد تصالحنا. حين نكون سعداء، نكون أخياراً. إن له كثيراً من الميول الرائعة ونفسه محبة للبشر، أو قولي على الأقل إن نفسه تربة صالحة لنمو مشاعر حب البشر. فإذا أصبح بين يدي فتاة مثل

Twitter: @ketab_n

فرسيلوفا، التي تتمتع بقوة الإرادة وحصافة الرأي، أمكن أن يكون إنساناً طيباً وسعيداً. يؤسفني أنني مستعجل جداً. ولكننا سنسير بالعربة معا بعض المسافة. أريد أن أحكي لك شيئاً. . .

- بل إذهب وحدك. وسأسير أنا في اتجاه آخر. هل تأتي للغداء؟

- سآتي، سآتي. هذا وعد. اسمعي يا ليزا. هناك شخص حقير، بل شخص هو أدنأ المخلوقات طراً، اسمه ستيبلكوف إذا كنت تعرفينه: إن لهذا الشخص تأثيراً رهيباً وسلطاناً كبيراً على شؤون الأمير سرغي وأعماله. . . إن لديه سندات مالية. . . الخلاصة أنه قابض عليه قبضاً شديداً، وقد بلغ الأمير من فرط السقوط أن الاثنين كليهما أصبحا لا يريان مخرجاً من المصاعب المالية إلا هذا الزواج من آنا آندرييفنا. فيجب تنبيهها تنبيهاً جدياً. هذه سخافات على كل حال. ستتولى ترتيب كل شيء بنفسها فيما بعد. ثم ما رأيك؟ هل ترفضه؟

فقاطعتني ليزا قائلة:

- إلى اللقاء. ليس في وقتي متسع.

ورأيت فجأة في نظرتها السريعة الخاطفة كرهاً يبلغ من القوة أنني لم أملك إلا أن أصيح مرتاعاً:

- ليزا، عزيزتي، لماذا. . .؟

- ليس هذا الكره لك. ولكن انقطع عن القمار. . .

- آه. . . تقصدين القمار. فلن أقامر إذاً، انتهى!

- قلت منذ هنيهة: «حين نكون سعداء». فهل أنت «سعيد»؟

- سعيد سعادة هائلة يا ليزا! سعادة هائلة! آه. . . رباه. . . الساعة بلغت الثالثة، بل تجاوزتها! استودعك الله يا صغيرتي ليزا. قولي يا ليزا، يا عزيزتي، هل يستطيع المرء أن يدع امرأة تنتظره؟ أيجوز هذا؟

- أنت على موعد غرامي؟

Twitter: @ketab_n

ألقت عليّ هذا السؤال وهي تبتسم ابتسامة خفيفة وُلدت على شفتيها ميتة، ابتسامة راعشة مختلجة.

قلت لها:

- ناوليني يدك لتجلب لي الحظ!

- لتجلب لك الحظ؟ يدي؟ يستحيل أن أفعل بحال من الأحوال!

وابتعدت مسرعة. وقد أطلقت تلك الصرخة جادة كل الجد! وارتميت على عربتي فركبتها.

نعم، نعم، إن تلك «السعادة» هي التي جعلتني كالخلد الأعمى، لا أدرك شيئاً ولا أرى إلا نفسي!

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

– 1 –

أشعر اليوم حتى بخوف من سرد القصة. كل ما سأرويه حدث منذ زمن طويل. ولكن ذلك كله ما يزال إلى هذه الساعة يبدو لي أشبه بسراب. كيف أمكن أن تضرب امرأة مثلها «موعداً» لصبي تافه كالصبي الذي كنته في ذلك الأوان؟ ذلك ما يبدو للوهلة الأولى أنه حدث! بعد أن تركت ليزا، وابتعدت مسرعاً، خفق قلبي، وتصورت أنني فقدت عقلي حقاً: إن فكرة موعد تضربه لي هذه المرأة قد بدت لي مستحيلة استحالة صارخة على حين فجأة، فلا سبيل إلى تصديقها. ومع ذلك كان لا يساورني أي شك فيها. أكثر من هذا أن تصديقي الفكرة كان على قدر قوة استحالتها، فكلما بدت لي استحالتها أقوى، كان تصديقي لها أكبر.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة قليلاً، فكان هذا ما يقلقني: «ما دام هناك موعد، فكيف يمكن أن أصل متأخراً!». وعرضت لذهني أسئلة غبية من نوع هذا السؤال: «أيهما أفضل بالنسبة لي الآن: الجسارة أم الوجل؟». ولكن ذلك كله كان يمضي عابراً. أما الشيء الأساسي فهو يمكث في قلبي، وهو ما لم أستطع أن أحدده. لقد قالت بالأمس: «غداً، في الساعة الثالثة، سأكون عند تاتيانا بافلوفنا». ذلك كل شيء. ولكن أولاً: لقد كانت تستقبلني في غرفتها دائماً على انفراد، وكانت

Twitter: @ketab_n

تستطيع أن تقول لي كل ما تريد دون أن تنتقل إلى بيت تاتيانا بافلوفنا. فلماذا تحدد مكاناً آخر هو بيت تاتيانا بافلوفنا؟ ثانياً: هل ستكون تاتيانا بافلوفنا في البيت أم لا؟ إذا كان الأمر أمر موعد، فيجب أن لا تكون تاتيانا بافلوفنا في بيتها، فكيف السبيل إلى حملها على الغياب عن البيت بدون أن يُشرح لها كل شيء سلفاً؟ هل يكون معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا مطلعة على السر؟ كان هذا يبدو لي أمراً لا يمكن تصوره، كان يبدو لي مفتقراً إلى الحياء بل وفظاً تقريباً.

ثالثاً وأخيراً: لعل الأمر كله لا يزيد على أنها تنتوي زيارة تاتيانا بافلوفنا، فأبلغتني رغبتها أمس بدون أي هدف آخر، فطفقت أنا أتصور وراء ذلك أشياء لا وجود لها. لقد قالت ما قالته عرضاً، وقالته بإهمال، وبهدوء، وبعد جلسة مملة جداً، لأنني طوال الوقت الذي مكثته عندها كنت مضطرباً لسبب ما، فأنا جامد في مكاني أجمجم بكلام مشوش، ولا أعرف ماذا أقول، وأشعر بغضب وبوجل رهيب، وكانت هي - كما اتضح ذلك فيما بعد - تتهيأ للخروج، فكان يسرها أن تراني أنصرف. تلك الأفكار كلها كانت تغلي وتفور في رأسي، وقررت أخيراً أنني سأذهب إلى هناك، وأقرع الجرس، فتفتح لي الطباخة، فأسأل هل تاتيانا بافلوفنا في البيت؟ فإن لم تكن تاتيانا بافلوفنا في البيت كان معنى ذلك أن الأمر أمر «موعد» حقاً. ولكن لم يكن يساورني أيسر شك، لم يكن يساورني أي شك!

صعدت راكضاً. وهناك، على فسحة السلم، أمام الباب تبدّد كل رعبي. قلت لنفسي: «هيا، ليحدث أي شيء، فإنما المهم أن يحدث بأقصى سرعة!».

وفتحت الطباخة الباب. وبصوتها الأخن وبرودتها الكريهة قالت إن تاتيانا بافلوفنا ليست بالبيت. «وليس بالبيت أحد آخر؟ ألا ينتظر أحد

Twitter: @ketab_n

تاتيانا بافلوفنا؟» لقد أردت أن ألقي عليها هذا السؤال، ولكنني لم أفعل، وإنما قلت محدثاً نفسي: «سأرى بعيني». وجمجمت أقول للطبّاخة أنني سأنتظر تاتيانا بافلوفنا، وخلعت معطفي، وفتحت الباب. . .

كانت كاترين نيقولايفنا جالسة أمام النافذة «تنتظر تاتيانا بافلوفنا» فما أن رأتني حتى بادرت تسألني مهمومة قلقة:

- أهي إذاً غائبة؟

وكان صوتها ووجهها لا يتفقان وما كنت أتوقع، فجمدت في العتبة. وتمتمت أسألها:

- من هي؟

- تاتيانا بافلوفنا! لقد رجوتك أمس أن تبلغها أنني سأجيء إليها في الساعة الثالثة.

- أنا. . . ما رأيتها.

- هل نسيت؟

جلست كمن حكم عليه بالإعدام. هذا هو الأمر إذاً! إنه واضح وضوح النهار! ومع ذلك لم أستسلم وما زلت أصدّق فكرة الموعد. قلت أقاطعها نافد الصبر:

- لا أذكر أنك رجوتني أن أبلغها شيئاً. إنك لم تطلبي مني شيئاً: كل ما قلته لي هو أنك ستكونين ببيتها في الساعة الثالثة.

ولم أكن أنظر إليها وأنا أقول هذا الكلام.

فهتفت تقول فجأة:

- آه! إذا كنت قد نسيت أن تبلغها، وإذا كنت تعرف أنني سأكون هنا فلماذا جئت إذن؟

فرفعت رأسي، ونظرت إليها، فلم أر في وجهها لا سخرية ولا غضبا، وإنما رأيت ابتسامة مضيئة مرحة، ورأيت تلك الشيطنة التي تشبه

Twitter: @ketab_n

أن تكون شيطنة طفل، والتي يعبر عنها وجهها دائماً، فكأن هيئتها كانت تقول: «ها قد غلبتك، فما عساك قائلاً الآن».

لم أشأ أن أجيب، وخفضت عيني من جديد: ودام هذا الصمت نصف دقيقة. ثم إذا هي تسألني:

- أأنت قادم من عند بابا؟

قلت:

- بل من عند آنا آندرييفنا. لم أكن عند الأمير نيقولاي إيفانوفتش...

ثم أضفت على حين غرة:

- ولقد كنت تعلمين هذا حق العلم!

- ألم يحدث لك شيء عند آنا آندرييفنا؟

- أتقصدين أن هيئتي هيئة مجنون؟ لقد كانت هيئتي هيئة مجنون من قبل أن أذهب إلى آنا آندرييفنا.

- فهل استرددت عندها شيئاً من عقلك؟

- لا. وإنما علمت هناك أنك ستتزوجين البارون بيورنج.

فظهرت عليها علائم الاهتمام فجأة، وسألتني:

- أهي التي قالت لك هذا؟

- بل أنا الذي أعلمتها به، لأنني سمعت ناشوكين يقوله للأمير سرجي بتروفتش في أثناء زيارته له.

وما زلت خافضاً عيني لا أنظر إليها. لأن النظر إليها معناه أن أغرق في الضياء والفرح والسعادة. وأنا لم أشأ أن أكون سعيداً. ثم وخز الحنق قلبي، فإذا أنا أتخذ قراراً ضخماً في لحظة واحدة. فطفقت أتكلم وأتكلم، دون أن أعرف ماذا أقول. كنت أختنق، وأتمتم، وأتلعثم، ولكنني أصبحت أنظر إليها بجرأة. وكان قلبي يخفق. تحدثت عن أشياء

Twitter: @ketab_n

غير محدّدة ولكنها قد تكون قيلت بصورة مرتبة. فكانت في البداية تصغي إلى كلامي مبتسمة ابتسامتها الهادئة التي لا تبارح وجهها أبداً، ولكن الدهشة ثم الارتياع لم يلبثا أن أخذا يبرقان في نظرتها الثابتة. ومع ذلك لم تفارقها ابتسامتها، غير أن هذه الابتسامة نفسها أخذت تختلج في بعض الأحيان:

ورأيتها ترتعش كلها، فسألتها فجأة:

- ماذا بك؟

فأجابتني كالمذعورة: أنا خائفة منك.

- فلماذا لا تنصرفين إذاً؟ إنك تعلمين أن تاتيانا بافلوفنا غائبة، وأنها لن تأتي بعد قليل. فما عليك إلا أن تنهضي وتنصرفي.

- كنت أريد أن أنتظرها... أما الآن فالأفضل فعلا أن...

قالت ذلك ونهضت نصف نهوض.

فقلت وأنا استوقفها:

- لا، لا. ابقي جالسة. هاأنت ذي ترتعشين من جديد. ولكنك ما تزالين في ذعرك تبتسمين... ابتسامتك هذه لا تفارقك أبداً... وهاأنت ذي تبتسمين ابتسامة صريحة كاملة...

- أأنت تهذي؟

- نعم، أهذي.

همست تقول مرة أخرى:

- أنا خائفة...

- ممّ؟

فقالت وهي تبتسم أيضاً، ولكنها مذعورة فعلاً:

- خائفة من أن تحطم الجدار.

قلت:

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك!

وطفقت أتكلم وأتكلم من جديد. كنت كمن يطير طيراناً. كان شيء ما يدفعني. لم أكن قد كلمتها قبل الآن على هذا النحو في يوم من الأيام أبداً، لأنني كنت شديد الخجل دائماً. ما زلت أشعر بالخجل الرهيب الآن أيضاً ولكنني أتكلم. أذكر أنني حدثتها عندئذ عن وجهها، فقلت لها هاتفاً على حين فجأة:

- أصبحت لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك. لماذا كنت أتخيلك، وأنا بموسكو، رهيبة، رائعة، تطلقين الكلام زاخراً بالسخرية على عادة أبناء المجتمع الراقي؟... نعم، بموسكو. كنا نتكلم عنك هناك أنا وماريا إيفانوفنا، ونحاول أن نراك كما لا بد أن تكوني... هل تتذكرين ماريا إيفانوفنا؟ لقد ذهبت إليها مرة. وفي أثناء السفر إلى هنا حلمت بك طوال الليل في القطار. وهنا، قبل وصولك، ظللت شهراً كاملاً أنظر إلى صورتك في مكتب أبيك فلم أستطع أن أحزر شيئاً. إن تعبير وجهك مزيج من شيطنة طفولية وبساطة لا نهاية لها: ذلك هو وجهك! وذلك ما كان يثير دهشتي الشديدة خلال زياراتي لك. آه... أنت أيضاً تعرفين كيف تنظرين بتكبر واستعلاء، وكيف تجعلين نظرتك ساحقة: إنني أتذكر كيف نظرت إليّ عند أبيك حين وصلت من موسكو.. لقد رأيتك عندئذ، ومع ذلك لو سألني أحد عنك بعد ذلك فورا، لما استطعت أن أقول له شيئاً في وصفك، بل لما استطعت أن أجيبه بشيء حتى عن قامتك! ذلك أنني ما إن رأيتك حتى صرت أعمى. إن صورتك لا تشبهك البتة: عيناك ليستا قاتمتين بل هما واضحتان، غير أن أهدابك الطويلة هي التي تلقي عليهما ظلالاً فتبدوان قاتمتين. وأنت بدينة الجسم، ربعة القامة، ولكن بدانتك قوة وخفة، هي بدانة قروية شابة معافاة. ووجهك أيضاً قروي، إنه وجه

Twitter: @ketab_n

قروية حسناء. لا تزعلي، ذلك جيد، ذلك أفضل... هذا الوجه المستدير المورد الواضح الجسور الضاحك و... الخجول! نعم، الخجول! إن وجه كاترين نيقولايفنا آخماكوفا لخجول! خجول وعف، أحلف لك. بل هو أكثر من عف: هو وجه طفلة. ذلك هو وجهك! لطالما اندهشت فتساءلت: أهذه هي تلك المرأة نفسها؟ وأنا أعلم الآن أنك ذكية جداً، أما في أول الأمر، فكنت أظنك محدودة الفكر قليلاً. وأن لك روحاً فرحة، ولكن بدون تجمّل مصطنع. وأحب فيك أيضاً ابتسامتك الأبدية هذه: هي جنتي! وأحب أيضاً هدوءك، وعذوبتك، وحديثك الرصين الهادئ الذي يكاد يكون وانياً. إنني أحب هذا الونى. يخيل إليّ أنك لو هوى تحت قدميك جسر لظللت تتكلمين بهذه اللهجة الرصينة الموزونة... كنت أظنك ذروة التكبر والأهواء الجامحة، ثم يمضي شهران ولا أسمع منك خلالهما إلا حديثاً كحديث طالب لطالب... ولم أتخيل في يوم من الأيام جبهة كهذه الجبهة: إنها ضيقة قليلاً كجباه التماثيل، لكنها طرية بيضاء كالمرمر، تحت شعر غزير رائع. وإن لك صدراً عالياً، ومشية مرنة، وجمالاً خارقاً، لكنك لا تشعرين من ذلك بخيلاء. الآن إنما أقتنع بهذا، وكنت أرفض دائماً أن أصدقه!

أنصتت إلى كلامي المستفيض الفظيع محملقةً. وكانت ترى أنني أرتجف. وقد حاولت عدة مرات إيقافي عن الاسترسال في هذا الحديث بحركة رشيقة متهيبة من يدها الصغيرة المغمودة في قفازها، ولكنها كانت لا تلبث في كل مرة أن تسحب يدها حائرة متهيبة. حتى لقد كانت ترتد إلى الوراء بحركة سريعة في بعض الأحيان. ومرتين أو ثلاث مرات، عادت الابتسامة تضيء وجهها. ولكنها في النهاية خافت فعلاً وشحب لونها. فما كدت أتوقف عن الكلام حتى مدت إليّ يدها،

Twitter: @ketab_n

وقالت بصوت ضارع مبتهل، ولكنه ما يزال رصيناً:

- ما ينبغي أن يُقال هذا... لا يجوز للمرء أن يتكلم هكذا...

ونهضت فجأة، وتناولت شالها وفروتَيْ يديها بغير تعجّل. فهتفتُ أسألها:

- أتنصرفين؟

فأجابت بلهجة ممطوطة فيها حسرة وعتاب:

- أنا خائفة منك... إنك تسرف...

- اسمعي! لن أحطم الأسوار، أحلف لك.

- لكنك بدأت تحطمها.

ولم تستطع أن تكبح نفسها، فابتسمت. وأضافت تقول:

- حتى أنني لست واثقة بأنك ستدعني أنصرف.

أظن أنها كانت تخشى حقاً أن أسد عليها طريقها.

قلت:

- بل سأفتح لك الباب بنفسي، هيا اذهبي... ولكن... اعلمي أنني اتخذت قراراً ضخماً. فإذا كنت تريدين أن تهبي لنفسي ضياء، ارجعي واجلسي واسمعي مني كلمتَين أخريين. وإذا لم تريدي، فانصرفي، وسأفتح لك الباب بنفسي.

فنظرت إليّ وعادت تجلس.

فهتفت أقول ثملاً:

- لو كنتِ امرأة أخرى لخرجت مستاءة أشد الاستياء. ولكنك عدت تجلسين.

- إنك لم تبح لنفسك أن تقول لي مثل هذا الكلام في يوم من الأيام.

- كنت خجولاً، وما زلت خجولاً، وحين وصلت إلى هنا، كنت لا أعرف ما عساني أقول. أتظنين أنني أصبحت غير خجول؟ إنني ما أزال

Twitter: @ketab_n

خجولاً. لكنني اتخذت قراراً ضخماً على حين فجأة، وأحسست أنني سأنفذه. فلما اتخذت ذلك القرار طاش صوابي وطفقت أتكلم. اسمعي الكلمتين اللتين أريد أن أقولهما لك: أأنت تتخذينني جاسوساً أم لا؟ أجيبيني! هذا هو السؤال!

فاحمر وجهها بسرعة: واستدركتُ أقول لها:

- لا تجيبيني بعدُ يا كاترين نيقولايفنا. استمري على الإصغاء، ثم قولي لي الحقيقة كلها.

لقد قلبت جميع الحواجز دفعة واحدة، وأصبحت أطير في الفضاء.

– 2 –

- منذ شهرين، كنت واقفاً هناك وراء الستارة، وأنتِ على علم بذلك... وكنت أنت تتحدثين مع تاتيانا بافلوفنا عن الرسالة. فظهرت لكما، وأسرفت في الكلام خارجاً عن طوري بغير روية. فأدركت على الفور أنني على علم بشيء ما... ولم يكن في وسعك إلا أن تدركي... كنت تبحثين عن وثيقة هامة، وتخشين خطرها عليك خشية كبيرة. انتظري يا كاترين نيقولايفنا، لا تتكلمي بعد. إنني أعلن لك بأن شبهاتك كانت في محلها: فالوثيقة موجودة... كانت موجودة... فقد رأيتها بعيني.. إنها رسالتك إلى آندرونيكوف، أليس كذلك؟

فسألتني بسرعة وقد امتلأت نفسها حيرة وانفعالاً.

- رأيت تلك الرسالة؟ وماذا صارت اليه؟

- مزقها كرافت.

- مزقها أمامك؟ رأيته يمزقها؟

- مزقها أمامي، أغلب الظن أنه كان قد قرّر موته... ولم أكن أعرف أنه سيقتل نفسه...

Twitter: @ketab_n

- إذن أتلفها. الحمد لله!

كذلك قالت ببطء، بعد أن تنفست الصعداء. ثم رسمت إشارة الصليب.

لم أكذب عليها. بل لقد كذبت، لأن الوثيقة كانت عندي، ولم تكن عند كرافت فيما يتعلق بجوهر القضية، لأنني في اللحظة التي كذبت فيها قطعت عهداً على نفسي لأحرقنّ تلك الرسالة في هذا المساء نفسه. ويميناً لو كانت الرسالة في جيبي حينذاك، لأخرجتها وناولتها إياها. . . ولكنني لم أكن أحملها، وإنما كانت في البيت. وقد لا أعطيها الرسالة مع ذلك لأن من المخجل أن أعترف لها بأن الرسالة كانت عندي طول هذه المدة فاحتفظت بها ولم أسلمها إليها. ولكن لا فرق: فلقد قررت أن أحرق الرسالة على كل حال، وأنا إذن لم أكذب! أقسم لقد كنت صادقاً في تلك اللحظة.

وتابعت أقول خارجاً عن طوري:

- فإذا كان الأمر كذلك، فأرجو أن تجيبيني عن هذا السؤال: لماذا جذبتني إليك ودللتني واستقبلتني في بيتك؟ أليس لأنك قدّرت أنني على علم بأمر الوثيقة؟ انتظري يا كاترين نيقولايفنا، انتظري دقيقة أخرى، لا تتكلمي، أتيحي لي أن أنهي كلامي: إنني طوال المدة التي ظللت أزورك في أثنائها، كنت أقدر أنك لا تلاطفينني ولا تدللينني إلا لتستدرجيني إلى الكلام عن تلك الرسالة، ولتجبريني على الاعتراف. . . انتظري دقيقة أخرى. كنت أقدر وأشتبه، ولكني كنت أتألم وأتعذب. أصبحت لا أحتمل منك هذا الرياء. . . ذلك أنني اكتشفت أنك بين سائر مخلوقات الله أنبلها نفساً! أقول لك بصراحة، نعم، أقول لك بصراحة: إنني كنت عدوك، ولكنني وجدت أنك أنبل مخلوقات الله، فغلبتني دفعة واحدة. ولكن الرياء. . . أقصد شبهة

Twitter: @ketab_n

الرياء كانت ترهقني. . . فيجب الآن أن يتقرر كل شيء، أن يتوضح كل شيء. لقد حان الوقت. ولكن انتظري قليلاً، لا تتكلمي، واعرفي كيف أنظر أنا إلى هذا كله الآن، في اللحظة الراهنة بالضبط: إذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فلن أغضب، بل أقصد: لن أستاء، لأن هذا طبيعي: إنني أدرك ذلك حق الإدراك. أي شيء في هذا يخالف الطبيعة أو يتصف بأنه شر؟ الوثيقة تعذبك وتقلقك، وأنت تقدرين أن فلانا من الناس على علم بكل شيء. فمن حقك أن تتمني أن يتكلم فلان هذا. . . ليس في هذا شر؛ ليس فيه أي شر. إنني أتكلم صادقاً كل الصدق. ومع ذلك يجب أن تقولي لي الآن شيئاً. . . يجب أن تعترفي (اغفري لي استعمال هذه الكلمة). إنني في حاجة إلى معرفة الحقيقة. لسبب ما أنا في حاجة ماسة إلى معرفة الحقيقة! فقولي لي: هل من أجل أن تستدرجيني إلى الكلام عن تلك الوثيقة إنما لاطفتني ودللتني. . . يا كاترين نيقولايفنا؟

كنت أتكلم ولا أستطيع التوقف عن الكلام، وكان جبيني يحترق احتراقاً. وكانت تصغي إليَّ بغير قلق، حتى أن هيئتها كانت تنم عن عاطفة. ولكن نظرتها كانت تشتمل على وجل، ربما من شعورها بشيء من الخجل أو من العار.

ثم قالت بصوت بطيء خافت:

- نعم، من أجل ذلك.

وأضافت تقول فجأة وهي ترفع إليَّ يديها قليلاً.

- سامحني، أخطأت.

لم أكن أتوقع هذا. توقعت كل شيء إلا هاتين الكلمتين، حتى منها هي التي كنت أعرفها الآن. صحت أقول:

- وتقولين «أخطأت»؟ بكل صراحة تقولين «أخطأت»؟

Twitter: @ketab_n

- آه! إني لأشعر بأخطائي في حقك منذ مدة طويلة. . . ويسعدني اليوم أن يكون كل شيء قد توضح. .

- منذ مدة طويلة؟ فلماذا لم تقولي ذلك في حينه؟

فابتسمت وقالت:

- ذلك أنني كنت لا أعرف كيف أقوله.

وابتسمت مرة أخرى وأضافت تقول مستدركة:

- أو قل كان في إمكاني أن أعرف. . . لكنني كنت أشعر بعذاب الضمير. . . لأنني، كما تقول، لم «أجذبك» في أول الأمر إلا من أجل ذلك الهدف، ثم لم ألبث أن أحسست أنا باشمئزاز. . . وسئمت ذلك الزيف كله. . . أؤكد لك! وسئمت تلك الهموم كلها. . .

أضافت ذلك بلهجة تنم عن مرارة.

قلت:

- لماذا، لماذا لم تسأليني صراحة؟ كان في وسعك أن تقولي لي: «أنت تعرف أمر الرسالة، فعلام التظاهر؟» فلو ألقيت عليَّ ذلك السؤال لاعترفت لك فوراً بكل شيء!

- كنت. . . كنت خائفة منك بعض الخوف. بل يجب أن أعترف بأنني ما كنت أثق بك. ثم، إذا شئتَ الحقيقة كلها: لقد مكرت أنا ومكرت أنت!

قالت هذه الجملة الأخيرة وهي تضحك ضحكة قصيرة. فهتفت أقول مصعوقاً:

- نعم، نعم، لقد كنت دنيئا. آه. . . إنك لا تعرفين عمق الهوة التي سقطت فيها!

- ها أنت تعود إلى الكلام عن الهوّة. . . إنني أعرف أسلوبك!

وابتسمت ابتسامة رقيقة، ثم أضافت تقول بحزن:

Twitter: @ketab_n

- إن تلك الرسالة هي من بين حوادث حياتي أبعثها على الحزن، وهي من أفعالي أكثرها خفة وطيشاً. لطالما أنبني ضميري على كتابتها. إنني بتأثير الظروف وتأثير مخاوفي قد شككت في أبي العزيز الشهم. وإذ قدرت أن هذه الرسالة يمكن أن تقع بين أيدي أناس أشرار. . . إذ كانت لي دلائل تحملني على هذا التقدير (قالت ذلك بحرارة)، فقد ارتعدت خوفاً من أن يستخدموها وأن يطلعوا عليها بابا. . . وكان يمكن أن يؤثر ذلك في صحته تأثيراً شديداً بسبب حالته التي هو فيها، فإذا هو يكرهني. . .

ثم أضافت تقول وقد حدقت في عينيّ بصدق فالتقطت في نظرتي شيئاً ما في أغلب الظن:

- نعم. . . وخفت أيضاً على نفسي. . . خفت أن يحمله مرضه على أن يحرمني من أرزاقه. . . كان هذا الشعور ماثلاً هو أيضاً. ولكن لا شك أنني كنت هنا مخطئة في حقه: فهو أطيب قلباً وأكرم نفساً من أن لا يغفر لي. ذلك كل ما حدث. أما عن سلوكي معك، فما كان ينبغي لي أن أتصرف كما تصرفت! إنني أشعر الآن بخزي.

بذلك ختمت كلامها وقد اعتراها خجل مباغت. فهتفت أقول:

- لا، ليس لك أن تشعري بخزي.

- لقد عوَّلت فعلا على حرارة اندفاعك، أعترف بذلك.

قالت هذا وهي تخفض عينيها.

فهتفت أقول كالسكران:

- كاترين نيقولايفنا، من ذا يجبرك على مثل هذه الاعترافات أمامي؟ ماذا كان يكلفك من جهد أن تنهضي فتبرهني لي بألفاظ منتقاة وعلى نحو دقيق جداً أنه كان ثمة شيء ما فعلاً، ولكن هذا الشيء لا قيمة له. . . كما يُجيد أن يفعل ذلك أبناء مجتمعك الراقي في مواجهة الحقيقة؟ إنني

Twitter: @ketab_n

امرؤ غليظ بليد، فلو فعلت ذلك لصدقتك على الفور، ولصدقت كل ما قد تقولينه لي! ماذا كان يكلفك من جهد أن تفعلي هذا؟ لم تكوني خائفة مني فعلاً، أليس كذلك؟ فكيف ارتضيت بإرادتك أن تخفضي قيمتك أمام دعيّ حقير، ومراهق تافه؟

فقالت بوقار شديد، لأنها لم تدرك كلامي في أغلب الظن:

- أنا لم أخفض قيمتي أمامك، لأنني قلت الحقيقة على الأقل.

- بالعكس، بالعكس. إن هذا بعينه هو ما أعترض عليه.

صاحت تقول وهي تحمل يدها إلى وجهها كأنما لتخفيه بها:

- آه! كان هذا مني شراً وطيشاً! وأمس كنت أشعر بالخزي؛ فلذلك كنت سيئة الحال حين جئت تزورني.

ثم أضافت تقول:

- والواقع أن الظروف توجب عليّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملة عن مصير تلك الرسالة المشؤومة، التي كنت على وشك أن أنساها. . . فكنت أستقبلك في بيتي لا بسبب تلك الرسالة وحدها. . .

أضافت هذه الجملة الأخيرة بغتة. فوجف قلبي. وألمت بشفتيها ابتسامة رقيقة. وأردفت قائلة:

- بالطبع، لم أكن أستقبلك بسبب تلك الرسالة وحدها. . لا. . حتما. . إنني. . . إنني. . . لقد عبرتَ أنت بدقة بالغة عن هذا منذ قليل يا آركادي ماكاروفتش. . . فذكرتَ أننا كثيراً ما نتحدث كما يحدث طالب طالبةً. أؤكد لك أنني في بعض الأحيان أشعر في المجتمع بضجر وسأم، ولا سيما بعد إقامتي في الخارج، وبعد تلك المصائب العائلية كلها. . . حتى لقد أصبحت لا أخرج كثيراً، وليس هذا عن كسل مني. وكثيراً ما أتمنى أن أعتزل في الريف، فأعيد هناك قراءة كتبي المفضلة التي هجرتها منذ زمن طويل، والتي لا أتمكن من إعادة قراءتها هنا.

Twitter: @ketab_n

على أنني قد قلت لك هذا كله من قبل. إنك تتذكر ذلك. حتى ضحكتَ لأنني أقرأ الجرائد الروسية، بمعدل جريدتين في اليوم، أليس كذلك؟

- لا، لم أضحك. . .

- لا شك أنك كنت أنت أيضاً تتأثر. لقد اعترفت لك منذ مدة طويلة بأنني روسية، وبأنني أحب روسيا. تتذكر أننا كنا نشترك دائماً في قراءة «الوقائع» كما كنت تسميها (وابتسمتْ). ورغم أنك كنت في كثير من الأحيان. . . غريباً منفرداً بعض الشيء، فقد كنت في أحيان أخرى تتحمس فتعرف كيف تقول كلمة حق، وكنت تهتم بنفس الأشياء التي كنت أهتم بها أنا. إنك لطيف وأصيل متى كنت «طالباً». أظن أن الأدوار الأخرى لا تلائمك كما يلائمك دور الطالب.

أضافت هذه الجملة الأخيرة وهي تبتسم ابتسامة حلوة فيها مكر محبب. واستطردت تقول:

- تتذكر أننا كنا في بعض الأحيان نقضي ساعات كاملة في الاهتمام بالأرقام فنحسب ونقيس، نحصي عدد المدارس في بلادنا، ونتساءل عن تطور التعليم وما يقود إليه؛ وننظر في عدد جرائم القتل، وجرائم السطو، ونقارن ذلك كله بالأنباء السارة. . . كنا نحاول أن نعرف أين يتجه هذا كله، وما الذي سنصير إليه آخر الأمر. ووجدت فيك الصدق. إن الرجال في المجتمع الراقي لا يخاطبوننا أبداً بهذه اللغة نحن معشر النساء. كنت في الأسبوع الماضي أكلم الأمير «. . . سوف» عن بسمارك، لأنني شديدة الاهتمام ببسمارك، وكنت لا أعرف ماذا يجب أن يكون رأيي فيه. فهل تتصور ما فعله الأمير؟ جلس إلى جانبي، وطفق يقص عليَّ حكايات شتى مسرفاً في ذكر التفاصيل، وكان في كلامه كله نوع من السخرية، وذلك النوع من التسامح والتنازل الذي

Twitter: @ketab_n

يُظهره «كبار الرجال» في العادة حين يكلموننا نحن النساء إذا «تدخلنا فيما لا يعنينا». لقد أصبحت لا أطيق هذا التنازل والتسامح... هل تتذكر أننا نحن أوشكنا أن نتشاجر في كلامنا عن بسمارك؟ كنت تريد أن تبرهن لي على أن لك «فكرة أعلى كثيراً» من فكرة بسمارك.

قالت هذا وضحكت فجأة. واستطردت تقول:

- ما رأيت في حياتي إلا رجلين اثنين كلماني جادين حقا؛ أحدهما المرحوم زوجي الذي كان رجلاً ذكياً جداً... وكانت نفسه تزخر نبلاً (قالت هذا بلهجة مؤثرة)، وأما الثاني فأنت تعرف...

فهتفت أقول وأذناي مصغيتان لكل كلمة تقولها:

- هو فرسيلوف!

- نعم. كنت أحب كثيراً أن أسمعه. وقد أصبحت في النهاية... صريحة معه كل الصراحة بل لعلني أسرفت في هذه الصراحة، غير أنه أصبح بعدئذ لا يصدقني.

- لا يصدقك؟

- وما صدقني أحد في يوم من الأيام على كل حال.

- ولكن فرسيلوف! فرسيلوف!

قالت وهي تخفض عينيها وتبتسم ابتسامة غريبة:

- لم يقتصر على أن لا يصدقني، بل قرر جازماً أنني «أتصف بجميع العيوب».

- ليس فيك عيب واحد.

- بل إن لي بعض العيوب، أنا أيضاً.

هتفت أقول وقد سطعت عيناي:

- كان فرسيلوف لا يحبك، فلذلك لم يفهمك.

فتغير شيء ما في وجهها وقالت بحرارة وإلحاح شديد:

Twitter: @ketab_n

- دع هذا الأمر، ولا تكلمني أبداً عن هذا. . . عن هذا الرجل. ولكن كفى، لقد حان الوقت. . . (ونهضت لتنصرف). - فماذا؟ أتغفر لي أم؟ قالت هذا وهي تحدق فيَّ تحديقاً صريحاً.

- أنا؟ أغفر لك؟ اسمعي يا كاترين نيقولايفنا، ولا تغضبي: هل صحيح أنك ستتزوجين؟

فقالت حائرة، كالمرتاعة:

- لم يتقرر الأمر بعد.

- أهو رجل طيب؟ معذرة، اغفري لي هذا السؤال.

- نعم، هو طيب جداً. . .

- لا تجيبي بعد الآن، لا تنعمي عليَّ بأي جواب. أنا أعلم أن هذه الأسئلة مستحيلة حين ألقيها أنا! وقد أردت أن أعرف أهو جدير أم لا. ولكنني سأعرف عنه بنفسي.

قالت مرتاعة:

- آ. . . اسمع!

- طيب، طيب. . . سأمتنع، سأمتنع، سأصرف النظر عن هذا الأمر. . . ولكن إليك ما أريد أن أقوله لك: أسأل الله أن يهيئ لك جميع أنواع السعادة، جميع أنواع السعادة التي تمنيتها. . . جزاء ما وهبت لي من سعادة في هذه الساعة القصيرة! إن ذكراك قد نُقشت الآن في نفسي إلى الأبد. لقد كسبت كنزاً عظيماً هو فكرة الكمال هذه التي تجسدينها. كنت أقدر فيك خداعاً وغنجاً زائفاً، فكنت من ذلك شقياً. . . لأنني لم أستطع أن أوفق بين هذا الاشتباه وبين ما أراه فيك. وأصبحت في الأيام الأخيرة أفكر في هذا الأمر ليلاً ونهاراً. أما الآن فقد وضح لي كل شيء وضوحاً تاماً! حين كنت آتياً إلى هنا كنت أتصور أن ألقى نفاقاً ومكراً، وحيّة لائبة، فإذا أنا أجد شرفاً، ومجداً، وطالبةً. . .

Twitter: @ketab_n

أتضحكين؟ اضحكي! ولكنك قديسة، فلا يمكنك أن تضحكي مما هو مقدس. . .

- أنا لا أضحك إلا لأنك تستعمل تعابير رهيبة. فما هي هذه «الحية اللائبة» التي ذكرتها؟

وانفجرت تضحك. ولكنني تابعت كلامي متحمساً أقول:

- لقد أفلتت منك اليوم كلمة ثمينة. كيف أمكنك أن تقولي أمامي أنك كنت تعوّلين على «حرارة اندفاعي»؟ صحيح أنك قديسة، وأنت نفسك تقرّين بهذا ما دمت تتخيلين أنك ارتكبت ذنوباً تريدين التكفير عنها. . . مع أنه ليس ثمة ذنب في الواقع، لأن كل ما يصدر عنك فهو مقدس رغم أن شيئاً ما حدث. ولكن كان في إمكانك مع ذلك أن لا تنطقي بذلك التعبير، وبهذه العبارات.

واستطردت أقول صائحاً مشوشاً:

- إن هذه الصراحة التي ليست أمراً مألوفاً إنما تدل على عفتك العظمى، وعلى ما تضمرينه لي من احترام وعلى ما تحسينه من ثقة بي. آه! لا تحمري، لا تحمري. . . من ذا الذي تقوَّل عليك فزعم أنك امرأة جامحة الهوى؟ آه. . . اغفري لي. . . إنني أرى في وجهك تعبيراً عن ألم! اغفري لمراهق مندفع في عباراته الخرقاء! ولكن هل الأمر اليوم أمر عبارات، أمر تعابير؟ ألستِ فوق كل التعابير؟ قال فرسيلوف يوماً: لئن قتل عطيل ديدمونة[74]، ثم قتل نفسه، فإنه لم يفعل ذلك عن غيرة، وإنما فعله لأنه سُلب مثله الأعلى. إنني أفهم اليوم هذا الكلام، بعد أن رُدَّ إليَّ مثلي الأعلى!

قالت بعاطفة:

- إنك تسرف في مدجي: أنا لا أستحق هذا المدح!

ثم أضافت تقول مازحة:

Twitter: @ketab_n

- هل تذكر ما كنت أقوله عن عينيك؟

- كنت تقولين عنهما إنهما مجهران، وأنني أرى الذبابة جملاً! لا، إنني لا أضخم الأمور الآن. . . ماذا؟ أتنصرفين؟

كانت في وسط الغرفة تحمل شالها وفروتَيْ يديها، فأجابتني تقول:

- بل سأنتظر أن تنصرف أنت، ثم أمضي بعدك. عليَّ أن أكتب كلمتين لتاتيانا بافلوفنا.

- أنا منصرف، أنا منصرف، ولكنني أكرر مرة أخرى: أرجو الله أن يعطيك السعادة، وحيدة أو مع من تختارين! أما أنا فلست في حاجة إلا إلى مثلي الأعلى!

- عزيزي، عزيزي الطيب آركادي ماكاروفتش، صدق أنني أفكر فيك. . . إن أبي يصفك دائماً «بالفتى اللطيف، الطيب». صدق أنني سأتذكر دائماً ما رويته لي عن ذلك الصبي الصغير المسكين الذي تُرك عند غرباء، وما رويته لي عن أحلامه في عزلته. . . إنني لأفهم كيف كوّنت نفسك فهماً واضحاً كل الوضوح. . .

ثم أضافت تقول وهي تبتسم ابتسامة ضارعة زاخرة بالحياء والخفر، وتشدّ على يدي مصافحة:

- ولكن لا يجوز لنا بعد اليوم أن نلتقي كما كنا نلتقي، مهما نكن طالبين. . . و. . . أظن أنك تفهم هذا، أليس كذلك؟

- لا يجوز؟

- لا، لا يجوز. وسيستمر ذلك مدة طويلة. . . هذا ذنبي أنا. إنني أرى أن اجتماعنا بعد الآن مستحيل استحالة مطلقة. . . على أننا سوف نلتقي أحياناً عند بابا. . .

«أتخشين «حرارة» اندفاعي؟ ألا تثقين بي؟»

أردت أن أهتف ملقياً عليها هذا السؤال، ولكنها بلغت من شدة

Twitter: @ketab_n

الخجل في تلك اللحظة إلى درجة أن الألفاظ لم تخرج من حلقي.

أوقفتني فجأة بقرب الباب وقالت تسألني:

- قل لي: هل رأيت... بعينيك... أن تلك الرسالة قد تم تمزيقها؟ هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً؟ وكيف عرفت أن الورقة التي تم تمزيقها هي نفسها رسالتي إلى آندرونيكوف؟

- حدثني كرافت عن مضمونها، بل أطلعني عليها... أستودعك الله! كنت إذا جئت إليك أفقد كل شجاعة أمامك، فإذا خرجتِ هممت أن أقبل الموضع الذي وطأته بقدميك من الأرض.

قلت هذا الكلام الأخير على حين غرة لا أدري كيف ولا لماذا. ثم خرجت بسرعة دون أن أنظر إليها.

أسرعت إلى بيتي. كانت نفسي مترعة بحماسة شديدة وافتتان قوي. وكان كل شيء يعصف في خاطري كزوبعة. وكان قلبي زاخراً مفعماً. فلما اقتربت من منزل أمي تذكرت فجأة ما رأيته في ليزا من التنكر لجميل آنا آندرييفنا، وتذكرت الكلمة الرهيبة القاسية التي قالتها في حقها منذ قليل، فشعرت بقلبي ينسحق ألماً لهما كلتيهما! «ما أقسى قلوبهن جميعاً! ولكن ليزا ما بالها؟». كذلك تساءلت وأنا أضع قدمي على درج الباب.

وصرفت ماتفي، بعد أن أمرته بأن يعود إليّ في الساعة التاسعة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

– 1 –

وصلت متأخراً عن موعد الغداء، ولكنهم لم يكونوا قد جلسوا إلى المائدة: كانوا ينتظرونني. وقد أعدوا للغداء ألواناً من الطعام إضافية، ربما لأنني كنت لا آكل عندهم إلا نادراً، فكان على المائدة سردين وما إلى ذلك من المشهّيات. ولكن ما كان أشد دهشتي وما كان أكبر حزني حين رأيتهم جميعاً كأنهم مهمومون مكفهرون: فأما ليزا فإنها حين رأتني لم تكد ترتسم على شفتيها ابتسامة، وأما ماما فكان واضحاً أنها قلقة، وأما فرسيلوف فقد تبسم ولكن بجهد. سألت نفسي: «أتراهم تشاجروا؟» وجرى كل شيء في البداية مجرى حسناً، باستثناء أن فرسيلوف امتعض حين جيء بحساء الشعيرية، ثم سخط حين جيء بالكفتة، فأفلتت منه كلمات غاضبة:

– يكفي أن أقول إن صنفاً من أصناف الطعام لا تحتمله معدتي حتى أراه في اليوم التالي على المائدة!

فقالت أمي تجيبه وجلى:

– ماذا تريد يا أندريه بتروفتش؟ لا يستطيع المرء أن يخترع في كل يوم لونا جديداً.

– إن أمك على نقيض بعض صحفنا التي ترى في كل جديد شيئاً حسناً.

Twitter: @ketab_n

لقد أراد فرسيلوف أن يمزح، أن يقول شيئاً فيه مرح وصداقة، ولكنه لم يفلح، بل لم يزد على أن أرعب أمي مزيداً من الرعب، وهي لم تفهم شيئاً من تلك المقارنة بينها وبين الصحف طبعاً، ومضت ترسل نظرات مرتبكة هنا وهناك. وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا بافلوفنا، وأعلنت أنها قد تغدت، وجلست على الديوان قريبة من أمي.

لم أكن قد أفلحت بعد في الحصول على حظوة هذه الإنسانة. على العكس، لقد كان تهجمها عليَّ يزداد بمناسبة، وبغير مناسبة. وكان استياؤها قد اشتد في الآونة الأخيرة: فهي لا تستطيع أن ترى ثيابي الأنيقة، وقد روت لي ليزا عنها أنها كادت تصاب بنوبة عصبية حين علمت بأن لي حوذياً تحت إمرتي. وقد أصبحت في النهاية أتحاشاها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. أذكر أنني منذ شهرين، حين رفض فرسيلوف الميراث هرعت إلى بيتها أحدثها عن سلوكه، ولكنني لم أحظ منها بأي عطف على هذا السلوك، حتى لقد استاءت استياء رهيباً. لقد أسخطها أشد الإسخاط أن فرسيلوف رد الميراث كله بدلاً من أن يرد نصفه، ووجهت إليَّ أنا ملاحظة لاذعة فقالت:

- أراهن أنك على ثقة بأنه رد الميراث ودعا الآخر إلى المبارزة لا لشيء إلا أن يعلو قدره واعتباره في نظر آركادي ماكاروفتش.

كادت تحزر! فلقد كنت أحس بشعور من هذا النوع حينذاك.

وما إن دخلتْ حتى أدركتُ فوراً أنها ستهجم عليَّ حتماً، بل كنت مقتنعاً أنها ما جاءت إلا لهذا الغرض. لذلك بادرت إلى اصطناع لهجة طلقة جداً، ولم يكلفني هذا جهداً كبيراً، لأنني كنت لا أزال متحمساً مفعم النفس فرحاً. يجب أن أشير مرة واحدة وإلى الأبد إلى أن هذه اللهجة الطلقة كانت لا تناسبني أبداً، ولا توافق سحنتي إطلاقاً، وأنها كانت دائماً تجللني بالخزي، وذلك ما حدث، فسرعان ما وجدت

Twitter: @ketab_n

نفسي منقاداً للكذب، ذلك أنني - بدون أية عاطفة سيئة، بل بدافع الخفة وحدها - حين لاحظت أن ليزا حزينة حزناً شديداً، أفلت من لساني على حين فجأة، دون أن أفكر فيما أقوله، أفلت من لساني قولي:

- منذ مدة طويلة لم آكل هنا، ثم هاأنت ذي عابسة الوجه، متجهمة الهيئة يا ليزا، كأنك اخترتِ هذا اليوم قصداً عمداً!

فأجابتني ليزا تقول:

- أعاني من صداع.

ثم إذا بتاتيانا بافلوفنا تهجم هجمتها قائلة:

- آه! يا إلهي! ما قيمة أن تكوني مريضة؟ لقد تفضل آركادي ماكاروفتش فجاء إلى هنا ليتغدى: فيجب عليك أن ترقصي وأن تبتهجي!

فانبريت أقول:

- إنك بلية حياتي حقاً يا تاتيانا بافلوفنا! لن أجيء بعد اليوم أبداً متى كنت هنا!

قلت ذلك وخبطت المائدة براحة يدي في غضب صادق. فانتفضت أمي، وألقى عليَّ فرسيلوف نظرة غريبة. وانفجرت أنا أضحك واستغفر. قلت ملتفتاً إلى تاتيانا بافلوفنا، بلهجة ما تزال طلقة:

- إنني أسحب كلمة «البلية» يا تاتيانا بافلوفنا.

فأجابت تقول جازمة:

- لا، لا، ثق أنك تمدحني مدحاً عظيماً حين تصفني بأنني بلية حياتك، ولا تصفني بنقيض ذلك!

جمجم فرسيلوف مبتسماً:

- يا عزيزي، يجب على الإنسان أن يعرف كيف يتحمل البلايا

Twitter: @ketab_n

الصغيرة في هذه الحياة. ولا جمال للحياة بغير بلايا!

فصحت أقول وأنا أضحك ضحكاً عصبياً:

- إنك في بعض الأحيان رجعي رهيب!

- يا صديقي، هذا لا يهمني!

- لا، هذا مهم! إنك مسرف في التهذيب، لماذا لا تقول للحمار بكل صراحة إنه حمار؟

- أنفسك تعني؟ أنا أولاً لا أريد ولا أستطيع أن أحكم على أحد!

- لماذا لا تريد؟ لماذا لا تستطيع؟

- كسلاً واشمئزازاً. قالت لي امرأة ذكية يوماً: ليس من حقي أن أحكم على الآخرين، «لأنني لا أجيد الألم»، ومن أجل أن ينصب المرء نفسه حاكماً وقاضياً، يجب عليه أن يكتسب حق الحكم بما يقاسي من آلام. صحيح أن هذا الرأي يشتمل على غلو وتفخيم، ولكن لعله يصدق في تطبيقه عليَّ، وقد ارتضيت أن أصدقه وأن أتقيد به.

هتفت أسأله:

- هل يمكن أن تكون تاتيانا بافلوفنا هي التي قالت لك هذا الرأي؟

فقال فرسيلوف وهو يرشقني بنظرة دهشة:

- كيف حزرت؟

- من النظر في وجهها، فقد ارتعش فجأة.

الحق أنني لم أحزر إلا مصادفة. وقد علمت فيما بعد أن هذه الجملة إنما قالتها تاتيانا بافلوفنا لفرسيلوف بالأمس أثناء مناقشة حامية. أكرر من جديد أنني جئت إليهم منطلق النفس مفعم القلب فرحاً في غير الأوان المناسب: فقد كان لكل منهم هم ثقيل جاثم على صدره.

قلت:

- إنني لا أفهم شيئاً، لأن هذا الكلام كله مجرد جداً. ميزتك أنك

Twitter: @ketab_n

تحب الكلام في أمور مجردة يا أندريه بتروفتش. وهذه سمة من سمات الأنانية. فالأنانيون وحدهم يحبون أن يتكلموا في الأمور المجردة!

قال:

- عبارة جميلة! ولكن دعني ولا تلح.

فتابعت كلامي منطلقاً أقول بحرارة:

- بل اسمع لي! ما معنى قولك «أن يكتسب حق الحكم بما يقاسي من آلام؟» كل إنسان شريف فهو قاض. ذلك رأيي أنا.

- لن تقع إذن على عدد كبير من القضاة.

- أعرف واحداً.

- من هو؟

- إنه هنا يتحدث معي!

فابتسم فرسيلوف ابتسامة غريبة، ومال على إذني بجسمه كله، وأمسك كتفي، وهمس يقول لي: «إنه يكذب عليك».

لا أستطيع حتى اليوم أن أفهم ماذا أراد أن يقول، ولكن لا شك أنه كان في تلك اللحظة مضطرباً اضطراباً شديداً (عقب علمه بنبأ من الأنباء كما أدركت ذلك فيما بعد)، ولكن هذه الجملة المباغتة «إنه يكذب عليك» قد قيلت بلهجة تبلغ من الجد وهيئة تبلغ من الغرابة والبعد عن المزاح، أنني رأيتني أرتعش ارتعاشا عصبياً، حتى لكأنني مرتاع، وألقيت عليه نظرة متوحشة. ولكن فرسيلوف أسرع يضحك.

قالت أمي بعد أن خافت حين رأته يهمس في إذني:

- الحمد لله! لقد ظننت أن.. لا تزعل منا يا عزيزي آركادي. الأذكياء في هذا العالم يستغنون عني أنا وعنك أنت، ولكن من عسى يحبك كما نحبك بعد أن نرحل عن هذه الحياة؟

- لهذا السبب أرى يا ماما أن حب الأبوين مناف للأخلاق، فهو

Twitter: @ketab_n

حب لا يحظى به المرء عن جدارة واستحقاق. في حين ينبغي أن يكون الحب مستحقاً.

- ستستحقه فيما بعد، أما نحن فنحبك من دون سبب.

فإذا الجميع يضحكون. فهتفت أقول ضاحكاً كذلك:

- لعلك يا ماما لم تقصدي أن تسددي إلى هدف معين، ولكن أصبت قلب هذا الهدف.

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تهجم عليَّ من جديد فقالت:

- أتراك كنت تظن أن هناك أسباباً تدعو إلى حبك؟ إنهم يحبونك من دون سبب يدعو إلى حبك، بل قل إنهم يحبونك من خلال الاشمئزاز منك!

فهتفت أقول مرحاً:

- آه... لا!.. أتعرفين من قال لي اليوم إنه يحبني؟

فأسرعت تاتيانا بافلوفنا تقول بحنق غير مألوف، فكأنها قد توقعت مني تلك الجملة نفسها:

- إذا قال لك أحد إنه يحبك، فإنما قال ذلك ليسخر منك. لا بد لإنسان مرهف الشعور، ولا بد لامرأة بخاصة أن تشمئز من نفسك السوداء. إن لك فرقاً في شعر رأسك، وإنك تلبس قمصياً ناعماً، وترتدي ثياباً يخيطها لك خياط فرنسي، ولكن ذلك كله ليس إلا وحلاً! من ألبسك؟ من يطعمك؟ من يعطيك مالاً لتقامر في الروليت؟ تذكَّرْ مَنْ الذي لا تستحي أن تطلب منه هذا المال!

تخضبت أمي بحمرة شديدة. لم أر في حياتي خجلاً كهذا الخجل يجلل وجهها. فثار حنقي وقلت محمر الوجه بلهجة قاطعة:

- إذا كنت أنفق فإنما أنفق مالي، وليس عليَّ حساب أؤديه لأحد!

- مالك؟ مالك أنت؟ كيف؟

Twitter: @ketab_n

- إذا لم يكن مالي فهو مال أندريه بتروفتش الذي لا يمنعه عني. آخذه من الأمير سداداً لدين أندريه بتروفتش عليه. . .

فقال فرسيلوف فجأة بلهجة جازمة:

- يا صديقي، ليس لي عنده كوبيكاً واحداً.

كانت الجملة ذات مغزى رهيب. فتوقفت عن الكلام فوراً. آه! لا شك أنني كان في وسعي، وأنا أتذكر الحالة النفسية المشوشة الطائشة التي كنت عليها حينذاك أن أخرج من الحرج باندفاعة «نبيلة» او بكلمة ذات تأثير أو بأية حيلة أخرى. ولكنني لاحظت فجأة في وجه ليزا المكفهر تعبيراً شريراً فيه اتهام وظلم ويكاد يشتمل على سخرية، فإذا بشيطان يدفعني فأقول لها وأنا ألتفت إليها:

- يبدو لي يا آنسة أنك تزورين كثيراً داريا أونيسيموفنا في بيت الأمير. أليس كذلك؟ فهل تتكرمين وتتفضلين أن تعطي الأمير هذه الثلاثمائة روبل التي أنبتموني عليها هذا التأنيب كله؟

وسللت المال من جيبي ومددته إليها. هل يصدق أحد أن هذه الكلمات الشريرة قد قيلت بغير أي قصد، أعني أنها كانت خالية من أي تلميح إلى أي أمر؟ بل كان لا يمكن أن تشتمل على أي تلميح، لأنني كنت في تلك اللحظة لا أعرف شيئاً البتة. ولعل كل ما أردت أن أفعله هو أن أخزها وخزة بريئة، وكأن أقول مثلاً: يا آنسة تتدخل فيما لا يعنيها، هلا رضيت - ما دمت تحرصين على أن تحشري أنفك في كل مكان - أن تذهبي إلى هذا الأمير، إلى هذا الشاب، إلى هذا الضابط البطرسبرجي، فتنقلي إليه هذا المال «ما دمت تحبين كثيراً أن تتدخلي في شؤون الشباب». ولكن ما كان أشد انشداهي وما كان أعظم ذهولي حين رأيت أمي تنهض بحركة سريعة مفاجئة، وترفع إصبعها مهددة إياي، وتصرخ قائلة لي:

Twitter: @ketab_n

- اخرس! لا تتجاسر!

ما كان في وسعي أن أتوقع منها شيئاً من هذا القبيل، فإذا أنا أنتفض، لا من ذعر، بل من ألم، من جرح في القلب نازف موجع، لأنني أدركت فجأة أنه قد وقع شيء فظيع رهيب. ولكن ماما لم تصمد طويلاً، فدفنت وجهها في يديها وخرجت من الغرفة مسرعة، وتبعتها ليزا دون أن تنظر إلى الجهة التي كنت فيها؛ وتأملتني تاتيانا بافلوفنا في صمت نصف دقيقة، ثم هتفت تقول ملغزة وهي تنظر إليَّ مدهوشة:

- هل يُعقل أنك أردت أن تقول كلاماً قذراً؟

وبدون أن تنتظر مني جواباً، خرجت مسرعة هي أيضاً. ونهض فرسيلوف عن المائدة وفي وجهه تعبير عن عداوة تكاد تكون شريرة، وتناول قبعته من ركن في الغرفة، وجمجم يقول مستهزئا:

- كنت أقدِّر أن لا تكون غبياً هذا الغباء كله... وإنما أن تكون بريئا لا أكثر. إذا رجعن فقل لهن أن لا ينتظرنني لتناول الحلوى، فسأقوم بجولة.

بقيت وحدي. ووجدت الأمر في البداية غريباً، ثم وجدته مهيناً جارحاً، ورأيت في النهاية أنني على خطأ. ولكنني لم أدرك ما خطئي، وإنما كنت أحس إحساساً بأن خطأ قد صدر عني. وجلست أمام النافذة أنتظر.

وبعد عشر دقائق تناولت قبعتي أنا أيضاً، وصعدت إلى غرفتي القديمة التي تقع تحت السقف. كنت أعلم أنهما هناك، أعني أمي وليزا، وأن تاتيانا بافلوفنا قد انصرفت. وقد وجدتهما في غرفتي فعلاً، جالستين على ديواني تتهامسان. فما أن رأتاني حتى انقطع تهامسهما. وما كان أكبر دهشتي حين لم تظهرا لي غضباً! إن ماما على الأقل قد طالعتني بابتسامة.

Twitter: @ketab_n

أردت أن أتكلم فقلت:

- اغفري لي يا ماما. . .

ولكن ماما قاطعتني قائلة:

- هيا هيا! لا قيمة لهذا. . . ولكن فليحب كل منكما الآخر، ولا تتشاجرا أبداً. فيمنّ الله عليكما بالسعادة.

فقالت ليزا بعاطفة واقتناع:

- هو يا ماما لن يسيء إليَّ يوماً. ثقي بأقوالي!

وهتفت أقول:

- لولا تاتيانا بافلوفنا هذه لما حدث شيء من هذا كله. إنسانة مسيئة.

قالت ليزا وهي تشير إليَّ:

- أرأيت يا ماما؟ أسمعت؟

وصحت أقول:

- وإليكما ما أحب أن أعلنه لكما كلتيكما: إذا كان ثمة في الدنيا حقير فهو أنا، ولولاي لكان كل شيء بهيجاً.

- لا تزعل يا عزيزي آركادي، ولكن ليتك تكف عن. . .

- عن القمار؟ عن القمار؟ سأكف يا ماما. سأقامر اليوم آخر مرة، ولا سيما بعد الذي أعلنه أندريه بتروفتش صراحة منذ هنيهة إذ قال إنه ليس له على أحد هناك كوبيك واحد. لا تستطعين أن تتصوري مدى ما أشعر به من خجل. . . ولكن عليّ أن أتحدث معه. . . ماما العزيزة، لقد قلت هنا في آخر مرة كلمة خرقاء. . . كذبت يا ماما العزيزة: الحق أنني أريد صادقاً أن أؤمن. كان ذلك مني تبجحاً لا أكثر. فأنا أحب المسيح حباً عظيماً. . .

كنا في المرة السابقة قد جرى بيننا حديث من هذا النوع فعلاً. وقد

Twitter: @ketab_n

تألمت أمي كثيراً وارتاعت كثيراً. فلما سمعت ما قلته الآن ابتسمت لي كما يبتسم المرء لطفل، وقالت:

- إن المسيح يا عزيزي آركادي سيغفر كل شيء: سيغفر تجديفاتك وما هو أسوأ منها أيضاً. المسيح أب، المسيح ليس في حاجة إلى شيء، وسيظل يتلألأ حتى في أعمق الظلمات...

ودعتهما وخرجت مفكراً في احتمالات لقائي فرسيلوف في هذا اليوم. هناك أشياء كثيرة يجب أن أحادثه فيها، وقد استحال ذلك منذ قليل. وقدّرت أنه لا بد أن يكون الآن في بيتي ينتظرني. فذهبتُ إلى بيتي ماشياً. بعد الدفء جاء الصقيع الخفيف فالمشي يحلو في مثل هذا الجو البارد.

- 2 -

كنت أقيم بقرب جسر «الصعود» في عمارة كبيرة[75]، وكان مسكني يطل على فناء العمارة، فما إن دخلت بوابة العمارة حتى رأيتني أصطدم بفرسيلوف الذي كان خارجاً من عندي، وقال:

- على عادتي، كنت أتنزه ماشياً فوصلت إلى مسكنك، حتى لقد انتظرتك عند بيتر ايبوليتوفتش، ولكنني ضجرت في النهاية. إنهما، هو وزوجته لا يكفان عن التشاجر. بل إن زوجته مستلقية الآن في فراشها تبكي. ألقيت نظرة ثم انصرفت.

شعرت بشي من الاستياء لا أدري لماذا. وقلت:

- أظن أنني الشخص الوحيد الذي تزوره، فكأنك لا تعرف أحداً في بطرسبرج إلا أنا وبيتر ايبوليتوفتش.

- سيان لديَّ يا صديقي.

- فأين تذهب الآن؟

Twitter: @ketab_n

- لا، لن أصعد إليك ثانية، فإذا شئت تنزهنا ماشيين، فالأمسية رائعة.

قلت فجأة:

- لو أنك، بدلاً من الاسترسال في تأملات مجردة، قد تحدثت معي، لو أنك - مثلا - قلت كلمة تلميحاً إلى القمار اللعين، فلعلني ما كنت لأنجرف ذلك الانجراف كما يفعل أبله معتوه.

فقال وهو يزن كلامه:

- أأنت نادم؟ هذا حسن. لقد قدرت دائماً أن انغماسك في القمار ليس أصلاً فيك، وإنما هو انحراف عابر..! إنك على حق يا صديقي، فالقمار من الموبقات، ناهيك عن أن المرء قد يخسر كل ما له من المال.

- وقد يخسر مال غيره أيضاً.

- هل خسرت مال غيرك؟

- خسرت مالك أنت. كنت أقترض من الأمير على حساب دينك عليه. ولا شك أنه سخف وحماقة رهيبة مني أن أعد مالك مالي، ولكنني كنت أريد دائماً أن ألعب لأسترد الخسارة.

- أنبهك مرة أخرى يا عزيزي إلى أن الأمير ليس عليه لي دين. أنا أعرف أن هذا الشاب يعاني هو نفسه ضيقاً شديداً، وأرى أنه ليس مديناً لي بشيء رغم وعوده.

- إذا صح هذا كانت حالي سيئة سوءاً مضاعفاً... بل هي حال تدعو إلى الضحك. فما صفتي الآن حتى يعطيني وآخذ منه؟

- هذا شأنك أنت... ولكن قل لي بصراحة: أليس هناك أي سبب خاص يبيح لك الاقتراض منه، هه؟

- لا شيء إلا كوننا رفيقين...

Twitter: @ketab_n

- لا شيء إلا كونكما رفيقين؟ أليس هناك أي سبب آخر يسوّغ لك أن تقترض منه، هه؟ أليس هناك اعتبارات معينة مثلاً؟

- ما عسى يكون هنالك من اعتبارات؟ لست أفهم!

- هذا أفضل. الأفضل أن لا تفهم! أعترف لك يا صديقي بأنني كنت على يقين من هذا. «لِنَقف عند هذا الحدّ يا عزيزي» (بالفرنسية) وحاول أن تكف عن القمار مع ذلك.

- ليتك أسديت لي هذه النصيحة من قبل! بل إنك حتى في هذه اللحظة تسديها إليّ بلهجة تخلو من كل حرارة.

- لو نصحتك قبل الآن لما زدنا على أن نختصم، ولما سرّك كثيراً أن تستقبلني في بيتك مساء. اعلم يا عزيزي أن جميع هذه النصائح التي تستهدف نفع الآخرين ليست إلا تدخلاً في شؤونهم وضميرهم. ولطالما تدخلت هذا التدخل فما جنيت منه إلا المنغصات والسخريات. وهبني لم أعبأ بالمنغصات والسخريات، فإن الشيء الهام هو أن هذا التدخل لا يثمر أبداً، فما من أحد يستمع لك مهما كانت محاولاتك، ويأخذ الناس يكرهونك.

- يسعدني أنك بدأت تكلمني في غير الأمور المجردة. هناك شيء آخر أريد أن أسألك عنه منذ مدة طويلة ولكنني لم أستطع ذلك حتى الآن. جيد جداً أننا نمشي الآن في الشارع. هل تتذكر ذلك المساء الذي كنا فيه، في «تابوتي»، في بيتكم، منذ شهرين، فسألتك عن ماما وعن ماكار إيفانوفتش؟ هل تتذكر كيف استرسلت في الكلام منطلقاً «بغير تحرج»؟ فهل كان معقولاً أن أبحثَ لابنك الغرّ بأن يخوض في الكلام عن أمه بهذه الألفاظ؟ ولكنك لم تصدر عنك كلمة اعتراض واحدة! حتى لقد «حللت أزرارك».أنت نفسك، فشجعتني على المزيد.

- يا صديقي، يسعدني أن أسمعك تفصح عن. . . مثل هذه

Twitter: @ketab_n

المشاعر. . . نعم، أتذكر ذلك جيداً. . . لقد كنت أتوقع في تلك اللحظة فعلاً أن أرى حمرة في وجهك، ولئن أرخيت لك العنان، فلعلني إنما فعلت ذلك لأجعلك تبلغ آخر الحدود. . .

- فلم تزد إذن على أن خدعتني، وعكرت النبع الصافي الذي كان في نفسي مزيداً من التعكير! نعم، ما أنا إلا مراهق شقي، وإني لأجهل في كل لحظة ما هو خير وما هو شر. فلو أريتني الدرب ولو قليلاً لفهمت ولسرت في الطريق القويمة فوراً. ولكنك لم تزد على أن أثرت حنقي.

- أيها الابن العزيز، لقد أوجست دائماً أننا سنتفق على كل حال في يوم في الأيام حتما: فهذه «الحمرة» في وجهك قد ظهرت الآن من تلقاء نفسها بدون أن أدلك على شيء، وأحلف أن هذا خير لك. . . إنني ألاحظ يا عزيزي أنك قد تحسنت كثيراً في هذه الآونة الأخيرة. . . أيكون الفضل في هذا لصحبة ذلك الأمير الشاب؟

- لا تمدحني، فإنني لا أحب هذا. لا تخلق في قلبي هذا الاشتباه الأليم وهو أنك إنما تمدحني نفاقاً ورياءً على حساب الحقيقة حتى لا أكف عن الإعجاب بك. أما في هذه الآونة الأخيرة. . . فقد ترددت على نساء. هل تعلم أن آنا آندرييفنا مثلا تحسن استقبالي في بيتها وتكرم وفادتي؟

- أعرف ذلك منها نفسها يا صديقي. نعم، إنها لطيفة وذكية. «لنَقِفَ عند هذا الحد يا عزيزي» (بالفرنسية في الأصل)، حالتي اليوم سيئة سوءاً يبلغ حدود الغرابة. ألعله السأم؟ إنني أنسب هذا إلى البواسير. ما أخبار البيت؟ لا شيء؟ تصالحتم وتعانقتم طبعا، هه؟ هذا ما جرى قطعاً أنه أمر محزن أحياناً أن يضطر المرء إلى العودة إليهما حتى بعد جولة مزعجة. وأحيانا يتفق لي أن أطيل الطريق تحت المطر المنهمر حتى أؤخر لحظة

Twitter: @ketab_n

العودة إلى هذا الجحر. . . ما أشده سأماً يا رب! ما أشده سأماً! . .

- أمي . . .

- أمك أكمل مخلوقات الله وأعذبها، «ولكن». . . الخلاصة: يظهر أنني لا أساويهما قيمة. بالمناسبة: ما بالهما اليوم؟ إن هيئتهما في هذه الأيام الأخيرة على. . . ماذا أقول؟ إنني أحاول دائماً أن أجهل، ولكن لا بد أن هناك أمراً. . . ألم تعلم شيئاً؟

- لا أعلم شيئاً البتة، بل ما كان لي أن ألاحظ شيئاً لولا هذه اللعينة تاتيانا بافلوفنا التي لا تستطيع أن تمتنع عن العض. إنك على حق: لا بد أن هناك أمراً. لقد وجدت ليزا عند آنا آندرييفنا، وكانت. . . حتى لقد أدهشتني حالها. أظن أنك تعلم أن آنا آندرييفنا تستقبلها؟

- أعلم يا صديقي. وأنت. . . متى كنت عند آنا آندرييفنا؟ في أية ساعة على وجه الدقة؟ إنني في حاجة إلى معرفة هذا بسبب واقعة ما.

- بين الساعة الثانية والساعة الثالثة. وتصور أنني حين خرجت رأيت الأمير داخلاً. . .

وحكيت له زيارتي من أولها إلى آخرها تفصيلاً. فأصغى إلى كلامي دون أن يقول كلمة واحدة. ولم يعقب بشيء على احتمال زواج الأمير بآنا آندرييفنا. وحين كلت المديح لآنا آندرييفنا متحمساً تحمساً شديداً عاد يجمجم مرة أخرى «إنها لطيفة». وقلت فجأة كأنما أفلتت مني الجملة إفلاتاً:

- لقد أدهشتها اليوم إدهاشا هائلاً حين نقلت إليها ذلك النبأ الجديد كل الجدة من أنباء المجتمع الراقي. وهو أن كاترين نيقولايفنا أخماكوفا ستتزوج البارون بيرونج.

- أدهشتها؟ تصور أنها أبلغتني هذا النبأ «الجديد» هي نفسها في هذا الصباح قبل الظهر، أي قبل أن تدهشها أنت ذلك الإدهاش الهائل.

- ما هذا الذي تقول؟

Twitter: @ketab_n

وتسمرت في مكاني، واستطردت أتكلم فقلت:

- من أين يمكنها أن تعرفه؟ ولكن ما هذا الذي أقوله أنا؟ أنه لأمر محقق أنها استطاعت أن تعرف النبأ قبلي، ولكن أتصور أنها أصغت إلى كلامي إصغاءها إلى نبأ جديد كل الجدة! ولكن. . . ولكن ما هذا الذي أقوله أنا؟. . عاشت رحابة الصدر! يجب على المرء أن يقبل جميع الطباع بجميع خصائصها، أليس كذلك؟ فأنا مثلاً إذا علمت بنبأ من الأنباء طفقت أذيعه فوراً، أما هي فإنها تحكم إغلاق علبة تبغها على كل ما تعرف. . .حسن، حسن! إنها مع ذلك ألطف المخلوقات، وإن طبعها أروع الطباع!

- لكل إنسان خلقه طبعاً! ولكن الشيء الفريد هو أن هذه الطباع الرائعة تمتاز أحياناً بأنها تلقي عليك ألغازاً غريبة. تصور أن آنا آندرييفنا قد رشقتني اليوم بهذا السؤال من غير لف ولا دوران: «أتحب كاترين نيقولايفنا آخماكوفا أم لا؟»

هتفت أقول مشدوهاً مرة أخرى:

- يا للسؤال العجيب السخيف!

واسودَّت الدنيا في عيني لحظة. إنني لم أبحث معه هذا الأمر في يوم من الأيام، وها هو ذا الآن، من تلقاء نفسه. . .

- وكيف شرحت سؤالها؟

- لم تشرحه إطلاقا يا صديقي. . . وإنما عادت علبة التبغ تُغلق بإحكام أشد. والأمر الأهم الذي يجب أن تأخذه بالحسبان هو أنني لم أقبل في يوم من الأيام حتى احتمال إجراء أحاديث من هذا القبيل معي. . . ولا هي قبلت ذلك أبداً من قبل. ولكنك تقول إنك تعرفها، ففي وسعك إذن أن تتخيل أن مثل هذا السؤال لا يناسبها أبداً. . . أتراك تعرف شيئاً؟

Twitter: @ketab_n

- إن صدور هذا السؤال عنها لغز في نظري كما هو لغز في نظرك. لعله فضول، لعله مزاح؟

- أه! بالعكس. لقد كان في السؤال جد كثير. حتى أنه لم يكن سؤالاً بل ما يشبه استجواباً، ولا شك إنها ألقته مدفوعة بأسباب خارقة قاطعة. سوف تراها، أليس كذلك؟ فهل تستطيع أن تعرف منها شيئاً؟ بل إنني أطلب منك هذا طلباً، لأن الأمر، كما ترى...

- ولكن الأمر الأهم هو إمكان افتراض أنك تحب كاترين نيقولايفنا! معذرة: إنني لا اعرف كيف أخرج من هذه الحيرة وهذا الذهول. أنا لم أبح لنفسي في يوم من الأيام أبداً أن أكلمك في هذا الموضوع ولا في أي موضوع من هذا النوع..

- ولقد تصرفت تصرفاً حكيماً يا عزيزي!

- إن مغامراتك القديمة لا يليق أن تكون موضوع حديث بيننا طبعاً. ولو كلمتك عنها لكان ذلك مني حماقة. ولكنني في هذه الآونة الأخيرة، في هذه الأيام الأخيرة، قد هتفت مراراً متسائلاً بيني وبين نفسي: هل أحب هذه المرأة في يوم من الأيام ولو لحظة واحدة؟ آه! لو أنه فعل لما اقترف في حقها خطأ يبلغ ذلك المبلغ من الهول الذي بلغه خطؤك بعد ذلك. إنني أعرف ما وقع: أعرف عداوتكما المتبادلة وما يشعر به كل منكما نحو الآخر من نفور وكره إن صح التعبير. لقد سمعت عن هذا، سمعت عنه كثيراً منذ كنت في موسكو؛ وما يبرز واضحاً للعيان هنا في المقام الأول هو أن ثمة كرهاً شديداً وعداوة ضارية وانعدام الحب. فكيف تسألك آنا أندريفنا فجأة: هل أنت تحب كاترين نيقولايفنا؟ أيعقل أنها غير مطلعة إلى هذه الدرجة؟ سخافات! لا بد أنها أرادت أن تضحك!

قال فرسيلوف بصوت لاحظت فيه فجأة شيئاً من عصبية واضطراب

Twitter: @ketab_n

عميق ينفذان إلى القلب، وهذا ما لا يحدث له إلا نادراً:

- لكنني ألاحظ يا عزيزي أنك تتكلم أنت نفسك عن كاترين نيقولايفنا بحرارة شديدة. لقد قلت منذ لحظة أنك تتردد إلى نساء... وإنني لأشعر بحَرَج طبعاً إذا أنا سألتك عن أمور كهذه... ولكن أليست «هذه المرأة» في عداد صديقاتك الجديدات؟

اختلج صوتي فجأة وقلت:

- هذه المرأة... إسمع يا أندريه بتروفتش، اسمع: إن هذه المرأة هي ما وصفتَه منذ حين عند الأمير بأنه «الحياة الحية»، هل تتذكر هذا الذي قلته؟ ولقد شرحت كلامك عندئذ بأن هذه الحياة الحية شيء يبلغ من الصراحة والوضوح والبساطة وينظر إليك نظرة تبلغ من الاستقامة أنك بسبب هذه الاستقامة وبسبب هذا الوضوح وهذا الجلاء إنما يستحيل عليك أن تصدق أنه هو ما ظللنا نبحث عنه طوال حياتنا بكثير من المشقة والعناء.. وبهذه النظرة نظرت إلى تلك المرأة المثالية، فوجدتَ في الكمال وفي المثل الأعلى «جميع العيوب»! ذلك هو رأيي!

يستطيع القارئ أن يتصور مدى ما وصلت إليه من خروجي عن طوري!

صاح فرسيلوف يقول:

- «جميع العيوب!» أوه! هذه كلمة أعرفها. إذا كانت العلاقة بينكما قد بلغت من الدرجة أنها ذكرت لك تلك العبارة، فربما كان يحسن بي أن أهنئك، أليس كذلك؟ إن هذا يفترض أن بينكما صلة تبلغ من الصميمية أنه يجب عليَّ أن أحمد لك تواضعك وتكتمك اللذين لا يقدر عليهما كثير من الشبان...

كان في صوته رنين من ضحك لطيف، ضحك مودة، ضحك ملاطفة... وكان شيء من كياسة ومن إغاظة في أقواله وفي وجهه

Twitter: @ketab_n

المتألق، إذا صدق ما لمحته في الظلام. كان في حالة اهتياج شديد. وأشرقت نفسي رغم إرادتي.

هتفت أقول محمر الوجه وأنا أشد في الوقت نفسه على يده التي كنت قد تناولتها ثم لم أتركها بدون أن أشعر:

- تواضع! تكتم! لا، لا تواضع ولا تكتمّ. الخلاصة: ليس ثمة ما يدعو إلى تهنئتي، ولن يحدث شيء من هذا أبداً، أبداً.

كنت أختنق اختناقاً، وأطير طيراناً. كانت تملؤني رغبة قوية في أن أطير، إن في الطيران فتنة عظيمة! واستطردت أقول:

- وهب شيئاً من ذلك حدث في يوم من الأيام، ولو مرة واحدة، فإن رأيي يا بابا العزيز اللطيف، اسمح لي بأن أناديك بابا، رأيي أنه من غير الجائز لأي إنسان، لا لابن وأبيه فحسب، أن يتحدث إلى شخص آخر عن علاقاته بامرأة، مهما تكن هذه العلاقات طاهرة نقية! بل كلما كانت هذه العلاقات أطهر وأنقى كان كتمانها أوجب وألزم. إن الحديث في هذه الأمور يثير الاشمئزاز، وينافي الكياسة. الخلاصة: ليس في هذا المجال نجيّ يفضي إليه المرء بأسراره! فكيف إذا لم يكن ثمة شيء البتة؟ هل يجوز الكلام في هذه الحالة؟ هل يجوز؟

- إلا إذا اشتهى المرء أن يتكلّم. . .

- سؤال محتشم، محتشم جداً: إنك قد عرفت في حياتك نساءً، وكانت لك بهن علاقات. . . أليس كذلك؟ إنني ألقي عليك هذا السؤال عاماً. . عاماً. . لا خاصاً!

احمر وجهي وكنت أختنق حماسة. قال:

- لنفرض أنه كانت هناك خطايا وأنني عرفت نساء، فماذا تطلب مني؟ وما هو سؤالك؟

- إليك حالة أريد أن تفسرها لي، ما دامت تجربتك أكبر: هذه امرأة

Twitter: @ketab_n

تقول لك وهي تودعك، تقول لك فجأة، بغير مقدمات، وهي تنظر إلى جانب: «سأكون في الساعة الثالثة من الغد في مكان كذا. . .» عند تاتيانا بافلوفنا مثلا. . .

ها قد اندفعت إلى النهاية. كان قلبي يخفق، بل لقد كف قلبي عن الخفقان. بل لم أستطع أن أواصل كلامي، فأمسكت لحظة عن الكلام. وكان هو يصغي بانتباه شديد. فاستطردت أقول:

- وفي الساعة الثالثة من الغد، كنت عند تاتيانا بافلوفنا. دخلت. وكنت أفكر على النحو التالي: «ستفتح لي الطباخة هل تعرف طباختها؟ فأسألها فوراً: هل تاتيانا بافلوفنا هنا؟ فإذا أجابتني بأنها ليست هنا، وبأن سيدة تنتظرها» فما الذي يجب أن أستخلصه من هذا؟ قل لي إذا كنت. . . أقصد إذا كنت. . .

- يجب أن تستخلص من هذا أن موعداً قد ضرب لك ولكن هل حدث هذا؟ وهل حدث اليوم؟ نعم؟

- أوه! لا، لا، لا! أبداً! أبداً! لقد حدث، ولكنه لم يحدث على هذه الصورة! هو موعد، ولكن لا لهذا الأمر. أعلن ذلك قبل كل شيء، حتى لا أكون رجلاً غير شريف. لقد حدث، ولكن. . .

- يا صديقي، هذا كله أخذ يثير فضولي إلى درجة أنني أقترح عليك أن. . .

- كنت في الماضي أتصدق بذهب على كل سائل. . . مضى ذلك الزمان، بضعة كوبيكات فقط لأشرب مغرفة خمرة! إن ضابطاً سابقاً هو الذي يستجديك بضعة كوبيكات، ضابط برتبة نقيب!

إن قامة طويلة هي قامة شحاذ لعله ضابط محال على التقاعد فعلاً قد سدَّت طريقنا فجأة. وكان أعجب ما في أمره أن هندامه أحسن كثيراً من أن يكون هندام شحاذ. ولكن ذلك لم يمنعه من مدِّ يده مستعطياً.

Twitter: @ketab_n

- 3 -

إذا كنت أذكر واقعة لهذا الضابط الشّقي فإنني أفعل ذلك عامداً، لأن فرسيلوف إنما يعرض لذاكرتي الآن دائماً محاطاً بجميع تفاصيل هذه الواقعة، حتى التفاصيل الدقيقة منها، وهي واقعة كانت له حاسمة مشؤومة، ولكنني لم أكن أعرف أنها كذلك.

رفع فرسيلوف صوته عالياً غير طبيعي على حين فجأة، وقال يخاطب الضابط وهو يقف أمامه:

- دعنا يا سيد، وإلا ناديتُ الشرطة فوراً!

ما كان لي أن أتوقع غضباً كهذا الغضب، من فيلسوف كهذا الفيلسوف. لسبب تافه هذه التفاهة. ولاحظوا قطعنا حديثنا عندئذ في نقطة هي أكثر النقاط إثارة لاهتمامه واجتذاباً لانتباهه، كما قال ذلك هو نفسه منذ هنيهة.

فصرخ الضابط يقول بفظاظة وهو يحرك يده:

- أليس معك خمسة عشر كوبيكاً؟ أي وغد يملك خمسة عشر كوبيكاً في هذه الأيام! وغد! سافل! يرتدي فاخر الثياب، ثم هو يجعل الخمسة عشر كوبيكاً قضية كبيرة من قضايا الدولة!

فصاح فرسيلوف منادياً:

- يا شرطي!

ولكن الأمر لم يتطلب نداءه إذ كان الشرطي يقف هناك، في ناصية الشارع، وكان قد سمع شتائم الضابط، فقال له فرسيلوف:

- أرجو أن تكون شاهداً على الشتم! أما أنت فتعال معنا إلى المخفر!

فقال الضابط:

Twitter: @ketab_n

- هأ هأ! يستوي عندي. . . لك ما تشاء. . . لن تستطيع أن تثبت شيئاً! وخاصة لن تستطيع أن تثبت ذكاءك!

فقال فرسيلوف جازماً:

- أيها الشرطي، لا تتركه، وخذنا إلى المخفر.

فهمست أسأل فرسيلوف:

- حقاً؟ إلى المخفر؟ لماذا!

- حتماً يا عزيزي. إن هذه الفوضى في شوارعنا قد أخذت تضجرني ضجراً رهيباً. فلو قام كل امرىء بواجبه، لكان في ذلك خير للمجتمع. «إن ذلك مضحك ولكن هذا ما سنفعله» (بالفرنسية في الأصل).

مشينا نحو مائة خطوة كان الضابط يصخب ويغضب ويتعجرف، مؤكداً أن هذه المعاملة شيء «غير معقول»، وأن «خمسة عشر كوبياً» لا تستحق أن. . . إلخ؛ ثم مال على الشرطي يهمس في إذنه. وكان يبدو على الشرطي، وهو رجل عاقل يكره الفضائح في الشوارع، أنه يوافقه على رأيه، ولكن بمعنى واحد، فكان يجمجم قائلاً له بصوت خافت: «لا سبيل الآن»، «لقد نشأت قضية»، «لو تعتذر فيقبل السيد اعتذارك، لكان يمكن أن. . .».

فصرخ الضابط يقول:

- طيب. اسمع يا سيدي المحترم إلى أين نذهب؟ إنني أسألك: إلى أين نركض هذا الركض؟ هل هذا من الطرافة في شيء؟ ما رأيك في أن يعتذر لك هذا الإنسان الشقي وهو يعاني ما يعاني من ألوان العذاب. . . ما رأيك في أن تكتفي بما أوقعت فيه من إذلال حتى الآن. . . اللعنة! لسنا في صالون على كل حال. . . نحن في الشارع. . . وفي الشارع تكفي اعتذارات كهذه. . .

فتوقف فرسيلوف وانفجر ضاحكاً. فكدت أتصور أنه لم يسترسل في

Twitter: @ketab_n

هذه القصة كلها إلا على سبيل التسلية. ولكن الأمر لم يكن كذلك.
قال:

- إنني أعذرك كل العذر يا حضرة الضابط، وأؤكد لك أنك لا تخلو من موهبة. ولك أن تتصرف هذا التصرف حتى في الصالونات. قريباً سيكون هذا صالحاً كل الصلاح للصالونات أيضاً. وبانتظار ذلك، إليك أربعين كوبيكاً فاشرب بها وكلْ. وأعتذر إليك عن إزعاجك يا حضرة الشرطي، أود لو شكرتك عن جهدك أيضاً ولكنك الآن تظهر من النبل...

ثم التفت فرسيلوف إليَّ قائلاً:

- ويا عزيزي.. إن هناك مشرباً ليس في حقيقته إلا مكاناً قذراً، ولكننا نستطيع أن نشرب فيه شاياً، فأنا أدعوك... لسنا بعيدين عنه، فهلم بنا إليه.

أعود فأقول مرة أخرى إنني ما رأيته مهتاجاً هذا الاهتياج في يوم من الأيام. ومع ذلك كان وجهه مرحاً مشرقاً بالضياء. لكنني لاحظت أنه حين أخرج من محفظة نقوده قطعتين كل منهما بعشرين كوبيكاً، كانت يداه ترتعشان وكانت أصابعه لا تطاوعه، حتى أنه رجاني أخيراً أن أقوم عنه بإخراج النقود وإعطائها للضابط. لا أستطيع أن أنسى هذا.

وقادني إلى مشرب صغير تحت مستوى أرض الشارع على ضفة القناة[76]. ولم يكن في المشرب ناس كثير. وكان يُعزف فيه على أرغن آلي مبحوح متنافر الأنغام. وكانت تنتشر في جوه روائح فوط ملوثة بالدسم. وجلسنا في ركن.

- لعلك لا تعرف أنني أحب أحياناً، من فرط الضجر، من فرط الضجر الرهيب الذي يرهق القلب، أن أنزل إلى هذه الأماكن القذرة. فهذه الأجواء، وهذا اللحن النشاز من «لوسيا»[77]، وهؤلاء الخدم الذين

Twitter: @ketab_n

يرتدون ثياباً وطنية روسية تبلغ حد الإسفاف، وهذا الدخان الذي يتصاعد من المدخنين، وهذه الصرخات التي يطلقها لاعبو البليارد، ذلك كله يبلغ من العامية والابتذال أنه يكاد يكون من صنع الخيال. طيب يا عزيزي، ماذا كنا نقول؟ إن ذلك الابن من أبناء إله الحرب مارس قد قطع علينا الحديث عند أهم نقطة فيما أظن. . . ولكن إليك الشاي. إنني أحب الشاي حباً شديداً هنا. . . تصور أن بيتر إيبوليتوفتش كان يؤكد منذ قليل لذلك المستأجر الآخر المجدور أن البرلمان الإنجليزي قد شكل قصداً وعمداً في القرن الماضي لجنة من رجال القانون مهمتها أن تدرس جميع الجوانب من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلاطس، لا لشيء إلا أن يعرف كيف يمكن أن تجري الأمور إذا طبقت قوانينا[78]، وقد هُيئت لهذه المحاكمة جميع أسباب الأبهة والجلال، وحُشِدَ لها جهاز قضائي من مدعين إلى محامين إلى سائر ما هنالك. . . وأن المحلفين قد اضطروا أن يخرجوا بقرار إدانة. . . شيء يثير الدهشة! وقد أخذ المستأجر الغبي يناقش ويجادل، ثم غضب وسخط وأعلن أنه سيترك البيت منذ الغد. . . وأخذت المؤجرة تذرف دموعاً غزيرة لأنها ستفقد بتركه البيت إيراداً. . . «لكن دعنا من هذا» (بالفرنسية في الأصل) إن في هذه المشارب عنادل أحياناً. هل تعرف تلك الحكاية الموسكوفية القديمة التي تروى على غرار حكايات بيتر ايبوليتوفتش؟ يقال إن عندليباً كان يغرد في مشرب بموسكو. فدخل المشرب واحد من أولئك التجار الذين يعتمدون قاعدة: «أفعل ما أشاء». وقال يسأل: «كم ثمن العندليب؟» فقيل له «مائة روبل» فقال: «إشووه وجيئوني به!»، ففعلوا، فلما صار العندليب على مائدته قال: «اقطعوا لي منه شريحة بعشرة كوبيكات!» لقد رويت هذه الحكاية يوماً لبيتر ايبوليتوفتش، ولكنه لم يشأ أن يصدقها، حتى لقد استاء. . .

Twitter: @ketab_n

وتكلم فرسيلوف كثيراً أيضاً. إنني لا أروي هذه الجمل التي قالها إلا على سبيل المثال. وكان يقاطعني كلما فتحت فمي لأشرع في سرد قصتي، فيمضي يقول ترهات لا يربط بينها رابط ولا علاقة لها بما نحن فيه. وكان يتكلم بحرارة ومرح. وكان يضحك لكل أمر من الأمور، بل كان يقهقه، وذلك ما لم أعهده فيه من قبل قط. وقد شرب كأسا من الشاي دفعة واحدة، وسكب لنفسه كأسا أخرى. إنني أفهم الآن الحالة النفسية التي كان فيها: كان مثله كمثل رجل تلقى رسالة عزيزة غالية هامة طال انتظاره لها، فوضعها أمامه وتعمد أن لا يفضها، فهو يقلبها بين أصابعه مدة طويلة، وينعم النظر في غلافها، ويتأمل خاتم البريد الذي عليها، ويمضي إلى غرفة أخرى يصدر أوامره إلى الخدم، أي هو يؤجل الدقيقة الهامة التي يعلم أنها لن تفلت منه، وذلك ليزيد لذته ومتعته وبهجته.

قصصت عليه كل شيء طبعاً.. كل شيء.. من البداية.. ودام حديثي قرابة ساعة. وهل كان يمكن أن يكون الحال غير كذلك؟ لقد كنت شديد الظمأ إلى الكلام حتى قبل ذلك. بدأت بالحديث عن لقائنا الأول في منزل الأمير العجوز عقب وصولها من موسكو. ثم رويت له كيف تتابعت الأحداث شيئاً بعد شيء. لم أغفل شيئاً، لم أسقط شيئاً، ولا كان في إمكاني أن أسقط شيئاً: كان هو نفسه يضعني في الطريق، ويحزر، ويلقنني، حتى خيِّل إليَّ في بعض اللحظات أنني أعيش حكاية خيالية، وأنه كان دائماً هناك، جالساً في مكان ما أو واقفاً وراء الباب، في كل مرة، طوال هذين الشهرين: كان يعرف سلفاً كل حركة من حركاتي وكل عاطفة من عواطفي. ووجدت في هذا الاعتراف له لذة لا نهاية لها، لأنني كنت أرى فيه كثيراً من اللطف القلبي، وكثيراً من الرقة النفسية، ورأيت فيه قدرة مدهشة على أن يحزر كل شيء من نصف كلمة. وكان يصغي إليَّ إصغاء فيه حب وحنان، كما تصغي امرأة. وقد

Twitter: @ketab_n

استطاع خاصة أن يحسن التصرف فما شعرت بأي خجل. وكان يستوقفني في بعض الأحيان بغتةً ليسألني عن أمر تفصيلي، وكثيراً ما كان يقاطعني ويردد بلهجة عصبية قائلاً: «لا تنس التفاصيل، التفاصيل خاصة، فكلما كانت واقعة من الوقائع أصغر شأنا في نظر المرء، كانت أعظم خطراً في حقيقة الأمر أحياناً». وقد عاد إلى هذه الفكرة مراراً. وطبيعي أنني في بداية قصتي قد تعاليت عليها، ولكن سرعان ما رجعت إلى الحقيقة، فرويت له صادقاً أنني كنت مستعداً لأن أقبّل المكان الذي تطؤها قدمها من أرض الغرفة. وكان أروع وأجمل ما في الأمر أنه فهم فهماً كاملاً أن في وسع امرأة أن «تتعذب خوفاً من وثيقة»، وأن تبقى في الوقت نفسه طاهرة نقية لا مأخذ عليها، كما ظهرت لي اليوم. وقد فهم كذلك كلمة «الطالب» حق فهمها. ولكن حين شارفت على النهاية لاحظت أن ابتسامته الطيبة ونظرته كان يلوح فيها من حين إلى حين نوع من نفاد الصبر، والقسوة، والذهول. وحين وصلت إلى «الوثيقة» تساءلت بيني وبين نفسي: «أأقول له الحقيقة أم لا؟»، ثم لم أقلها له رغم حماستي كلها. أسجل هذا هنا لأذكره مدى الحياة. لقد شرحت له أمر الوثيقة على نحو ما شرحته لها هي، أي أقحمت كرافت. فالتمعت عيناه، وارتسم على جبهته غضن غريب شديد القتامة، وقال يسألني:

- أتتذكر تذكراً واضحاً يا عزيزي أن تلك الرسالة قد أحرقها كرافت بلهب شمعته؟ ألست متوهّماً؟

فأجبته مؤكداً:

- لا لست متوهّماً.

- ذلك أن لهذه الرسالة شأنا خطيراً عندها، فإذا كانت بين يديك كان في وسعك منذ اليوم أن. . .

أما ما الذي «في وسعي أن. . » فلم يذكره. وإنما تابع كلامه يسألني:

Twitter: @ketab_n

- هل صحيح حقاً أن الرسالة ليست الآن بين يديك؟

فارتعشت، ولكن في داخل نفسي لا في ظاهرها. أما في الظاهر فإنني لم أفضح أمري بشيء، ولا طرفت لي عين. حتى أنني أردت أن لا أصدق سؤاله، فقلت:

- ماذا؟ بين يدي، الرسالة بين يدي الآن؟ كيف تكون بين يدي وقد أحرقها كرافت؟

- أحرقها؟

وحدّق إليَّ بنظرة من نار، نظرة جامدة ما أزال أذكرها. وظل مع ذلك مبتسماً، غير أن كل ما كان في وجهه من طيبة، ومن رقة قد اختفى فجأة. وعبرت هيئته عن حيرة وإبهام. وإزداد ما كان يظهر عليه من ذهول. فلو كان أكثر سيطرة على نفسه، لو أنه سيطر على نفسه كما كان يسيطر عليها الآن، لما ألقى عليَّ ذلك السؤال عن الوثيقة. أما وأنه فعل، فهذا دليل أكيد على أنه كان خارجاً عن طوره. ولكنني اليوم إنما أقول هذا الكلام. أما في ذلك الوقت فإنني لم أدرك التغير الذي أصابه، بمثل هذه السرعة، وظللت أطير، وظلت نفسي زاخرة بتلك الموسيقى نفسها. ولكن قصتي انتهت. ونظرت إليه، فقال لي فجأة منذ فرغت من الحديث:

- شيء غريب، غريب جداً يا صديقي: تقول إنك كنت هناك من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة، وأن تاتيانا بافلوفنا لم تكن في البيت، أليس كذلك؟

- من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة والنصف تماماً.

- تصور أني ذهبت إلى تاتيانا بافلوفنا في الساعة الثالثة والنصف تماماً، فاستقبلتني في المطبخ. إنني أصعد إليها على سلّم الخدمة في كل مرة تقريباً.

فهتفت أقول وأنا اتقهقر إلى وراء من شدة الدهشة:

Twitter: @ketab_n

- ماذا؟ استقبلتك في المطبخ؟

- نعم، وقالت لي إنها لا تستطيع أن تستقبلني، فلم أمكث إلا دقيقتين. وما كنت قد ذهبت إليها إلا لأدعوها إلى الغداء على كل حال.

- لعلها وصلت في تلك اللحظة نفسها؟

- لا أدري. ولكن لا. مستحيل. لقد كانت لابسة بلوزة بيتية. كانت الساعة هي الثالثة والنصف تماماً.

- ولكن... ألم تقل لك تاتيانا بافلوفنا أنني عندها؟

- لا... لم تقل لي إنك هناك... وإلا لكنت عرفت فما سألتك عن شيء.

- اسمع، هذا أمر خطير جداً...

- نعم... ذلك يتوقف على الجهة التي تنظر إليه منها... ولكنني أرى أن وجهك قد اصفر لونه... فأين الخطورة في الأمر؟

- لقد ضُحك عليَّ كما يُضحك على طفل...

- بل كل ما في الأمر أنها «خافت من حرارة اندفاعك»، كما قالت لك، فلجأت إلى مساعدة تاتيانا بافلوفنا.

- يا لها من حيلة يا رب! اسمع، لقد أنطقتني ذلك الكلام كله بحضور شخص ثالث، أمام تاتيانا بافلوفنا. معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا سمعت ما قلته! هذا... هذا رهيب! بل رهيب تصوره!

- «كل شيء نسبي يا عزيزي» (بالفرنسية) ثم إنك قد ناديت «برحابة» الفكر، للمرأة عامة، وهتفت تقول: «عاشت رحابة الفكر».

- لو كنت أنا عطيل، وكنت أنت ياجو، لما استطعتَ أن تفعل خيراً من هذا.. ولكنني أضحك.. فلا يمكن أن يكون ههنا عطيل، إذ ليس ثمة علاقات من هذا النوع. وكيف لا أضحك؟ ليكن ما كان! إنني أظل رغم كل شيء مؤمناً بما هو أسمى مني كثيراً، ولا أفقد مثلي الأعلى! إن

Twitter: @ketab_n

كان ذلك مزاحاً منها، فإنني أغفره لها. إنها تمزح مع مراهق مسكين. ليكن. أنا من جهتي لم ألبس أي قناع. والطالب... الطالب كان هناك رغم كل شيء... كان... كان في قلبها، كان في نفسها.. كان وبقي وسيبقى. وكفى الآن! اسمع: ما رأيك؟ أأمضي إليها فوراً فأعرف الحقيقة كلها، أم لا؟

قلت وأنا أضحك، ولكن الدموع كانت تترقرق في عيني.

- وماذا في الأمر؟ اذهب إليها يا صديقي إذا كنت ترغب في ذلك.

- أحس أنني لطخت نفسي إذ قصصت عليك هذا كله. لا تزعل، يا عزيزي ولكنني أعود فأقول إنه لا يجوز لرجل أن يتحدث عن امرأة إلى شخص آخر. إن من تتخذه نجياً وتفضي إليه بأسرارك لن يفهم أبداً. الملاك نفسه لن يفهم. حين تحترم امرأة فلا تتخذ لك نجياً تبوح له بأمورك. وإذا كنت تحترم نفسك فلا تفعل ذلك أيضاً. إنني الآن لا احترم نفسي. إلى اللقاء. لن أغفر لنفسي ما فعلت...

- دعك يا عزيزي، إنك تبالغ! أنت نفسك قلت «إنه لم يحدث شيء».

وخرجنا إلى الشارع، وودَّع كل منا الآخر. وقال لي وفي صوته ارتعاش خاص:

- ولكن ألا تقبّلني يوماً من كل قلبك قبلة طفل، كما يقبل ابن أباه؟

فقبلته بحرارة.

قال:

- عزيزي... كن طاهراً نقياً على الدوام كما أنت طاهر نقي في هذه اللحظة.

لم أقبّله قبل هذه المرة في حياتي، ولا كان يمكنني أن أتصور أن يطلب مني هو نفسه ذلك.

Twitter: @ketab_n

حواش

(1) «هأنا آخذ بكتابة قصة خطواتي...» يجري السرد في الرواية على لسان بطلها، المراهق آركادى دولجوروكي، ولكن ليس في صورة يوميات، بل في صورة مذكرات وذكريات. وقد أقدم دوستويفسكي على هذه الصيغة بعد تردد طويل. ففي 12 آب 1874 يسجل في دفاتر المسودات: «حل هام للمسألة... أن أبدأ بكلمة: أنا».

(2) «... أبدأ مذكراتي بيوم 19 أيلول من السنة المنصرمة...» اعتنى الكاتب عناية دقيقة بالتسلسل الزمني لأحداث الرواية. وتستغرق الأحداث فيها حوالي أربعة أشهر، من 19 آب حتى منتصف كانون الأول 1874 (حددت السنة حسب الدلائل المحتملة). ويسجل أركادي أحداث هذه الأشهر الأربعة بعد وقوعها بنصف سنة، في منتصف أيار من العام التالي.

(3) «الأمير دولجوروكي؟...» كان آل دولجوروكي أو دولجوروكوف من أشهر وأعرق عائلات الأمراء في روسيا.

(4) «... إن الزواج بين الأقنان الخدم في عهد القنانة...» الأقنان الخدم هم الخدم في منازل الإقطاعيين في روسيا قبل عام 1861. ففي ظل نظام القنانة الذي لم يلغ إلا عام 1861 كان للإقطاعيين حق التصرف في مصائر وملكية وكد الفلاحين الذين يعتبرون ملكاً لهم.

(5) قصة «أنطون المسكين» للكاتب د.جريجوروفتش (1822-1899) وقصة «بولينا ساكس» للكاتب أ. دروجينين (1824-1864) نشرتا عام 1847 في مجلة «سوفريمينّيك» (المعاصر) وأثرتا تأثيراً كبيراً على ميول القطاع التقدمي من المجتمع الروسي بما تميزتا به من أفكار إنسانية.

(6) «... مدرسة توشار...» اسم توشار هو تحريف لاسم سوشارد، الذي كان صاحب بنسيون تعليمي في موسكو. وكان دوستويفسكي يتردد عليه تلميذا غير مقيم في عام 1833.

(7) «وتمضي معي إلى كوزنتسكي...» شارع كوزنتسكي موست بموسكو - شارع كانت تقع فيه محلات الأزياء العصرية.

Twitter: @ketab_n

(8) «ولكن هذا من شأن شيللر...» المقصود هنا: هذا شيء رومانسي، نسبة إلى الشاعر الألماني الرومانسي فريدريك سيللر (1759-1805) الذي كان له تأثير كبير على إبداع دوستويفسكي.

(9) يا بني العزيز (بالفرنسية في الأصل).

(10) يقتضي الاحترام في تقاليد المخاطبة الروسية أن تجري المخاطبة بصيغة الجمع لا المفرد - المعرّب.

(11) جيمس روتشيلد (1792-1868) مصرفي باريسي، مؤسس دار آل روتشيلد المالية. والدوق بيري (1778-1820) هو الابن الثاني لكارل العاشر والمرشح لتولي عرش فرنسا، وقد هاجر مع أبيه إلى باريس عام 1784 بعد عودة الملكية. وفي 13 شباط 1820 لقي مصرعه على يد العامل لوفيل بغية استئصال ذرية البوربونيين.

(12) حي في بطرسبرج في جزيرة وسط نهر النيفا خلف قلعة بطرس وباول. وللوصول إليه من حي سيميونوفسكي كان لا بد من اختراق جزء كبير من المدينة من الجنوب إلى الشمال.

(13) «أما يزال عازماً على الهروب إلى أميركا؟..» في ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر انتشرت في أوساط الشباب الروسي نزعة نحو الهجرة إلى أميركا بغية أن يجربوا بأنفسهم حياة العمال الأمريكيين.

(14) «ما من غريب واحد، اطمئن بالاً.» استخدم الكاتب في وصف اجتماع حلقة ديرجاتشيف في الرواية مواد محاكمة «الدولجوشينيين» وزعيمهم أ. دولجوشين (1848-1885). وقد بحث مجلس الشيوخ من 9 إلى 15 تموز 1874 قضية الدولجوشينيين الذين وجهت إليهم تهمة «وضع البيانات الإجرامية وطبعها وتوزيعها بغية إثارة الأهالي وحضهم على التمرد».

(15) مسبقاً (باللاتينية في الأصل).

(16) «... كل هذه الثكنات... كل هذه الكتائب...» الكتيبة (الفلانجا)، حسب أفكار الاشتراكي الطوباوي الفرنسي فورييه (1772-1837) هي الجماعة الاجتماعية الإنتاجية - الاستهلاكية، التي ينبغي أن تصبح الخلية الأساسية للبناء الاجتماعي المثالي.

(17) «... ما حدث في مدينة إمس...» مدينة إمس أو باد - إمس هي منتجع في ألمانيا. وقد تعالج دوستويفسكي في إمس عامي 1874 و1875، وعكف هناك على كتابة «المراهق».

Twitter: @ketab_n

(18) «... ليذهب إلى فيلنو...» فيلنو أو فيلنوس، مدينة على شاطىء البلطيق وهي عاصمة جمهورية لاتفيا حالياً.

(19) «أنا لا أؤمن بوباء الانتحارات...» نشرت الصحافة الروسية في سبعينات القرن التاسع عشر مواد عن حوادث انتحار كثيرة تفشت وسط الشباب.

(20) «فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد إلى الخدمة في الجيش ولكنه لم يرسل إلى القرم...» المقصود هنا حرب القرم 1853-1856 التي حاربت روسيا فيها ائتلافا مكوناً من إنجلترا وفرنسا وتركيا وسردينيا نظراً لتصادم المصالح الاقتصادية والسياسية لهذه البلدان في الشرق الأوسط.

(21) «كونيغسبرج» - العاصمة السابقة لبروسيا الشرقية، وقد أصبحت الآن تسمى كالينينجراد، وهي عاصمة محافظة كالينينجراد بجمهورية روسيا الاتحادية.

(22) «... في عداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»...» «وسيط الصلح» هي وظيفة حكومية أنشئت في روسيا بعد إلغاء نظام القنانة. وحينما قام وسطاء الصلح الأول بتحديد الأراضي المقسمة بين الإقطاعيين والفلاحين (1861-1863) طالبوا في بعض الحالات بإضفاء الطابع الديمقراطي على هذا الإصلاح ودافعوا عن مصالح الفلاحين.

(23) أب (منVater بالألمانية).

(24) « بخيلين من نوع هارباجون أو بليوشكين...» هارباجون هو بطل كوميديا «البخيل» (1669) للأديب الفرنسي جان باتيست موليير (1622-1673). وبليوشكين هو شخصية من رواية «النفوس الميتة» (1842) للأديب الروسي نيقولاي جوجول (1809-1852)، وقد أصبحت صورة تعبر عن البخل والجشع الشديدين.

(25) شرط ضروري (باللاتينية في الأصل).

(26) «... كوكوريف وبولياكوف وجوبونين...» هم رأسماليون روس أغنياء من الجيل الأول.

(27) جون لاو (1671-1729) رجل إنجليزي هرب إلى باريس حيث أنشأ مصرفاً في عام 1716 قام بإصدار أوراق بنكنوت بدون تغطية.

(28) «... ولكن هذا تاليران، وهذا بيرون...» شارل موريس تاليران (1754-1838) دبلوماسي فرنسي شهير، أستاذ في فن اللعب الدبلوماسي المرهف، واليكسيس بيرون (1689-1773) شاعر فرنسي كتب قصائد وكوميديات، وأوبرات كوميدية وهجائيات قصيرة.

Twitter: @ketab_n

(29) «... حسبي هذا الإدراك...» مقطع من مونولوج البارون في التراجيديا القصيرة «الفارس البخيل» (1830) للشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين (1799-1837). وقد أوحى هذا المونولوج إلى أركادي بـ «فكرته».

(30) «... مثل الغراب، سيكفيني غذاء في صحرائي». إشارة إلى الأسطورة التوراتية عن النبي إيليا الذي عاش بقرب الأردن إبان جفاف شديد استمر سنوات طويلة، وكان الغراب يحمل إليه الخبز واللحم كل يوم.

(31) «... أمثال غاليليو وكوبرنيك، وشارلمان ونابوليون وبوشكين وشكسبير...» نيقولاي كوبرنيك (1473-1543) وغاليليو غاليلي (1564-1642) عالمان فلكيان عظيمان. وملك الفرنكيين شارلمان العظيم (742-814) والامبراطور نابوليون بونابرت الأول (1769-1821) قائدان عسكريان عظيمان. والشاعر الروسي ألكسندر بوشكين (1799-1837) والشاعر الإنجليزي وليام شكسبير (1564-1616) من عباقرة الشعر الروسي والإنجليزي.

(32) «إن فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية على الفور، وبسمارك نفسه أصبح رجلاً عبقرياً...» أوتو إدوارد ليوبولد بسمارك (1815-1898) أمير ورجل دولة بارز في بروسيا وألمانيا، ومن أكبر دبلوماسيي العصر الحديث. و«فكرة» بسمارك التي يقصدها أركادي دولجوروكي هي فكرة توحيد ألمانيا بقوة السلاح البروسي. وكان دوستويفسكي يبدي اهتماماً كبيراً بشخصية بسمارك الذي بلغ أوج مجده في سبعينات القرن الماضي. وكثيراً ما يتردد اسم بسمارك في «يوميات كاتب» لدوستويفسكي.

(33) «... إن جان جاك روسو، في كتابه «الاعترافات»...» جان جاك روسو (1712-1778) فيلسوف وكاتب ومنوّر فرنسي. وقد أثرت «اعترافاته» (1766-1769 والصادرة في 1782-1789) تأثيرا كبيراً على الأدب الأوروبي.

(34) «... صورة لـ«مادونا» درسدن...» صورة «العذراء السكستينية» لرافائيل (1483-1520) من أحب اللوحات إلى قلب دوستويفسكي. وقد علقت صورة فوتوغرافية لهذه اللوحة في آخر شقة سكنها الكاتب في بطرسبرج.

(35) « الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسا...» المقصود بوابة الكاتدرائية الشهيرة سانتا ماريا ديل فيوري (القرن 13) في فلورنسا. وكان دوستويفسكي يحلم بأن تكون لديه صورة كهذه.

(36) «من «أفكار جنيف» في نهاية القرن الماضي...» المقصود هنا الأفكار الديمقراطية والاشتراكية في نهاية القرن الثامن عشر والتي يرجعها دوستويفسكي إلى آراء

Twitter: @ketab_n

المنوّر الفرنسي جان جاك روسو الذي يرجع أصله إلى مدينة جنيف.

(37) في العالم كله وفي أماكن أخرى (بالإيطالية في الأصل).

(38) إيليسييف وباليه...» صاحبا محلات أطعمة كبيرة في موسكو وبطرسبرج.

(39) «أنسحب إلى الصحراء...» الشطر الأول من أغنية ذائعة آنذاك.

(40) «أحب حكايات كريلوف...» إيفان كريلوف (1769–1844) أديب وصحفي روسي وواضع حكايات عن الحيوانات والطيور. وقد أصبح كثير من سطور حكاياته يجري مجرى الأمثال بفضل بساطتها ودقة تعبيرها.

(41) تشاتسكي هو بطل المسرحية الشعرية «وذو العقل يشقى...» للشاعر والدبلوماسي الروسي ألكسندر جريبويدوف (1795–1829).

(42) «مذكرات صياد»...». هي صور أدبية من حياة الفلاحين الأقنان في روسيا القيصرية سجلتها ريشة الأديب إيفان تورجينيف (1818–1883).

(43) «... واحداً من المتعصبين للسلافية!» «الدعوة السلافية» هي تيار اجتماعي سياسي في أواسط القرن التاسع عشر، كان أصحابه يؤكدون على الأصالة والتفرد لتطور روسيا التاريخي على أساس النظام الأبوي والنزعة المحافظة والديانة الأرثوذكسية وينكرون إمكانية تطور روسيا حسب نموذج البلدان الأوروبية الغربية. والعبارة هنا تحمل معنى السخرية من أركادي.

(44) «... فلو أن «أوريا» القروي هذا قد أخذ يزعق ويصرخ فما عسى كان يحدث لي أنا «داود» الصغير...» أوريا، كما ورد في التوراة، محارب شجاع وشريف لدى الملك داود. وقد عشق الملك زوجة أوريا فأمر بإرساله إلى أخطر مواقع القتال حيث لقي أوريا حتفه. وقد حوّر الموضوع هنا بصورة ساخرة.

(45) بيت من قصيدة «فلاس» (1855) للشاعر الروسي نيقولاي نيكراسوف (1821–1878). وكان دوستويفسكي يهوى هذه القصيدة بصفة خاصة.

(46) «... ونموذج العهد البطرسبرجي» كان دوستويفسكي يقصد بـ «العهد البطرسبرجي» للتاريخ الروسي تلك الفترة التي تبدأ بإصلاحات القيصر بطرس الأكبر (1672–1725) الذي تولى الحكم عام 1682. وقد نقل بطرس الأكبر عاصمة روسيا من موسكو إلى المدينة التي بناها «سان - بطرسبرج» في عام 1703.

(47) «... تمثال الفارس الممتطي صهوة حصانه اللاهث المنهوك..» المقصود تمثال بطرس الأكبر في بطرسبرج (الفارس النحاسي) من صنع فالكوني (1716–1791).

(48) «فتاة فتانة كانت تلاطفني...» بيت من قصيدة بوشكين «الشال الأسود» (1820).

Twitter: @ketab_n

(49) الضاحية (Vorstadt بالألمانية).

(50) «... أعطي نصف طالر...» الطالر عملة فضية جرمانية توالى إصدارها من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر.

(51) «لقد انتحر كرافت في سبيل الفكرة، من أجل هيكوبا..» إيماءة إلى كلمات هاملت: «من أجل هيكوبا! ومن تكون له هيكوبا، ومن هو لهيكوبا حتى يبكي عليها؟» وهيكوبا في الأساطير الإغريقية هي زوجة بربام ملك الطرواديين.

(52) «ورب ابن شرعي يترك منزل أبيه إذا أوجب عليه الضمير والشرف ذلك. جاء هذا حتى في الكتاب المقدس.» يقصد آركادى هنا ما جاء في سفر التكوين: «لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته...» (سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآية 24).

(53) «أنا أمير، أنا سليل روريك...» حسب أساطير الأسفار الروسية يعتبر روريك أحد ثلاثة أشقاء (روريك وسنيوس وتروفور) كانوا قادة لفصائل من الورنك (قبائل اسكندينافية قديمة). وتدعي الأساطير أن سلافيي نوفجورود قد استدعوهم من وراء البحر لوقف الاقتتال فيما بينهم فأسسوا الدولة الروسية القديمة. وقد شغل أخلاف روريك مركز الصدارة بين حاشية البلاط الروسي العريقة.

(54) ستنام كملك صغير (بالفرنسية في الأصل).

(55)اقتباس ناقص من إنجيل متى (الإصحاح الخامس، الآيتان 25، 26).

(56) «... سيلادون متجولاً» سيلادون اسم بطل رواية «أستريا» (1610-1619) للأديب الفرنسي أونوري دورفيه (1568-1625). وقد أصبح رمزاً لزير النساء المرهف ولمرافق النساء اللبق.

(57) «... «كان ميتاً فبعث، وكان ضائعاً فرجع» « الإشارة هنا إلى أمثولة الابن الضال الواردة في الإنجيل.

(58) اقتباس من قصيدة بوشكين «البطل» (1830).

(59) «وهذه المطاعم أمثال مطعم بوريل». بوريل - أحد المطاعم الأرستقراطية الغالية في بطرسبرج.

(60) « عهد الإمبراطور الراحل». المقصود هنا القيصر نيقولاي الأول (1796-1855).

(61) خط سكة حديد تسارسكوي سيلو هو أول سكة حديدية في روسيا وكانت تربط بطرسبرج بتسارسكوي سيلو (مدينة بوشكين حالياً). وقد افتتحت عام 1838.

(62) «كان الأمير سوفوروف الإيطالي. من أخلاف القائد العسكري». يبدو أن الحديث

Twitter: @ketab_n

يدور عن حفيد القائد العسكري العظيم ألكسندر سوفروف (1729-1800)، مؤسس الفن الحربي الروسي.

(63) كان زوفيالوف مشهورا في أواسط القرن التاسع عشر بإنتاج السكاكين.

(64) «رؤيا ملك السويد». تقول الأسطورة إن ملك السويد كارل الحادي عشر قد رأى حلماً ينبىء بمصرع الملك القادم غوستاف الثالث (1746-1792).

(65)أسطورة تدعي أن القيصر نيقولاي الأول قد ركع على ركبتيه أمام الشيوخ الذين طالبوه بالتخلي عن العرش، وذلك إبان انتفاضة الديسمبريين عام 1825.

(66) كان تشرنيشيف (1785-1857) وزيرا للحربية في عهد القيصر نيقولاي الأول.

(67) يا للشيطان! (بالفرنسية في الأصل).

(68) «تبديل الحجارة خبزاً». الإشارة إلى ما جاء في الإنجيل عن ظهور الشيطان للمسيح في الصحراء واقتراحه عليه بأن «يحول الأحجار إلى خبز» ليطعم الجياع.

(69) «آراء جنيف... هي الفضيلة بغير يسوع المسيح». المقصود هنا إلحاد الإشتراكيين المعاصرين لدوستويفسكي.

(70) «كما فعل هوراسيو القديم». الإشارة إلى الأسطورة التي تروي أن هوراسيو بعث بأبنائه التوائم الثلاثة لمنازلة توائم ثلاثة من آل كورياتسيا لحل النزاع حول الأولوية بين روما وألبا - لونغا.

(71) «بيلنسكي، الجزء الثاني!» المقصود هنا، فيما يبدو، الجزء الثاني من أعمال الناقد الروسي الكبير بيلينسكي (1811-1848).

(72) كان شارع ميليونايا الكبير (حالياً شارع خالتورين) يضم متاجر للملابس العصرية نصف الجاهزة وصالونات الخياطين الباهظي الثمن.

(73)المقصود هنا الغزو المغولي - التتري للإمارات الروسية في بداية القرن الثالث عشر. ولم تتحرر الدولة الروسية من ربقة هذا الاحتلال إلا في القرن الخامس عشر.

(74) إشارة إلى بَطَلي مسرحية شكسبير «عطيل» (1604).

(75) «كنت أقيم.... في عمارة كبيرة». كان الحي الذي يقطنه أركادى من أكثر أحياء بطرسبرج ازدحاما بالسكان حيث انتشرت فيه العمارات المشيدة بغرض التأجير.

(76) « على ضفة القناة». قناة ايكاترينا، المسماة الآن قناة جريبويدوف.

(77) «وهذا اللحن النشاز من «لوسيا». «لوسيا دي لاميرمور» أوبرا للموسيقار الإيطالي دونيستي (1797-1848).

Twitter: @ketab_n

(78) «من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلاطس». جاء في الإنجيل أن المسيح قدم للمحاكمة أمام الحاكم الروماني ليهوذا بيلاطس البنطي الذي حكم يهوذا في الفترة من 26 إلى 36 بعد الميلاد.

Twitter: @ketab_n

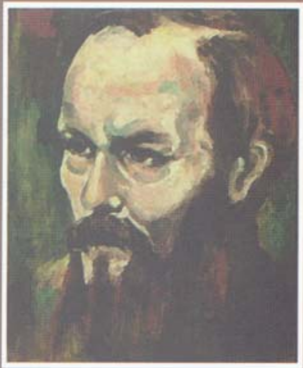

دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في ١٨٢١/١١/١١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.

Twitter: @ketab_n

سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرة عام ١٩٦١.
* عمل مدرساً للفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد الممات (١٩٧٨).

Twitter: @ketab_n

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتّاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشدّ القارئ، وبتعبيرها القوي عن دزاخل النفس الإنسانية، وقد عبّر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر-المراهق-مذلون مهانون-الجريمة والعقاب-الأبله...

ورواية "المراهق" تقدّم نموذجاً لشخصيّة "طالب" مراهق، بآماله وأوهامه المتعلقة بالحياة والثراء والحب. وتصف مشاعر الحبّ والكره، والاعتراف والانكار التي يمرّ بها مراهق تجاه والديه وعائلته ومحيطه.

يتتبع دوستويفسكي الصراعات التي يعيشها المراهق أركادي في أجواء عائلته وأوضاعه الحياتية التي يسعى للتمرّد عليها. فيضع نصب عينيه العمل على أن يصبح غنياً كروتشيلد، وينكر عائلته التي يعتبر أنها قصّرت في حقّه، ويسعى لعلاقات مع طبقة الأغنياء والأمراء.

يقدم دوستويفسكي عبر هذه الشخصيّات نماذج إنسانيّة غنيّة كاشفاً عن أهوائها ونزواتها كما عن طيبتها وجمال روحها.

"إنك تحلم بحياة لها دويّ، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا، وأن تمزّق لا أدري ماذا، أن تسمو فوق روسيا كلها، أن تمرّ مرور سحابة ساطعة، أن تغرق العالم كله في الخوف والإعجاب، لذلك أرى من المفيد أن أحذّرك لأني أحمل لك عاطفة صادقة".

هذا هو المراهق كما يصفه دوستويفسكي على لسان والده.

ISBN 978-9953-68-459-6

9 789953 684598

تَرجِم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

المركز الثقافي العربي
cca@ccaedition.com

@ketab_n
Follow Me
6.1.2016

دوستويفسكي

المراهِق

الجزء الثاني

ترجمة: سامي الدروبي

دوستويفسكي

المُراهِق

2

ترجمة: سَامي الدروبي

ترجم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

Twitter: @ketab_n

الكتاب: **المراهق (2) (رواية)**

المؤلف: **دوستويفسكي**

المترجم: **سامي الدروبي**

الطبعة الأولى، 2010

ISBN 978-9953-68-459-6

يُنشر هذا الكتاب بموجب عقد مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

ترجم

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ:

الناشر: المركز الثقافي العربي

بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان

ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01352826 ـ 01750507

فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ307651 522

فاكس: 2305726 522 212+

www.ccaedition.com cca@ccaedition.com Email: markaz@wanadoo.net.ma

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم والمركز الثقافي العربي غير مسؤولين عن أفكار وآراء المؤلف، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء المؤسسة والدار.

Twitter: @ketab_n

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجه واقعنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية واللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفّذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلىٰ العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من

Twitter: @ketab_n

اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيّرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني:
www.mbrfoundation.ae

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموّه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

1

قلتُ عازماً أمري وأنا أعود إلى البيت مسرعاً: «واضح. يجب أن أذهب إليها. يجب أن أذهب إليها فوراً. ومن الجائز جداً أن أجدها وحدها، وحدها أو مع غيرها، سيان: ففي وسعي أن أدعوها، وسوف تستقبلني، ستدهش لكنها ستستقبلني، وإذا لم تستقبلني ألححت عليها أن تستقبلني مرسلاً من يقول لها أن عليَّ أن أراها. فتعتقد أن لمجيئي صلة بالوثيقة، فتستقبلني، فأعلم كل شيء عن أمر تانيانا... ثم... ثم ماذا؟ إذا ثبت أنني على خطأ، كفرت لها عن خطئي، وإذا ثبت أنني على حق وأنها على خطأ، انتهى كل شيء. وقد انتهى كل شيء على كل حال. ما الذي أخسره؟ لا شيء! هلمَّ... هلمَّ!...

ولكنني لم أذهب. لن أنسى هذا أبداً، وسأظل أتذكره بفخر واعتزاز. لن يعلم بذلك أحد، سيظل مجهولاً، ولكن يكفي أن أعرفه أنا، يكفي أن أعرف أنني في تلك اللحظة استطعت أن أكون نبيلاً نبلاً لا نهاية له! قلت لنفسي بعد تفكير: «هي محاولة إغواء. لكنني سأغض النظر عنها. وقد أريد لي أن أرتاع، ولكنني لم أصدق، ولم أفقد إيماني بطهارتها! علام أذهب إليها؟ وعمَّ أسألها؟

Twitter: @ketab_n

لماذا يكون عليها أن تثق بي كما أثق بها، أن تؤمن بطهارتي، ألاَّ تخشى «حرارة اندفاعي» ولا تحتمي بتاتيانا بافلوفنا؟ إنني لم أستحق بعد شيئاً من ذلك كله في نظرها. فلتجهل أنني أستحق ذلك، وأنني لا أنقاد للإغواءات، وإنني لا أصدق ألسنة السوء! لتجهل هي ذلك كله. ولكنني سأعلمه أنا، فأزداد احتراماً لنفسي. سأحترم عاطفتي. صحيح أنها جعلتني أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا، كانت تعلم أن تاتيانا هناك وأنها تُنْصت (لا يمكن إلا أن تُنصت)، وكانت تعلم أن تاتيانا تسخر مني... آه... شيء فظيع! شيء فظيع!... ولكن لعلها كان يستحيل عليها أن تتجنب ذلك! ماذا كان في وسعها أن تعمل إذا استحال عليها أن تتجنب ذلك؟ كيف يمكنني أن أتهمها؟ أفلم أكذب عليها أنا نفسي بصدد كرافت؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأنني استحال عليَّ أن أتجنب ذلك؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البريء على غير إرادة مني.

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمرّ وأشعر بألم شديد: رباه! رباه! ما هذا الذي فعلته أنا؟ ألم أستدرجها على مسمع من تاتيانا هذه نفسها؟ ألم أقصص كل شيء على فرسيلوف؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسي؟ إن هناك فرقاً ضخماً. لقد كان الأمر أمر الوثيقة فحسب. والحق أنني لم أحدّث فرسيلوف إلا عن الوثيقة، إذ لم يكن ثمة شيء آخر أحدثه عنه، ولا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر أحدثه عنه. ألست أنا الذي بادرت إلى إبلاغه، وصحت أقول «إنه لا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر»؟ هذا رجل يدرك الأمور... همْ... ولكن ما هذا الكره الشديد الذي لا يزال يحمله قلبه لهذه المرأة حتى الآن! ما عسى تكون القصة التي جرت بينهما في الماضي؟ لا شك أن حبه لنفسه هو سبب كل شيء... «هذا رجل

Twitter: @ketab_n

لا يقدر أن يحس إلا عاطفة واحدة هي حبه لذاته حباً لا حدود له» (بالفرنسية).

نعم، أفلتت مني هذه الفكرة حتى إنني لم أنتبه إليها. تلك هي الخواطر التي تلاحقت في ذهني سريعة، وكنت عندئذ صادقاً مع نفسي: لم أكن أخادع، ولم أكن أحاول أن أغشَّ نفسي. وإذا كان ثمة شيء لم أستطع أن أدركه في تلك اللحظة، فإنما مرد ذلك إلى فقدان الفهم لا إلى مخادعة النفس.

وعدت إلى البيت مهتاجاً اهتياجاً شديداً، وكنت مرح المزاج برغم الاضطراب القوي، لا أدري لماذا! ولكنني كنت أخشى أن أحلل نفسي، وكنت أبذل كل ما أملك من قوة في سبيل أن أسلو. فسرعان ما ذهبت إلى المؤجرة. فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً. إنها امرأة موظف مصابة بداء السل إصابة قوية، وهي طيبة القلب، لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة. فأسرعت أصلح بينهما. ثم ذهبت إلى المستأجر الشرس، وهو موظف في بنك، غليظ القلب، فظ الطبع، أناني، مجدور الوجه، اسمه تشرفياكوف، كنت لا أحبه كثيراً ولكن العلاقات بيني وبينه كانت حسنة، لأنني كنت أستعذب أن أستهزىء معه ببيتر ايبوليتوفتش. فسرعان ما أقنعته بألا يترك المنزل إلى مسكن آخر، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال، وأفلحت في تهدئة المؤجرة تهدئة حاسمة، واستطعت عدا هذا أن أسوي لها مخدتها. فقالت في مكر: «ذلك ما لا يستطيع بيتر ايبوليتوفتش أن يفعله أبداً». ثم عكفت في المطبخ على الاهتمام بكماداتها، فصنعت لها بيدي كمادتين رائعتين. فكان المسكين بيتر ايبوليتوفتش ينظر إليَّ حاسداً، ولكنني لم أسمح له حتى بلمس الكمادات! وقد كوفئت

Twitter: @ketab_n

على صنيعي بامتنان عبَّر عن نفسه بدموع صادقة. ثم لم ألبث أن شعرت بضجر من هذا كله على حين فجأة ـ لا أزال أتذكر هذا ـ وأدركت أنني لم أعن بالمريضة بدافع الشهامة والأريحية قط، وإنما عنيت بها هكذا، لا أدري لأي سبب، أو لسبب آخر لا علاقة له بالشهامة ولا الأريحية!

وأخذت أنتظر ماتفي نافد الصبر: كنت قد قررت في ذلك المساء أن أجرب حظي مرة أخيرة. وعدا الحظ، كنت أشعر بحاجة شديدة إلى المقامرة. وإلا لم يكن في وسعي أن أصبر. فلو استحال عليَّ أن أشغل نفسي بالقمار، لكان من الجائز جداً ألا أستطيع مقاومة الرغبة في الذهاب إليها. وكان على ماتفي أن يصل بعد قليل. ولكن الباب فتح فجأة، ودخلت عليَّ زائرة لم أكن أتوقع أن تجيء إليَّ، وهي داريا أوسيموفنا. فقطبت حاجبيَّ وبانت دهشتي. كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن، لأنها جاءتني برسالة من أمي في أحد الأيام. وأجلستها، ونظرت إليها مستفهماً. فلم تقل شيئاً، ولم تزد على أن أخذت تنظر إليَّ محدقة وتبتسم بخضوع ومذلة. فخطر ببالي فجأة أن ليزا هي التي أوفدتها، فسألتها:

ـ أليست ليزا هي التي أرسلتك؟

فقالت:

ـ بل جئت هكذا. . . من تلقاء نفسي. . .

فأنبأتها بأنني خارج بعد قليل، فعادت تقول مرة أخرى إنها جاءت «هكذا»، من تلقاء نفسها، وأنها منصرفة حالاً. فأحسست فجأة بنوع من الشفقة. يجب أن أذكر هنا أن أمي، وتاتيانا بافلوفنا خاصة، هما اللتان، من بيننا جميعاً، عطفتا عليها، ولكن جميع

Twitter: @ketab_n

ذوينا قد نسوها تقريباً بعد أن وضعت عند ستولبيافا، ربما باستثناء ليزا التي كانت تزورها في أحيان كثيرة. ويرجع ذلك، فيما أظن، إلى داريا نفسها، لأنها كانت تتصف بالميل إلى الابتعاد والغياب، رغم كل مذلتها وكل ابتساماتها المستجدية المستعطية. أما أنا فكانت هذه الابتسامات لا تعجبني كثيراً، إذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير وجهها اصطناعاً زائفاً، حتى لقد خطر ببالي ذات يوم أنها لم تبك عزيزتها أوليا مدة طويلة. ولكنني في هذه المرة شعرت بشفقة عليها، لا أدري لماذا!

وها هي ذي تنحني فجأة دون أن تقول كلمة، وتخفض عينيها، وترمي ذراعيها إلى أمام، فتمسك بخاصرتي، وتميل بوجهها على ركبتي، ثم تتناول يدي، فأظن أنها تريد أن تقبلها، ولكنها رفعتها إلى عينيها، فإذا بسيل من الدموع يسيل عليها. وأخذت تنشج نشيجاً قوياً يهز جسمها كله، دون أن يُسمع لبكائها صوت. فانقبض صدري ألماً، رغم أنني أحسست ببداية حنق. ولكنها أخذت تقبلني بثقة كاملة، لا تخشى أن أغضب، على حين أنها كانت منذ قليل تبتسم ابتسامات فيها كثير من الوجل وكثير من المذلة. فرجوتها أن تهدىء نفسها. فأخذت تتكلم فقالت:

ـ سيدي الطيب، لقد أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسي. فما أن يهبط الظلام، حتى تنفد طاقتي على الاحتمال. إنني أفقد قدرتي على الصمود متى حل المساء، فأراني مدفوعة إلى الخروج إلى الشارع في العتمة. والحلم هو الذي يجذبني خاصة. لقد نبت في رأسي حلم هو أنني متى خرجت فسألقاها في الشارع. فأسير، وأظن أنني أراها. أقصد أن الناس يسيرون، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسي: أليست هذه هي؟ نعم، ها هي ذي، إنها ابنتي

Twitter: @ketab_n

أوليا. وأفكر، وأفكر. وأصبحت في النهاية مجنونة من كثرة الجري بين الجمهور. وصرت أشعر من ذلك بغثيان. إنني أصدم الناس كسكرى ويقذفني بعضهم بشتائم. لكنني أحتفظ بهذا كله لنفسي، ولا أذهب إلى أحد. ثم إنني لا أذهب إلى مكان ألا أجد حالتي أسوأ مما كانت. وقد مررت منذ قليل أمام بيتك، فقلت لنفسي: «ماذا لو دخلت؟ إنه خير من الآخرين، ثم إنه رأى الأمر بعينيه». سيدي الطيب، اغفر لي إزعاجك، أنا منصرفة حالاً...

ونهضت بحركة مباغتة، وهمّت أن تسارع إلى الانصراف. ووصل ماتفي في تلك اللحظة. فأركبتها إلى جانبي في العربة، وأوصلتها إلى منزل ستولبيافا.

2

أصبحت في الآونة الأخيرة أتردد إلى صالة الروليت التي يملكها زرشتشيكوف. وكنت أذهب قبل ذلك إلى ثلاثة بيوت، في صحبة الأمير الذي كان «يُدخلني» إلى تلك الأماكن. ففي أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصةً وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة. فكنت لا أحس هنالك بأرتياح، إذ كنت أرى أن المرء يحتاج إلى مال كثير، عدا أن ذلك البيت كان يرتاده عدد كبير من الوقحين، وعدد كبير من الشبان الذين ينتمون إلى أسر عالية، وتمتلىء جيوبهم بأموال طائلة. وذلك بعينه ما كان يحبه الأمير. كان الأمير يحب أن يقامر، ولكنه كان يحب أيضاً أن يحتك بهؤلاء الطائشين. وقد لاحظت أنه إذا دخل معي في بعض الأحيان جنباً إلى جنب، ابتعد عني طوال السهرة، ولم يقدمني إلى أحد من «صحبه». وكانت هيئتي هيئة إنسان متوحش تماماً، حتى لقد كان

Twitter: @ketab_n

ذلك يلفت إليَّ الانتباه أحياناً. وكان يتفق لي أن أتحدث على مائدة القمار إلى هذا أو ذاك من اللاعبين، ولكن وقع لي ذات مرة أن حاولت التكلم في ذلك البيت نفسه مع سيد قصير تحدثت إليه بالأمس، ضحكت معه جالساً إلى جانبه (حتى لقد حزرت له ورقتين من أوراق اللعب)، فإذا هو لا يتعرفني، وإذا هو يزيد على ذلك سوءاً فيلقي عليَّ نظرة دهشة مصطنعة، ثم يمضي مبتسماً ابتسامة ساخرة. لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت، وأخذت أرتاد محلاً للقمار لا أستطيع أن أسميه إلا ماخوراً قذراً. إنه صالة روليت حقيرة، صغيرة، تديرها امرأة «مومس» كانت لا تظهر في الصالة مع ذلك أبداً. الناس هنالك يتعاملون بدون كلفة ولا حرج، فكأنهم أسرة واحدة، رغم أن بينهم ضباطاً وتجّاراً، فكان هذا يجتذب كثيراً من الرواد. ولكنني انقطعت عن ارتياد ذلك المكان في أعقاب قصة قذرة حدثت ذات يوم أثناء اللعب، وانتهت بتضارب بين اثنين من المقامرين. وبعد ذلك إنما أخذت أجيء إلى صالة زرشتشيكوف التي قادني إليها الأمير أيضاً. إن زرشتشيكوف ضابط من سلاح الفرسان محال على التقاعد، وإن جو سهراته جو محتمل جداً. وهو رجل عسكري قليلاً في سلوكه، حريص على التقيد بالأصول، سريع وعملي. من ذلك مثلاً أنه كان لا يقبل في صالته أناساً يسيئون المزاح أو يسرفون في القصف واللهو. ثم إن اللعب نفسه لم يكن فيه عنده مزاح. وكان المقامرون يتعاطون البكاراه والروليت. وكنت في ذلك المساء، مساء 15 تشرين الثاني (نوفمبر)، قد جئت إلى هذا المكان قبلئذ مرتين لا أكثر. وكان زرشتشيكوف يعرف وجهي فيما أظن، ولكن لم يكن قد قام بيني وبينه أي تعارف. وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن جاء الأمير في ذلك المساء نفسه مع دارزان عند

Twitter: @ketab_n

منتصف الليل عائداً من لعب البكاراه مع أولئك الشبان الطائشين أبناء المجتمع الراقي الذين هجرتهم: هكذا كنت في ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء.

لو كان لي قارىء فقرأ كل ما سبق أن رويته من أحداث حياتي لما كان عليَّ حتماً أن أشرح له أنني امرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع أياً كان هذا المجتمع. أنا أولاً لا أعرف كيف اختلط بالناس. فإذا ذهبت إلى مكان فيه ناس كثير، بدا لي أن جميع الأنظار تنصب عليَّ فتلسعني كلسع الكهرباء، فأجد نفسي متوتر الأعصاب، منهكاً إنهاكاً جسمياً، حتى في مكان كالمسرح، ناهيك عن البيوت الخاصة. وفي جميع صالات الروليت هذه وفي جميع تلك المحافل أشعر بعجز عن السيطرة على سلوكي: فتارة أجلس حتى لألوم نفسي على فرط الرقة والأدب والتهذيب، وتارةً أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات. وأنظر حولي فأرى أن أي وغد من الأوغاد الحقيرين أقدر مني على التصرف في المجتمع بيسر عجيب وسهولة مدهشة، فيزيدني هذا حنقاً، فإذا أنا أفقد هدوئي مزيداً من الفقدان. ويجب أن أقول بصراحة أنني، لا اليوم فحسب، بل حتى في ذلك الحين، كانت تلك السهرة كلها، وكانت أرباح القمار نفسها (إذا وجب أن أقول كل شيء) قد أمست في النهاية تبدو لي باعثة على الاشمئزاز، مثيرة للألم. نعم، حتماً: مثيرة للألم. صحيح أنني كنت أشعر بمتعة قصوى، ولكن تلك المتعة كانت تجيء من خلال الألم. كان ذلك كله، أقصد الناس والقمار وأنا خاصةً معهم، كان ذلك كله يبدو لي قذراً قذارة فظيعة. «ألا فلأربح مرةً واحدة، ثم أركل ذلك كله برجلي إلى الأبد!». كذلك كنت أقول لنفسي دائماً حين أستيقظ في الصبح بعد لعب الليل. الربح

Twitter: @ketab_n

مثلاً: إنني لم أكن أحب المال البتة. لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبذولة وهي أنني كنت أقامر من أجل القمار نفسه، من أجل الإحساسات القوية، من أجل لذة المجازفة، من أجل متعة المصادفة، وما إلى ذلك، وليس من أجل الربح. لقد كنت في حاجة ملحة إلى المال. ولا شك أن هذه الطريق لم تكن طريقي، وهذه الفكرة لم تكن فكرتي، ولكن ذلك لا يمنع أنني كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجربة. هناك فكرة قوية كانت تحاصرني، كنت أقول لنفسي: «لقد خلصت إلى هذه النتيجة: وهي أنك تستطيع أن تصبح من أصحاب الملايين بشرط أن تملك إرادة قوية! وقد برهنت على قوة إرادتك. فهلمَّ برهن هنا أيضاً على أنك قوي الإرادة. إن الروليت تقتضي منك قوة الإرادة أكثر مما تقتضيه فكرتك!». ذلك ما كنت أردده لنفسي. ولما كنت مقتنعاً حتى هذه الساعة بأن المرء في ألعاب المصادفة يستطيع بالهدوء الكامل الذي يتيح له أن يحتفظ بدقة تفكيره، أن يتغلب على المصادفة العمياء، وأن يربح حتماً، فقد كان لا بد لي في ذلك الأوان من أن يزداد حنقي ويشتد حين كنت أراني أفقد هدوئي وأندفع اندفاع صبي صغير. «أنا الذي استطعت أن أتحمل الجوع، كيف أعجز عن تحمل نفسي في أمر تافه هذه التفاهة؟» ذلك ما كان يغيظني. أضف إلى ذلك أن شعوري بأنني أملك في قرارة نفسي، مهما أبدو للناس مضحكاً وحقيراً، كنزاً من قوة سيجبرهم على أن يغيروا حكمهم عليَّ في ذات يوم، أقول إن هذا الشعور ـ الذي لازمني منذ سنيّ طفولتي الذليلة ـ كان في ذلك الحين هو النبع الوحيد الذي يروي حياتي، وكان ضيائي، وكان تراثي وكان سلاحي وكان عزائي، ولولا ذلك لانتحرت منذ أن

Twitter: @ketab_n

كنت طفلاً. فهل كان في وسعي ألا أغضب من نفسي حين أرى المخلوق التافه الذي كنت أصير إليه أمام مائدة القمار؟ ذلك هو السبب في أنني أرى اليوم هذا رؤية واضحة. وعدا هذا السبب الرئيسي، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً: كانت الخسارة في القمار تخفض قدري في نظر الأمير، وتخفض قدري في نظر فرسيلوف، (وإن يكن فرسيلوف لم يتنازل يوماً فيقول شيئاً عن هذا) وتخفض قدري في نظر الجميع، حتى في نظر تاتيانا بافلوفنا ـ ذلك ما كان يتراءى لي على الأقل، ذلك ما كنت أحسه. وهناك أخيراً اعتراف يجب أن أدلي به: كنت قد فسدت. أصبح صعباً عليَّ أن أتخلى عن عشائي المؤلف من سبعة أطباق في المطعم، وأن أتخلى عن ماتفي، وعن المتجر الإنجليزي، وعن رأي بائع العطور الذي أشتري منه عطوري، أصبح صعباً عليَّ أن أتخلى عن هذا كله. ولقد وعيت هذا حينذاك، لكنني أغمضت عينيَّ. والآن حين أدوِّن هذه الحقائق إنما أحمر منها خجلاً.

3

دخلت وحيداً ووجدتني في جمهور غريب، فجلست أول الأمر إلى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صغيرة. ولبثت على هذه الحال ساعتين لا أتحرك. ساعتين راكدتين ركوداً رهيباً: فلا حظَّ ولا سوء حظ. وأفلتت مني فرص رائعة، فحاولت ألا أغضب، وأن أنتصر بهدوئي وثقتي. وكان حاصل الحساب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم أخسر. فالثلاثمائة روبل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبلات أو خمسة عشر روبلا. وأحنقتني هذه النتيجة التافهة، وحدثت لي عدا ذلك حادثة زادتني حنقاً. إنني

Twitter: @ketab_n

أعلم أن المرء يلقى حول موائد الروليت هذه لصوصاً، لصوصاً لم يجيئوا من الشارع ليسرقوا، ولكنهم من بين المقامرين المعروفين. فأنا مقتنع مثلاً بأن المقامر الشهير آفردوف سارق. وهو يظهر في المدينة شامخ الأنف. وقد رأيته منذ مدة قصيرة مع فرسين. ولكن هذا لا ينفي أنه سارق، وأنه سرقني. على أن لهذه الحادثة حديثاً سيجيء حينه فيما بعد. أما ذلك المساء فلم يكن إلا مقدمة: لقد ظللت طوال تينك الساعتين جالساً إلى ركن من المائدة، وكان إلى يساري مفزور صغير، أنيق الهندام، أظن أنه يهودي، هو عضو في جماعة لا أدري ما هي، كما أنه يكتب ويُنشر له ما يكتب. كنت قد ربحت في آخر لحظة عشرين روبلاً على حين فجأة: فكانت أمامي ورقتان حمراوان، فإذا أنا أرى اليهودي الصغير يمد يده ويجذب إليه إحدى الورقتين بأكبر هدوء ممكن. فهممت أن أوقفه، ولكن ها هو ذا يعلن لي بلهجة وقحة وبدون أن يرفع صوته أن هذا ربحه هو، فقد حظّ وربح. حتى أنه لم يشأ أن يتابع الحديث معي، بل أدار لي ظهره. وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن أكون عندئذ في أشد حالاتي النفسية حماقة، إذ كنت قد تصورت فكرة كبيرة. فلم أزد على أن بصقت، ثم نهضت بسرعة وانصرفت، دون أن أناقش، مهدياً إليه ورقتي النقدية الحمراء. وكان من الصعب على كل حال أن أسوِّي الأمر مع وغد حقير مثله، فقد فعل فعلته وانقضى وقت، واستمر اللعب. لكن سكوتي كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائج وبيلة: فإن ثلاثة أو أربعة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة، ورأوا تراجعي السريع فلا بد أنهم اعتقدوا أنني غشاش. وكان الليل قد انتصف. مضيت إلى الغرفة المجاورة، ووضعت خطة جديدة، ثم رجعت فبدَّلت أوراقي النقدية من البنك

Twitter: @ketab_n

قطعاً ذهبية. فأصبح بين يديَّ أكثر من أربعين قطعة جعلتها عشرة أقسام وقررت أن أحط عشر مرات متتالية على «الصفر»، أي أربعة أنصاف من الليرات الإمبراطورية في كل مرة، حطةً بعد أخرى، قائلاً لنفسي: «إن ربحت كان هذا حظي وإن خسرت فهذا أفضل: فلن ألعب بعد اليوم أبداً». يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرةً واحدة، حتى ما عاد يحط أحد عليه.

كنت ألعب واقفاً، صامتاً، مقطباً حاجبيَّ كازاً أسناني. وهذا زرشتشيكوف يعلن في المرة الثالثة بصوت عال عن خروج «الصفر» بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة. فنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الإمبراطورية الذهبية. بقيت لي سبع حطات. واستمررت، وكان كل شيء في أثناء ذلك يضطرب من حولي ويتراقص.

ـ تعال إلى هنا، تعال إلى هنا، فهنا هنا الحظ!

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقربه قبل لحظة، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدي رداء رسمياً، وكان يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر في كل مرة، فيصبر صبراً لا يمكن وصفه. فصاح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألني بدهشة فيها تهديد:

ـ أإياي تنادي؟

فقلت:

ـ نعم، إياك أنادي، فهناك ستخسر كل شيء!

فقال:

ـ هذا ليس شأنك. دعني ولا تزعجني!

ولكنني كنت قد فقدت سيطرتي على نفسي. وكان يجلس أمامي

Twitter: @ketab_n

في الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن، فلما رأى حطتي على الصفر، دمدم يقول لجاره:

ـ غريب: الصفر. لا، لا، لن أحط على الصفر أبداً.

فصحت أقول له وأنا أحط مرةً أخرى:

ـ بل تجرأ يا كولونيل!

فانبرى يقول لي بعنف:

ـ أرجو ألا تزعجني أيضاً. لست في حاجة إلى نصائحك. إنك تحدث صخباً كثيراً هنا.

ـ إنني أسدي نصيحة حسنة. هل تريد أن تراهن على أن الصفر الذي سيطلع في هذه المرة أيضاً؟ أتراهن على عشر قطع ذهبية؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات إمبراطورية ذهبية. فقال لي بلهجة خشنة قاسية:

ـ عشر قطع ذهبية؟ أراهن؟ مستعد! أراهن على أن الصفر لن يطلع هذه المرة!

ـ عشرة دنانير لويس يا كولونيل!

ـ ما عشرة دنانير لويس؟

ـ أي عشرة أنصاف ليرات ذهبية، وهي تسمى في اللغة النبيلة عشرة دنانير لويس.

ـ قل إذن عشرة أنصاف ليرات إمبراطورية، ولا تمزح معي!

ولم أكن آمل أن أربح الرهان طبعاً: فإن حظ الصفر في الطلوع لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وثلاثين حظاً. ولكنني إنما عرضت هذا الرهان أولاً من أجل أن «أثير الدهشة» وثانياً من أجل أن أجتذب إليَّ مودة الآخرين. كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحبني وأنهم يجدون لذة في إشعاري بذلك. وأخذت الروليت

Twitter: @ketab_n

تدور، فما كان أشد ذهول الجميع حين طلع «الصفر» مرة أخرى! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة. وذهبت نشوة الانتصار بصوابي! ونُقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الإمبراطورية الذهبية. وسألني زرشتشيكوف ألا أريد أن أقبض جزءاً من المبلغ أوراقاً نقدية، فأجبته بغمغمة غير مفهومة، لأنني أصبحت عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح. كان رأسي يدور، وكانت ساقاي تصطكان. وأحسست فجأة بأنني سأتعرض الآن لخطر رهيب. وكنت أرغب في أن أقوم بعمل آخر، أن أعرض رهاناً جديداً، أن أنقد أحداً آلاف الروبلات. لممت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدي دون وعي، ولم أستطع أن أعدَّها. وفي تلك اللحظة لاحظت الأمير ودارزان ورائي فجأة، وكانا آتيين من لعب البكاراه بعد أن خسرا هنالك كل شيء كما علمت ذلك فيما بعد.

صحت أقول لدارزان:

ـ هيه دارزان! هنا حظك! حطَّ على الصفر.

فأجابني قائلاً بخشونة:

ـ خسرت كل شيء فليس معي مال.

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئاً، وبأنه لم يعرفني. فصحت أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي:

ـ إليك المال، فخذ ما شئت. كم تريد؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمراراً شديداً:

ـ غريب أمرك. أنا لم أطلب منك شيئاً فيما أظن!

وقال لي زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي:

ـ هناك من يناديك.

كان الكولونيل قد ناداني عدة مرات، وكاد يشفع نداءاته بشتائم،

Twitter: @ketab_n

منذ خسر رهاني معه على عشرة أنصاف الليرات الإمبراطورية. وها هو ذا يقول لي وقد تخضب وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب:

ـ خذ! لست مضطراً أن أنتظرك! سوف تقول عني أنني لم أدفع الرهان. هيّا عدّها.

ـ أصدِّقك يا كولونيل، أصدِّقك، أصدِّقك بدون أن أعد. لكنني أرجوك ألا تصرخ غاضباً مني، أرجوك ألا تزعل.

ولممت كدسة ذهبية بيدي. فصرخ الكولونيل يقول لي بعنف:

ـ أيها السيد العزيز، أرجو أن تتجه بحماستك هذه إلى غيري، فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام، وليس بيني وبينك سابق علاقة.

وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت:

ـ إنه لأمر غريب أن يُسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطراز! من هذا؟ فتى صغير؟

ولكنني لم أكن أصغي، وطفقت أحط بغير روية، ولكنني لا أحط على الصفر، وجعلت حطاتي أعداداً من أوراق مالية.

قال الأمير ورائي:

ـ هيَّا بنا ننصرف يا دارزان!

فقلت وأنا ألتفت إليهما:

ـ إلى البيت؟ انتظراني فننصرف معاً. انتهيت.

لقد ربحت. فكان ربحي ضخماً. فصرخت أقول:

ـ كفى!

وبيدين مرتعشتين لممت الذهب وسكبته في جيوبي دون أن أعده، وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعي أريد أن أدسها جميعاً في جيب جانبي من سترتي، فإذا بيد سمينة

Twitter: @ketab_n

يزينها خاتم، هي يد آفردوف الذي كان إلى يميني وكان قد حطَّ مبالغ ضخمة، إذا بيده تطبق على ثلاث من أوراقي وتغطيها براحتها. وقال يخاطبني بخشونة مقطعاً كلماته مرققاً صوته:

ـ إسمح لي، هذه ليست لك!

كانت هذه هي المقدمة التي تحملت نتائجها الرهيبة بعد بضعة أيام. إني لأقسم اليوم بشرفي أن تلك الأوراق الثلاث (وهي من فئة المائة روبل) كانت لي، ولكن شاء سوء حظي أن ظلاً من شك قد ساورني حينئذ رغم اقتناعي الكامل، وذلك شيء له خطورته عند من يحرص على أن يكون إنساناً شريفاً، وأنا إنسان شريف، ولا سيما أنني كنت ألا أعلم في ذلك الحين علم اليقين أن آفردوف لص، بل كنت أجهل حتى اسمه، فلم يكن في وسعي أن أصدق حقاً أنني لست مخطئاً وأن هذه الأوراق الثلاث ليست لي. ولقد كنت طوال السهرة لا أعد كدسة أموالي، بل أقتصر على لمها بيدي، أما آفردوف فكان يرتب ماله أمامه معدوداً محسوباً بجانب مالي. وكان آفردوف عدا ذلك معروفاً في هذا البيت، وكانوا يعدونه هنالك رجلاً واسع الثراء، وكانوا يعاملونه باحترام: فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته علي، فإذا أنا أسلِّم مرةً أخرى بغير اعتراض. يا للغلطة الفظيعة! وأنكى ما في الأمر كله أنني كنت في حماسة شديدة. فلم أزد على أن قلت مرتعش الشفتين من الاستياء:

ـ يؤسفني أنني لا أتذكر تذكراً دقيقاً، ولكن يخيَّل إليَّ أن هذه الأوراق لي أنا.

فسرعان ما أثارت كلماتي هذه دمدمات تذمر. وقال آفردوف بلهجة فيها استعلاء لا يطاق:

Twitter: @ketab_n

ـ لكي يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون «واثقاً»، وأنت تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً.

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة:

ـ من هذا الفتى؟ كيف يُسمح بمثل هذه الأمور؟

وارتفع صوت يقول بجانبي:

ـ ما هذه أول مرة. فمنذ قليل أراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة عشر روبلات من مال رخبرج.

فصحت أقول:

ـ طيب، كفى، كفى! لست أعترض. خذ ما تشاء! يا أمير... ولكن أين الأمير ودارزان؟ انصرفا؟ يا سادة، ألم تروا من أي جهة خرج الأمير ودارزان؟

ولممت أخيراً مالي كله. وبدون أن أتريث لأدس في أحد جيوبي عدداً من أنصاف الليرات الإمبراطورية كان بيدي، اندفعت ألاحق الأمير ودارزان. إن القارىء يرى الآن رؤية واضحة أنني لا أستر عيوبي، وأنني أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالي في تلك اللحظة، وكيف كنت أحمق غاية الحماقة، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك.

كان الأمير ودارزان قد بلغا أسفل السلم، ولم يوليا ندائي وصيحاتي أيَّ انتباه. وقد وصلت إليهما، لكنني تلبثت لحظةً أمام البواب السويسري فدسست في يده ثلاثة أنصاف من الليرات الإمبراطورية، لا أدري لماذا! فنظر إليَّ البواب متحيِّراً، حتى أنه لم يشكرني، ولكنني لم أكترث بذلك؛ ولو كان ماتفي هناك، إذن لناولته قبضةً من القطع الذهبية حتماً، فإنني كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً، ولكن ما إن وضعت قدمي على درج الباب حتى

Twitter: @ketab_n

تذكرت فجأةً أنني صرفت ماتفي. وفي تلك اللحظة كانت عربة الأمير تتقدم نحو الباب، فركبها الأمير، فصحت أقول وأنا أمسك واقي العربة وأرفعه لأجلس بجانبه:

ـ أنا آت معك يا أمير!

ولكن دارزان مرَّ أمامي فجأة، فوثب يركب العربة؛ وانتزع مني الحوذي الواقي فغطى به سيِّديه، فصحت أقول خارجاً عن طوري:

ـ يا للشيطان!

لكأنني ما رفعت الواقي إلا ليركب دارزان، مثلما يفعل خادم. وصاح الأمير يهيب بالحوذي قائلاً:

ـ إلى البيت!

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة:

ـ قف!

ولكن الحصان جرَّ العربة، فتدحرجت على الأرض. ثم لم ألبث أن نهضت، ووثبت أركب أول عربة رأيتها، وطرت إلى منزل الأمير وأنا أستحث الحوذي في كل لحظة، فأنهك الحصان المسكين.

4

الحصان يجري بطيئاً كأنما ليزيد من حنقي، والحوذي لا يبرح يضربه بسوطه لأنني وعدته بروبل مكافأة. وقلبي يخفق خفقاناً شديداً. أخذت أكلم الحوذي، ولكن الكلمات لا تخرج من فمي، فكنت أتمتم تمتمةً بسخافات لا أدري ما هي. تلك كانت حالي حين هرعت إلى الأمير. وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان إلى بيته. فهو الآن وحيد، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة. يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر في القمار كثيراً. وها

Twitter: @ketab_n

هوذا ينظر إليَّ في حيرة وذهول، ثم يقول مقطباً حاجبيه:

ـ أأنت أيضاً؟

فقلت وأنا أختنق:

ـ جئت لأنهي صلتي بك. كيف تجرأت أن تعاملني هذه المعاملة؟

فرشقني بنظرة مستفهمة. قلت:

ـ إذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان، فما كان عليك إلا أن تقول لي أنك ستصطحب دارزان، ولكنك أجريت الحصان، فإذا بي...

ـ آ... نعم... أظن أنك وقعت أنت في الثلج.

قال ذلك وطفق يضحك. قلت:

ـ هذه أمور يكون الرد عليها بدعوة إلى مبارزة، ولذلك سنصفي أولاً حساباتنا...

واستللت أموالي بيد مرتعشة، فوضعت بعضها على الديوان، وبعضها على المنضدة الرخامية، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح، وكنت أتناولها بقبضة يدي ملأى، وألقيها حزماً وأكداساً، حتى لقد تدحرجت قطع ذهبية كثيرة على السجادة. قال:

ـ ها... نعم... أظن أنك ربحت كثيراً؟ يدرك المرء ذلك من لهجة كلامك.

إنه لم يكلمني بمثل هذه الوقاحة في يوم من الأيام وكان وجهي شاحباً شحوباً شديداً.

ـ يوجد هنا... لا أدري كم يوجد... يجب أن نعد... إنني مدين لك بثلاثة آلاف... أم ماذا؟ أأكثر أم أقل؟

ـ أظن أنني لا أجبرك على أن تدفع لي شيئاً.

Twitter: @ketab_n

ـ بل أنا الذي أريد ذلك. ولا بد أنك تعرف لماذا. خذ!

وطفقت أعد المال بيد مرتجفة، ولكنني ما لبثت أن عدلت عن العد، قائلاً له:

ـ لا يهمني أن أعرف المجموع معرفة دقيقة. أنا أعرف أن ههنا ألف روبل. فسآخذ هذه الألف لنفسي، وخذ أنت الباقي كله، خذ هذه الأكداس جميعها، سداداً لدينك عليَّ أو لبعض دينك عليَّ: أظن أن الباقي يبلغ نحو ألفي روبل وقد يزيد.

قال الأمير مبتسماً:

ـ وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك؟

ـ أأنت في حاجة إليها؟ إذن... أعطيك إياها... كنت أظن أنك قد لا تريد أن... ولكن خذها إذا وجب أن تأخذها...

ـ لا، لا أريد.

قال ذلك وأشاح عني باحتقار، وعاد يذرع الغرفة ذاهباً آيباً. ثم التفت إليَّ فجأة وقد لاحت في وجهه معاني التحدي والاستفزاز:

ـ ولكن ما الذي جعلك تفكر في سداد ديونك؟

فزأرت أقول أنا أيضاً:

ـ إنما أرد إليك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت!

ـ اذهب إلى الشيطان أنت وألفاظك الضخمة وإشاراتك الأبدية!

وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره، وأضاف يقول:

ـ إنني أريد منذ مدة طويلة أن أطردكما كليكما أنت وصاحبك فرسيلوف.

صرخت أقول:

ـ هل جُننت؟

وكان كمن جُنَّ فعلاً. وتابع كلامه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ لقد عذبتمانا تعذيباً رهيباً بجملكما المتفخمة. دائماً جمل، جمل، جمل! فيما يتعلق بالشرف مثلاً! أف! إنني أريد منذ مدة طويلة أن أقطع صلتي بكما. ويسرني، يسرني أنه آن الأوان. كنت أظن أنني مرتبط، وكنت أحمرّ خجلاً من أنني مضطر أن أستقبلكما... كليكما! أما الآن فأرى أنني غير مرتبط بشيء، غير مرتبط بشيء، ألا فاعلم ذلك! لطالما حضني صاحبك فرسيلوف على أن أهاجم آخماكوفا، وأن ألطخ شرفها بالعار... لا تتكلما عن الشرف بعد اليوم عندي أبداً! كلاكما غير شريف، كلاكما غير شريف! وأنت، ألم تستح أن تأخذ مالي؟

زاغ بصري. وقلت متمتماً برفق:

ـ أنا اقترضت منك كما يقترض رفيق من رفيقه. وأنت الذي عرضت عليَّ أن تقرضني فصدَّقت حسن نياتك...

ـ ما أنا رفيقك! لقد أعطيتك مالاً، ولكن لغير هذا الغرض. أنت تعلم لماذا أعطيتك.

ـ أعطيتني من حساب فرسيلوف. وذلك غباء طبعاً، ولكن...

ـ لم يكن في إمكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون إذنه، ولا كان في إمكاني أن أعطيك ماله بغير إذنه... فأنا إنما أعطيتك من مالي، وكنت أنت تعرف ذلك. كنت تعرفه وكنت ترضاه. ولشد ما قاسيت أنا في بيتي من تمثيل هذه المسرحية الكريهة.

ـ ما الذي كنت أعرفه؟ عن أية مسرحية تتكلم؟ ولماذا كنت تعطيني إذن؟

ـ لجمال عينيك يا ابن عمي!.

قال هذه الجملة الساخرة بالفرنسية. وطفق يضحك أمامي. فصرخت معولاً أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ إذهب إلى الشيطان! خذ كل شيء. إليك هذه الألف أيضاً! ها قد سددت ديني كله الآن، وغداً...

ورميت له كدسة الأوراق المالية التي كنت قد احتفظت بها لنفسي، فسقطت على صديرته، وتدحرجت إلى الأرض. فإذا هو يتقدم مني ثلاث خطوات سريعة واسعة، ويقول لي بغتةً بلهجة وحشية وكلمات مقطَّعة:

ـ هل تجرؤ أن تدَّعي أنك حين كنت تأخذ مني المال طوال هذا الشهر، كنت تجهل أن أختك حبلى مني؟

ـ ماذا؟ كيف؟

كذلك هتفت أسأله. وارتخت ساقاي فأصبحتا لا تستطيعان حملي فتهاويت على الديوان خائر القوى.

لقد ذكر لي هو نفسه فيما بعد أن وجهي اصفر اصفراراً شديداً يشبه أن يكون بياضاً كبياض منديل.

اضطرب ذهني. وأذكر أن كلاً منا قد حَدَّق إلى عينَيْ صاحبه صامتاً. وألمَّ بوجهه هو نوع من ذعر. ومال عليَّ فجأة، فأمسكني من كتفيَّ يسندني. إني أتذكر ابتسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح. لقد قرأت فيها معاني الشك والدهشة. نعم! لم يكن يتوقع لكلماته أن تحدث في نفسي هذا الأثر، لأنه كان موقناً بأنني على علم بالأمر، وبأنني كنت آثماً.

وأُغمي علي أخيراً، غير أن الإغماء لم يدم إلا دقيقة واحدة. فلما أفقت وقفت على قدمَيّ ونظرت إليه وفهمت. لقد انكشفت الحقيقة فجأة لفكري الذي طال نومه! لو قد حكى لي الأمر من قبل وسئلت ما عساني صانعاً بالرجل، إذن لأجبت حتماً بأنني سأمزقه تمزيقاً. ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً، وقد حدث بغير إرادتي

Twitter: @ketab_n

أبداً: فإنني لم ألبث أن دفنت وجهي بيديَّ فجأةً، وأخذت أذرف دموعاً حارة مُرَّة. ذلك ما حدث. لقد انبعث الطفل الصغير في الرجل الشاب. معنى ذلك أن الطفل الصغير كان لا يزال حياً في نفسي، وتهالكت على الديوان وطفقت أنشج منتحباً: «ليزا! ليزا! ليزا المسكينة!».

وعندئذ صدَّقني الأمير تصديقاً تاماً. فهتف يقول بحزن عميق:

ـ آه! ما أكبر الذنب الذي ارتكبته في حقك! ما أبشع الأشياء التي تصورتها عنك! سامحني يا آركادي ماكاروفش!

فانتفضت، وأردت أن أقول له شيئاً، وتسمرت أمامه، ولكن دون أن أنطق بكلمة، ثم لم ألبث أن ولَّيت هارباً من الغرفة ومن البيت.

رجعت إلى مسكني سائراً على القدمين، ولا أكاد أتذكر كيف وصلت. ارتميت على سريري، مكباً بوجهي على الوسادة في الظلام، ورحت أفكر وأفكر. إن الأفكار في مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقةً منسجمة أبداً، ويكون الفكر والخيال كأنهما معلقان بخيط يترجّح ويتراقص. أذكر أنني أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه، بل بأشياء لا يعلم إلا الله ما الذي جعلها تخطر ببالي! ولكن حزني وشقائي ما يلبثان أن يدركاني مؤلمين موجعين، فأعقف يديَّ كمداً، وأصيح قائلاً: «ليزا! ليزا!»، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة. لا أدري كيف نمت ولكنني نمت نوماً عميقاً هادئاً.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

1

استيقظت في نحو الساعة الثامنة من الصباح، فسارعت أقفل بابي بالمفتاح فوراً، وجلست أمام النافذة، وعدت أحلم من جديد. وبقيت على هذه الحال حتى الساعة العاشرة. وقد قرعت الخادمة الباب مرتين، لكنني طردتها. وبعد الساعة العاشرة قُرع الباب مرةً أخرى، فأوشكت أن أصرخ أيضاً، لولا أن عرفت أنها ليزا. وقد دخلت الخادمة معها: جاءتني بقهوتي، واستعدت لإشعال المدفأة. فكان يستحيل أن أطردها. فكنت طوال الوقت الذي قضته في وضع الحطب وإشعال النار أذرع غرفتي الصغيرة بخطى واسعة، دون أن أشرع في الحديث، متحاشياً أن أنظر إلى ليزا. وكانت الخادمة تعمل ببطء شديد، وتتعمد هذا البطء تعمداً، كما تفعل جميع الخادمات في مثل هذه الحالة، حين يلاحظن أن أسيادهم متحرجون من الكلام بحضورهن. وكانت ليزا جالسةً على المائدة أمام النافذة تتابعني بنظرها. فقالت فجأة:

ـ توشك قهوتك أن تبرد.

فنظرت إليها. لم أر في وجهها أثراً لاضطراب، فوجهها هادىء هدوءً تاماً، حتى أن ابتسامة كانت تلم بشفتيها.

قلت محدثاً نفسي وأنا أرفع كتفي: هذه هي النساء!

Twitter: @ketab_n

وانتهت الخادمة أخيراً من إشعال المدفأة، وشرعت في تنظيف الغرفة وترتيبها. ولكنني طردتها طرداً صارماً، وأقفلت الباب بالمفتاح من جديد.

سألتني ليزا:

ـ قل لي، من فضلك، لماذا أغلقت الباب ثانيةً؟

فتسمرت أمامها، وهتفت أقول فجأة دون أن يكون قد خطر ببالي أن تكون هذه بداية كلامي:

ـ ليزا، كيف أمكن أن تظني أنك ستظلين تخدعينني؟

لم أذرف في هذه المرة دموعاً، وإنما اجتاحت قلبي عاطفة تشبه أن تكون شراً، حتى إنني لم أكن أتوقع ذلك أنا نفسي. فاحمرت ليزا ولكنها لم تجب، وإنما ظلت تحدق إلى عينيَّ.

ـ انتظري يا ليزا، انتظري! آه... ما أغباني! ولكن هل كنت غبياً إلى هذا الحد من الغباوة حقاً؟ إن التلميحات كلها لم تتجمع حزمةً واحدة إلا بالأمس، أما قبل ذلك فكيف كان يمكنني أن أحزر؟ أكان يمكنني أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين إلى ستولبيافا أو إلى... داريا أونيسيموفنا هذه؟ لقد كنت أعدُّك شمساً يا ليزا، فكيف كان يمكن أن يخطر ببالي...؟ إنك تتذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده، وكيف مضينا نتنزه في الشمس معاً، وكيف سررنا أعظم السرور. هل كانت الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين؟

فأومأت ليزا برأسها لتقول نعم.

ـ إذن كنت تخدعينني منذ ذلك الحين يا ليزا! لا، يا ليزا، لم يكن ذلك مني غباءً، بل كان أنانية. ليس الغباء هو المسؤول، وإنما أعمتني الأنانية، وأعمتني ثقتي الكبيرة بقداستك. كنت لا

Twitter: @ketab_n

أنظر إلا في نفسي. وعلام أنظر فيكم أنتم؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً، وكنت أعدُّكم أعلى مني كثيراً! وأمس، في البيت، لم يستطع سلوككم الغريب أن يزيل الغشاوة عن بصري، وكنت عدا ذلك مشغول البال بأمور أخرى، فلم أستطع أن أدرك شيئاً، رغم جميع الإشارات والتلميحات.

وتذكرت في تلك اللحظة كاترينا نيقولايفنا فجأة. فأحسست مرةً أخرى بألم يشبه أن يكون وخز إبرة في القلب، واحمر وجهي احمراراً شديداً. فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طيباً.

قالت ليزا بصوت رقيق لكنه جازم:

ـ ولكن عمَّ تعتذر يا أركادي؟ يبدو لي أنك تحاول أن تعتذر عن شيء، أن تبرىء نفسك من شيء، ولكن عمَّ تعتذر؟ مم تبرىء نفسك؟

ـ ما الذي يجب عليَّ أن أفعله الآن؟ لو لم يكن ثمة إلا هذا السؤال لكفى. فكيف تقولين ممَّ تبرىء نفسك؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف أتصرف! لست أعلم ماذا يفعل الإخوة في مثل هذه الحالة... أعلم أن منهم من يجبر الجاني على الزواج مشهراً عليه المسدس... ولسوف أتصرف كما يجب أن يتصرف رجل شريف. لكنني أجهل كيف ينبغي أن يتصرف رجل شريف! لماذا؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء. إنه أمير. وهو يصنع حياته ويهيىء مستقبله، فلن يرضى حتى أن يصغي إلينا نحن الشرفاء. وأنا وأنت لسنا أخاً وأختاً، وإنما نحن ولدا زنا بغير اسم، نحن من أولاد الأقنان. هل يتزوج الأمراء بنات أقنان؟ آه... يا للعار! وتظلين تنظرين إليَّ وتُدهشين؟...

فاحمرت ليزا من جديد، وقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ أظن أنك معذب، ولكنك تتسرع كثيراً وتؤذي نفسك...

ـ أتسرع؟ أفي رأيك إذن أنني لم أتأخر؟ أأنت تقولين هذا الكلام يا ليزا؟ (أخيراً نشط خيالي). ما أكثر ما تكدس عليَّ من عار مع ذلك، وما أشد الاحتقار الذي لا بد أن هذا الأمير قد حمله لي! آه... الآن أصبح كل شيء واضحاً. الآن أصبحت اللوحة كلها ماثلة أمامي: لقد تصور أنني عرفت صلته بك منذ مدة طويلة، ولكنني سكتّ عليها، أو حتى شمخت بأنفي تباهياً «بالشرف» العظيم ـ ذلك ما تصوره عني. وتصور أنني كنت آخذ ماله في مقابل أختي، تصوَّر أنني كنت آخذ ماله ثمناً لعرض أختي. وذلك ما كان يشمئز منه. وإني لأعذره، أعذره كل العذر: فليس غريباً أن يضيق ذرعاً بمخلوق دنيء يُضطر أن يلقاه مرةً بعد مرة كل يوم لا لشيء إلا أنه «أخوها»، وأن يسمعه ـ فوق ذلك ـ متحدثاً عن الشرف... ذلك خليق بأن يجعل قلب المرء يقسو، أن يقسُو حتى قلب رجل مثله! وقد ارتضيت أنت هذا كله، ولم تنبهيني! لقد بلغ من شدة احتقاره لي أنه كان يحدث عني ستيبلكوف، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس إنه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلينا أنا وفرسيلوف. وهذا إذن ما جعل ستيبلكوف يقول: «إن آنا آندرييفنا أختك مثل أليزابت ماكاروفنا سواء بسواء»، حتى لقد صرخ يقول ورائي: «مالي أنا أفضل». وكنت أنا أستلقي في بيت الأمير على دواوينه مسترخياً، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيراً! وسمحت أنت بهذا كله! ولا شك أن دارزان نفسه على علم بالأمر الآن، كما تدل على ذلك لهجته في مساء أمس... جميع الناس عارفون بالأمر، جميعهم عارفون به، إلا أنا!...

قاطعتني ليزا تقول:

Twitter: @ketab_n

ـ لا أحد يعرف. إنه لم يتحدث إلى أحد من أصدقائه، إنه لم يستطع أن يتحدث إلى أحد منهم. أما ستيبلكوف هذا، فأنا أعرف أنه يعذبه، وأن ستيبلكوف قد استطاع أن يشتبه اشتباهاً في أكثر تقدير... أما أنت فقد كلمته عنك مراراً، وصدَّق ما قلته له تصديقاً كاملاً... لقد قلت له إنك تجهل كل شيء، ولكنني لا أدري لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس.

ـ الحمد لله على أنني دفعت له دينه أمس، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذي يجثم على قلبي! ليزا، هل ماما على علم بالأمر؟ ولكن كيف لا تكون على علم به. إنها بالأمس ثارت عليَّ! آه يا ليزا! ولكن هل يمكن أن تعتقدي بأنك على حق؟ ألا تتهمين نفسك بشيء؟ إنني لا أدري كيف يُحكم على هذه الأمور اليوم، ولا أدري ما هي آراؤك، أقصد ما هي آراؤك فيَّ، في أمك، في أخيك، في أبيك! هل فرسيلوف على علم؟

ـ لم تقل له ماما شيئاً. وهو لا يسأل عن شيء. لا شك أنه لا يريد أن يسأل.

ـ يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم. هذا هو الأمر. ذلك في طبيعته. طيب، وفي وسعك أن تسخري من أخيك، من أخيك الغبي، إذا هو تكلم عن مسدسات، ولكن هلا فكرت في أمك؟ ألم تحدثك نفسك أبداً يا ليزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك؟ لقد عذبتني هذه الفكرة طوال الليل. إن الفكرة الأولى عند ماما اليوم هي هذه: «لقد أثمت إبنتي لأنني أثمت أنا أيضاً. هل تلد الحية إلا الحية؟».

ما أن سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها، وهتفت تقول:

ـ آه ما أقسى هذا الذي تقوله وما أسوأه!

Twitter: @ketab_n

ثم نهضت وسارت مسرعةً نحو الباب، فقلت لها:

ـ قفي قفي!

وأمسكتها، وأجلستها من جديد، وجلست بقربها دون أن أسحب يدي. قالت:

ـ كنت أقدِّر، وأنا آتية إلى هنا، أن هذا كله سيحدث، وأنك ستكون في حاجة إلى أن أتهم نفسي حتماً. فاغتبطْ: هأنا ذي أتهم نفسي. إنني لم أصمت حتى الآن ولم أمتنع عن الكلام إلا كبرياءً ولكنني أشفق عليك وعلى ماما أكثر مما أشفق على نفسي...

ولم تكمل ليزا جملتها، وإنما انفجرت تبكي. فقلت لها:

ـ كفى يا ليزا! لا، لست في حاجة إلى شيء. ما أنا لك بالقاضي يا ليزا. ولكن قولي لي: هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة؟

فأجابت ليزا برقة وهي تخفض عينيها:

ـ أظن. ولكنني لم أذكر لها أنا متى وقع «الأمر» إلا منذ زمن قصير.

ـ فماذا كان منها؟

ـ قالت: «احتفظي به».

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة. فقلت لها:

ـ نعم يا ليزا، «إحتفظي به». لا تحاولي أن تصنعي بنفسك شيئاً. حماك الله من مثل ذلك!

قالت بثبات:

ـ لن أفعل شيئاً.

ورفعت بصرها إليَّ من جديد. ثم أضافت تقول:

ـ إطمئن. ليس الأمر هذا!

Twitter: @ketab_n

ـ ليزا، عزيزتي! كل ما أراه هو أنني لا أعلم شيئاً. لكنني علمت الآن أنني أحبك. هناك شيء واحد لا أفهمه يا ليزا: لقد أصبح كل شيء واضحاً لي يا ليزا، ولكنني لن أفهم في يوم من الأيام، فهماً كاملاً، لماذا افتتنت به يا ليزا؟ كيف أمكن أن تحبي رجلاً مثله؟ ذلك هو السؤال.

فأجابت ليزا وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة:

ـ ولا شك أن هذه الفكرة أيضاً قد عذبتك في الليل، أليس كذلك؟

ـ انتظري يا ليزا، هذا سؤال سخيف، وأنت تستهزئين بي. استهزئي بي، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش: أنت و«هو» نقيضان! لقد درست طبعه: إنه رجل قاتم المزاج، كثير الشك، قد يكون طيباً، ولكنه ميال كثيراً إلى رؤية الشر في كل مكان. (هنا على الأقل يشبهني تماماً). وهو يحترم النبل احتراماً شديداً، أعترف بهذا أيضاً وأراه، ولكنني أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المثل الأعلى. وهو ميَّال إلى الندم طول حياته بغير انقطاع، وهو ينحى على نفسه باللائمة دائماً، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضاً يشبهني على كل حال). في رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية، وألف معنى من المعاني الزائفة، ولكن ليس له فكرة واحدة! يسعى إلى المآثر الكبرى، لكنه لا يزيد على أن يُراكم دناءات فوق دناءات. معذرة يا ليزا، إنني أسيء إلى شعورك. والحق أنني غبي: فحين أقول هذا الكلام أجرح عاطفتك، وأعلم أنني أفعل ذلك؛ إنني أفهم هذا...

قالت ليزا مبتسمة:

ـ الصورة التي رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة، ولكنك

Twitter: @ketab_n

مسرف في السخط عليه، لذلك لم يبق فيها شيء من صحة. لقد ارتاب فيك منذ البداية، ولم تستطع أن تراه كاملاً، أما معي أنا فإنه منذ أن كنا في لوجا... إنه لم ير أحداً غيري منذ أن كنا في لوجا... نعم إنه كثير الشك مهيأ للمرض، ولولاي لفقد عقله. ولسوف يفقده إذا هو تركني أو سوف ينتحر.

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجمة مفكرة:

ـ أظن أنه يدرك ذلك ويعرفه.

وتابعت كلامها فقالت:

ـ صحيح أنه ضعيف، ولكن أمثال هؤلاء الضعفاء قادرون أحياناً على أشياء قوية قوة هائلة. ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادي: لا حاجة إلى شيء من هذا البتة، وأنا أعرف ما سوف يحدث. لست أنا التي ألاحقه وأطارده، بل هو الذي يجري ورائي. إن ماما تبكي وتقول: «إذا تزوجته فسوف تشقين، لأنه سيكف عن حبك». أما أنا فلا أصدِّق هذا الكلام. قد أشقى، ولكنه لن ينقطع عن حبي. ليس هذا هو السبب الذي حملني على تأخير موافقتي، وإنما هنالك سبب آخر. لبثت شهرين لا أوافقه على الزواج. ولكنني أجبته اليوم قائلة: «نعم، أتزوجك». هل تعلم يا أركادي (هنا سطعت عيناها وطوقت عنقي بذراعيها فجأة) إنه ذهب أمس إلى آنا آندرييفنا، وأبلغها بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع أن يتزوجها؟ نعم، لقد أفصح عن نفسه، وانتهى أمر تلك الفكرة الآن! وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال، وإنما كان ذلك حلم الأمير نيقولا إيفانوفتش، وكان ذانك الجلادان، ستيبلكوف وشخص آخر، يضغطان عليه ضغطاً شديداً. فكان أن كافأته اليوم بجوابي: «نعم، أتزوجك». لا تجرحنك قصة الأمس يا

Twitter: @ketab_n

عزيزي أركادي. إنه يدعوك إليه، وهو اليوم مريض، وسيبقى طول النهار في البيت. حقاً إنه مريض يا أركادي. لا تظنن أن هذا تعلل. لقد أوفدني إليك خصيصاً ورجاني أن أقول لك إنه «محتاج» إليك، وإن في نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك، وإن هذه الأشياء لو قالها لك هنا في مسكنك هذا لكانت في غير محلها. هيَّا، إلى اللقاء! آه يا أركادي، إنني أستحي أن أقول لك هذه الحقيقة، وهي أنني في طريقي إليك كنت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك لي قد زال. فكنت أرسم إشارة الصليب طوال الطريق. ولكنني أحمد الله على أنك طيب جداً، ولطيف جداً! لن أنسى هذا في حياتي. أنا ذاهبة إلى ماما. حاول أن تحبه قليلاً، هه؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها:

ـ أعتقد يا ليزا أنك قوية الإرادة. نعم، أصدِّق أنك لست أنت التي تجرين وراءه، بل هو الذي يجري وراءك. ولكن، رغم كل شيء...

فقالت ليزا تكمل جملتي:

ـ ولكن رغم كل شيء، «لماذا افتتنت به؟ هذا هو السؤال».

قالت هذه الجملة وهي تضحك ضحكة ماكرة كما فعلت من قبل، ونطقت بعبارة «هذا هو السؤال» مقلدةً لهجتي تقليداً تاماً، رافعةً إبهامها إلى مستوى عينيها مثلما فعلت أنا.

وتعانقنا، ولكن قلبي انقبض ثانية بعد انصرافها.

2

أريد أن أسجل هذا لنفسي: بعد انصراف ليزا تلاحقت في

Twitter: @ketab_n

خاطري أفكار غريبة كثيرة أورثتني ارتياحاً كبيراً. فكنت أقول لنفسي مثلاً: «لماذا أقحم نفسي في هذه الشؤون؟ فيم يعنيني هذا الأمر؟ إن هذه الأشياء تحدث لجميع الناس، أو لجميعهم تقريباً. وقد حدثت لليزا. فماذا؟ هل عليَّ أن أنقذ شرف الأسرة؟ هل عليَّ أن أمحو عار الأسرة؟». إنني أسجل هذه الخطوات الحقيرة لأبيِّن مدى ما كنت عليه في ذلك الأوان من ترجح في فهم الخير والشر. والعاطفة وحدها هي التي أنقذتني: كنت أعرف أن ليزا شقية، وأن ماما شقية؛ كنت أعرف ذلك بالعاطفة حين أفكر فيهما، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً.

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث، منذ هذا اليوم إلى يوم كارثة مرضي، قد تلاحقت بسرعة تبلغ من الشدة أنني أدهش أنا نفسي ـ حين أفكر فيها اليوم ـ من أنني استطعت أن أصمد، ومن أن القدر لم يسحقني. لقد تعرض عقلي وتعرضت عاطفتي للمخاطر أثناء تلك الأحداث، فلو قد نفدت طاقتي في آخر الأمر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن أرتكبها)، لكان من الممكن جداً أن يبرئني المحلفون. ولكنني سأحاول أن أقص كل شيء بترتيب محكم، رغم أن فكري أثناء تلك الأحداث لم يكن فيه شيء من ترتيب. إني لأنبِّه إلى هذا. لقد هاجمتني الأحداث كعاصفة، فدارت الأفكار في رأسي كأوراق الأشجار اليابسة في أعاصير الخريف. لقد كنت متشبعاً حينذاك بأفكار الآخرين، فأين أجد فكرة نابعة من نفسي فأتخذ قراراً حراً! ولم يكن ثمة من يرشدني.

قررت أن أذهب في المساء إلى الأمير، لأكلمه عن كل شيء بحرية تامة، وإلى أن يحين المساء بقيت في البيت. ولكنني حين حل الغسق تلقيت بالبريد رسالةً جديدة من ستيبلكوف، مؤلفة من

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أسطر، يطلب إليَّ فيها بإلحاح وبلهجة «مقنعة» إلى أبعد حد أن أزوره غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح «لأعمال ذات شأن هام، وسترى بنفسك ما هي». فقررت، بعد تفكير، أن أتصرف وفقاً للظروف، فالغد لا يزال بعيداً.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة. وكان يمكن أن أمضي إلى الأمير منذ مدة طويلة، غير أنني كنت لا أزال أنتظر فرسيلوف: فإن هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبِّر له عنها، وكان قلبي يحترق احتراقاً. ولكن فرسيلوف لم يأتِ، وقد أصبحت لا أستطيع في تلك اللحظة أن أظهر عند أمي وليزا، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار. فخرجت سيراً على القدمين، وفيما أنا في الطريق خطر ببالي أن ألقي نظرة على حانة الأمس التي تقع تحت مستوى الأرض. فوجدت فرسيلوف هناك، في المكان الذي كان فيه البارحة.

قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة، ويحدجني بنظرة عجيبة:

ـ كنت أعرف أنك ستأتي.

كانت ابتسامته خالية من الطيبة، لم أر مثلها في وجهه منذ مدة طويلة.

جلست إلى المائدة، ورويت له من البداية إلى النهاية جميع الوقائع التي تتصل بالأمير وليزا، وقصصت عليه المشهد الذي وقع لي أمس مع الأمير بعد الروليت، ولم أنس أن أذكر له أنني أصبت في القمار ربحاً كبيراً. فأصغى إليَّ بانتباه شديد، وسألني عن القرار الذي اتخذه الأمير بخصوص زواجه من ليزا. وقال:

ـ «يا للطفلة المسكينة»! لعلها لن تجني من هذا ربحاً. ولكن أغلب الظن أن الأمر لن يتم... رغم أن الشاب قادر على أن...

Twitter: @ketab_n

ـ قل لي كما يقول صديق لصديقه: هل كنت تعلم؟ هل كانت نفسك تحدثك بشيء؟

ـ يا صديقي، ماذا كان في وسعي أن أعمل؟ ذلك أمر من أمور العاطفة والوجدان، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل. أكرر لك ما سبق أن قلته: لقد طالما تدخلت في شؤون غيري في الماضي، ثم أقلعت عن هذه الدعوى الخرقاء وصرت ألتزم جانب التحفظ! هذا لا ينفي طبعاً أنني لا أرفض أبداً أن أساعد أحداً إذا ألم به شقاء، أن أساعده في حدود طاقتي، بشرط أن أفهم شيئاً مما يحدث. ولكن قل لي: ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة؟

فقلت وقد اشتعلت نفسي غضباً:

ـ ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت في أنني أعرف علاقة ليزا بالأمير ـ ولو أقلَّ اشتباه ـ ورأيت في الوقت نفسه أنني أقبل أن آخذ من الأمير مالاً، كيف أمكنك أن تتحدث معي، وأن تجالسني، وأن تصافحني، أنا الذي لا بد أنك كنت تعدني شخصاً حقيراً؟ أراهن على أنك كنت تشتبه حتماً في أنني أعرف كل شيء، وأنني كنت آخذ المال من الأمير ثمناً لأختي وأنا عالم بالأمر كل العلم!

قال وهو يبتسم:

ـ أقول لك مرةً أخرى إن هذا شأن من شؤون الوجدان والضمير.

ثم أضاف يقول وقد لاح في وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملغزة:

ـ ومن أدراك أنني كنت لا أخشى ـ كما خشيت أنت، في حالة أخرى ـ أن أفقد مثلي الأعلى، وأن أكتشف في إبني النزق الشريف وغداً حقيراً؟ لقد كنت أخشى هذا، فكنت أؤجل لحظة المعرفة

Twitter: @ketab_n

الأليمة. لماذا لا تفترض فيَّ، بدلاً من الكسل والدناءة، شيئاً أقرب إلى البراءة، بل شيئاً من الغباء أيضاً، والغباء أنبل على كل حال. على أنني كثيراً ما أكون غبياً بغير نبل. بأي حق يمكن أن أكون متشدداً في محاسبة ابني؟ هذا عدا أن إصلاحك بالإكراه لا قيمة له في نظري.

ـ وليزا؟ ألا تشفق عليها؟ ألا ترثي لحالها؟

ـ أشفق عليها كثيراً يا عزيزي. من قال لك إنني خال من الإحساس؟... بالعكس، إنني أحاول بجميع الوسائل... وأنت؟ كيف تسير أمورك «أنت»؟

ـ دعنا من أموري. لم يبق لي «أنا» أمور. اسمع! لماذا تشك في أنه سيتزوجها؟ لقد ذهب أمس إلى آنا آندرييفنا، وأعرب لها عن عدوله إعراباً واضحاً... أقصد عن هذه الفكرة السخيفة... التي قامت في ذهن الأمير نيقولا إيفانوفتش... فكرة أن يزوجهما. لقد عدل عن هذه الفكرة عدولاً صريحاً.

ـ صحيح؟ متى حدث هذا؟ ممن علمته؟

ألقى عليَّ هذه الأسئلة مستطلعاً باهتمام. فحكيت له كل ما كنت أعرفه. فقال واجماً كمن يفكر بينه وبين نفسه:

ـ همْ... إذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة. همْ... نعم... جائز جداً أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما... رغم أن شيئاً لم يُقل ولم يعمل هناك أبداً حتى ذلك اليوم، لا من هذا الجانب ولا من ذاك... أنا أعرف هذا. نعم... حتماً... تكفي كلمتان اثنتان للعرض. ولكن...

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة، وتابع كلامه فقال:

ـ ولكن اسمع... سأذكر لك نبأً خارقاً لا شك أنه سيهمك: لو

Twitter: @ketab_n

أن صاحبك الأمير طلب من آنا آندرييفنا أن يتزوجها (وذلك عرض كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه، لما في ذهني من شبهات عن العلاقة التي بين الأمير وبين ليزا، أقول لك هذا سراً بيني وبينك) لرفضت آنا آندرييفنا طلبه فوراً. على كل حال أظن أنك تحب آنا آندرييفنا كثيراً، وتحترمها، وتقدرها، أليس كذلك؟ هذا لطف كبير منك، ولسوف تبتهج لها إذن: فاعلم يا عزيزي أن آنا آندرييفنا مقبلة على زواج، وإذا صدق ما أعرفه عن طبعها، فإنها ستتزوج حتماً، وسأبارك أنا زواجها طبعاً.

هتفت أقول مدهوشاً:

ـ ستتزوج؟ من الذي ستتزوجه؟

ـ أحزر. هيَّا، لا أريد أن أعذبك. ستتزوج الأمير نيقولا إيفانوفتش، شيخك العزيز.

حملقت. وتابع كلامه يقول بتراخ ووضوح:

ـ من الجائز جداً أن تكون هذه الفكرة قد نبتت في ذهنها منذ مدة طويلة، ولا شك أنها صقلتها صقلاً فنياً على جميع وجوهها، وفي تقديري أن الأمر قد تم بعد زيارة «الأمير سرجي» بساعة تماماً (هذا مثال على غزواته التي تجيء في غير الأوان). لقد جاءت إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش ببساطة وعرضت عليه أن يتزوجها.

ـ كيف؟ هي عرضت عليه أن يتزوجها؟ تقصد: عرض عليها أن يتزوجها؟

ـ هو؟ دعك من هذا! هي التي عرضت عليه، هي! وواقع الأمر الآن أنه ممتلىء حماسة. ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر بباله. ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً، من فرط الحماسة أيضاً... في أغلب الظن.

Twitter: @ketab_n

ـ اسمع... إنك تتكلم بسخرية شديدة. فلا أكاد أصدقك. كيف تعرض عليه أن يتزوجها؟ ماذا قالت له؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جَدٌّ مدهش على حين فجأة:

ـ ثق يا صديقي أنني مبتهج ابتهاجاً صادقاً. صحيح أنه شيخ، ولكن جميع القوانين والعادات تجيز له أن يتزوج. أما عنها هي، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقي. ثم إنها أهل لأن يكون لها رأيها وأن تتخذ قرارها في ما يخصّها. وأما عن التفاصيل، وعن الكلمات التي استعملتها في مخاطبته، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئاً يا صديقي. ولكنها دبَّرت أمرها على كل حال، كما لا نستطيع أن نفعل نحن، لا أنا ولا أنت يا صديقي. وخير ما في المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة، فهو في نظر جميع الناس سليم كل السلامة، هو «كما يجب» جداً. واضح أنها أرادت أن تنشىء لنفسها مركزاً في المجتمع، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز في المجتمع. تلك كلها أمور رائجة في المجتمع. ولا بد أن العرض الذي تقدمت به قد صاغته بعبارات رائعة فاتنة. إن لها طبعاً قاسياً يا صديقي؛ هي راهبة شديدة المراس كما ألقبها بذلك منذ مدة طويلة. لاحظ أنها ربيبته تقريباً، وأنها خبرت طيبته كثيراً. وطالما أكدت لي أنها تحمل له «كثيراً من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة!»، الخ، لذلك كنت شبه متهيىء لتلقي النبأ. هذا كله قد نقله إليّ اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابني آندره آندريفتش، أخوها، الذي لا تعرفه، والذي أراه مرةً واحدة كل ستة أشهر تماماً. وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم.

ـ إذن أذيع النبأ؟ ما أشد دهشتي!

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لم يُذع بعد. . . ولن يذاع إلا بعد مدة. متى؟ لا أدري. على كل حال، أنا لا دخل لي أبداً. ولكن كل ما قلته لك صحيح.

ـ ولكن ما عسى أن يكون موقف كاترينا إيفانوفنا الآن؟ لا شك أن هذا الأمر لن يسر بيورنج!

ـ ذلك ما أجهله. ولكن ممَّ يمكن ألا يسر؟ صدقني على كل حال أن آنا آندرييفنا سوف تعرف كيف تحسن التصرف في هذا المجال أيضاً. يا لآنا آندرييفنا هذه! لقد سألتني في صباح أمس هل أحب السيدة آخماكوفا. هل تتذكر؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً: ألا يمكنها أن تتزوج الأب إذا تزوجت أنا البنت؟ هل تفهم الآن؟

هتفت أقول:

ـ آ. . . فعلاً. ولكن هل يخطر ببال آنا آندرييفنا حقاً أنك يمكن أن تريد تزوج كاترينا نيقولايفنا؟

ـ طبعاً يا صديقي. على كل حال، على كل حال، آن الأوان لأن تذهب إلى حيث كنت تريد أن تذهب. إنني أشعر بألم في رأسي. سوف أطلب أن تُعزف «لوسيا». أحب عظمة الضجر والسأم. أظن أنني قلت لك هذا قبل الآن. ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتفر! قد أنصرف من هنا مع ذلك. أحبك يا صديقي، ولكن أستودعك الله! حين أُحس بألم في الرأس أو في الأسنان فإنني أشتاق دائماً إلى الوحدة.

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم. إنني أصدقه الآن. لقد كان يشعر بألم في رأسه، في رأسه خاصةً. . .

قلت:

ـ إلى الغد.

Twitter: @ketab_n

ـ ما تعني بقولك إلى الغد؟ وما الذي سيحدث غداً؟
وابتسم ابتسامة شزراء.
ـ أجيء إليك أو تجيء إليَّ.
ـ لا لن أجيء إليك، بل أنت الذي ستهرع إليَّ. كان في وجهه سوء وشر، ولكنني لم أنتبه إلى هذا. يا له من حادث!

3

كان الأمير مريضاً بالفعل: فهو ملازمٌ بيته، معصوب الرأس بخرقة مبللة. وكان ينتظرني نافد الصبر. ولكن لم يكن رأسه وحده مريضاً، بل كان شخصه كله يعاني من ألم نفسي. تنبيه آخر: إنني في هذه الآونة الأخيرة، وحتى وقوع الكارثة، لم ألق إلا أناساً مهتاجين اهتياجاً شديداً، فكان لا بد أن تسري عدواهم إليَّ رغم إرادتي.

يجب أن أعترف بأنني حين وصلت إليه كانت نفسي زاخرة بعواطف سيئة، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أنني بكيت عنده أمس. لقد بلغا من خداعي، هو وليزا، أنني كنت أقدِّر أنهما يعّداني غبياً ولا شك. الخلاصة أن قلبي كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه. ولكن هذا كله كان سطحياً، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر. يجب أن أنصف الأمير فأقول: إنه متى خفت حدة تأذيه أو زالت، فتح نفسه لك صادقاً، فإذا أنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل، من حنان وثقة ومحبة. لقد قبَّلني والدموع تترقرق في عينيه، ثم سرعان ما شرع يتحدث في الأمر... نعم، لقد كان في حاجة إليَّ حقاً. وكان في أقواله وفي تتابع أفكاره اضطراب كبير.

Twitter: @ketab_n

أعلن لي جازماً أنه عاقد عزمه على أن يتزوج ليزا، وعلى أن يتزوجها في أقرب وقت. وقال لي: «ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء، فذلك أمر لم يهمني لحظة واحدة. لقد تزوج جدي فتاة من الأقنان كانت مغنية في مسرح خاص لملاك مجاور. صحيح أن أسرتي تعقد علي آمالاً من نوع خاص، ولكنها ستذعن الآن مضطرة، وسيتم هذا بغير صراع. أريد أن أقطع صلتي بكل مجتمع هذا الزمان! أريد شيئاً آخر، شيئاً جديداً! لا أدري لماذا أحبتني أختك، ولكن لعل السبب هو أنني لولاها لكنت قد بارحت هذا العالم. أحلف لك صادقاً كل الصدق أنني أعد لقائي لها في لوجا رحمةً إلهية. أعتقد أنها أحبتني بسبب «فداحة سقوطي»... ولكن هل تفهم هذا يا أركادي ماكاروفتش؟

فأجبته بصوت يعبر تعبيراً واضحاً عن الاقتناع:

- كلَّ الفهم.

كنت جالساً على المقعد الذي يواجه المائدة، وكان هو يسير في الغرفة طولاً وعرضاً.

- يجب أن أروي لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفي شيئاً. لقد بدأ كل شيء بسرٍ خاص عرفته وحدها، لأنني لم أبح به إلا لها، ولا يعرفه أحد حتى الآن. لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً، وأقمت عند ستولبيافا، لا أدري الآن لماذا! لعلني أردت أن أنشد أكمل عزلة. بعد أن تركت الجيش منذ قليل. وكنت قد دخلت الجيش عند عودتي من الخارج بعد ذلك اللقاء في الخارج مع أندريه بتروفتش. وكنت أملك في ذلك الحين ثروة، وكنت أبدِّد المال تبديداً، وأعيش حياة بذخ ولهو. ولكن رفاقي كانوا لا يحبونني. ومع ذلك كنت أحاول ألا أسيء إليهم. يجب أن أعترف

Twitter: @ketab_n

لك بأن أحداً لم يحبني في يوم من الأيام. وكان هناك حاملُ علم اسمه ستيبانوف، وهو في الواقع رجل فارغ تافه بل يكاد يكون أبله. الخلاصة أنه ليس له ميزة من الميزات. ولكنه كان رجلاً شريفاً لا يمكن أن يجحد أحد شرفه. وقد تشبث هذا الرجل بي. فكنت لا أضيق بوجوده ولا أشعر بحرج منه. كان يأتي إلي، فيجلس في ركن من الأركان أياماً كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة، ولكن بوقار وكرامة، فلا يزعجني أي إزعاج. وقد قصصت عليه في ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفتها بسخافات كثيرة: وهي أن ابنة الكولونيل تحمل لي عاطفة حب، وأن الكولونيل يعوِّل عليَّ فأستطيع أن أحرِّكه كيف أشاء. ولا حاجة إلى ذكر التفاصيل، فإنما المهم أنه قد نشأت عن كلامي هذا شائعات وأقاويل معقدة غاية التعقيد، قذرةٌ إلى أبعد حدود القذارة. وهذه الشائعات والأقاويل لم يكن مصدرها ستيبانوف، وإنما كان مصدرها خادمي الذي سمع كل شيء وحفظ كل شيء، لأن الكلام كان حكاية سيئة تفسد سمعة فتاة. فلما سأل الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت في الناس سمَّى ستيبانوف وذكر أنني الذي رويتها لستيبانوف. وكان يستحيل على ستيبانوف أن ينكر أنه سمعها. فهذه مسألة شرف. ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثي الحكاية اختراعاً لزخرفتها فقد استاء الضباط واضطر الكولونيل أن يجمعنا في بيته لتوضيح الأمور ووضعها في نصابها. وهناك ألقى هذا السؤال على ستيبانوف بحضور الجميع: أسمعت أم لم تسمع؟ فقال ستيبانوف الحقيقة. فكيف كان تصرفي أنا الأمير الذي أنتسب إلى سلالة أمراء عمرها ألف سنة؟ لقد أنكرت، وقلت أمام ستيبانوف أنه كذب، أو بتعبير مهذب: «لم يحسن فهم ما قلت»، الخ. هنا أيضاً لا داعي إلى ذكر

Twitter: @ketab_n

التفاصيل. وإنما المهم أن أشير إلى أن موقفي يمتاز على موقف ستيبانوف بأنني كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيبانوف على المجيء إلى بيتي، أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن ثمة تواطأ قد تم بين ستيبانوف وبين خادمي لتحقيق بعض المنافع، وذلك شيء يمكن أن يُصدَّق... وذلك ما كان. فلم يزد ستيبانوف على أن نظر إليَّ وهزَّ منكبيه دون أن ينطق بكلمة واحدة. إنني أتذكر نظرته ولن أنساها ما حييت. ولم يلبث ستيبانوف أن قدم استقالته فوراً. ولكنك لن تحزر أبداً ما حدث. إن جميع الضباط، من أولهم إلى آخرهم، قد زاروه وناشدوه ألا يرحل. حتى إذا مضى أسبوعان كنت أنا الذي أترك الجيش: لم يطردني أحد، ولم يدعني أحد إلى الرحيل، وإنما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتي. هكذا انتهت القضية. وقد بقيت في أول الأمر غير مكترث، حتى لقد كنت غاضباً منهم. وأقمت في لوجا، وتعرفت إلى أليزابت ماكاروفنا، ولكنني أخذت بعد انقضاء شهر واحد، أنظر إلى مسدسي وأفكر في الموت. إنني أرى الأمور سوداء دائماً يا آركادي ماكاروفتش. وأعددت رسالةً إلى الكولونيل وإلى رفاقي في الجيش لأعترف بكذبي ولأردَّ إلى ستيبانوف اعتباره. وحين انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسي هذا السؤال: «أأرسلها وأعيش أم أرسلها وأموت؟». وكان يمكن أن أعجز عن الاهتداء إلى إجابة. لكن مصادفة من المصادفات، مصادفة عمياء، قرَّبتني فجأة من أليزابت ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بيني وبينها. كانت حتى ذلك الحين تختلف إلى ستولبيافا، فكنا نلتقي أحياناً، ونتبادل التحية، ولا نتخاطب إلا في القليل النادر. فإذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شيء. وعندئذ إنما مدت لي يدها.

Twitter: @ketab_n

ـ وكيف حلت المشكلة؟

ـ لم أبعث الرسالة. هي التي قررت ذلك. وسوَّغت قرارها على هذا النحو: إذا بعثتُ الرسالة فلا شك أن عملي يكون نبيلاً يغسل عاري ولكن هل أطيق أنا نفسي احتمال هذه الخطوة؟ وكان رأيها أن أحداً لا يستطيع احتمال مثل هذه الخطوة، لأن كل مستقبل يكون قد ضاع، وكل انبعاث من أجل حياة جديدة يصبح مستحيلاً. ثم إن إرسال الرسالة يكون له ما يوجبه لو أن ستيبانوف قد أوذي وتألم، ولكن ستيبانوف قد ردَّ إليه الضابط اعتباره، وهو معهم على أحسن حال. الخلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة. ولكنها صدتني عن بعث الرسالة، وانقدت لها انقياداً تاماً.

هتفت أقول:

ـ ولقد اتخذتْ قراراً على غرار ما يفعل يسوعي، ولكن على غرار ما تفعل امرأة أيضاً. كانت تحبك منذ ذلك الحين.

ـ وهذا بعينه هو ما بعثني إلى حياة جديدة. حلفت لأغيرن نفسي ولأبدلن حياتي، ولأكسبن جدارة في نظري وفي نظرها. فانظر إلى أي شيء انتهى ذلك كله! ركضنا أنا وأنت إلى بيوت القمار، لعبنا الباكاراه، أطاش الميراث صوابي، لم أفطن إلا إلى اللذة، لم أنتبه إلى ضمان مستقبلي وعملي، وعاشرت الأوغاد من الناس، وحفلت بمظاهر الأبهة والفخامة واندفعت في ترهات المجتمع الراقي. وعذبت ليزا. آه... يا للعار!

قال ذلك وفرك جبينه بيده، وراح يذرع الغرفة، ثم أردف يقول:

ـ نحن كلانا مصابان بالداء الروسي المألوف يا آركادي ماكاروفتش: فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل. إن الروسي متى خرج عن الطريق الذي رسمته

Twitter: @ketab_n

له العادة أصبح لا يعرف ماذا يجب أن يعمل. في الطريق المرسوم كل شيء واضح: دخل، ورتبة، ومركز في المجتمع، ومركبة، وزيارات، ومنصب، وامرأة. ماذا يبقى مني عند أول انحراف عن الطريق الممهد؟ ورقة تذروها الريح! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل! لقد حاولت في هذين الشهرين أن أبقى في الطريق المرسوم، وأردت أن أحب الطريق المرسوم، وغصت في هذا الطريق المرسوم. إنك لا تعرف حتى الآن الهاوية الجديدة التي سقطت فيها: لقد كنت أحب ليزا، كنت أحبها حباً صادقاً، وكان فكري في الوقت نفسه ينصرف إلى السيدة أخماكوفا!

هتفت أقول متألماً:

ـ أهذا ممكن؟ قل لي بالمناسبة يا أمير: ماذا ذكرت لي أمس عن فرسيلوف؟ هل قلت لي أنه كان يحضك على ارتكاب دناءة في حق كاترينا إيفانوفنا؟

ـ لعلني بالغت. ولعلني بسبب ما أتصف به من سرعة التأذي قد أذنبت في حقه مثلما أذنبت في حقك. ولكن دعنا من هذا الآن. هل تتصور أنني طوال هذه المدة، وربما منذ أيام لوجا، لم أكن وفياً لأي مثل أعلى في الحياة؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقني قط، بل كان دائماً أمامي، ولم يفقد شيئاً من جماله في نظري. كنت أتذكر العهد الذي قطعته على نفسي لأليزابت ماكاروفنا وهو أن أبعث بعثاً جديداً. وحين حدثني آندريه بتروفتش بالأمس هنا عن النبل فإنه لم يقل لي شيئاً جديداً، ثق بذلك. أن مثلي الأعلى ثابت راسخ: بضع عشرات من الهكتارات (بضع عشرات لا أكثر، إذ لم يبق من الميراث شيء تقريباً)؛ وقطيعة تامة، تامة إطلاقاً، مع المجتمع الراقي وعالم المناصب؛ ومسكن ريفي، وأسرتي، وأنا... أحرث الأرض

Twitter: @ketab_n

أو أقوم بعمل من هذا القبيل. وليس هذا في سلالتنا شيئاً جديداً: إن عمي كان يدفع سكة المحراث، وكذلك كان جدي. نحن أمراء منذ ألف سنة، ونبلاء مثل آل روهان، ولكننا فقراء. وإليك ما كنت سأقوله لأولادي: «تذكر طول عمرك يا بنيَّ أنك نبيل، وأن الدم المقدس، دمُ الأمراء الروس، يجري في عروقك، ولكن لا تحمرَّ خجلاً من أن أباك دفع سكة المحراث: فهو إنما فعل ذلك كما يفعله أمير». ولن أترك لأولادي ثروة عدا تلك الرقعة من الأرض، ولكنني في مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليماً عالياً، سوف أجعل ذلك واجباً يقع على عاتقي ولا أتخلى عنه أبداً. وستساعدني ليزا في ذلك. ليزا، الأولاد، العمل! آه... لكم حلُمْنا بهذا كله، أنا وهي، في هذا البيت نفسه! وفي الوقت نفسه كان فكري ينصرف إلى آخماكوفا، دون أن أحبها أبداً، وكنت أفكر في زواج ثري راق! ولم أقرر أن أذهب إلى آنا آندرييفنا إلا بعد ذلك النبأ الذي حمله ناشتشوكين بالأمس من بيورنج ذاك.

ـ ولكنك ذهبت إليها لتنسحب. هذه خطوة شريفة فيما أرى.

ـ أتظن ذلك؟

ألقى هذا السؤال، ووقف أمامي متسمراً، ثم استأنف كلامه قائلاً:

ـ بل إنك لا تعرف طبيعتي بعد. أو قل... أو قل إن ها هنا شيئاً لا أعرفه أنا نفسي، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب. إنني أحبك صادقاً يا آركادي ماكاروفتش، وعدا هذا فقد أثمت في حقك إثماً عميقاً خلال هذين الشهرين، لذلك أريد أن تعرف كل شيء، من حيث أنك أخو ليزا: أنا إنما ذهبت إلى آنا آندرييفنا لأخطبها، لا لأنسحب.

Twitter: @ketab_n

ـ أهذا معقول؟

ـ لقد خدعت ليزا.

ـ اسمح لي: أخطبت آنا آندرييفنا خطبة رسمية ورفضت؟ نعم؟ أهذا ما حدث؟ إن التفاصيل تهمني كثيراً يا أمير.

ـ لا، لم أتقدم بخطبتها، ولكن السبب هو أنني لم يتح لي ذلك. وهي التي أفهمتني، لا بألفاظ الرفض طبعاً، ولكن بكلمات واضحة شفافة مع ذلك، أفهمتني «برقة» أن هذه الفكرة أصبحت بعد الآن مستحيلة.

ـ فكأنك إذن لم تخطبها، وبقيت كرامتك سليمةً لم يمسسها أذى.

ـ كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير؟ وحكم ضميري، وليزا التي خدعتها... والتي أردت إذن أن أهجرها؟ والعهد الذي قطعته على نفسي وعلى سلالة أسلافي جميعاً، وهو أن أُبعث بعثاً جديداً وأن أكفِّر عن دناءاتي الماضيات؟ أتوسل إليك: لا تحدثها في هذا الأمر. فلعل هذا هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تغفره لي! إنني من ذلك مريض منذ الأمس. ويخيَّل إليَّ خاصةً أن كل شيء قد انتهى وأن آخر أمير من أمراء سوكولسكي سيودع في السجن! مسكينة ليزا! لقد انتظرتك نافذ الصبر، يا آركادي ماكاروفتش، لأكشف لك، بصفتك أخا ليزا، ما لا تعرفه ليزا حتى الآن. إنني مجرم من مجرمي الحق العام، أشارك في صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركات السكك الحديدية.

ـ ما هذا أيضاً؟ ماذا تقول؟ تودع في السجن!...

قلت له ذلك منتفضاً وتأملته مذعوراً. كان وجهه يعبر عن مرارة عميقة قاتمة لا مخرج منها. قال:

Twitter: @ketab_n

ـ اجلس!

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالتي. وشرع يتكلم:

ـ أعلم أولاً هذا: منذ أكثر من سنة، في ذلك الصيف، صيف أمس وليديا وكاترينا إيفانوفنا وباريس بعد ذلك، يوم أردت أن أذهب إلى باريس لقضاء شهرين، وفي باريس بطبيعة الحال، كنت في عوز. وحينئذاك إنما جاءني ستيبلكوف، وكنت أعرفه على كل حال، فأعطاني مالاً ووعدني بمزيد، ولكنه سألني أن أساعده: كان في حاجة إلى أحد يكون فناناً رساماً حفاراً طباعاً وهلم جرا... كيميائياً وتكنيكياً، وذلك لأغراض معينة. وقد جعلني أدرك تلك الأغراض منذ المرة الأولى إدراكاً واضحاً. لقد كان يعرف طبعي. فلم يزد ذلك كله على أن أضحكني وسلاّني. وكنت أعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد الدرس، شخصاً هو الآن مهاجر روسي، لا روسي الأصل على كل حال، يقيم في مكان بمدينة هامبورغ. كان هذا الرجل قد شارك إبان إقامته بروسيا في قصة تزييف أوراق. وعلى هذا الرجل إنما كان يعوِّل ستيبلكوف، ولكنه كان في حاجة إلى من يوصي به لديه، فاتجه إليَّ يلتمس مني هذه التوصية. فكتبت له سطرين بخط يدي ثم لم أفكر في هذا الموضوع. وقد رآني بعد ذلك مراراً، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل. ولقد نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً. وصرت أقترض منه هنا من حين إلى حين، على رهون أو بسندات، وكان يتلوى أمامي ذليلاً كما يتلوى عبد. وعلمت منه أمس فجأة، لأول مرة، أنني مجرم من مجرمي الحق العام.

ـ أمس؟ أية ساعة؟

ـ ساعة كنا نتصارخ في مكتبي قبيل وصول ناشتشوكين. لأول

Twitter: @ketab_n

مرة، وبألفاظ صريحة هذه المرة، تجرأ أن يكلمني عن آنا آندريڤنا، وقد رفعت يدي لأضربه، لكنه نهض فجأةً ليعلن أنني متضامن معه، وأن عليَّ أن أتذكر أنني كنت شريكه في الجرم، وأنني وغد مثله. ذلك ما قاله لي، إن لم يكن بنصه فبمعناه.

ـ ما هذه السخافات؟ أهذا حلم؟

ـ لا، ليس حلماً. ولقد جاءني اليوم، فزادني إيضاحاً. إن هذه الأسهم المزيفة هي الآن في التداول، وسينزل غيرها إلى التداول. ويظهر أن عدداً منها قد صودر هنا وهناك. وأنا ليس لي في الأمر أي دخل طبعاً. ولكن ستيبلكوف قال لي: «أما تكرمت فأعطيتني كتاب التوصية هذا في ذلك الحين؟».

ـ ولكن أكنت تعلم لماذا التمس منك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف؟

أجاب الأمير وهو يخفض صوته ويخفض عينيه أيضاً:

ـ كنت أعرف، بل قل كنت أعرف دون أن أعرف. لقد ضحكت وسلاَّني الأمر. ولم أفكر وقتئذ في شيء، لا سيما وأنني لم أكن أنا في حاجة إلى أسهم مزيفة، ولم أكن أتهيأ أبداً لصنع أسهم مزيفة. ولكن الثلاثة آلاف روبل التي أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً عليَّ، وقبلت أنا ذلك. ثم ما أدراك؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً! لم يكن في الإمكان ألا أعلم، ما أنا بطفل. ولكن الأمر سلاَّني وأضحكني، وساعدت مجرمين. . . ساعدتهم طمعاً في مال! وإذن فأنا أيضاً مزيف!

ـ لا، لا، إنك تبالغ! صحيح أنك مذنب، ولكنك تبالغ!

ـ الخطير في الأمر أن هناك شاباً اسمه جيبلسكي يعمل كاتباً في

Twitter: @ketab_n

القضاء وتحوم حوله الشبهات، قد شارك أيضاً في حكاية الأسهم المزيفة هذه، ثم جاءني بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورغ، جاءني لترهات وسفاسف طبعاً، بل إنني لا أعرف لأي غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءني، ولكنه يحتفظ برسالتين مني، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو إحداهما سطرين، غير أنهما تشهدان عليَّ. اليوم أدركت هذا. ويقول ستيبلكوف أن جيبلسكي هذا مزعج: فقد سرق لا أدري ماذا، سرق مالاً من الخزينة فيما أظن، وهو ينتوي أن يسرق المزيد ثم يهاجر؛ ومن أجل أن يهاجر يجب أن يتزود للسفر بثمانية آلاف روبل، لا أقل من ذلك. إن نصيبي من الميراث يكفي ستيبلكوف. ولكن ستيبلكوف يقول إن علينا أن نرضي جيبلسكي أيضاً. الخلاصة أن عليَّ أن أتنازل عن حصتي من الميراث وأن أدفع فوق ذلك عشرة آلاف روبل. هذه كلمتهم الأخيرة. فإذا نفَّذت هذا الشرط ردُّوا إليَّ الرسالتين. وواضح أنهم متواطئون.

ـ يا للسخافة! إنهم إذا وشوا بك كانوا يسلِّمون أنفسهم! فلا يمكن أن يشوا بك.

ـ أعرف هذا. ثم إنهم لا يهدِّدون بأن يشوا بي. بل يقولون: «نحن لن نشي بك، ولكن افتضح الأمر...». ذلك ما يقولونه. ذلك كل ما يقولونه. وأظن أنه كافٍ. ولكن ليس هذا هو الأمر: هبني استرددت الرسائل. فهل ينجيني هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد متضامناً معهم؟ آه... كيف يمكنني أن أبقى إلى الأبد رفيقهم؟ أكذب على روسيا، أكذب على الأطفال، أكذب على ليزا، أكذب على ضميري...؟

ـ هل تعلم ليزا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لا تعلم كل شيء. لو علمت، وهي على ما هي عليه من حال، لماتت من هول الصدمة. إنني أرتدي الآن بزة الجيش، فكلما صادفت جندياً من الجيش، شعرت شعوراً كاوياً بأنني لا أستحق ارتداء هذه البزة.

هتفت أقول فجأة:

ـ اسمع! لا حاجة إلى الإكثار من الكلام. ليس أمامك إلا طريق واحدة للخلاص. إذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش، وخذ منه عشرة آلاف روبل، إسأله أن يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن شيء، ثم استدع هذين الوغدين، وصفِّ حسابك معهما تصفيةً نهائية بافتداء رسائلك... فينتهي كل شيء! ينتهي كل شيء، وتمضي تحرث الأرض! دع الأوهام وثق بالحياة!

قال مؤكداً:

ـ لقد فكرت في هذا. فكرت فيه طوال هذا اليوم، واتخذت أخيراً قراري. وكنت لا أنتظر إلا أن تجيء أنت. سوف أذهب إليه. هل تعلم أنني لم يسبق لي أن اقترضت في حياتي كلها قرشاً واحداً من الأمير نيقولا إيفانوفتش؟ إنه طيب في معاملة أسرتنا، حتى إنه... أظهر اهتماماً بنا... ولكنني... شخصياً... لم أطلب منه أيَّ مال في يوم من الأيام. وهأنذا الآن أرتضي لنفسي أن أطلب منه. لاحظ أن فرعنا أقدم من فرع الأمير نيقولا إيفانوفتش: إنهم هم الفرع الحديث، الفرع الهجين، الفرع المشكوك فيه تقريباً... ولقد تناصب أسلافنا العداء. وفي بداية عهد الإصلاح، أيام بطرس الأكبر، كان أبو جدي، واسمه بطرس أيضاً، كان راسكولنيكاً وظل كذلك وطوَّف في غابات كوستروما. فهذا الجد تزوج زواجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هي

Twitter: @ketab_n

أيضاً، وعندئذ إنما تقدمنا آل سوكولسكي هؤلاء... ولكن عمَّ كنت أتكلم؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه.

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتي:

ـ هدىء نفسك. نَمْ قبل كل شيء. أما الأمير نيقولا إيفانوفتش فإنه لن يرفض حتماً، ولا سيما الآن، في غمرة فرحه. هل تعرف القصة؟ لا! غير معقول! لقد بلغني نبأ عجيب: أنه سيتزوج. هذا سر، ولكن لا يُكتم عنك أنت طبعاً.

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتي أهمُّ بالانصراف. لم يكن على علم بالأمر. فجعل يسألني عن تفاصيل، ويسألني خاصةً عن الزمان والمكان وحظ النبأ من إمكان التحقق. فلم أخف عنه طبعاً أن الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته آنا آندرييفنا بالأمس فوراً. لا أستطيع أن أصوِّر لكم الأثر الأليم الذي أحدثه هذا النبأ في نفسه. فقد تشوه وجهه وتخدَّد، وتشنجت شفتاه بابتسامة غضب، واصفر أخيراً، ثم خفض عينيه وغاص في تفكير حالم عميق. لقد رأيت رؤية واضحة أن رفض آنا آندرييفنا كان قد جرح كبرياءه جرحاً بالغاً عميقاً. ولعله وهو فيما هو فيه من حالة مرضية قد غلا وأسرف الآن في تصور الدور المضحك الذليل الذي قام به أمس أمام تلك الفتاة التي كان يتوقع موافقتها بثقة تامة كما ظهر ذلك واضحاً. ولعله أخيراً قد تصور الدناءة التي ارتكبها في حق ليزا، وهي دناءة لم تعد عليه بطائل! إنه لأمر طريف شائق أن يرى المرء ما هي آراء أبناء المجتمع الراقي بعضهم في بعض، وعلى أي أساس يحترم بعضهم بعضاً: لقد كان في إمكان هذا الأمير مع ذلك أن يفترض أن آنا آندرييفنا على علم بالصلة التي بينه

Twitter: @ketab_n

وبين ليزا، أختها مهما يكن من أمر، وأنها أن كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً في يوم من الأيام. ولكنه رغم ذلك كان لا «يخالجه شك في قراره»!

وحدَّق إليَّ فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال:

ـ فكيف أمكنك أن تظن أنني أرضى، «أنا» أن أذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش أسأله مالاً بعد نبأ كهذا النبأ؟ أذهب إلى خطيب الخطيبة التي رفضتني؟ إن هذا يكون استجداء، وذلاً، وعبودية! لا، لا، ضاع الآن كل شيء. إذا كانت معونة هذا الشيخ هي آخر أمل، فليهلك هذا الأمل أيضاً!

كنت في قرارة نفسي موافقاً على ما يقول. ولكن كان ينبغي على المرء مع ذلك أن ينظر إلى الأمور نظرة أوسع: هل الأمير العجوز رجل حقاً؟ هل هو خطيب حقاً؟ وتحركت في رأسي أفكار كثيرة. وكنت قد قررت أن أزوره في الغد. فحاولت، بانتظار ذلك، أن أخفف وقع النبأ في نفس الأمير المسكين، وأن أحضه على النوم قائلاً له: «سوف تقضي ليلة مريحة، فتكون أفكارك غداً أوضح. لسوف ترى ذلك!». فصافحني بحرارة، ولكن من دون أن يقبلني. وقطعت له على نفسي عهداً لأجيئنَّ إليه مساء غد وقلت له: «سوف نتحدث، سوف نتحدث، هناك كلام كثير سوف نقوله». فحين سمع هذه الكلمات ألمت بشفتيه ابتسامة مشؤومة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

1

ظللت طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب وسداد الديون. كنت كالجالس إلى مائدة القمار أحسب مبالغ الحظ واحتمالات الربح، فقضيت ليلتي كلها فريسة كابوسٍ ساحق. سأقول الحقيقة: إنني طوال النهار السابق، رغم جميع تأثراتي الحارقة، كنت أتذكر من حين إلى حين، الربح الذي جنيته بالقمار عند زرتشتشيكوف. صحيح أنني كنت أطرد الفكرة، ولكنني لم أستطع أن أدفع عن نفسي الشعور والعاطفة، فكنت أرتعش كلما وافتني ذكرى. كان هذا الربح قد ملك عليَّ نفسي. أتراني خلقت مقامراً، لا شك على كل حال في أنني أملك صفات المقامر. فحتى في هذا اليوم، وأنا أكتب هذه الأسطر، أحب أحياناً أن أفكِّر في القمار! وربما اتفق لي أن أقضي ساعات كاملة أجري في الصمت حسابات قمار، وأتخيلني في الحلم لاعباً ورابحاً. نعم، إنني أتصف «بصفات» كثيرة التنوع، وليست نفسي هادئة مطمئنة.

لقد كنت أنتوي الذهاب إلى ستيبلكوف في الساعة العاشرة سيراً على القدمين. فصرفت ماتفي منذ جاء. وفيما كنت أحسو قهوتي حاولت أن أنعم النظر في الأمور. فلاحظت أنني مسرور، فلما انكفأت إلى نفسي لحظةً أدركت أن سروري إنما يرجع خاصة إلى

Twitter: @ketab_n

«أنني سأكون هذا اليوم في منزل الأمير نيقولا إيفانوفتش». ولكن ذلك اليوم من حياتي كان يوماً مشؤوماً، ولم يكن في الحسبان، وقد ابتدأ بمفاجأة.

ففي الساعة العاشرة تماماً، رأيت بابي يفتح على مصراعيه، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخل عليَّ كهبوب الريح. كان يمكن أن أتوقع كل شيء إلا هذه الزيارة، فوثبت مذعوراً. كان وجهها وحشياً، وكانت حركاتها وإشاراتها مشوشة، وأغلب الظن أنها ما كانت لتستطيع أن تجيبني لو سألتها ما الذي جاء بها إليَّ هذا المجيء المباغت. ويجب أن أشرح سلفاً فأقول: إنها قد تلقت منذ هنيهة نبأ خارقاً ساحقاً، وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير الانفعال الأول، وكان النبأ يمسني أنا أيضاً. على أنها لم تقض عندي إلا نصف دقيقة، أو دقيقة إن شئتم، ولكن من المحقق أنها لم تزد على الدقيقة. وقد بادرتني فوراً بقولها وهي تتسمر قدامي ماثلةً إلى أمام:

ـ آ... هأنت ذا إذن! هأنت ذا أيها الوغد؟ ما هذا الذي فعلت؟ ماذا، ألا تدري؟ إنه يشرب قهوته! آه! يا ثرثار! يا طاحونة حكي! يا ماضغ ورق!... يجب أن تُجلد بالسوط، أن تجلد، أن تجلد...

ـ تاتيانا بافلوفنا، ماذا حدث؟ ماذا جرى؟ ما.. ما؟

فقالت مهددة متوعدة وهي تولِّي هاربة:

ـ ستعرف!

وغابت. وانطلقت ألاحقها طبعاً، ولكن فكرة طارئة أوقفتني، بل قل إن ما أوقفني ليس فكرة، وإنما هو قلق غامض: لقد أحسست أن الشيء الأساسي في صراخها إنما هو قولها «يا ماضغ ورق». وما كان لي أن أكتشف شيئاً بنفسي طبعاً، ولكنني خرجت

Twitter: @ketab_n

مسرعاً لأفرغ من ستيبلكوف بأقصى سرعة، ثم أذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش، قائلاً لنفسي بغريزتي: «هنالك مفتاح الأمور كلها».

فسرعان ما عرفت أن ستيبلكوف كان عالماً بقصة آنا آندرييفنا كلها، بل كان يعرف تفاصيلها. شيء غريب. لن أروي الآن حديثه ولن أصف إشاراته وحركاته، وحسبي أن أذكر أنني رأيته يتدفق افتتاناً وحماسة «لما لهذه المأثرة من قيمة فنية». قال صائحاً:

ـ يا لها من امرأة شجاعة! هذه امرأة شجاعة! لا، لا، إنها ليست مثلنا. نحن نبقى في مكاننا ساكنين، أما هي فقد أرادت أن تشرب الماء من منبعه الحق، وقد شربته من منبعه الحق. هذه... هذه تمثال قديم لمينيرفا، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدي فساتين حديثة!

ورجوته أن ينتقل إلى الموضوع. فإذا الأمر كله، كما أدركت ذلك من قبل، هو ضرورة إقناع الأمير بأن يذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة، «وإلا فإن العاقبة ستكون وخيمة عليه، وخيمة جداً، وليس الذنب ذنبي. صحيح أم لا؟».

كان يحدِّق إلى عينيَّ، ولكنه كان في أغلب الظن لا يفترض أنني أعرف شيئاً يزيد على ما عرفته البارحة. ولم يكن في إمكانه أن يفترض ذلك: فأنا لم أدعْ له طبعاً، لا بالتصريح ولا بالتلميح، أن يعرف أنني على علم بأمر «الأسهم». ولم يطل الحديث بيننا: فقد أسرع يعدني، على الفور تقريباً، بمبلغ من المال، قائلاً إنه «مبلغ كبير، مبلغ كبير، وإنما المهم أن أقنع الأمير بطلب المعونة، وأن الأمر مستعجل، مستعجل جداً، وأن كل شيء يتوقف على السرعة، فالأمر مستعجل إلى حد رهيب!».

Twitter: @ketab_n

لم أشأ أن أدخل في مناقشات معه كما فعلت البارحة، وهممت أن أنصرف، قائلاً له عَرَضاً «إنني سأحاول». ولكنه أدهشني على حين فجأة إدهاشاً لا سبيل إلى وصفه: كنت قد اتجهت إلى الباب، فإذا هو يحضنني بغتة في رقة وحنان، ويأخذ يقول لي أشياء تستعصي على الفهم إلى أقصى حد.

سوف أهمل التفاصيل، فلا أذكر كلامه كله، حتى لا أتعب القارىء. ولكن إليك فحوى ما قاله: لقد عرض عليَّ «أن أصله بالسيد درجاتشيف، ما دمت أتردد على ذلك المنزل».

أصخت إليه بسمعي، محاولاً بكل قواي ألا أفضح نفسي بأية إشارة. وأجبته على الفور قائلاً إنني لا أعرف أحداً هناك، وأنني إن ذهبت إلى ذلك المنزل مرةً فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة. قال:

ـ ولكن ما دمتَ قد «قُبِلت» مرة، ففي وسعك أن تذهب مرة أخرى، أليس هذا صحيحاً؟

فسألته صراحةً، ولكن ببرودة شديدة، فيم يعنيه هذا. وحتى هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السذاجة كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغبياء، بل يلاحظ أيضاً أنهم «عمليون» كما وصفه بذلك فاسين. ولقد شرح لي بصراحة تامة أن شبهاته توحي إليه بأن شيئاً يحدث عند درجاتشيف، شيئاً لا بد أنه محرَّم قطعاً، محرم أقسى التحريم فيكفي أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطيع أن يجني من ذلك نفعاً. قال لي ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم.

لم أجبه بشيء يؤكد أنني سألبي رغبته، ولكنني تظاهرت بالتفكير، ووعدته بأن «أفكر في الأمر»، ثم سارعت إلى الانصراف. إن الأمور تتعقد. وطرت إلى فاسين، فوجدته في بيته.

Twitter: @ketab_n

ـ ها! . . . أنت أيضاً!

إنه منذ رآني استقبلني بهذه الجملة الملغزة. ولكنني لم أتوقّف عند جملته، بل انتقلت إلى الموضوع رأساً، وقصصت عليه القصة، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوءه البتة، وسألني عن جميع التفاصيل. وقال:

ـ يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم!

ـ بل فهمت أحسن الفهم. لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً.

فأضاف يقول بصدق:

ـ على كل حال، أشكرك أجزل الشكر. نعم حقاً، إذا كان كل شيء قد جرى على هذا النحو، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لإغراء مبلغ من المال.

ـ إنه عدا ذلك يعرف حالي، فلقد كنت أقامر كثيراً، وكانت سيرتي سيئة يا فاسين.

ـ سمعت عن هذا.

قلت:

ـ وما يحيرني أكثر من أي شيء آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً تتردد إلى ذلك المنزل.

فقال فاسين ببساطة كبيرة:

ـ هو يعلم علماً تاماً أنني لا صلة لي بالأمر. وهؤلاء الشبان جميعاً إنما هم ثرثارون لا أكثر. وإنك لتتذكر هذا أكثر من أي إنسان آخر على كل حال.

بدا لي أنه يضمر نوعاً من سوء الظن بي، أو نوعاً من الحذر مني. قال:

Twitter: @ketab_n

ـ إنني أشكرك أجزل الشكر على كل حال.
وحاولت أن أسأله مزيداً من الأسئلة فقلت:
ـ سمعت أن أمور السيد ستيبلكوف لا تجري مجرى حسناً، سمعت على الأقل كلاماً عن أسهم...
ـ أية أسهم تعني؟
لقد تعمدت أن أذكر الأسهم، ولكنني لم أفعل ذلك من أجل أن أكشف له عن سر الأمير. كل ما أردته هو أن ألمح إلى الأسهم لأتبين من النظر إلى وجهه وإلى عينيه هل يعلم عن هذا الأمر شيئاً. وقد وصلت إلى هدفي: استطعت أن أدرك، من حركة سريعة خفيفة في وجهه، أنه ربما كان على علم بشيء. ولم أجب عن سؤاله: «أية أسهم؟»، بل صمت. ومن الغريب أنه لم يُلِحّ.
سألني باهتمام:
ـ كيف حال أليزابت ماكاروفنا؟
ـ هي بخير. إن أختي تكن لك الاحترام دائماً...
فسطعت عيناه سروراً ورضا: كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه يحمل لأختي عاطفة ما...
وقال لي فجأة:
ـ زارني في هذه الأيام الأخيرة، الأمير سرجي بتروفتش.
فهتفت أسأله:
ـ متى؟
ـ منذ أربعة أيام.
ـ لا أمس؟
ـ لا، ليس أمس.
وألقى عليَّ نظرة مستفهمة. وأردف يقول:

Twitter: @ketab_n

ـ قد أحدثك في المستقبل عن هذه الزيارة حديثاً فيه مزيد من التفصيل، أما الآن فأعتقد أن من الضروري أن أنبِّهك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفعها السر) إلى أنني لاحظت أن حالته النفسية. . . بل حالته العقلية. . . غير طبيعية. وقد زارني شخص آخر أيضاً. . .

قال ذلك وهو يبتسم فجأة، ثم تابع كلامه:

ـ زارني شخص آخر منذ هنيهة قصيرة، قبل وصولك بلحظة، وقد اضطررت أن أستخلص أن حالة الزائر الآخر ليست طبيعية تماماً هي أيضاً.

ـ هل جاءك الأمير منذ قليل؟

ـ لا، ليس الأمير، لا أتكلم الآن عن الأمير. لقد زارني، منذ برهة، آندريه بتروفتش فرسيلوف، و. . . ألا تعرف شيئاً؟ ألم يحدث له شيء؟

أسرعت أسأله:

ـ ربما حدث له شيء، ولكن ماذا جرى هنا، عندك؟

ـ يجب عليَّ أن أكتم السر طبعاً. . . ما أعجب هذا الحديث بيننا! إن مداره كله على أسرار. . .

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى. ثم أردف:

ـ على أن آندريه بتروفتش لم يطلب مني كتمان السر. ثم إنك ابنه؛ ولعلمي بما تحمل له من عواطف، يخيَّل إليَّ أنني أحسن صنعاً إذا أنا نبهتك في هذه المرة. تصور أنه ألقى عليَّ هذا السؤال: «إذا اتفق لي في يوم قريب، قريب جداً، أن وجدتني مضطراً إلى مبارزة، فهل تقبل أن تكون شاهدي؟». ولقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً بطبيعة الحال.

دهشت دهشة شديدة. إن هذا النبأ هو أشد الأنباء إقلاقاً. لقد

Twitter: @ketab_n

حدث شيء. لا بد أن حادثاً ما زلت أجهله قد وقع! وتذكرت فجأة أن فرسيلوف قال لي أمس: «لست أنا الذي سأجيء إليك، بل أنت الذي ستهرع إليَّ».

وطرت إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القوة أن مفتاح السر هناك. وقد شكرني فاسين مرةً أخرى حين فارقته.

2

كان الأمير العجوز جالساً أمام مدفأته، مدثراً ساقيه بغطاء. وقد استقبلني بنظرة فيها شيء من الاستفهام، كأنه دهش من زيارتي، مع أنه كان يرسل من يدعوني إليه كلَّ يوم تقريباً. على أنه قد حيَّاني بلطف. لكنه أجاب عن أسئلتي الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح في وجهه ذهول رهيب. وكان في بعض اللحظات يبدو مفكراً، ويحدِّق إليَّ بنظرة ثابتة، كأنه كان قد نسي شيئاً يتعلق بي ثم إذا هو يتذكره الآن. فقلت له بصراحة إنني أعرف كل شيء، وإني سعيد بما حدث. فسرعان ما بانت على شفتيه ابتسامة فيها مودة، وسرعان ما انتعش وزال تحفظه واختفى حذره، حتى لكأنه نسيهما، بل لا شك في أنه نسيهما. قال:

- صديقي العزيز، كنت أعلم حق العلم أنك ستكون أول من يأتي، حتى لقد سألت نفسي أمس: «من ذا الذي سيبتهج؟» ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً: «هو الذي سيبتهج». نعم، لا أحد غيرك، حتماً. ولكن لا ضير. إن ألسنة الناس ألسنة سوء... ولكن لا قيمة لهذا!... «يا بنيَّ العزيز» (قالها بالفرنسية)، ذلك كله سامٍ كل السمو، لذيذ كل اللذة. ولكنك تعرفها معرفة جيدة، أنت. ثم إن آنا آندرييفنا ترى فيك أحسن رأي. هي ذات وجه قاس آسر

Twitter: @ketab_n

أخاذ، وجه صورة إنجليزية. إنها أحلى الصور الإنجليزية قاطبة. لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور... إن هذه النية كانت في نفسي دائماً، دائماً. وإنما يدهشني أنني لم أفكر في هذا الأمر أبداً.

ـ ولكنك أحببت آنا آندرييفنا دائماً، وقَدَّرتها دائماً، طوال المدة التي أذكرها.

ـ يا صديقي، إننا لا نريد أن نلحق ضرراً بأحد. إن الحياة مع أصدقاء وأقرباء وأشخاص أحبة هي الجنة. نحن جميعاً شعراء... الخلاصة: هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ. اسمع، سوف نقضي الصيف أولاً بمدينة سودن، ثم بمدينة بادجاشتاين! أين ذهبت؟ كنت أنتظرك. ما أكثر الأحداث التي مرت منذ ذلك الوقت، ما أكثرها، أليس كذلك؟ وإنما المحزن أنني لست هادئاً: فمتى خلوت إلى نفسي شعرت بأنني قلق. هذا هو السبب في أنني يجب ألا أبقى وحيداً، أليس كذلك؟ هذا واضح وضوح النهار. آه يا صديقي، إنها لم تقل إلا كلمتين... ولكن كان كلامها أروع قصيدة. ولكن... أنت أخوها تقريباً، أليس كذلك؟ يا عزيزي، ليس غريباً أنني أحببتك ذلك الحب كله! كنت أتوقع كل هذا، أحلف لك. ولقد قبَّلت يدها، وبكيت.

واستل منديله من جيبه، كأنه يهم أن يبكي من جديد. كان متأثراً جداً، بل أظن أنه كان في حالة من تلك الحالات «المحزنة» التي أتيح لي أن أراها فيه مدةَ معرفتي به. إنه في العادة، بل في جميع الأوقات تقريباً، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن. وتمتم يقول:

ـ سوف أغفر لهم جميعاً يا صديقي. أحب أن أغفر لجميع الناس، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد. الفن،

Twitter: @ketab_n

«الشعر في الحياة»، مساعدة البؤساء، وهي، ذلك هو جمال التوراة. «ما أروعها من إنسان»، هه؟ «أناشيد سليمان... لا... ليس هو سليمان، بل هو داود الذي أضجع فتاة جميلة في سريره طلباً للدفء في شيخوخته. أوه... داود، سليمان»، هذا كله يدور في رأسي دوران إعصار حقاً. «إن تلك الحسناء في شيخوخة داود، لهي قصيدة»، أما بول روكوك فليس له ذوق ولا إحساس بالتوازن، رغم أنه صاحب موهبة... إن كاترينا نيقولايفنا تبتسم. ولقد قلت لها إننا لن نضايقها. إننا بدأنا روايتنا، فليسمح لنا بأن نتمها. سمِّه حلماً إن شئت، ولكن فليتركوا لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا.

ـ كيف تقول إنه حلم يا أمير؟

ـ كيف أقول إنه حلم؟ فليعدوه حلماً، ولكن فليتركوا لنا أن نموت مع هذا الحلم.

ـ آه... أمير... لماذا الموت؟ إن الحياة هي الواجبة الآن!

ـ وماذا كنت أقول؟ لست أقول غير هذا! حقاً إنني لا أدري لماذا الحياة قصيرة هذا القصر كله. أغلب الظن أن الغاية من قصرها هي ألا تكون مملة، ذلك أن الحياة هي أيضاً عمل فني من أعمال الخالق الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوشكين. إن الإيجاز أول شروط الفن. ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن يعيشوا مدة أطول.

ـ قل لي يا أمير، هل أذيع النبأ في الناس؟

ـ لا، لا يا عزيزي، لم يُذع تماماً. إنه محدود بحدود الأسرة، بحدود الأسرة وحدها حتى الآن. لم أبح بما في نفسي بوحاً كاملاً إلا لكاترينا نيقولايفنا، لأنني أعد نفسي آثماً في حقها. ذلك أن كاترينا نيقولايفنا ملاك.

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، نعم.

ـ نعم؟ أنت أيضاً تقول نعم؟ كنت أظنك عدواً لها. آه... بالمناسبة: لقد طلبت مني ألا أستقبلك بعد اليوم. تصور أنني نسيت ذلك منذ دخلت عليَّ.

انتفضت وسألته:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ لماذا طلبت منك ذلك؟ ومتى؟

(لم يكذبني إحساسي. إن شيئاً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زيارة تاتيانا بافلوفنا!).

ـ أمس يا صديقي، أمس. لا أدري كيف استطعت أن تدخل. ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنعك من الدخول. كيف دخلت؟

ـ ببساطة.

ـ هذا هو الأرجح. فلو أنك دخلت بالمكر والحيلة لأوقفوك حتماً، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل. البساطة يا عزيزي، البساطة هي أمكر المكر.

ـ لست أفهم شيئاً. هل قررت إذن، أنت أيضاً، ألا تستقبلني بعد اليوم؟

ـ لا يا صديقي. لقد أجبت بأن هذا ليس شأني... أقصد أنني وافقت موافقة تامة. ثق يا بني العزيز أنني أحبك كثيراً. ولكن كاترينا نيقولايفنا طلبت ذلك بكثير من الإلحاح. آه... هي ذي!

في تلك اللحظة ظهرت كاترينا نيقولايفنا على العتبة. كانت مرتدية ثياب الخروج، وقد جاءت إلى أبيها لتقبله على عادتها دائماً من قبل. فلما رأتني توقفت واضطربت، ثم استدارت وخرجت. فصاح الأمير مذهولاً منفعلاً أشد الانفعال:

ـ كذلك هي!

Twitter: @ketab_n

فهتفت أقول:

ـ هو سوء تفاهم لا أكثر. دقيقة واحدة يا أمير... سوف... سوف أرجع فوراً يا أمير!

وركضت وراء كاترينا نيقولايفنا.

إن كل ما حدث بعد ذلك قد حدث بسرعة بلغت من الشدة أنني لم أستطع التفكير، بل لم أستطع أن أهيىء سلوكي أقلّ تهيئة. فلو أنني استطعت أن أهيىء سلوكي لتصرفت تصرفاً آخر حتماً. ولكنني كنت قد طاش صوابي كصبي صغير. هرعت إلى حجراتها، غير أن الخادم قال لي إن كاترينا نيقولايفنا قد خرجت في هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها. فاندفعت أهبط السلَّم الكبير منكس الرأس. فرأيت كاترينا نيقولايفنا تنزل على السلَّم، مرتديةً معطفها، ورأيت ضابطاً فارع القد حسن القامة ببزة عسكرية من غير معطف يسير إلى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذي يتدلى على جنبه. وكان خادم يحمل له معطفه وراءه. هذا هو البارون. إنه كولونيل في الخامسة والثلاثين من عمره. نموذج الضابط الأنيق الجاف، له وجه بيضوي كثيراً، وله شاربان أحمران، بل إن حاجبيه أحمران أيضاً. ليس وجهه جميلاً البتة، ولكن هذا الوجه يعبِّر عن الجزم والتحدي. إنني أصفه الآن على عجل، كما رأيته في تلك اللحظة. لم أكن قد لقيته حتى ذلك الحين. وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف، فأبصرتني كاترينا نيقولايفنا قبل صاحبها وهمست في أذنه بشيء... فالتفت، وسرعان ما أومأ للخادم والبواب السويسري بإشارة من رأسه. فتقدم الخادم مني خطوةً أمام الباب، ولكنني دفعته بيدي ووثبت إلى درج الباب في أثرهما. أجلس بيورنج صاحبته في العربة. وصحت أنا قائلاً بغباء (كما يفعل أبله، كما

Twitter: @ketab_n

يفعل أبله! آه! إنني أتذكر كل شيء. كنت بغير قبعة):

ـ كاترينا نيقولايفنا: كاترينا نيقولايفنا!

فالتفت بيورنج مرةً أخرى غاضباً، وصاح يقول للخادم كلمة أو كلمتين لم أميزهما. وأحسست أنني أمسكت من الكوع. وانطلقت العربة في تلك اللحظة. فصرخت صرخة واندفعت أجري وراء العربة. كانت كاترينا نيقولايفنا تنظر من نافذة العربة ـ رأيت أنا ذلك ـ وكانت تبدو قلقة قلقاً شديداً. ولكنني بحركتي السريعة حين انطلقت أعدو وراء العربة قد صدمت بيورنج صدمة قوية دون أن أفكر في هذا البتة، وأظن أنني دست على رجله أيضاً. فصرخ صرخة صغيرة، وصرَّ بأسنانه، وأمسك كتفي بيد قوية ودفعني دفعة بلغت من شدة الغضب والحنق أنني تقهقرت ثلاث خطوات. وفي تلك اللحظة مُدَّ إليه معطفه، فارتداه، وركب عربته الزلاجة، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير للخدم وللبواب. فأمسكوا بي، وثبتوني في مكاني، وألقى إليَّ أحد الخدم معطفي، ومدَّ إليَّ خادم ثان قبعتي؛ لست أتذكر الآن ماذا قالوا لي: لقد كانوا يتكلمون، وكنت أصغي إليهم دون أن أفهم شيئاً. ولكنني تركتهم في مكانهم فجأة، ووليت هارباً.

3

ظللت أركض دون أن أميِّز شيئاً، وأصدم المارة أثناء ركضي يمنة ويسرة، حتى وصلت أخيراً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا، ولم يخطر ببالي في الطريق حتى أن أستقل عربة. لقد دفعني بيورنج بحضورها «هي»! صحيح أنني دست على قدمه فدفعني عنه بغريزته كما يفعل شخص ديس على قدمه فانتزع جلد إصبع رجله (يجوز فعلاً أن

Twitter: @ketab_n

أكون قد سحقت له إصبع رجله!). ولكنها رأت، رأت الخدم يقبضون عليَّ. هذا كله حدث بحضورها، أمامها!

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع في أول الأمر أن أنطق بكلمة. كانت فكي السفلى ترتعش من الحمى. لقد اجتاحتني حمى فعلاً. وكنت عدا ذلك أبكي... فإلى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة!

ـ هه! طردوك إذن؟ احسنوا صنعاً أحسنوا صنعاً!

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا. وتهاويت على الديوان دون أن أقول شيئاً، ونظرت إليها.

قالت وهي تحدِّق إليَّ:

ـ ولكن ماذا أصابك؟ خذ، خذ هذه الكأس، ابلع قليلاً من ماء، اشرب! وقل لي ما الحماقة الجديدة التي ارتكبتها.

تمتمت قائلاً إنني طُردت، وإن بيورنج دفعني في الشارع.

ـ هل تمكنك حالتك الآن من أن تفهم شيئاً؟ اقرأ إذن، ولينشرح فؤادك.

قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وتناولت من على المائدة ورقة ومدتها إليَّ وتسمّرت أمامي. سرعان ما تعرفت خط فرسيلوف. لم يكن ثمة إلا أسطر قليلة: إنها رسالة إلى كاترينا نيقولايفنا. ارتعشت. ولكن القدرة على الفهم لم تلبث أن وافتني أقوى ما تكون. وإليكم نص تلك الرسالة الفظيعة، الفاضحة، المستحيلة، الإجرامية، إليكم نصها كلمةً كلمة:

إلى السيدة كاترينا نيقولايفنا

«رغم علمي بما إنت عليه من فساد الخلق سواء أكان هذا الفساد طبيعة فيك أم كان فناً تحذقينه، فلقد كنت أتصور أنك تستطيعين أن تسيطري

Twitter: @ketab_n

على أهوائك، وأنك في أقل تقدير لن تلحقي أذى بأطفال. ولكنك لم تتورعي حتى عن هذا. إنني أبلغك أن الوثيقة التي تعرفين لم تحرق على لهب شمعة حتماً، ولم تكن عند كرافت في يوم من الأيام، فلن تجني نفعاً مما تفعلين. فلا تفسدي أخلاق شاب في غير طائل. كفّي أذاك عنه. فإنه لا يزال قاصراً؛ بل إنه ليكاد أن يكون طفلاً لما يبلغ بعد كمال نموه العقلي والجسمي. فيم يفيدك؟ إنني أهتم بأمره، ولذلك جازفت فكتبت إليك هذه الكلمات، رغم انني لا ارجو لها اي نجاح. ويشرفني أن أبلغك أنني أبعث بنسخة من هذه الرسالة إلى البارون بيورنج».

اصفر وجهي أثناء القراءة، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفتاي استياء وسخطاً. وصحت أقول غاضباً:

ـ إياي يقصد؟ هذا بمناسبة ما بحت له به أمس الأول!

ـ ذلك لأنك بحت له به!

وانتزعت تاتيانا الرسالة من يدي.

ـ ولكن. . . ليس هذا ما كنت أقوله له! آه. . . رباه! ما عسى يكون ظنها بي الآن؟ ولكن هل هو مجنون؟ إنه مجنون. لقد رأيته أمس. متى بعث الرسالة؟

ـ أمس نهاراً. وقد وصلت في المساء، فأعطتنيها اليوم بنفسها.

ـ ولكنني رأيته أمس. إنه مجنون! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف هذا. هذا عمل رجل مجنون! من ذا الذي يكتب كلاماً كهذا الكلام إلى امرأة؟

ـ يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهم الغيرة ويجعلهم الغضب صماً عمياً ويتحول الدم في عروقهم إلى ماء. إنك لم تكن تعرفه بعد! ولكنه سيدفع الثمن غالياً. لسوف يسحق سحقاً. إنه يضع نفسه بنفسه تحت الساطور. ألا إن من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة

Twitter: @ketab_n

إلى خط سكّة نيقولا، فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار قطعاً مناسباً، ما دام يستثقل حمله! وما الذي حملك على التحدث إليه؟ ما كانت حاجتك إلى مذاكرته؟ أردت أن تزهو بنفسك؟

ـ يا له من كره! ما أشد هذا البغض! كذلك هتفت وأنا ألطم رأسي بيدي. وتابعت أتساءل:

ـ ولماذا؟ لماذا؟ يسيء هذه الإساءة إلى امرأة؟ ماذا صنعت؟ أي ذنب جنت؟ ما العلاقات التي كانت بينهما حتى يكتب لها رسائل كهذه؟

ـ كره! بغض!

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنا وهي تقلد لهجتي وحركاتي بسخرية حانقة.

وازدحم الدم في وجهي من جديد: بدا لي فجأة أنني أفهم شيئاً جديداً كل الجدة. نظرت إلى تاتيانا بافلوفنا نظرة مستفهمة، أودعتها كل ما أملك من قوة. فزعقت تاتيانا بافلوفنا وهي تدير لي ظهرها وتهدِّدني بيدها، قائلة:

ـ اذهب من هنا! كفاني ما لقيت منكم جميعاً! حسبي! في وسعكم أن تغيبوا كلكم... الوحيدة التي ما أزال أشفق عليها هي أمك.

ركضت إلى فرسيلوف طبعاً. ولكن ما أقبحه من عذر! ما أقبحه من عذر!

4

لم يكن فرسيلوف وحيداً. يجب أن أذكر سلفاً أنه بعد أن أرسل

Twitter: @ketab_n

تلك الرسالة إلى كاترينا نيقولايفنا أمس، وأرسل نسخة منها (لا يعلم إلا الله لماذا!) إلى البارون بيورنج، كان ينتظر أثناء النهار «عواقب» الخطوة التي قام بها، فلذلك اتخذ بعض التدابير: فنقل ماما وليزا منذ الصباح إلى فوق، إلى «التابوت» (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت في الصباح عند عودتها فرقدت في سريرها)، كما عُنيَ بنظافة الغرف وترتيبها عناية كبيرة، ولا سيما «الصالون». وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر فعلاً، حتى جاء إلى الدار بارون اسمه «ر. . .»، وهو عسكري برتبة كولونيل، في نحو الأربعين من عمره، ألماني الأصل، طويل القامة، جاف الهيئة، قوي الجسم جداً فيما يبدو، أحمر البشرة هو أيضاً، مثل بيورنج، لكنه أصلع قليلاً. إنه واحد من البارونات «ر. . .» الكثير عددهم في الجيش الروسي، وهم جميعاً أناس شديدو التأذي في كل ما يمسّ الشرف، ليس لهم ثراء، وإنما هم يعيشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً. لم أشهد بداية الحديث الذي جرى بينهما. كانا كلاهما في أوج النشاط والاندفاع. وكيف لا يكونان كذلك؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة، وكان البارون جالساً في مقعد إلى جانب. وكان فرسيلوف شاحب اللون، ولكنه يتكلم برصانة، ويزن أقواله، وكان البارون يرفع صوته، ويهم أن يحرك يديه بإشارات عنيفة، ولكنه يكبح جماحه. وكانت نظرته قاسية فيها تعال بل فيها احتقار، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشة. فحين رآني قطب حاجبيه، ولكن فرسيلوف كاد يغتبط لرؤيتي. وقال يحييني:

ـ يومك سعيد يا عزيزي.

وأضاف يخاطب البارون:

Twitter: @ketab_n

ـ يا بارون، هذا هو الشاب الذي عنيته في رسالتي. صدِّق أن وجوده لن يضايقنا، حتى لقد يفيدنا.

رمقني البارون بنظرة شزراء فيها احتقار. وأردف فرسيلوف قائلاً لي:

ـ يا عزيزي، يسعدني أنك جئت. اجلس، أرجوك، إلى أن ننتهي.

ثم قال للبارون:

ـ اطمئن يا بارون، سيبقى...

لم يهمني ذلك. كنت قد عزمت أمري. وكان كل شيء عدا هذا يدهشني ويذهلني. جلست في ركن لا أنطق بكلمة، ولبثت هنالك لا تطرف لي عين، ولا أتحرك، إلى آخر الحديث.

قال فرسيلوف مقطعاً جميع الكلمات تقطيعاً قوياً:

ـ أكرر لك مرة أخرى يا بارون إنني أعدُّ كاترينا نيقولايفنا آخماكوفا، التي كتبت إليها تلك الرسالة الدنيئة الخسيسة، أنبل المخلوقات طراً، بل أعدُّها ذروة الفضائل الكاملة!

فزأر البارون يقول:

ـ إن هذا الدحض لأقوالك، كما قلت لك من قبل، أشبه بتأكيدٍ لها. فتعابيرك تخلو من الاحترام خلواً واضحاً.

ـ إن الأفضل مع ذلك أن تفهم أقوالي بالمعنى الذي يدل عليه نصها حرفاً حرفاً. إنني أصاب أحياناً بنوبات تستبد بي وتسيطر عليَّ، حتى إنني مضطر إلى معالجة نفسي ومداواة مرضي، وقد اتفق لي في أثناء نوبة من تلك النوبات أن...

ـ هذه الإيضاحات والأعذار لا يمكن قبولها. أكرر لك مرة أخرى أنك لا تزال تصر على ضلالك إصراراً عنيداً ولعلك تتعمد

Twitter: @ketab_n

أن تخدع نفسك. لقد نبهتك منذ البداية إلى أن المسألة المتعلقة بتلك السيدة، أعني رسالتك إلى الجنرالة آخماكوفا، يجب إقصاؤها من الحديث الذي نحن بصدده، ولكنك لا تزال تعود إلى تلك المسألة. لقد رجاني البارون بيورنج وكلفني أن أوضح ما يتعلق به هو وحده، أعني ما اجترحت من وقاحة إذ بعثت إليه تلك «النسخة» من الرسالة، ثم الحاشية التي أضفتها قائلاً إنك «على استعداد لتحمل المسؤولية أمام أي إنسان، وبأية طريقة».

ـ ولكن يبدو لي أن هذه النقطة الأخيرة جلية لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح.

ـ أفهم، أعلم. إنك تتهرب حتى من الاعتذار، وتظل تؤكد أنك «مستعد لتحمل المسؤولية أمام أي إنسان وبأية طريقة». ولكن سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخس ثمن. لذلك أجد أن من حقي، بسبب ما أراه من إصرارك على توجيه الإيضاح هذه الوجهة، أن أفصح لك عن رأيي بغير تحرج: لقد وصلت من تفكيري في الأمر إلى النتيجة التالية: إن البارون بيورنج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون له معك قضية... فكأنكما ندان.

ـ أرى أن هذا الحل أنفع الحلول لصديقك البارون بيورنج. وإني لأعترف لك بأنك لا تدهشني البتة: فلقد كنت أتوقع هذا الأمر.

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أنني لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يسعى إلى إحداث انفجار، فكان يستفز ويتحدى ويناكد هذا البارون الذي من طبعه الاهتياج، ولعله كان يمتحن صبره امتحاناً قاسياً. فكان البارون كالجالس على الشوك، نافد صبر.

Twitter: @ketab_n

ـ كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهة في الفكاهة، ولكن هذا ليس هو الذكاء.

ـ هذه ملاحظة عميقة إلى أبعد حدود العمق يا كولونيل.

صرخ البارون يقول:

ـ لست في حاجة إلى مدحك، ولا جئت هنا لأتكلم في الهواء سدى. اسمعني من فضلك: إن البارون بيورنج، حين تلقى رسالتك، احتار حيرة شديدة، إذ كانت تفوح منها رائحة مستشفى مجانين. ولقد كان في الإمكان طبعاً أن تلتمس الوسائل... لتهدئتك فوراً. ولكن أسباباً خاصة حملتهم على مراعاتك، وقد سألوا عنك، فاتضح أنك كنت تنتمي إلى المجتمع الراقي، وأنك في الماضي قد عملت في «الحرس»، غير أنك أُقصيت من ذلك المجتمع، واتضح أن سمعتك الآن مشبوهة بل أكثر من مشبوهة. ورغم ذلك انتقلت إليك لأستطلع الأمر بنفسي، وها أنت ذا تستبيح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن، ثم تشهد على نفسك بأنك تصاب بنوبات... كفى! إن مركز البارون وسمعته لا يمكن أن يتورطا في هذا الأمر. والخلاصة أيها السيد أنني مكلف بأن أعلن لك أنك إذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع، فسوف تلتمس لتهدئتك وسائلها على الفور، وهي وسائل أؤكد لك أنها مضمونة جداً وسريعة جداً. إننا لا نعيش في الغابات، بل في دولة لها شرطة!

ـ هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزي الطيب البارون «ر...»؟

ـ أف...

كذلك صرخ البارون ثم نهض فجأة وقال:

ـ إنك تغريني بأن أبرهن لك حالاً على أنني لست «عزيزك

Twitter: @ketab_n

البارون الطيب».

نهض فرسيلوف هو أيضاً وقال:

ـ أنبّهك مرةً أخرى إلى أن زوجتي وابنتي ليستا بعيدتين، لذلك أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً، لأن صرخاتك تصل إليهما.

ـ امرأتك... هاه! لئن بقيت أتحدث إليك هذه المدة كلها، فمن أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة...

كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضباً حانقاً، ولم يخفض صوته أي خفض. ثم صرخ يقول ساخطاً:

ـ كفى! إنك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب، بل أنت كذلك رجل مهووس، مهووس حقاً، رجل مختل العقل؛ وهذا بعينه ما وصفوك به! إنك لا تستحق التسامح، وإني لأعلن لك أن تدابير معيّنة سوف تُتخذ في هذا اليوم نفسه، وأنك ستُستدعى إلى مكانٍ تُردُّ فيه إلى الصواب... وستُخرج من المدينة!

قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة. ولم يشيعه فرسيلوف، بل ظل واقفاً ينظر إليَّ في ذهول كأنه لا يلاحظني. وابتسم فجأة، وهزَّ شعره، وتناول قبعته، واتجه نحو الباب هو أيضاً. فأمسكت يده. فتوقف أمامي وقال:

ـ ها... حقاً... أنت هنا! هل... أصغيت؟

ـ كيف أبحت لنفسك أن تتصرف هذا التصرف؟ كيف أمكنك أن تشوه وأن تلطخ بالعار... وأن تغدر هذا الغدر كله؟

حدَّق إليَّ بنظرة ثابتة، ولكن ابتسامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء، حتى صارت إلى ضحك حقاً.

صحت أقول خارجاً عن طوري:

ـ لكنني أنا الذي لُطِّخت بالعار... أمامها! أمامها! هُزِّئت على

Twitter: @ketab_n

مرأى منها. لقد دفعني دفعاً مهيناً.

قال:

ـ هل هذا ممكن؟ آه يا بني المسكين، لكم أشفق عليك! هزؤوك؟

ـ أتضحك، أتضحك مني؟ أترى هذا داعياً إلى الضحك؟

استل يده من يدي مسرعاً، وتناول قبعته، وخرج من البيت ضاحكاً، ضاحكاً الآن ضحكاً حقاً!

أألحق به؟ علام؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء في دقيقة! وأبصرت ماما فجأة. كانت قد نزلت، وهي تلقي عليَّ الآن نظرة وجلة.

ـ هل خرج؟

قبَّلتها في صمت، وقبلتني بقوَّة، بقوَّة، ملتصقة بي التصاقاً.

ـ ماما العزيزة، كيف يمكنك أن تبقي هنا؟ لنرحل فوراً، سوف أؤويك، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشغال الشاقة، من أجلك ومن أجل ليزا. لنتركهم جميعهم، جميعهم، ولنرحل. سنكون وحدنا. ماما، هل تتذكرين يوم جئت تزورينني عند توشار ورفضت أن أتعرفك؟

ـ أتذكر يا بني. طوال حياتي كنت آثمةً في حقك. ولدتك ثم لم أعرفك.

ـ هو الآثم يا ماما. هو سبب كل شيء. لم يحببنا في يوم من الأيام.

ـ بلى. أحبنا.

ـ لنرحل يا ماما.

ـ كيف أتركه؟ هل هو سعيد؟

Twitter: @ketab_n

ـ أين ليزا؟

ـ في السرير. ما إن عادت حتى مرضت. أنا خائفة. ما بالهم حانقين عليه هذا الحنق كله؟ ماذا يريدون به؟ لماذا كان هذا الضابط يهدده؟

ـ لن يقع له سوء يا ماما. لن يقع له سوء أبداً. لن يقع له سوء أبداً. ولا يمكن أن يقع له سوء. هكذا خلق! ولكن ها هي ذي تاتيانا بافلوفنا. اسأليها إن كنت لا تصدقينني.

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا. وتابعت أقول:

ـ إلى اللقاء يا ماما، سأعود حالاً، وسأطلب منك هذا الطلب مرة أخرى...

ووليت هارباً. كنت لا أطيق أن أرى أحداً، ناهيك عن تاتيانا بافلوفنا. كان أمر ماما يعذبني عذاباً شديداً. كنت أريد أن أخلو إلى نفسي، وحيداً، وحيداً.

5

ولكن ما إن وصلت إلى الشارع التالي حتى أحسست أنني عاجز عن السير. وكنت أصطدم اصطداماً غبياً بأولئك الناس، الغرباء، غير المكترثين. إلى أين أذهب؟ مَنْ هو في حاجة إليَّ، وما الذي أحتاجه أنا الآن؟ وسرت سيراً آلياً حتى وصلت إلى بيت الأمير سرجي بتروفتش دون أن يخطر على بالي البتة. لم يكن الأمير بالبيت. فقلت لبطرس (خادمه) إنني سأنتظر في مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً). إنها غرفة واسعة، عالية السقف جداً، ملأى بأثاث كثير. مضيت إلى أعتم ركن، وجلست على ديوان، ووضعت كوعيَّ على المائدة، وأسندت رأسي إلى يديَّ.

Twitter: @ketab_n

نعم، كان هذا هو السؤال: «ما الذي أنا في حاجة إليه الآن؟». ولئن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال، فلقد كنت عاجزاً عن الإجابة عنه كل العجز.

ولكنني كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل. سبق أن ذكرت من قبل أنني في نهاية تلك المرحلة كانت «الأحداث قد سحقتني». والآن، فيما أنا جالس، كان شيء كالسديم يدور في رأسي إعصاراً. «نعم، إنني لم أر من هذا الرجل شيئاً، ولم أفهم عنه شيئاً». تلك هي الفكرة التي كانت تبرق في خاطري في بعض اللحظات. «لقد ضحك مني في وجهي منذ قليل؛ ولكن لا، إنه لم يضحك مني أنا، بل كان لا يزال يضحك من بيورنج، لا مني أنا. أمس الأول، أثناء العشاء، كان يعرف كل شيء، وكان قاتم النفس. لقد استولى على اعترافي الغبي في المطعم، فشوَّه كل شيء، على حطام الحقيقة. ما حاجته إلى الحقيقة؟ إنه لا يصدِّق نصف كلمة مما كتبه إليها. كانت حاجته كلها هي أن يجرح، أن يجرح لغير سبب، بل دون أن يعرف لماذا، متشبثاً بأية حجة، وقد قدمت أنا إليه تلك الحجة... هذه فعلة كلب مسعور!... هل ينوي الآن أن يقتل بيورنج؟ لماذا؟ لأي سبب؟ إن قلبه يعرف السبب! أما أنا فإنني أجهل ما في قلبه... نعم، ما زلت أجهل هذا حتى الآن. هل يحبها هذا الحب المشبوب كله؟ لا أدري. وهل يدري هو نفسه؟ لماذا قلت لأمي «إنه لا يمكن أن يقع له سوء»؟ وماذا عنيت بهذا الكلام؟ أتراني فقدته أم لم أفقده؟...».

... «لقد رأت كيف دُفعت... وضحكت أيضاً... أم أنها لم تضحك؟ لو كنت أنا في مكانها لضحكت! الجاسوس هو مَنْ ضُرب، الجاسوس!...».

Twitter: @ketab_n

«وما الذي عناه (واتتني هذه الفكرة فجأة)، ما الذي عناه حين دسَّ في رسالته الدنيئة تلك أن الوثيقة لم تُحرق، وأنها لا تزال موجودة؟...».

«لن يقتل بيورنج. هو الآن في المطعم قطعاً، يصغي إلى أغنية لوسيا! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضي يقتل بيورنج. لقد دفعني بيورنج، بل ضربني تقريباً. هل ضربني؟ إن بيورنج يأبى حتى أن ينازل فرسيلوف: فهل ينازلني أنا؟»، «قد يكون عليَّ أن أقتله في الغد برصاصة مسدس، وأن أتربص به في الشارع...». نشأت هذه الفكرة في ذهني من تلقاء نفسها تماماً، ولم أتوقّف عندها البتة.

وفي بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيُفتح فتدخل كاترينا نيقولايفنا: تدخل فتمد لي يدها وننفجر ضاحكين كلانا... آه... عزيزي، الطالب! إن هذه الفكرة بل قل هذه الرغبة إنما عرضت لي حين ساد الظلام الغرفة تماماً. ولكن هل وقفت أمامها مدة طويلة أودِّعها بينما هي تمد إليّ يدها وتضحك؟ كيف يمكن هذا: في برهة وجيزة من الزمن، على مثل هذه المسافة الرهيبة! ألا فلأذهب إليها ببساطة فأناقشها حالاً، ببساطة، ببساطة! رباه! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ، جديد كل الجدة، كل الجدة... ليزا، الأمير، لا يزال هذا هو العالم القديم... أنا الآن عند الأمير. وماما، كيف أمكنها أن تعيش معه إذا صدق الأمر؟ أنا كان في إمكاني، ولكن هي؟ ما الذي سيحدث الآن؟». وأخذت أطياف ليزا، وآنا آندرييفنا، وستيبلكوف، والأمير، وآفردوف، والجميع، تتلاحق كإعصار دون أن تترك أثراً في ذهني المريض. وأصبحت الصور تزداد إبهاماً وتستعصي على الإدراك مزيداً من الاستعصاء. فأسعدني أن أفهم واحدةً منها وأن أمسك بها.

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي فجأة: «إن لي» «فكرتي»، ولكن هل هذا صحيح حقاً؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب؟ إن فكرتي هي العتمة والعزلة، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بعتمة الماضي تلك؟ آه! يا رب! ولكن السبب هو أنني لم أحرق «الوثيقة»! لقد نسيت أن أحرقها أمس الأول. سأرجع إلى بيتي فأحرقها على لهب الشمعة، نعم، على لهب الشمعة. ولكنني لا أدري هل حسن ما أفكر فيه الآن. . .».

ساد الظلام منذ مدة طويلة وجاء بطرس بالشموع. وقف أمامي وسألني هل أكلت؟ فلم أزد على أن أشرت له بيدي. ومع ذلك جاءني بعد ساعة بشاي، فشربت كأساً كبيرة بشراهة. ثم سألته كم الساعة؟ كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف. لم يدهشني حتى أن أكون قد قضيت هنا خمس ساعات. قال بطرس:

ـ جئت ثلاث مرات، ولكنني أعتقد أنك كنت نائماً.

لم أتذكر أنه دخل عليّ. ولكنني لا أدري لماذا روَّعني فجأة أن أكون قد «نمت»، فإذا أنا أنهض وأمشي في الغرفة طولاً وعرضاً حتى لا أنام. وأخيراً أحسست بصداع في رأسي. حتى إذا كانت الساعة العاشرة تماماً دخل الأمير، فأدهشني أنني انتظرته. كنت قد نسيته كل النسيان، كل النسيان.

قال لي:

ـ أنت هنا، وأنا ذهبت أبحث عنك في بيتك!

كانت هيئته مكفهرة قاسية. وكانت عيناه تعبران عن فكرة ثابتة ثاوية في قرارة ذهنه.

تابع يقول:

ـ كافحت طول النهار واستعملت جميع الوسائل، ولكن كل

Twitter: @ketab_n

شيء أخفق فأصبح وضعي الآن رهيباً. (ملاحظة: لم يذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش). رأيت جيبلسكي. إنه إنسان فظيع. اسمع: لا بد أولاً من الحصول على المال، ثم نرى ما يكون من الأمر. وإذا لم نظفر بالمال، فعندئذ... لكنني قررت ألا أفكر اليوم في هذا. اليوم يجب أن نحصل على المال، وفي غد نرى أن المبلغ الذي ربحته أنت أمس الأول لا يزال كاملاً. هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات. فإذا طرحنا دينك يبقى عليَّ أن أرد إليك ثلاثمائة. فخذها وأضف إليها سبعمائة لتصبح ألفاً، وآخذ أنا الألفين. ثم نمضي معاً إلى تسرشتشيكوف، فنجلس على طرفين متقابلين ونحاول أن نربح عشرة آلاف، فعسى أن نصل إلى شيء... وإلا. هذا هو المخرج الوحيد الذي بقي لي.

وألقى عليَّ نظرة يائسة.

هتفت أقول فجأة كأنني بعثت بعثاً جديداً:

ـ نعم نعم! هيا بنا! لم أكن أنتظر إلا أن تجيء...

لاحظوا أن الروليت لم تخطر ببالي لحظة واحدة طوال تلك الساعات كلها.

وقال الأخير يسأل على حين فجأة:

ـ والدناءه؟ وحقارة الفعل؟

فهتفت أقول:

ـ ماذا؟ ذهابنا إلى الروليت؟ ولكن هذا هو المخرج. إن المال هو كل شيء. نحن القديسان أنا وأنت، على حين أن بيورنج باع نفسه، وآنا آندرييفنا باعت نفسها، وأن فرسيلوف... هل تعرف أن فرسيلوف مختل؟ مختل، مختل!...

ـ ألست مريضاً يا آركادي ماكاروفتش؟ إن عينيك غريبتان.

Twitter: @ketab_n

ـ هل تقول هذا لتذهب إلى الروليت دون أن تصطحبني؟ لن أتركك بعد الآن. ليس عبثاً أنني حلمت بالقمار طول الليل. هيا بنا إلى الروليت! هيَّا بنا!

كذلك صحت كأنني اكتشفت حل اللغز فجأة.

ـ طيب، هيَّا بنا، رغم أن بك حمى، وهناك...

لم يكمل الأمير جملته. كان في وجهه شيء أليم مرعب وخرجنا.

قال لي فجأة وهو يقف على العتبة:

ـ هل تعلم أنه لا يزال هناك مخرج آخر غير القمار؟

ـ ما هو؟

ـ مخرج جدير بأمراء.

ـ ما هو؟ ما هو؟

ستعرفه في المستقبل. ولكن أعلم أنني الآن لا أستحقه، لقد فات الأوان. هلمَّ، وتذكر أقوالي هذه. لنجرب المخرج الجديد بعامة الناس. هل يمكن أن أجهل أنني أتصرف تصرف خادم، بوعي واضح وإرادة كاملة؟

6

طرت إلى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تجمعت هناك، وكأن الروليت هي الحل الوحيد. ومع ذلك لم تكن الروليت قد خطرت ببالي قبل وصول الأمير، كما سبق أن ذكرت. على أنني لم أذهب مقامراً لنفسي، وإنما ذهبت مقامراً بمال الأمير ومن أجل الأمير. إنني لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يجذبني، ولكنني كنت منجذباً انجذاباً لا سبيل إلى مغالبته. لا، لا، إن هؤلاء الناس،

Twitter: @ketab_n

وهذه الوجوه، وأولئك القوامين على مائدة الروليت، وتلك الصرخات التي يطلقها المقامرون، وتلك الصالة الحقيرة كلها، صالة تسرشتشيكوف، ذلك كله لم يبد لي في يوم من الأيام على هذا القدر كله من البشاعة والجهامة والفظاظة والحزن كما بدا لي في هذه المرة! إنني أتذكر بوضوح ما بعده وضوح شعور الحداد والحزن الذي كان يعتصر قلبي أثناء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار. ولكن لماذا لم أبارحها؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يذعن لقدر أو كمن يقدم نفسه قرباناً أو كمن يقوم بسخرة؟ يمكنني أن أقول شيئاً على كل حال: هو أنني لا أستطيع أن أقطع حقاً بأنني كنت أملك عقلي كاملاً حينذاك. ومع هذا لم أقامر في حياتي بتعقل كما قامرت في ذلك المساء. كنت صامتاً مركز التفكير شديد الانتباه بارعاً في الحساب إلى حد رهيب، وكنت صبوراً وبخيلاً، وكنت في الوقت نفسه حازماً في اللحظات الحاسمة. جلست من جديد أمام الصفر، أي مرةً أخرى بين تسرشتشيكوف وأفردوف الذي يجلس دائماً على يمين تسرشتشيكوف. لقد كنت أشمئز من هذا المكان، ولكنني أردت أن أحط على الصفر حتماً، وكانت جميع الأماكن الأخرى حول الصفر محتلة. قامرنا قرابة ساعة. وأخيراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه إلى الطرف الذي كنا فيه، ويقف أمامي في الجهة الأخرى من المائدة: كان قد خسر كل ما معه، فهو ينظر إلى لعبي صامتاً، ربما دون أن يفهم منه شيئاً بل دون أن يفكر في اللعب. وكنت قد أخذت أربح، وكان تسرشتشيكوف قد نقدني مبلغاً. فإذا أنا أرى آفردوف يتناول ورقة من أوراقي بمائة روبل، فيضمها إلى الكدسة التي كانت أمامه. فعل هذا فجأة، دون أن يقول كلمة، على مرأى مني، بأكبر

Twitter: @ketab_n

وقاحة. فصرخت وأمسكت يده. حدث لي عندئذ شيء لم أتوقعه أنا نفسي: إن جميع الأهوال والإهانات التي قاسيت منها في النهار قد تجمعت فجأة في هذه اللحظة الوحيدة، في سرقة هذه الورقة. لكأن كل ما تراكم وانضغط في نفسي كان لا ينتظر إلا هذه اللحظة لينفجر. فهأنذا أصرخ خارجاً عن طوري ناظراً فيما حولي:

ـ هذا لص. لقد سرق مني ورقة بمائة روبل.

لا أريد أن أصف كل ما أثارته هذه الكلمات من جلبة ولغط. إن حادثة كهذه هي في هذا المكان شيء جديد كل الجدة. إن الناس في صالة تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة. ولكنني كنت قد فقدت صوابي. وهذا صوت تسرشتشيكوف يجلجل وسط الضجة والصياح قائلاً على حين فجأة:

ـ اختفت فعلاً، ليس في ذلك شك. كانت هنا. أربعمائة روبل!

هذه قضية أخرى: إن كدسة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من «البنك» تحت أنف تسرشتشيكوف. وأخذ تسرشتشيكوف يبيِّن المكان الذي كانت فيه الكدسة قائلاً: «كانت هنا منذ لحظة»، وكان هذا المكان قريباً مني كل القرب، بل كان يلاصقني، كان يلاصق الموضع الذي فيه مالي، كان أقرب إليَّ منه إلى آفردوف كثيراً.

وهتفت أقول مشيراً إلى آفردوف:

ـ اللص هنا! هو الذي سرق أيضاً! نبِّشوه!

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول:

ـ مرجع هذا كله إلى أنه يُسمح لأي شخص بالدخول إلى هنا. أناس لم يوص بهم أحد. من أتى به؟ من هو هذا؟

ـ رجل يقال له دولجوروكي.

ـ الأمير دولجوروكي.

Twitter: @ketab_n

وصرخ أحدهم يقول:

ـ الأمير سوكولسكي هو الذي أتى به.

صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابي:

ـ اسمع يا أمير: يظنون أنني أنا السارق مع أنني سُرقت في هذه اللحظة نفسها! فقل لهم، قل لهم من أنا!

عندئذ حدث شيء هو أفظع من كل ما سبق حدوثه في ذلك اليوم كله... بل في حياتي كلها: أنكرني الأمير. رأيته يرفع منكبيه، ويجيب عن الأسئلة التي كانت تنهمر عليه قائلاً بصوت واضح قاطع:

ـ أنا لست مسؤولاً عن أحد. أرجوكم أن تدعوني وشأني.

وفي أثناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشد طالباً بصوت عالٍ أن ينبشوه، وأخذ يقلب جيوبه، ولكن الأصوات ارتفعت تجيب عن مطالبته صائحة: «لا، لا، السارق نحن نعرفه». وكان قد نودي خادمان، فإذا هما يمسكان ذراعيَّ من خلف.

فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلِّص يديَّ:

ـ لن أسمح لأحد بأن ينبشني، لن أسمح لأحد بذلك.

ولكنني جررت جراً إلى غرفة مجاورة، وهناك نبشت ثيابي كلها دون أن تغفل منها ثنية واحدة، فكنت أصرخ وأتخبط محتجاً. قال أحدهم:

ـ لا بد أنه رمى ما سرقه إلى الأرض.

فأجاب آخر:

ـ ولكن أين نبحث عنها الآن في الأرض؟

ـ تحت المائدة. لا شك أنه رماها تحت المائدة.

ـ لم يبق لها أثر حتماً...

Twitter: @ketab_n

واقتادوني، لكنني استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على العتبة وأن أصرخ في حنق مجنون:

ـ الروليت تحظرها الشرطة. سأشي بكم جميعاً في هذا اليوم نفسه.

ـ أنزلوني على السلم، وألبسوني معطفي و. . . فتحوا لي باب الشارع.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

1

هكذا انتهى اليوم بكارثة. وإليكم ما أتذكره عن تلك الليلة:

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليلاً حين وجدت نفسي في الشارع. كانت الليلة صافية هادئة باردة. وكنت أسير سيراً يشبه أن يكون ركضاً، متعجلاً تعجلاً محموماً، لكنني لا أتجه إلى البيت. «علام الرجوع إلى البيت؟ هل يمكن أن أفكر في البيت الآن؟ إن المرء في البيت يحيا فإذا ذهبت الآن إلى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا: فهل هذا الآن ممكن؟ لقد انتهت الحياة، فيستحيل عليَّ بعد اليوم أن أحيا». هكذا ظللت أهيم على وجهي في الشوارع، لا أرى أين أمضي، بل إني لأجهل هل كنت أريد أن أمضي إلى مكان. وكنت أحس بحرٍ شديد، حتى لأحل أزرار معطفي في بعض اللحظات، ويتراءى لي أنه «ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية». شيء غريب: كان يبدو لي بغير انقطاع أن كل شيء من حولي، حتى الهواء الذي أتنسمه، إنما ينتمي إلى كوكب آخر غير الأرض، وكأنني وجدت نفسي فجأة على سطح القمر. كل شيء: المدينة، المارَّة، الرصيف الذي أركض عليه، ذلك كله لم يبق لي أنا فكنت أقول لنفسي: «هذا ميدان

Twitter: @ketab_n

القصور؛ وهذه بحيرة إسحاق، ولكن لم يبق لي بهما الآن شأن، لا علاقة لي بهما الآن!». أصبح كل شيء غريباً عني، كفَّ كل شيء عن أن يكون لي. «إن لي ماما وليزا! ولكن ماذا تستطيع ماما وليزا أن تصنعا لي الآن؟ انتهى كل شيء، انتهى كل شيء دفعةً واحدة، إلا شيئاً واحداً: أنني سارق إلى الأبد».

«كيف أبرهن على أنني لست سارقاً؟ هل يمكن الآن هذا؟ أأسافر إلى أمريكا؟ ولكن ما الذي أستطيع بذلك أن أبرهن عليه؟ لسوف يكون فرسيلوف أول من يصدِّق أنني سرقت! «الفكرة»؟ أية «فكرة»؟ ما «الفكرة» الآن؟ بعد خمسين سنة، بعد مائة سنة، حين سأمر، سيوجد دائماً من يشير إليَّ بإصبعه قائلاً: هذا سارق، دشَّن «فكرته» بسرقة مال في الروليت...».

هل شعرت بحقد؟ لا أدري. لعلني شعرت بحقد. غير أن هناك صفة غريبة أتصف بها، ربما منذ نعومة أظفاري: إذا نالني أحد بإساءة، إذا بلغت هذه الإساءة حدّها الأقصى، إذا أهانني أحد إهانة شديدة، فإنني أشعر دائماً برغبة نهمة في تحمل الإهانة دون رد، بل في أن أستبق رغبات المسيء، فكأنني أقول له: «خذ، إنك تذلني، فهأنذا أذل نفسي مزيداً من الإذلال. فأنظر إليَّ وأعجب بي!». كان توشار يضربني وكان يريد أن يُظهر أنني خادم، إنني لست ابن عضو من أعضاء مجلس الشيوخ. فسرعان ما كنت أقوم بدور الخادم، فلا أقتصر على أن أناوله ثيابه بل أتناول الفرشاة طوعاً من تلقاء نفسي، وآخذ أنفض عن ثيابه أيسر غبار عالق بها، دون أن يكون قد طلب مني ذلك أو أمرني به، وكنت في بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم، لأزيل عن ردائه آخر ذرة من غبار، إلى أن يوقفني من تلقاء نفسه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«كفى كفى يا آركادي، هذا كافٍ!». وكنت إذا عاد بعد خروج، فنزع معطفه، آخذ أنطف المعطف بالفرشاة، وأطويه بعناية تامة، وأغطيه بغطاء من حرير ذي مربعات. كنت أعرف أن رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني، كنت أعرف هذا حق المعرفة، ولكن ذلك بعينه هو ما كان يرضيني، فكأنني أقول لهم: «أردتم لي أن أكون خادماً، فانظروا كيف أنني خادم. ما دمت خادماً فلأكن خادماً تماماً!». وقد احتفظت بهذا الكره السلبي وهذا الحقد الخفي سنين طويلة. وعند تسرشتشيكوف، حين صرخت قائلاً لجميع من في الصالة وقد ثارت ثائرتي وخرجت عن طوري: «سوف أشي بكم جميعاً، فالروليت تحظرها الشرطة»، فيميناً أن عاطفة من هذا النوع هي التي كانت تحركني: لقد أذلوني ونبشوني ووصفوني على رؤوس الأشهاد بأنني لص، أي قتلوني قتلاً، فكأنني رددت على ذلك قائلاً: «طيب... اعلموا جميعاً أنكم عرفتموني على حقيقتي، اعلموا أنني لست لصاً فحسب، بل إنني أيضاً واش!». حين أتذكر اليوم ما حدث، فإنني أفسِّره هذا التفسير وألخصه هذا التلخيص. ولكن الأمر حينذاك لم يكن أمر تحليل، فأطلقت صرختي تلك بغير نية، وقبل ذلك بثانية واحدة كنت أجهل أنني سأطلقها. لقد خرجت الصرخة من تلقاء نفسها، ولكنها خرجت لأن هذه الصفة التي أتصف بها كانت قائمة في نفسي.

لا شك أن هذياني كان قد بدأ حين أخذت أركض، ولكنني أتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح أنني كنت أتصرف واعياً. كل ما هنالك ـ وهذا ما أستطيع أن أقطع به واثقاً ـ أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستنتاجات كان موصداً دوني: فحتى في ذلك الوقت كنت أشعر بيني وبين نفسي أن «ثمة أفكاراً يمكن أن توافيني، وأن

Twitter: @ketab_n

ثمة أفكاراً أخرى ممنوعة عني إطلاقاً». وكذلك كانت بعض قراراتي، فهي وإن اتخذت بوعي واضح وشعور كامل، كان يمكن أن تخلو حينذاك من أي منطق داخلي. بل أكثر من ذلك إنني أتذكر تذكراً واضحاً أن قراراً من قراراتي كان يمكنني في بعض اللحظات أن أشعر بسخافته واستحالته ثم أشرع مع ذلك في تنفيذه على الفور واعياً كل الوعي. نعم، لقد كانت الجريمة تتربص بي في تلك الليلة، ولئن لم أرتكب جريمة فإن الفضل في ذلك يرجع إلى الصدفة وحدها.

وفجأة وافتني الكلمة التي قالتها تاتيانا بافلوفنا عن فرسيلوف: «ليذهب إلى خطّ سكّة نيقولا فيضع رأسه على السكة الحديدية، فينفصل رأسه عن جسمه على نحو مناسب». وسيطرت هذه الفكرة لحظةً على جميع مشاعري، ولكنني لم ألبث أن طردتها من ذهني على الفور متألماً، إذ قلت لنفسي: «أضع رأسي على السكة الحديدية وأموت؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً: هو السارق إذن، شعر بالخزي والعار فانتحر. لا، لن أفعل هذا أبداً». وأذكر أن شرارة كره رهيب قد شبت في قلبي في تلك اللحظة. قلت: «ماذا؟ يستحيل عليَّ بعد اليوم أن أبرىء نفسي، يستحيل عليَّ أن أبدأ حياة جديدة. فيجب إذن أن أخضع، يجب أن أجعل نفسي خادماً، يجب أن أكون كلباً، أن أكون ذبابة، أن أكون واشياً، أن أكون الآن واشياً بالفعل، وفي أثناء ذلك أستعد بهدوء ورفق، حتى إذا آن الأوان في ذات يوم دمرت كل شيء، أبدت كل شيء، أفنيت العالم كله، المجرمين فيه والأبرياء. وسيعلم الناس جميعاً حينذاك، على حين فجأة، أن الذي فعل ذلك إنما هو الرجل الذي اتهموه بأنه لص، وبعدئذ إنما انتحر».

Twitter: @ketab_n

لا أذكر الآن كيف أفضى بي السير إلى زقاق صغير قريب من شارع «الفرسان». إن هذا الزقاق تحفّه في الجانبين، على طول مائة متر تقريباً، جدران عالية هي حواجز تحجب وراءها أفنية منازل. وأبصرت خلف أحد هذه الجدران، على اليسار، كومة كبيرة من حطب، كومة عالية جداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين. فوقفت فجأة وأخذت أفكر. كان في جيبي أعواد كبريت من شمع، محفوظة في علبة من فضة. أكرر مرةً أخرى أنني كنت عندئذ أعي وعياً واضحاً ما أفكر فيه وما أريد أن أعمله، وما زلت أذكر هذا إلى اليوم، ولكن لو سألتني لماذا أردت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البتة. كل ما أتذكره هو أن هذه الرغبة قد استبدت بي وملكت عليَّ مشاعري فجأة. قلت لنفسي: «إن تسلق الجدار ممكن جداً». لقد كان هناك، على بعد خطوتين، باب كبير لا شك أنه مغلق منذ أشهر طويلة. وتابعت تفكيري قائلاً لنفسي: «إذا وضعت قدمي على حرف أسفله، كان في إمكاني أن أتشبث بأعلاه، فأتسلق الجدار، ولن يرى أحد شيئاً. لا أحد سيرى شيئاً! صمت كامل! وهناك في أعلى الجدار، سأستقر مرتاحاً، فأشعل النار في الحطب. هذا سهل، حتى بدون أن أنزل إلى الفناء، لأن الحطب يكاد يلامس الجدار. وبسبب الهواء ستسري النار في الحطب سريعة. ليس عليَّ إلا أن أسحب بيدي حطبة سندر. . . بل لماذا الحطبة؟ أستطيع رأساً، وأنا جالس على الجدار، أن أنتزع بيدي قليلاً من القش، فأشعله بلهب الكبريت، أشعله ثم أدسه في وسط الحطب، فيشب الحريق. وأثب أنا إلى أسفل الجدار وأنصرف. ولا داعي حتى إلى الركض، لأن الحريق لن يلاحظه أحد إلا بعد مدة. . .». أدرت هذا كله في رأسي، ثم

Twitter: @ketab_n

عزمت أمري تماماً على حين فجأة. وشعرت بلذة قصوى، بلذة قصوى وتسلقت. كنت أجيد التسلق إجادة عظيمة: إنني منذ كنت في الليسيه كنت متفوقاً في الرياضة البدنية تفوقاً كبيراً. ولكنني كنت أنتعل حذاءين من كاوتشوك، فكان ذلك عقبة. ومع ذلك استطعت أن أمسك بإحدى يديَّ حافة لا يكاد يُرى بروزها، وأن أصعد. وهممت أن أقذف يدي الأخرى لأتشبث بأعلى الجدار، فإذا بقدمي تنزلق فأسقط منقلباً. أظن أن رقبتي اصطدمت بالأرض. ولا شك أنني بقيت مغشياً عليَّ مدة دقيقة أو دقيقتين. فلما أفقت من غيبوبتي، عقدت أزرار معطفي بغير شعور، لأنني أحسست ببرد لا يحتمل، وجررت نفسي جراً إلى حيث الباب الكبير، فلطوت هناك وأنا لا أعي ما أفعل وعياً واضحاً، وتجمعت على نفسي في تجويف بين الباب ونتوء الجدار. كانت الأفكار في ذهني مضطربة، وأغلب الظن أنني سرعان ما غفوت. إنني أذكر الآن، كما لو كنت في حلم، أن صوت نواقيس، عميقاً ثقيلاً، قد ترجَّع في أذنيَّ فجأة، وأنني أصغيت إلى ذلك الصوت متلذذاً.

2

كان الناقوس يرن مرةً كلَّ ثانيتين، بل كل ثلاث ثوان، ولكن صوته ليس صوت ناقوس الخطر، بل هو صوت ممتع بهيج عريض، ولم ألبث أن ميزته فجأة: إنه ناقوس كنيسة القديس نيقولا، الكنيسة الحمراء التي تقع في مواجهة منزل توشار! ـ هي كنيسة موسكوبية قديمة، ذكراها في خيالي واضحة، شيدت في عهد ألكسي ميخائيلوفتش، بمسنناتها وقبابها الكثيرة وأعمدتها. وقد انتهى أسبوع الفصح منذ برهة قصيرة، وعلى أشجار السندر النحيلة في حديقة آل

Twitter: @ketab_n

توشار، أخذت تهتز الأوراق الخضر الجديدة منذ الآن. والشمس المتألقة عند الأصيل تسكب أشعتها المائلة في صفنا بالمدرسة، وأنا، في غرفتي الصغيرة التي تقع على اليسار، والتي أقصاني إليها توشار بعيداً عن «أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ»، عندي زائرة. نعم، أنا الولد الذي لا يُعرف له منبت، عندي زائرة، أتتني أول مرة منذ أن أودعت في مدرسة توشار. ولقد تعرفتها منذ دخلت: أنها أمي. تعرفتها رغم أنني منذ العهد الذي كانت تقودني فيه إلى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس، وهي الكنيسة التي كانت الحمامة تجتاز قبتها، لم أرها مرةً واحدة. نحن الآن جالسان معاً. وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً. ولقد عرفت فيما بعد، عرفت بعد سنين كثيرة، أنها في ذلك الحين، وقد بقيت وحيدة إذ تركها فرسيلوف وسافر إلى الخارج فجأة، جاءت إلى موسكو دون أن يكون لأحد سلطان عليها، مستعينةً على ذلك بما تملك من مال زهيد، كاتمة أمر سفرها تقريباً عن أولئك الذين عهد بها إليهم، وذلك كله من أجل أن تراني لا أكثر. شيء غريب أيضاً: أنها حين دخلت قد تحدثت إلى توشار، أما أنا فلم تقل لي أنها أمي. هي الآن هنا على مقربة مني، وإني لأذكر أنني قد أدهشني أن أراها لا تتكلم إلا قليلاً جداً. وها هي ذي تفض صرَّة كانت تحملها: إن في الصرة ست برتقالات، وبضعة أقراص من الحلوى، ورغيفين من خبز أبيض. وقد ساءني الخبز، فأجبت أمي متجهم الهيئة بأننا نُطعم هنا أحسن الطعام، وأننا نُعطى كلَّ يوم مع الشاي رغيفاً كاملاً. فقالت لي أمي:

ـ لا بأس يا عزيزي، لقد قلت لنفسي بسذاجة: «لعلهم في هذه المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة». لا تؤاخذني يا حبيبي.

Twitter: @ketab_n

قلت:
ـ وسوف يُجرح شعور آنطونين فاسيليفنا (زوجة توشار)، وسوف يسخر رفاقي مني...
ـ ألا تريده إذن؟ قد تأكله مع ذلك!
ـ اتركيه، إذا شئت.

ولم أمسس الهدايا. فالبرتقالات وأقراص الحلوى بقيت على المائدة أمامي، وبقيت أنا جالساً خافضاً عينيَّ، ولكن على وقار. من يدري؟ لعلني كنت أتمنى ألا أخفي عنها أن زيارتها تُخجلني أمام رفاقي، وأن أظهر لها ذلك قليلاً لتفهم، كأن أقول لها: «إنك تخجلينني ولا تدركين ذلك من تلقاء نفسك». نعم، أقول لها ذلك أنا الذي في تلك اللحظة ذاتها كنت أجري وراء توشار حاملاً الفرشاة لأنفض عن ثيابه أقل غبار! وكنت أتصور كذلك مدى السخريات التي سيصبها عليَّ الصبية الآخرون متى انصرفت، وقد يصبها عليَّ توشار نفسه، فلم يهتز قلبي بأية عاطفة طيبة نحو أمي. كنت أنظر شزراً إلى فستانها القاتم العتيق، وإلى يديها الغليظتين اللتين تشبهان يدي شغالة، وإلى حذاءيها الثقيلين، وإلى وجهها الذي نحل نحولاً شديداً. إن جبينها قد تخدَّد منذ الآن بغضون صغيرة، مع أن آنطونين فاسيليفنا قالت لي بعد ذلك في المساء، بعد انصرافها: «لا بد أن أمك كانت في الماضي جميلة جداً».

وفيما كنا على هذه الحال إذا بآجاتي تدخل علينا بصينية فوقها فنجان قهوة. الوقت بعد الظهر. وآل توشار، في هذه الساعة، يحتسون القهوة دائماً عندهم في الصالون. ولكن ماما شكرتهم ولم تتناول الفنجان. وعلمت فيما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً، لأن القهوة تحدث لها خفقاناً في القلب. وآل توشار، في قرارة

Twitter: @ketab_n

أنفسهم، يرون أن زيارتها وسماحهم لها بزيارتي هو منتهى التسامح والكرم منهم، وأن فنجان القهوة الذي أرسلوه إليها هو ذروة الإنسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة وأفكارهم الأوروبية. ولكن أمي رفضت القهوة بمصادفة تشبه أن تكون عمداً.

ونوديت إلى عند توشار. فطلب مني أن آخذ جميع دفاتري وجميع كتبي وأن أظهر عليها أمي «لترى مدى ما أجنيه من فائدة في مدرسته». وانبرت آنطونين فاسيليفنا عندئذ فقالت لي بلهجة ساخرة وهي تزم شفتيها:

ـ أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك.

وجمعت دفاتري لأحملها إلى أمي التي كانت تنتظر. ومررت أمام «أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ» الذين احتشدوا في الصف وأخذوا يرقبوننا كلينا. وسرَّني أن أنفذ أمر توشار تنفيذاً دقيقاً محكماً. فكنت أفتح دفاتري فتحاً منظماً، وآخذ أشرح لأمي قائلاً: «هذه دروس قواعد اللغة الفرنسية. وهنا نصوص الإملاء. وهذا تصريف الفعلين المساعدين، فعل avoir وفعل être، وهنا الجغرافيا، وصف المدن الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم، الخ». ظللت نصف ساعة أو أكثر أشرح لأمي ذلك كله بصوت رقيق مطرد خافضاً عينيَّ كما يفعل ولد أُحسن تأديبه. وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب شيئاً، وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة، وهذا هو السبب في أن الدور الذي قمت به أعجبني. ومع ذلك لم أفلح في أن أُتعبها، فكانت تصغي إليَّ دون أن تقاطعني، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع، حتى اعتراني أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمرار من تلقاء نفسي. وكانت نظرتها حزينة، وكان في وجهها شيء يبعث على الشفقة.

Twitter: @ketab_n

ونهضتْ أخيراً لتنصرف. فإذا بتوشار يدخل بنفسه بغتةً، ويسألها بوقار مصطنع غبي إذا كانت راضية عن النجاح الذي حققه ابنها. فأخذت أمي تتمتم معبِّرةً عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة. ثم دخلت آنطونين فاسيليفنا. فرجتهما أمي ألا يتركا اليتيم، «لأنه الآن في حكم اليتيم، فاستمرا في إحسانكما إليه ونعمكما عليه...». وحيتهما مغرورقة العينين بالدموع، وحيّت كلا منهما على حدة، بانحناء شديد، كما يفعل العامة من أبناء «الشعب» حين يجيئون إلى سادة كبار يلتمسون منهم شيئاً. وكان توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك ليناً واضحاً، ولا شك أنها سرعان ما غيَّرت رأيها فيما يتعلق بفنجان القهوة. وازداد توشار اصطناعاً للوقار، وأجاب قائلاً بلهجة إنسانية «إنه لا يفرِّق بين الأولاد، وإنهم هنا جميعاً أولاده، وأنه هنا أبوهم كافة، وإنني أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكونتات وأبناء أعضاء مجلس الشيوخ، وأن هذا شيء يجب أن يقدر حقَّ قدره»، الخ، الخ. فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار. وتفاقم اضطرابها، فالتفتت إليَّ والدموع تلتمع في عينيها وقالت: «استودعك الله يا بني».

وقبَّلتني بل قل إنني سمحت لها أن تقبِّلني. وكان واضحاً أنها ودَّت لو تقبِّلني مزيداً من التقبيل، وأن تعانقني وأن تحضنني وأن تشدني إليها، ولكنها أمسكت عن ذلك إما لأنها استحت من الحضور، وإما لأنها شعرت بحزن، وإما لأنها أدركت أنني أشعر بخجل، فها هي ذي تحيي توشار وامرأته تحية أخيرة، وتسرع متجهةً إلى باب الخروج. وبقيت أنا مسمراً في مكاني.

قالت آنطونين فاسيليفنا:

Twitter: @ketab_n

ـ «هلاً تبعت أمك! إن هذا الولد لا قلب له!».

ورفع توشار منكبيه، كأنه يقول لها: «ليس عبثاً أنني أعامله كما يعامل خادم».

وأطعت أمر آنطونين فاسيليفنا، فنزلت وراء أمي، وخرجنا إلى درج الباب. وكنت أعلم أن الآخرين ينظرون إلينا الآن من النافذة. والتفتت أمي إلى الكنيسة، فرسمت إشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع، وكانت شفتاها تختلجان. ورنَّ جرس جهير في أعلى برج الناقوس رنات قوية منتظمة. فالتفت أمي إليَّ، ثم لم تطق صبراً فإذا هي تضع يديها على رأسي وتجهش باكية بكاء غزيراً.

ـ كفى يا ماما، هذا يخجلني... إنهم يروننا من النافذة...

فارتدت أمي إلى وراء، وأسرعت تريد الانصراف وقالت:

ـ طيب!... الرب... الرب معك!... ملائكة السماء تحرسك، ومريم العذراء والقديس نيقولا...

وظلت تردد بسرعة، وهي لا تزال ترسم إشارة الصليب، وتحاول أن تضع عليَّ مزيداً من الصلبان بمزيد من السرعة:

ـ الرب... الرب... حبيبي... عزيزي... ولكن انتظر قليلاً...

وأسرعت تدس يدها في جيبها فتستل منها منديلاً... منديلاً أزرق ذا مربعات قد عقد في طرفه عقداً قوياً... وأخذت تحاول حلَّ العقدة... ولكنها لم تفلح، فقالت:

ـ طيب... لا بأس... خذ المنديل أيضاً... إنه نظيف كل النظافة... قد تستعمله. إن في العقدة أربعة نقود كبيرة فيما أظن، فعسى أن تنتفع بها في شيء. لا تحقد عليَّ يا بني، ليس معي أكثر من ذلك... لا تزعل مني يا حبيبي.

Twitter: @ketab_n

أخذت المنديل. وقد أردت أن أنبِّهها إلى «أن مسيو توشار وآنطونين فاسيليفنا يعاملاننا أحسن معاملة، وأننا لا يعوزنا شيء»، ولكنني أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل.

ورسمت عليَّ إشارة الصليب مرةً أخرى، وتمتمت أيضاً بدعاء لا أدري ما هو، ثم إذا هي تحييني بانحناءة كبيرة بطيئة طويلة على حين فجأة، تماماً كما حيَّت توشار وامرأته فوق. لن أنسى هذه التحية ما حييت! لقد ارتعشت من قمة رأسي إلى أخمص قدميَّ، لا أدري أنا نفسي لماذا! ماذا قصدت من هذه التحية؟ أكانت «تعترف بخطيئتها أمامي» كما تخيلت ذلك كثيراً فيما بعد؟ لا أدري. ولكنني شعرت حينذاك بمزيد من الخجل والخزي، «لأنهم كانوا هناك في أعلى ينظرون، وقد يضربني لامبرت بعد قليل».

وانصرفت أخيراً.

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد التهمها أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ حتى قبل أن أعود، وسرعان ما انتزع مني لامبرت النقود الأربعة الكبيرة. فاشتروا بها كتلة كبيرة من الشوكولاتة والجاتوه من عند بائع الحلوى، ولم يذيقوني شيئاً مما اشتروا.

انقضت ستة أشهر. نحن الآن في شهر تشرين الأول (أكتوبر). رياح وأمطار. نسيت أمي نسياناً تاماً. والكره، الكره الأسود العميق لكل شيء، قد نفذ إلى قلبي واستولى عليه استيلاء كاملاً. وما زلت أنفض الغبار عن ثياب توشار بالفرشاة، لكنني أكرهه الآن بكل ما أملك من قوى، وما زال كرهي يزداد شدة وتأججاً. وذات يوم، في ساعة الغسق الحزينة، بينما كنت أنبش علبتي، إذا أنا أبصر المنديل الأزرق في الركن الذي دسسته فيه منذ أعطتنيه أمي.

Twitter: @ketab_n

فأخرجته وأخذت أتأمله باهتمام. إن طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة، بل لا يزال يحتفظ بأثر قطعة نقدية مستديرة. ولكنني لم ألبث أن أعدت المنديل إلى مكانه وأغلقت العلبة. كان ذلك في عشية عيد، وقد أخذت الأجراس تقرع مؤذنة بقداس الليل. وكان التلاميذ قد ذهبوا إلى أسرهم بعد الغداء، ولكن لامبرت قد بقي في هذه المرة، لأن أهله لم يرسلوا أحداً يصطحبه. أنه لا يزال يضربني كما كان يفعل من قبل، ولكنه أصبح يبوح لي بأشياء كثيرة، وأصبح في حاجة إليَّ. لبثنا طوال السهرة نتكلم عن مسدسات لوباج التي لم يسبق لأحد منا أن رآها، وعن السيوف الشركسية، وانتقل لامبرت أخيراً إلى حديثه المفضَّل، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصغي إليه رغم ما أشعر به من دهشة بيني وبين نفسي. ولكنني في هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لا يطاق، فقلت للامبرت إنني أشعر بصداع في رأسي، ومضينا إلى النوم. فغمرت رأسي بالغطاء، واستللت المنديل الأزرق من تحت المخدة: كنت قد عدت إلى إخراجه من العلبة قبل ساعة، فما أن رُتِّب سريرانا حتى وضعته تحت المخدة. شددت المنديل إلى وجهي وأخذت أقبّله. وهمست أقول وقد استولت عليَّ ذكرى أمي وانقبض صدري كأنه مضغوط بين فكي ملزمة: «ماما، ماما». وتراءى لي وجهها وأنا مغمض عينيَّ، تراءى لي بشفتيه المختلجتين حين كانت ترسم على نفسها إشارة الصليب أمام الكنيسة، ثم ترسم إشارة الصليب عليَّ أنا، فأقول لها: «إنني أشعر بخجل، إنهم يروننا». وتابعت هتافي لماما: «ماما، ماما الحبيبة، لقد جئت إليَّ مرةً على الأقل... أين أنت الآن يا زائرتي البعيدة؟ هل تذكرين الآن ابنك الصغير المسكين الذي جئت تزورينه؟... تعالي إليَّ مرةً أخرى،

Twitter: @ketab_n

تعالي إليَّ في الحلم على الأقل، لأقول لك إنني أحبك حباً عظيماً، وأنني أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزي، وإنني كنت أحبك في ذلك الوقت أيضاً، وأن قلبي كان يتألم حين كنت أقبع هناك كخادم! لن تستطيعي أبداً يا ماما أن تقدري كم كنت أحبك حينذاك! ماما الحبيبة، أين أنت الآن؟ هل تسمعينني؟ ماما، ماما، هل تتذكرين الحمامة، في الكنيسة؟...».

دمدم لامبرت من قرارة سريره يقول:

ـ شيطان يأخذه! ماذا دهاه؟ انظر قليلاً! إنه يمنع الناس من النوم...

وها هو ذا يثب عن سريره أخيراً، فيركض إلى سريري، وينزع عني الغطاء، ولكنني أتشبث بالغطاء تشبثاً قوياً وأظل مطوقاً رقبتي به.

ـ تبكي؟ ماذا دهاك حتى أخذت تئن يا أبله؟ خذ هذه لك!

قال ذلك وأخذ يكيل لي اللكمات على ظهري وعلى أضلاعي، ويؤلمني مزيداً من الإيلام عند كل ضربة... وفجأة فتحت عينيَّ...

النهار قد طلع تماماً؛ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار... وأنا جالس متجمع على نفسي نصف ميت، متخدر في معطفي. وهذا رجل يقف أمامي يحاول أن يوقظني من نومي بشتائم مقذعة، ويركلني على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى. فأنهض وأنظر: هو رجل يرتدي معطفاً ثميناً من جلد الدب، ويدثر رأسه بقبعة من الفراء، له عينان سوداوان، وأسنان بيض مسددة إليَّ. إنه أبيض اللون، محمر الخدين، يشبه وجهه أن يكون قناعاً... لقد مال عليَّ حتى كاد وجهه يلامس وجهي، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد:

Twitter: @ketab_n

ـ لقد تجمدت من البرد يا سكير، يا أبله! لسوف تفطس هنا من التجلد كما يفطس كلب! قم! قم!

صرخت أقول:

ـ لامبرت.

ـ من أنت؟

ـ دولجوروكي.

ـ أيُّ دولجوروكي؟

ـ دولجوروكي فحسب!... ذلك الذي غرزت في فخذه شوكة...

فهتف وهو يبتسم ابتسامة طويلة، ابتسامة من يتذكر:

ـ آ... آ... آ... هذا أنت إذن؟ أنت؟

(أتراه نسيني؟).

وأنهضني، وأوقفني على قدميَّ، فكنت أترنح وأجد في الوقوف والحركة مشقة، فقادني وهو يسندني بيده. كان ينظر في عينيَّ كمن يريد أن يتذكر وأن يفهم، وكان ينصت إلى كلامي بكل ما أوتي من قوة؛ وكنت أنا أتمتم بكل ما أوتيت من قوة أيضاً، فأتكلم وأتكلم بدون انقطاع، وأشعر بسرور لأنني أتكلم ولأنه لامبرت. ألأنه بدا لي «خلاصاً» مما أنا فيه، أم تراني ارتميت عليه ارتمائي على إنسان من عالم آخر؟ لا أدري. لم أكن في ذلك الوقت أفكر. لقد ارتميت عليه بغير تفكير. ماذا قلت؟ لا أتذكر البتة. ولا شك أن ما قلته كان مفككاً. بل لا شك أن نطقي لم يكن واضحاً. ولكنه كان يصغي إليَّ إصغاء شديداً. واستوقف أول عربة مرت بنا، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت في دفء غرفته.

Twitter: @ketab_n

3

إن كل إنسان، أياً كان، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصية يعدُّها أو يميل إلى أن يعدَّها غير مألوفة، خارقة، كأنها تنتمي إلى عالم الخيال، كأنها معجزة من المعجزات؛ وهذه الحادثة تكون حلماً رآه أو لقاءً وقع له، أو نبوءة تنبأ بها، أو إحساساً سابقاً بأمر سيقع، أو شيئاً من هذا القبيل. وإني محمول حتى الآن إلى اعتبار لقائي هذا بصاحبي لامبرت مشتملاً على شيء من ذلك... على الأقل إذا نحن نظرنا إلى ظروف هذا اللقاء وإلى ما كان له من نتائج ضخمة. ولقد حدث هذا كله حدوثاً بسيطاً غاية البساطة، من أحد الجوانب على الأقل: لقد كان لامبرت عائداً من إحدى مهماته الليلية (سنرى ماذا كانت تلك المهمة)، وكان نصف سكران، فلما توقف لحظةً أمام باب من الأبواب، أبصرني. ولم يكن قد انقضى على وجوده ببطرسبرج إلا بضعة أيام.

الغرفة التي نُقلت إليها غرفة صغيرة، أثاثها بسيط جداً، مزودة بما تزوَّد به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية. أما لامبرت نفسه فكان يرتدي ثياباً فاخرة باذخة. وكان على أرض الغرفة حقيبتان لم تفرغا إلا من نصف ما فيهما. وكان ركن من الغرفة محجوباً بحاجز يخفي وراءه السرير.

صاح لامبرت منادياً:

ـ آلفونسين!

فأجاب من وراء الحاجز صوت نسوي مرتعش يقول بلغة فرنسية باريسية اللهجة:

ـ نعم!

Twitter: @ketab_n

وسمعت من وراء الحاجز حفيف قدمين عاريتين، وما هي إلا لحظة حتى ظهرت «مدموازيل آلفونسين» بقميص النوم. إنسانة عجيبة؛ طويلة القامة نحيلة كعود يابس، فتية، سمراء، طويلة الوجه، عيناها تنطنطان، وخداها خاسفان. مخلوقة بالية بلى رهيباً.

ـ أسرعي! (قالها بالفرنسية). لا بد أن عندهم سماوراً يعيرونه. أسرعي. هاتي ماءً ساخناً ونبيذاً أحمر وسكراً، وقدحاً، وأسرعي، فإنه متجلد من البرد. هو صديقي وقد قضى الليل في الثلج.

فهتفت تقول بالفرنسية وهي تلوي يديها بحركة مسرحية:

ـ مسكين!

ـ هيا أسرعي، واصمتي، هشش...

كذلك صرخ لامبرت كأنه يكلم كلباً، ولوَّح لها بأصبعه مهدِّداً. فسرعان ما كفَّت عن حركاتها، وركضت تنفذ ما أمرها به.

وأخذ لامبرت يفحصني ويلمسني ويجس نبضي ويلمس صدغيَّ. ثم جمجم يقول: «غريب أنك لم تتجمد تجمداً تاماً... ولكنك كنت مدفوناً في معطفك إلى ما فوق رأسك، فكان لك معطفك كجحر...».

ووصل كأس الماء المغلي. ابتلعته بشراهة، فسرعان ما أنعشني، وعدت أتمتم. كنت مضطجعاً في الركن على الديوان نصف اضطجاع، وكنت أتكلم نشوان بالكلام، ولكنني لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول، بل إن هناك صفحات من ثرثرتي قد امحت الآن من ذاكرتي امحاءً تاماً. هل فهم من كلامي شيئاً؟ لا أدري. ولكنني أدركت فيما بعد أنه لا بد أن يكون قد فهم على الأقل أن لقاءه هذا بي أمر لا ينبغي له أن يهمله، وأن الإبقاء على علاقته بي يمكن أن يجلب له منافع. وسأشرح فيما بعد ما لعله أجراه من حساب.

Twitter: @ketab_n

لم أنتعش انتعاشاً قوياً فحسب، بل أظن أنني كنت في بعض اللحظات مرحاً. إنني أتذكر الشمس التي أضاءت الغرفة فجأة حين أزيحت الستائر، وأتذكر المدفأة التي طقطقت نيرانها حين أشعلت. أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدري. وأتذكر الكلب الصغير الأسود الذي كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده إلى قلبها بغنج ودلال. لقد سلّاني هذا الكلب وأضحكني كثيراً، حتى إنني انقطعت عن الكلام ومددت إليه يدي مرتين، ولكن لامبرت أومأ إيماءة فإذا بآلفونسين وكلبها يختفيان فوراً وراء الحاجز.

وكان لامبرت شديد الصمت، جالساً أمامي ينصت إلى كلامي إنصاتاً قوياً وقد مال عليَّ فلا يبتعد عني. وكان يبتسم في بعض الأحيان ابتسامة طويلة بطيئة، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينيه كمن يبذل جهداً من أجل أن يفهم وأن يحزر. أذكر أنني حين رويت له قصة «الوثيقة» لم أفلح في أن أعبِّر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة متسقة، فكنت أرى في وجهي أنه لا يستطيع أن يفهم عني. حتى لقد جازف مرةً فألقى سؤالاً، وكان هذا شيئاً خطراً، لأنني كنت أغير موضوع الحديث متى أُلقي عليَّ سؤال، وأنسى ما كنت بصدد الكلام عنه. كم قضينا من الوقت على هذه الحال مسترسلين في الحديث؟ لا أدري، وها هو ذا ينهض فجأةً وينادي آلفونسين فيقول لها:

ـ إنه في حاجة إلى هدوء. وقد نحتاج إلى استدعاء طبيب. افعلي كل ما يطلب، أعني... «تفهمين يا بنيتي؟ هل معك مال؟ لا؟ خذي إذن!»

قال ذلك وأخرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات، ثم همس

Twitter: @ketab_n

يقول لآفونسين وهو يلوِّح لها بإصبعه مهدِّداً ويقطب حاجبيه بقسوة:

ـ «هل تفهمين؟ هل تفهمين؟».

ورأيت أنها كانت ترتعد أمامه ارتعاداً شديداً. وأردف يقول:

ـ سأرجع.

ثم اتجه إليَّ فقال لي مبتسماً:

ـ أما أنت فعليك أن تنام. هذا خير ما تفعله.

وتناول قبعته. فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية:

ـ «ولكنك لم تنم البتة يا موريس!».

فأجابها بقوله:

ـ «اسكتي! سأنام فيما بعد».

وخرج.

همست تقول لي بنبرة التأثر وهي تريني ظهرها:

ـ أُنقذت!

وسرعان ما أخذت تخطب قائلة وقد انتصبت في وسط الغرفة (بالفرنسية):

ـ سيدي، سيدي، ما من رجل كهذا الرجل كان قاسياً هذه القسوة كلها، وكان بسماركاً إلى هذا الحد، فنظر إلى المرأة نظرته إلى قاذورة، ما امرأة في عصرنا هذا؟ «اقتلها!» هذه هي الكلمة الأخيرة التي قالتها خطيبتنا الفرنسية!

حملقت بعينيَّ. إنني أرى الشخص شخصين. إنني أرى آلفونسين اثنتين. ولاحظت فجأة أنها تبكي. فارتعشت وأدركت أنها كانت تكلمني منذ مدة طويلة وأنني كنت إذن نائماً طوال ذلك الوقت، أو كنت مغشياً عليَّ.

وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية):

Twitter: @ketab_n

ـ. . . «واأسفاه يا سيدي، فيم كان يمكن أن يفيدني أن أكتشفه في وقت مبكر. . . أفلم يكن من الخير لي أن أظل كاتمةً عاري طوال حياتي؟ قد لا يشرِّف فتاةً أن تشرح ما يدور في نفسها بمثل هذه الحرية أمامك يا سيدي، ولكنني أعترف لك بأنني إذا سُمح لي أن أريد شيئاً، فسوف يكون هذا الشيء هو أن أغمد في قلبه خنجري، ولكن عليّ أن أشيح عنه بصري، مخافة أن أرى نظرته فترتعش ذراعي وتتجمد عزيمتي! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسي يا سيدي، ونتف لحيته الحمراء من أجل أن يبيعها لفنان عند «جسر المارشالات» بقرب متجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية، بضائع باريسية، ملابس داخلية، قمصان أنيقة، تعرف يا سيدي، أليس كذلك؟ آه يا سيدي، حين تضم الصداقة، على مائدة واحدة، زوجةً وأولاداً وأخوات وأصدقاء، ويشتعل في القلب فرح قوي. . . هل هناك يا سيدي سعادة أفضل من هذه السعادة التي ينعم بها جميع الناس؟ ولكنه يضحك يا سيدي، هذا الشيطان الكريه العجيب الذي لا يتصوره العقل. يميناً يا سيدي، لولا وساطة مسيو آندريو، لما. . . آه. . . مستحيل، لما كنت. . . ولكن ماذا يا سيدي، ماذا بك؟ ماذا بك يا سيدي؟

كذلك هتفت تسألني، ثم اندفعت إليّ. لعلني كنت أرتعد، بل لعلني قد أغمى علي. لا أستطيع أن أصف الشعور الشاق الأليم الذي أحدثته في نفسي هذه المخلوقة نصف المجنونة. ولعلها تخيلت أن عليها أن تسليني وتسري عني. المهم أنها لم تتركني لحظة واحدة. ولعلها كانت تمثِّل في الماضي. لقد كانت تنشد كلامها إنشاداً، وتدور على نفسها، وتتكلم بدون انقطاع، على حين كنت قد صمتّ منذ مدة طويلة. كل ما استطعت أن أفهمه من

Twitter: @ketab_n

أقوالها هو أنها كانت لها «علاقات وثيقة بمتجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية، بضائع باريسية، الخ»، وأنها لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو»، ولكن «هذا الشيطان الحانق الذي لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو أندريو إلى الأبد»، وتلك هي مأساتها... إنها تشهق وتنتحب، ولكن بدا لي أنها لا تفعل ذلك كله إلا تقيداً بالشكل. وشعرت في بعض اللحظات أنها توشك أن تتهاوى متهشمة كهيكل عظميّ. وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط، فالألف الممدودة تخرج من حلقها كأنها ثغاء شاة. وحين أفقت من غيبوبتي رأيتها تستدير في وسط الغرفة على رجل واحدة، ولكن دون أن ترقص، لأن استدارتها هذه كانت تمثيلاً يتصل بقضيتها. واندفعت فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدوزن، كان بالغرفة، ففتحته وأخذت تنقر على أصابعه وتغني... أظن أنني غبت عن وعيي عشر دقائق أو أكثر، وأنني نمت، ولكن الكلب الصغير نبح ففتحت عينيَّ، وعاد إليَّ شعوري كاملاً فأضاءني بنوره كله لحظةً، فانتفضت مذعوراً، وأنا أقول لنفسي: «لامبرت، إنني عند لامبرت»، وتناولت قبعتي وارتميت على معطفي.

قالت لي آلفونسين اليقظة:

ـ «إلى أين تذهب يا سيدي؟».

فأجبتها:

ـ أريد أن أنصرف، أريد أن أذهب، لا تمنعيني!

فقالت آلفونسين مؤيدةً بقوة وهي تندفع لتفتح لي باب الدهليز:

ـ نعم يا سيدي!

ثم هتفت تقول بصوت عالٍ حتى يُسمع كلامها في الدهليز كله:

ـ «ولكن المكان ليس بعيداً يا سيد، فلا داعي إلى ارتداء

Twitter: @ketab_n

الفروة. إنه قريب يا سيدي!».

فلما خرجت من الغرفة، انعطفتُ يمنةً. فصاحت آلفونسين تقول بكل ما تملك من قوة وهي تتشبث بمعطفي بأصابعها الطويلة المعروفة وتدلني باليد الأخرى على مكان في يسار الممر لم أكن في حاجة إلى الذهاب إليه البتة:

ـ «من هنا يا سيدي، المكان من هنا!».

ولكنني أفلت منها وركضت إلى باب الخروج نحو السلم. فأخذت آلفونسين تصرخ قائلة بصوت مكسَّر وهي تركض ورائي:

ـ «إنه ينصرف! إنه ينصرف! ولكنه سيقتلني يا سيدي، سيقتلني!».

ولكنني صرت على السلم، واستطعت أن أفتح الباب في أسفل رغم أنها كانت تلاحقني على الدرجات، ووثبت إلى الشارع، وسارعت أرتمي في أول عربة، ذاكراً للحوذي عنوان أمي...

4

لكن شعوري ما إن أضاء لحظةً حتى انطفأ. فلا أكاد أذكر الآن كيف نُقلت إلى بيت أمي، وهناك لم ألبث أن غبت عن الوعي على الفور تقريباً. وفي الغد، كما قيل لي هذا فيما بعد (وإنني لأتذكر ذلك أنا نفسي على كل حال) أضاء عقلي مرةً أخرى لحظة. فرأيتني في غرفة فرسيلوف على ديوانه، ورأيت حولي وجوه فرسيلوف وماما وليزا. وإني لأتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح كيف كلمني فرسيلوف عن تسرشتشيكوف والأمير، وكيف أراني رسالةً وحاول أن يهدئني. وقد رووا لي فيما بعد أنني كنت لا أنفك ألقي أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لامبرت، ولا أنفك أسمع نباح كلب

Twitter: @ketab_n

صغير. ولكن هذا الشعاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم، فلما كان المساء من ذلك اليوم الثاني كانت الحمى قد اجتاحتني اجتياحاً تاماً. ولكنني أحب أن أستبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أنني لم أستطع أن أعيها على الفور.

في ذلك المساء الذي طُردت فيه من عند تسرشتشيكوف، وحين هدأ في الصالة كل شيء، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب، أعلن فجأة بصوت مدوٍ، أن خطأ مؤسفاً قد وقع: فالمال المفقود، أي الأربعمائة روبل، قد عثر عليه في كومة أخرى من المال، وأجريت حسابات البنك فاتضح أنها كاملة لم ينقص منها شيء. فإذا بالأمير، وكان قد بقي في الصالة، إذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يعلن براءتي على رؤوس الأشهاد، وأن يعبِّر لي عدا ذلك عن اعتذاره كتابة. ورأى تسرشتشيكوف أن هذا الطلب مشروع، وتعهد أمام الجميع بأن يبعث إليّ في الغد رسالة إيضاح واعتذار. وقد زوَّده الأمير بعنوان فرسيلوف منذ الغد فعلاً، وتلقى فرسيلوف من تسرشتشيكوف رسالةً موجهةً إليَّ، ومعها مبلغ يزيد على ألف وثلاثمائة روبل، هو مالٌ لي نسيته على مائدة الروليت. كذلك انتهت قضية تسرشتشيكوف. وقد أسهم هذا النبأ المفرح في إبلالي من المرض حين عاد إليَّ شعوري.

أما الأمير فإنه حين رجع من صالة القمار كتب في تلك الليلة رسالتين، إحداهما إليَّ والثانية إلى الكتيبة التي كان ينتمي إليها والتي وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية ستيبانوف. وقد بعث الرسالتين كلتيهما في الصباح. وبعد الرسالتين كتب تقريراً إلى رؤسائه، وجاء إلى الكولونيل في الصباح حاملاً تقريره بنفسه، فأعلن للكولونيل أنه «مجرم من مجرمي الحق العام، وشريك في

Twitter: @ketab_n

جناية تزييف أسهم، فهو لذلك يسلِّم نفسه للعدالة، ويطالب بأن يحكم عليه القضاء»، وفي الوقت نفسه سلَّم التقرير الذي يعرض فيه كل شيء كتابةً. فأودع السجن.

وإليكم نص الرسالة التي كتبها لي في تلك الليلة كلمةً كلمة:

عزيزي الغالي آركادي ماكاروفتش!

«إنني، وقد جرَّبت المخرج «العامي»، فقد فقدت الحق في أن أواسي نفسي أية مواساة بأنني استطعت أخيراً أن أعزم أمري على القيام بعمل شجاع وعادل. إنني مجرم في حق الوطن وفي حق السلالة التي أنحدر منها وأنتمي إليها، لذلك أعاقب نفسي بنفسي، أنا آخر أفراد هذه السلالة. لست أفهم كيف أمكنني أن أتشبث بغريزة البقاء الدنيئة، وأن أفكر لحظةً في أن أفدي نفسي بمالٍ أدفعه لشركائي في الجريمة. فلو فعلت ذلك لبقيت في نظر نفسي مجرماً رغم كل شيء. ولو ردَّ إليَّ أولئك الناس رسائلي لظللت قلقاً طوال حياتي، فلا راحة! ماذا يبقى لي لو فعلت ذلك؟ أعيش معهم، وأرافقهم طوال عمري: ذلك هو المصير الذي كان ينتظرني! فما كان لي أن أرضى بهذا. وأخيراً وجدت في نفسي من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتيح لي أن أفعل ما أفعله الآن.

«لقد كتبت إلى كتيبتي السابقة ورفاقي القدامى مبرئاً ستيبانوف. وليس في هذا أي مأثرة تكفر عن ذنبي، ولا يمكن أن يكون فيه مأثرة تكفر عن ذنبي: وإنما هي وصية رجل سيموت غداً. هكذا يجب أن يُفهم عملي».

«اغفر لي أنني أشحت عنك في صالة القمار. ذلك أنني لم أكن في ذلك الوقت واثقاً بك. الآن وأنا رجل ميت، أستطيع أن أدلي بهذه الاعترافات... من العالم الآخر».

Twitter: @ketab_n

«مسكينة ليزا! إنها لم تعرف شيئاً عن هذا القرار. فقل لها ألا تلمني، بل أن تفكر. إنني لا أستطيع أن أبرىء نفسي، ولا أجد كلمات أشرح لها بها أي شيء. واعلم أيضاً، يا آركادي ماكاروفتش، أنني في صباح أمس، حين جاءت تزورني آخر مرة، كشفت لها عن خداعي، فاعترفت بأنني ذهبت إلى آنا آندرييفنا خاطباً. لم أستطع أن أبقي هذا السرَّ حملاً ثقيلاً على ضميري قبل قراري الأخير الذي كنت قد اتخذته، فلم يسعني إلا أن أكشف لها عنه حين رأيت حبها. وقد غفرت لي، غفرت لي كل شيء، لكنني لم أصدقها. ليس هذا منها غفراناً. فلو كنت في مكانها لما غفرت.

«تذكرني.

صديقك الأمير الأخير التعيس

سوكولسكي

وقد بقيت في سريري بلا شعور تسعة أيام تماماً.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

1

والآن فلنتكلم عن غير هذا تماماً.

الحق أنني أقول دائماً «فلنتكلم عن غير هذا». ثم إذا أنا أعود إلى الكلام عن نفسي. كنت قد أعلنت مع ذلك ألف مرة أنني لا أنتوي أبداً أن أحكي عن نفسي، وكنت قد عزمت أمري على ذلك جازماً حين بدأت تدوين هذه الأمور: إنني أدرك حق الإدراك أن ما يحدث لي لا يهم القارىء في شيء. فأنا أصف غيري وأريد أن أصف غيري، فإذا كان شخصي يعود فيندس تحت قلمي دائماً، فليس ذلك إلا خطأ يؤسف له، ويستحيل الإفلات منه رغم كل ما أملك من إرادة ورغبة. ومما يحز في نفسي خاصةً أنني حين أروي أحداث حياتي بمثل هذه الحرارة المتأججة كلها أوهم القارىء بذلك أنني لا أزال الآن كما كنت في ذلك الوقت. ولكن القارىء يتذكر على كل حال أنني هتفت أقول غير مرة: «آه. . . ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضي وأن يبدأ كل شيء بداية جديدة!» فما كان لي أن أهتف ذلك الهتاف لولا أنني قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً، ولولا أنني أصبحت شخصاً آخر يختلف عن الشخص الأول كل الاختلاف. ذلك واضح وضوحاً قوياً. ولكن ليت القارىء يستطيع أن يتصور مدى ما أشعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه

Twitter: @ketab_n

الاعتذارات وهذه المقدمات التي أضطر أن أدسَّها كلَّ لحظة في وسط هذه الصفحات التي أدونها.

ولأنتقل من بعد إلى الوقائع.

أفقت من غيبوبتي بعد تسعة أيام، أَفقت وقد بُعثت بعثاً جديداً، ولكنني لم أصلح. وكان انبعاثي حيوانياً على كل حال، إذا نحن فهمنا هذه الكلمة بمعناها الواسع، ولعل الأمر لو تمَّ الآن لجرى مجرى آخر. وكانت فكرتي أو عاطفتي لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصبّ على ضرورة أن «أتركهم» كلهم تركاً تاماً، تركاً حاسماً مطلقاً، لا كما حدث من قبل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أفلح في تنفيذه أبداً. يميناً لم أكن أريد أن أنتقم من أحد، رغم أنني كنت أشتكي منهم جميعاً. وكنت أهيىء نفسي للرحيل من دون اشمئزاز، ومن دون لعن، وإنما أريد أن تكون لي قوتي الشخصية، قوتي الحقيقية في هذه المرة، قوتي المستقلة «عنهم» جميعاً وعن العالم بأسره! إنني لا أسجل هذا الحلم كفكرة بل كإحساس عارم لا يغالب سيطر عليَّ في ذلك الوقت. وكنت لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم في كلام ما بقيت راقداً في السرير. كنت أحس وأنا مريض خائر القوى راقد في غرفة فرسيلوف مهجور «منهم» جميعاً، كنت أحس مدى ما هويت إليه من عجز، فيؤلمني ذلك إيلاماً شديداً: كنت قشةً ملقاة على سرير، لا إنساناً! ولم يكن المرض وحده سبب ذلك، فما أشد ما أورثنيه هذا من عذاب! هكذا أخذ يصعد من أعماق كياني احتجاج قوي، فكنت أختنق في قرارة نفسي نوعاً من وقاحة مغالبة وتحدٍ شديد. لا أذكر أن عهداً من عهود حياتي قد حفل بمشاعر الاستعلاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتي، أعني الفترة التي كانت فيها القشة ملقاة على السرير.

Twitter: @ketab_n

ولكنني كنت بانتظار تحقيق حلمي ألتزم الصمت، حتى لقد قررت ألا أفكر في شيء! كنت أسبر وجوههم محاولاً أن أحزر فيها كل ما كنت في حاجة إليه. وكان واضحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن يسائلوني، ولا أن يظهروا بمظهر المستطلعين، وإنما هم يكلمونني في أمور ليست بذات بال. فكان هذا يرضيني ويحزنني في آن واحد. ولن أحلل هذا التناقض. وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما، رغم أنها تجيء إليَّ كل يوم، وربما جاءت في اليوم مرتين. وقد استخرجت من شذرات من أحاديثهم ومن هيئتهم كلها أن لليزا هموماً ومتاعب كثيرة، وأنها تغيب عن البيت أحياناً كثيرة جداً بسبب مشاغلها، فكان مجرد تفكيري في أن لها «مشاغل» خاصة بها يجرح شعوري ويؤذي نفسي. ولكن هذه الإحساسات كانت إحساسات مرضية على كل حال، إحساسات فزيولوجية صرفة، فلا داعي إلى وصفها. وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً تجيء إليَّ كل يوم تقريباً؛ ولئن لم تكن تعاملني برقة ولطف، فإنها لم تكن تشتمني كما كانت تفعل من قبل، وهذا أمر أغاظني كثيراً، حتى لقد عبَّرت لها عن غيظي بسذاجة فقلت لها: «أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملة مضجرة إذا لم تنطقي بشتائم!» فإذا هي تجيبني بلهجة قاطعة: «لن أجيء إليك إذن!». وانصرفت. فسرَّني أنا أني طردت واحدة على الأقل.

ولكنني كنت أعذِّب أمي خاصة. كانت أمي هي التي تحنقني أكثر من غيرها. كانت قد استبدت بي شهوة الطعام استبداداً قوياً، فكنت أتذمر تذمراً شديداً من أن وجبتي تتأخر دائماً (وهذا ما لم يحدث في يوم من الأيام). وكانت أمي تتفنن في تخيل ما يرضيني. وقد جاءتني مرةً بالحساء، وأخذت تطعمنيه بيدها على عادتها،

Twitter: @ketab_n

فكنت أتذمر وأنا ألتهمه. وفجأة خجلتُ من تذمري وقلت لنفسي: «ربما كانت هي الوحيدة التي أحبها، ومع ذلك فهي التي أسومها سوء العذاب». ولكن فظاظتي لم تهدأ، ثم إذا بهذه الفظاظة تتحول إلى بكاء فجأة. فظنت المسكينة أنني أبكي حناناً ورقة، فمالت عليَّ وطفقت تقبلني. فصبرت، وتركت للزوبعة أن تنقضي، ولكنني في تلك اللحظة قد كرهت أمي في الواقع. والحق أنني قد أحببتها دائماً، وحتى في تلك اللحظة كنت أحبها، فليس صحيحاً أنني كرهتها، وإنما حدث عندئذ ما يحدث دائماً: أن الذي نحبه أكثر من غيره نعذبه قبل غيره.

والشخص الذي كنت أبغضه حقاً في تلك الأيام الأولى إنما هو الطبيب. كان هذا الطبيب شاباً متعجرف الهيئة، شرس اللهجة، بل قليل التهذيب. إن أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق في العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب، ولا يكون الأمس القريب قد شهد شيئاً ذا بال. ولكن هذا شأن «التافهين» و«العاميين». وقد صبرت عليه طويلاً ولكنني انفجرت أخيراً على حين بغتة، فأعلنت له أمام جميع من في الدار أنه يزعج نفسه في غير طائل، وأنني سأشفى بدون أن يكلف نفسه عناء مداواتي، وأنه رغم ما يتظاهر به من أنه واقعي، محشو العقل بالأوهام، وأنه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف أحداً من مرض في يوم من الأيام، وأنه في أغلب الظن جاهل جهلاً فاحشاً، «كسائر اختصاصيي هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً». وقد استاء الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته)، ولكنه ظل يعودني. وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أنني، إذا لم ينقطع الطبيب عن زيارتي، فلأقولنَّ له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة

Twitter: @ketab_n

أضعاف. فأجابني أن قول كلام أغلظ ضعفين اثنين أمر مستحيل، فما بالك بكلام أغلظ عشرة أضعاف! فسرَّتني ملاحظة فرسيلوف هذه.

يا له من إنسان على كل حال! أقصد فرسيلوف. لقد كان وحده سبب كل شيء. ومع ذلك كان الوحيد الذي لم أغضب منه. وليست معاملته وحدها هي التي فتنتني، وإنما كان كل منا يحس أن عليه إيضاحات يجب أن يقدمها لصاحبه، فالأفضل لهذا السبب ألا يوضح أحد لأحد شيئاً قط. إنه لشيء ممتع في ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً! سبق أن قلت، في الجزء الثاني من روايتي، مستبقاً الأمور، أن فرسيلوف كلمني بإيجاز شديد عن رسالة بعثها إليَّ الأمير المعتقل، وعن تسرشتشيكوف واعتذاره لي، الخ. وإذ أنني كنت قد أزمعت الصمت، فقد ألقيت عليه، بأشد إيجاز ممكن، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة، فأجاب عنها إجابات واضحة دقيقة، ولكن دون أن تشتمل إجاباته على كلمات زائدة، ودون أن تشتمل على عواطف زائدة، وهذا أعلى قيمةً أيضاً. إن العواطف الزائدة هي ما كنت أخشاه في ذلك الحين.

ولست أقول شيئاً عن لامبرت، ولكن لا شك أن القارىء قد حزر أنني كنت أفكر فيه كثيراً. لقد تكلمت عن لامبرت أثناء الهذيان مراراً. ولكن حين أفقت من غيبوبتي، وألقيت بضع نظرات حولي، فإنني سرعان ما اعتقدت أن حكاية لامبرت لا تزال سراً، وأن أحداً لا يعرف عنها شيئاً، حتى فرسيلوف. فاغتبطت لهذا وانقضى خوفي. ولكن ما كان أشد دهشتي حين علمت فيما بعد أنني كنت مخطئاً في اعتقادي: لقد جاء لامبرت أثناء مرضي، غير

Twitter: @ketab_n

أن فرسيلوف لم يحدثني عن مجيئه بشيء، فاستنتجت من ذلك أنني الآن في نظر لامبرت قد انتقلت إلى العالم الآخر. ومع ذلك كنت أفكر فيه في كثير من الأحيان، أفكر فيه بغير اشمئزاز منه، بل أفكر فيه بمودة له، كأنني أحس فيه شيئاً جديداً يلبي ما أخذ ينشأ في نفسي من مشاعر جديدة وخطط جديدة. الخلاصة أنني قررت أن أفكر في لامبرت قبل أن أفكر في أي شيء آخر متى عقدت العزم على الشروع في التفكير. شيء غريب: لقد نسيت نسياناً تاماً أين يسكن، وفي أي شارع جرى كلُّ الذي جرى. كنت أتذكر كل شيء: الغرفة، آلفونسين، الكلب الصغير، الدهليز؛ حتى لقد كان يمكنني أن أرسم هذا كله لو شئت. ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها؟ في أي شارع؟ في أية عمارة؟ لا أدري! نسيت نسياناً تاماً. والأغرب من هذا أنني لم أدرك ذلك إلا في اليوم الثالث أو الرابع من عودة شعوري إليَّ، أي بعد انقضاء مدة طويلة على شعوري بالقلق من لامبرت.

تلكم هي إذن إحساساتي الأولى بعد انبعاثي، لم أذكر منها إلا أكثرها سطحيةً، ولعلني لم أستطع أن أذكر منها الشيء الأساسي. والحق أن الشيء الأساسي لعله تحدد وتبلور في قلبي في ذلك الأوان نفسه؛ إنني لم أقض وقتي كله في الغضب والحنق من تأخر وصول حسائي. آه... إنني لأتذكر كم كنت حزيناً، وكم كان يستبد بي السأم أحياناً، ولا سيما حين أبقى وحيداً خلال مدة طويلة. كانوا قد لاحظوا، هم، أنني أضيق ذرعاً بهم وبشفقتهم، فكانوا يتركونني وحيداً فترات ما تنفك تزداد: إفراط في اللطف والذوق!

Twitter: @ketab_n

2

في اليوم الرابع من صحوي الكامل، كنت راقداً على سريري في نحو الساعة الثانية بعد الظهر، ولم يكن معي أحد. كان الجو رائقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات، وأن شعاعاً مائلاً أحمر سيسقط على زاوية جداري، فيضيئها ببقعة متوهجة. كنت أعلم هذا من الأيام السابقة، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سيحدث بعد ساعة حتماً، فكان يقيني من ذلك يسخطني إلى حد الحنق الشديد. ولذلك رأيتني أنقلب إلى الجهة الأخرى بحركة متشنجة، فإذا أنا فجأةً، في الصمت العميق، أسمع هذه الكلمات على نحو واضح: «يا ربنا يسوع المسيح، يا إلهنا، ارحمنا» نُطقت هذه الكلمات بما يشبه الهمس، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقة، ثم عاد كل شيء إلى الصمت. فأنهضت رأسي بسرعة.

وكنت قبل ذلك، أمس، بل أمس الأول، قد لاحظت أن في غرفنا الثلاث، تحت، شيئاً خاصاً. فلا بد أن الغرفة الصغيرة التي كانت تقيم فيها ماما وليزا، على الجهة الأخرى من الصالة الكبيرة، تضم الآن شخصاً آخر. وكنت قد سمعت بعض الأصوات عدة مرات، في النهار وفي الليل، ولكن خلال لحظات قصار دائماً، لكن سرعان ما كان الصمت يخيم من جديد ساعات عدة، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتبهت إليه. وخطر ببالي أمس أن فرسيلوف هو الذي أحدث تلك الأصوات، لا سيما وأنه جاء إليَّ بعد لحظة. ومع ذلك كنت أعلم من أحاديثهم علم اليقين أن فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضي إلى غرفة أخرى يبيت فيها. أما ماما وليزا فكنت أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلتاهما (من أجل هدوئي وراحتي فيما

Twitter: @ketab_n

اعتقدت) إلى الطابق الأعلى، إلى «تابوتي» القديم، حتى لقد تساءلت بيني وبين نفسي ذات يوم: «كيف أمكنهما أن تقيما فيها كلتاهما؟». ثم هأنذا أتبيَّن فجأة أن غرفتهما التي كانتا تقيما بها إنما يسكنها اليوم شخص آخر، وأن هذا الشخص الآخر ليس فرسيلوف. وهأنذا، بخفة لم أكن أظنها في نفسي (إذ كنت أتصور حتى ذلك الحين أنني لا أملك أية قوة)، أُخرج ساقيَّ من السرير، وأدسهما في بابوجين، وألقي على كتفي ثوباً للمنزل رمادي اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان على مقربة مني (ضحى به فرسيلوف)، وأسير عبر الصالون متجهاً إلى الغرفة التي كانت تسكنها أمي من قبل. إن ما رأيته هناك قد شدهني وأذهلني. لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت، فوقفت في العتبة كالمتسمر.

إن في الغرفة شيخاً أشيب الشعر تماماً، له لحية بيضاء بياضاً هائلاً، كان واضحاً أنه مقيم هنا منذ مدة طويلة. ولم يكن الشيخ جالساً على السرير، وإنما هو جالس على كرسيٍّ ماما، مستند إلى السرير بظهره فحسب؛ وكان عدا ذلك منتصب الجذع في جلسته، فكأنه ليس في حاجة إلى أي استناد رغم ما به من مرض بيِّن لا يخفى. وكان يرتدي فوق قميصه سترةً مبطنة بفراء خروف، ويغطي ركبتيه بشالٍ لأمي، وينتعل بابوجين. لا بد أنه طويل القامة. وهو عريض المنكبين، تدل هيئته على شكيمة قوية، رغم مرضه ورغم شيء من الشحوب والنحول؛ وهو بيضوي الوجه، شعره غزير ولكنه ليس طويلاً جداً؛ ويبدو أنه تجاوز السبعين من عمره. وعلى مقربة منه، فوق مائدة صغيرة في متناول يده، ترقد ثلاثة كتب أو أربعة، ونظارتان من فضة. فما إن أبصرته حتى حزرت من هو، رغم أنني لم يخطر ببالي لحظةً واحدةً أن ألقاه، ولكنني

Twitter: @ketab_n

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يقضي هذا الوقت كله بجواري مستخفياً هذا الاستخفاء الذي بلغ من الشدة أنني لم يدر في خلدي وجوده.

لم يتحرك حين رآني، وإنما نظر إليَّ ملياً بصمت، ونظرت إليه أنا كذلك، مع فارق واحد هو أنني أظهرت دهشةً شديدة، أما هو فلم يظهر أية دهشة. حتى إنه بعد أن تفرس فيَّ خلال خمس ثوان أو عشر، ابتسم فجأة، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك، ضحكة سرعان ما انقضت، ولكن بقي أثرها المضيء الفرح في وجهه، ولا سيما في عينيه، الزرقاوين جداً، المشعتين، الواسعتين، اللتين يعلوها حاجبان منتفخان متهدلان من الشيخوخة، وتحيط بهما غضون صغيرة لا نهاية لعددها. إن ضحكته خاصةً هي التي أثرت في نفسي.

إنني أرى أن الإنسان حين يضحك يكون منظره منفِّراً في أكثر الأحيان. فالضحك يبرز في العادة لدى الناس نوعاً من العامية والتدني، وإن كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثر الذي يحدثه في نفوس الآخرين. إنه يجهل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم. فمن النائمين من تبقى وجوههم ذكيةً، ومنهم من تصبح أثناء النوم غبيةً فمضحكةً رغم أنهم أذكياء. لا أدري سبب هذه الظاهرة. كل ما أريد أن أقوله هو أن الضاحك، كالنائم، لا يعرف عن وجهه شيئاً في أكثر الأحيان. هناك كثرة كبيرة من الناس لا تجيد الضحك البتة. والحق أن الأمر ليس أمر إجادة يحصِّلها المرء بالمران، وإنما الضحك موهبة يؤتاها المرء فطرةً، فإذا أراد أحد أن يحصِّل هذه القدرة على إجادة الضحك كان عليه أن يربي نفسه تربية جديدة، وأن يحسِّن ذاته، وأن ينتصر على غرائزه السيئة، فإذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه. ومن الناس من يفضحهم ضحكهم، فمتى رأيتهم

Twitter: @ketab_n

ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه بطونهم. فرب ضحكة ذكية حقاً ثم هي تنفرك مع ذلك أحياناً. إن الضحك يقتضي الصراحة قبل كل شيء: فأين الصراحة في البشر؟ والضحك يقتضي نفساً طيبة كريمة، والناس في أكثر الأحيان إنما يصدرون في ضحكهم عن خبث وشر. والضحك الصريح الذي لا شرّ فيه فرح: فأين الفرح في زماننا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون؟ (هذه الملاحظة عن الفرح في زماننا إنما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها). فرح الإنسان هو السمة التي تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته، إلى جانب رجليه ويديه. هناك طباع لا تستطيع أن تنفذ إليها، فإذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة، رأيت طبعه مبسوطاً أمام بصرك فوراً. لا أحد إلا أولئك الذين ينعمون برقيّ رفيع سعيد، يمكن أن يفرح فرحاً معبراً ينتقل للغير، فرحاً طيباً لا سبيل إلى مقاومة فتنته. ولست أقصد هنا رقيّ الذكاء والعقل بل رقيّ الطبع والخلق، أعني رقيّ الإنسان كله جملةً. لذلك إذا أردت أن تدرس امرأ وأن تعرف نفسه فلا تنتبه إلى طريقته في الصمت، أو في الكلام، أو في البكاء، أو حتى في تأثره بأنبل المعاني والأفكار؛ وإنما أنظر إليه حين يضحك. فإذا أحسن الضحك فهو امرؤ طيب. وعليك أن تلاحظ الفروق الطفيفة: يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غبياً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريئاً وساذجاً. فمتى لاحظت في ضحكه أية علامة من علامات الغباء فاعلم أنه إنسان محدود العقل، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة. وإذا لم يكن ضحكه غبياً، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجأة، فاعلم أن هذا الإنسان لا يحترم نفسه احتراماً حقيقياً، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً. وإذا كان هذا الضحك معبراً وينتقل

Twitter: @ketab_n

للغير ولكن بدا لك عامياً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو إنما كان مقصوداً أو مصطنعاً أو مستعاراً على غير شعور منه، وأن الرجل سيرتد حتماً إلى طبيعته السيئة، فيهتم بما يعود عليه «بأرباح»، وينبذ آراءه السمجة الكريمة نبذاً لا هوادة فيه ولا رحمة، ويعدُّها من أخطاء الشباب وحماساته.

إذا كنت أسهب هذا الإسهاب الطويل في الكلام عن الضحك مضحياً بمواصلة سرد قصتي فلست أفعل ذلك استطراداً بغير نية. إنني أعد هذه الآراء نتيجةً من أثمن النتائج التي استخلصتها طوال حياتي. وإنني أوصي بها الفتيات المخطوبات اللواتي يوشكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن ما زلن يتفرسن فيه بشك وحيرة ولمّا يعزمن أمرهن بعد. ألا لا تسخروا من مراهق يتصدى لإعطاء دروس في أمور الزواج التي لا يفهم منها شيئاً. إنني أعرف شيئاً واحداً لا أكثر: هو أن الضحك أضمن مقياس تُعرف به النفس. انظروا إلى الأطفال: إن بعضهم يحسنون الضحك إحساناً تاماً، وهذا هو السبب في أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فتنتهم. إن الطفل البكّاء كريه إلى نفسي، أما الطفل الذي يضحك ويبتهج فإنه شعاع من الجنة، وإطلالة على المستقبل الذي سيصبح فيه الإنسان آخر الأمر طاهراً طهارَة طفل، ساذجاً سذاجة طفل.

ولقد كان في الضحكة العارضة التي ضحكها ذلك الشيخ شيء من طفولة لا حدود لفتنتها. فسرعان ما دنوت منه.

3

قال لي بلطف وهو يشير إلى مكان بقربه، ويرمقني بتلك النظرة

Twitter: @ketab_n

المشعة نفسها:

- اجلس، إجلس لحظةً، فلا تزال ساقاك ضعيفتين.

فجلست إلى جانبه وقلت له:

- إنني أعرفك. أنت ماكار إيفانوفتش.

- نعم يا عزيزي. حسن أنك تقف الآن على قدميك. إنك شاب. هذا حسن لك. للشيخ القبر، وللشاب الحياة.

- هل أنت مريض؟

- نعم يا صديقي، الساقان خاصةً. حملتني ساقاي المسكينتان حتى وصلت إلى هنا، ولكن ما لبثتا أن تورمتا منذ جلست. بدأ هذا يوم الخميس الماضي، حين وقف الترمومتر (ملاحظة: يقصد حين تجلد من البرد). كنت قبل ذلك أدهنهما بمرهم. الدكتور لشتن أدموند كارلوفتش هو الذي وصف لي ذلك المرهم بموسكو منذ ثلاث سنين، وكان ذلك المرهم ينفعني كثيراً. ومنذ أمس، سرى الوجع إلى الظهر، حتى لكأن الكلاب تنهش ظهري نهشاً... وصرت لا أنام الليل...

قاطعته قائلاً:

- وكيف لا يُسمع لك صوت هنا البتة؟

فنظر إليَّ وبدا مفكراً، ثم أضاف يقول كأنما وافته ذكرى مباغتة:

- حذار أن توقظ أمك. لقد ظلت تضطرب حولي طوال الليل، ولكن بدون أن يُسمع لها أي صوت، كما لا يسمع صوت لفراشة. وهي الآن ترتاح.

وتنهد قائلاً:

- شيء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً. لا أدري بمن تتشبث روحي، ولكنها لا تزال صامدة، وهي سعيدة بأن تبقى في

Twitter: @ketab_n

هذا العالم، بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من ذلك. ولكن لعل مثل هذه الفكرة إثم.

ـ لماذا تكون إثماً؟

ـ هذه الفكرة حلم، وعلى الشيخ أن يمضي إلى نهايته. نعم إن استقبال الموت بتذمر أو استياء إثم كبير. على كل حال، إذا كان حب الحياة ناشئاً عن فرح روحي، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ. يصعب على الإنسان أن يعرف الفرق بين ما هو إثم وما ليس بإثم. هذا سر يفوق العقل الإنساني. وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى، وأن يموت مغموراً بضياء روحه، سعيداً بما قضى من أيام، متطلعاً إلى ساعته الأخيرة، فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم إلى باقة السنابل، بعد أن حقق سرَّه.

ـ أراك تتكلم دائماً عن السر. فما الذي تعنيه بقولك: «حقق سره»؟

سألته هذا السؤال وأنا ألقي نظرة على الباب. كنت سعيداً بأننا وحيدان، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء. وكانت الشمس تسطع قوية على النافذة قبل أفولها. وكان الشيخ يتكلم بشيء من التفخيم وبدون دقة كأنه كان فرحاً بوجودي حقاً. ولكنني لاحظت أنه يعاني من حمّى لا شك فيها، بل يعاني من حمى قوية. وكنت مريضاً أنا أيضاً، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه. قال:

ـ ما هو السر؟ كل شيء سر يا صديقي. سر الله موجود في كل مكان. كل شجرة. كل عشبة تشتمل على سر. أن يغرد طير صغير، وأن تسطع النجوم متلألئة في الليل، فذلك كله سر، ذلك كله سر واحد. ولكن ما ينتظر نفس الإنسان في العالم الآخر هو سر الأسرار، هو أكبر الأسرار. هكذا يا صديقي!

Twitter: @ketab_n

ـ لا أدري ماذا تعني. . . وثق أنني لا أقول هذا الكلام مناكدةً لك، وثق أنني أؤمن بالله. ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشف عنها العقل منذ مدة طويلة، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشفه يوماً ـ هذا مؤكد حتماً ـ وربما اكتشفه في وقت قريب. عالم النبات يعرف تماماً كيف تنبت الشجرة، وعالم الفيزيولوجيا وعالم التشريح يعرفان لماذا يغرد الطائر، أما النجوم فقد أحصى عددها، بل حُسبت كل حركة من حركاتها حتى ليمكن التنبؤ بظهور أي مذنب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة. وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً. خذ مجهراً ـ المجهر عدسة مكبِّرة تضخم الأشياء مليون مرة ـ وانظر في قطرة ماء. ولسوف ترى في قطرة الماء عالماً كاملاً يعج بالمخلوقات الحية، وكان ذلك سراً فاكتشفناه.

ـ سمعت أناساً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يا بني. لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش. كل شيء وُهب للإنسان بإرادة الله. ليس عبثاً أن أعطى الله الإنسان نسمة الحياة: «عش واعرف».

ـ هذه معان تلوكها جميع الألسن. ما أنت مع ذلك بعدو من أعداء العلم، ما أنت كهنوتي؟ أعني. . . لا أدري هل تفهم. . .

ـ لا يا بني، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً، وإذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فإنني لا أناصبه العداء. مالم يوهب لنا قد وُهب لآخرين. ولعل في هذا خيراً: كل امرىء ميسر لما خلق له. ذلك أن العلم يا بني ليس دائماً ميزة. فمن الناس من ينقاد للرغبة في إدهاش العالم، فلو كنت عالماً فقد أرغب في ذلك أكثر من سائر البشر. أما وأنني جاهل فكيف يمكنني أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب مليء ذكاء. وذلك قدرك. فعليك بالدراسة.

Twitter: @ketab_n

حاول أن تعرف كل شيء، فإذا لقيت رجلاً زنديقاً أو رجلاً تافهاً كان في وسعك أن ترد عليه، ولا يغرنَّك بأقوال باطلة تعكر عقلك الغض. أما تلك العدسة التي جئت على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة كثيراً.

قال ذلك واسترد أنفاسه وتنهد. ولا شك أن مجيئي إليه قد سرَّه سروراً عظيماً. كانت تعتمر في نفسه حاجة قوية إلى البوح، حاجة تكاد تكون مرضية. زد على ذلك أنني لا أظنني مخطئاً إذا قلت أنه كان في بعض اللحظات ينظر إليَّ نظرات تزخر بعاطفة قوية: كان يضع يده على يدي بحنان، ويلاعب كتفي... ولكن يجب أن أعترف أنه كان في لحظات أخرى يبدو كمن نسيني نسياناً تاماً، فكأنه وحيد في الغرفة، فإذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه.

تابع يقول:

ـ إن في دير جناديفا ـ بوستين، يا صديقي، رجلاً عظيم الذكاء، نبيل الأصل، واسع الثراء، برتبة ليوتنان كولونيل. لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش في المجتمع. وهو الآن في الدير منذ قرابة عشر سنين، انفصل عن الناس حباً بالسكون والوحدة وأراح حواسه من أباطيل الحياة الاجتماعية. إنه يلتزم جميع قواعد الحياة الرهبانية، ولكنه لا يريد أن يرتدي مسوح الرهبان. وما أكثر ما عنده من كتب يا صديقي! إنني لم أر هذا القدر من الكتب في أي مكان إلا عنده! ثمنها يبلغ ثمانية آلاف روبل. هو قال لي ذلك. اسمه بطرس فالريانتش. وقد علَّمني أشياء كثيرة في فترات مختلفة، فطالما كنت أحب أن أصغي إليه. قلت له ذات مرة: «كيف يا سيدي وأنت رجل عظيم الفكر يعيش منذ عشر سنين في

Twitter: @ketab_n

طاعة النظام وهجر الإرادة والتنازل عن الرغبة، كيف لا تتمنى أن ترتدي المسوح فتزداد كمالاً؟» فقال لي: «كيف يا شيخ تجرؤ أن تزعم لي فكراً عظيماً؟ لعل فكري هو الذي أسرني واستعبدني بدلاً من أن أروِّضه وأسيطر عليه. وما هذا الذي تقوله عن طاعتي؟ لعلني منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال! وتتكلم أيضاً عن هجري إرادتي وتنازلي عن رغبتي؟ فاعلم إذن أنني مستعد لأن أدع على الفور مالي، وأن أردَّ رتبي، وأن أضع على هذه المائدة جميع أوسمتي... ولكن غليوني... هأنذا منذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع الاستغناء عنه! فأيَّ راهب يمكن أن أكون، وأين هجر الإرادة الذي تمدحه فيَّ؟» دُهشت عندئذ من هذا التواضع. وقد مررت بذلك الدير في الصيف الماضي يوم القديس بطرس ـ أراد الله لي ذلك ـ فماذا رأيت في الحجرة؟ رأيت ذلك الشيء الذي حدثتني عنه: مجهراً كان الرجل قد استقدمه من الخارج وتحمل في سبيل ذلك نفقات ضخمة. قال لي: «انتظر قليلاً، سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره في حياتك حتى الآن. هل ترى هذه القطرة من الماء؟ إنها صافية رائقة كدمعة. فانظر إذن إلى ما في داخلها. لتجدنَّ أن العلماء سيكشفون قريباً عن جميع أسرار الرب... فلا يدعون منها واحداً». هذا ما قاله وقد حفظته. وكنت أنا قد نظرت في المجهر قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندر فلاديميروفتش مالجاسوف، خال آندريه بتروفتش، الذي آلت أملاكه بعد وفاته إلى آندريه بتروفتش. لقد كان سيداً خطير الشأن، وكان جنرالاً كبيراً، وكان يملك رهطاً كبيراً من كلاب الصيد، وقد عملت عنده صياداً بالكلاب مدة طويلة. وكان قد أحضر هو أيضاً هذا المكروسكوب، فكان يدعو جميع الناس بعضاً وراء بعض،

Twitter: @ketab_n

رجالاً ونساءً، للنظر فيه، عارضاً تحت عدسته قملةً وبقة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء. ما أكثر ما تسلينا وتضاحكنا! كنا نخاف أن نقترب من المكروسكوب، ولكننا كنا نخاف مولانا أيضاً إذا نحن لم نقترب، لأنه كان شديد الغضب. وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر، فهم يغمضون أعينهم فلا يرون شيئاً. وكان آخرون يصرخون جزعاً وهلعاً. حتى أن العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً: «اصنع بي ما شئت فلن أنظر!»، فانطلق الضحك من كل صوب! كنت إذن قد رأيت هذا المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً، كنت قد رأيت هذه المعجزة، ولكنني لم أقل هذا لبطرس فالريانوفتش، إذ كان يسره سروراً عظيماً أن يرينيها. حتى لقد تظاهرت بأنني أدهش وأرتاع. فتركني لحظةً ثم سألني: «فما قولك يا شيخ؟». قلت وأنا أنتصب: «الرب قال: كن يا ضياء فكان الضياء». فأجابني فجأةً: «لعل الظلمات هي التي كانت!» قال ذلك بطريقة غريبة دون أن يبتسم. وشعرت في تلك اللحظة باستغراب، أما هو فقد كاد يغضب ثم لم يقل بعدئذ شيئاً.

قلت له:

ـ الأمر بسيط جداً، إن صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم في الدير ليأكل كوتيا ويركع ويسجد، لكنه لا يؤمن بالله، وأنت إنما وقعت عليه وهو في لحظة من لحظات صراحته تلك. هذا كل شيء، ثم إنه شخص عجيب جداً: فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات، فلماذا جنَّ به في المرة الحادية عشرة؟ هذه حساسية عصبية... أغلب الظن أنه اكتسبها في الدير.

قال الشيخ باقتناع:

Twitter: @ketab_n

ـ إنه رجل طاهر القلب رفيع الفكر، وليس زنديقاً. إن له عقلاً واسعاً، ولكن قلبه قلق. وما أكثر أمثاله الذين يفدون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء. ثم اسمع ما سأقوله لك: إن الرجل يعاقب نفسه. فلاحظ هؤلاء الناس، ولا تعذبهم، واذكرهم في صلواتك قبل النوم، لأنهم إنما يبحثون عن الله. هل تصلي قبل أن تنام؟

ـ لا. أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل منه. ولكن يجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبني: فهو على الأقل ليس خرقة بل رجلاً، وهو يشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منا نعرفه كلانا.

لم ينتبه الشيخ إلا إلى الجزء الأول من جملتي. وأردف يقول:

ـ خطأ منك يا صديقي ألا تصلي. الصلاة شيء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصحو في الصباح وحين يستيقظ المرء في الليل. أنا أقول لك هذا. في صيف من الأصياف، في شهر تموز (يوليه)، كنا نحث الخطى نحو دير «العذراء» احتفالاً بعيد. فكلما اقتربنا من المكان ازداد عددنا، فإذا نحن نصبح مائتي شخص تقريباً، مسرعين إلى تقبيل الرفات المقدس للشهيدين آنيكي وجريجوار. كنا قد قضينا الليل في حقل من الحقول، وفتحت عينيَّ في الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة. رفعت رأسي يا بني، وشملت الأفق بنظرة وتنهدت: كان كل شيء جميلاً جمالاً لا يوصف! كل شيء هادىء، الهواء نسيم، العشب ينبت ـ أنبت يا عشب الرب... والطائر الصغير يغرد ـ غرِّد يا طائر الرب... والطفل الصغير يزقزق على ذراعي أمه ـ ليحرسك الله أيها الرجل الصغير، اكبر وكن سعيداً! لعلني أدركت الجمال يومئذ أول مرة من حياتي! وعدت

Twitter: @ketab_n

أرقد، ونمت نوماً ما كان أخفه وأحلاه! العالم جميل يا صديقي! إذا تحسنت صحتي فسوف أستأنف طوافي متى طلع الربيع. إذا كان هناك أسرار، فمرحباً بالأسرار. صحيح أن الأسرار ترهب القلب وتثير فيه العجب، ولكن هذا الخوف يبهج القلب أيضاً: «كل شيء متجمع فيك أيها الرب، أنا نفسي موجود فيك، فخذني إليك!».

وأضاف يقول برقة وحنان:

ـ لا تتململ يا فتى! لأن يكون سر فذلك أجمل.

ـ «لأن يكون سر فذلك أجمل...». سوف أتذكر هذه الكلمات. الأسرار ترهب القلب، كما عبرتَ عن ذلك تعبيراً غير صحيح، ولكنني أفهم... إن ما يدهشني هو أنك تعرف وتدرك أموراً أكثر مما تستطيع التعبير عنها. ولكن كأنك تتكلم وأنت في حالة هذيان...

أفلتت مني هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحمومتين ووجهه الشاحب. ولكن أظن أنه لم يسمعني.

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذي انقطع:

ـ هل تعرف يا بني الصغير أن لذكرى الإنسان على هذه الأرض حداً؟ إن هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة. قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده أو أحفاده الذين رأوا وجهه. وإذا بقيت ذكراه مدة أطول، فإنما تكون بعد ذلك ذكرى شفهية، ذكرى عقلية، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحي سوف يمضون وسوف يخفي العشب قبره في المقبرة، وتنكسر الشاهدة، وينساه جميع الناس حتى أعقابه، وأخيراً ينسون اسمه أيضاً، لأن الذين تبقى أسماؤهم في ذاكرة البشر قلة قليلة جداً. لا بأس! فلينس أعزائي. ولكنني سأظل أنا

Twitter: @ketab_n

أحبهم من قرارة قبري. أيها الأولاد الصغار، إنني أسمع أصواتكم الفرحة، وأسمع أصوات وقع أقدامكم على قبور آبائكم في يوم عيد الأموات، وسوف أصلي من أجلكم، وسوف أنزل إليكم في أحلامكم... إن الحب يبقى بعد الموت!...

كنت في حمى مثله. وبدلاً من أن أنصرف أو أن أحضه على أن يهدأ ويسكن، أو أن أرقده فوق سريره، لأنه كان يبدو في حالة هذيان كامل، أمسكت يده فجأةً، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده، قلت له بهمس متأثر ودموع في القلب:

ـ إنني سعيد برؤيتك. لعلني كنت أنتظرك منذ مدة طويلة. لا أحب أحداً: ليس في أحد منهم جمال... لن أتبعهم، ولا أعرف إلى أين أذهب، فسأمضي معك...

ولكن شاء حسن الحظ أن تدخل أمي في تلك اللحظة. فلولا ذلك لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهي الأمر. دخلت دخول شخص استيقظ الآن وأوجس خطراً. وكانت تحمل بيدها قارورة وملعقة. فلما رأتنا صاحت تقول:

ـ آ... توقعت هذا! لقد نسيت أن أجرِّعك جرعة الكينا فهاأنت ذا قد اعترتك حمى شديدة! نمتُ مدة طويلة يا ماكار إيفانوفتش، يا عزيزي!

نهضت وخرجت. وأعطته أمي جرعته وأرقدته على السرير. واندسستُ أنا أيضاً في سريري، ولكنني كنت مضطرباً أشد الاضطراب. لقد رجعت إلى غرفتي وأنا أشعر بدهشة كبيرة، وأخذت أفكر في هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة. لا أدري ماذا كنت أنتظر من هذا التفكير. وأغلب الظن أنني كنت أفكر في الأمور تفكيراً مشوشاً لا تسلسل فيه، وأن ما كان يتلاحق في ذهني

Twitter: @ketab_n

لم يكن أفكاراً بل شذرات أفكار. كنت في اضطجاعي متجهاً برأسي إلى الجدار، فإذا أنا أرى البقعة المضيئة المتوهجة التي أسقطتها الشمس الغاربة على الزاوية، والتي كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لاعناً. إنني أتذكر أن نفسي كلها قد اشتعلت حماسة في تلك اللحظة، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ إلى قلبي. إنني أتذكر تلك اللحظة العذبة، ولا أريد أن أنساها. لم تكن إلا لحظة أمل جديد، وقوة جديدة. . . كنت قد بدأت فترة النقاهة طبعاً، فمن الجائز إذن أن تلك النوبات لم تكن إلا نتيجة لا مفرَّ منها لحالة أعصابي، ولكنني ما زلت إلى اليوم أؤمن بذلك الأمل المضيء الذي ملأ نفسي. ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه. صحيح أنني كنت أعلم حق العلم أنني لن أصحب ماكار إيفانوفتش لأجوب الأرض مثله، وأنني كنت أجهل أنا نفسي ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذي استولى على نفسي، ولكنني كنت قد نطقت بتلك الجملة، ولو في الهذيان: «ليس فيهم جمال!» قلت أحدث نفسي مفتتناً: «انتهى الأمر، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال، وهم ليس فيهم جمال، فسأتركهم». وسمعت حفيفاً ورائي، فالتفت. إنها ماما، تميل عليَّ وتنظر في عينيَّ مستطلعةً على خجل. فأمسكت يدها فجأة، وسألتها دون أن أتوقع أنا نفسي ماذا كنت سأقول:

ـ لماذا لم تقولوا لي شيئاً عن ضيفنا العزيز؟

فإذا بقلقها كله يختفي بغتةً، وإذا الفرح يضيء وجهها، ولكنها لم تجبني إلا بهذه الكلمات:

ـ لا تنس أيضاً ليزا، ليزا. إنك قد نسيت ليزا.

قالت ذلك بسرعة وقد احمر وجهها، وهمَّت بالانصراف

Twitter: @ketab_n

مستعجلةً، لأنها كانت هي أيضاً تكره أن تبسط عواطفها. إنها من هذه الناحية تشبهني، أعني أنها مغلقة على نفسها عَفة. هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تشرع في حديث معي عن هذا الموضوع: ماكار إيفانوفتش. كان ما استطعنا أن نتبادله من نظرات كافياً. ولكنني، أنا الذي أكره أن أعرض عواطفي، قد احتجزتها عنوةً بإحدى يديَّ، وأخذت أنظر في عينيها برقة، وأضحك برفق ولطف. وألامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخديها الخاسفتين. فمالت عليَّ، ووضعت جبينها على جبيني، ثم قالت لي فجأة وهي تنتصب مشرقة المحيا:

ـ أبلَّ من مرضك فأكون لك شاكرة. إنه مريض، مريض جداً... إن حياته بين يدي الرب... آه! ما هذا الذي قلته؟ مستحيل!...

وانصرفت. لقد ظلت طوال حياتها خائفةً مرتعدة زاخرة النفس بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعي، الجواب ماكار إيفانوفتش، الذي غفر لها إلى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

1

أنا ما نسيت ليزا. أخطأت ماما الظن. لقد رأت هذه الأم الحساسة أن هناك نوعاً من الفتور بين الأخ وأخته، ولكن هذا لم يكن وهناً طرأ على ما يربطهما من عاطفة، وإنما كان ضرباً من الغيرة. وهأنذا أشرح ما في نفسي ببضع كلمات.

إن المسكينة ليزا قد انتابها منذ اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء المتغطرس، والتكبر الشديد الذي لا يكاد يحتمل. ولكن كل من في البيت قد أدرك الحقيقة، فعرف أنها تعاني عذاباً قوياً، ولئن حزنت أنا في أول الأمر وقطبت حاجبي، فإنما كان مرد ذلك إلى ما أتصف به من سرعة التأذي وفرط الحساسية، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندي، أو هذا ما أقدِّره الآن. ولكنني لم أنقطع عن حب ليزا أبداً. بالعكس: اشتد في نفسي ما كنت أحمله لها من حب. كل ما هنالك أنني لم أشأ أن أقوم بالخطوة الأولى، رغم أنني أدركت أنها هي أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى في حال من الأحوال، مهما كلفها الأمر.

إن ليزا، منذ عُرفت قصة الأمير فور اعتقاله، سارعت تتخذ منا ومن جميع الناس موقف إنسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثي أحد لحاله أو أن يشفق عليه أو أن يسري عنه بمحاولة تبرئة الأمير.

Twitter: @ketab_n

بالعكس: أصبحت، مع حرصها على ألا تفصح عما بنفسها وألا تجادل أحداً قط، تصطنع هيئة من يمجد سلوك خطيبها المسكين ويعده بطولة ما بعدها بطولة. لكأنها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة، أكرر هذا): «لا أحد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً. لا أحد منكم يمكن أن يسلم نفسه مدفوعاً إلى ذلك بدواعي الشرف والواجب. ذلك أنكم لا أحد منكم يملك وجداناً يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة. أما عن أعماله فأي إنسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات؟ الآخرون يكتمون ويخفون أما هو فقد آثر أن يهلك على أن يفقد قيمته في نظر نفسه». ذلك ما كانت تعبِّر عنه كل حركة من حركات ليزا تعبيراً واضحاً. وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف نفسه. ولا أدري هل هذه المعاني هي التي كانت راسخة في قرارة قلبها، في أعماق نفسها: وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها، في النصف المضيء، كانت تدرك حتماً كل تفاهة «بطلها». فمن ذا الذي يرفض اليوم أن يعترف أن هذا الإنسان الذي يمكن أن يعد من جهة أولى تعيساً شقياً، وأن يعد من جهة أخرى شهماً كريه النفس في نوعه، قد كان في الوقت نفسه أمرءاً تافهاً كل التفاهة؟ إن شدة تأذيها، وأن تأهبها الدائم للتهجم علينا، وإن ما كانت تحسه من اشتباه مستمر في أننا قد نرى فيه رأياً آخر، إن ذلك كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر. ومع ذلك أسارع فأضيف أنها في نظري كانت على حق، أو على بعض الحق في أقل تقدير. إنها تُعذر أكثر منا جميعاً إذا هي ترددت في استخلاص نتيجة حاسمة ورأي قاطع. أنا نفسي أعترف من كل قلبي، بعد أن مضى وانقضى ذلك كله، إنني لا أدري على

Twitter: @ketab_n

وجه اليقين كيف أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدِّر تقديراً حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا جميعاً أمام لغز لا نعرف كيف نحله.

على أن المنزل قد استحال بسببها إلى جحيم صغير. إن ليزا التي أحبت حباً قوياً كان لا بد أن تتألم كثيراً. وكانت بحكم طبعها تفضِّل أن تتألم صامتة. إن طبعها يشبه طبعي، أعني أن يجنح بها إلى التحكم والتسلط والتكبر... وقد اعتقدت دائماً ولا أزال أعتقد إلى اليوم أنها قد أحبت الأمير مدفوعةً إلى ذلك بالرغبة في التسلط والتحكم، لأن الأمير كان بغير إرادة، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً. ذلك كله إنما يتم في القلب من تلقاء نفسه بدون أي حساب سابق. ولكن هذا الحب الذي يحمله قوي لضعيف يكون في بعض الأحيان أعنف كثيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم بين اثنين متكافئين، ذلك لأن القوي يتحمل تبعة صديقه الضعيف رغم إرادته. أو هذا ما أعتقده أنا على الأقل. ولقد أحاطها أهل الدار منذ البداية بأكبر المراعاة وأشد المداراة، ولا سيما ماما. ولكنها لم ترق، ولم تستجب لهذه العاطفة، وتأبت على كل مساعدة. ولئن ظلت تكلم ماما في أول الأمر، فإنها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً بعد يوم، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة. وكانت تستشير في أول الأمر فرسيلوف، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشاراً لها ومساعداً، وهذا أمر أدهشني حين عرفته فيما بعد. كانت تذهب كلَّ يوم إلى فاسين، وتركض إلى المحاكم، وتقابل رؤساء الأمير، وتراجع المحامين ووكيل النيابة. وفي النهاية صار ينقضي النهار كله دون أن يراها أحد في البيت تقريباً. وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعاً، في قسم النبلاء من السجن الذي

Twitter: @ketab_n

أودع فيه، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة على ليزا كما علمت ذلك من بعد. صحيح أنه ليس ثمة شخص ثالث يمكن أن يعرف شؤون حبيبين معرفة تامة. ولكنني أعلم مع ذلك أن الأمير كان يجرح شعورها جرحاً عميقاً في بعض الأحيان. كيف؟ بغيرة لا تنقطع. أمر عجيب! إن لنا إلى هذه النقطة عودة. غير أنني أحب أن أضيف هذه الفكرة: إنه لمن الصعب أن يقطع المرء في هذا السؤال: أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد؟ لعل ليزا التي كانت بيننا تعتز ببطلها، لعلها كانت تعامله معاملة أخرى، كما يجوز لي أن أفترض ذلك على أساس بعض الوقائع التي سنجيء على ذكرها فيما بعد أيضاً.

ففيما يتعلق بعواطفي وعلاقاتي بأختي ليزا، لم يكن كل ما يُرى ويلاحظ إلا كذباً مقصوداً عنيداً من الطرفين كليهما، والحق أننا لم نتحابَّ يوماً كما تحاببنا في تلك الفترة. يجب أن أضيف شيئاً آخر هو أن ليزا منذ أن جاء إلينا ماكار إيفانوفتش قد عاملته، بعد الاستغراب والفضول اللذين أحستهما في اللحظة الأولى، عاملته بنوع من الاحتقار بل الاستعلاء، وتعمدت أن تتظاهر بأنها لا توليه أيَّ انتباه.

عاهدت نفسي إذن على التزام الصمت، كما أوضحت ذلك في الفصل السابق، وقدَّرت نظرياً، أي في أحلامي، أنني سأفي بالعهد طبعاً. نعم، إنني لأوثر، مع فرسيلوف مثلاً، أن أتحدث في علم الحيوان، أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان على أن أتكلم «عنها» أو عن ذلك السطر من رسالته، الذي يبلغها فيه أن «الوثيقة» لم تُحرق بل هي موجودة، وأنها يمكن أن تظهر إلى النور ـ ذلك السطر الذي أخذت أفكِّر فيه بيني وبين نفسي فوراً منذ صحوت من غيبوبتي وعاد

Twitter: @ketab_n

إليَّ رشدي بعد الحمى. ولكن واأسفاه! لقد أدركت منذ الخطوات العملية الأولى بل قبلها تقريباً، أدركت كم يصعب على المرء بل كم يستحيل عليه أن يتقيد بهذه القرارات التي تصورها خياله. إن ظرفاً لم يكن في الحسبان قد هزَّني هزاً قوياً رهيباً غداة لقائي بماكار إيفانوفتش.

2

كان الظرف الذي هزَّني هزاً قوياً هو زيادة داريا أونيسيموفنا، أم الفتاة أوليا التي انتحرت شنقاً. كنت قد عرفت من أمي أنها جاءت مرتين أثناء مرضي، وأنها كانت تهتم كثيراً بأنباء صحتي. أمن أجلي حقاً إنما جاءت تلك «المرأة الرائعة» كما كانت تصفها أمي بذلك دائماً، أم هي جاءت لزيارة أمي فحسب، جرياً على عادتها؟ إنني لم أسأل عن هذا. لقد كانت أمي تقص عليَّ أحداث المنزل دائماً، وكانت تقص عليَّ هذه الأحداث في العادة حين تجيء لتطعمني حسائي (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامي بنفسي)، وذلك تسليةً لي وتسريةً عني. وكنت أحرص في كل مرة على أن أظهر أنني لا أحفل بما ترويه لي، لذلك لم أسألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيموفنا.

الساعة هي الحادية عشرة. وقد دخلت عليَّ داريا أونيسيموفنا حين كنت أهمُّ أن أنهض لأنتقل إلى مقعد بقرب المائدة. فلما دخلت تعمدت أن أبقى في السرير. كانت أمي منهمكة بالعمل فوق، فلم تنزل لتراها، فأمكننا أن نبقى وحيدين. جلست قبالتي، على كرسي بقرب الجدار، تبتسم ولا تنطق بكلمة. وتوقعت أن يطول الصمت. وكان مجيئها يحدث في نفسي ضيقاً وحنقاً واهتياجاً

Twitter: @ketab_n

في جميع الأوقات على كل حال. فلم أتجه إليها ولو بحركة من رأسي محيياً، وظللت أحدق إلى عينيها بنظرة ثابتة. ولكنها حدَّقت إليَّ هي أيضاً.

وسألتها فجأة وقد نفد صبري:

ـ لا شك أنك تضجرين الآن وحيدةً بعد غياب الأمير؟

فأجابت تقول:

ـ لا، إنني لا أقيم هنالك الآن. فأنا بفضل آنا آندرييفنا، أُعنى الآن بالطفل.

ـ أي طفل؟

ـ طفل آندريه بتروفتش.

قالت ذلك هامسةً، بلهجة البوح، وهي تنظر إلى الباب.

ـ ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا...

ـ بل تاتيانا بافلوفنا وآنا آندرييفنا كلتاهما، وكذلك أليزابث ماكاروفنا، وأمك... إنهن جميعاً يشاركن. وقد انعقدت الآن أواصر صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا آندرييفنا.

هذا نبأ!

وكانت المرأة تنتعش وتنشط أثناء كلامها. ونظرت إليها نظرة كره. وقلت لها:

ـ أرى أنك الآن أنشط مما كنت عليه إبان زيارتك الأخيرة لي في بيتي.

ـ آ... نعم!

ـ وأظن أنك سمنت؟

فألقت عليَّ نظرة غريبة. ثم قالت:

ـ إنني أحبها كثيراً، كثيراً.

Twitter: @ketab_n

ـ من هي؟
ـ آنا آندرييفنا طبعاً. أحبها كثيراً. إنسانة نبيلة، عاقلة...
ـ نعم، وكيف حالها الآن؟
ـ هادئة جداً، هادئة جداً.
ـ كانت دائماً هادئة.
ـ صحيح. دائماً.
ونفد صبري فهتفت أقول لها فجأة:
ـ إذا كنت قد جئت إليَّ لتروي لي أقاويل وتنقلي إليَّ نمائم، فاعلمي أنني الآن لا أتدخل في شيء، وإنني عزمت على أن أترك كل شيء وأن أترك جميع الناس... لقد استوت عندي الأمور كلها: إنني راحل!
قلت ذلك وصمت إذ ثاب إليَّ رشدي. إنني لا أريد أن أهبط إلى حيث أشرح لها أهدافي الجديدة. وقد أصغت إليَّ بدون اندهاش وبدون اضطراب، ولكن خيَّم صمت جديد. ثم إذا هي تنهض فجأة، فتتجه نحو الباب، وتلقي نظرةً على الغرفة المجاورة، حتى إذا اطمأنت إلى أن الغرفة خالية ليس فيها أحد، وأننا وحيدان، رجعت بهدوء شديد، وعادت تجلس في مكانها نفسه.
قلت وأنا أنفجر ضاحكاً:
ـ شيء لطيف!
سألتني فجأة وهي تميل عليَّ قليلاً وتخفض صوتها كأن هذا هو السؤال الأساسي الذي من أجله جاءت:
ـ مسكنك عند ذلك الموظف، أتنوي أن تحتفظ به أم لا؟
ـ مسكني؟ لا أعرف. قد أتركه... ما يدريني؟

Twitter: @ketab_n

ـ ذلك أن السكان ينتظرونك. الموظف ينتظرك بفارغ صبر، وكذلك زوجته. . . ولقد أكد لهما آندريه بتروفتش أنك عائد حتماً.

ـ ولكن فيم يهمك هذا الأمر؟

ـ آنا آندرييفنا أيضاً تريد أن تعرف. لقد سرَّها كثيراً أن تعلم أنك باق.

ـ من أين جاءتها هذه الثقة بأنني سأبقى في ذلك المسكن؟

وهممت أن أسألها: «وما شأنها هي في هذا الأمر؟» ولكنني امتنعت عن إلقاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء.

ـ أكده لها مسيو لامبرت.

ـ من؟

ـ مسيو لامبرت. هو أيضاً أكَّد لآندريه بتروفتش تأكيداً قاطعاً بأنك باق، وطمأن كذلك آنا آندرييفنا.

اضطربت اضطراباً شديداً. ما هذه القصة أيضاً؟ إذن أصبح لامبرت يعرف فرسيلوف. إذن وصل لامبرت إلى فرسيلوف! لامبرت وآنا آندرييفنا: وصل لامبرت حتى إلى آنا آندرييفنا! وانتابتني حمى. لكنني صمت. وأغرق نفسي سيل رهيب من صلف، صلف أو شيء آخر. المهم أنني كنت كمن يقول لنفسه: «إذا طلبت كلمة إيضاح واحدة، كنت أقحم نفسي في هذا العالم من جديد، فلا أتركه بعد ذلك أبداً». واشتعل في قلبي كره شديد. وقررت جازماً أن أصمت، ولبثت في سريري ساكناً لا أتحرك. ولبثت هي أيضاً صامتة خلال دقيقة كاملة.

سألتها فجأةً بغير تمهيد:

ـ كيف حال الأمير نيقولا إيفانوفتش؟

ألقيت هذا السؤال بلهجة قوية لأغيِّر موضوع الحديث، فإذا أنا

Twitter: @ketab_n

ألقي السؤال الأساسي اعتباطاً كمن فقد عقله، فأرجع كالمجنون إلى ذلك العالم الذي كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه.

قالت:

ـ هو في تساركويه سيلو. إنه مريض قليلاً. المدينة ملأى الآن بهذه الحميات نصحه الجميع أن يعتزل في تساركويه سيلو بمنزله هناك نشداناً للهواء النقي.

لم أجب. وأردفت هي تقول:

ـ تزوره آنا آندرييفنا والجنرالة كلَّ ثلاثة أيام. تذهبان إليه معاً.

آنا آندرييفنا والجنرالة (أي «هي») صديقتان! تذهبان إليه معاً!

لم أقل شيئاً.

ـ ذلك أنهما أصبحتا صديقتين جداً. وآنا آندرييفنا تمدح كاترينا نيقولايفنا كثيراً. . .

بقيت صامتاً.

ـ عادت كاترينا نيقولايفنا إلى ولعها بالمجتمع، فهي تنتقل من حفلة إلى حفلة، تتلألأ. . . بل يقال إن كثيراً من رجال البلاط يهيمون بحبها، أما السيد بيورنج فقد انقطع الحبل بينه وبينها، فلن يتم الزواج. ذلك ما يؤكده جميع الناس. . . منذ تلك المرة. . .

أرادت أن تقول: منذ وصول رسالة فرسيلوف. وقد ارتعدت، لكنني لم أقل كلمة واحدة.

ـ ما أشد إشفاق آنا آندرييفنا على الأمير سرجي بتروفتش! وكذلك كاترينا نيقولايفنا! إنهما تتحدثان عنه دائماً، وتقولان إن القضاء سيبرئه وسيحكم على الآخر، ستيبلكوف. . .

نظرت إليها نظرة تفيض كرهاً. ونهضت فجأة ومالت عليَّ تقول لي بهمس:

Twitter: @ketab_n

ـ أوصتني آنا آندرييفنا بأن أستفسر عن صحتك، وأمرتني أن أرجوك أن تذهب إليها متى خرجت، فأرجو أن تبل من المرض. أستودعك الله.

وخرجت. فجلست على سريري. وأخذ عرق بارد يتصبب في جبيني. غير أن ما شعرت به لم يكن قلقاً. إن هذا النبأ الكريه الذي لم أستطع أن أفهمه، هذا النبأ عن لامبرت ومكائده، لم يروِّعني كما كانت تروِّعني، أثناء مرضي وفي الأيام الأولى من نقاهتي، ذكرى لقائي به في تلك الليلة. حتى إنني في تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم الذي أعقب انصراف داريا أونيسيموفنا، لم يشغل فكري لامبرت... وإنما استولى على ذهني ما أنبأتني به داريا عن القطيعة التي وقعت بين كاترينا نيقولايفنا وبين بيورنج، وعن سعادة كاترينا في المجتمع، وعن الحفلات التي تنتقل بينها، وعن النجاح الذي تلقاه، وعن تألقها. لقد قالت داريا أونيسيموفنا «إنها تتلألأ». وشعرت فجأة بأنني عاجز عن انتزاع نفسي من هذا الإعصار، رغم أنني استطعت أن أتجلد وأصمت، وألا ألقي على داريا أسئلةً بعد الأشياء المذهلة التي روتها لي. واجتاحني ظمأ شديد إلى تلك الحياة، «حياتهم»، و... واجتاحني كذلك ظمأ آخر لذيذ عذب، لا أدري ما هو، ظمأ أحسسته كالسعادة وأحسسته كالعذاب. وطفقت أفكاري تدور في رأسي كزوبعة... وتركت لها أن تدور هذا الدوران! كنت أقول لنفسي: «علام التفكير؟». ثم جعلت أفكِّر تفكيراً متقطعاً لا تسلسل فيه، فأقول لنفسي: «إن أمي نفسها قد أخفت عني مجيء لامبرت. ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت. إنني أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لامبرت بحال من الأحوال!». ثم عدت أقول:

Twitter: @ketab_n

«فرسيلوف! فرسيلوف ولامبرت! أوه! ما أكثر ما حدثت من أمور جديدة عندهم! ما أمكر فرسيلوف هذا! لقد أخاف ذلك الألماني بيورنج بتلك الرسالة. لقد أذاع في حقه النمائم. . . «النميمة لا بد أن يبقى منها شيء دائماً». خاف الرجل من الفضيحة. آه. . . آه. . . درس حسن لها! «لامبرت! ولكن ألا يكون لامبرت قد وصل إليها هي أيضاً. لا بد أنه وصل إليها حتماً! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد صلة به؟».

وهنا كففت فجأة عن إدارة هذه الأفكار المضطربة المشوشة في ذهني، وهويت برأسي على الوسادة من شدة الكرب واليأس. ثم صحت أقول بعزم مباغت: «ولكن لا!». ووثبت عن سريري ودسست قدمي في البابوجين، وألقيت عليَّ ثوب المنزل، ومضيت قُدُماً إلى ماكار إيفانوفتش كأن الشفاء من هذه الأفكار التي تحاصرني إنما يجب أن ألتمسه عنده، كأن لديه النجاة والخلاص، كأن عنده المرساة التي أستطيع أن أتشبث بها فلا أغرق.

وأغلب الظن أنني أحسست بهذه الفكرة إحساساً قوياً، وإلا فهل كنت أنهض هذا النهوض الذي لا سبيل إلى مغالبته، وهل كنت أسرع إلى ماكار إيفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من تلك الحالة النفسية المضطربة؟

3

لكنني وجدت عند ماكار إيفانوفتش زواراً لم أكن أتوقعهم: ماما والدكتور. ولأنني كنت أتصور حين مضيت إلى الشيخ أنني سألقاه وحيداً كما حدث أمس، فقد وقفت في العتبة متحيراً تحيراً غبياً. ثم ما إن قطبت حاجبي حتى وصل أيضاً فرسيلوف، ووصلت وراءه

Twitter: @ketab_n

ليزا. التأم الشمل كله إذن عند ماكار إيفانوفتش «في وقت غير مناسب»!

قلت وأنا أتجه إلى ماكار إيفانوفتش رأساً:

ـ جئت أسأل عن صحتك.

ـ شكراً يا بني، كنت أعلم أنك ستأتي! هذه الليلة أيضاً فكرت فيك.

وكان ينظر في عيني برقة وحنان، فرأيت أنه ربما كان يحبني أكثر من الآخرين جميعاً. ولكنني لاحظت فوراً برغم إرادتي أنه إذا كان وجهه فرحاً فإن مرضه قد تفاقم في الليل كثيراً. وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصاً دقيقاً جداً. وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذي تشاجرت معه يداوي ماكار إيفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام، وهو يشخِّص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسميها بلغتهم الطبية. وقد انعقدت بين ماكار إيفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصداقة كما أدركت ذلك منذ أول نظرة، فلم يعجبني هذا كثيراً في تلك اللحظة. ثم إنني كنت آنئذً معتكر المزاج جداً.

سأل فرسيلوف قائلاً:

ـ فماذا يا ألكسندر سيمونوفتش؟ كيف صحة مريضنا العزيز اليوم؟

لولا أنني كنت مضطرباً لجعلت أول همي أن أدرس، باهتمام شديد وشغف كبير، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ. وقد خطر ذلك ببالي منذ الأمس. والشيء الذي خطف بصري الآن خاصة هو ما كان يعبر عنه وجهه في الظاهر من لطف وبشاشة. أظن أنني

Twitter: @ketab_n

سبق أن أشرت إلى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جمالاً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض البساطة.

أجاب الطبيب يقول:

ـ نحن لا نفتأ نتشاجر.

ـ تتشاجر مع ماكار إيفانوفتش؟ لا أصدِّق شيئاً من هذا: لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه.

ـ لكنه لا يريد أن يطيعني: إنه لا ينام الليل...

ـ دعك من هذا الكلام يا ألكسندر سيمونوفتش، كفى تقريعاً!

كذلك قال ماكار إيفانوفتش ضاحكاً. وتابع كلامه سائلاً آندريه بتروفتش:

ـ هيه آندريه بتروفتش العزيز؟ ما صنعت بآنستنا؟

ثم أضاف وهو يشير إلى أمي:

ـ لقد ظلت مضطربةً قلقة طول الصباح.

فهتفت أمي تقول بقلق شديد فعلاً:

ـ نعم يا آندريه بتروفتش، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبتنا المسكينة! ماذا قرروا في حقها؟

فقال:

ـ حكموا عليها.

ـ أوه!

ـ هدئي روعك، لن تُنْفى إلى سيبيريا: حكموا عليها بدفع غرامة مقدارها خمسة عشر روبلاً. مهزلة!

قال ذلك وجلس. فجلس الطبيب أيضاً. كانوا يتكلمون عن تاتيانا بافلوفنا. ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد. كنت على يسار ماكار إيفانوفتش. وجلست ليزا أمامي على اليمين. كان

Twitter: @ketab_n

واضحاً أنها تعاني ألماً خاصاً جاءت تفضي به إلى أمي. كان وجهها ينم عن اضطراب واستياء. وقد تبادلنا نظرة في تلك اللحظة، فقلت لنفسي فجأة: «كلانا تلطخ شرفه، وعليَّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى نحوها». لقد رقَّ قلبي لها فجأة. وفي تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروي ما جرى في الصباح.

لقد مثلت تاتيانا بافلوفنا في هذا الصباح أمام قاضي الصلح مع طباختها. وكانت القضية مضحكة جداً. سبق أن ذكرت أن الفنلندية المتعبة كانت إذا غضبت تلزم الصمت في بعض الأحيان أسابيع متصلة فما تجيب بكلمة واحدة عن أسئلة مولاتها. وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا ضعيفة تجاهها، فهي تحتمل منها كل شيء، ولا يمكن أن تطردها من خدمتها بحال من الأحوال. إن جميع هذه النزوات النفسية التي تلاحظ في العوانس أمور تستحق الاحتقار في نظري ولا تستحق أي اهتمام، وإذا كنت قد قررت أن أروي هذه القصة هنا، فإنما يدفعني إلى ذلك إن هذه الطباخة سيكون لها في روايتي دور مشؤوم لا يمكن إغفاله. وأعود إلى حكايتها فأقول إن تاتيانا بافلوفنا قد نفد صبرها أخيراً وضاقت ذرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التي لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ عدة أيام، فإذا هي تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً. وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل شيئاً البتة بل لم يصدر عنها أي صوت، ولكنها اتصلت في ذلك اليوم نفسه بمستأجر كان يقيم في مكان يطل على سلم الخدم نفسه، تحت، وهو الملازم البحري المتقاعد أوستروف الذي كان يعمل وسيطاً في جميع أنواع القضايا، وكان يرفع إلى المحاكم قضايا من هذا النوع، طلباً للرزق في الكفاح من أجل البقاء. وكانت النتيجة أن طُلبت تاتيانا إلى

Twitter: @ketab_n

المثول أمام قاضي الصلح، واستدعى فرسيلوف شاهداً.

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب أيضاً أن أمي نفسها أخذت تضحك. وقد قلد شخصيات تاتيانا بافلوفنا والملازم البحري والطباخة. فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضي أنها تطالب بتعويض مالي وكيف عقبت على ذلك قائلة: «وإلا فلمن أهيىء العشاء إذا هي سُجنت؟». وروى كيف أن تاتيانا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضي بكثير من التكبر حتى إنها أبت أن تبرر فعلتها وانتهت إلى القول: «ضربتها ولسوف أضربها أيضاً»، فكان أن حُكم عليها بغرامة قدرها ثلاثة روبلات لعدم توقيرها القاضي. وأخذ يصف الملازم البحري، وهو شاب متخلع المشي نحيل الجسم، فذكر كيف اندفع يلقي خطاباً طويلاً في مدح صاحبته الطباخة، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً فأخذت القاعة كلها تضحك. وسرعان ما انتهت المناقشات فحكم على تاتيانا بافلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها ماري، التي أساءت إليها وأهانتها. فما كان من تاتيانا بافلوفنا إلا أن استلت محفظة نقودها فوراً بدون انتظار، وعدَّت المبلغ، فإذا بالملازم البحري ينبجس حالاً ويمد يده، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت أن تضربها ضرباً، والتفتت نحو ماري تريد أن تنقدها المبلغ، فقالت لها ماري: لا تكترثي يا سيدتي، وأضيفي المبلغ إلى حسابي، أما هذا السيد فسأقوم أنا بدفع أجره»، فقالت تاتيانا بافلوفنا: «أرأيت يا ماري ما أغبى الرجل الذي اتخذته مدافعاً عنك؟». قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهي تومىء إلى الملازم البحري، فرحةً أعظم الفرح بأن ماري قد فتحت فمها أخيراً. فأجابت ماري وهي تنظر نظرة ماكرة: «هو غبي فعلاً يا سيدتي.

Twitter: @ketab_n

أظن أنك أمرتني اليوم بأضلاع مشوية وبازلاء، أليس كذلك؟ إنني لم أسمع كلامك حين كنا في البيت إذ كنت أستعجل المجيء إلى هنا». فأجابتها تاتيانا بافلوفنا: «بل أمرتك بأضلاع وكرومب يا ماري، وإياك أن تحرقيها كما فعلت أمس!» فقالت ماري: «سأكون شديدة الانتباه يا سيدتي، ولا سيما اليوم. هاتي يدك». وقبلت ماري يد مولاتها دليلاً على المصالحة. فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك.

ـ يا لها من امرأة غريبة الأطوار!

كذلك قالت ماما وهي تهز رأسها، راضية مع ذلك بالنبأ، مغتبطةً أيضاً بما قصه آندريه بتروفتش. ولكنها كانت تختلس النظر إلى ليزا قلقة.

قال ماكار إيفانوفتش وهو يضحك:

ـ هكذا كانت الآنسة منذ طفولتها.

فقال الدكتور:

ـ هذا من أثر الصفراء والفراغ.

ـ إياي تعنون؟ عني تجيئون على ذكر الصفراء والفراغ؟

إن تاتيانا بافلوفنا هي التي دهمت الغرفة، وكان واضحاً أنها راضية عن نفسها جداً. وأردفت تقول مخاطبة الطبيب:

ـ يا ألكسندر سيمنوفتش، خير لك ألا تقول هذه السخافات. لقد عرفتني حين لم تكن قد بلغتَ العاشرة من عمرك، فلا بد أنك تعلم هل أنا في بطالة وفراغ حقاً. أما عن الصفراء فإنك تداويني منذ سنة كاملة ولا تفلح في شفائي. كان عليك أن تخجل من هذا! هيَّا هيَّا، لقد سخرتم مني سخراً كافياً. شكراً يا آندريه بتروفتش لأنك رضيت أن تجيء إلى المحكمة شاهداً. أما أنت أيها العزيز

Twitter: @ketab_n

ماكار، فمن أجلك إنما جئت. لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت إليَّ، ولكنها لم تلبث أن ربتت على كتفي بمودة. إنني لم أرها مشرقة المزاج إلى هذا الحد في يوم من الأيام).

وختمت كلامها تقول وهي تلتفت فجأة إلى الطبيب وتقطب حاجبيها مهمومة:

ـ فماذا يا دكتور؟

ـ لا يريد أن يبقى راقداً، وهو بالجلوس يرهق نفسه.

فجمجم ماكار إيفانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل:

ـ ولكنها لحظة نقضيها مع الأصدقاء...

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول:

ـ نعم نحن نحب هذا، نحب أن نثرثر مع الناس؛ نحب أن يتحلق حولنا جمهور. إنني أعرف صاحبنا ماكار.

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً إلى الطبيب:

ـ وما أشد إصراره. انتظر قليلاً، دعني أتكلم: لسوف أرقد على السرير، ولكن المثل عندنا يقول: «من يرقد فقد لا ينهض». ذلك بعينه هو ما يتربص بي يا صديقي.

ـ هوه! هي الأوهام الشعبية ما تنفك تعشش في عقولنا «إذا رقدت فقد لا أنهض»، ذلك ما تخشاه عامة الشعب في أكثر الأحيان، فيؤثر الرجل أن يقضي فترة مرضه واقفاً على أن يذهب إلى المستشفى. أما أنت يا ماكار إيفانوفتش فإن ما يستولي على نفسك الآن هو الضجر، هو التحسر على الحرية، هو الشوق إلى السفر والتجول والتجواب. مرضك كله هو أنك فقدت عادة الإقامة في مكان. نعم، إن التشرد ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا. لاحظت هذا مراراً. إن شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حباً للتشرد.

Twitter: @ketab_n

قالت تاتيانا بافلوفنا:

ـ في رأيك إذاً إن ماكار متشرد؟

ـ لا، ليس متشرداً بهذا المعنى. لقد استعملت الكلمة بمعناها العام. إن ماكار متشرد عن تدين وتقى، ولكنه متشرد على كل حال. صحيح أنه متشرد بمعنى حسن، بمعنى نبيل، ولكنه متشرد... من وجهة النظر الطبية...

التفتّ فجأة نحو الدكتور، وقلت:

ـ أؤكد لك أننا أنا وأنت وسائر الحضور هنا، أولى بأن نُعدَّ متشردين من هذا الشيخ الذي يحق له أن يلقننا كثيراً من الدروس لأن له في حياته مبدأ ثابتاً، أما حياتنا نحن جميعاً فنتشرد على غير هدى في كل اتجاه... ولكنك في الواقع لا تستطيع أن تفهم!

لا شك أنني تكلمت بخشونة، ولكن من أجل هذا إنما جئت والحق أنني لا أدري لماذا بقيت، ولكنني كنت خارجاً عن طوري حتى لكأنني جننت.

فنظرت إليَّ تاتيانا وقد بدا في هيئتها الاستياء، وقالت تسألني:

ـ ماذا أصابك؟

ثم قالت تسأل ماكار إيفانوفتش مشيرة بيدها إليَّ:

ـ كيف تجده؟

فأجاب ماكار إيفانوفتش:

ـ باركه الله. إن له فكراً متقداً.

ولكن الحضور ما إن سمعوه يصفني بأن لي فكراً «متقداً» حتى طفقوا يضحكون. فكظمت غيظي. وكان الدكتور أشدهم ضحكاً. من المؤسف أنني كنت أجهل في ذلك الحين ما كانوا قد تواطؤوا عليه. إن فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا، قبل ثلاثة

Twitter: @ketab_n

أيام، على أن يصرفوا أمي عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار إيفانوفتش الذي كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاءً على المداواة مما كنت أظن حينئذاك. ذلك هو السبب في أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا يحاولون أن يضحكوا. غير أن الطبيب كان أحمق، وكان بطبيعته لا يعرف كيف يمزح. هذا هو السبب في كل ما أعقب ذلك. فلو كنت على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر. وكانت ليزا لا تعلم أيضاً.

ظللت أصغي بجزء من سمعي، فكانوا يتكلمون ويضحكون؛ أما أنا فكان رأسي مشغولاً بشيء آخر: داريا أونيسيموفنا وما ذكرته لي من أنباء؛ وكنت لا أستطيع أن أتحرر مما كان يدور في رأسي. إنها تتراءى لي هناك، جالسةً تنظر إليَّ، ثم قائمة بحذر لتلقي نظرة على الغرفة الأخرى. وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة. كانت تاتيانا بافلوفنا قد وصفت الطبيب بأنه ملحد قائلة له: «هذا معروف، ما أنتم جميعاً يا أطباء النحس إلا ملاحدة».

فهتف الدكتور يقول متظاهراً تظاهراً غبياً بأنه أهين، مطالباً بأن يُنصف:

ـ ماكار إيفانوفتش! هل أنا ملحد؟ نعم أم لا؟

ـ أنت ملحد؟ لا، لست ملحداً!

بذلك أجابه الشيخ وهو يحدق إليه بنظرة ثابتة، وأضاف يقول هازاً رأسه بوقار:

ـ لا، الحمد لله. أنت إنسان مرح.

فسأله الدكتور بسخرية:

ـ وإذا كان الإنسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحداً؟

قال فرسيلوف بدون أن يضحك:

Twitter: @ketab_n

ـ هذا رأي!

فهتفت أقول على غير إرادة مني وقد فتنت بهذه الفكرة:

ـ رأي قوي!

وكان الطبيب ينظر فيما حوله مستفهماً.

فبدأ ماكار إيفانوفتش يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً:

ـ هؤلاء المثقفون، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد قالوا شيئاً عن الأساتذة من قبل) كنت في البداية أخشاهم كثيراً: كنت إذا لقيتهم أتهيبهم، لأنني لا أخاف أحداً كما أخاف الملاحدة. كنت أقول لنفسي: «إنني لا أملك إلا نفساً واحدة، فإذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً»، ولكنني استرددت شجاعتي بعد ذلك فقلت لنفسي: هيًا، ما هم آلهة على كل حال، هم بشر مثلنا، لهم ما لنا من أهواء!» ثم استبد بي حب الاطلاع قوياً شديداً، فقلت لنفسي: «أريد أن أعرف أخيراً ما الإلحاد». ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقي.

صمت ماكار إيفانوفتش لحظة، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام، مبتسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها. إن هناك سُذَّجاً يركنون إلى جميع الناس وإلى كل إنسان دون أن تخطر السخرية لهم ببال. وهؤلاء يكونون سُذَّجاً، فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تخفي. ولكن يبدو لي أن ماكار إيفانوفتش كان يتصف بشيء آخر غير السذاجة وأن براءة البساطة لم تكن هي الشيء الوحيد الذي يدفعه إلى الكلام. إنه يملك شيئاً من صفات الدعاة. ولقد سرَّني أن ألاحظ فيه استهزاءً لا يخلو حتى من بعض المكر، تناول به الدكتور، وربما فرسيلوف أيضاً. وكان واضحاً أن هذا الحديث تتمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا

Twitter: @ketab_n

الأسبوع. ولكن شاء سوء الحظ أن تفلت تلك الكلمة المشؤومة التي كهربتني بالأمس، فأهاجتني اليوم هيجاناً ما زلت آسف له.

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال:

ـ «الملحد ـ الإنسان»، ربما كنت أخشاه إلى الآن. ولكن هذا الملحد ـ الإنسان، يا ألكسندر سيمنوفتش، لم يتفق لي أن لقيته مرة واحدة في يوم من الأيام، وإنما أنا لقيت «الملحد ـ المشوش». نعم هكذا يجب أن يسمى. أناس من كل نوع، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم. بينهم كبار وصغار، وبينهم حمقى وعلماء، وبينهم حتى أفراد من عامة الشعب. وهم جميعاً مشوشون. إنهم يقضون حياتهم كلها في القراءة والاستدلال والتفكير، وقد امتلأت نفوسهم افتتاناً بالكتب، ولكنهم يظلون دائماً في الشك، ولا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على شيء. منهم من تبعثروا تبعثراً تاماً فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام. ومنهم خفاف يحسون ولا يكترثون ولا يهمهم إلا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات. ومنهم لا يقطفون من الكتب إلا الزهرة، ولكنهم يقطفون الزهرة التي يريدون، ثم يظلون مشوشين لا يستقرون على حال. اسمع ما سأقوله لك: إن في هذا كله ضجراً كثيراً. الإنسان البسيط يعيش في عوز، فهو في حاجة إلى خبز، ولا يملك ما يقدمه للصغار، وينام على قش خشن، ولكن في قلبه فرح خفيف دائماً. قد يرتكب خطايا ويقول كلاماً غليظاً، ولكن قلبه يبقى مرحاً خفيفاً. أما الإنسان الذي له شأن خطير فهو يتخم شراباً وطعاماً، وينام على أكداس ذهبه، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر.

إن بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم، ولكن الضجر بقي في

Twitter: @ketab_n

قلوبهم. أعتقد أن الواحد منهم كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً. انظر في هذه النقطة: لقد وجد التعليم منذ وجد العالم. فهل جاء التعليم بما يجعل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح؟ بل إنني لأقول لك: هؤلاء ليس فيهم جمال، ولا يريدون الجمال. هم جميعاً أموات، ولكن كلاً منهم يتباهى بموته، ولا يخطر بباله أن يتجه إلى الحقيقة «الوحيدة». أن يعيش المرء بغير إله فذلك عذاب. وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق، حتى دون أن يفطنوا إلى ما يفعلون. أين العقل والحكمة في هذا؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود. بغير سجود لا يمكن أن يحتمل الإنسان نفسه. ما من أحد قادر على هذا. فإذا جحد الله سجد لمعبود من خشب أو من ذهب، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال. إنهم جميعاً وثنيون لا ملحدون. هكذا يجب أن نسميهم. ولكن كيف لا يكون هناك ملحدون! إن بعض الناس ملحدون حقاً، وهؤلاء أبعث على الخوف والرهبة من الآخرين، لأن اسم الله ماثل في أفواههم دائماً. سمعت عن هؤلاء مراراً، ولكنني لم ألتقِ أحداً منهم يوماً. هم موجودون يا صديقي، وأظن أنهم لا بد أن يوجدوا.

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً:

ـ موجودون يا ماكار إيفانوفتش و«لا بد أن يوجدوا»!

ـ موجودون حتماً و«لا بد أن يوجدوا»!

أفلتت مني هذه الجملة بغير إرادتي حارةً ملتهبةً لا أدري لماذا. ولكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتني، كما أن فكرةً فتنتني في قوله: «لا بد أن يوجدوا». ما كنت أتوقع هذا الحديث أبداً. وحدث في تلك اللحظة شيء لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً.

Twitter: @ketab_n

4

كان النهار مضيئاً جداً. وقد جرت العادة في غرفة ماكار إيفانوفتش أن تسدل الستارة طوال النهار بأمر من الطبيب. غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن ستارة بل حجاباً، فلم يكن أعلى النافذة مغطى. ذلك أن الشيخ تضايق حين كان لا يرى الشمس أبداً بسبب الستارة القديمة. وقد بقينا معه إلى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً. وإذ كان منهمكاً في الحديث فإنه لم ينتبه إلى ذلك في أول الأمر، ولكنه أشاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر في الكلام، لأن الشعاع الساطع كان يضايقه ويهيج عينيه المريضتين. وكانت أمي واقفةً أمامه، فنظرت إلى النافذة عدة مرات في قلق. وكان ينبغي أن تغطي النافذة تماماً، ولكن أمي، من حرصها على ألا تقطع حبل الحديث، بدا لها أن تزحزح المقعد الذي كان يجلس عليه ماكار إيفانوفتش، أن تزحزحه نحو اليمين بدفعة خمسة عشر سنتيمتراً أو عشرين في أكثر تقدير. وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح، إذ أبى المقعد أن يتزحزح. وأحس ماكار إيفانوفتش بجهودها، ولكن على غير شعور البتة، وذلك من شدة انجرافه في الحديث، وحاول أن ينهض عدة مرات، ولكن ساقيه لم تسعفاه. وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد. فإذا بهذا كله يثير حنق ليزا في نهاية الأمر. إنني أتذكر بعض نظراتها الملتهبة الساخطة. ولكنني في اللحظة الأولى لم أستطع أن أعزو هذه النظرات إلى سبب، هذا عدا أنني كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عداه. وفجأةً دوَّى هذا النداء العنيف الذي يشبه الصراخ، متجهاً إلى ماكار إيفانوفتش:

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن هلاً نهضت قليلاً! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد؟

فنظر الشيخ إلى ليزا بسرعة، وفهم على الفور، وحاول في الحال أن يطيعها، ولكنه لم يفلح، فإنه ما أن ارتفع عن المقعد عشرة سنتمترات حتى تهاوى عليه ثانية. فقال يجيب ليزا بصوت شاك وهو ينظر إليها بمذلة:

ـ لا أقدر يا ابنتي!

ـ تقدر أن تتدفق في كلام يملأ كتاباً بكامله، أما أن تتحرك قليلاً فلا تقدر، هه؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا:

ـ ليزا!

وعاد ماكار إيفانوفتش يبذل جهداً خارقاً من أجل أن ينهض. فصاحت ليزا تقول له من جديد:

ـ تناول عكازتك فاستعن بها. ها هي على الأرض!

فقال الشيخ، وهو يسرع إلى تناول عكازته:

ـ حقاً.

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض:

ـ بل ننهضه وكفى!

وتحرك الطبيب، واندفعت تاتيانا بافلوفنا، ولكنهما لم يصلا إلى ماكار إيفانوفتش إلا وقد توكأ على عصاه، ونهض فجأة، ووقف على ساقيه ناظراً حوله، فرحاً بانتصاره، ضاحكاً في مرحه، قائلاً بما يشبه الظفر:

ـ استطعت مع ذلك. شكراً يا ابنتي، لقد رددتني إلى الصواب وكنت أظن أن ساقيَّ أصبحتا عاجزتين لا تصلحان لشيء!

ولكنه لم يلبث واقفاً مدة طويلة. وما كاد ينهي جملته حتى

Twitter: @ketab_n

انزلقت العكازة التي كان يستند إليها بكل وزنه، انزلقت على السجادة فجأةً، فإذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله. كان المنظر رهيباً. إنني أتذكر ذلك. صاح الجميع بصوت واحد: «أوه!»، وأسرعوا يرفعونه عن الأرض. ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أي كسر. صحيح أن ركبتيه قد صدمتا الأرض صدماً قوياً فأحدث سقوطه صوتاً قوياً، ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند إليها. وأنهضوه وأرقدوه على السرير. كان وجهه شاحباً، لا من الخوف، بل من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً في القلب عدا الأمراض الأخرى) واضطربت أمي أشد الاضطراب هلعاً. وإذا بماكار إيفانوفتش الذي لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوياً، ولم يكد يثوب إلى نفسه، إذا هو يلتفت إلى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون حنوناً زاخراً بالعاطفة:

ـ لا يا ابنتي. أصبحت ساقاي لا تحملاني، كما ترين.

لا أستطيع أن أصف الشعور الذي أحسسته. إن أقوال الشيخ المسكين لم يكن في نبرتها أي شكوى أو ملامة. بالعكس: كان واضحاً أنه منذ البداية لم ير في كلمات ليزا أي سوء، وأنه عدَّ صراخها شيئاً واجباً، أي تقريعاً يستحقه خطؤه. وقد أثر هذا في ليزا تأثيراً رهيباً أيضاً. لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع، ووقفت في مكانها كالميتة، متألمةً طبعاً لأنها كانت سبب كل ما حدث. لكنها حين سمعت هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الخجل والندم.

قالت تاتيانا بافلوفنا آمرة:

ـ كفى! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث. فليرجع كل واحد

Twitter: @ketab_n

إلى حيث كان. ولكن ما العمل إذا كان الطبيب نفسه هو الذي يبدأ الثرثرة؟

فقال ألكسندر سيمنوفتش وهو يسعى حول المريض منهمكاً:

ـ حقاً يا تاتيانا بافلوفنا. معذرة. إنه في حاجة إلى راحة.

ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد انقطعت عن الإصغاء: إنها منذ نصف دقيقة تنعم النظر إلى ليزا صامتة. ثم قالت فجأة:

ـ تعالي يا ليزا وقبّليني، قبّلي العجوز الحمقاء، إذا أردت طبعاً!

وقبَّلتها، لا أدري لماذا، وكان هذا ما يجب فعله حقاً، حتى إنني أوشكت أنا نفسي أن أندفع إلى تاتيانا بافلوفنا فأقبّلها. كان يجب فعلاً ألا تُسحق ليزا باللوم، وإنما يجب أن تُستقبل العاطفة الطيبة الجديدة التي ستنشأ في نفسها بالمرح والتهنئات.

ولكنني لم أسلك هذا السلوك في الواقع. لقد نهضت فجأة، وقلت وأنا أقطع كلماتي بغية أن تكون بارزة واضحة:

ـ ماكار إيفانوفتش، إنك قد استعملت مرةً أخرى هذه الكلمة: «الجمال»، وكانت هذه الكلمة تعذبني بالأمس، وتعذبني طوال هذه الأيام الأخيرة. بل إنها عذبتني في جميع أيام حياتي، ولكنني لم أكن أعرف في الماضي ماذا كان عذابي. فأنا أعد هذه المصادفة قدراً بل أكاد أعدها معجزة. . . إنني أعلن هذا بحضورك.

ولكنهم أوقفوني عن الكلام. أكرر أنني كنت أجهل ما تواطؤوا عليه بصدد ماما وماكار إيفانوفتش. وقياساً على ما عرفوا من أفعالي الماضية، حكموا بأنني لا أتورع عن أية فضيحة.

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضباً شديداً، وزأرت تقول:

ـ أسكتوه!

وأخذت ماما ترتجف. وذعر ماكار إيفانوفتش هو أيضاً حين

Twitter: @ketab_n

رآهم جميعاً مذعورين. وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة:

- اسكت يا آركادي.

ولكنني لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى:

- يشدهني ويقززني يا سادتي أن أراكم جميعاً بقرب هذا الطفل (أشرت بيدي إلى ماكار). ليس هنا إلا قديسة واحدة هي ماما، ولكنها هي أيضاً...

قال الدكتور ملحاً:

- إنك تروِّعها!

فتمتمت أقول:

- أعلم أنني عدو الجميع...

أو قلت كلاماً من هذا المذاق. ثم التفت إلى فرسيلوف ألقى عليه نظرة تحدٍ واستفزاز. فصرخ فرسيلوف قائلاً:

- آركادي... سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع. فسيطر على نفسك الآن. أرجوك!

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التي ظهرت على فرسيلوف وهو ينطق بهذه الجملة. لقد عبَّر وجهه عندئذ عن حزن خارق، صادق، كامل. ومما يدعو إلى الدهشة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة إنسان نادم: فالآن أنا القاضي وهو الجاني. فكان من شأن ذلك كله أن أخرجني عن طوري. فهتفت أجيبه قائلاً:

- نعم، حدث هذا يوم كنت قد دفنت فرسيلوف، يوم كنت قد انتزعته من قلبي... ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك وبُعث الموتى... أما الآن فقد انتهى كل شيء. ولسوف ترون جميعاً، جميعاً، ما أنا قادر عليه! إنكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله.

قلت ذلك، واندفعت إلى غرفتي. فهرع فرسيلوف ورائي.

Twitter: @ketab_n

5

انتكست بعد إبلال: انتابتني حمى شديدة، وفي المساء كنت أهذي. ولكن لم يكن كل شيء هذياناً، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة، حفظت واحداً منها إلى آخر حياتي، أو قل حفظت شذرات واحد منها أرويه الآن بدون تفسير. لقد كان في ذلك الحلم تنبؤ، فلا أستطيع أن أغفله.

رأيتني في غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبي فجأة بنيةٍ عظيمة نبيلة. أين؟ لا أدري. ولكن لم أكن عند تاتيانا بافلوفنا. وأقول سلفاً: إنني أتذكر تلك الغرفة تذكراً واضحاً كل الوضوح. ورغم أنني كنت وحيداً، فقد كنت أحس ـ متألماً قلقاً ـ إنني لست وحيداً وأنني أنتظر، وأن شيئاً يُتوقع مني، ففي مكان وراء الباب أشخاص ينتظرون ما سأفعله. إحساس لا يطاق: «آه. . . ليتني كنت وحيداً». وها «هي» ذي تدخل فجأة. إنها تنظر إليَّ خجلةً، خائفةً خوفاً شديداً، باحثةً عن عينيَّ. و«الوثيقة بين يديَّ». وابتسمت لتغريني، والتصقت بي. فأشفقت عليها. ولكنني أخذت أشعر باشمئزاز. وفجأة غطت وجهي بيديها، فرميت الوثيقة على المائدة باشمئزاز لا يوصف: «لا تسأليني شيئاً. خذي. لا أطالبك بشيء! بالاحتقار أنتقم لنفسي من كل الإهانات التي تحملت».

وخرجت من الغرفة شاعراً بكبرياء قوية واعتزاز شديد. ولكن لامبرت يوقفني على العتبة في الظلام، ويهمس قائلاً لي وهو يمسك ذراعي بقوة: «أحمق، أبله! سوف تنشىء في فاسيلي أوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعني لتستطيع أن تجني رزقها إذا علم أبوها بأمر الوثيقة فحرمها من الميراث وطردها من

Twitter: @ketab_n

بيته. إنني أسجل تعابير لامبرت بنصها كما سمعتها في الحلم).

ـ آركادي ماكاروفتش يسعى وراء «الجمال».

ذلك صوت آنا آندرييفنا النحيل سمعته قريباً مني على السلم. ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سخرية لا تطاق. وأعود إلى الغرفة مع لامبرت. فإذا «هي»، حين تراه، تأخذ تضحك مستهزئة. إن الشعور الأول الذي أحسسته كان ارتياعاً رهيباً، ارتياعاً بلغ من الهول أنني توقفت ورفضت أن أتقدم. ونظرت إليها فلم تصدق عيناي ما رأيت. لكأن قناعاً كان على وجهها فانحسر القناع فجأة: لا تزال قسمات وجهها كما هي، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها. وصاح لامبرت يقول لها: «الفدية يا سيدتي، الفدية!»، فإذا ضحكهما كليهما يشتد. وكف قلبي عن الخفقان. «هل يُعقل أن تكون هذه المرأة الوقحة هي المرأة نفسها التي كان يكفيني أن تنظر إليَّ حتى يشتعل قلبي فضيلة؟».

ويهتف لامبرت قائلاً:

ـ هذا ما يفعله هؤلاء المتعجرفون من أبناء المجتمع الراقي في سبيل المال!

ولكن الوقحة لم تضطرب. وهي إنما تضحك لأنني مروَّع. آه! إنها مستعدة للفدية، و... و... ماذا يحدث في نفسي! أصبحت لا أشعر بشفقة، بل باشمئزاز. وأرتعش كما لم أرتعش في حياتي من قبل... واستولت عليَّ عاطفة أخرى لا سبيل إلى وصفها، عاطفة لم أعرفها في يوم من الأيام، عاطفة قوية قوة الكون. أصبحت لا أقوى على الانصراف. لن أنصرف بحال من الأحوال. آه... لشد ما يسعدني أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الخلاعة! وها

Twitter: @ketab_n

أنذا أمسك يديها. إن ملامسة يديها تهز نفسي هزاً أليماً. وها أنذا أقرب شفتيَّ من شفتيها الوقحتين، القرمزيتين، اللتين ترتجفان ضحكاً وتناديانى.

يا لهذه الذكرى المخزية! سحقاً لهذا الحلم اللعين! أحلف لكم أنني قبل هذا الحلم الدنيء لم يراود خيالي أي شيء يشبه هذه الفكرة المخجلة! لا، لم يراود خيالي شيء من ذلك حتى في أحلام من هذا النوع بغير إرادة (وإن كنت قد احتفظت «بالوثيقة» مخيطةً في جيبي، وكنت أتحسسها من حين إلى حين مبتسماً ابتسامة غريبة). فمن أين جاءني هذا فجأة؟ جاءني من أن لي نفس عنكبوت! أعني أن هذا كله كان قائماً في نفسي منذ مدة طويلة على حال بذرة، وكان ثاوياً في قلبي الفاسق، فكنت «أشتهي»، ولكن الخجل كان لا يزال يصدّ قلبي، وكان فكري لا يجسر، بعدُ، أن يتصور شيئاً من هذا القبيل تصوراً واعياً. أما في الحلم فإن النفس قد عرضت كل ما كان قائماً في قلبي، فجاءت هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة، وكانت نبوءة. هل «هذا» ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين ولّيت في الصباح من عند ماكار إيفانوفتش؟ ولكن كفى! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين! إن هذا الحلم الذي رأيته هو من أغرب مغامرات حياتي.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

1

بعد ثلاثة أيام نهضت في الصباح فشعرت فجأة، حين وقفت على قدميَّ، أنني لن ألزم السرير بعد اليوم. لقد أحسست في كياني كله باقتراب الشفاء. لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن تسجّل. لقد تتالت أيام لم يحدث فيها شيء ذو بال، ولكنها بقيت في ذاكرتي بتمامها شيئاً هادئاً فرحاً: هذا أمر نادر في ذكرياتي. لا أريد الآن أن أصف حالتي النفسية. فلو عرف القارىء ماذا كانت لما صدَّق. فالأفضل أن يبرز هذا من الوقائع فيما بعد. ولكنني بانتظار ذلك أقول: ليتذكر القارىء ما هي «نفس عنكبوت»، ما هي نفس عنكبوت لدى إنسان يريد أن يتركهم، «هم» والعالم كله سعياً وراء «الجمال»! صحيح أن ظمئي إلى الجمال كان في ذروته، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ إلى الجمال مع أنواع أخرى من الظمأ يالها من أنواع! ذلك ما يبقى لغزاً أعجز عن حله. ولقد كان لغزاً على الدوام، وطالما أدهشني أن يستطيع الإنسان (الإنسان الروسي خاصةً) أن يهدهد في قلبه أسمى شيء وأدنأ شيء في آن واحد، صادقاً مع ذلك صدقاً كاملاً. هل مرد هذا إلى «رحابة الفكر» التي تُعزى إلى الروسي أم مرده إلى حطة لا أكثر؟ ذلك هو السؤال.

ولكن دعونا من هذا. المهم أنه كان ثمة هدنة. لقد أدركت أن

Twitter: @ketab_n

علي أن أسترد عافيتي بأي ثمن، وبأقصى سرعة ممكنة، لأبدأ العمل في أقرب وقت، كذلك قررت أن أعيش ملتزماً قواعد الصحة، وأن أطيع الطبيب (كيف كان)، وأن أرجىء نيات القتال والعدوان بكل حكمة (وهذه ثمرة رحابة الفكر) إلى أن أخرج، أي إلى أن أشفى. كيف أمكن أن تجتمع مشاعر المسالمة ومباهج الهدنة تلك كلها مع خفقات قلبي العارمة الجامحة الأليمة ألماً لذيذاً، ومع توجس القرارات العاصفة الهوجاء التي أزمع أن أتخذها؟ لا أدري. ولكنني أعزو ذلك إلى «رحابة الفكر». أصبحت لا أشعر بالقلق الذي كنت أحسه من قبل. لقد أرجأت كل شيء إلى وقته المعيّن، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت أرتجف من قبل أيضاً، وإنما أنا الآن أمام المستقبل رجل غني واثق بما يملك من موارد وقوى. وكانت مشاعر الغطرسة والتحدي تجاه المصير ما تنفك تزداد، ولعل ذلك يرجع قليلاً إلى شفائي الذي أصبح الآن واقعاً ملموساً، وإلى أنني استرددت طاقاتي الحيوية. وما زلت إلى الآن أتذكر، بكثير من الارتياح والسرور، تلك الأيام التي كنت قد شفيت فيها شفاء حاسماً بالفعل.

وكانوا قد غفروا لي كل شيء، غفروا لي اندفاعتي العنيفة وأقوالي القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف! هذا ما أحبه في الناس، هذا ما أسميه ذكاء القلب. أو قل إنني افتتنت بهذا الموقف على الفور، بعض الافتتان طبعاً. فمع فرسيلوف مثلاً ظللت أتحدث كما يتحدث صديقان قديمان، ولكن إلى حد لا نتجاوزه: فمتى أسرفنا في إظهار عواطفنا (وكان هذا يحدث)، أمسكنا عن الكلام كلانا فوراً، وشعرنا بشيء من الخجل. ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يمتنع عن الخجل من المغلوب،

Twitter: @ketab_n

لا لشيء إلا لأنه غلبه. ولقد كنت أنا الغالب طبعاً، فكنت أحْمَرُّ من ذلك خجلاً.

وفي ذلك الصباح، أعني يومَ نهضت عن سريري بعد الانتكاس، جاء فرسيلوف إليَّ وعندئذ إنما علمت منه أول مرة ما كانوا قد تواطؤوا عليه في شأن ماما وماكار إيفانوفتش. وقد أضاف فرسيلوف أن الشيخ تحسنت صحته ولكن الطبيب لا يضمن شفاءه. فوعدته من كل قلبي بأن أكون في المستقبل أكثر حذراً وتروياً. وحين كان فرسيلوف يروي لي هذا كله، لاحظت فجأةً، أول مرة، أنه كان هو نفسه قلقاً على الشيخ، وأن قلقه صادق لا اصطناع فيه، أي كان قلقه يفوق كثيراً ما كان يمكن أن أتوقعه من رجل مثله، ولاحظت أنه يعده رجلاً عزيزاً، عزيزاً عليه هو، بغض النظر عن أمي. وقد شاقني هذا الأمر، بل أدهشني تقريباً. فأنا أعترف بأنني لولا فرسيلوف لفاتتني أشياء كثيرة ما كنت لأقدرها حق قدرها عند ذلك الشيخ الذي خلَّف في قلبي ذكرى من أقوى الذكريات وأبقاها وأكثرها أصالةً.

وكان يبدو على فرسيلوف أنه قلق من علاقاتي بماكار إيفانوفتش، أو قل إنه كان لا يركن إلى ذكائي ولا إلى كياستي، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أنني أيضاً قادر في بعض الأحيان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع إنسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختلاف، أي إنني أستطيع عند اللزوم أن أكون إنساناً مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة. وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسي فيما أظن) بأنني وجدت في هذا الإنسان الآتي من صفوف الشعب شيئاً جديداً عليَّ كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار، شيئاً أجهله، شيئاً هو

Twitter: @ketab_n

أوضح كثيراً وأدعى إلى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبي في فهم الأشياء من قبل. ولكن كان يستحيل عليَّ مع ذلك ألا أغضب في بعض الأحيان حين كنت أراه يتشبث بأوهام قاطعة يؤمن بها إيماناً هادئاً ويطمئن إليها اطمئناناً ثابتاً لا يتزعزع. على أن ذلك إنما يرجع طبعاً إلى نقص ثقافته. أما نفسه فقد كانت في الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت أحداً يفوقه فيهما.

2

إن ما كان يجذبني إليه قبل كل شيء آخر، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تاماً، حتى ليحس المرء أن له قلباً بلا خطيئة تقريباً. كان قلبه عامراً «بالفرح»، وعامراً إذن «بالجمال». وكان يحب كلمة «الفرح» هذه حباً كثيراً، وكان يستعملها في كلامه كثيراً. صحيح أنه كان ينتابه في بعض الأحيان نوع من هياج مرضي، نوع من حنان مرضي لعله يرجع إلى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة. ولكن ذلك كان لا يمنع الجمال الروحي من أن يتألق فيه. وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة: فإلى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عجزاً تاماً (وكان هذا يحزنني)، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصةً في المناوشات الجدلية. كان يحب الجدال، ولكنه بين الفينة والفينة، وعلى طريقته الخاصة. إن المرء يلاحظ أنه جاب في أرجاء روسيا كثيراً، وسمع كثيراً. ولكنني أعود فأقول إنه يحب الحنان أكثر من أي شيء آخر، ويحب إذن كل ما يؤدي إلى الحنان، ويحب أن يقص أموراً تثير الحنان. وكان يحب كثيراً أن يقص. لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن

Twitter: @ketab_n

أسفاره، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النساك. وهذه أمور ليست معروفة عندي أو مألوفة لي، ولكنني أظن أنه كان يمزج بهذه الأساطير أشياء كثيرة جاءه معظمها مما يتناقله شعبنا فيُروى شفاهياً. كان في قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً. ولكن إلى جانب هذه التحريفات الواضحة أو التلفيقات البينة كان يشيع في قصصه الزاخرة بالعاطفة الشعبية والمثيرة للحنان دائماً، شيء مضيء قوي راسخ. لقد حفظت من قصصه، مثلاً، تلك الحكاية الطويلة التي تسمي «حياة ماريا المصرية». لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئاً عن حياة ماريا المصرية هذه، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً. ولكنني أستطيع أن أقول بصراحة: إنه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريا المصرية دون أن تترقرق الدموع في عينيه، لا بتأثير ما تثيره في النفس من حنان، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة: إن المرء يحس في هذه القصة بشيء خارق حار كرمل الصحراء المحرقة التي تملؤها الأسود والتي كانت ماريا تجوبها. ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلم عنه، ولست من أهل الاختصاص في هذا الميدان على كل حال.

ومما أعجبني في ماكار إيفانوفتش، عدا الحنان، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة في مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس في عصرنا هذا. ففي ذات يوم، مثلاً، روى لي قصة حديثةً عن جندي انتهت خدمته، وقد شهد ماكار الحادثة بنفسه تقريباً، فقال إن هذا الجندي حين عاد إلى بلده، وجد نفسه بين فلاحين، لم يعجبوه ولا أعجبهم. فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه شيئاً بعد شيء، وأخذ يشرب ويسرف في الشراب، وقام ذات يوم بعمل سلب ونهب. ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة،

Twitter: @ketab_n

ولكنه اعتقل أثناء ذلك وحوكم. وقد أخذ المحامي يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة، فإذا بالرجل الذي كان يصغي إلى دفاع المحامي ينهض فجأة فيقاطع المحامي قائلاً: «لا، انتظر قليلاً»، ثم طفق يروي الوقائع من أولها إلى آخرها، ويعترف بذنبه باكياً نادماً. فانسحب المحلفون وأغلقوا عليهم باب القاعة، ثم عادوا يخرجون ليعلنوا بأن «المتهم بريء». فتعالت صيحات الفرح من كل صوب. ولكن الجندي بقي جامداً في مكانه كأنه استحال عموداً، لأنه لم يفهم شيئاً، لا ولا فهم ما قاله له رئيس المحكمة حين أفرج عنه. وانصرف الجندي أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث له. واستبد به الضجر، وغرق في التفكير والتأمل، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً. وبعد خمسة أيام شنق نفسه. قال ماكار إيفانوفتش خاتماً حديثه: «فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على ضمير المرء خطيئة». صحيح أن القصة لا قيمة لها، وأن أعمدة جميع الصحف في أيامنا هذه تمتلىء بحكايات من هذا النوع، ولكن الشيء الذي أعجبني إنما هو اللهجة. ومما أعجبني أكثر من اللهجة أيضاً ما كان يستعمله ماكار إيفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقاً. من ذلك أنه حين روى لي كيف لم يعجب الجندي الفلاحين عند عودته إلى القرية قال: «معروف ما الجندي: الجندي فلاح فسد»؛ وحين تكلم بعد ذلك عن المحامي الذي كاد يربح الدعوى قال أيضاً: «معروف ما المحامي: المحامي ضمير للتأجير». لقد وقع ماكار إيفانوفتش على هذين التعبيرين عرضاً بدون أي عناء، وبدون أن ينتبه هو نفسه إليهما. ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين، وهو تصور إن كان لا يمثل رأي الشعب كله فإنه يمثل رأي ماكار

Twitter: @ketab_n

إيفانوفتش تمثيلاً رائعاً. إن هذه الأحكام الجاهزة التي يصدرها الشعب في موضوع من الموضوعات تكون في بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً.

سألته في هذه المناسبة:

ـ ماكار إيفانوفتش، ما رأيك في خطيئة الانتحار؟

فأجابني وهو يتنهد:

ـ الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الإنسان. ولكن الرب هو الحاكم الوحيد، لأنه وحده يعرف كل شيء، مقاييسَ وحدوداً. وواجبنا نحن هو أن ندعو الله لأمثال هؤلاء الخطاة الكبار. فإذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة، فادع لمرتكبها دعاءً حنوناً قبل أن تنام، وتشفّع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه، وإذا كنت لا تعرفه فإن شفاعتك تكون أجدى أيضاً.

ـ هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه؟

ـ ما يدريك؟ إن أناساً كثيرين لا يؤمنون، فيضلّون من لا يعلمون. فلا تستمع لهؤلاء، فإنهم لا يعرفون إلى أين هم ماضون. إن صلاة صادرة عن إنسان حي من أجل إنسان ميت تصل إلى الرب فعلاً. ولكن ما عسى يصير إليه من ليس له أحد يصلي من أجله؟ لذلك يجب عليك، حين تصلي قبل النوم، أن تضيف هذا الدعاء: «ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلي من أجلهم». إن هذا الدعاء نافع جداً، مبهج جداً. بل صلٍّ كذلك من أجل الخطاة الذين لا يزالون أحياء. قل «ربِّ أنقذ جميع السادرين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل». هذه أيضاً صلاة حسنة.

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات، لأنني أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً. وقد سطع الفرح في وجهه فعلاً حين قطعت

Twitter: @ketab_n

له على نفسي هذا العهد. ولكن يجب عليَّ أن أسارع فأضيف أن ماكار إيفانوفتش كان في مثل هذه الأحوال لا ينظر إليَّ من عل، كناسك يخاطب مراهقاً غراً. بالعكس: كان يحب في كثير من الأحيان أن يصغي إليَّ، وأن ينصت إلى كلامي بدون كلل في مواضيع شتى، وكان يرى أنه إذا كان يتفوق عليَّ بالسن فإنني أتفوق عليه كثيراً بالثقافة. من ذلك مثلاً أنه كان يحب في أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك، وكان يضع «عزلة الصحراء» في منزلة أعلى كثيراً من منزلة «جوب الآفاق»، فكنت أوجه إليه اعتراضات شديدة حارة، وأُلِحُّ على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للإنسانية من خير، لا لشيء إلا خلاص أنفسهم. فلم يفهمني في أول الأمر، بل لعله لم يفهمني في لحظة من اللحظات، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً: «إن المرء يشفق على نفسه في أول الأمر طبعاً (أي حين يستقر في الصحراء)، ثم يغتبط يوماً بعد يوم، ولا يزال يزداد اغتباطه إلى أن يرى الرب آخر الأمر». فأخذت أصوِّر له تصويراً كاملاً ما يقوم به العالم والطبيب وصديق الإنسانية عامةً من عمل مفيد، فاستطعت أن أصل به إلى حماسة صادقة، لأنه أخذ هو نفسه يتكلم عن هذا بحرارة، وكان يؤيدني في بعض اللحظات قائلاً: «نعم يا بني نعم، باركك الله، إنك على حق!». ولكنه، حين فرغت من كلامي، لم يوافقني مع ذلك موافقة تامة، وقال متنهداً تنهداً عميقاً: «هذا كله حسن، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين؟ إذا لم يكن المال إلهاً فهو نصف إله. إنه إغراء كبير. ثم هناك المرأة أيضاً، ثم هناك الشك، ثم هناك الحسد. فإذا بالمرء ينسى القضية الأساسية، ويمضي يهتم بالأمور

Twitter: @ketab_n

الصغيرة. وليس الأمر كذلك في عزلة الصحراء. ففي عزلة الصحراء يقوّي المرء نفسه للقيام بجميع المبرات والأعمال المقدسة. نعم يا صديقي. أما في العالم فماذا يحدث؟» ثم هتف يقول بعاطفة خارقة: «أليس العالم حلماً لا أكثر؟ خذ رملاً وابذره على حصى، فإذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك في العالم». هذا ما يقولونه عندنا. أما عند المسيح فيقال: «إمض وزِّع ثروتك، واجعل نفسك خادماً للجميع»، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة. ذلك أن السعادة لا يصنعها الطعام وحده، ولا الثياب الثمينة، ولا الزهو والحسد، وإنما يصنعها حب لا نهاية له. إن ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة، ولا مائة ألف، ولا مليوناً، وإنما أنت ستكسب الكون بأسره! نحن الآن نجمع المال بدون شبع، ونتلفه بجنون. أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء، لأن الجميع لي أنا، لأن الجميع أقربائي، كسبتهم جميعاً، اشتريتهم إلى آخرهم. ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات. أما حينذاك فإن أيامك وساعاتك ستتضاعف ألف مرة، لأنك لن تريد أن تضيِّع دقيقة صغيرة واحدة، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك. وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجهاً لوجه. وسوف تتألق الأرض عندئذ أكثر مما تتألق الشمس، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه، ولا يبقى إلا جنة واحدة لا تُقَدَّر بثمن...».

تلك هي نوبات الحماسة التي كان يحبها فرسيلوف فيما أظن حباً عظيماً. ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في الغرفة.

Twitter: @ketab_n

قاطعت ماكار إيفانوفتش فجأة لأقول وقد فارت حماستي أنا أيضاً (إنني أتذكر تلك السهرة):

ـ ماكار إيفانوفتش! إن ما تنادي به وتدعو إليه هو الشيوعية، هو شيوعية حقيقية!

وإذ كان لا يعرف أي شيء عن المذهب الشيوعي، حتى إنه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعي. أعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض، وأنني حتى الآن لست حجةً في هذا الموضوع، غير أن القليل الذي كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شيء. ما زال يسرني أن أتذكر التأثر الخارق الذي أحدثته في الشيخ، بل أستطيع أن أقول إن ما أحدثته فيه لم يكن تأثراً بل كاد يكون هزة. وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية، فكان لا ينفك يسألني: «أين؟ كيف من فعل هذا؟ من قال هذا؟ . . . وكنت قد لاحظت على كل حال أن هذه خاصة من خصائص الشعب: إن الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً، لم يكتف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل حتماً. ولقد أربكتني التفاصيل وتهت في شعابها، وإذ كان فرسيلوف يستمع إلى حديثي، فقد خجلت منه قليلاً، ولكنني ازددت من ذلك حماسة واندفاعاً. وأصبح ماكار إيفانوفتش في النهاية، وقد ذاب حناناً، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتي بقوله: «نعم نعم»، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهم عني ولا يتابع سلسلة حديثي. وقد ضايقني هذا، ولكن فرسيلوف قاطعني فجأةً، ونهض معلناً أنه آن أوان النوم. وكانت الأسرة كلها مجتمعة، وقد طالت السهرة. وحين جاء فرسيلوف بعد بضع دقائق يلقي نظرة على غرفتي أسرعت أسأله عن نظرته إلى ماكار إيفانوفتش، وعن رأيه فيه عامةً. فضحك

Twitter: @ketab_n

ضحكة فرحة (ليست تهكماً على أخطائي في حديثي عن الشيوعية، فإنه لم يتكلم عن هذا الأمر). أعود فأقول: إن فرسيلوف كان شديد الالتصاق بماكار إيفانوفتش، وكثيراً ما فاجأت على وجهه ابتسامة فتانة حين كان ينصت إلى الشيخ. ولكن هذه الابتسامة كانت لا تمنع النقد. بادر فرسيلوف يقول:

ـ قبل كل شيء، ليس ماكار إيفانوفتش فلاحاً، وإنما هو قن خادم كان أبوه قناً خادماً. فهؤلاء الأقنان الخدم كانوا يشاركون أسيادهم جوانب كثيرة من حياتهم الخاصة الفكرية والروحية، في العهد الماضي. لاحظ أن ماكار إيفانوفتش لا يزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والأرستقراطية. إنك لا تعلم بعدُ مدى ولعه وشغفه ببعض الأحداث التي جرت في بلادنا في الآونة الأخيرة. هل تعلم أنه شديد الاهتمام بالسياسة؟ هذا رجل لا يكفيه أن تحكي له كلاماً عاماً، وإنما يجب عليك أن تذكر له كل شيء: من الذي قام بالحرب؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً...؟ ما أعظم البهجة التي هيأتها له في الماضي بأحاديث من هذا النوع! وهو يحترم العلم كثيراً؛ ومن بين جميع العلوم يفضِّل علم الفلك. عدا هذا يجب أن نذكر أن له في الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها. إن له اقتناعات ثابتة وواضحة... ومخلصة! ورغم جهله فإنه قادر على أن يدهشك فجأةً بمعرفته بأمور ما كان لك أن تتصور أن يعرفها. هو يمدح لك عزلة الصحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف في الصحراء بحال من الأحوال، لا ولن يدخل الدير، فإنما هو خاصةً «متشرد»، كما سماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمنوفتش الذي يجب أن أذكر لك في هذه المناسبة أنك تخطىء إذا أنت آخذته وحقدت عليه. ماذا أيضاً؟ هو كذلك فنان قليلاً، له

Twitter: @ketab_n

كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه. منطقه ليس سليماً كل السلامة. إنه تارةً يسبح في عالم مجرد، وتارة يغوص في عاطفية شديدة، ولكن عاطفيته عاطفية شعبية صافية، أو قل إنها نوبات من ذلك الحنان الذي يتصف به شعبنا ويدخله في شعوره الديني ولن أتكلم عن نقاء قلبه وطيب نفسه: فليس الحديث عن هذا من شأننا نحن...

3

كي أنتهي من رسم صورة ماكار إيفانوفتش، سأنقل الآن قصة من قصصه، مستمدةً من حياته الخاصة. إن لقصص ماكار إيفانوفتش طابعاً غريباً، بل قل إنها لا يجمعها طابع مشترك. يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو اتجاهاً عاماً، اللهم إلا كونها مثيرة للحنان جميعاً. غير أن بينها قصصاً لا تتصف بهذه الصفة، حتى إن بينها قصصاً مرحة فكهة تشتمل على سخريات من بعض الرهبان الفاسدين، وهذه قصص كانت روايتها تسيء إلى فكرته، وقد نبهته أنا إلى هذا، ولكنه لم يفهم ماذا أردت أن أقول. وكان يصعب على المرء أحياناً أن يحزر ما الذي كان يدفعه إلى رواية هذه القصص، حتى لقد استغربت منه هذا الإكثار من الكلام، فعزوته إلى شيخوخته وإلى حالته المرضية.

همس فرسيلوف يقول لي يوماً:

ـ ليس الآن كما كان في الماضي. إن وفاته قريبة، إنها أقرب كثيراً مما نظن. فيجب أن نكون متأهبين.

نسيت أن أقول إن «سهرات» مطردة كانت قد استقرت عادة عقدها عنده؛ فعدا ماما التي كانت لا تترك ماكار إيفانوفتش، كان

Twitter: @ketab_n

يأتي فرسيلوف إلى غرفته كل مساء، وكنت آتي أنا أيضاً، ولم يكن ثمة مكان آخر أذهب إليه على كل حال؛ وفي الأيام الأخيرة أصبحت تأتي ليزا في العادة ولو أنها تصل متأخرة عن الآخرين وتظل صامتةً طوال الوقت تقريباً؛ وكانت تأتي تاتيانا بافلوفنا، وكان يجيء الطبيب أيضاً ولكن مجيئه نادر. ولا أدري كيف رأيتني أصبح قريباً من الطبيب. صحيح أنني لم أقترب منه كثيراً، ولكنني على كل حال أصبحت لا أثور عليه كما كنت من قبل. إن ما أعجبني فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً، ونوع من التعلق بأسرتنا، فقررت أن أغفر له غروره الطبي، وعلمته عدا ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك أمر لم أفلح في أن أحمله عليه. وقد أفهمته أنني لا أطلب منه هذا حرصاً على الأناقة، وتعلقاً «بالفنون الجميلة»، وإنما أنا أطلبه منه لأن النظافة جزء من وظائف الطبيب نفسها مبرهناً له على ذلك بالحجة الدامغة. وكانت لوكيريا تأتي من مطبخنا في أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتةً إلى ما يرويه ماكار إيفانوفتش. وقد دعاها فرسيلوف يوماً أن تدخل فتجلس معنا. فأعجبني منه هذا. ولكنها انقطعت منذ ذلك اليوم عن المجيء. إن لها طبعها!

أحب أن أسوق الآن قصة من قصص ماكار إيفانوفتش وقع عليها اختياري عرضاً لسبب واحد هو أنني أحفظها أكثر مما أحفظ القصص الأخرى. هي قصة تاجر، وأظن أن مدننا الكبيرة والصغيرة تجري فيها آلاف من القصص تشبهها، فيكفي أن نحسن النظر حتى نراها. وللقارىء أن يقفز فوق هذه القصة إذا شاء، لا سيما وأنني أرويها بأسلوب صاحبها.

4

Twitter: @ketab_n

حدث هذا عندنا، بمدينة آفيميافو. سأحكي لكم الآن هذه المعجزة. كان يوجد تاجر اسمه سكوتوبوينيكوف، مكسيم إيفانوفتش. لم يكن في المقاطعة أحد أغنى منه. كان قد بنى مصنع نسيج يشغِّل مئات من العمال. وهذا كبَّر رأس الرجل. ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامره. وكانت السلطات لا تضع له العصي في العجلات. وكان الأرشمندريت يشكر له همته وحماسته، إذ كان يقدم للدير هبات كثيرة، وكان في بعض الأحيان، إذا بدا له أن يفعل ذلك، يتكلم كثيراً عن الروح، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة. وكان أرمل، ولم يكن له أولاد. عن زوجته كانت تجري شائعات تقول إنه أساء معاملتها كثيراً في السنة الأولى من زواجهما، مستعملاً قبضتي يديه في أكثر الأحيان. أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال. وكان يحب الشراب أيضاً. فإذا شرب رآه الناس يركض في أرجاء المدينة ثملاً، خالعاً ثيابه، صارخاً. والمدينة صغيرة، فجميع الناس يعرف بعضهم بعضاً. حتى إذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً، كلُّ رأي يراه فهو الصواب، وكل أمر يصدره فهو يعرف كيف يصدره. مع الناس كان يصفي حساباته كما يشاء هواه. ها هو ذا يمسك عدادته ويضع نظارتيه ـ: «أنت يا فوما، كم لك عليَّ؟» فيجيبه فوما: «لم أقبض شيئاً منذ عيد الميلاد يا مكسيم إيفانوفتش. لي عليك تسعة وثلاثون روبلاً». فيقول: «لا، هذا كثير! هذا كثير عليك! أنت لا تساوي تسعة وثلاثين روبلاً. هذا لا يناسبك أبداً! يجب أن نخصم عشرة روبلات. خذ هذه تسعة وعشرون!». فلا يقول فوما شيئاً. لا أحد يمكن أن يتفوه بكلمة. صمت عام.

ـ أنا أعرف كم يجب أن يُدفع له. هذا هو التصرف الواجب مع

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الناس. الناس هنا فاسدون لولاي أنا لماتوا جوعاً منذ زمن طويل. لماتوا كلهم بدون استثناء. أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص: عيونهم أكبر من بطونهم. وليس لهم قلوب تتحرك. زد على ذلك أنهم سكِّيرون: متى دفعت لهم راتبهم حملوه إلى الحانة ثم لم يخرجوا منها إلا عرياً لا يستر جسمهم شيء، عرياً كدودة. ثم إنهم أوغاد: اجلس على صخرة أمام الحانة واسمع أنينهم وشكواهم: «لماذا ولدتني يا أمي العزيزة، أنا السكير المسكين؟ لماذا ولدت هذا السكِّير؟ كان الأفضل أن تخنقيه منذ ولد!». أهذا إنسان؟ بل هو حيوان لا إنسان. يجب أن نربيه أولاً، وبعد ذلك نعطيه مالاً. أنا أعرف متى يجب أن يُعطى أحدهم مالاً.

هكذا كان يتكلم مكسيم إيفانوفتش عن أهل آفيميافو. لم يكن ذلك حسناً منه. ولكنه ليس وحده مخطئاً. كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون قوة الإرادة.

وكان يوجد في تلك المدينة نفسها تاجر آخر. ولكن هذا التاجر الآخر مات. كان شاباً وطائشاً، فأفلس وفقد كل رأس ماله. كان في السنة الأخيرة يخبط كسمكة على الرمل، ولكن ساعته كانت قد حانت. وكانت علاقاته بمكسيم إيفانوفتش شجاراً مستمراً، وكان مديناً له بمبالغ كبيرة. حتى وهو على فراش الموت، حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان يلعن مكسيم إيفانوفتش. ومات الرجل تاركاً زوجة شابة وأطفالاً خمسة وأماً أرملة؟ سنونو بلا مأوى. هذه محنة قاسية، ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم. وكان كل ما بقي لهم بيتاً صغيراً من خشب انتزعه مكسيم إيفانوفتش سداداً لديونه. وإليكم ما فعلته الأرملة: صفَّت أطفالها الخمسة أمام باب الكنيسة: إن أكبرهم صبي عمره ثماني سنين؛

Twitter: @ketab_n

والأطفال الآخرون كلهم بنات صغيرات. كبراهن عمرها أربع سنين، صغراهن لا تزال ترضع. فلما انتهى القداس، خرج مكسيم إيفانوفتش من الكنيسة، فركع الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس)، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً، وانحنت الأم إلى الأرض وهي تحمل الطفل الخامس على ذراعيها، انحنت محيية مكسيم إيفانوفتش قائلةً له على مسمع من جميع الناس: «يا سيدي الطيب مكسيم إيفانوفتش، ارحم أطفالاً يتامى، ولا تنتزع منهم آخر لقمة، لا تطردهم من عش أبيهم!». جميع الذين رأوا المشهد ذرفوا دموعاً. أحسنت الأم تعليم أطفالها الدرس. قدَّرت أن مكسيم إيفانوفتش لا بد أن يخجل أمام الناس، فيغفر ويرد البيت إلى اليتامى. ولكن حدث غير هذا. وقف مكسيم إيفانوفش وقال: أيتها الأرملة الشابة، أنت تريدين زوجاً، وليس من أجل الأطفال تبكين. زوجك لعنني وهو على فراش الموت! ومضى مكسيم إيفانوفتش ولم يردَّ البيت. قال: «كيف تنطلي عليَّ ألاعيبهم؟ إن أنت أكرمت اللئيم تمردا لا يفيد هذا كله في شيء، ولا يؤدي إلا إلى فوضى!». وكان يتناقل الناس في المدينة أن مكسيم إيفانوفتش، قبل عشر سنين، قد عرض على هذه الأرملة التي كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال، مبلغاً ضخماً من المال، ناسياً أن هذه الخطيئة كخطيئة تدمير كنيسة من كنائس الرب. ولكنه لم يظفر منها بشيء. وكان قد ارتكب أعمالاً قذرة من هذا النوع في المدينة بل في المقاطعة كلها. ولكنه في هذه المرة جاوز الحدود.

أخذت المرأة تعول مع صغارها. وطرد مكسيم إيفانوفتش الأيتام من البيت، لا حباً بالشر فحسب، بل لأن المرء في بعض الأحيان يجهل هو نفسه سبب عناده وإصراره على فكرته. وقد هبَّ بعض

Twitter: @ketab_n

الناس إلى مساعدة الأرملة في البداية، ثم مضت بعد ذلك تلتمس عملاً. ولكن ما عسى يجني المرء من العمل عندنا في غير المصنع؟ تغسل أرضاً هنا، وتعزق حديقة هناك، وتوقد حماماً هنالك، وعلى ذراعيها طفل يبكي وفي الشارع أربعة صغار يركضون عراةً إلا من قميص؟ حين أركعتهم أمام الكنيسة كانوا لا يزالون ينتعلون أحذيتهم الصغيرة، ويرتدون معاطفهم الصغيرة، كأولاد التجار. أما الآن فإنهم يركضون حفاة. تعلمون أن الثياب تبلى بسرعة بسبب نموّ أجسام الأطفال. وعلى كل حال فالأطفال لا يحتاجون إلى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع. هم في ذلك الفصل لا يحسون بالبؤس، بل ينطلقون سعداء، يزقزقون كالعصافير، وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة. كانت الأرملة تقول: «سيأتي الشتاء فما عساني صانعة بكم؟» ليت الرب يأخذكم إليه!» ولكنها لم تضطر إلى الانتظار حتى حلول الشتاء. انتشر في مقاطعتنا مرض سعال أطفال، فكان يسري من طفل إلى طفل. فماتت البنت الرضيع أولاً، ومرض الآخرون فماتت البنات الأربع في ذلك الخريف نفسه. ولكن واحدةً منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها في الشارع. فماذا الذي تظن أنه حدث؟ دفنت الأم بناتها باكية معولة. كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت، فلمّا أخذهن الرب إليه؛ طفقت تنتحب وتتشنج. هكذا قلوب الأمهات!

لم يبق لها إلا ابنها البكر. فكانت ترتعش خوفاً عليه، حتى لتكاد تختنق اختناقاً. وكان الولد نحيلاً رقيقاً، وكان له وجه لطيف كأنه بنت. مضت بالولد إلى المصنع، فعهدت به إلى عرّابه الذي كان مديراً. وذهبت هي تعمل خادمةً في بيت أحد الموظفين. وفي

Twitter: @ketab_n

يوم من الأيام كان الولد يركض في الحوش، فإذا بمكسيم إيفانوفتش يصل راكباً عربته، وكان مخموراً كأنما بمصادفة. وكان الولد قد هبط السلم، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته، ووضع كلتا يديه على بطنه. فأمسك مكسيم شعر الولد، وصاح يسأل: «لمن هذا الولد؟ هاتوا السياط! اجلدوه فوراً، أمامي». كاد الولد أن يموت خوفاً، وأخذوا يجلدونه، فكان يصرخ. قال مكسيم: «تصرخ أيضاً؟ اجلدوه إلى أن يكف عن الصراخ!». جلدوه مزيداً من الجلد، إلى أن أشرف على الموت فعلاً. فتوقفوا عن جلده، وارتاعوا: أصبح الطفل لا يتنفس، وظل راقداً مغشياً عليه. لقد قيل فيما بعد أنه لم يجلد كثيراً، ولكنه كان طفلاً شديد الخوف جداً. وارتاع مكسيم إيفانوفتش نفسه. وسأل: «لمن هذا الولد؟». فقالوا له من هو. فقال: «هكذا إذن! إحملوه إلى أمه. ماذا جاء به إلى المصنع يسرح فيه ويمرح؟». وبعد يومين سأل: «ما أخبار الولد؟». وكانت الأخبار سيئة: كان الولد مريضاً، راقداً في ركن عند أمه، لأن أمه تركت عملها في هذه المناسبة. كان الولد مصاباً باحتقان في الرئة. قال مكسيم: «عجيب! لماذا؟ إنه لم يُضرب كثيراً. وإنما خُوِّف تخويفاً فحسب. لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته، فلم يحدث شيء». وكان يتوقع أن تشكو المرأة أمرها إلى القضاء. فكان يتكبَّر ويتعالى. ولكن أنَّى للمرأة أن تشتكي! لم تجرؤ. عندئذ أرسل إليها خمسة عشر روبلاً، وأوفد لها طبيباً. فعل هذا لا لأنه كان خائفاً، بل فعله هكذا، بعد تفكير. ثم أصابته نوبة إقبال على الخمر، فلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع.

وانقضى الشتاء. حتى إذا كان الفصح، سأل في يوم العيد مرة

Twitter: @ketab_n

أخرى: «ما أخبار الولد؟». لقد صمت طول الشتاء لا يسأل أبداً. قيل له: «الولد شفي، وهو عند أمه، والأم تعمل خادمة في النهار». ذهب مكسيم إيفانوفتش إلى الأرملة، ولكنه لم يدخل البيت، بل استدعاها إلى المدخل، وبقي في عربته. قال لها: «اسمعي أيتها الأرملة المحترمة، أنني أريد لابنك الخير، أريد أن أكون المحسن إليه، وأن أغدق عليه نعمي بغير حدود: آخذه إلى منزلي منذ اليوم. فإذا أعجبني قليلاً تركت له مبلغاً كبيراً، وإذا أعجبني إعجاباً تاماً جعلته وريثي بعد موتي وتركت له كل ثروتي كأنه ابني، ولكنني أفعل هذا بشرط واحد: أن لا تجيئي إلى بيتي أبداً، إلا في الأعياد الكبيرة. قال هذا وانصرف. وبقيت الأم كالمجنونة. سمع الناس كلام مكسيم، فقالوا للأم: «حين يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً إذا أنت حرمته من هذا الحظ». فظلت الأم تبكي ابنها طول الليل، حتى إذا طلع الصبح اصطحبته إلى مكسيم. فكان الولد أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

ألبسه مكسيم إيفانوفتش كما يلبس سيد صغير، واستأجر له معلماً، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة. أصبح لا يحوِّل عنه بصره، ويجلسه إلى جانبه دائماً. فمتى تثاءب الطفل انبرى يقول له: «خذ كتاباً وادرس! أريد أن أجعلك رجلاً». ولكن الولد كان ضعيفاً هزيلاً منذ طفولته، منذ جُلد بالسياط. وكان يسعل. فكان مكسيم إيفانوفتش يقول مدهوشاً: «إذن فالحياة عندي لا تروقه. كان عند أمه يركض حافي القدمين، ولا يأكل إلا كسرات خبز، ثم ها هو ذا الآن أشد هزالاً مما كان». فقال له المعلم: «الأطفال يحتاجون إلى الركض، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله في الدرس، فلا بد لهم من الحركة...». شرح له ذلك كله مدعوماً

Twitter: @ketab_n

بالحجج. فقال مكسيم إيفانوفتش: «ما تقوله حق». المعلم هو بطرس ستيبانوفتش حفظه الله. رجل طيب يشبه أن يكون «مجذوباً». كان يحب الشراب، بل كان يسرف قليلاً في الشراب، لذلك طرد من جميع الوظائف التي عين لها، فكان يعيش على الصدقات تقريباً. ولكنه كان دماغاً كبيراً، كان قوياً في العلوم. حتى لقد كان يقول بينه وبين نفسه: «هذا ليس مكاني، فإنما يجب أن أكون أستاذاً بالجامعة. أما هنا فأنا في الوحل «حتى صارت ثيابي تتقزز مني». وهذا مكسيم إيفانوفتش ينادي الطفل صارخاً فيقول له: «هيَّا اركض»، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس أمامه. حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتمل صوته. فأخذ يرتجف. فازدادت دهشة مكسيم إيفانوفتش وقال: «أخرجته من الوحل، وألبسته ناعم الثياب، ونعلته بأحسن الجلد، وجعلت له قميصاً مطرزاً، وعاملته كما يعامل ابن جنرال، ثم هو لا يزال غير متعلق بي! ما باله ينظر إليَّ كما ينظر صغير الذئب؟». منذ مدة طويلة أصبح لا يندهش أحد من صدور أي شيء عن مكسيم إيفانوفتش. ولكن الناس عادوا يدهشون: إنه مرتبط بالولد أشد الارتباط، لا يستطيع أن يفارقه، ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله. وكان يقول: «إني أفضِّل أن أُشنق على أن أعجز عن تغيير طبعه. لقد لعنني أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس. إنه صورة أبيه!».

لم يجلده مرةً واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى) وكان الطفل مروَّعاً بدون جلد، فما الحاجة إلى جلده؟

حينئذ حدث الحادث. ففي ذات يوم، بعد أن خرج مكسيم من الغرفة، ترك الطفل كتابه وصعد على كرسي، ليأتي بشيء له وقع على خزانة ملابس، فأراد أن يلتقطه، ولكن كمه اشتبكت بمصباح

Twitter: @ketab_n

من الخزف كان على الخزانة، فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة. دوّى صوت سقوط المصباح في المنزل كله، وكان المصباح تحفة ثمينة من خزف ساكس. سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من الغرفة الثالثة، فأخذ يزأر. ذعر الولد ذعراً شديداً، وأسرع يولي هارباً إلى الشرفة، ثم اجتاز الحديقة، وخرج من الباب الخلفي حتى صار على رصيف النهر. كان هناك شارع تزينه شجيرات مزهرة. مكان رائع الجمال. وهرع الولد إلى الماء، ورآه الناس، حتى إذا صار على حافة النهر، في الموضع الذي ترسو فيه معدية، باعد ذراعيه، ثم لعله خاف من الماء فبقي جامداً في مكانه. المكان عريض، والنهر سريع، والقوارب تمر؛ وفي الجهة الأخرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قباب من ذهب يسطع. وفي تلك اللحظة كانت الكولونيلة فرتسنج تهبط نحو النهر مع ابنتها. كان بمدينتنا كتيبة مدفعية. وابنة الكولونيلة صبية في الثامنة من عمرها هي أيضاً، ترتدي فستاناً أبيض. نظرت إلى الولد وضحكت. وكانت تحمل بيدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ. قالت لأمها: «انظري إلى الصبي كيف يتطلع إلى قنفذي يا ماما». فقالت الأم: «لا بل هو خائف من شيء ما. لماذا تبدو خائفاً هذا الخوف الشديد أيها الصبي اللطيف؟ ما أحسن ثيابه! من أنت يا ابني؟» (هذا ما رُوي فيما بعد). ولم يكن هو قد رأى قنفذاً من قبل. فاقترب ونظر. نسي ما كان فيه. هكذا الأولاد! قال يسأل: «ما هذا الذي معك؟». أجابت الآنسة: «قنفذ. اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده في الغابة». قال الصبي: «وما القنفذ؟». وضحك. وأراد أن يلمسه بإصبعه، فانتفش القنفذ، وضحكت البنت، وقالت: «سنأخذه إلى البيت فنؤنِّسه». قال الصبي «أعطيني قنفذك!» طلب

Twitter: @ketab_n

منها ذلك هكذا، بلطف. ولكن ما أن أنهى جملته حتى كان مكسيم إيفانوفتش يصرخ من أعلى: «آ... هذا أنت! أوقفوه!» (كان مكسيم قد بلغ من شدة الغضب أنه خرج من البيت بدون قبعة). تذكر الطفل كل شيء، وصرخ، وتقدم نحو الماء ضاماً يديه الصغيرتين إلى صدره، ونظر إلى السماء (رأوه ينظر إلى السماء)، وألقى نفسه في النهر. فتعالى الصراخ في كل صوب، واندفع ناس من المعدية يلقون أنفسهم في النهر عسى أن ينتشلوه، ولكن الماء كان قد جرفه، فالنهر سريع، حتى إذا أخرجوه كان قد فارق الحياة. لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره. لم يحتج إلى وقت طويل حتى يموت. ما يسمع الناس في بلادنا قبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً. خطيئة كبرى! ما عساها تقول للرب في السماء، هذه النفس الصغيرة؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم إيفانوفتش يفكر في المسألة. وتبدلت حاله، حتى صار المرء ينكره ولا يعرفه. حزن حزناً كبيراً. وأخذ يشرب. أخذ يشرب كثيراً. ثم انقطع عن الشراب: لم ينفعه شيء. وانقطع أيضاً عن الذهاب إلى المصنع. وأصبح لا يصغي إلى أحد. إذا كلموه لم يجب، أو حرك يده مشيراً إلى أنهم يضجرونه. وانقضى شهران، ثم صار يكلم نفسه. صار يسير وهو يكلم نفسه. وشبت النيران في قرية فاسكوفا، بقرب المدينة، فالتهمت تسعة بيوت. ذهب مكسيم إلى الحريق ليرى. نظر إليه المصابون وأخذوا ينتحبون: فوعد بأن يمد إليهم يد المعونة، وأصدر أمره بذلك، حتى إذا رجع إلى بيته استدعى وكيله وألغى كل ما وعد به، قائلاً له: «لا تعطهم شيئاً»، ولم يذكر السبب. قال يحدث نفسه: «إن الرب خلقني شيطاناً، وجعلني بليةً لسائر البشر،

Twitter: @ketab_n

فليكن ذلك! وقد طارت سمعتي في الناس سريعة كالريح». وجاءه الأرشمندريت بنفسه في يوم من الأيام: إنه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة. قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية: «ما هذا السلوك الذي تسلكه»، فأجابه مكسيم: «هكذا!» وفتح له كتاباً وأشار له إلى فقرة من الكتاب:

«من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له أن يعلَّق في عنقه حجر الرحى ويُغرق في لجة البحر» (إنجيل متى، الإصحاح الثامن عشر، 6).

قال الأرشمندريت:

ـ نعم، هذا لم يُذكر في هذه المناسبة، رغم أن ثمة علاقة. ما أشقى الإنسان الذي يتجاوز الحدود! إنه يضيع نفسه. وأنت قد أسرفت في الارتفاع.

تصلب مكسيم إيفانوفتش، حتى لكأنه أصيب بداء التيتانوس.

قال له الأرشمندريت:

ـ اسمع واحفظ. لقد قيل: «كلام المكروب اليائس تحمله الرياح». وتذكر أيضاً ما يلي: ملائكة السماء نفسها ليست كاملة، والكامل الوحيد المبرأ من الخطيئة إنما هو الرب، يسوع المسيح، الذي تخدمه الملائكة. ثم إنك لم تشأ موت ذلك الطفل. كل ذنبك أنك كنت متهوراً قليل التبصر والتروي. غير أن هناك ما يملأ نفسي دهشة: لقد سبق أن ارتكبت سيئات كثيرة أخرى؛ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين متشرّدين، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم، ما أكثر الذين دفعتهم إلى الموت دفعاً، فكأنك قتلتهم! وأولئك البنات الصغيرات، أخواته، ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً؟ فلماذا ينفرد هو بإدخال الاضطراب إلى نفسك؟ أتراك نسيت

Twitter: @ketab_n

جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها والندم عليها؟ ما بالك ترتاع هذا الارتياع الشديد كله لموت هذا الطفل الذي لم تكن أنت مسؤولاً عن موته كل المسؤولية؟

تمتم مكسيم إيفانوفتش يقول:

ـ لأنني أراه في المنام.

ـ ثم ماذا؟

ولكن مكسيم إيفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شيء، وظل صامتاً. فدهش الأرشمندريت وانصرف: لا فائدة!

عندئذ أرسل مكسيم إيفانوفتش من يستدعي له المعلم، بطرس سيتبانوفتش. إنهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث.

قال له:

ـ هل تتذكر؟

ـ أتذكر.

ـ سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم، وأنك تنسخ الآن صورة للمطران. هل تقدر أن ترسم لي لوحةً بالألوان؟

ـ نعم، أقدر. إنني أملك جميع المواهب، وأقدر على كل شيء.

ـ ارسم لي إذن لوحة، أكبر لوحة ممكنة، لوحةً تحتل الجدار كله. ضع فيها النهر، والمنحدر، وجميع الناس الذين رأوا المشهد. ضع الكولونيلة وابنتها والقنفذ. وارسم الشاطىء الآخر كله بحيث يراه الناظر كما هو: الكنيسة والميدان والدكاكين والمكان الذي ترابط فيه العربات، ارسم كل شيء كما هو في الواقع. وارسم الولد أمام المعدية، على ضفة النهر، في ذلك المكان نفسه، واجعل يديه مضمومتين إلى صدره. وأمامه، على

Twitter: @ketab_n

الشاطىء الآخر، شُقَّ السماء، وصوِّر جميع الملائكة في النور السماوي وهم يطيرون إلى لقائه. هل تقدر أن ترسم هذا؟

ـ أقدر أن أفعل كل شيء.

ـ اسمع، أستطيع أن أستقدم أكبر رسَّام من موسكو وحتى من لندن، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك. غير أنك، أنت، تتذكر وجهه. فإذا جاءت صورة وجهه لا تشبهه، أو لا تشبهه شبهاً كافياً أعطيتك خمسين روبلاً، أما إذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيك مائتي روبل.

تذكر عينيه الصغيرتين الزرقاوين... ولتكن اللوحة أكبر لوحة ممكنة.

وأبرما اتفاقهما. وأخذ بطرس ستيبانوفتش يعمل، ولكنه جاء إلى التاجر يقول له في ذات يوم:

ـ لا سبيل إلى رسم ما ذكرت.

ـ لماذا؟

ـ لأن هذه الخطيئة، خطيئة الانتحار، هي أكبر الخطايا جميعاً، فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة؟

ـ لكنه طفل. ليس مسؤولاً.

ـ لا، لم يكن طفلاً صغيراً. كان قد بلغ سن الرشد. كان عمره ثماني سنين حين حدث الحادث. فهو مسؤول قليلاً رغم كل شيء.

ازداد مكسيم إيفانوفتش ارتياعاً. قال:

ـ وجدت حلاً: لا تشق السماء ولا ترسم ملائكة، حسبك أن تسقط عليه من السماء شعاعاً. هذا شيء على كل حال.

فعل الرسام ما تخيله مكسيم إيفانوفتش. أسقط على الطفل شعاعاً من السماء. وقد رأيت اللوحة بنفسي، فيما بعد، مع الشعاع

Twitter: @ketab_n

والنهر الأزرق، رأيتها تغطي الجدار كله. كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه الصغيرتين إلى صدره، وكان فيها الآنسة الصغيرة والقنفذ، كان فيها كل شيء. ولكن مكسيم إيفانوفتش لم يسمح لأحد برؤية اللوحة: أغلق عليها مكتبه بالمفتاح. هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة، ولكنه طردهم جميعاً. وتكلم الناس في الأمر كثيراً. وتغيرت حال بطرس ستيبانوفتش حتى لكأنه شخص آخر. أصبح يقول لنفسه: «أنا الآن أقدر على كل شيء. مكاني الذي أستحقه هو البلاط في بطرسبرج». إن بطرس ستيبانوفتش من أحب الناس إلى القلب. ولكنه كان يحب أن يعظم نفسه كثيراً. وسرعان ما وافته منيته: فإنه بعد أن قبض المائتي روبل، هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تباهياً، فقتل ذات ليلة ثملاً. قتله بورجوازي كان يشرب معه، وأخذ ماله. واكتُشف هذا كله في الصباح.

أما تتمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك: في ذات يوم جاء مكسيم إلى الأرملة راكباً عربته. كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً في آخر المدينة. وقد دخل هذه المرة إلى فناء البيت. وتسمَّر أمام المرأة ثم حيَّاها منحنياً حتى الأرض. وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك الأحداث كلها، فهي لا تكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً. قال لها: «تعالي أيتها العزيزة، أيتها الأرملة المحترمة، تعالي تزوجيني رغم أنني شيطان رجيم، ردِّي إليَّ القدرة على الحياة. نظرت إليه المرأة لا حيةً ولا ميتة. قال لها: «أريد أن يكون لنا صبي صغير آخر، فإذا وُلد لنا صبي آخر، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا، أنا وأنت. هو الذي أمرني بذلك». لاحظت المرأة أن الرجل لا يملك صوابه كاملاً، وأنه خارج عن

Twitter: @ketab_n

طوره، ومع ذلك لم تطق صبراً فقالت له:

ـ هذه سخافات وحقارة. بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صغاري. لا أستطيع حتى أن أراك أمامي، ناهيك عن أن أحكم على نفسي بمثل هذا العذاب إلى الأبد؟

انصرف مكسيم إيفانوفتش، ولكنه لم يهدأ. ذُهلت المدينة كلها من هذه المعجزة. أرسل مكسيم إيفانوفتش إلى الأرملة نساءً يتشفعن له عندها. واستدعى من بلده عمتين له، قد تكونان عمتيه وقد لا تكون عمتيه، ولكنهما بورجوازيتان من قريباته على كل حال، أي امرأتان لهما وزن وقيمة. أخذت النساء تنصحها، وتمدحها، ولا تخرج من عندها. وأرسل أيضاً أشخاصاً من المدينة: أرسل تجاراً، وامرأة الأرشمندريت، وزوجات موظفين. المدينة كلها راحت تتقرب منها وتتزلَّف إليها. ولكنها احتقرتهم جميعاً. كانت تقول: «لو كان هذا يبعث يتاماي أحياء فقد أقبل، أما وأنهم لن يبعثوا فعلام أفعل؟ إذا رضيت لأثمت في حق أولادي اليتامى!».

وقد استطاع مكسيم إيفانوفتش أن يحمل الأرشمندريت نفسه على الشفاعة لديها، فقال لها الأرشمندريت: «سوف تخلقين منه إنساناً جديداً». فارتاعت. وكان الناس يدهشون من سلوكها: «كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة؟». وإليكم الطريقة التي استطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة: قال لها: «لقد قتل نفسه رغم كل شيء. ولم يكن طفلاً صغيراً. كان قد بلغ سن الرشد. كان في سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف. فهو إذن مسؤول عن خطيئة الانتحار بعض الشيء. فإذا تزوجتني نذرت لأبنينَّ كنيسة جديدة لترتاح نفسه راحةً أبدية». أذعنت المرأة لهذه الحجة، وارتضت أن تتزوج مكسيم إيفانوفتش، وتمَّ الزواج.

Twitter: @ketab_n

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج. لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول في وئام كامل صادق، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين. وحملت المرأة في ذلك الشتاء نفسه، وطفق الزوجان يزوران الكنائس ويتقون غضب الرب. وذهبا إلى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات. وقام مكسيم إيفانوفتش ببناء الهيكل الذي وعد ببنائه، وأنشأ في المدينة مستشفى وملجأ. ووهب جزءاً من ثروته لأرامل ويتامى. وتذكر جميع أولئك الذين أساء إليهم، وحاول أن يرد إليهم ما اغتصبه منهم. ولكنه أخذ يبدد المال بغير اعتدال، حتى إن امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصداه عن ذلك: «كفى! ما فعلته كافٍ». وانصاع مكسيم إيفانوفتش. لكنه قال: «لقد غششت فوما مرةً». ورد إلى فوما حقه. وذرف فوما دموع التأثر، وقال: «لا داعي إلى هذا... أخذنا منك كثيراً، فنحن شاكرون لك فضلك إلى الأبد». وتشبع جميع الناس بهذه الروح. حقاً إن الإنسان يتأثر بالقدوة الصالحة. إن الناس في بلدنا طيبو القلب.

وتولت الزوجة إدارة المصنع، بلغت من حسن إدارتها أن الناس لا يزالون يتذكرون ذلك. ولم ينقطع هو عن الشراب، لكنها كانت تراقبه، وحاولت أن تشفيه. وأصبحت أحاديثه رصينة حتى لقد تغير صوته. وصار رحيماً رؤوفاً حتى بالحيوانات: في ذات يوم رأى من نافذته رجلاً يضرب حصانه بالسوط، فأرسل من يشتري الحصان بضعفي ثمنه. ووهبت له القدرة على البكاء: ففيما هو يتكلم مع أحد الناس، تغرق عيناه بالدموع فجأة. ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فرزقهما غلاماً، فإذا بمكسيم إيفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشقاء الذي أصابه. ووزع صدقات كثيرة، وردَّ

Twitter: @ketab_n

ديوناً كثيرة، ودعا المدينة كلها إلى حفلة التعميد. ولكن وجهه كان في الغد مكفهراً.

ورأته زوجته مهموماً، فجاءته بالوليد وقالت له: «إن ابني غفر لنا، فدموعنا وصلواتنا أثرت في قلبه». يجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السنة. وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه. نظر مكسيم إيفانوفتش إليها مظلم الوجه كالليل، وقال لها: «اسمعي. إنه لم يجئني طول هذه السنة. ولكنني رأيته في الحلم الليلة». وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما انتابها من شعور حينذاك فقالت: «عندما سمعت هذه الكلمات الغريبة، نفذ الرعب في قلبي».

لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم في الحلم. وما أن نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الوليد في تلك اللحظة نفسها. ودام مرضه ثمانية أيام، فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع، واستدعوا له الأطباء. حتى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب. وقال الطبيب غاضباً: «إنني أكبر طبيب، وموسكو كلها تنتظرني. ووصف للمريض قطرات دواء وأسرع عائداً إلى موسكو، بعد أن قبض ثمانمائة روبل. ومات الطفل في المساء.

ماذا حدث بعد ذلك؟ ترك مكسيم إيفانوفتش ثروته كلها لزوجته العزيزة، سلَّمها جميع أمواله وأوراقه، متنازلاً لها عن ذلك كله وفقاً للأصول المرعية والأنظمة الشرعية، ثم وقف أمامها وانحنى يحييها حتى الأرض، وقال لها: «يا زوجتي، يا أغلى ما في الحياة عندي، دعيني أمضي لإنقاذ روحي ما دمت أملك الآن سبيلاً إلى ذلك. فإذا قضيت هذا الوقت دون أن أظفر بطائل، فلن أعود. لقد كنت قاسي القلب. ولقد سمت الآخرين سوء العذاب. ولكنني أظن

Twitter: @ketab_n

أن الآلام التي سأتحملها في المستقبل، وحياة التجواب التي سأعيشها، قد تشفع لي عند الرب فيهب لي رحمته، ذلك أن ترك هذا كله ليس صليباً صغيراً ولا ألماً صغيراً». حاولت زوجته أن تثني عزمه بالدموع. قالت له: «ليس لي الآن على هذه الأرض أحد غيرك، فمن ذا الذي سيرعاني؟ لقد انفتح قلبي في هذه السنة للمحبة والحنان». وظلت المدينة كلها تنصحه خلال شهر كامل. تضرعوا إليه، قرروا أن يحتجزوه بالقوة. ولكنه لم يصغ إلى أحد. وتسلل فجأة في ذات ليلة ومضى ثم لم يعد. يقال إنه لا يزال إلى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العذاب، ويزور امرأته الغالية مرةً كلَّ شهر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

1

الآن أصل إلى الكارثة النهائية التي تختتم هذه المذكرات. ولكنني قبل أن أواصل الكتابة أراني مضطراً إلى أن أستبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه في حينه وإنما أنا عرفته وأدركته بعد ذلك بمدة طويلة، أي بعد أن انتهى كل شيء. وإذا لم أفعل ذلك فلن يكون حديثي واضحاً، بل سيكون ألغازاً لا تُفهم. ومن أجل هذا التوضيح التمهيدي سوف أضحي في سبيل الوضوح والإيجاز بكل ما يسمى إثارة فنية أو تشويقاً فنياً، فكأن الذي يكتب ليس أنا، وكأن قلبي لا يشارك فيه أية مشاركة. سيكون ما أقوله غير شخصي، فهو أشبه «بمقالة صغيرة» في جريدة.

كان في وسع رفيق طفولتي، لامبرت، أن ينتمي انتماءً تاماً إلى عصابة من تلك العصابات الرهيبة التي تتألف من متآمرين حقيرين يتواطئون على القيام بما يطلق عليه اليوم اسم «الابتزاز»، وما يقع الآن تحت طائلة العقوبة في بعض مواد القانون المدني. والعصابة التي شارك لامبرت في أعمالها بعض المشاركة إنما تكونت بموسكو، وارتكبت عدداً كبيراً من المكائد (واكتشف شيء من أمرها في النهاية). .وقد علمت فيما بعد أن أعضاءها كان لهم بموسكو، خلال فترة من الزمن، رئيس واسع الخبرة جداً، ليس

Twitter: @ketab_n

بالغبي، وليس بالشاب اليافع، وإنما هو رجل متقدم في السن. وكان أفراد العصابة ينفذون مشروعاتهم جماعةً واحدة في بعض الأحيان أو ينفذونها زمراً زمراً في أحيان أخرى. وعدا الجرائم القذرة الكثيرة التي ارتكبوها (والتي تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد، ماكرة أشد المكر. وقد عرفت بعض هذه الأعمال فيما بعد. لكنني لا أحب أن أدخل في التفاصيل. فحسبي أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم في العمل: إنهم يحاولون أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً في بعض الأحيان، وتكون لهم في المجتمع منزلة عالية. فإذا عرفوا هذه الأسرار ذهبوا إلى أولئك الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهي وثائق ليست في حوزتهم أحياناً) ويطالبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم. إن هناك أموراً لا توجب العقاب، وليس فيها شيء من إجرام، ولكن أشرف الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها. وكان أفراد العصابة يستغلون الأسرار العائلية في أكثر الأحيان. فمن أجل أن أبيِّن للقارىء مدى الحذق والمكر في ما كانوا يقومون به من أعمال، سأروي مكيدة من مكائدهم، دون أن أدخل في التفاصيل. لقد حدث في أسرة كريمة من الأسر شيء يؤسف له حقاً، بل شيء يمكن أن يوصف بأنه جريمة، وهو أن زوجة رجل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غني شاب. وقد ترامى هذا السر إلى علم أفراد العصابة، فإليكم ما فعلوه: ذهبوا إلى الشاب وهددوه بأنهم سيبلغون الزوج. لم يكن لديهم أي برهان. ولكن كل حذقهم في اللجوء إلى استعمال هذا الأسلوب وكل براعتهم في الحساب إنما يقومان على أن الزوج، إذا بلغه الأمر، ولو لم يكن هناك

Twitter: @ketab_n

براهين، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعة، وسيتخذ الإجراءات التي يتخذها من توفرت له الأدلة الدامغة. فهم قد بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة. وكان بين أفراد العصابة شاب من المجتمع الراقي استطاع أن يحصل سلفاً على معلومات مفيدة. فطالبوا العشيق بمبلغ ضخم من المال، دون أن يتعرضوا من ذلك لأي خطر، لأن الضابط الذي وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهمّه إلا كتمان الأمر.

إن لامبرت، رغم مشاركته في أعمال تلك العصابة المسكوبية، لم يكن ينتمي إليها انتماء تاماً. لكنه وقد استطاب هذه الصنعة، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً. يجب أن أبادر فأقول إنه لم يكن قادراً على السير في هذا الطريق كل القدرة. صحيح أنه لم يكن غبياً، وصحيح أنه كان حيسوباً، ولكنه كان شديد الاندفاع، وكان عدا ذلك مسرفاً في البساطة أو قل في السذاجة: فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع. أظن مثلاً أنه كان لا يدرك الدور الذي يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو، فكان يتخيل أن إدارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً. وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جبناء مثله، فإذا لاحظ مثلاً أن فلاناً من الناس خاف في ظرف خاص، تخيَّل أنه سيخاف في كل ظرف لأنه جبان. كان هذا عنده بديهية من البديهيات.

أحسب أنني لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله. وهذه الأمور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد. ولكنني أعتقد أن لامبرت كان سيىء الخلق، فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة، بل لا يخطر له وجودها على بال.

وقد جاء إلى بطرسبرج لأنه كان يحلم منذ مدة طويلة بأن مجال

Twitter: @ketab_n

العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضمر له أسوأ النيات. فلما وصل إلى بطرسبرج أسرع يتصل برفيق من رفاقه القدامى. ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة. ثم اتسعت دائرة معارفه، ولكنه لم يصل إلى ثمرة. وقد قال لي فيما بعد: «الناس هنا خرق بالية وصبية صغار لا أكثر». وها هو ذا في ذات صباح، عند طلوع النهار، يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار، ثم يكتشف مما قلته أثناء هذياني أنه وقع على «قضية هامة جداً» يمكن أن تدر عليها أرباحاً طائلة، أو هذا ما قدّره.

لقد استخرج هذه القضية كلها مما رويته له حين كنت أتدفأ في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً. فمن كل ما أفلت من لساني ذلك اليوم كان يتضح أن الإهانة الكبرى إنما وقعت عليَّ من بيورنج، ومنها «هي»: وإلا لكان يمكن أن يدور هذري على ما جرى لي عند تسرشتشيكوف. ولكنني لم أهذر إلا في الأمر الأول، وهذا ما عرفته بعد ذلك من لامبرت نفسه. ثم إنني كنت متحمساً، وكنت في ذلك الصباح الرهيب أعد لامبرت وآلفونسين منقذين ومحرِّرين. وحين تساءلت بعد ذلك، أثناء نقاهتي، وأنا لا أزال في السرير: ما عسى عرف لامبرت من أحاديثي إبان الهذيان، وإلى أي مدى أفضيت إليه بأسراري، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة! صحيح أنني كنت أقدِّر ـ وهذا ما تدل عليه مشاعر الندامة التي أخذت بخناقي ـ أنني قد أكثرت من الكلام حتماً، ولكن أعود فأقول إنني لم يدر في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله! وقد أمّلت أيضاً ـ وكنت أعوّل على هذا ـ أن

Twitter: @ketab_n

أكون قد عجزت في ذلك الوقت، بسبب ضعفي ووهني، عن النطق بكلام واضح. وهذا ما أتذكره الآن تذكراً واضحاً. ولكن تبيَّن في الواقع أنني قلت كلاماً أوضح كثيراً مما كنت أقدِّر وأؤمل. ولكن المهم أن هذا كله لم يتكشف لي إلا بعد مدة طويلة، وذلك كان سبب بلائي.

استطاع لامبرت أثناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتماتي وحماساتي وما إلى ذلك، استطاع أن يعرف أولاً: جميع الأسماء تقريباً، وحتى بعض العناوين، معرفةً دقيقة. واستطاع ثانياً أن يكوِّن لنفسه فكرة قريبة من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز، بيورنج، هي، آنا آندرييفنا، وحتى فرسيلوف). واستطاع أن يعرف ثالثاً أنني أُهنت وأنني هدَّدت بالانتقام. واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن في حوزتي وثيقة سرية مخبأة هي رسالة يكفي أن يُطلع عليها أمير عجوز نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بخط بنته التي تصفه في هذه الرسالة بأنه مجنون وتستشير فيها أناساً من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً عليه، فإما أن يجنَّ نهائياً وإما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث أو يتزوج آنسة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له بالزواج منها. الخلاصة أن لامبرت عرف أشياء كثيرة. ولا شك أن هناك أشياء كثيرة بقيت غامضة في ذهنه، ولكنه قد أمسك بالخيط ووضع قدمه في الطريق. وحين فررت بعد ذلك من عند آلفونسين استطاع أن يعرف عنواني فوراً (بأبسط وسيلة: مكتب العناوين). ثم أسرع يجمع المعلومات اللازمة، فعرف أن جميع الأشخاص الذين سميتهم موجودون فعلاً. فبادر عندئذ إلى القيام بأول مسعى.

كان الشيء الأساسي هو أن هناك وثيقة، وأن الوثيقة في حوزتي

Twitter: @ketab_n

أنا. ولم يخامر لامبرت أي شك في أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة. هنا أسكت عن ظرف يستحسن أن أرجىء ذكره إلى أن يحين وقته. ولكنني أشير إلى أن هذا الظرف قد عزز اقتناع لامبرت بأن الوثيقة موجودة فعلاً وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالاً إن الظرف كان حاسماً، ولم يكن في إمكاني أن أتخيله في ذلك الوقت، حتى ولا إلى آخر القصة، أي إلى اللحظة التي انهار فيها كل شيء دفعةً واحدة واتضح من تلقاء نفسه). حتى إذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مضى يزور آنا آندرييفنا قبل كل شيء.

لا يزال هنالك لغز يحيِّرني: كيف استطاع هذا الرجل، لامبرت، أن يتسلل فيصل إلى إنسانة صعبة المأخذ رفيعة مثل آنا آندرييفنا؟ صحيح أنه حصل على معلومات، ولكن ما قيمة هذا؟ وصحيح أنه كان حسن الهندام وأنه كان يتكلم بلهجة باريسية ويسمى باسم فرنسي، ولكن كيف لم تدرك آنا آندرييفنا على الفور أنه وغدٌ منحطّ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوغد هو ما كانت بحاجة إليه في ذلك الوقت؟ هل هذا ممكن؟

لم أشأ في يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذي تم بينهما. ولكنني تصورت المشهد بعد ذلك مراراً كثيرة. أغلب الظن أن لامبرت منذ البداية، قد مثَّل بأقواله وحركاته، دور صديق الطفولة القلق على رفيق عزيز. وأغلب الظن أنه أشار في الوقت نفسه إشارة واضحة إلى «الوثيقة» التي في حوزتي، وأنه أفهم آنا آندرييفنا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحد غيره، هو لامبرت، وأنني أعوِّل على هذه الوثيقة للانتقام من الجنرالة آخماكوفا، إلى آخر ما هنالك. واستطاع خاصةً أن يشرح لها ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمةً عظيمة، شرحا فيه كل ما يجب من دقة، وكانت آنا آندرييفنا

Twitter: @ketab_n

في ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها فيه إلا أن تتشبث بمثل هذا النبأ، وإلا أن تنصت إليه بانتباه شديد... وإلا أن تعلق بالفخ ـ انقياداً لدافع «الصراع من أجل البقاء».

كانوا، في ذلك الأوان نفسه، قد انتزعوا منها خطيبها، ونقلوه إلى تساركويا تحت الوصاية، ووضعوها هي نفسها تحت الوصاية. ثم إذا بحظ مواتٍ يعرض لها: فالأمر الآن ليس أمر نمائم يهمس بها همساً، ولا أمر شكاوي ترافقها دموع، ولا أمر أقاويل ووشايات، إنما الأمر الآن أمر رسالة، رسالة مكتوبة بالخط، أي برهان قاطع على سوء ما تضمره ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة، وما يضمره جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مثل هذه النيات. هو برهان قاطع على أنه ينبغي للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب، وأن يجيء إليها هي آنا آندرييفنا، وأن يتزوجها في غضون أربع وعشرين ساعة، وإلا أودعوه مستشفى للمجانين.

ومن الجائز أيضاً ألا يكون لامبرت قد عمد إلى المكر مع هذه الآنسة دقيقة واحدة، وإنما قال لها فجأة منذ أول كلمة: «يا آنسة، إما أن تبقي عانساً. وإما أن تصبحي أميرة ومليونيرة: هناك وثيقة، سأستلمها من ذلك الشاب، وأسلِّمها إليك... فهاتي ثلاثين ألفاً». بل إني لأظن أن هذا هو ما حدث. نعم، لقد كان لامبرت يتصور جميع الناس أوغاداً مثله. أكرر مرةً أخرى أن لامبرت يتصف بما يتصف به الوغد من سذاجة، وبراءة. ومن الجائز جداً كذلك، أن آنا آندرييفنا لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة، وعرفت كيف تسيطر على نفسها سيطرة تامة، وكيف تصغي إلى الرجل المبتز الذي يتكلم بلغته إصغاء كاملاً، وذلك بفضل «رحابة الفكر». ولعلها احمرت في أول الأمر قليلاً، ولكنّها تجلدت وأنصتت إلى

Twitter: @ketab_n

النهاية. ما أوضح الصورة التي أتخيلها لهذه المرأة الصعبة المأخذ، ذات الكبرياء، الرصينة حقاً، التي تملك فكراً واسعاً، وهي تمد يدها إلى يد رجل مثل لامبرت! نعم... فكراً واسعاً! فكراً روسياً بعيد الأفق، شغوفاً «بالرحابة»، هو إلى ذلك فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف.

سألخص الآن: لقد كان لامبرت، في يوم خروجي بعد المرض، يقف الموقفين التاليين (الآن إنما أعرف هذا معرفة اليقين): فهو أولاً يريد أن يطلب من آنا آندرييفنا ثلاثين ألف روبل على الأقل، ثمناً للوثيقة. وهو يريد ثانياً أن يساعدها في تخويف الأمير، واختطافه، وتزوجه فوراً، أو شيء من هذا القبيل. حتى لقد تم وضع خطة مقررة. ولكن تنفيذ الخطة ينتظرني أنا، أي ينتظر الوثيقة.

ولكن لامبرت كان في ذهنه مشروع آخر أيضاً؛ هو أن يخون آنا آندرييفنا، فيتركها ويبيع الوثيقة للجنرالة آخماكوفا، إذا كان ذلك يعود عليه بربح أكبر. وفي هذه الحالة يكون التعويل على بيورنج. ولكن لامبرت لم يكن قد التقى بالجنرالة بعد، وإنما هو يتتبع خطاها. وهنا أيضاً يجب انتظاري أنا.

آه... ما كان أشد حاجته إليَّ، لا إليَّ أنا، بل إلى الوثيقة! وكان لامبرت يتصور أن يتبع معي إحدى خطتين أيضاً. فأما الخطة الأولى فهي، إذا لم يمكن سلوك سبيل آخر، أن نتعاون معاً، فنتقاسم الربح بعد أن يكون قد استولى عليَّ جسماً وروحاً. وأما الخطة الثانية ـ وهي تغريه إغراءً أشد ـ فقوامها أن يغرِّر بي كما يغرر بصبي صغير، فيسرق مني الوثيقة، أو ينتزعها مني عنوةً وقسراً. وكان يحب هذه الخطة الثانية ويداعبها في أحلامه. أكرر

Twitter: @ketab_n

مرةً أخرى أن ثمة ظرفاً معيناً كان يجعله لا يشك في نجاح هذه الخطة الثانية تقريباً، ولكن سبق أن ذكرت أنني سأشرح هذا الظرف فيما بعد. ومهما يكن من أمر، فقد كان لامبرت ينتظرني نافد الصبر، فكل شيء متوقف عليَّ: المساعي التي يجب أن يقوم بها، والخطة التي يجب أن يختارها.

ويجب أن أنصفه فأقول: إنه رغم نفاد صبره قد سيطر على نفسه إلى اللحظة الأخيرة. فلم يأتِ إليَّ أثناء مرضي أبداً، ولكنه مرَّ بالبيت مرةً وكلَّم فرسيلوف. لم يرهقني، ولم يخفني، حتى لقد ظلَّ إلى ساعة خروجي يظهر عدم المبالاة. وكان على يقين من أنني لن أكلم عن الوثيقة أحداً، ولن أسلمها إلى أحد، ولن أتلفها بحال من الأحوال. لقد استطاع أن يستخلص من أقوالي نفسها في بيته أنني أحتفظ بالوثيقة سراً مكتوماً، بل أخاف أن يفتضح أمرها. وكان لا يشك في أنني متى شفيت فسيكون هو أول من أسعى إليه فوراً، وإنني لن أسعى إلى أحد قبله. وقد عادتني داريا أونيسيموفنا تنفيذاً لأوامره، فكان يعلم إنني خائف وأنني أحترق شوقاً إلى معرفة ما حدث، وأنني لن أصمد... وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير، واستطاع أن يطَّلع حتى على اليوم الذي سأخرج فيه، بحيث لا يمكنني أن أفلت منه ولو أردت.

ولكن إذا كان لامبرت ينتظرني، فلقد كانت آنا آندرييفنا تنتظرني أكثر منه أيضاً. ويجب أن أقول بصراحة إنَّ لامبرت كان على حق في تأهبه لخيانتها والغدر بها، وكان الذنب في ذلك ذنبها هي. فرغم تفاهمهما المحقق (وأنا أجهل صورة ذلك التفاهم، لكنني أعرف أنه حدث) ظلت آنا آندرييفنا إلى آخر دقيقة لا تلتزم في تعاملها معه جانب الصراحة التامة، ولم تكشف عمَّا تضمره كشفاً

Twitter: @ketab_n

كاملاً. وإنما هي تكتفي بالإشارة والتلميح. لقد لمَّحت له بكل أنواع الموافقة، ولمَّحت له بكل أنواع الوعود، ولكن كلامها كان تلميحاً فحسب. لعلها أصغت إلى جميع تفاصيل خطته، ولكنها لم توافق عليها إلا بالصمت. إن هناك أسباباً قوية تدفعني إلى الاعتقاد بهذا. وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت «تنتظرني». لا بد أنها كانت تفضِّل أن تتعامل معي على أن تتعامل مع وغد مثل لامبرت؛ وهذا أمر بديهي ومفهوم. ولكن المصيبة هي أن لامبرت أدرك ذلك أخيراً. فلو أخذت آنا آندرييفنا الوثيقة مني بالاتفاق معي رأساً، لألحق ذلك به خسارة كبيرة. وكان هو مقتنعاً بضخامة «الصفقة». ولو كان غيره في مكانه لخاف ولظلت تساوره الشكوك. ولكن لامبرت شاب، وجريء، وظامىء إلى الربح السريع، ولا يعرف البشر كثيراً، ويتصور قلة الشرف في جميع الناس. فليس في وسع إنسان مثله أن يشك، لا سيما وأنه قد حصل من آنا آندرييفنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه.

ثمة أمر آخر له شأن كبير: هل كان فرسيلوف، في ذلك اليوم، يعرف شيئاً ما؟ هل كان يشارك لامبرت في بعض الخطط ولو من بعد؟ كلا، ثم كلا! إنه في «ذلك الوقت» لم يكن يشارك بعد. لعل كلمةً طائشة قد أفلتت منه. ولكن كفى كفى! حسبي استباقاً للأحداث!

ثم ماذا عني أنا؟ هل كنت أعرف شيئاً يوم خروجي؟ لقد ذكرت حين بدأت بكتابة هذه الزاوية من حديثي أنني كنت يوم خروجي لا أعرف شيئاً، وأنني عرفت كل شيء فيما بعد. هذا صحيح. ولكن هل صحيح كل الصحة؟ الحق أنني كنت أعرف شيئاً ما، بل كنت أعرف أشياء كثيرة. ولكن كيف؟ فليتذكر القارىء «حلمي» الذي

Twitter: @ketab_n

رأيته. إذا كان حلم من هذا النوع قد أمكن أن أراه في نومي، وأن ينبجس من نفسي في هذه الصورة، فإن هذا يدل على أنّني كنت لا أزال أجهل أموراً كثيرة، ولكنه يدل على أنني كنت «أتوجس» هذه الأمور، كما يستدل على ذلك مما شرحته هنا من أشياء لم أعرفها في الواقع إلا بعد أن كان قد «انتهى كل شيء». صحيح أنني كنت لا أعلم شيئاً علم اليقين، ولكن قلبي كان يخفق بتوجسات تتنبأ بما سيحدث، وكانت الأرواح الشريرة قد غزت أحلامي واستولت عليها. ذلك هو الرجل الذي هرعت إليه وأنا أعرف من هو، وأخاف جميع التفاصيل. لماذا هرعت إليه؟ تخيلوا أنني، الآن، في هذه اللحظة، وأنا أكتب هذه الأسطر، يبدو لي أنني منذ ذلك الحين، كنت أعرف، بأدق التفاصيل، لماذا سعيت إليه مسرعاً، رغم أنني في واقع الأمر لم أكن أعرف شيئاً كما سبق أن ذكرت. قد يفهم القارىء عني هذا الكلام. ولننتقل إلى الوقائع، ولنذكرها بعضها وراء بعض.

2

بدأ كل شيء هكذا: قبل خروجي الأول بيومين، دخلت ليزا مضطربةً أشد الاضطراب. كانت منزعجةً انزعاجاً شديداً. لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطاق.

سبق أن أشرت إلى صِلاتها بفاسين. لقد ذهبت إليه لا لتبيِّن لنا أنها في غير حاجة إلينا فحسب، بل لأنها كانت تقدره فعلاً. كانا قد تعارفا بمدينة لوجا. وقد لاح لي دائماً أن فاسين ليس غير مكترث بها وكانِ طبيعياً، وهي فيما هي فيه من شقاء، أن ترغب في طلب النصح من إنسان يملك عقلاً راجحاً، ويتمتع بالهدوء،

Twitter: @ketab_n

ويتسم بسمو النفس، وهذا كله كانت تفترضه في فاسين. ثم إن النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يعجبهن. حتى لقد يرين في المفارقات الغريبة آراء سديدة، متى جاءت تلك المفارقة مطابقة لرغباتهن. ولقد كانت ليزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأمير، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى. وإذ كانت من جهة أخرى تحس بما يحمله لها من عواطف، فقد كان يستحيل عليها ألا تحترم فيه تقديره لمنافسه والأمير، حين باحت له هي نفسها بأنها تستشير فاسين أحياناً، أحس بقلق شديد، وشعر بغيرة قوية عليها. فجرح هذا شعور ليزا. وأصبحت تواصل زيارة فاسين متعمدةً منذ ذلك الحين. فسكت الأمير، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه. وقد اعترفت لي ليزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يعجبها. لقد كان هادئاً، وهذا الهدوء المستمر المطرد الذي أعجبها كثيراً في البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك. صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً، وأنه أسدى إليها فعلاً بعدد من النصائح التي يوهم ظاهرها بأنها نصائح رائعة، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبيَّن بما يشبه المصادفة أنها لا يمكن تنفيذها. وكان في بعض الأحيان ينظر إلى الأمور نظرة مسرفة في التعالي، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شيئاً بعد شيء. وقد عزت هي ذلك إلى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضاؤل على غير شعور منه. وفي ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلقاني ويحدثني حديث الند للند رغم تفوقه عليَّ في الفكر (وهي بذلك قد أبلغته كلماتي نفسها)، فما كان منه إلا أن أجابها بقوله:

ـ ليس الأمر ما تظنين، بل هو أبسط من ذلك كثيراً. فأنا لا

Twitter: @ketab_n

أرى أيَّ فرق بينه وبين سائر الناس. ولا أعده أغبى من الأذكياء ولا أسوأ من الأخيار. لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة، لأنهم في نظري متماثلون لا يختلف بعضهم عن بعض.

ـ كيف؟ ألا ترى بين الناس فروقاً؟

ـ بلى. إن الناس يختلف أحدهم عن الآخر في هذه النقطة أو تلك، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها في نظري لأنها لا تتعلق بي ولا شأن لي بها. هم عندي متساوون جميعاً. والأمور كلها تستوي عندي. وذلك هو السبب في أنني أعامل الناس كافةً معاملة حسنة.

ـ ولا تضجر من هذا؟

ـ لا، أنا راض عن نفسي دائماً.

ـ وليس لك رغبات؟

ـ بلى، ولكن رغباتي ليست كثيرة. لست في حاجة إلى شيء، أو لا أكاد أكون في حاجة إلى شيء، لست في حاجة حتى إلى روبل واحد زيادة على ما معي. يستوي عندي أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا. الملابس الذهبية لا تضيف إلى فاسين شيئاً. والطعام الفاخر لا يغريني. وهل المناصب والأمجاد تعطيني قيمتي؟

لقد حلفت لي ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً. والحق أننا قبل أن نقطع برأي، يجب أن نعرف الظروف التي قيلت فيها هذه الكلمات.

إن تسامح فاسين تجاه الأمير (وهو تسامح اقتنعت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع إلى ما يحمله لها من عاطفة، وإنما يرجع إلى قلة الاكتراث التي يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال إلى نوع من سخرية فيها احتقار. وقد أحنق هذا

Twitter: @ketab_n

ليزا، ولكن فاسين أمعن فيه. وكان يعبر عن آرائه دائماً برقة ولطف، بل كان يتهم ويدين بغير إظهار شيء من الاستياء أو الامتعاض، وإنما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل تافه لا قيمة له. وفي هذا المنطق إنما كانت تثوي السخرية. وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير «يجافي العقل»، وأنها تُكره نفسها عليه إكراهاً وتقسرها عليه قسراً. وختم كلامه قائلاً: «لقد ضلَّت في عواطفها، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالإصلاح حتماً».

حدث هذا في ذلك اليوم. وقد استاءت ليزا، ونهضت لتنصرف، فما الذي فعله واستنتجه هذا الإنسان العاقل؟ انبرى يعرض عليها الزواج بنبل، وحتى بعاطفة! فما كان من ليزا إلا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبي أحمق! قالت له ذلك وجهاً لوجه. وخرجت.

أن يعرض على امرأة أن تخون إنساناً شقياً لأن هذا الإنسان الشقي «لا يستحقها»، وأن يعرض هذا على امرأة حبلى من هذا الإنسان الشقي، ذلك هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين! إنني أسمي هذا انحباساً في النظريات وجهلاً مطلقاً بالحياة مردُّه إلى زهو وغرور. وقد أدركت ليزا، من جهة أخرى، إدراكاً واضحاً كل الوضوح، أن اعتزاز فاسين بإقدامه على هذا العرض إنما يرجع إلى معرفته بأنها حامل. وسرعان ما ذهبت إلى الأمير وقد فاض دمعها استياءً واستنكاراً، فإذا بالأمير يتفوق على فاسين سخافة. كان ينبغي له، بعد الذي قصته عليه من أمر فاسين، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها. ولكن نقيض هذا هو ما حدث. فقد طاش صوابه عندئذ تماماً. وكذلك شأن جميع الغيورين على كل حال! لقد شاجرها شجاراً عنيفاً، وصدَّع رأسها تصديعاً رهيباً، وأثخن شعورها

Twitter: @ketab_n

بالجراح وأهانها حتى أوشكت أن تقطع كل علاقة لها به على الفور.

ومع ذلك رجعت إلى البيت كاظمةً غيظها مسيطرةً على نفسها، ولكنها لم تستطع إلا أن تبوح لأمها بما حدث. فذاب الجليد، وعادت المرأتان إلى سابق عهدهما، فتعانقتا كما كانتا تتعانقان من قبل، وبكت كل منهما بين ذراعي الأخرى على عادتهما، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وإن ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس. وفي المساء بقيت جالسةً عند ماكار إيفانوفتش دون أن تنطق بكلمة، ولكن دون أن تغادر الغرفة. وأصغت كثيراً إلى ما كان يقوله ماكار إيفانوفتش. إنها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شيء من خجل، وإن ظلت قليلة الكلام.

ولكن ماكار إيفانوفتش قد غير الحديث في هذه المرة تغييراً غريباً لم يكن في الحسبان. يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا في الصباح عن صحته، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق. ويجب أن أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذي سيكون موعده بعد خمسة أيام تماماً، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال. ففي هذه المناسبة اندفع ماكار إيفانوفتش يستعيد ذكرياته فجأة، وتذكر طفولة ماما، أيام «كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد». قال: «كنت لا أتركها أبداً. وكنت أعلمها المشي: أضعها في ركن على بعد ثلاث خطوات مني، ثم أناديها، فتجتاز الغرفة مترنحة بلا خوف، ضاحكة، وتركض إليَّ، وترتمي بين ذراعي، وتقبل عنقي. ثم كنت أقص عليك حكايات يا صوفيا آندرييفنا، إذ

Twitter: @ketab_n

كنت تعشقين الحكايات عشقاً. كانت تبقى على ركبتيَّ ساعتين، تصغي إليّ. وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون: «انظروا ما أشد تعلقها بماكار» أو كنت أمضي بك إلى الغابة يا صوفيا آندرييفنا، فأعثر على شجرة عليق، فأجلسك هناك، ثم أصنع لك صفارة من خشب. حتى إذا ارتوينا من النزهة، عدنا إلى البيت والطفل نائم على ذراعي. وفي ذات يوم، خافت من الذئب، فارتمت عليَّ مرتجفة مرتعدة، ولم يكن ثمة ذئب.

- قالت ماما:

- هذا أتذكره!

- تتذكرينه؟ لا يمكن...

- بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً.

وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً:

- كلما أوغلت في تذكر الماضي رأيتك ورأيت ما كنت تحمله لي من حب وحنان.

انتظر ماكار إيفانوفتش لحظةً ثم قال:

- وداعاً يا أولادي، أنا راحل. الآن حان حيني. لقد وجدت في شيخوختي عزاء عن جميع آلامي. شكراً يا أصدقائي.

هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثر:

- دعك من هذا الكلام يا ماكار إيفانوفتش، يا عزيزي. لقد قال لي الطبيب منذ قليل إنَّ صحتك تحسنت تحسناً كبيراً.

وكانت أمي تصغي إلى الحديث مرتاعة.

قال ماكار إيفانوفتش مبتسماً:

- وما يُدري صاحبك ألكسندر سيمينتش؟ صحيح أنه لطيف، ولكن هذا كل شيء. أم تراكم تظنون يا أصدقائي أنني خائف أن

Twitter: @ketab_n

أموت؟ في هذا الصباح، بعد أن تلوت صلاتي، راود قلبي إحساس بأنني لن أخرج من هنا حياً. أحد قال لي هذا. هيا! تبارك اسم الرب! ولكنني أتمنى لو أظل أراكم جميعاً. كان أيوب المعذب يتعزى عن آلامه برؤية أحفاده الجدد، ولكن هل كان ينسى أولاده السابقين، وهل كان يستطيع أن ينساهم. كلا، ذلك مستحيل! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما مضت السنون، ثم يستحيل إلى زفرة سعيدة. هكذا تجري الأمور في هذا العالم: كل نفس تُمتحن وتتعزى.

وأردف ماكار إيفانوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة جميلة لن أنساها ما حييت:

ـ قررت يا أولادي أن أقول لكم كلمة، كلمة لا أكثر...

ثم التفت نحوي فجأة وقال:

ـ أنت يا عزيزي، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة، ومت في سبيلها إذا دعا الداعي.

ثم أضاف يقول ضاحكاً:

ـ ولكن انتظر. لا تخف! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن. إنك اليوم لا تفكر في هذا الأمر، وقد تفكر فيه في المستقبل. غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً: إذا أردت أن تفعل خيراً، فافعله في سبيل الله، ولا تفعله انقياداً لنزوة. كن رابط الجأش صلب العود، ولا تدع لنفسك أن تسترسل في أنواع من الجبن. ولكن تمهل في عملك، ولا تتسرع ولا تهرع واثباً. ذلك هو كل ما أنت في حاجة إليه. شيء آخر: تعوَّد أن تتلو صلاتك كل يوم حتماً. أقول لك هذا عرضاً ولعلك تتذكره في يوم من الأيام.

ثم التفت إلى فرسيلوف فقال له:

Twitter: @ketab_n

ـ لك أيضاً يا آندريه بتروفتش، يا عزيزي، أريد أن أقول بضع كلمات. إن الرب سيهدي قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حال. لقد كففنا عن الكلام في ذلك الأمر منذ مدة طويلة، منذ أن نفذ ذلك السهم في قلبي. أما وأنني الآن راحل فأحب أن أذكِّرك... بالوعد الذي قطعته لي على نفسك حينذاك.

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه، وأردف يقول:

فهتف فرسيلوف متأثراً وهو ينهض:

ـ ماكار إيفانوفتش!

ـ طيب طيب، لا تضطرب يا عزيزي. ما هذه إلا ذكرى...

إن أكبرنا إثماً أمام الله في هذه القضية هو أنا. كان ينبغي ألا أسمح بما حدث رغم أنك كنت مولاي. فلا تضطربي أنت أيضاً يا صوفيا، لا تدعي لنفسك أن تسرف في الاضطراب، لأن الإثم إثمي أنا، ولأنني أعتقد أنك كنت في ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين.

هنا ابتسم ماكار إيفانوفتش واختلجت شفتاه من ألم. ثم تابع كلامه فقال:

ـ كان يمكنني يا زوجتي أن ألقنك درساً في ذلك الحين ولو باستعمال العصا، بل كان يجب عليَّ أن أفعل. ولكنني أشفقت عليك حين ارتميت أمامي باكية، واعترفت لي بكل شيء وأنت تقبِّلين قدميَّ. ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذة، ولكنني أريد أن أذكر آندريه بتروفتش... وإنَّك يا عزيزي لتتذكر عهد الشرف الذي قطعته على نفسك. إن الزواج يستر كل شيء. أقول لك هذا أمام أولادي...

كان ماكار إيفانوفتش منفعلاً إلى أقصى حدود الانفعال، وكان

Twitter: @ketab_n

ينظر إلى فرسيلوف منتظراً منه أن يقول كلمة تأكيد. أكرر أن هذا كله لم يكن في الحسبان، فبقيت جالساً على كرسيي بلا حراك. وكان فرسيلوف لا يقلّ عنه انفعالاً بل يزيد عليه: وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبِّلها. وها هي ذي ماما تتقدم من ماكار إيفانوفتش، صامتةً كذلك، فتحييه بانحناءة شديدة.

الخلاصة أن المشهد كان يبعث في النفس أشد التأثر. ولم يكن بالغرفة في هذه المرة غريب، ولا تاتيانا بافلوفنا. وكانت ليزا منتصبة الجذع فوق كرسيها تصغي صامتة. فها هي ذي تنهض فجأة، وتقول لماكار إيفانوفتش بلهجة ثابتة قوية: باركني أنا أيضاً يا ماكار إيفانوفتش، لأتحمل المحنة الكبيرة التي تنتظرني. غداً يتقرر مصيري كله. فادعُ اليوم لي.

قالت ليزا ذلك وخرجت. إنني أعرف أن ماكار إيفانوفتش كان على علم بأمر ليزا، فقد أطلعته ماما عليه. ولكنني في ذلك المساء رأيت فرسيلوف وماما أول مرةً معاً. أما قبل ذلك فلم أكن أرى إلى جانبه إلا عبدة. ثمة أشياء كثيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذي كنت قد أدنته. لذلك رجعت إلى غرفتي مضطرباً. يجب أن أذكر أنني في تلك اللحظة نفسها قد تكاثفت شكوكي فيه مزيداً من التكاثف. إنه لم يبد لي في يوم من الأيام أقرب إلى السر واللغز مما يبدو لي الآن. ولكن ها هي كل القصة التي أكتبها: ولسوف يأتي كل شيء في حينه.

قلت محدثاً نفسي وأنا أرقد على سريري: «لقد قطع لماكار إيفانوفتش على نفسه عهد الشرف ليتزوجنَّ أمي متى ترمَّلت. ولكنه لم يقل لي شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمني عن ماكار إيفانوفتش».

Twitter: @ketab_n

في الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار، فلما عادت كان الوقت متأخراً، فمضت إلى غرفة ماكار إيفانوفتش رأساً. وكنت لا أريد أن أدخل حتى لا أضايقهما، ولكنني لاحظت أن ماما وفرسيلوف كانا قد دخلا فدخلت. كانت ليزا جالسةً بجانب الشيخ تبكي على كتفه. وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه.

وقد شرح لي فرسيلوف (في غرفتي بعد ذلك) أن الأمير يلح على أن يتزوج ليزا متى أمكن ذلك، حتى قبل صدور قرار المحكمة؛ وأن ليزا مترددة لمَّا تعزم أمرها بعد رغم أنها لم يبق لها حق في التردد تقريباً. وكان ماكار إيفانوفتش «يأمرها» أيضاً بأن تتزوجه. وهذا كله كان ينبغي أن يتم من تلقاء نفسه فتوافق ليزا على الزواج من تلقاء نفسها أخيراً، بلا تردد ولا أوامر، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذي تحبه قد أهانها إهانة شديدة، وأن حبها يذلّها حتى في نظر نفسها، فكان يصعب عليها أن تعزم أمرها. ولكن هناك شيئاً غير الإهانة، قد تدخل في الموضوع وما كان ليخطر لي ببال.

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة:

ـ هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس؟

فهتفت:

ـ ماذا؟ درجاتشيف؟

ـ نعم. وفاسين أيضاً.

ذُهلت، ولا سيما من سماع اسم فاسين.

ـ هل له دخل في شيء؟ ما عساهم يصنعون بهم! رباه! ويحدث هذا في الوقت الذي تشتكي فيه ليزا من فاسين! ما عسى يحدث لهم في رأيك؟ يميناً أن لستيبلكوف يداً في الأمر!

قال فرسيلوف وهو يرشقني بنظرة خاصة، كما ينظر إلى امرىء

Twitter: @ketab_n

لا يفهم شيئاً ولا يحزر شيئاً:

ـ دعنا من هذا الآن! ما أدرانا بما وقع، وما يدرينا بما سيُصنع بهم؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله: لقد علمت أنك تريد أن تخرج غداً. فهل تذهب إلى الأمير سرجي بتروفتش؟

ـ سأذهب إليه قطعاً، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسي وتؤلمني، أعترف بذلك. هل تريد أن أنقل إليه شيئاً على لسانك؟

ـ لا، لا شيء. سأراه بنفسي. إنني أرثي لحال ليزا. أية نصيحة يستطيع ماكار إيفانوفتش أن يسديها إليها. إنه هو نفسه لا يدرك شيئاً لا من أمور الناس ولا من أمور الحياة! شيء آخر يا عزيزي (كان منذ مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتي بقوله: «يا عزيزي»). إن في القضية أيدي عدد من الشبان... أحدهم رفيقك القديم لامبرت. يخيَّل إليَّ أنهم جميعاً أوغاد رهيبون... أردت تنبيهك فحسب... هذا شأنك وحدك. أنا أعلم أنني ليس من حقي أن...

فرأيتني أمسك يده فجأة دون أن أفكر، مدفوعاً إلى هذا بما يشبه الحماسة والإلهام، كما يحدث لي كثيراً (وقد حدث هذا كله في ظلام كامل)، ورأيتني أقول له:

ـ آندريه بتروفتش، لقد صَمَتّ أنا حتى الآن، وأنت تعرف لماذا صمتّ. صمتّ لأتحاشى أن أتدخل في أسرارك التي قررت ألا أطّلع عليها في يوم من الأيام. إنني جبان. إنني أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار من قلبي انتزاعاً تاماً، وذلك ما لا أريده. أفلا ينبغي لك والحالة هذه أن تعاملني بمثل ما أعاملك به، فتتركني وشأني أمضي حيث أريد! أليس هذا صحيحاً؟

فقال لي وهو يتركني:

ـ إنك على حق. ولكن أرجوك: لا تزد على هذا كلمةً واحدة!

Twitter: @ketab_n

وهكذا تكاشفنا عرضاً. كانت مكاشفة ضئيلة جداً، ولكنها كافية لمضاعفة اضطرابي إزاء الخطوة الجديدة التي سأقوم بها غداً. لذلك قضيت الليل متأرقاً. ولكنني تخففت من بعض ما كان يجثم على صدري.

3

حين خرجت في الغد من البيت، كانت الساعة العاشرة. لكنني بذلت كل جهودي من أجل أن أنصرف خفيةً بدون وداع وبدون كلمة واحدة. تسللت تسللاً. لماذا؟ لا أدري. ولكن لو اتفق أن رأتني أمي عند خروجي فحاولت أن تكلمني، لكان يمكن أن أغلظ لها القول. فلما صرت في الشارع وتنسمت الهواء الطري، رأيتني أهتز من إحساس قوي جداً، يكاد يكون حيوانياً، وأستطيع أن أصفه بإنه إحساس «وحش ضار». لماذا أذهب وإلى أين أذهب؟ كان إحساسي شيئاً لا يمكن تحديده، ولكنه ضارٍ شديد الضراوة. كنت خائفاً منه وفرحاً به في آن واحد.

ـ أأتدنس اليوم أم لا أتدنس؟

كذلك تساءلت بيني وبين نفسي، على علمي بأن الخطوة التي سأخطوها هذا النهار ستكون، متى تمت، حاسمة في حياتي كلها. ولكن لماذا الكلام بألغاز؟

مضيت إلى سجن الأمير رأساً. كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتيانا بافلوفنا إلى مدير السجن، فاستقبلني استقبالاً حسناً جداً. لا أدري أهو رجل طيب أم لا، ولكنني أظن أن هذا السؤال نافل لا داعي إليه. المهم أن المدير أذن لي بلقاء الأمير، بل تلطف فأخلى لنا غرفته ليتم فيها اللقاء. كانت الغرفة كجميع

Twitter: @ketab_n

الغرف، غرفةً عادية لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة. أظن أن لا حاجة لأن أصف الغرفة. وهكذا خلوت إلى الأمير.

طلع الأمير بلباس لا هو عسكري ولا هو مدني، بل هو بين بين، لكن قميصه نظيف، ورباط عنقه أنيق، وقد غسل وجهه ومشط شعره، ولكنه نحل نحولاً رهيباً، واصفر اصفراراً شديداً، وقد لاحظت هذا الاصفرار حتى في عينيه. الخلاصة أنه بلغ من التغير أنني وقفت مشدوهاً مذهولاً. وهتفت أقول:

ـ لشد ما تغيرت!

فقال مزدهياً بعض الشيء:

ـ لا قيمة لهذا! اجلس يا عزيزي!

وأشار لي إلى كرسي، وجلس قبالتي. وأردف يقول:

ـ لنناقش النقطة الأساسية: ها أنت ذا ترى يا عزيزي ألكسي ماكاروفتش...

فقاطعته مصححاً:

ـ آركادي!

ـ ماذا؟ آ... نعم. طيب طيب. لا قيمة لهذا. آ... نعم...

أدرك خطأه في تلك اللحظة، فأضاف يقول:

ـ معذرة يا عزيزي. ولننتقل إلى النقطة الأساسية...

كان يتعجل الوصول إلى غايته تعجلاً شديداً. لكأن فكرة أساسية كانت تتلبسه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فهو يريد أن يعبّر عنها وأن يعرضها. وكان يتكلم بغزارة، وبسرعة، وكان يبذل في الكلام جهداً ويعاني منه عذاباً، ويستعين عليه بالاشارات والحركات. ولكنني لم أفهم منه في أول الأمر أي شيء إطلاقاً.

وختم يقول:

Twitter: @ketab_n

ـ الخلاصة... (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات في أقل تقدير)... الخلاصة: لئن أزعجتك يا آركادي ماكاروفتش فألححت على ليزا بالأمس إلحاحاً شديداً أن تأتي بك، فلأن الأمر مستعجل. ولكن لما كان القرار الذي يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً، فإن علينا...

قاطعته قائلاً:

ـ اسمح لي يا أمير. تقول إنك طلبت أمس أن أجيء إليك؟ إن ليزا لم تبلغني شيئاً.

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فجأة، ويدهش دهشة شديدة، حتى ليكاد يرتاع ارتياعاً:

ـ كيف؟

ـ لم تبلغني شيئاً البتة. لقد عادت إلى البيت بالأمس مضطربة اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم تقل لي كلمة واحدة.

انتفض الأمير.

ـ هل تقول الحقيقة يا آركادي ماكاروفتش؟ إذن...

ـ ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من...؟ ما لي أراك قلقاً هذا القلق كله، لا بد أنها نسيت أن تبلغني، أو أن شيئاً ما قد...

جلس الأمير، ولكنه ظل كالأبله. لكأن نبأ أن ليزا لم تبلغني رغبته، قد سحقه سحقاً. ثم سرعان ما عاد يتكلم محركاً ذراعيه، ولكن كلامه بقي مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه.

وقال مقاطعاً:

ـ انتظر!...

ثم سكت رافعاً إصبعه في الهواء. ثم استأنف كلامه مجمجماً،

Twitter: @ketab_n

فقال وهو يبتسم ابتسامة رجل مهووس:

ـ هذه... هذه... إذا لم يخطىء ظني... هذه مكائد!... معنى ذلك أن...

قاطعته قائلاً:

ـ ليس لهذا كله أي قيمة! ولست أفهم لماذا تقلق هذا القلق كله لأمر تافه. آه يا أمير، منذ تلك الليلة، هل تتذكر كيف...

فصرخ يقول متضايقاً من مقاطعته:

ـ أية ليلة؟ ماذا؟

ـ عند تسرشتشيكوف، حيث التقينا آخر مرة، قبل رسالتك... لقد كنت في تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً. ولكن شتان بين اضطرابك في تلك الليلة واضطرابك الآن. إنني الآن أراك فأرتعد خوفاً... أم تراك لا تتذكر...

ـ فأجاب بصوت رجل من أبناء المجتمع الراقي وكأنه تذكر كل شيء فجأة:

ـ آ... نعم... نعم... ذلك المساء... لقد سمعت أن... كيف صحتك الآن، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا آركادي ماكاروفتش؟... ولكن فلنرجع إلى النقطة الأساسية. ذلك أنني ألاحق ثلاثة أهداف. إن أمامي ثلاثة أغراض، فأريد...

وعاد يتكلم عن «نقطته الأساسية»، فأدركت أخيراً أنني أمام رجل يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فوراً، أو يجب إسعافه بالفصد حالاً. كان حديثه المشوّش يدور في أغلب الظن على الدعوى وما قد تنتهي إليه، وعلى قيام قائد الكتيبة بزيارته بنفسه ومحاولته ثني عزمه عن خطوة يريد أن يخطوها ولكنه لم يصغ إليه، وعلى رسالة بعث بها إلى جهة ما، وعلى وكيل

Twitter: @ketab_n

نيابة، وعلى أنه سينفى حتماً إلى مكان بشمال روسيا مجرداً من حقوقه، وعلى أن من الممكن أن يستوطن طشقند مسترداً رتبته، وعلى الدروس التي سيلقنها لابنه (ابنه الذي ستلده له ليزا)، وما سيسلمه إياه هناك «في الفلاة، في أرخارنجل، وفي خولموجوري». لئن أردت أن أعرف رأيك يا آركادي إيفانوفتش، ثق كل الثقة أنني أقدر عاطفتك قدراً كبيراً... ليتك تعلم يا آركادي إيفانوفتش، يا عزيزي، يا أخي العزيز، ليتك تعلم ماذا تمثّل ليزا عندي، ماذا كانت ليزا لي هنا طول هذا الوقت!» كذلك صاح فجأة وهو يمسك رأسه بيديه.

- سرجي بتروفتش، هل يُعقل أن تريد لها الموت باصطحابها إلى خولموجوري!

أفلتت هذه الجملة من لساني برغم إرادتي. لقد تراءى لي ارتباط مصير ليزا بهذا المهووس مدى الحياة واضحاً كل الوضوح أول مرة، فجزعت. فنظر إليَّ، ونهض مرةً أخرى، ومشى خطوة، وأدار ظهره، ثم عاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً رأسه بيديه.

قال فجأة:

- إنني أحلم دائماً بعناكب.

- أنت في اضطراب رهيب يا أمير. أنصحك بأن ترقد في سريرك وأن تستدعي الطبيب فوراً.

- لا، اسمح لي، فيما بعد. وإنما استدعيتك خاصةً لأشرح لك... مسألة الزواج. إن الزواج، كما تعلم، سيتم هنا، سبق أن قلت هذا. لقد أُعطيت الإذن بالزواج، حتى إنني أُشجِّع عليه. أما ليزا...

صحت أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ ارحم ليزا يا أمير، يا عزيزي: لا تعذبها بغيرتك، الآن على الأقل!

فهتف قائلاً وهو يصوِّب إليَّ عينين محملقتين، ويبتسم ابتسامةً متشنجة فيها استفهام أبله:

ـ كيف؟

كان واضحاً أن كلمة «الغيرة» قد فاجأته مفاجأة قويّة.

ـ معذرة يا أمير، قلت هذا الكلام برغم إرادتي. اسمع: لقد تعرفت في الآونة الأخيرة إلى شيخ عجوز... هو أبي الشرعي... لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءً وسكينة. إن ليزا أيضاً تقدره قدراً كبيراً.

ـ آ... نعم... ليزا... آ... نعم... هو أبوك؟ نعم... معذرة يا عزيزي. هناك شيء... أتذكر الآن... حدثتني ليزا عن هذا. شيخ طيب... أنا متأكد، أنا أيضاً عرفت شيخاً طيباً. ولكن دعنا من هذا الآن. إن الأمر الأساسي هو أن نوضح جوهر المسألة، يجب...

قمت لأنصرف. كان يؤلمني منظره. فلما رآني أهمُّ أن أنصرف، قال بقسوة ووقار:

ـ لست أفهم!

فقلت:

ـ يؤلمني أن أراك على هذه الحال.

ـ كلمة أخرى يا آركادي ماكاروفتش، كلمة أخرى.

وأمسك كتفيَّ بحركة مختلفة كل الاختلاف، وقد تبدلت هيئته كل التبدل، وأجلسني على المقعد، وأردف يقول وهو يميل عليَّ:

ـ هل جاءك نبأ أولئك الناس؟ أقصد...

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، درجاتشيف.

ولم أستطع أن أسيطر على نفسي فأضفت أقول صائحاً:

ـ لا بد أن ستيبلكوف هو الواشي!

- نعم، ستيبلكوف... ألا تعلم؟

وتوقف عن الكلام، وحدَّق إليَّ مرة أخرى بعينين محملقتين وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله، وما تنفك تزداد عرضاً. وأخذ وجهه يشحب شيئاً فشيئاً. فإذا برعدة تسري في جسمي على حين فجأة، إذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنبأني أمس باعتقال فاسين. وهتفت أقول مذعوراً:

ـ هل يُعقل هذا؟

ـ اسمع يا آركادي ماكاروفتش، أنا إنما استدعيتك لأشرح لك...

وأضاف هامساً بصوت خافت:

ـ أردت أن...

فصحت أقاطعه قائلاً:

ـ أنت الواشي بفاسين!

ـ لا، وإنما كان هناك مخطوطة؛ وقد سلم فاسين المخطوطة إلى ليزا قبل اليوم الأخير... لتحفظها. وتركتها لي ليزا هنا لأتصفحها، وبعد ذلك حدث أن تخاصما في اليوم التالي...

ـ فأرسلت أنت المخطوطة إلى السلطات؟...

ـ آركادي ماكاروفتش! آركادي ماكاروفتش!

صحت أقول واثباً من مكاني مقطعاً كلماتي:

ـ هكذا إذن، بدون أي دافع آخر، وبدون أي هدف آخر عدا الغيرة. لأن فاسين المسكين غريمك، سلَّمت إلى السلطات

Twitter: @ketab_n

المخطوطة التي عُهد بها إلى ليزا! إلى من سلَّمتها؟ إلى من؟ إلى وكيل النيابة؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجيب عن أسئلتي. وبماذا كان يمكنه أن يجيب؟ لقد تسمر أمامي كتمثال وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة المَرَضيَّة، ويحملق تلك الحملقة الجامدة. وإنه لكذلك إذا بالباب ينفتح فتدخل ليزا. فلما رأتنا معاً كادت تسقط مغشياً عليها. وصرخت تقول وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يديَّ:

ـ أنت هنا؟ إذن. . . «علمت»؟

لقد قرأت في وجهي أنني «علمت». وقبلتها بسرعة، قبل أن تستطيع الاعتراض، قبَّلتها بقوة، بقوة. لقد أدركتُ في تلك اللحظة، أول مرة، إدراكاً كاملاً، مدى الحزن القاتم الذي لا مخرج منه ولا حدود له، مدى العذاب الرهيب الذي سيجثم إلى الأبد على حياة هذه الإنسانة. . . الباحثة عن الآلام!

قالت وهي تنتزع نفسها مني فجأة:

ـ ولكن هل يجوز للمرء أن يكلمه الآن؟ هل يجوز للمرء أن يبقى معه؟ لماذا جئت إلى هنا؟ انظر إليه، انظر إليه، هل يمكن أن يدان؟

كان وجهها يفيض ألماً وشفقة لا حدود لهما، حين أشارت لي بيدها إلى الرجل المسكين وهي تهتف ذلك الهتاف. كان جالساً على المقعد دافناً وجهه في يديه. إنها على حق: لقد كان يعاني من حمى حارة، فهو غير مسؤول عن أعماله. ولعله كان غير مسؤول عن أعماله منذ ثلاثة أيام. وقد أودع المستشفى في ذلك الصباح نفسه، ولم يحل المساء حتى تكشفت إصابته في الدماغ.

Twitter: @ketab_n

4

تركت الأمير مع ليزا في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، ومضيت من هناك إلى مسكني القديم. نسيت أن أذكر أن الجو كان رطباً، معتماً، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب، وأن ريحاً فاترة كانت تهب فتثير حتى أعصاب فيل. استقبلني المؤجر فرحاً، وأخذ يسعى ويتحرك حولي كثيراً، وهذا شيء أكرهه وأمقته في مثل هذه الأحوال. ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة، واتجهت إلى غرفتي رأساً، ولكنه تبعني: كان لا يجرؤ أن يسألني عن شيء، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع في عينيه، وكانت هيئته هيئة إنسان من حقه أن يستطلع. كان ينبغي لي أن ألاطفه، في سبيل مصلحتي. ولكنني رغم حاجتي القصوى إلى معرفة شيء ما (وكنت أعلم أنني لو لاطفته لعرفت شيئاً ما)، كرهت أن أسترسل في سؤال وجواب. واكتفيت بأن سألته عن صحة زوجته، ثم ذهبنا إليها. فاستقبلتني بلطف ومودة، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة الكلام. فهدأني هذا قليلاً. على أنني علمت في النهاية أموراً تثير أكبر الدهشة.

كان لامبرت قد جاء طبعاً، ثم جاء مرتين أخريين، «وطاف بجميع الغرف» قائلاً إنه قد يستأجر غرفة. وجاءت داريا أونيسيموفنا عدة مرات. فكان أهل البيت يتساءلون: «لماذا تجيء؟». وقد أضاف المؤجر قوله: «كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً». غير أنني لم أسرَّه فأسأله عن حب الاطلاع عندها ماذا كان! وكنت على وجه العموم لا ألقي على الرجل سؤالاً، وإنما كان يتكلم وحده، وكنت أتظاهر بأنني أنبش في حقيبتي (التي لم يكن قد بقي منها شيء تقريباً). ولكن الشيء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يعمد إلى

Twitter: @ketab_n

السر والتعمية، وأنه حين لاحظ امتناعي عن سؤاله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً، حتى ليكاد كلامه أن يصبح ألغازاً.

أضاف يقول وهو يلقي عليَّ نظرة غريبة:

ـ جاءت آنسة أيضاً.

ـ أية آنسة؟

ـ آنا آندرييفنا. جاءت مرتين. وتعرفت بزوجتي. إنسانة لطيفة، بشوشة. إن معرفة آنسة مثلها شيء ثمين يا آركادي ماكاروفتش...

قال هذه الكلمة وهو يتقدم مني خطوة: كان يرغب رغبة قوية في أن يُفهمني شيئاً!

قلت مدهوشاً:

ـ مرتين؟ غير معقول...

ـ وكانت في المرة الثانية مع أخيها.

قلت في نفسي: «إنه لامبرت».

ـ لا، ليس هو لامبرت، بل هو أخوها... شاب اسمه فرسيلوف. أظن أنه يعمل في البلاط.

لقد حزر الرجل ما تصورته، كأن عينيه قد نفذتا إلى قرارة نفسي.

اضطربت اضطراباً شديداً. وكان ينظر إليَّ وهو يبتسم ابتسامة تودد كريه. ثم أضاف:

ـ آ... نعم... وجاءت آنسة أخرى تسأل عنك، الآنسة الفرنسية، مدموازيل آلفونسين دو فردان. آه... ما أحسن غناءها! ما أجمل إنشادها الشعر! ولقد ذهبت خفيةً إلى تسارسكويا لترى الأمير نيقولا إيفانوفتش، فتبيعه كلباً صغيراً نادراً، حالك السواد،

Twitter: @ketab_n

لا يزيد حجمه على حجم قبضة الكف. . .

رجوته أن يتركني وحيداً بحجة أنني أعاني من صداع. فأطاعني فوراً، قبل أن ينهي جملته، وبدون غضب، بل بابتهاج، محركاً يده بإشارة غريبة كأنها تقول: «أفهم، أفهم!». وخرج على رؤوس الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة، متيحاً لنفسه هذه المسرة. إن على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً!

بقيت وحدي أفكر، ساعةً ونصف ساعة. بل قل إنني لم أفكر، وإنما أخذت أحلم. كنت مضطرباً، ولكنني لم أكن مدهوشاً. حتى لقد كنت أتوقع المزيد، وأنتظر عجائب أكبر. قلت أحدث نفسي: «لا بد أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن!». كنت مقتنعاً كل الاقتناع، منذ مدة، منذ كنت في البيت، أن آلتهم قد تحركت وأنها تعمل بسرعة. وقلت لنفسي أيضاً، وأنا أشعر بنوع من الرضى العصبي اللذيذ: «لا ينقصهم الآن إلا أنا، إنهم ينتظرونني على أحر من الجمر، إنهم يريدون أن يدبروا أمراً في مسكني، هذا واضح وضوح النهار، أيكون الأمر الذي يدبرونه هو زواج الأمير العجوز؟ إنهم ينصبون له فخاً، ولكن هل أسمح أنا بهذا يا سادة؟ ذلك هو السؤال». كذلك ختمت حديثي إلى نفسي مزدهياً.

«إذا دخلت في هذا الأمر، فسرعان ما سيجرفني الإعصار كما يجرف قشة. أأنا حُرٌّ في هذه اللحظة أم لم أعُد حراً؟ ألا أزال أستطيع حين أعود إلى ماما في هذا المساء أن أقول لنفسي كما أقول في كل يوم: «أنا ما أنا»؟».

ذلك هو جوهر أسئلتي أو قولوا جوهر خفقات قلبي أثناء تلك المدة التي دامت ساعةً ونصف ساعة، والتي قضيتها في ركن على السرير، واضعاً كوعيَّ على ركبتيّ، جاعلاً رأسي في يديَّ؟ ولقد

Twitter: @ketab_n

كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلها ليست إلا ترهات، فإنما كانت «هي» التي تجذبني وتجرني، «هي»، «هي» وحدها! أخيراً أقول هذا واضحاً قاطعاً، وأسجله على الورق بأحرف بارزة؛ إنني حتى في هذا اليوم، وأنا أكتب بعد انقضاء سنة، لا أزال أجهل الاسم الذي يجب أن أسمي به العاطفة التي كانت تختلج في نفسي آنذاك!

صحيح أنني كنت أشعر بشفقة على ليزا، وكنت أعاني ألماً صادقاً! وكان يمكن لهذا الألم وحده أن يهدّئ أو أن يمحو من نفسي، ولو إلى حين قصير، ما كان يجيش فيها من شعور وحشي ضار (ها أنا أستعمل هذا التعبير مرة أخرى). ولكن كان يجرفني استطلاع رهيب وخوف غامض، وكانت تجرفني عاطفة أخرى لا أعرف ما هي، ولكنني كنت منذ ذلك الحين أعرف أنّها ليست عاطفة طيبة، بل هي عاطفة فاسدة. لعلّني كنت أصبو إلى أن أترامى عند قدميها، ولعلني كنت أريد كذلك أن أغرقها في جميع أنواع العذاب وأن أبرهن لها على شيء ما «بسرعة». فلم يكن لأي ألم أو أي عطف على ليزا أن يوقف اندفاعي. هيا، هل أستطيع أن أنهض فأعود إلى البيت... وأجلس إلى ماكار إيفانوفتش؟

«ولكن هل يستحيل عليَّ حقاً أن أذهب إليهم، فأعرف منهم كل ما يُدبَّر، ثم أتركهم فجأةً إلى الأبد، فأكون قد مررت بالعجائب والشياطين سليماً لم يمسسني سوء؟».

في الساعة الثالثة، إذ ثبت إلى نفسي ورأيت أنني كدت أتأخر، خرجت مسرعاً، فركبت عربة وطرت إلى آنا آندرييفنا.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

1

ما أن أبلغوا آنا آندرييفنا بوصولي حتى تركت شغلها وأسرعت تستقبلني في الغرفة الأولى، وتلك حفاوة لم ألق مثلها من قبل. وقد مدَّت إليَّ يديها كلتيهما، واحمرَّ وجهها بسرعة. وقادتني إلى حجرتها صامتة، وعادت تتناول شغلها، وأجلستني بجانبها. لكنها كفت عن التطريز، وظلت تتفرس فيَّ باهتمام حار دون أن تقول شيئاً.

قلت فجأة وقد تضايقت قليلاً من هذا الاهتمام المتصنِّع رغم أنه طاب لي كثيراً:

ـ أرسلت إليَّ داريا أونيسيموفنا؟...

فسرعان ما شرعت في الكلام دون أن تجيب عن سؤالي، فقالت:

ـ لقد قصوا عليَّ ما وقع لك، فعرفت كل شيء. يالها من ليلة رهيبة!... ما أشد العذاب الذي لا بد أنك عانيته! هل صحيح، هل صحيح أنهم وجدوك في غيبوبة، وكنت توشك أن تتجمد؟

فجمجمت أقول وقد احمرَّ وجهي:

ـ هل... لامبرت...؟

ـ حكى لي كل شيء في ذلك الوقت. ولكنني كنت أنتظرك. لقد

Twitter: @ketab_n

جاءني مرتاعاً. عندك... في البيت الذي كنت راقداً فيه على سرير المرض، رفضوا أن يراك. وقد استقبلوه استقبالاً سخيفاً... لا أدري في الواقع كيف وقع لك ما وقع. ولكنَّه حدَّثني كثيراً عن تلك الليلة. وقال لي إنك حين فتحت عينيك قد ذكرت اسمي. فأثرَّ هذا في قلبي تأثيراً قوياً، لقد ترقرقت الدموع في عينيَّ من شدة التأثر يا آركادي ماكاروفتش. وإني لا أدري حقاً ماذا فعلتُ حتى أستحق منك هذه العاطفة كلّها، ولا سيما في حالة كالحالة التي كنت فيها. قل لي: هل مسيو لامبرت رفيق طفولتك؟

ـ نعم، ولكنني أعترف بأنني... بعد ذلك الحادث... كنت متهوراً فلعلَّني قلت له أكثر ممّا كان ينبغي أن أقول.

ـ ولكنني كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهيبة دون أن يروي هو لي شيئاً! لقد كنت أحسّ دائماً، دائماً، أنهم سيوصلونك إلى هذا! قل لي: هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك؟

إنها تتكلم كلام من يعتقد أنني لم يُعثر عليَّ عند الجدار إلا بسبب بيورنج وبسببها «هي». وقد قلت لنفسي: «الواقع أنها على حق». ولكنني انفجرت أقول مع ذلك:

ـ لو رفع عليَّ يده لما تركته بغير عقاب، ولما وجدتني الآن أمامك قبل أن أثأر لنفسي.

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظني، وأن تثير حنقي على شخص ما (أعرف من هو)، ومع ذلك رأيتني أنقاد لاستثارتها، فقلت:

ـ تقولين إنك كنت قد أدركت أنني بسببها سأصل إلى ما وصلت إليه. فأحب أن أذكر لك أن ما وقع بيني وبين كاترينا نيقولايفنا ليس إلا سوء تفاهم، وإن يكن صحيحاً أنها سرعان ما تغيَّرت عواطفها نحوي في أعقاب سوء التفاهم...

Twitter: @ketab_n

ـ تماماً. سرعان ما تغيَّرت عواطفها!

كذلك قالت آنا آندرييفنا متعاطفة. ثم تابعت:

ـ آه... ليتك تعرف المكيدة التي تُدبَّر الآن! لا شك أن حالتك لا تساعدك في هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعي كل الإدراك...

قالت ذلك وقد احمرَّ وجهها وغضَّت طرفها. واستطردت تقول:

ـ إنني في ذلك الصباح نفسه الذي التقينا فيه آخر مرة، قد خطوت خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدِّروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدِّرها رجل له ذكاؤك السليم وقلبك المحب الغض الذي لم يفسد. ثق يا صديقي أنني أحسن تقدير عاطفتك، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشكر والامتنان إلى الأبد. لا شك أن الناس في المجتمع الراقي سيرمونني بحجر، بل لقد رموني بالحجر فعلاً. ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهيبة، فمن ذا الذي يستطيع، من ذا الذي يجرؤ منهم أن يدينني؟ لقد هجرني أبي منذ طفولتي. إننا، آل فرسيلوف، الأسرة العريقة النبيلة، أناس مغامرون، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم وإحساناً. أفليس طبيعياً إذن أن أتَّجه إلى ذلك الذي كان لي منذ طفولتي بمنزلة الأب، وأغرقني بحسناته سنين طويلة؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف، والله وحده يحق له أن يحكم على الخطوة التي خطوتها. إنني لا أقبل حكم البشر على هذه الخطوة. وعدا ذلك، حين تحاك أدنأ وأحقر مكيدة، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحيةً لمؤامرة تدبِّرها له ابنته، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا؟ لا، إني لأوثر أن أضيِّع سمعتي على ألا أنقذه. إني مستعدة أن أكون له خادمةً وحارسةً وممرضة، ولكنني لن أدع لحساب دنيء وضيع كريه أن ينتصر!

Twitter: @ketab_n

كانت تتكلم بحرارة شديدة، قد يكون نصفها مفتعلاً، ولكنها حرارة صادقة رغم كل شيء، فليس يخفى أن اهتمامها بهذه القضية اهتمام شديد. ولقد أحسست بأنها كانت تكذب (تكذب كذباً صادقاً، فالمرء يمكن أن يكذب كذباً صادقاً)، وأحسست بأن كل ما فيها زيف وزور. ولكن ما أغرب ما يحدث للمرء مع النساء: إن هذه النبرة الراقية، وهذه الأنفة الشماء، وهذه العفة الفخور، إن هذا كله كان يذهلني عن نفسي ويحيِّرني في أمري، فإذا أنا أوافقها على جميع النقاط، ما بقيت معها. لا شك أن الرجل تستعبد المرأة روحه، ولا سيما إذا كان رجلاً شهماً ذا أريحية! إن امرأة كهذه المرأة تستطيع أن تنتصر على أي رجل كريم. قلت أحدِّث نفسي وأنا أنظر إليها مرتبكاً متحيِّراً: «هي ولامبرت! رباه!». على أنني سأقول كل شيء: إنني لا أزال حتى هذا اليوم عاجزاً عن أن أقطع فيها برأي. إن الله وحده قادر على أن يرى عواطفها، ثم إن الإنسان جهاز يبلغ من التعقيد أن المرء لا يستطيع أن يفهم من أمره شيئاً، ولا سيما إذا كان هذا الإنسان امرأة.

سألتها بلهجة جازمة:

ـ فماذا تنتظرين مني يا آنا آندرييفنا؟

ـ ما تعني بهذا السؤال يا آركادي ماكاروفتش؟

قلت مرتبكاً:

ـ يبدو لي... ممَّا سمعته... ومن اعتبارات أخرى أيضاً، أنك إنما أرسلت تستدعينني لأنك تنتظرين مني شيئاً. فما الذي تنتظرينه مني على وجه التحديد؟

ولكنها لم تجب عن سؤالي، وإنما سارعت تستأنف كلامها، بمثل تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة:

Twitter: @ketab_n

ـ ولكنني لا أستطيع، إنني أشدّ إباءً وكبرياءً من أن أدخل في إيضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامبرت. فأنت من كنت أنتظر، لا مسيو لامبرت. إن وضعي حرج رهيب، يا آركادي ماكاروفتش! فأنا مضطرة إلى الحيلة والمكر، لأنني محاطة بمؤامرات تحوكها لي هذه المرأة. وهذا لا يطاق. إنني أتدنى إلى مستوى المكيدة، فكنت أنتظرك كما يُنتظر منقذ مخلِّص. ما ينبغي أن أُتَّهم لأنني أنظر فيما حولي بشراهة عسى أن أكتشف صديقاً واحداً على الأقل، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع إلا أن أفرح حين وقعت على هذا الصديق؛ إن الذي أمكنه، حتى في تلك الليلة، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد، أن يتذكرني وألا يردد إلا اسمي لهو صديق مخلص حتماً. ذلك ما قلته لنفسي، وهذا هو السبب في أنني كنت أعوِّل عليك.

كانت تنظر في عينيَّ نافذة الصبر شوقاً إلى سماع جوابي. ومرةً أخرى أعوزتني الشجاعة اللّازمة لأبدد أوهامها ولأذكر لها بصراحة أن لامبرت خدعها وأنني لم أزعم له أبداً أن صداقتي لها تبلغ هذا المبلغ كلّه من القوة، وإنني لم أردّد اسمها وحدها. فكان صمتي بمثابة تأكيد لكذب لامبرت. وأنا أعلم أنها كانت هي نفسها تدرك حق الإدراك أن لامبرت قد بالغ وغالى، بل لعلّه كذب عليها أيضاً، لا لشيء إلا أن يجد عذراً كريماً لمجيئه إليها وعقد صلة بينه وبينها. ولئن كانت تنظر في عينيَّ نظرة الموقن بصدق أقوالي وقوة صداقتي، فإنما مرد ذلك طبعاً إلى أنها كانت تعلم أنني لن أجرؤ على التكذيب، بحكم ذوقي وأدبي، وبحكم سني أيضاً. على أنني أتساءل: هل هذا الافتراض صحيح أم هو غير صحيح، فلا أجد لهذا السؤال جواباً. ولعلني أمرؤ فاسد فساداً رهيباً.

Twitter: @ketab_n

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت أنني لا أجيب:

ـ إن أخي سيدافع عني.

تمتمت أقول مضطرباً:

ـ قيل لي أنك جئت تزورينني معه.

ـ ذلك أن هذا المسكين، الأمير نيقولا إيفانوفتش لم يكد يبقى له ملجأ يعصمه من هذه المؤامرة أو قل يحميه من ابنته إلّا مسكنك، أعني إلا مسكن صديق. ألا يحق له فعلاً أن يعدّك صديقاً، أنت على الأقل؟ فإن كنت تستطيع أن تصنع له شيئاً فاصنعه، اصنعه إذا استطعت، إذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة، وإذا كنت «قادراً على أن تصنع شيئاً بالفعل». إنني لا أسألك هذا من أجلي. لا. لا أسألك هذا من أجلي، بل من أجل شيخ تعيس أحبَّك وحده حباً صادقاً، وتعلَّق بك تعلُّقه بابنه، ولا يزال يضجره بعدك عنه إلى الآن. من أجلي أنا لا أنتظر شيئاً، لا أنتظر شيئاً حتى منك، بعد أن رأيت أن أبي نفسه قد دبَّر لي مكيدة دنيئة!

قلت:

ـ يخيَّل إليَّ أن آندريه بتروفتش...

فقاطعتني قائلة وهي تبتسم مرة:

ـ إن آندريه بتروفتش قد أجاب عن سؤالي الصريح بأن حلف لي بشرفه أنه لم يضمر لكاترينا نيقولايفنا شيئاً في يوم من الأيام، ولا طمع في شيء منها أبداً، فصدَّقته أنا كل التصديق فخطوت خطوتي. ثم اتضح أنه لم يحافظ على هدوئه إلا إلى الوقت الذي جاءه فيه ذلك النبأ عن رجل اسمه بيورنج.

هتفت أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ ليس هذا هو الأمر. أنا أيضاً ظننت في لحظة من اللحظات أنه يحب تلك المرأة. ولكن ليس هذا هو الأمر... وحتى لو صدق أن هذا هو الأمر، فإن في إمكانه الآن أن يبقى هادئاً وألا يحرك ساكناً بعد أن انسحب ذلك السيد.

ـ أي سيد؟

ـ بيورنج.

فقالت وهي تضحك ضحكة ساخرة:

ـ من قال لك إنّه انسحب؟ لعل هذا السيد لم يكن في يوم من الأيام قوياً كقوته الآن.

وبدا لي الآن أنها كانت تحدجني أنا أيضاً بنظرة ساخرة.

تمتمت أقول وقد اضطربت اضطراباً لم أقدر أن أخفيه ولا شك أنها لاحظته:

ـ داريا أونيسيموفنا قالت لي هذا.

ـ داريا أونيسيموفنا إنسانة طيبة، ولست أملك طبعاً أن أمنعها عن حبي، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما لا يتعلق بها.

انقبض صدري. وكما كانت تنوي أن تلهب استيائي فقد التهب استيائي فعلاً، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة «الأخرى» بل انصب على آنا آندرييفنا نفسها، فنهضت وقلت:

ـ إن من واجبي، كرجل شريف، أن أنبهك يا آنا آندرييفنا إلى أن الآمال التي تعقدينها عليَّ قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها...

فحدقت إليَّ بنظرة ثابتة وقالت:

ـ إنني أنتظر أن تحميني... أن تحمي إنسانة هجرها الجميع... أن تحمي أختك يا آركادي ماكاروفتش!

وكادت أن تجهش باكية.

Twitter: @ketab_n

فتمتمت أقول وأنا أشعر بألم شديد:

ـ الأفضل ألا نقول على هذا، لأن «من الجائز» أن لا يحدث شيء.

ـ ماذا يجب أن أفهم من أقوالك هذه؟

ألقت هذا السؤال بكثير من التروي والحذر. فإذا أنا أصرخ قائلاً بما يشبه الغضب:

ـ افهمي من أقوالي أنني سأبتعد عنكم جميعاً، وكفى! أما «الوثيقة». . . فسوف أمزقها. أستودعك الله!

حييتها وخرجت صامتاً لا أجرؤ حتى أن أنظر إليها. ولكن ما إن بلغت أسفل السلم حتى أدركتني داريا أونيسيموفنا وهي تحمل ورقة من ورق الرسائل مطويةً نصفين. من أين جاءت داريا أونيسيموفنا؟ أين كانت مختبئةً فيما كنت أكلم آنا آندرييفنا؟ ذلك ما لم أستطع أن أفهمه. وقد أعطتني الورقة دون أن تقول كلمة واحدة، وعادت أدراجها مسرعة. وفضضت الورقة، فإذا أنا أقرأ فيها عنوان لامبرت مكتوباً بأحرف جلية دقيقة، فكان واضحاً أن كل شيء قد تمَّ إعداده وتحضيره منذ بضعة أيام. تذكرت فجأة أنني، يوم جاءت إليَّ داريا أونيسيموفنا، قد أفلت مني أنني لا أعرف أين يقيم لامبرت، ولكنني إنما قلت هذا الكلام بمعنى أنني «لا أعرف ولا أريد أن أعرف». وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن كلفت ليزا بالحصول عليه من «مكتب العناوين». بدت لي هذه المبادرة من آنا آندرييفنا بليغة الدلالة بل شديدة السخرية: فإنها، رغم رفضي التعاون معها، ترسلني إلى لامبرت رأساً، فكأنها تُفهمني أنها لا تصدقني أي تصديق. كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة «الوثيقة» كاملةً. ومن عسى يعلمها بها غير لامبرت الذي ترسلني إليه ليتم التفاهم بيني وبينه؟

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي مستاءً: «إنهم جميعاً يعدونني صبياً صغيراً لا إرادة له ولا حزم عنده، فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاؤون!».

2

مع ذلك ذهبت إلى لامبرت. وهل كان يمكنني أن أرضي حب الاطلاع الذي تملَّكني إلا عنده؟ إن لامبرت يسكن بعيداً جداً، في شارع كوسوي بيريؤلوك، بقرب «حديقة الصيف»، في ذلك البيت المفروش نفسه. ولكني حين ولَّيت هارباً من عنده لم أنتبه إلى طول المسافة، حتى إذا زوَّدتني ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام، دهشت ولم أكد أصدق أنه يسكن هناك. وفيما كنت أصعد السلم بصرت أمام باب البيت المفروش، في الطابق الثالث، بشابين اعتقدتُ أنهما قرعا الجرس قبلي فهما ينتظران أن يُفتح لهما الباب. وكانا كلاهما يتفرسان فيَّ أثناء صعودي، وقد أدارا للباب ظهرهما. قلت لنفسي حين وصلت إليهما: «هذا بيت مفروش، فلا بد أنهما آتيان إلى مستأجرين آخرين غير لامبرت». كان يمكن أن يزعجني جداً أن ألقى أحداً عنده. ومددت يدي إلى الجرس لأقرعه، محاولاً ألا أنظر إليهما. فإذا بأحدهما يصيح قائلاً لي:

ـ انتظر!

وقال الآخر بصوت رنان رقيق، ممطوط قليلاً:

ـ انتظر من فضلك. سنقرع الجرس معاً متى انتهينا، إذا تكرمت.

فأمسكت عن قرع الجرس. إنهما شابان في ريعان الشباب، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين، قد وقفا أمام الباب منهمكين في عمل غريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً. إن الذي

Twitter: @ketab_n

صاح يقول: «انتظر»، مديد القامة جداً، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمتراً في أقل تقدير، وهو شديد النحول، لكنه بارز العضلات، إلى رأس صغير جداً بالقياس إلى طول القامة، هذا عدا وجه مجدور قليلاً، مكفهر اكفهراراً مضحكاً، لكنه ينم عن ذكاء، بل يكاد يكون محبباً. إن عينيه تحدقان تحديقاً، بصلابة لا محل لها بل لا داعي إليها. وهو سيىء الهندام، يرتدي معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط، معطفاً قصيراً مسرفاً في القصر بالنسبة إلى طول قامته ـ فلا شك أنه مستعار ـ وهو ينتعل حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين، ويضع على رأسه قُبعة عالية مشقرة، بالية رهيبة البلى. هو على وجه الإجمال وسخ، يداه اللتان لا يسترهما قفازان قذرتان، وأظافره الطويلة مسودَّتان. لكن رفيقه لم يكن هكذا: إنه أنيق إلى أبعد حدود الأناقة: معطف خفيف من فراء ابن عرس، قبعة جميلة، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة. إنه في مثل طولي، على محيًّا فتان ووجه فتيٍ غض.

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافتته، وهي شريط مهترىء كل الاهتراء، متسخ بالدهن، كاد يستحيل إلى خيوط؛ على حين أستلّ رفيقه من جيبه كرافتة أخرى سوداء، جديدة كل الجدة، اشتُريت من المتجر منذ هنيهة، وراح يعقدها له على رقبته. فكان الأول يمد رقبته الطويلة طائعاً معبِّراً بوجهه عن أكبر الجد، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن جسمه.

قال الشاب الأنيق.

ـ لا، مستحيل. القميص وسخ جداً. وسيظهر بالتضاد أشد اتساخاً. ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة؟ لا أستطيع. . .

Twitter: @ketab_n

ثم التفت إليَّ وقال يسألني:

ـ ألا تستطيع أنت؟

ـ ماذا؟

ـ أن تعقد له كرافتته منتفخةً بحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ، وإلا فقدت كل قيمتها وتأثيرها. لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق فيليب، ودفعت ثمنها روبلاً.

تمتم الطويل يقول:

ـ هل هو روبلك أنت؟

ـ نعم. ولم يبق معي كوبكاً واحد. هيه؟ ألا تستطيع؟ يجب أن نسأل آلفونسين.

وسألني الطويل بغتةً في غلظة:

ـ هل أنت آتٍ إلى لامبرت؟

فأجبته بمثل لهجته وأنا أحدق إلى عينيه:

ـ نعم، إلى لامبرت.

فعاد يسأل بتلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه:

ـ دولجوروفكي؟

فقلت أجيبه بفظاظة كفظاظته:

ـ لا ، لست كوروفكين.

لقد سمعت خطأ.

فقال كمن يصرخ صراخاً ويتقدم نحوي خطوة كمن يهددني:

ـ دولجوروفكي؟

فانفجر رفيقه ضاحكاً، وقال شارحاً:

ـ إنه دولجوروفكي ولا يقول كوروفكين. أنت تعلم أن الفرنسيين في «جريدة الجدال» يشوهون الأسماء الروسية دائماً.

Twitter: @ketab_n

فقال الطويل مصححاً مقرعاً:

ـ بل جريدة «الاستقلال».

ـ . . . غير مهم. جريدة «الاستقلال» أيضاً. فاسم دولجوروكي مثلاً يكتبونه دولجوروفكي. قرأت هذا بنفسي. واسم فـ. . . ـوف يكتبونه دائماً كونت فالونييف.

صاح الطويل:

ـ دوبويني!

ـ نعم، هناك أيضاً اسم دوبويني. قرأته بنفسي، وضحكنا جميعاً: هي امرأة يقال لها مدام دوبويني، روسية في الخارج. . .

ثم أضاف يقول ملتفتاً إلى الطويل:

ـ ولكن علام ذكرهم جميعاً؟

وعاد يكلمني فقال:

ـ معذرة. هل أنت السيد دولجوروكي؟

ـ نعم، دولجوروكي. ولكن من أين عرفت اسمي؟

هنا همس الطويل في أذن رفيقه اللطيف ببعض الكلام، فقطب هذا حاجبيه وحرك يده بإشارة نفي. ولكن الطويل التفت إليَّ فجأة وقال يسألني بالفرنسية:

ـ «سيدي الأمير، هلاَّ أعطيتنا روبل فضة، لا روبلين، بل روبلاً واحداً!».

فصرخ القصير يقول مؤنباً:

ـ يا للحيوان!

وعاد الطويل يكلمني فقال وهو ينطق الكلمات الفرنسية نطقاً رديئاً أخرق:

ـ «سنرد إليك».

Twitter: @ketab_n

وانفجر القصير يضحك، وقال:

ـ هذا فتى رقيع! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنسية؟ إنه ليتكلم كما يتكلم باريسي، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقي الذين تتملكهم رغبة جنونية في التخاطب بلغة لا يجيدونها...

فانبرى الطويل يقول محدِّداً:

ـ «في حافلات القطار».

ـ طيب. في حافلات القطار أيضاً. إنك لمضجر حقاً. ما الداعي إلى مزيد من الشرح. أية لذة تجد في تمثيل دور الغبي؟

في أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته إلى الطويل. فقال وهو يضع الروبل في جيبه (بالفرنسية)

ـ «سنرده إليك».

ثم التفت فجأة إلى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجد، وأخذ يدقه بطرف حذائه الضخم، ولكن بدون أي اهتياج أو حنق. فقال له القصير قلقاً:

ـ سوف تتشاجر مرة أخرى مع لامبرت. الأفضل أن تقرع الجرس.

وقرعت أنا الجرس، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة دق الباب بقدمه.

وفجأة دوَّى صوت لامبرت وراء الباب قائلاً:

ـ هوه! يا للَّعين!

وفتح لامبرت الباب بسرعة، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية):

ـ «قل لي، أتراك تريد أن أهشم لك رأسك؟».

فقال الطويل بجد ووقار وهو يواجه لامبرت الذي احمرّ غضباً:

ـ «يا صديقي، هذا دولجوروكي! أما الثاني فهو صديقي!».

Twitter: @ketab_n

فما أن رآني لامبرت حتى تغير تغيراً كاملاً وهتف يقول:

ـ هذا أنت يا آركادي! أخيراً! كيف حال صحتك؟ هل شفيت؟

وتناول يديَّ كلتيهما، وشدَّ عليهما شداً قوياً. الخلاصة أنه بلغ من صدق الحماسة للقائي أنني سرعان ما رقَّ قلبي له، وافتتنت به. قلت:

ـ هذه أول زيارة أقوم بها!

فصرخ لامبرت منادياً:

ـ «آلفونسين»!

فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز، فقال لها لامبرت:

ـ «هو ذا!».

فصاحت آلفونسين مصفقةً بيديها:

ـ «إنه هو»!

ثم عادت تباعد يديها واندفعت إليَّ لتقبِّلني، ولكن لامبرت حماني منها، إذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلباً صغيراً:

ـ هيه! هيه! على مهلك!

ثم التفت إليَّ فقال:

ـ «اسمع يا آركادي، لقد اتفقنا، عدداً من الأشخاص، على أن نتعشى اليوم في مطعم التَّتر». فلن أتركك. ستصحبنا. سنتعشى معاً. وسأصرف هذين حالاً، ثم نأخذ نتحدث. ادخل. سنخرج على الفور. دقيقة واحدة لا أكثر...

دخلت، وتسمرت في وسط الغرفة، أنظر إلى ما حولي وأستعيد ذكرياتي. كان لامبرت قد أخذ يرتدي ثيابه وراء الحاجز. وقد دخل الشاب الطويل ورفيقه وراءنا، رغم ما قاله لامبرت. فكنا نحن الثلاثة وقوفاً.

Twitter: @ketab_n

خار الطويل يقول لآلفونسين:

ـ «مدموازيل آلفونسين! بوسيني!».

وقال الصغير وهو يتقدم ويريها الكرافتة الجديدة:

ـ «مدموازيل آلفونسين!».

ولكنها هجمت عليهما كليهما حانقة مسعورة وقالت:

ـ «آه... يا للسافل! لا تقترب مني، لا توسخني!».

قالت هذا للشاب القصير، فهو الذي كانت حاقدةً عليه.

ثم اتَّجهت إلى الطويل فقالت له:

ـ «وأنت أيها الأبله الطويل! لسوف أطردكما كليكما ركلاً بقدميَّ... هل تعرف هذا؟».

ورغم أنها أشاحت عن القصير بازدراء واحتقار، كأنها تخشى حقاً أن يوسخها (وهذا ما لم أفهمه، لأنه كان نظيفاً كل النظافة، وقد ظهر حسن هندامه واضحاً حين خلع معطفه)، رغم ذلك رجاها القصير ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافته، وأن تعيره قبل ذلك ياقة نظيفة من ياقات لامبرت. فأوشكت آلفونسين أن تضربهما استياءً من هذا الطلب، ولكن لامبرت الذي سمع الكلام، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وأن تعطيهما ما يريدان، و«إلا فلن يدعانا هادئين»، فسرعان ما تناولت آلفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشابَّ الطويل بدون أي اشمئزاز. ومدَّ الطويل لها رقبته وهي تعقد له كرافته، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلَّم أمام الباب.

قال يسألها بغتةً:

ـ «مدموازيل آلفونسين، هل بعت البولونيا الذي كان عندك».

ـ «ما البولونيا هذا؟».

Twitter: @ketab_n

فانبرى القصير يشرح لها أن «البولونيا» كلب صغير.
ـ «هه! ما هذه الرطانة؟».
ـ «إنني أتكلم كما تتكلم سيدة روسية في مدينة من مدن المياه المعدنية».
بذلك أجابها «الطويل الأبله» وهو لا يزال ماداً رقبته. فقالت له:
ـ «ماذا، سيدة روسية في مدينة من مدن المياه المعدنية؟».
ثم أضافت تخاطب القصير وهي تلتفت إليه فجأة:
ـ «و... أين ساعتك الجميلة التي أعطاك إياها لامبرت؟».
فصاح لامبرت يقول من وراء الحاجز ساخطاً:
ـ ماذا؟ من دون ساعة مرةً أخرى؟
فدمدم «الأبله الطويل» قائلاً:
ـ أكلنا بثمنها!
وأضاف القصير يجيب لامبرت مبرراً عمله بدون حرارة:
ـ بعتها بثمانية روبلات. هي من فضة مذهبة، وليس ذهباً كما زعمت. أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلاً.
فتابع لامبرت كلامه بمزيد من السخط قائلاً:
ـ يجب أن يوضع حد لهذا. يا صديقي، إذا كنت أشتري لك ثياباً وأعطيك أشياء ثمينة، فإنني لا أفعل ذلك من أجل أن تبيعها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله... ما قصة هذه الكرافتة التي اشتريتها له أيضاً؟
ـ هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر. ولم أدفع ثمنها من مالك أنت. لم يكن عنده كرافتة، ولا يزال يحتاج إلى قبعة.

Twitter: @ketab_n

قال لامبرت وقد استعر غضبه في هذه المرة:

ـ كفى حماقات! لقد أعطيته ما يكفي لشراء قبعة أيضاً. ولكنه سرعان ما ينفق المال في أكل محار وشرب شمبانيا. إن رائحته عفنة. إنه قذر. لا يستطيع المرء أن يصطحبه إلى أي مكان. كيف أصطحبه إلى العشاء؟

جمجم «الطويل الأبله» يجيب قائلاً:

ـ في عربة! «إن معنا روبل فضة اقترضناه من صديقنا الجديد».

فصرخ لامبرت يقول:

ـ لا تعطهما شيئاً يا آركادي، لا تعطهما شيئاً البتة!

قال القصير فجأة وقد احمّر احمراراً شديداً فتضاعف جماله:

ـ إسمح لي يا لامبرت. إنني أطالبك بعشرة روبلات فوراً. ولا تقل سخافات كهذه التي قلتها الآن لدولجوروكي! أطالبك بعشرة روبلات، لأرد الروبل إلى دولجوروكي حالاً، ثم أشتري بالباقي قبعة لآندرييف، وسترى.

خرج لامبرت من وراء الحاجز، وقال:

ـ إليك ثلاث ورقات صفر، ثلاثة روبلات، ولن أعطي شيئاً آخر قبل يوم الثلاثاء القادم، ولا أحب أن أراكما قبل ذلك الموعد. وإلا . . .

انتزع «الطويل الأبله» من يديه الورقات الثلاث. فمدَّ روبلاً إلى دولجوروكي قائلاً له:

ـ «دولجوروكي، إليك روبلاً، نرده شاكرين أجزل الشكر».

ثم صاح يقول لرفيقه:

ـ هلمَّ بنا يا بييرو!

وفجأة رفع الورقتين الأخريين يلوِّح بهما في الهواء، وأنشد يقول

Twitter: @ketab_n

بأعلى صوته وهو ينظر إلى لامبرت وجهاً لوجه:

ـ «أوهيه لامبرت! أين لامبرت؟ هل رأيت لامبرت؟».

فزأر لامبرت ينهره بغضب رهيب:

ـ اسكت! أسكت!

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجهلها كل الجهل، فكنت أنظر إلى المشهد مدهوشاً. ولكن الطويل لم يترك فيه غضب لامبرت أي خوف. بالعكس: أخذ يزأر منشداً بصوت أعلى: «أوهيه لامبرت!» الخ.

وخرج الشابان وصارا في السلم، وركض لامبرت يلاحقهما، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه. وقال:

ـ لسوف أطردهما! سوف أطردهما قريباً! إنهما يكلفاني نفقات أكبر مما يعودان عليَّ به من أرباح. هلمَّ بنا يا آركادي! لقد تأخرت. ينتظرني هنالك شخص... شخص مفيد!

وهتف يقول مرة أخرى وهو يكز أسنانه:

ـ أوباش! سَفَلة!

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فجأة. وقال:

ـ يسعدني أنك جئت أخيراً. يا آلفونسين! لا يخطرن ببالك أن تخرجي! هلمَّ بنا يا آركادي!

أمام الباب، كانت تنتظره عربة فخمة. ركبنا العربة. ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح في تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة. وقد أدهشني أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجد الشديد، وأدهشني أن رأيتهما يعاملان لامبرت بغير احترام، حتى لقد كاد لامبرت يرتعد أمامهما. لقد كان يخيَّل إليَّ دائماً، بالاستناد إلى شعور قديم من مشاعر الطفولة، أن لامبرت شخص لا بد أن يخشاه جميع الناس،

Twitter: @ketab_n

حتى لقد كنت أنا نفسي، رغم كل ما أتصف به من استقلال، أشعر بخوف منه في تلك اللحظة قطعاً.

استمر لامبرت يعبِّر عن غضبه، فقال:

ـ أقول لك إنهما سافلان رهيبان. صدقني: إن هذا الطويل قد سامني سوء العذاب منذ ثلاثة أيام في مجتمع راق. وقف أمامي ينشد صائحاً: «أوهيه لامبرت». في مجتمع راق. وأخذ الناس جميعاً يضحكون. كانوا يعلمون أنه إنما يفعل ذلك لأعطيه مالاً. رأيت المشهد هنا بنفسك. وقد أذعنت فأعطيته. آه... إنهم أوغاد. كان تلميذ ضابط. فطردوه من المدرسة. تستطيع أن تتصور. وهو مثقف. نشأ في أسرة كريمة. في أسرة كريمة، صدقني. وله أفكار. كان في وسعه أن...! ذلك أنه قوي قوة هرقل. إنه يقدِّم بعض الخدمات الصغيرة، ولكن بغير همة وحماسة. وقد رأيت بعينك: إنّه لا يغسل يديه. ذات مرة أوصيت به سيدة من السيدات، سيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية، وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن ينتحر من شدة ما يلقى من عذاب الضمير. فذهب إليها، وجلس عندها، وطفق يصفر! أما الآخر، الفتى، فهو ابن جنرال. أسرته تخجل أن يكون ابنها. خلصته من المحكمة، أنقذته، فانظر كيف يكافئني! ليس ههنا رجل! ولكنني سأطردهما، سأشدهما من جلد الرقبة وأضعهما على الباب.

ـ إنهما يعرفان اسمي. فهل أنت الذي حدثتهما عني؟

ـ ارتكبت هذه الحماقة. في أثناء العشاء، سيطر على نفسك، أرجوك، ابق في مكانك. سيجيء إلى العشاء وغد آخر رهيب. ذاك سافلٌ فظيع، ماكر مكراً فظيعاً. ليس ههنا إلا سفلة على كل حال.

Twitter: @ketab_n

ما من رجل واحد شريف! ولكن سنتخلص منهم... ثم، ماذا تحب من طعام فاخر؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال. جميع وجبات العشاء طيبة. أنا الذي سأدفع، لا تهتم! من حسن الحظ أنك ترتدي ثياباً حسنة. أستطيع أن أعطيك مالاً. ليس عليك إلا أن تجيء وتطلب. تصور أنني أتخمتهما شراباً وطعاماً. في كل يوم فطائر. وتلك الساعة التي باعها هي الساعة الثانية. ذلك القصير تريشاتوف ـ رأيت كيف تشمئز آلفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها ـ ما إن يجد نفسه في مطعم، ومن حوله ضباط، حتى يأخذ يصرخ: «أريد حجلاً». فأطلب له حجلاً! لكنني سأنتقم.

ـ هل تذكر يا لامبرت... يوم ذهبنا معك إلى المطعم بموسكو، فطعنتني بشوكة في فخذي! كان معك خمسمائة روبل في ذلك اليوم!

ـ نعم، أذكر. طبعاً أذكر. إنني أحبك. صدقني. لا أحد يحبك. لكنني أنا أحبك. وحدي، تذكَّر هذا. إن الرجل الذي سيجيء إلى العشاء، الرجل المجدور، هو أمكر الأوغاد قاطبة. حذار منه. إذا كلمك فاصمت، وإذا أخذ يسألك فأجبه بسخافات، لا تقل شيئاً...

إن اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقي علي أسئلة أثناء الطريق. وقد جرح شعوري أن أراه واثقاً بي هذه الثقة كلها، وألا يخطر بباله أن يشكَّ فيَّ أي شك. إنه يتصور، استناداً إلى طواعيتي القديمة له، حين كنا في مدرسة توشار، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرني فأصدع بأمره. وقلت لنفسي ونحن ندخل المطعم: «هو فوق ذلك كله جاهل جهلاً فظيعاً، فلا أثر فيه لثقافة».

Twitter: @ketab_n

3

هذا المطعم، في شارع مورسكايا، كنت قد ترددت إليه في أيام سقوطي المخزي. . . فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الخدم الذين حيُّوني وعرفوا فيَّ واحداً من رواد المطعم؛ وأحسست بالغرابة في جو رفاق لامبرت، وفي جو هؤلاء الصحب الذين رأيتني بينهم على حين فجأة وكأنني واحد منهم؛ وخالجني توجس غامض بأنني مقبل على أمور قذرة وأنني سأنتهي في أغلب الظن إلى ارتكاب عمل سيىء، شعرت بطعنة تنفذ في قلبي دفعة واحدة، حتى هممت في لحظة من اللحظات أن أنصرف، ولكن تلك اللحظة مرت، وبقيت.

إن «المجدور» الذي يخشاه لامبرت تلك الخشية كلّها كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا. هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهماك غبي في العمل، والذين أكرههم كرهاً شديداً منذ أن كنت طفلاً. هو في نحو الخامسة والأربعين من العمر، متوسط القامة، أشيب الشعر قليلاً، أمرد الوجه إلى حد الفحش، مع عارضين شائبين مقصوصين حلقاً، كأنهما نقانق على خدين في وجه مسطح كريه. وهو طبعاً مضجر، شديد الرصانة، صموت، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر. وقد تفرس فيَّ بانتباه، ولكن من دون أن ينطق بكلمة. وشاءت خراقة لامبرت وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرِّف أحدنا بالآخر. فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدَّني واحداً من أولئك المبتزين الذين يرافقون لامبرت. وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً، فلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة واحدة طول مدة العشاء، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة وثيقة. لم يكلم إلا لامبرت، بل لم يكلمه إلا بما يشبه أن يكون

Twitter: @ketab_n

همساً. وكان لامبرت يكاد ينفرد بالكلام على كل حال. أما المجدور فكان يكتفي بإجابات مقتضبه وكلمات غاضبة مستفزة. كان هو متغطرساً متعجرفاً، وكان لاذعاً وساخراً، أما لامبرت فلم يكن كذلك، فقد كان يبدو شديد الاهتياج، وكان كأنه يستحثه على أمر من الأمور لا شك أنه الاشتراك في مشروع من المشروعات. وقد مددت يدي إلى قارورة النبيذ مرة، فإذا بالمجدور يتناول زجاجة من خمر الخريز، فيمدها إليَّ. لم يكن قد خاطبني قبل ذلك أبداً. وها هو ذا يقول لي الآن:

ـ جرِّب هذا!

فحزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عني كل شيء، اسمي وتاريخي، وربما الخطط التي يعوِّل لامبرت في تنفيذها عليَّ. فلما تصورت أنه يعدّني مستخدماً عند لامبرت، استعر حنقي مرة أخرى؛ ومنذ أن كلمني هذا الرجل المجدور، قرأت في وجه لامبرت قلقاً شديداً فيه كثير من الحماقة. ولاحظ المجدور نفسه ذلك، فانفجر يضحك. قلت لنفسي: «لا شك أن لامبرت مستعبد لهم جميعاً»، وكرهته عندئذ بكل قلبي. هكذا انقسمنا قسمين، رغم أننا نجلس إلى مائدة واحدة: قسماً مكوَّناً من المجدور ولامبرت جلسا بقرب النافذة متقابلين، وقسماً هو أنا والطويل الوسخ آندرييف بجانبي وتريشاتوف أمامي. وكان لامبرت يستعجل انتهاء العشاء فهو ما ينفك يستحث الخادم. حتى إذا جيء بالشمبانيا، قطع حديثه مع المجدور، ومدَّ كأسه نحوي قائلاً:

ـ نخبك. فلندقّ الأقداح!

فعقَّب تريشاتوف اللطيف قائلاً وهو يمد نحوي قدحه من فوق المائدة:

Twitter: @ketab_n

ـ اسمح لي أنا أيضاً أن أدق قدحي بقدحك.

وكان تريشاتوف، إلى حين وصول الشمبانيا، واجماً صامتاً. أما «الأبله» فكان لا يقول شيئاً البتة، وإنما هو يأكل ساكتاً ويأكل كثيراً.

أجبت تريشاتوف بقولي:

ـ يسرني هذا!

ودققنا القدحين وشربنا. فقال «الأبله» فجأةً وهو يلتفت إليَّ:

ـ أما أنا فلن أشرب نخب صحتك، لا لأنني أتمنى لك الموت، بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم.

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة. وتابع يقول:

ـ أنت تكفيك ثلاثة أقداح!

ثم أردف وهو يضع قبضة يده على المائدة:

ـ أرى أنك تنظر إلى قبضة يدي الوسخة. إنني لا أغسلها، بل أؤجرها على حالتها هذه غير مغسولة، أؤجرها للامبرت، لكسر رؤوس الآخرين في القضايا التي تفتح شهيته.

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت. وكان في القاعة أربع موائد أخرى قد جلس إليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين. إنه مطعم من المطاعم الشهيرة. فإذا بجميع المحادثات تنقطع، وإذا بجميع الأنظار تتجه إلى الركن الذي نحن فيه. وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على كل حال. اصطبغ وجه لامبرت بحمرة شديدة. وقال بهمس حانق يخاطب آندرييف:

ـ آ. . . ها هو ذا يستأنف أظن يا نيقولا سيمنوفتش أنني رجوتك أن تسيطر على نفسك.

Twitter: @ketab_n

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطيئة وقال:

ـ لا أريد لصديقي الجديد «دولجوروفكي» أن يسرف اليوم في شرب الخمر.

ازداد احمرار لامبرت. وكان المجدور يصيخ بسمعه صامتاً، ولكن كان واضحاً أنه راض مغتبط. لقد أعجبته ثورة آندرييف. أنا وحدي لم أدرك لماذا كان يجب عليَّ ألا أشرب.

قال لامبرت وهو يكز أسنانه:

ـ إنه لا يفعل هذا إلا ليأخذ مالاً. سأعطيك سبعة روبلات. هل تسمع؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء. ولكن دعنا نفرغ. لا تخزنا.

فزأر «الأبله» منتصراً:

ـ آ. . . آ. . .

وابتهج المجدور قطعاً، فها هو ذا يضحك.

وقال تريشاتوف لصديقه بقلق، بل بما يشبه الألم، راغباً في صدِّه طبعاً:

ـ اسمع، إنك تسرف!

فصمت آندرييف، ولكن صمته لم يطل، فإن ما فعله لم يشف غليله. كان يتعشى على مائدة ثانية تبعد عنا خمس خطوات سيدان منهمكان في حديث حار. إنهما سيدان متقدمان في السن، يبدو عليهما أنهما حساسان سريعا التأذي. أحدهما طويل سمين جداً، والثاني سمين أيضاً لكنه قصير. كان الرجلان يتكلمان باللغة البولندية عن الأحداث الأخيرة التي وقعت بباريس. وكان «الأبله» ينظر إليهما منذ مدة طويلة باستطلاع وفضول، ويصيخ بسمعه إلى حديثهما. وأغلب الظن أن البولندي القصير قد بدا له رجلاً سخيفاً مضحكاً،

Twitter: @ketab_n

فسرعان ما أبغضه، شأنه في ذلك شأن جميع الأشخاص الصفراويين المصابين بمرض في الكبد، الذين يحدث لهم هذا بغتةً بدون أي سبب. واتفق أن نطق البولندي القصير فجأةً باسم النائب ماديه دومونجو، لكنه نطق الاسم بلكنة بولندية على عادة كثير من البولنديين، أي أنه شدَّد المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم، فجاء نطق الاسم هكذا: مآديه دو موونجو. ولم يكن «الأبله» في حاجة إلى أكثر من ذلك، فها هو ذا يلتفت إلى البولنديين، ثم ينتصب بوقار، ويقول بصوت عال واضح وكأنه يلقي سؤالاً:

ـ مآديه دو موونجو؟

فالتفت البولندیان حانقين. وسأله البولندي الطويل السمين مهدداً:

ـ ماذا تريد؟

وكان «الأبله» ينتظر هذه اللحظة. فكرَّر سؤاله بصوت عال جداً ليسمعه كل من بالصالة:

ـ مآديه دو موونجو؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الإيضاح، تماماً كما فعل معي من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لي وهو يتقدم مني: «دولجوروفكي؟» فانتفض البولندیان. ونهض لامبرت وهمَّ أن يهجم على آندرييف، لكنه سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات.

فأخذ البولندي القصير يقول باحتقار وقد احمَّر احمراراً شديداً حتى صار لون وجهه كلون جزرة:

ـ هؤلاء مهرِّجون، يا سيد، هؤلاء مهرِّجون. قريباً سيستحيل على المرء أن يجيء إلى هنا.

Twitter: @ketab_n

واضطربت الصالة كلها، وسُمعت من كل مكان دمدمات تذمر، ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات.

تمتم لامبرت يقول وقد طاش صوابه، محاولاً أن يدفع آندرييف إلى خارج الصالة:

ـ اخرج، أرجوك...

فوافق آندرييف على الخروج بعد أن ألقى على لامبرت نظرة فاحصة فأدرك أنه سيعطيه مالاً. لا شك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منه مالاً بهذا الأسلوب. وأراد تريشاتوف أن يركض وراءهما، ولكنه نظر إليَّ وتوقف. ثم قال وهو يخفي عينيه بأصابعه اللطيفة الناعمة:

ـ آه... شيء كريه!

فقال المجدور هامساً وقد ظهر الاستياء في وجهه هذه المرة:

ـ كريه فعلاً!

ورجع لامبرت في أثناء ذلك مصفرَّ الوجه، وهمس في أذن المجدور بعض الكلام محركاً يديه بإشارات عنيفة! وكان المجدور قد أمر أن يؤتى بالقهوة حالاً. وقد أصغى إلى لامبرت باحتقار. وكان واضحاً أنه يود الانصراف. ولم تكن القضية كلها مع ذلك إلا عبثاً صبيانياً. وحمل تريشاتوف فنجان قهوته وجاء يجلس بجانبي. وأخذ يتكلم بهيئة صريحة كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً.

ـ إنني أحبه كثيراً، آندرييف هذا. لا تستطيع أن تتصور مدى تعاسته. لقد بدَّد مهر أخته في الشراب والطعام، بل بدَّد في الطعام والشراب كل ما يملكه أهله، وذلك في أثناء خدمته العسكرية. وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً. إذا كان لا يغتسل فإنما مرد ذلك إلى الكمد واليأس. تراوده أفكار جنونية: يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجلاً شريفاً، فلا فرق

Twitter: @ketab_n

بين الأمرين. يجب على المرء ألا يفعل شيئاً، لا خيراً ولا شراً. في وسع المرء أن يفعل الخير وأن يفعل الشر، فكلاهما سواء. ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه، وإنما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر. ولكن صدِّق أن هذا الكلام كله إنما يقوله بغير جد. بل إني لأعتقد أن ما فعله اليوم إنما فعله لينتهي من لامبرت ويقطع صلته به قطعاً تاماً. بالأمس كان يحدثني في هذا. هل تصدِّق أنه في الليل، أو حين يخلو إلى نفسه مدة طويلة، يأخذ يبكي. وهو إذا بكى فإنما يبكي كما لا يبكي إنسان آخر غيره. إنه يعول عويلاً رهيباً، وهذا أبعث على الشفقة. تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة، ثم هو يبكي معولاً! إنه بائس، أليس كذلك؟ أريد أن أنقذه، ولكنني أنا نفسي شخص حقير، فتى ضائع، لعلك لا تصدق! هل تسمح لي بالدخول يا دولجوروكي إذا أنا جئت أزورك أحياناً؟

ـ طبعاً! أنا أحبك كثيراً.

ـ لماذا تحبني؟ شكراً على كل حال! اسمع. فلنشرب كأساً أخرى. ماذا أقول؟ لا، لا تشرب! لقد صدقك القول: يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة.

قال ذلك وهو يلقي علي نظرة معبرة. وأردف يقول:

ـ أما أنا فسأشرب مع ذلك. أصبح الشراب لا يؤثّر فيّ، وأصبحت لا أستطيع أن أمنع نفسي عن شيء. انصحني اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء في المطاعم، تجدني في الغد مستعداً لكل شيء في سبيل أن أتعشى في المطاعم. أؤكد لك أننا نود، مخلصين، أن نصبح شرفاء، ولكننا نرجىء ذلك دائماً إلى الغد. وما ينفك الغد يتراجع.

Twitter: @ketab_n

وتمضي السنون تليها السنون ويغني ربيع القمر

ولكنني أخاف عليه هو. سوف يشنق نفسه. سوف يمضي يشنق نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً. هذه طبيعته. ما أكثر الذين يشنقون أنفسهم في هذه الأيام! من يدري؟ لعل أمثالنا كُثُر. أنا مثلاً لا أستطيع أبداً أن أحيا بدون أن يكون معي فضل من المال. أنا أحوج إلى المال الزائد مني إلى المال اللازم. اسمع، هل تحب الموسيقى؟ أنا أحبها حباً جنونياً. سأعزف لك شيئاً حين أجيء إليك. إنني أجيد العزف على البيانو إجادة كبيرة. درست العزف زمناً طويلاً. دراسة جادة. لو أتيح لي أن أؤلف أوبرا لاخترت موضوع «فاوست». إنني أحب هذا الموضوع كثيراً. فتراني دائماً أبني بخيالي مشهداً في كاتدرائية: أتصور كاتدرائية قوطية، وأتصور جوقات المغنين والأناشيد. وتدخل جرتشن. الجوقات من القرون الوسطى، حتى يشعر المرء بجو القرن الخامس عشر. جرتشن حزينة مكتئبة، في البداية تُسمع تلاوة منغمة، بصوت جهير، لكنه صوت رهيب، معذِّب. ثم يدوي صوت الجوقات بغناء قاتم، قاس، غير مكترث:

هذا يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يغني الشيطان. إنه لا يرى، ولكن يُسمع صوته، إلى جانب الأناشيد، ينطبق عليها تقريباً، ولكنه مختلف عنها كل الاختلاف. ذلك ما يجب التوصل إليه. وغناء الشيطان طويل، لا يتعب، وهو تينور، تينور حتماً. يكون في البداية رقيقاً، رقيقاً: «هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريئة، أيام كنت لا تزالين طفلة، كيف كنت تجيئين مع أمك إلى هذه الكاتدرائية وتتمتمين بصلوات تقرأينها بصوت عميق؟». ولكن

Twitter: @ketab_n

الغناء يقوى ثم يقوى، وما ينفك يزداد حرارة واندفاعاً. أصبحت النغمات أعلى: يحس فيها السامع دموعاً، يحس فيها ضجراً، ضجراً لا ينتهي، لا مخرج منه، ثم يأتي اليأس: «لا غفران يا جرتشن، لا غفران لك هنا!». وتريد جرتشن أن تصلّي وتدعو، ولكن من صدرها لا تخرج إلا صرخات ـ أتعرف هذا النوع من الصرخات؟ الصرخات التي تنطلق كتشنجات من صدر أترع دموعاً. ويظل الشيطان يغني. إنه لا يصمت، ويظل ينفذ في النفس إلى أعماق أبعد، ثم إذا هو، على حين فجأة، ينقطع مرة واحدة بهذه الصرخة: «انتهى كل شيء، انصبت عليك اللعنة!». وتتهاوى جرتشن على الأرض راكعة، ضامةً يديها أمامها. وتنطلق عندئذ صلاتها، صلاة قصيرة جداً، هي قراءة منغَّمة، ولكنها ساذجة، لا يُصطنع فيها فن، هي تلاوة تترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية. أربعة أبيات، أربعة أبيات فقط ـ عند ستراديلا نغمات كهذه! ـ ثم الإغماء، بعد آخر نغمة! ويحدث هرج ومرج. وتُرفع جرتشن، وتنقل. فإذا بالجوقة يُرعد غناؤها فجأة. لكأنّها صاعقة تنزل. غناء فيه إلهام، غناء ظافر، ساحق، شيء من نوع نشيدنا، نشيد الملائكة الصغار. يهتز كل شيء حتى أساسه، ويفضي كل شيء إلى تسبيحة «المجد لله!». لكأنه صراخ الكون كله، بينما هي تُحمل وتُنقل. تُنقل جرتشن، وتسدل الستارة. حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما. ولكنني أصبحت لا أصلح لشيء. فإنما أنا أكتفي بأن أحلم. أحلم بهذا طول الوقت. أحلم. حياتي كلها ليست الآن إلا حلماً. وفي الليل أحلم أيضاً. آه! دولجوروكي، هل قرأت كتاب ديكنز «مخزن العاديات»؟.

ـ نعم قرأته، فماذا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا شك أنك تتذكر. . . انتظر. سأفرغ كأساً أخرى. لا شك أنك تتذكر ذلك الجزء من أواخر القصة. . . الذي نراهما فيه، ذلك الشيخ المجنون وتلك البنيّة الصغيرة، حفيدته، التي عمرها ثلاث عشرة سنة، نراهما، بعد هروبهما العجيب وتجوالهما الطويل، يجدان ملجأ يأويان إليه بمكان في أقاصي إنجلترا، قرب كاتدرائية قوطية قديمة، وترى البنت الصغيرة تحصل هناك على وظيفة دليل ويُرى الزائرين الكاتدرائية، ففي ذات يوم تغرب الشمس، فإذا بالطفلة، الواقفة في فناء الكاتدرائية، وقد غمرتها أواخر أشعة النهار، إذا بها تنظر إلى الشمس الغاربة وقد امتلأت نفسها، نفس الطفلة، نفسها المدهوشة، امتلأت تأملاً هادئاً وتفكراً عميقاً، كأنما هي تقف أمام لغز من الألغاز، لأن الشيئين كليهما، الشمس التي هي فكر الله، والكاتدرائية التي هي فكر البشر، إنما هما لغزان حقاً؟. . . أليس هذا صحيحاً؟ آه. . . إنني لا أجيد التعبير. ولكن الرب يحب هذه الخواطر الأولى التي تملأ نفوس الأطفال. وهناك، على مقربة منها، فوق الدرجات، كان ذلك الشيخ المجنون، جدُّها، يتأملها بنظرة جامدة. صحيح أن هذا كله ليس فيه شيء خارق، هذا المشهد الذي رسمه ديكنز، ولكن المرء لا يمكن أن ينساه أبداً. وقد بقي في أوروبا كلها. لماذا؟ لأن هذا هو الجمال. لأن في هذا براءة. آه. . . أنا لا أدري ما الذي يشتمل عليه هذا، ولكنني أحس فيه جمالاً. كنت في المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات. إن لي أختاً في الريف، تكبرني بسنة واحدة. . . الآن بيع كل شيء هناك، ولم يبق لنا أملاك! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم، نقرأ هذه الرواية، تحت أشجار الزيزفون في دارنا، وكانت الشمس تغرب أيضاً، فإذا نحن ننقطع عن

Twitter: @ketab_n

القراءة، ويقول كل منا للآخر: نحن أيضاً سنكون خيِّرين، سنكون جميلين... كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة. إن لكل إنسان ذكرياته يا دولجوروكي...

وفجأة مال برأسه الجميل على كتفي، وطفق يذرف دموعاً غزيرة. فأشفقت عليه، أشفقت عليه كثيراً. صحيح أنه كان قد شرب كثيراً، ولكنه كان يكلمني بصدق كبير، وأخوة خالصة، وعاطفة طاهرة.

وفي تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة، وسمعنا قرعات قوية على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج، وكانت كبيرة، وكانت في الطابق الأرضي، فيستطيع المرء أن يبلغها من الشارع). إنه آندرييف الذي طُرد.

- «أوهيه لامبرت! أين لامبرت؟ هل رأيت لامبرت؟».

داهمتنا هذه الصرخة من الشارع. فهتف الفتى وهو يثب عن مكانه مندفعاً:

- لا يزال هنا إذن! إنه إذن لم ينصرف!

وصاح لامبرت يقول للخادم:

- الحساب!

وكانت يداه ترتجفان غضباً وهو يدفع الحساب. ولكن المجدور لم يسمح له بأن يدفع عنه.

- لماذا؟ أنا الذي دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة.

- لا، اسمح لي.

وأخرج المجدور محفظة نقوده، ودفع حصته بعد أن حسب ما عليه. قال له لامبرت:

- إنك تهينني يا سيمون سيدوروفتش!

- هذا ما أريده.

Twitter: @ketab_n

بذلك أجاب سيمون سيدوروفتش. وتناول قبعته، وخرج من الصالة وحده دون أن يودع أحداً. فقذف لامبرت باقي الحساب للخادم وأسرع يركض وراء المجدور، حتى لقد نسيني من شدة اضطرابه. وخرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج. كان آندرييف متسمراً أمام الباب، كنصب، ينتظر تريشانوف.

قال له لامبرت الذي أصبح لا يستطيع كظم غيظه:

- سافل!

فإذا بآندرييف يزأر صائحاً:

- هيه!

ثم إذا هو يقلب له قبعته بقفا يده، فتسقط القبعة على الرصيف. ويسرع لامبرت إلى التقاطها بمذلة.

- «خمسة وعشرون روبلاً».

كذلك قال آندرييف لتريشانوف وهو يريه الورقة النقدية التي استطاع أن ينتزعها من لامبرت. فصرخ تريشانوف قائلاً له:

- كفى! لماذا الجرسة دائماً؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين روبلاً؟ إنه لا يدين لك إلا بسبعة روبلات.

- لماذا؟ لأنه وعدنا بأن نتعشى وحدنا مع نساء، فإذا هو يعشينا مع هذا المجدور بدلاً من النساء. هذا عدا أنني لم أفرغ من طعامي، وقد تجمدت من البرد على الرصيف بما يساوي ثمانية عشر روبلاً، فيكون المجموع خمسة وعشرين.

زأر لامبرت يقول:

- شيطان يأخذكما! إنني أطردكما كليكما ولسوف أريكما...

فصرخ آندرييف قائلاً:

- لامبرت، أنا الذي أطردك، وأنا الذي سوف أريك!...

Twitter: @ketab_n

«الوداع يا أميري»! لا تزد على ما شربت. هلمَّ يا بييرو! إلى الأمام، سر! «أوهيه لامبرت! أين لامبرت؟ هل رأيت لامبرت؟»

كذلك ردَّد مرة أخيرة وهو يبتعد بخطى عملاق!.

تمتم تريشانوف يقول لي بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه:

ـ إذن سأجيء إليك، هل تسمح؟

وبقيت وحدي مع لامبرت. قال وهو لا يكاد يستطيع أن يسترد أنفاسه، وكأنه فقد صوابه:

ـ هيَّا بنا!

فأسرعت أصيح قائلاً له بلهجة متحدية مستفزة:

ـ إلى أين؟ لا، لن أصحبك إلى أي مكان!

فسألني قلقاً وقد ثاب إلى نفسه فجأة:

ـ كيف هذا؟ إنني لم أكن أنتظر إلا أن نبقى وحدنا.

ـ إلى أين؟

يجب أن أعترف بأن رأسي كان يدور قليلاً بعد أن شربت ثلاث أقداح من الشمبانيا، وكأسين من خمرة الخريز.

ـ إلى هنا، إلى هنا، هل ترى؟

ـ ولكن في هذا المحل محاراً طازجاً كما ترى. مكتوب ذلك. فالرائحة إذن كريهة.

ـ هذا ما نحتاجه بعد العشاء. إنه محل ميليوتين. المحار لن نأكله. ولكنني سأقدم لك الشمبانيا.

ـ مستحيل. أنت تريد أن تُسكرني.

ـ هما اللذان قالا لك هذا. ضحكا عليك. أتصدق هذين الوغدين؟

ـ لا، ليس تريشانوف وغداً. ثم إنني أعرف بنفسي كيف أكون حذراً.

Twitter: @ketab_n

ـ لك إذن إرادة قوية؟

ـ نعم، لي إرادة قوية، أقوى من إرادتك على الأقل، فأنت يستعبدك أول قادم! لقد جللتنا بالعار. مضيت تعتذر لذينك البولنديين ذليلاً كخادم. لا بد أنك كثيراً ما ضربت في المطاعم.

صاح يقول باحتقار وقد نفد صبره نفاداً معناه: «وأنت أيضاً؟».

ـ ولكن بيننا كلام يا غبي! أتراك خائفاً؟ أأنت صديقي أم لا؟

ـ لست صديقك، ما أنت إلا سافل دنيء. على كل حال، هيَّا بنا! أريد أن أبرهن لك على أنني لست خائفاً منك. هوه! ما أبشع هذه الرائحة! رائحة جبن عفن! أي قذارة!

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

1

أحبّ أن أذكِّر مرةً أخرى بأن رأسي كان يدور قليلاً. وإلا لكنت تصرفت وتكلمت على غير هذا النحو.

في قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محار فعلاً. وقد جلسنا إلى مائدة عليها غطاء وسخ. وأمر لامبرت بشامبانيا. فإذا أمامي قدح مملوءة بخمرة باردة لونها كلون الذهب، تنظر إليَّ وتغريني بنفسها. لكنني كنت مستاءً مهموماً.

ـ هل تعلم يا لامبرت ما الذي يسوءني منك خاصة؟ أنك تتصور نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرني فأطيع، كما كان الحال في مدرسة توشار، مع أنك أنت المستعبد لهم جميعاً هنا!

ـ غبي! هيَّا! لندق الأقداح!

ـ لا تريد حتى أن تجبر نفسك على شيء. ليتك تحاول على الأقل أن تخفي عني أنك تريد أن تسكرني!

ـ إنك تقول سخافات، وإنك لسكران. يجب أن تشرب المزيد فتصبح أكثر مرحاً. هيَّا تناول قدحك. ما بالك لا تتناول قدحك؟

ـ أتناول قدحي؟ أنا منصرف. ذلك كل ما ستحصل عليه مني!

وهممت أن أنصرف فعلاً. ولكن ها هو ذا يغضب غضباً شديداً:

Twitter: @ketab_n

ـ إن تريشانوف هو الذي أثارك عليَّ: رأيتكما، كنتما تتهامسان. ما أنت إلا غبي. إن آلفونسين تشمئز منه إذا هو اقترب منها... إنه مقزز. سأحكي لك عنه فتعرف ما قيمته!

ـ سبق أن حكيت لي. ليس في فمك إلا اسم آلفونسين! إنك لمحدود العقل حقاً!

ـ محدود؟

وأردف يقول:

ـ ها هما الآن مع المجدور. ذلك هو السبب في أنني طردتهما. إن هذا المجدور رجل دنيء. سوف يفسدهما. أما أنا فكنت أطالبهما بأن يلتزما الشرف والنبل في سلوكهما دائماً.

جلست، وتناولت القدح بغير شعور، وجرعت جرعة. قلت له:

ـ أنا بثقافتي أعلى منك كثيراً!

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأنني عدت أجلس. وسرعان ما ملأ لي القدح مرة أخرى. تابعت كلامي لأغيظه (ولا شك أنني كنت عندئذ أبعث منه على الاشمئزاز)، فقلت:

ـ ولكنك خائف منهما، أليس كذلك؟ أسقط آندرييف قبعتك عن رأسك، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً.

ـ نعم، ولكنه سينال عقابه. إنهما يتمردان، ولكنني سأعرف كيف أقتصّ...

ـ والمجدور يعذبك. أظن أنك لم يبق لك أحد غيري. فجميع آمالك معقودة عليَّ أنا الآن، هه؟

ـ نعم يا عزيزي آركادي. هذا صحيح جداً: لم يبق لي صديق غيرك. صدقت!

قال ذلك وربت على كتفي.

Twitter: @ketab_n

ما العمل برجل يبلغ هذا المبلغ من الغباء! إنه بعقله المحدود يحسب السخرية مديحاً.

تابع كلامه وهو ينظر إليَّ برقة وعاطفة:

ـ في وسعك أن تجنبني كثيراً من المنغصات، وأن تخلصني من ورطة إذا كنت رفيقاً مخلصاً يا آركادي!

ـ كيف ذلك؟

ـ أنت تعرف. ما لم أساعدك فستظل غبياً طول حياتك، لكنني أستطيع أن أهيىء ثلاثين ألف روبل نقتسمها نصفين، نصفاً لك ونصفاً لي. انظر ماذا أنت الآن: إنك لا تملك شيئاً، لا اسماً ولا أسرة. فإذا قبلت ما أعرضه عليك صرت غنياً في طرفة عين. وبثروة كهذه الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً...

ذهلت من هذا الأسلوب. كنت أتصور أنه سيعمد إلى المكر والحيلة، ثم ها هو ذا يمضي إلى الهدف رأساً فيكلمني بلا لف ولا دوران كما يكلِّم صبي صغير. قررت أن أصغي إليه، من باب رحابة الفكر... وبتأثير الفضول الشديد أيضاً!

قلت له بلهجة ثابتة صارمة:

ـ اسمع يا لامبرت، قد لا تفهم ما سأقوله لك، لكنني سأقوله: إنني أقبل أن أصغي إلى كلامك لأنني منفتح ومتسامح.

وجرعت جرعة أخرى، فسرعان ما عاد لامبرت يملأ الكأس. وقال:

ـ اسمع يا آركادي: لو أن رجلاً مثل بيورنج قد أباح لنفسه أن يشتمني وأن يضربني بحضور سيدة أعبدها، لما عرفت ماذا كان يمكن أن أفعل! أما أنت فقد تحملت. ولذلك أحتقرك: ما أنت إلا خرقة بالية!

Twitter: @ketab_n

فهتفت أقول وقد اصطبغ وجهي بحمرة شديدة:

ـ تجرؤ أن تقول أن بيورنج ضربني؟ أنا الذي ضربته، وليس هو الذي ضربني!

ـ بل هو الذي ضربك ولست أنت الذي ضربته!

ـ كذاب! حتى إنني دست على قدمه!

ـ لكنه دفعك عنه بيده وأمر الخدم أن يقتادوك... وكانت هي في العربة تنظر إليك وتضحك عليك! هي تعلم أنك ليس لك أب، وأنك تبلع كل إهانة!

ـ يخيَّل إليَّ يا لامبرت أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة. وإنني لأشعر عنك بخزي وعار. أنت تقول هذا كله لتستثيرني، وتقوله بغلظة شديدة وفظاظة صريحة... أتراك تحسبني صبياً في السادسة عشرة من عمري؟

ثم هتفت أقول وأنا أرتعش غضباً وأشرب كأسي جرعات بغير شعور:

ـ إنك تفاهمت مع آنا آندرييفنا!

ـ آنا آندرييفنا وغدة ماكرة، ستضحك علينا أنا وأنت والعالم بأسره! وأنا إنما انتظرتك لأنك تستطيع أن تتفق مع الأخرى.

ـ من الأخرى؟

ـ السيدة آخماكوفا. إنني أعرف كل شيء. أنت نفسك قلت لي إنها تخشى الرسالة التي في حوزتك...

ـ أية رسالة؟... أنت كذاب!

وتمتمت أقول مضطرباً أشد الاضطراب:

ـ هل رأيتها؟

ـ رأيتها. جميلة، «جميلة جداً». إن لك ذوقاً رفيعاً!

Twitter: @ketab_n

ـ أعرف أنك رأيتها. ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها. ولا أريد أن تتكلم عنها.

ـ إنك ما زلت فتى غراً، وهي تضحك عليك وتسخر منك لا أكثر. عرفنا فاضلة من هذا النوع بموسكو. ما كان أشد شموخها بأنفها! ولكن ما أن هُدِّدت بفضح كل شيء حتى أخذت ترتجف، وسرعان ما أصبحت طيِّعة! فنلنا منها كل ما أردنا: المال وغير المال. هل تفهم؟ لقد عادت الآن إلى المجتمع، وأصبح الوصول إليها مستحيلاً، وصارت تحلِّق عالياً. ما أفخم العربة التي تركبها! ليتك رأيت الماخور الذي تمَّ فيه هذا كله! إنك لم تعش بعد. ليتك تعرف المواخير التي لا يخشين فيها أن...

تمتمت أقول بغير إرادة:

ـ خطر ببالي هذا!

ـ إنهن فاسقات حتى نخاع العظام! إنك لا تعرف كيف لا يتورعن عن شيء! لقد عاشت آلفونسين في بيت من تلك البيوت، فما كان أشد اشمئزازها!

فقلت أؤيده مرةً أخرى:

ـ فكرت في هذا!

ـ أتضرب ثم تأخذك شفقة؟...

فأدركت قصده على الفور، فصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً:

ـ لامبرت، أنت وغد، أنت سافل لئيم! لقد رأيت هذا كله في المنام. حلمت بك جالساً بجانب آنا آندرييفنا... آه... إنك سافل دنيء! أكنت تحسبني حقيراً إلى هذا الحد؟ لقد رأيت هذا في المنام لأنني كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثني هذا

Twitter: @ketab_n

الحديث. ثم إن الأمور ليست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثني عنها بمثل هذه الصراحة، وبمثل هذه البساطة!

ـ أرأيت؟ ها هو ذا يغضب! هيء هيء هيء...

أخذ لامبرت يضحك منتصراً. وتابع كلامه فقال:

ـ اسمع يا عزيزي آركادي. عرفت الآن ما أنا في حاجة إليه. لهذا إنما كنت أنتظرك، استمع إلى ما أقول: أنت تحبها، وتريد أن تنتقم من بيورنج. هذا ما كنت أريد أن أعرفه. ولقد كنت أقدِّره أثناء هذا الانتظار. «إذا كان الأمر كذلك، فقد تغيرت المسألة» (وردت بالفرنسية). وفي هذا خير. ذلك أنها تحبك هي أيضاً. فتزوجها بلا إبطاء. هذا خير ما تفعل. ثم إنك لا تستطيع أن تفعل غير هذا. لقد اخترت أفضل حل. ثم اعلم يا آركادي أن لك صديقاً. أنا الصديق الذي تستطيع أن تفعل به ما تشاء. إن هذا الصديق سيساعدك وسيزوجك. سأجد كل شيء. سأمضي أبحث تحت الأرض عن كل ما تحتاجه، يا عزيزي آركادي. وفي مقابل ذلك تعطي رفيقك القديم ثلاثين ألف روبل أجراً على ما بذل من جهد، هه؟ سأساعدك. لا تقلق. أنا في مثل هذه الأمور أعرف جميع المداخل والمخارج... ستنال المهر كله، فإذا أنت غني، وإذا باب المستقبل اللامع ينفتح أمامك.

كان رأسي يدور. ولكن هذا لا ينفي أنني كنت أنظر إلى لامبرت مدهوشاً. لقد كان جاداً فيما يقول، أو قل إنني كنت أرى رؤية واضحة أنه كان يصدِّق هو نفسه أن في إمكانه أن يزوجني، بل إنه يتبنى هذه الفكرة بحماسة. وكنت أدرك كذلك طبعاً أنه يستدرجني إلى فخ كأنني طفل صغير (لا شك أنني قد أدركت هذا منذ ذلك الحين). ولكن فكرة هذا الزواج كانت بلغت من قوة النفاذ إلى

Twitter: @ketab_n

كياني كله أنني رغم اندهاشي من أن يستطيع لامبرت تصديق هذا الخيال، قد اندفعت أنا نفسي إلى تصديقه تصديقاً لا سبيل إلى مقاومته، دون أن أفقد، خلال لحظة واحدة، شعوري بأن هذا أمر لا يمكن تحقيقه طبعاً. لا أدري كيف أمكن أن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة في نفسي معاً.

تمتمت أسأله:

ـ ولكن هل هذا ممكن؟

ـ لم لا؟ تريها الوثيقة فتخاف فتتزوجك حتى لا تضيِّع الميراث.

قررت ألا أصدَّ لامبرت عن المضي في هذه الحقارات، لأنه كان يعرضها أمامي بسذاجة كبيرة، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يثور عليه حنقي فجأة. ومع ذلك دمدمت أقول له إنني لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها:

ـ مستحيل، لن أتزوج عنوةً. كيف يدور في خلدك أن أكون من الخسة بحيث لا أتورع عن هذا؟

ـ هوه! ولكنها ستجيء إليك من تلقاء نفسها، لا أنت بل هي. ستخاف فتتزوجك!

ثم استدرك يقول:

ـ ثم إنها ستتزوجك لأنها تحبك.

ـ كذاب. أنت تسخر مني. كيف عرفت أنها تحبني؟

ـ أعرف هذا طبعاً. آنا آندرييفنا تفترضه أيضاً. إنني جاد فيما أقول. إنني أقول الحقيقة: آنا آندرييفنا تتصور هذا. سأحكي لك شيئاً آخر حين تجيء إليَّ، فترى أنها تحبك. لقد ذهبت آلفونسين إلى تسارسكويا. وحصلت هي أيضاً على معلومات...

ـ ماذا استطاعت أن تعلم هناك؟

Twitter: @ketab_n

ـ لنذهب إلى البيت: ستحكي لك هي نفسها، فيكون ذلك أمتع لك وأحلى. ثم هل أنت أقلُّ من غيرك؟ إنك جميل، ومتعلم...

دمدمت أقول:

ـ نعم، متعلم...

كنت أتنفس بمشقة، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد يتحطم، ولم تكن الخمرة هي السبب الوحيد طبعاً...

ـ أنت جميل وأنيق.

ـ نعم أنيق.

ـ وطيب...

ـ نعم طيب...

ـ فكيف لا ترضاك إذن زوجاً؟ إن بيورنج لن يتزوجها بدون أن يكون لها مال، وأنت تستطيع أن تحرمها من مالها، فتخاف فتتزوجك. وإذا تزوجتها فقد انتقمت من بيورنج. لقد قلت لي في تلك الليلة، حين كنت متجمداً من البرد، إنها تحبك.

ـ أنا قلت لك هذا؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً!

ـ بلى بلى. قلت هذا الكلام بعينه.

ـ قلته أثناء الهذيان. ولا بد أنني حدثتك إذن عن الوثيقة؟

ـ نعم، ذكرت أن تلك الرسالة هي في حوزتك. فتساءلت أنا: إذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر؟ كيف يضيِّع وقته؟

تمتمت أقول:

ـ أضغاث أحلام. لست من الحماقة بحيث أصدِّق أن هذا الزواج يمكن أن يتم. هناك أولاً فرق السن. وهناك ثانياً أنني ليس لي اسم.

ـ أقول لك إنها ستتزوجك. يستحيل ألا تتزوجك حين تكون

Twitter: @ketab_n

مهدَّدة بفقد ميراث ضخم. وسوف أدبر هذا الأمر. ثم إنها تحبك. هل تعلم؟ إن هذا الأمير العجوز يحمل لك أطيب المشاعر. فما أكثر العلاقات التي تستطيع أن تعقدها برعايته! أما عن الاسم، فإن المرء في هذا الزمان لا يحتاج إلى اسم: متى ملكت المال فسوف تسير قدماً إلى أمام، وسوف تمضي بعيداً، فما هي إلا عشر سنين إذا أنت تملك من الملايين ما تهتزّ له روسيا كلها: ما حاجتك إلى الاسم حينذاك؟ إن في وسع المرء أن يشتري من النمسا لقب بارون. وحين تتزوج عليك أن تفرض إرادتك. يجب على الرجل أن يعرف كيف يعامل النساء. إن المرأة التي تحب رجلاً تريد أن يسيطر هذا الرجل عليها. المرأة تهوى في الرجل الصلابة... وأنت متى أخفتها بالرسالة تكون قد برهنت لها في الوقت نفسه على صلابتك. ستقول: «آ... لا يزال في ريق الشباب ثم هو صلب العزيمة إلى هذا الحد!».

بقيت على مقعدي كالمصعوق. ما كان لي أن أنقاد لمثل هذا الحديث الأحمق مع أي إنسان آخر. ولكن ظمأ لذيذاً لا أدري ما كنهه كان يدفعني إلى إطالة الحديث. ثم إن لامبرت كان أشد غباء وأشد حطة من أن يخجل المرء أمامه. قلت فجأة:

ـ إسمع يا لامبرت. قل ما شئت. ولكن كلامك زاخر بالسخافات. ولئن كنت أكلمك فلأننا رفيقان، فليس لأحدنا أن يخجل من الآخر. وما كان لي أن أنزل إلى هذا المستوى لو كنت أكلم شخصاً آخر. ثم ما الذي يجعلك تجزم بأنها تحبني؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن المال. ولكنك يا لامبرت لا تعرف المجتمع الراقي: إن كل شيء في تلك البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة، ويخضع لاعتبارات التمييز بين الطبقات. وهي الآن

Twitter: @ketab_n

تجهل طاقاتي، ولا تعرف المدى الذي يمكن أن أبلغه في هذه الحياة، فلا يمكن إلا أن تشعر بالعار إذا هي تزوجتني. لكنني لا أكتمك يا لامبرت أن هناك نقطة تبعث على الأمل هي أنها قد تتزوجني على سبيل الشكر والامتنان، لأنني سأخلِّصها عندئذ من كره يضمره لها رجل تخاف منه.

ـ أباك تعني؟ هل هي تحبه إذن كثيراً؟

ألقى لامبرت هذا السؤال وقد هزَّه فضول شديد. هتفت أقول:

ـ لا، لا. حقاً إنك لفظيع وغبي في آن واحد، يا لامبرت! هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها؟ الإبن وأبوه! سيكون هذا مخزياً رغم كل شيء! إن أبي يحب ماما. لقد رأيته يقبِّلها. ما كان أغباني حين كنت أتصور في الماضي أنه يحب كاترينا نيقولايفنا! صحيح أنه كان يحبها، ولكنه أصبح يكرهها منذ مدة طويلة. إنه يريد الانتقام، وهي خائفة. ذلك أنه رهيب إذا هو أخذ ينتقم يا لامبرت! يكاد يصبح عندئذ مجنوناً. إذا غضب منها فإنه يفقد صوابه فلا يتورع عن شيء! هذا كره من نوع الكره الذي كان ينشب بين الأسر القديمة ويقوم على أساس من مبادىء. الناس في عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادىء. في عصرنا هذا لا مبادىء بل حالات خاصة. آه... لامبرت! إنك لا تفهم شيئاً. أنت غبي كقدميك. أنا أكلمك الآن عن المبادىء، وأنت لا تفهم من أمر المبادىء شيئاً. أنت جاهل جهلاً رهيباً. هل تتذكر كيف كنت تضربني؟ ولكنني الآن أقوى منك. هل تعلم هذا؟

ـ عزيزي آركادي، لنذهب إلى بيتي! سنقضي السهرة معاً، وسنشرب زجاجة أخرى، وستغني لنا آلفونسين عازفةً على القيثار.

ـ لا، لن أذهب. اسمع يا لامبرت. أنا لي «فكرتي». فإذا لم

Twitter: @ketab_n

ينجح المشروع ولم أتزوج، فسوف أرتد إلى فكرتي. أما أنت فليس لك فكرة.

ـ طيب طيب. ستحدثني عن هذا. هيَّا بنا!

ـ لن أذهب إلى بيتك!

ونهضت، وأنا لا أزال أقول:

ـ لا أريد أن أذهب، ولن أذهب. سأجيء إليك، ولكن ما أنت إلا وغد. سأعطيك ثلاثين ألفاً. ليكن. لكنني أطهر منك وأنبل منك. أما هي، فإنني أمنعك حتى من أن تفكر فيها: إنها فوقنا جميعاً. ما خططك إلا قذارات أستغربها حتى منك أنت. أريد أن أتزوج. هذه قضية أخرى. ولكنني لست في حاجة إلى ثروة. أنا أحتقر الثروة. لن أقبل ولو قدَّمت لي ثروتها راكعة... أن أتزوج؟ هذه مسألة أخرى. ثم... هل تعلم؟ صدقت حين قلت أن على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن. حسن أن يحب الرجل، أن يحب حباً قوياً مشبوباً، بكل ما يقدر عليه الرجل وتعجز عنه المرأة من عظمة النفس، ولكن يجب أن يكون الرجل طاغية مستبداً. ذلك أن المرأة، يا لامبرت، تحب الاستبداد. أنت يا لامبرت تعرف النساء، ولكنك في كل ما عدا ذلك غبي غباءً يثير الدهشة. ثم هل تعلم يا لامبرت؟ ما أنت بالمقزز إلى الحد الذي يتصوره المرء حين يراك. أنت بسيط. أحبك يا لامبرت. آه يا لامبرت، لماذا أنت سافل؟ الحياة معك يمكن أن تكون ملأى بالفرح والمرح! هل تعلم يا لامبرت؟ أنا أرى أن تريشانوف لطيف وديع.

هذه الجمل الأخيرة المفككة التي لا يربطها رابط إنما تمتمتها بعد أن صرنا في الشارع. إنني أتذكر أيسر التفاصيل: يجب أن يرى

Twitter: @ketab_n

القارىء كيف أمكنني عندئذ أن أسقط في مثل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شبَّ في نفسي من حماسة، وكل ما حلفته من أيمان، وكل ما قطعته من عهود لأرجع إلى الخير وأبحث عن الجمال. قسماً ما كنت لأعترف بهذه المخازي على أية حال من الأحوال، على أية حال من الأحوال، لولا اقتناعي الكامل التام بأن الحياة قد أحالتني إنساناً آخر تعلم الحياة العملية وتعودها.

كنا قد خرجنا من الدكان، وكان لامبرت يسندني محيطاً بذراعه قامتي. ورفعت إليه بصري فجأة، فرأيت في نظرته الثابتة المتفحصة اليقظة المختلسة ذلك التعبير نفسه الذي رأيته فيها يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح، فقادني محيطاً قامتي بذراعه، على هذه الصورة تماماً، إلى أن أوصلني إلى عربة ركبتها، وكان يصغي بأذنيه وعينيه جميعاً إلى تمتماتي المفككة التي لا يربطها رابط. إن الأشخاص الذين أثملهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكراً تاماً، توافيهم على حين فجأة لحظات صحو كامل.

قلت له بصلابة وأنا ألقي عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عني:

ـ لن أصحبك إلى بيتك بحال من الأحوال!

ـ طيب طيب. سآمر آلفونسين بأن تهيىء لنا شاياً.

كان مقتنعاً أعمق الاقتناع بأنني لن أفلت منه. وكان يحيطني بذراعه ويسندني مغتبطاً أعظم الاغتباط، لأنه أطبق على فريسته. لقد كان محتاجاً إليَّ في ذلك المساء ذاته، وأنا على هذه الحال نفسها. وسترون سبب ذلك فيما بعد.

كررت أقول:

ـ لن أذهب معك! يا حوذي!

وكانت زلاجة تمر في تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها.

Twitter: @ketab_n

فزأر لامبرت خائفاً خوفاً رهيباً وهو يشدني من معطفي:
ـ إلى أين تذهب؟ ما هذا الذي تفعل؟
فصحت أقول له:
ـ ولا تحاول أن تتبعني، لا تجرِ ورائي!
وضرب الحوذي حصانه بسوطه، فسارت العربة، وأفلت معطفي من يدي لامبرت. فصرخ لامبرت ورائي يقول بصوت خبيث:
ـ سيان! لسوف تجيء!
ـ أجيء إذا أردت.
كذلك أجبته من العربة وأنا ألتفت إليه.

2

لم يلاحقني، ويرجع ذلك في أغلب الظن إلى أنه لم يقع على عربة فوراً، فاستطعت أن أفلت منه. ولكن ما إن وصلت إلى «سوق العلف» حتى نزلت من العربة وصرفتها. كان بي شوق جنوني إلى المشي. لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد. وإنما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة، وبقدرة خارقة على القيام بأي عمل، وبأفكار لذيذة لا نهاية لها تزدحم في رأسي.

وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته. وكان كل شيء في نظري فاتناً وسهلاً. فلما وصلت إلى أول مخفر بسوق العلف شبت في نفسي رغبة قوية في أن أمضي إلى الخفير فأعانقه وأقبّله. وكان الجليد يذوب، وكان الميدان مظلماً، وكانت تفوح فيه روائح كريهة؛ غير أن كل شيء كان يعجبني، حتى هذا الميدان.

قلت لنفسي: «سأسير الآن في شارع أوبوخوف، ثم التفت يسرةً

Twitter: @ketab_n

فأمشي في شارع سيمينوفسكي، فأكون قد درت دورة. هذا لذيذ. وكانت أزرار معطفي محلولة: لا أحد يشد معطفي. أين هم اللصوص إذن؟ يقال إن في «ميدان العلف» لصوصاً. فما بالهم لا يتقدمون مني! قد أعطيهم معطفي. ما حاجتي إليه؟ المعطف تملك. و«كل تملك سرقة». ولكن كفى بلاهة! ما أجمل كل شيء! ما أحلى أن يذوب الجليد. علام الجليد؟ ما ينبغي أن يكون جليد. ما أحسن أن يقول المرء سخافات. عجيب، ماذا قلت للامبرت عن المبادىء؟ قلت إنه لا مبادىء بل حالات خاصة. كذبت. كذبت أكبر الكذب. كذبت متعمداً، لأدهشه وأذهله. هذا عيب، هذا خزي. ولكن لا ضير. سأصلح الأمر. لا تشعر بعار يا آركادي ماكاروفتش، لا تعذب نفسك! إنك تعجبني يا آركادي ماكاروفتش، بل إنك تعجبني كثيراً يا صديقي الشاب. خسارة أن تكون وغداً صغيراً... و... و... آه... آه...».

وقفت فجأة وانتشى قلبي من جديد.

«رباه! ماذا قال؟ قال إنها تحبني! يا للسافل! لقد كذب. قال ذلك لأصحبه فأقضي الليلة عنده. ولكن قد أكون مخطئاً. قال إن آنا آندرييفنا تعتقد بهذا هي أيضاً... هيء هيء! لعل داريا أونيسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئاً: إنها تحشر أنفها في كل مكان. ثم لماذا لم أصحبه إلى بيته؟ لو صحبته لكان يمكن أن يحكي لي كل شيء. هم... إن له خطته. أوجست هذا وتنبأت بجميع تفاصيله. حلم. إنك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامبرت. ولكنك تكذب. لن تجري الأمور هذا المجرى. ولكن قد تجري هذا المجرى! قد تجري! هل هو يعجز عن تزويجي؟ إنه قادر على هذا قدرة تامة. هو ساذج وهو يصدِّق نفسه. هو غبي

Twitter: @ketab_n

وجريء، كجميع رجال الأعمال. اجتماع الغباء والجسارة قوة كبيرة. اعترف يا آركادي إيفانوفتش، اعترف أنك خفت من لامبرت! وما حاجته إلى رجال شرفاء؟ إنه قال هذا الكلام جاداً: ما من رجل شريف هنا! ولكن ماذا أنت؟ هوه! ما هذا الذي أقوله؟ أليس الأوغاد في حاجة إلى شرفاء؟ إن الحاجة إلى الشرفاء هي في الأعمال السافلة أشد منها في أي مجال آخر. هأهأها! كنت لا تعرف هذا بعدُ يا آركادي ماكاروفتش، من شدة براءتك! يا رب! ماذا لو زوجني حقاً!

وتوقفت مرةً أخرى. يجب أن أعترف هنا بأمر سخيف (ما دام هذا الأمر يرجع عهده إلى زمان بعيد)، يجب أن أعترف بأنني كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج. بل قل إنني كنت لا أريد هذا، وما كان لهذا أن يحدث (وهو لن يحدث أبداً، أقسم على ذلك بشرفي)، لكنني كنت قد حلمت بالزواج مراراً كثيرة، خلال مدة طويلة، قلت لنفسي عدداً لا نهاية له من المرات: ما أحلى أن أتزوج! وكان يحدث لي هذا كل مساء حين أستلقي في فراشي لأنام. بدأ ذلك عندي وأنا في السادسة عشرة من العمر. كان لي في المدرسة الثانوية رفيق اسمه لافروفسكي. هو فتى لطيف جداً، وهادىء، وجميل. ولكن هذه مزاياه كلها، لا ميزة له غيرها. كنت لا أكاد أكلمه أبداً. ثم إذا نحن نجد نفسينا في ذات يوم وحيدين، قد جلس كل منا بجانب الآخر. كان غارقاً في التفكير. وها هو ذا يقول لي فجأة: «آه يا دولجوروكي! ما رأيك؟ ليتنا نتزوج! ومتى نتزوج إذا لم نتزوج الآن؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج. ومع ذلك يستحيل الزواج!». قال ما قاله صادقاً مخلصاً. فشعرت بأنني أوافقه على رأيه بكل نفسي، لأنني كنت أحلم هذا الحلم من قبل.

Twitter: @ketab_n

والتقينا بعد ذلك عدة مرات متتالية، فكنا نتكلم في هذا الأمر دائماً، متخفين متكتمين. وبعد ذلك انفصلنا، لا أدري لماذا، وانقطعنا عن التخاطب. في ذلك الحين إذن إنما أخذت أحلم بالزواج. ولكن علام أذكر كل شيء؟ إنني ما تحدثت عن تلك الفترة إلا لأبين كيف أن الأمور يرجع عهدها في بعض الأحيان إلى زمان بعيد. . .

قلت لنفسي وأنا أستمر في المشي: «ليس هناك إلا اعتراض هام واحد: إن فرقاً طفيفاً في السن لن يكون عقبةً، ولكنْ هي أرستقراطية، وأنا دولجوروكي فحسب! هذا سيىء جداً! همْ. . . يستطيع فرسيلوف إذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبناني. . . مكافأةً للأب على خدماته. لقد خدم في الوظيفة. فله إذن خدمات. كان وسيط صلح. آه. . . ما هذه الدناءة التي أنحط إليها!».

هتفت هذا الهتاف، ووقفت مرةً ثالثة على حين فجأة، لكنني في هذه المرة كنت كمن سحق في مكانه سحقاً. أحسست بمذلة أليمة من هذه الفكرة التي أمكن أن تخطر ببالي وهي أن أغير اسمي بالتبني فأخون كل طفولتي. وبدَّد هذا كلَّ ما كنت أحسه من بهجة، وطار فرحي دخاناً. قلت محدثاً نفسي وأنا أحمرّ احمراراً فظيعاً: «لن، لن أفضي بهذا إلى أحد، ولئن انحططت إلى هذه الدناءة كلها، فذلك. . . فذلك لأنني عاشق وغبي. لا، إذا صدق لامبرت في أمر، فقد صدق حين قال إن المرء في هذا الزمان لا يحتاج إلى هذه السخافات، وإن الشيء الأساسي في عصرنا إنما هو الشخص ثم ماله. بل الشخص ثم قوته لا ماله. إنني أستطيع بهذه الثروة أن أنطلق في تحقيق «فكرتي»، فما هي إلا عشر سنين حتى يترجع ذكر

Twitter: @ketab_n

اسمي في روسيا كلها، وأنتقم من الجميع. ولا حاجة بي معها إلى هذا الاحتفال كله! هنا صدق لامبرت أيضاً: لسوف تخاف فتتزوجني. الأمر بسيط. سوف توافق ببساطة تامة، على أتفه نحو. وتذكرت أقوال لامبرت: «إنك لا تعرف في أي ماخور تمَّ هذا»، فقلت أحدث نفسي مؤيداً كلام لامبرت: «صحيح. إن لامبرت على حق في جميع النقاط. هو أصدق رأياً مني ألف مرة، وأصدق رأياً من فرسيلوف، ومن سائر هؤلاء المثاليين! إنه رجل واقعي. سوف ترى أن لي إرادة صلبة. وسوف تقول: إن له إرادة صلبة». لامبرت وغد. وهو لا يفكر إلا في أن يحصل مني على ثلاثين ألفاً. ولكنه صديقي الوحيد، رغم كل شيء. ما من صداقة أخرى ممكنة. إن الذين تخيلوا هذا أناس عمليون. وأنا لا أذلها هي. هل أنا أذلها؟ أبداً. النساء جميعاً سواء. هل في الدنيا كلها امرأة غير دنيئة؟ لهذا هن في حاجة إلى الرجل. لقد خلقن عبيداً. المرأة رذيلة وفضيحة، والرجل نبل وكرم. وستبقى الحال على هذا المنوال إلى آخر الدهر. إنني أفكر في استغلال الوثيقة: أي ضير في هذا؟ هذا لا ينفي النبل ولا الكرم. ليس في هذه الحياة شيلر كامل لا تشوبه شائبة. تلك صورة لفّقها الخيال. لا قيمة للوسيلة الدنيئة إذا كانت الغاية نبيلة. ثم يُغسل كل شيء فلا يبقى أثر من وساخة. هذه رحابة الفكر، هذه هي الحياة، هذه هي الحقيقة العملية. كذلك يجب أن تُسَمّى الأمور اليوم!».

أعود فأستغفر القارىء عن ذكر كل هذا الهذيان الذي دار في رأس سكران، أستغفره عن ذكره كاملاً لم أسقط منه شيئاً. إن ما ذكرته هو زبدة الأفكار التي تلاحقت في رأسي آنذاك، لكنني أظن مع ذلك أنني استعملت هذه العبارات نفسها. وكان لا بد لي أن

Twitter: @ketab_n

أنقلها الآن ما دمت أكتب لأحكم على نفسي. وإلا لم يبق ما أحكم عليه. هل في الحياة ما هو أخطر من هذا؟ وليست الخمر بمبرر. فقديماً قال المثل اللاتيني: «الخمر تكشف».

وفيما كنت مسترسلاً في هذه الأحلام غارقاً في هذه الأخيلة، لاحظت أنني قد وصلت إلى البيت، أعني بيت أمي. حتى أنني لم ألاحظ كيف دخلت. ولكن ما إن وضعت قدمي في حجرة المدخل الصغيرة حتى أدركت فوراً أن شيئاً خارقاً قد حدث. ففي الغرف يُسمع كلام ويُطلق صراخ، وأمي تبكي. وكادت لوكيريا أن تقلبني وهي تمر كالإعصار من غرفة ماكار إيفانوفتش إلى المطبخ. فخلعت معطفي، ودخلت غرفة ماكار إيفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها.

كان في الغرفة فرسيلوف وأمي. وكانت أمي متهالكة على ذراعي فرسيلوف، وكان فرسيلوف يشدها إلى صدره شداً قوياً. وكان ماكار إيفانوفتش جالساً على المقعد كعادته، لكنه يبدو منهاراً لا قوة له. فكانت ليزا تسند كتفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط. وكان واضحاً أنه يوشك في كل لحظة أن يسقط. فلما تقدمت نحوه بخطوة سريعة، ارتعدت وأدركت كل شيء: كان الشيخ ميتاً.

لقد مات منذ قليل، ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة. كان قبل عشر دقائق لا يحس بأي تغير في حالته. ولم يكن عنده إلا ليزا. كانت جالسةً بجانبه تحدثه عن حزنها وتفضي إليه بأشجانها، وكان هو يلاعب رأسها كما فعل بالأمس. ثم إذا هو يرتجف على حين فجأة (هذا ما روته ليزا)، وقد أراد أن ينهض، وأراد أن يصرخ، لكنه لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسر صامتاً. قال فرسيلوف: «هو القلب!». وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من في البيت يهبون واقفين، وهرع الجميع. حدث هذا كله ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة!

Twitter: @ketab_n

صرخ فرسيلوف يقول لي:

ـ آركادي! اركض فوراً إلى تاتيانا بافلوفنا! هي الآن في بيتها حتماً. فقل لها أن تأتي فوراً. اركب عربة. أسرع، أرجوك.

كانت عيناه تسطعان، أتذكر هذا تذكراً واضحاً. لم ألاحظ في وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً. إن أمي وليزا ولوكيريا هنَّ اللواتي كن يبكين. بل إني لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجأ بصري في وجهه إنما هو اهتياج شديد، نوع من حماسة. وركضت متجهاً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا.

ليس الطريق طويلاً. تعلمون هذا مما سلف. لم أركب عربة، وإنما اجتزت المسافة راكضاً بغير توقف. كنت مضطرب الفكر، حتى لأكاد أكون متحمساً أنا أيضاً. لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع. فلما وصلت إلى بيت تاتيانا بافلوفنا، كان سكري قد تبدد تماماً، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة.

فتحت الفنلندية الباب وقالت: «السيدة خرجت!»، وهمَّت أن تغلقه ثانيةً.

فقلت وأنا أقتحم الباب إلى حجرة المدخل اقتحاماً:

ـ خرجت؟ كيف؟ مستحيل. مات ماكار إيفانوفتش!

فإذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوِّي من خلال باب صالونها المغلق:

ـ ما... ذا؟

مات! ماكار إيفانوفتش مات! يرجوك آندريه بتروفتش أن تجيئي حالاً.

ـ كذاب!

وصرَّ المزلاج، ولكن الباب لم يفتح فتحاً وإنما شقّ بمقدار إصبع:

Twitter: @ketab_n

ـ «ماذا حدث؟ قل!».

ـ لا أدري. وصلت إلى البيت فوجدت ماكار إيفانوفتش ميتاً. آندريه بتروفتش يقول: «هو القلب!».

ـ حالاً، حالاً! اركض. قل إني آتية فوراً. هيا اذهب. ما بالك لا تذهب! ماذا؟ ما بقاؤك واقفاً هنا؟

لقد رأيت رؤية واضحةً، من خلال الباب المشقوق، إن أحداً خرج من وراء الستارة التي تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا، وتسمَّر في قرارة الغرفة، وراء تاتيانا بافلوفنا، فوجدتني أضع يدي على المزلاج آلياً، غريزياً، بحيث لا يمكن إغلاق الباب ثانية.

ـ آركادي إيفانوفتش! هل صحيح أنه مات؟

إنه صوت أعرفه، صوت رقيق عذب متسق، يرن رنين المعدن، هزَّ أعماق نفسي منذ سمعته. وكان سؤالها يختلج بعاطفة وتأثر.

قالت تاتيانا بافلوفنا وهي تترك الباب فجأة:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان. أنت التي أردت هذا!

وولّت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً، وتهرع إلى السلم. وبقينا وحيدين. نضوت معطفي، وتقدمت خطوة، وأغلقت الباب.

كانت واقفةً أمامي كما حدث في لقائنا السابق، مشرقة المحيا، واضحة النظرة. وكما في المرة الماضية مدت إليَّ كلتا يديها. وكأن منجلاً قطع ساقيَّ، فإذا أنا أهوي على قدميها.

3

أخذت أبكي، لا أدري لماذا. لقد نسيت الآن كيف أجلستني بجانبها. ولكنني ـ وهذه ذكرى ثمينة ـ رأيتنا جالسين جنباً إلى جنب،

Twitter: @ketab_n

قد أمسك كل منا يد الآخر، واندفعنا في حديث سريع. سألتني عن الشيخ وعن موته، فحكيت لها ما أعرف، فلو رآني أحد أثناء ذلك لظنني أبكي على ماكار إيفانوفتش، ولكان ذلك ذروة السخافة. وأنا أعلم على كل حال أنها لا يمكن أن تفترض فيَّ بلاهةً كهذه البلاهة الصبيانية. وثبت إلى نفسي أخيراً على حين فجأة، وشعرت بخزي وعار. أفترض الآن أنني إنما بكيت حينذاك من فرط الحماسة، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً، فأنا من هذه الناحية مطمئن.

وبدا لي فجأة أن من المستغرب جداً أن تسألني بمثل هذا الإلحاح عن ماكار إيفانوفتش. فسألتها مدهوشاً:

ـ هل تعرفينه؟

فأجابت:

ـ منذ مدة طويلة. إنني لم أره يوماً. ولكنه لعب في حياتي دوراً. سمعت عنه أشياء كثيرة في الماضي من الرجل الذي أخشاه. تعرف من أعني.

ـ أعرف الآن أن «ذلك الرجل» كان أقرب إلى نفسك كثيراً مما أظهرت.

قلت لها ذلك وأنا لا أدري ما الذي أردت أن أعبِّر عنه، ولكنني قلته مؤاخذاً مقطب الجبين.

تابعت مساءلتي فقالت دون أن تصغي إلى كلامي:

ـ تقول إنك رأيته يقبِّل ماما منذ قليل؟ قبَّلها؟ رأيته بعينيك؟

فأسرعت أجيب مؤكداً، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً:

ـ نعم رأيته. وصدِّقي أن ذلك كله كان صادقاً كل الصدق كريماً كل الكرم.

قالت وهي ترسم إشارة الصليب:

Twitter: @ketab_n

ـ الحمد لله. الآن تحلل من أغلاله. كان هذا الشيخ يكبل حياة آندريه بتروفتش بالأصفاد. ولسوف ينبعث الشعور بالواجب والشعور بالكرامة في نفسه من جديد، كما حدث هذا مرةً من قبل. ذلك أنه رجل كريم قبل كل شيء. وسوف يهدأ قلب ماما التي يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذه الحياة، وسيهدأ هو نفسه أخيراً. الحمد لله. آن الأوان.

ـ هل هو عزيز عليك؟

ـ نعم، عزيز جداً، ولكن ليس بالمعنى الذي يريده هو وتقصده أنت.

سألتها فجأة:

ـ ولكن الآن، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه؟

ـ هذه أسئلة صعبة. لنتركها!

ـ لنتركها، نعم. ولكنني كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً، ولعل هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل. مهما يكن من أمر، أنت على حق. لقد تبدل الآن كل شيء، وإذا كان أحد قد بُعث بعثاً جديداً فهو أنا. لقد انحططت بتصوراتي وأفكاري انحطاطاً شديداً تجاهك يا كاترينا نيقولايفنا؛ ولعلني، منذ ساعة لا أكثر، قد ارتكبت عملاً دنيئاً في حقك. ولكن اعلمي أنني الآن، وأنا جالس بجنبك، لا أحس بشيء من عذاب الضمير. ذلك أن كل شيء قد زال، ذلك أن كل شيء قد تبدل؛ والرجل الذي كان منذ ساعة يضمر لك شراً أنا لا أعرفه، ولا أريد أن أعرفه.

ابتسمت وقالت:

ـ أَفقْ. لكأنك تهذي قليلاً.

تابعت كلامي قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ وهل يستطيع المرء أن يحكم على نفسه حين يكون معك؟ سواء أكان حقيراً أم كان شريفاً فإنك تظلين كالشمس لا يمكن الوصول إليك. ولكن ليتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة، منذ ساعة لا أكثر. يا للحلم الذي كان بصدد التحقق!

قالت وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة:

ـ أظن أنني أعرف كل شيء. لقد أردت منذ قليل أن تنتقم مني، وحلفت لتضيِّعنِّي. ولا شك مع ذلك في أنك لو سمعت أحداً يتجرأ فيقول كلمة سوء في حقي أمامك لقتلته أو لألحقت به أذى.

صحيح أنها ابتسمت وكانت تمزح. ولكن مردَّ ذلك إلى طيبة قلبها، فقد عرفت فيما بعد أنها في تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة بهم شخصي ضخم وبعاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث معي ولا تجيب عن أسئلتي الجوفاء المحنقة إلا كما يجيب المرء في بعض الأحيان عن أسئلة سخيفة يصرُّ طفل صغير على إلقائها إصراراً عنيداً، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح. وقد أدركت ذلك فجأة، فشعرت بخجل وخزي، ولكنني كنت لا أستطيع أن أتوقف.

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتي على نفسي:

ـ لا، لم أقتل الشخص الذي قال في حقك سوءاً، بل أيَّدته وشجعته!

ـ أرجوك، ناشدتك الله، لا تقصص علي شيئاً، لا فائدة في هذا، لا يجب هذا.

ومدَّت يدها لوقفي عن الكلام، حتى لقد ظهر في وجهها ألم. ولكنني كنت قد وثبت ووقفت أمامها لأروي لها كل شيء. ولو قد فعلت لما حدث ما حدث بعد ذلك. لأنني كنت سأنتهي حتماً إلى

Twitter: @ketab_n

الاعتراف لها بكل شيء، وإلى تسليمها الوثيقة. ولكنها انفجرت تضحك على حين فجأة قائلة:

ـ لا داعي إلى الكلام. ما أنا في حاجة إلى شيء. دعك من التفاصيل! جرائمك كلها، أنا أعرفها. أراهن أنك أردت أن تتزوجني، أو أردت شيئاً من هذا القبيل، وأنك قد تواطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك، هو رفيق من رفاقك القدامى في المدرسة. . . أظن أنني حزرت!

بهذا هتفتْ وهي تحدِّق إليَّ.

فقلت لها متمتماً كما يتمتم أبله، وقد اعتراني شده وذهول:

ـ كيف. . . كيف أمكنك أن تحزري؟

ـ أين الصعوبة في هذا؟ ولكن كفى كفى! إني أغفر لك، ولكن كف عن الكلام في هذا الأمر.

حتى لقد حرَّكت يدها بإشارة تنم عن شدة التململ. وأردفت تقول:

ـ أنا أيضاً أحب أن أحلم. ليتك تعلم الأساليب التي ألجأ إليها في أحلامي، حين لا يصدني شيء! كفى! إنك لا تزيد على أن تبث الاضطراب في نفسي. يسرني جداً أن تاتيانا بافلوفنا خرجت. كنت أريد كثيراً أن أراك، فلو بقيتْ لما استطعنا أن نتكلم كما نتكلم الآن. أظن أنني مذنبة في حقك، مسؤولة عما وقع لك حينذاك. أليس كذلك؟

ـ أنت؟ مذنبة؟ ولكنني أنا الذي أسلمتك «إليه». ترى ما عساك قلت عني؟ لقد ظللت أفكر في هذا الأمر طول الوقت، في جميع هذه الأيام، كلَّ لحظة، أفكر فيه وأحس به.

لم أكذب عليها. قالت:

Twitter: @ketab_n

ـ أخطأت إذ عذَّبت نفسك هذا التعذيب. لقد أدركتُ أنا على الفور كيف حدث كل شيء. لقد كشفتَ له، بكل بساطة، وأنت في غمرة الفرح، أنك تحبني و. . . أنني، وأنني كنت أدع لك أن تتكلم وأصغي إليك. ذلك أنك لم تتجاوز من عمرك العشرين. أنت تحبه أكثر مما تحب الكون بأسره، وتبحث فيه عن صديق، عن مثلٍ أعلى، وقد أدركتُ أنا هذا حق الإدراك. ولكن بعد فوات الأوان. صحيح أنني أخطأت أنا أيضاً، لا شك في هذا، لكنني كنت معتكرة المزاج مكفهرة النفس، فأمرت بألا تُقبل في البيت بعد ذلك. وعندئذ إنما وقع ذلك المشهد أمام الباب، ثم كانت تلك الليلة. أعلم أنني طوال هذا الوقت كنت أحلم، مثلك، بأن أراك خفيةً، لكنني كنت لا أعرف السبيل إلى تحقيق هذه الأمنية. وما الذي كنت أخشاه أكثر من أي شيء آخر فيما تظن؟ لقد كنت أخشى أن تصدِّق نمائمه عني وأقاويله في حقي.

هتفت أقول:

ـ أبداً!

ـ إنني أقدِّر لقاءاتنا الماضية. وما أحبه فيك هو الفتى المراهق، وربما هذا الصدق أيضاً. . . ذلك أن لي طبعاً يتصف بالجد. أعلم أنني بين نساء عصري أكثرهن صرامة وجداً. هأ هأ هأ! لسوف يتاح لنا أن نتحادث كثيراً، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البال. إنني الآن منفعلة انفعالاً شديداً. . . بل إنني في حالة هستريا. ولكن، أخيراً، أخيراً، سوف يتركني وشأني أعيش في سلام!

أفلتت منها هذه الجملة الأخيرة بغير إرادة. وقد فهمتها أنا فوراً ولم أشأ أن أتوقف عندها. لكنني كنت أرتجف ارتجافاً شديداً.

ثم عادت تهتف من جديد كأنها تحدث نفسها:

Twitter: @ketab_n

ـ هو يعلم أنني غفرت له!

فلم أتمالك نفسي فهتفت أسألها:

ـ كيف أمكنك أن تغفري له تلك الرسالة. وكيف يستطيع أن يعرف هو أنك غفرت له؟

فتابعت كلامها تجيبني، ولكن كأنها لا تخاطبني وإنما هي تحدث نفسها:

ـ إنه يعرف! لقد استرد صوابه الآن. كيف لا يدرك أنني غفرت له وهو يعرف نفسي كلها على ظهر القلب؟ إنه ليعلم حق العلم أنني من نوعه تقريباً.

ـ أنت؟

ـ نعم، وهو يعرف ذلك. أنا لست مشبوبة العاطفة بل هادئة، لكنني أنا أيضاً أحب أن يكون جميع الناس أخياراً طيبين... ليس عبثاً أنه افتتن بي حباً!

ـ فلماذا قال إذن أنك تتصفين بجميع العيوب والنقائص؟

ـ قال هذا كلاماً لا أكثر. أما رأيه الذي يكتمه سراً في قرارة نفسه فيختلف عن هذا الكلام كل الاختلاف. ولكن أليس صحيحاً أن رسالته كانت مضحكة؟

ـ مضحكة؟

كنت أصغي إليها بكل ما أملك من قوة الانتباه. وأظن أنها كانت تعاني نوبة هستريا حقاً، و... أنها ربما كانت لا تتكلم من أجلي أنا أبداً. ولكنني لم أستطع أن أمسك عن مساءلتها. قالت:

ـ مضحكة قطعاً. ولشد ما كان يمكن أن أضحك لولا... لولا أنني كنت خائفةً خوفاً شديداً. لست مع ذلك جبانة. لا يذهبن بك الظن إلى أنني جبانة. لكن رسالته قد حرمتني من النوم تلك الليلة.

Twitter: @ketab_n

لكأنها كتبت بدم، بدم رجل مريض. ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعد رسالة كتلك الرسالة؟ إنني أحب الحياة، وأخاف على حياتي كثيراً. في هذه النقطة أنا جبانة حقاً.

وهتفت فجأة تقول:

ـ اذهب إليه. هو الآن وحيد. أغلب الظن أنه لم يبق هناك. لا بد أنه مضى إلى مكان آخر. فأدركه بأقصى سرعة، يجب أن تدركه، إركض إليه، وأظهر له أنك ابنه المحب، وبرهن له على أنك فتى طيب لطيف، يا عزيزي الطالب، وعلى أنني... لا... إنني أسأل الله أن يهب لك السعادة. أنا لا أحب أحداً، ذلك أفضل، ولكنني أتمنى السعادة للجميع، للجميع، وأتمناها له قبل أي إنسان آخر. ألا فليعرف هذا... فليعرفه حالاً. سيسرُّه كثيراً أن يعرف...

ونهضتْ، واختفت فجأة وراء الستارة. كانت دموع تلتمع في وجهها حينذاك (دموع هسترية بعد الضحك). بقيت وحيداً، مضطرباً. كنت لا أعرف حقاً إلى أي شيء يجب أن أعزو مثل هذا الانفعال الشديد الذي ما كان لي أن أفترضه فيها. وانقبض صدري.

انتظرت خمس دقائق، ثم عشراً. وأدهشني الصمت العميق فجأةً، فقررت أن أنظر من الباب وأنا أنادي. فلما ناديت ظهرت لي ماريا فأعلنت لي بلهجة هادئة، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة، وغادرت البيت خارجة من سلم الخدم.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

1

لم يكن ينقصني إلا هذا. تناولت معطفي، ولبسته بسرعة، وهرعت أخرج وأنا أتساءل: «إنها تريد أن أذهب إليه، فأين يمكنني أن أجده؟».

غير أن هناك، عدا هذا كله، سؤالاً كان يحيِّرني: «لماذا تتصور أن الزمان قد تبدل الآن، وأنه سيدعها وشأنها تعيش في سلام؟ لأنه سيتزوج ماما قطعاً. ولكن ما علاقتها هي بهذا؟ أيبهجها أن يتزوج ماما أم يشقيها؟ أليس هذا هو ما يجعلها في حالة هستريا؟ ما أعجزني عن حل المشكلة!».

إنني أسجل هذا الخاطر الثاني الذي لمع في ذهني سريعاً كالبرق، أسجله للتذكرة. إن له شأناً كبيراً. كان ذلك المساء حاسماً. إن المرء مضطر أن يصدق أخيراً بالقدر: فإنني ما إن قطعت مائة خطوة متجهاً إلى بيت ماما، حتى اصطدمت بالرجل الذي كنت أبحث عنه. وضع يده على كتفي ووقف، وهتف يقول فرحاً مدهوشاً في آن واحد:

ـ أنت؟

وأضاف مسرعاً في الكلام:

ـ تصور أنني ذهبت إلى بيتك ساعياً إليك، وسألت عنك: أنت

Twitter: @ketab_n

وحدك من أحتاج إليه الآن في الكون كله! لا أدري بماذا أجابني صاحبك الموظف، مؤجر بيتك، لقد طفق يقول أشياء كثيرة المهم أنك لم تكن هناك، فانصرفت من عنده، ناسياً حتى أن أطلب منه إبلاغك أن تجيء إليَّ فوراً. وفيما أنا أمشي راجعاً، كنت مقتنعاً اقتناعاً لا يتزعزع بأن القدر لا يمكن إلا أن يضعك في طريقي في هذا الوقت الذي أحتاج فيه إليك هذا الاحتياج الشديد كله. فكنت أول شخص ألقاه. هلمَّ بنا إلى بيتي. إنك لم تزرني حتى الآن في يوم من الأيام...

الخلاصة أن كلاً منا كان يسعى إلى الآخر ويبحث عنه، فوقعت لنا كلينا مصادفة واحدة. وحثثنا الخطى. في الطريق لم يوجِّه إليَّ إلا بضع جمل قصيرة: إنه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا، الخ الخ. وكان يقودني ممسكاً ذراعي. لم يكن بيته بعيداً، فسرعان ما وصلنا. لم أزره قبل اليوم فعلاً. هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قد استأجرته تاتيانا بافلوفنا) لسكنى «الطفل الرضيع» لا أكثر. وقد كانت تاتيانا بافلوفنا هي التي تشرف على البيت مع خادم للطفل (هي الآن داريا أونيسيموفنا). ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هي الغرفة الأولى التي تقع على يمينك حين تدخل. إنها غرفة واسعة حسنة الأثاث، هي نوع من حجرة للقراءة والعمل. فعلى المائدة وفي الخزانة وفوق الرفوف، يرى المرء كتباً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً)، وأوراقاً فيها كتابة، وحزم رسائل. الخلاصة أن هذا كله يشير إلى أن المكان مسكون منذ مدة طويلة، وكنت أعرف أن فرسيلوف كان ينتقل إلى هذا البيت من وقت إلى آخر (ولو نادراً)، فيمكث فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع في بعض الأحيان.

Twitter: @ketab_n

إن أول شيء لفت انتباهي صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب ضمن إطار رائع من خشب محفور. واضح أن الصورة قد أخذت لها في الخارج، وإنها بحكم كبرها النادر شيء ثمين. لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الآن، ولا سمعت عنها. غير أن ما خطف بصري خاصةً هو شبهها الكبير بماما. إنه شبه روحي إن صح التعبير: لكأنها صورة رسمتها يد فنان ماهر، ولم يلتقطها جهاز آلي. فما إن دخلت حتى رأيتني أقف أمام الصورة جامداً رغم إرادتي.

قال فرسيلوف:

ـ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

كان يريد أن يقول: «أليست تشبهها حقاً؟». فالتفتّ إليه، ففاجأني تعبير وجهه. كان شاحب اللون قليلاً، غير أن نظرته المشدودة الحارة كانت تسطع سعادةً وقوة: لم أعهد في وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن.

قلت متحمساً على حين فجأة:

ـ ما كنت أعرف أنك أحببت ماما هذا الحب كله!

فابتسم ابتسامة سعيدة، فيها مع ذلك ألم، أو قل فيها عاطفة إنسانية أعلى... لا أعرف كيف أعبر! ولكن يبدو لي أن الإنسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة منتصرة ظافرة. وها هو ذا، بدون أن يجيبني، يرفع الصورة بكلتا يديه، فيقربها منه، ويقبّلها، ثم يعود فيعلقها بالحائط. قال:

ـ لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على شبه. وسبب ذلك واضح: فالأصل، أعني كل واحد منا، يندر أن يشبه

Twitter: @ketab_n

نفسه. هناك لحظات نادرة يعبِّر فيها الوجه عن السمة الأساسية في الإنسان وعن فكره الذي يميزه. إن الفنان يدرس الوجه، فيدرك ذلك الفكر الأساسي، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزاً في الوجه أثناء الرسم. أما الفوتوغرافيا فإنها تفاجىء الشخص كما هو في اللحظة التي تلتقط له فيها الصورة. ومن الجائز جداً أن يفاجأ نابوليون في لحظة من اللحظات غبياً، وأن يفاجأ بسمارك في لحظة من اللحظات رقيقاً حنوناً. ولكن هنا، في هذه الصورة، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صوفيا في لحظتها الأساسية، فظهرت على حقيقتها، امرأةً ذات خفر، تفيض حباً رقيقاً، ويشع منها عفاف فيه وجل. ما أعظم السعادة التي ملأت جوانحها حين اقتنعت بأنني أرغب كثيراً في الحصول على صورتها هذه! إن هذه الصورة لا يرجع عهدها إلى زمن بعيد. ولكن صوفيا كانت في تلك الأيام أفتى وأجمل! ومع ذلك كان خداها منذ ذلك الحين خاسفين، وكانت لها هذه الغضون في الجبين، وكان في نظرتها هذا الحياء الوجل، وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبرز مزيداً من البروز شيئاً بعد شيء. هل تصدق يا صغيري؟ إني لأكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر! ومع ذلك كانت، هي أيضاً، شابة وفاتنة! إن النساء الروسيات تدب إليهن الدمامة بسرعة، وينقضي جمالهن، ولا شك في أن هذا لا يرجع إلى خصائص في طبيعة الجنس الروسي فحسب، وإنما يرجع أيضاً إلى أن النساء الروسيات يندفعن في الحب بلا تحفظ. إذا أحبت المرأة الروسية، فإنها تهب كل شيء دفعةً واحدة: تهب اللحظة والمصير، الحاضر والمستقبل: إنهن لا يستطعن الاقتصاد والتوفير، إنهن لا يدَّخرن. فسرعان ما ينتقل جمالهن إلى من يحببن. هاتان الخدان الخاسفتان هما أيضاً جمال

Twitter: @ketab_n

ضحت لي به من أجل متعة قصيرة. أنت يسرك أنني أحببت أمك، ولعلك كنت لا تصدِّق أن أكون قد أحببتها، أليس كذلك؟ بلى يا صديقي بلى! أحببتها كثيراً. لكنني لم أجلب لها في يوم من الأيام إلا السوء. هناك صورة أخرى. خذ. أنظر في هذه أيضاً.

تناول الصورة من على المكتب ومدّها إليَّ. هي صورة فوتوغرافية أيضاً، أصغر من صورة ماما كثيراً، قد وضعت في إطار بيضوي من خشب نحيل: وجه فتاة هزيلة مصدورة، لكنها جميلة. إن الفتاة تفكر، ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً. قسمات متسقة. طلعة تصفَّت وراقت بتعاقب الأجيال، ولكنها تشعرك بأن فيها مرضاً: فكأن هذه الإنسانة قد فاجأتها فكرة ثابتة، فنالتها بعذاب شديد لأنها فوق طاقة قواها.

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الخجل:

ـ هذه. . . هذه هي الفتاة التي أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت بالسل، أليس كذلك؟ بنت زوجها «هي».

ـ نعم، أردت أن أتزوجها. ماتت بالسل. بنت زوجها. كنت أعلم أنك تعلم. تلك نمائم. على كل حال، ما كان يمكنك أن تعرف هنا شيئاً، بغض النظر عن النمائم. دع هذه الصورة في مكانها يا صديقي. هي مجنونة شقية لا أكثر.

ـ مجنونة تماماً؟

ـ أو معتوهة. لكنني أظن أنها مجنونة أيضاً. لقد ولدت ولداً من الأمير سرجي بتروفتش (عن جنون، لا عن حب، وهذا عمل من أدنأ وأحقر أعمال الأمير سرجي بتروفتش): والطفل هنا الآن، في هذه الغرفة. إنني منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل. والأمير سرجي بتروفتش لم يجرؤ أن يجيء إلى هنا ليرى ولده. هذا اتفاق

Twitter: @ketab_n

أبرمناه معاً في الخارج. ضممت الطفل إليَّ بإذن من أمك. وبإذن من أمك، أردت أيضاً أن أتزوج تلك... البائسة...

قلت بحرارة:

ـ كيف يمكن إذنٌ كهذا؟

ـ يمكن. ما كان لأمك أن تغار! ليست تلك المختلة بامرأة!

هتفت أقول:

ـ في نظر الآخرين ليست امرأة. ولكنها في نظر أمي امرأة. لن أصدق أبداً أن الغيرة لم تصب أمي!

صدقت. لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء، أي بعد أن أذنت أمك. ولكن دعنا من هذا. إن الأمر لم يتم، لأن ليديا ماتت. ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية. على كل حال، أنا لا أدع لأمك أن تأتي إلى الطفل، حتى في هذا الحين. ذلك حادث عارض مضى. يا عزيزي، إنني أنتظرك هنا منذ مدة طويلة. إنني أحلم بلقاء بيننا هنا منذ زمن طويل. هل تقدِّر طول هذا الزمن؟ سنتان.

قال ذلك وهو يلقي عليَّ نظرة يتجلى فيها الصدق، وتعبر عن اندفاع من القلب حار. فتناولت يده، وهتفت أسأله:

ـ لماذا تأخرت؟ لماذا لم تنادني؟ لو علمت ما حدث، فأشرت لي بأصبعك أن أجيء إليك، لما وقع الذي وقع...

في تلك اللحظة جيء بالسماور، ثم إذا بداريا أونيسيموفنا تدخل حاملةً الطفل. وكان الطفل نائماً.

قال فرسيلوف:

ـ انظر إليه. إنني أحبه. ولقد أمرت بإحضاره لتراه أنت. والآن أرجعيه يا داريا أونيسيموفنا. اجلس إلى جانب السماور. سأتخيَّل

Twitter: @ketab_n

أننا عشنا دائماً هكذا، أنا وأنت، وأننا اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع، دون أن ننفصل في يوم من الأيام. دعني أنظر إليك: اجلس هكذا لأرى وجهك. كم أحبه، هذا الوجه، وجهك! لطالما تصورته وتخيلته! لطالما انتظرتك وأنا بموسكو! تسألني لماذا لم أرسل من يجيئني بك منذ مدة طويلة؟ انتظر. لعلك ستفهم الآن.

ـ أيكون موت ذلك الشيخ هو الذي حل عقدة لسانك؟ غريب. . .

نطقت بتلك الجملة، ولكن ذلك لا ينفي أنني كنت أنظر إليه بحب. وتحدثنا كما يتحدث صديقان، بأكمل وأسمى معاني هذه الكلمة. لقد جاء بي إلى هنا ليشرح لي، ليحكي لي، ليبرر نفسه. . . ولكن كل شيء قد اتضح وتبرر قبل كل كلام. مهما أسمع منه الآن، فإن الهدف قد تم بلوغه. وكنا كلانا نعرف ذلك، وكان كل منا ينظر إلى الآخر بسعادة.

أجابني يقول:

ـ لا، ليس موت الشيخ هو الذي حل عقدة لساني، ليس هذا الموت وحده هو الذي حل عقدة لساني. هناك شيء آخر كان له تأثيره في هذا الاتجاه نفسه. بورك في هذه اللحظة، وفي حياتنا، منذ الآن، وإلى الأبد. لنتحدث يا عزيزي. إنني أبتعد دائماً عن الموضوع، وأشرد إلى غيره. أهمُّ أن أتكلم في شيء، فإذا أنا أتوه في تفاصيل شيء آخر. ذلك يحدث دائماً حين يكون القلب طافحاً. ولكن فلنتحدث. آن الأوان، وإني لموله حباً بك منذ مدة طويلة يا صغيري.

ارتد فرسيلوف إلى ظهر مقعده، وجعل يتأملني مرةً أخرى من الرأس إلى القدمين.

Twitter: @ketab_n

قلت وأنا غارق في افتتاني:

ـ ما أغرب أن أسمع هذا، ما أغرب أن أسمعه!...

ولكن هأنذا أرى الغضن المألوف الذي يعبِّر عن الأسى والسخرية معاً، هأنذا أرى هذا الغضن الذي أعرفه حق معرفته، يظهر في وجهه من جديد. إنني أتذكر هذا تذكراً واضحاً. ولكن فرسيلوف تجلد. وبجهد، بدأ يتكلم.

2

ـ اسمع يا آركادي، ما عسى كنت أقول لك لو ناديتك قبل الآن؟

كان ذلك جوابه كله.

ـ هل تريد أن تقول إنك اليوم زوج أمي وإنك أبي... وإنك ما كنت تستطيع أن تقول لي شيئاً عن وضعي الاجتماعي؟ هل هذا ما تعنيه؟

ـ ليس هذا وحده. هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر إلى السكوت عنها. هناك أشياء مضحكة، بل مُذلة، لأنها تشبه أن تكون مكائد مشعوذين، وألعاب مهرِّجين. كيف كان يمكن أن يفهم أحدنا عن الآخر، إذا كنت أنا نفسي لم أفهم نفسي إلا اليوم، في الساعة الخامسة بعد الظهر، أي قبل موت ماكار إيفانوفتش بساعتين تماماً؟ أراك تنظر إليَّ بارتباك واضح وحيرة أليمة. لا تقلق! سأشرح لك الأمر. غير أن ما قلته صحيح كل الصحة. حياة كاملة تنقضي في ترحال وشك، ثم إذا بالحل يأتي فجأة، في يوم معين، في الساعة الخامسة بعد الظهر. شيء مُذل، أليس كذلك؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة، لكان يمكن أن أشعر منه بمهانة حقاً.

Twitter: @ketab_n

كنت أصغي بحيرة أليمة فعلاً. وكنت أرى الغضن القديم في وجه فرسيلوف، بارزاً بروزاً قوياً، الغضن الذي كنت أتمنى ألا أراه فيه ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام. وفجأة رأيتني أهتف قائلاً:

ـ هل وصلك «منها» شيء، هذا اليوم، في الساعة الخامسة؟

فنظر إليَّ محدقاً، وكان واضحاً أنه فوجىء بهتافي بل لعله فوجىء أيضاً بقولي «منها»، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتسامةً يمازجها تفكر:

ـ ستعلم كل شيء. ولن أخفي عنك شيئاً مما يجب أن تعلمه، فمن أجل هذا إنما جئت بك إلى هنا. ولكن فلنؤجل هذا إلى وقت آخر. إنني يا صديقي أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرتهم منذ طفولتهم، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة في آبائهم وفي بيئتهم. وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد تمتلىء قلوبهم قلقاً منذ يكونون في المدرسة، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبل الأوان. وبعد ذلك عددت نفسي واحداً منهم. ولكن... معذرة يا عزيزي، إنني أشرد شروداً غريباً. كنت أريد أن أقول إنني خفت عليك دائماً هنا، طوال هذا الوقت تقريباً. كنت أراك دائماً كواحد من أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتصمون بالعزلة. أنا أيضاً، مثلك، لم أحبَّ رفاقي في يوم من الأيام. ما أكبر شقاء هؤلاء الصغار الذين يُتركون لقواهم وحدها، ويُتركون لأحلامهم، وقد أوتوا ظمأ مشبوباً إلى الجمال، ظمأ سابقاً لأوانه، يكاد يكون مشبعاً بروح الانتقام، نعم، بروح «الانتقام». ولكن كفى يا عزيزي، لقد شردت مرةً أخرى. إنني حتى قبل أن يبدأ حبي لك، كنت أتخيلك أنت وأحلامك،

Twitter: @ketab_n

أحلام المعتزل المتوحش. ولكن كفى. لقد نسيت حقاً عمَّ كنت أريد أن أتكلم. . . على كل حال، هذا كله أيضاً كان يجب أن يقال. ماذا كان يمكنني أن أقول لك من قبل؟ الآن أرى نظرتك ترمقني، فأعرف أن «ابني» هو الذي ينظر إليَّ. وما كان لي بالأمس، بالأمس فقط، أن أصدِّق أنني سأجد نفسي في يوم من الأيام متحدثاً مع ابني كما أفعل اليوم.

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شديداً بالفعل، ولكنه كان يبدو في الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً.

قلت مسلماً له نفسي كلها:

ـ الآن لم أعد في حاجة إلى أن أحلم؛ الآن يكفيني أن تكون لي. لسوف أتبعك!

ـ تتبعني أنا؟ ولكن ترحالي قد انتهى، انتهى في هذا اليوم نفسه: لقد وصلت متأخراً يا عزيزي. اليوم ينتهي الفصل الأخير، وتسدل الستارة. طال هذا الفصل الأخير كثيراً. لقد بدأ منذ زمن بعيد، بدأ حين فررت إلى الخارج آخر مرة. تركت يومئذ كل شيء. واعلم أنني تركت يومئذ أمك، وأعلنت لها أنني تاركها. يجب أن تعلم هذا. قلت لها إنني راحل إلى الأبد، وأنها لن تراني بعدئذ قط. وأسوأ من ذلك أنني نسيت حتى أن أترك لها شيئاً من مال. وأنت أيضاً لم تخطر ببالي لحظة واحدة. رحلت منتوياً أن أبقى في أوروبا يا عزيزي، وألا أعود إلى البيت أبداً. هاجرت.

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي:

ـ ذهبت إلى هرتسن؟ ذهبت لتكون داعية في الخارج؟ لا بد أنك ساهمت طيلة حياتك في مؤامرة من المؤامرات!

ـ لا يا صديقي، لم أشارك في أية مؤامرة. أرى عينيك

Twitter: @ketab_n

تلتمعان. أحب صيحاتك يا عزيزي. لا، لقد سافرت سأماً لا أكثر. سافرت في أعقاب ضجر تملَّكني فجأة. هو ضجر سيدٍ روسي. لا أجد في تعريف هذا الضجر تعبيراً أنسب. ضجر سيد روسي لا أكثر.

جمجمت أقول لاهثاً:

ـ القنانة... تحرير الأقنان؟

ـ لا، لا يا صديقي! أتظن أنني آسف على نظام القنانة؟ أتظن أنني لم أحتمل تحرير الأقنان؟ لا، لا يا صديقي. ثم إننا نحن الذين حررناهم. لقد هاجرت بدون أي حقد. كنت قبل قليل وسيط صلح، وقد بذلت جميع جهودي. اندفعت أعمل بإخلاص وتفانٍ. ولئن كوفئت على ليبراليّتي مكافأة سيئة، فإن هذا نفسه لم يكن سبب رحيلي. لا أحد منا كوفىء حينذاك، أقصد لا أحد من أمثالي. كانت العزة هي التي تدفعني إلى الرحيل، لا الندامة. هاجرت بلا غضب، بلا حقد، بلا حسرة. صدِّق أنني لا أعتقد بأنه آن لي أن أختم حياتي حذاءً. «أنا سيد قبل كل شيء، وسوف أموت سيداً. لكن هذا لا ينفي أنني كنت حزيناً. لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعي. ألف رجل لا أكثر. ولكن هذا العدد يكفي حتى لا تموت الفكرة. نحن حملة الفكرة يا عزيزي. يا صديقي، إنني أكلمك وفي نفسي أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملتبس. لقد جئت بك إلى هنا لا انقياداً لنزوة في قلبي... إنني منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك... نعم لك... لك أنت!... على كل حال، على كل حال...

هتفت أقول:

ـ بل تكلم، تكلم، إنني أقرأ في وجهك الصدق... ماذا عن

Twitter: @ketab_n

أوروبا؟ هل بعثتك أوروبا بعثاً جديداً!... وماذا كان ذلك الضجر، «ضجر السيد»؟ سامحني... إنني لمَّا أفهم بعد.

ـ تسألني هل بعثتني أوروبا بعثاً جديداً؟ فاعلم أنني إنما سافرت لأدفنها!

قلت مدهوشاً:

ـ لتدفنها؟

فابتسم. وقال:

ـ آركادي، صديقي، الآن نفسي رقَّت وفكري اضطرب. لن أنسى أبداً لحظاتي الأولى بأوروبا. كنت قد عشت في أوروبا من قبل، ولكن ذلك كان في عهد خاص، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل ذلك الحزن... ولا بمثل ذلك الحب. سأصف لك واحداً من مشاعري الأولى حينذاك. هو حلم رأيته، حلم حقيقي.

«حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيا. كنت قد غادرت درسدن، ثم تجاوزت المحطة التي كان ينبغي أن أغيِّر فيها القطار، تجاوزتها سهواً وغفلة فسرت في غير الاتجاه الذي كنت أريد أن أسير فيه. فما إن وصلت إلى أول محطة تالية، حتى نزلت. كان الجو صحواً. هي مدينة ألمانية صغيرة. دلوني على فندق. كان يجب عليَّ أن أنتظر: إن القطار التالي يمر في الساعة الحادية عشرة من المساء. ولقد سررت بهذه المغامرة سروراً كبيراً، فلا شيء كان يستعجلني. الفندق صغير رديء، لكنه غارق في الخضرة وشرائط الأزهار، على عادة القوم هناك. أعطيت غرفة صغيرة. ولما كنت قد قضيت الليلة كلها في القطار، فسرعان ما نمت بعد الغداء، في نحو الساعة الرابعة من الأصيل.

«فحلمت حلماً غير مألوف البتة، ما رأيت مثله من قبل أبداً. إن

Twitter: @ketab_n

في متحف درسدن لوحة للرسام كلود لوران جُعل عنوانها في الكاتالوج «آسيس وجالاتي». أما أنا فقد سميت هذه اللوحة دائماً «العصر الذهبي»، لا أدري لماذا! لقد سبق أن رأيت هذه اللوحة. وقبل ثلاثة أيام لاحظتها مرةً أخرى عابراً.

«فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم. لكنني لم أرها صورةً، بل رأيتها واقعاً. إنني لا أتذكر على وجه الدقة ما الذي رأيته في الحلم هذه الرؤية. ولكنني رأيت، كما في اللوحة، ركناً من الأرخبيل اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة: أمواجاً زرقاء هادئة، جزراً وصخوراً، شاطئاً مزهراً؛ وفي بعيد، منظراً كأنه السحر، شمساً غاربة تفتن النظر. يستحيل على المرء أن يصف هذا بألفاظ. إنها الإنسانية الأوروبية تتذكر مهدها: ملأت هذه الفكرة شعاب نفسي بحب كحب الابن أبويه. هذا هو الفردوس الأرضي للإنسانية: الآلهة تهبط من السماء لتؤاخي البشر... آه... ما كان أجملهم، أولئك البشر! كانوا يفيقون وينامون سعداء أبرياء. المروج والحراج الصغيرة تمتلىء بأغانيهم وصيحاتهم الجذلى. فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً. الشمس تغمرهم بدفئها وضيائها، معجبةً بهؤلاء الأطفال الرائعين... إنه حلم أخاذ، طالما فتنت روعته الإنسانية عن نفسها وأزاغت بصرها! إن العصر الذهبي هو الحلم المستحيل الذي حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض، ولكنه على استحالته رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلها، وقواهم كلها، وفي سبيله مات أنبياء وقُتل أنبياء، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش، ولا تريد حتى أن تموت! هذا الإحساس كله، قد عشته في ذلك الحلم. والصخور والبحر، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب، ذلك كله بدا لي أنني لا أزال أراه حين

Twitter: @ketab_n

أفقت من نومي وفتحت عينيَّ المغرورقتين بالدموع. كنت سعيداً. أتذكر هذا. إن إحساساً بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل، قد اختلج في قلبي حتى كاد أن يكون ألماً. كان ذلك حباً للإنسانية كلها.

«وكان المساء قد حل. ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على النافذة، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتي الصغيرة فتغمرني بضيائها. ثم ماذا يا صديقي؟ إن تلك الشمس الغاربة في أول أيام الإنسانية الغربية، التي كنت أراها في الحلم قد استحالت في نظري فجأة منذ أن استيقظت شمساً غاربة في آخر أيام الإنسانية الأوروبية! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينئذ أصوات نواقيس جنازة. لست أعني الحرب وحريق التويلري فحسب. لقد كنت أعلم، بدون الحرب وبدون حريق التويلري، أن كل شيء سينقضي، عاجلاً أو آجلاً، وأن كل وجه العالم الأوروبي القديم سيندرس. ولكنني، أنا الأوروبي الروسي، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا. نعم، كانوا قد حرقوا التويلري! لا، مهلاً، أنا أعرف أن هذا كان «منطقياً». وأنا أدرك تماماً ما كان للفكرة التي راجت آنئذ من قوة لا تقاوم. ولكنني، كممثل للفكر الروسي الرفيع، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا، لأن الفكر الروسي الرفيع يصالح بين جميع الأفكار المتعارضة مصالحة عامة شاملة. ومن ذا الذي كان يمكنه حينذاك، في العالم بأسره، أن يفهم هذا الفكر؟ لقد كنت أطوف وحيداً. لست أتكلم عن نفسي، بل عن الفكر الروسي. هناك، كان الاقتتال والمنطق العنيد. هناك، كان الفرنسي ليس إلا فرنسياً، وكان الألماني ليس إلا ألمانياً، وذلك بعنفٍ لم يشهد تاريخهم كله عنفاً أقوى منه؛ أي إن الفرنسي ما أساء إلى فرنسا يوماً كما أساء إليها في هذه

Twitter: @ketab_n

الفترة، ولا الألماني أساء إلى ألمانيا يوماً كما أساء إليها في هذه الفترة! لم يكن في أوروبا كلها عندئذ أوروبي واحد! أنا وحدي بين جميع مشعلي الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه إنَّ إقدامهم على إحراق التويلري خطأ؛ وأنا وحدي بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أستطيع أن أقول لهم إنّ إحراق التويلري إن كان خطأ فهو منطقي. وذلك، يا عزيزي، لأنني، كروسي، كنت عندئذ، في أوروبا، «الأوروبي الوحيد». لست أتكلم عن نفسي، بل عن الفكر الروسي كله. كنت أضرب في الأرض يا صديقي، كنت أضرب في الأرض، ولا أعرف أنني لم يبق لي إلا أن أسكت وأن أضرب في الأرض. . . ولكنني كنت حزيناً رغم كل شيء. ذلك لأنني، يا ابني، لا أملك إلا أن أحترم نبالتي. تضحك، أليس كذلك؟

قلت بصوت متأثر:

ـ لا، لا أضحك. لا أضحك البتة. إنك برؤياك «العصر الذهبي» قد بثثت الاضطراب في قلبي؛ ثق كل الثقة أنني بدأت أفهمك. غير أن ما يسعدني أكثر من أي شيء آخر هو أنك تحترم نفسك هذا الاحترام كله. أسارع فأصارحك بذلك. ما كنت لأتوقع منك هذا أبداً!

ـ سبق أن قلت لك إنني أحب صيحات تعجبك يا عزيزي!

قال ذلك وابتسم لملاحظتي الساذجة مرةً أخرى، ثم نهض عن مقعده؛ وبدون أن يعي ما يفعل، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. فنهضت أنا أيضاً. وتابع هو كلامه بلغته العجيبة الغريبة، الزاخرة بالفكر مع ذلك.

Twitter: @ketab_n

3

ـ نعم يا بني، أعود فأكرر لك أنني لا أملك إلا أن أحترم نبالتي. لقد نشأ عندنا، خلال القرون، نموذج حضاري أعلى لم يشاهد في أي مكان آخر في الكون، هو نموذج التألم للبشر كافة. هذا نموذج روسي. ولكن لما كان هذا النموذج إنما خلقه الجزء الأعلى ثقافة بين مجموع الشعب الروسي، فإنني أحمل شرف الانتماء إليه. إنه يحتوي مستقبل روسيا. إن عددنا لا يربو على ألف رجل، قد نكون أكثر من ذلك قليلاً وقد نكون أقل من ذلك قليلاً ولكن روسيا كلها إنما عاشت حتى الآن لتنجبنا. رب قائل يقول إن هذا العدد ضئيل جداً، وإنها لفضيحة أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحي بملايين كثيرة من أبنائها في سبيل أن تنجب هذه الصفوة. أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلاً.

كنت أصغي إلى كلامه بجهد شاق، فأرى تعبيراً عن اقتناع تكوَّن خلال حياة بأسرها. إن كلامه هذا عن «الألف رجل» يكشف النقاب عن نفسه كلها. وقدَّرت أن انطلاقه هذا في مكاشفتي إنما مردُّه إلى صدمة خارجية، وأنه يقول لي هذا الكلام الحار كله حباً بي. ولكن السبب الذي من أجله أخذ يتكلم فجأة، والذي من أجله كان يريد أن يتحدث إليَّ، إليَّ أنا خاصةً، ظل مجهولاً عندي.

وتابع كلامه يقول:

ـ هاجرت غير آسف على شيء مما خلفت ورائي. كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما أملك من قوى. وحين سافرت ظللت أخدمها، لكنني وسعت فكرتي. هل كان يجب علي أن أبقى روسيا ضيّقاً، مثلما كان كل فرنسي فرنسياً، وكل ألماني ألمانياً؟

Twitter: @ketab_n

في أوروبا لن يفهموا هذا الكلام. إن أوروبا قد خلقت النماذج النبيلة للفرنسي والإنجليزي والألماني. أما إنسانها في المستقبل فإنها لا تزال تجهل عنه كل شيء تقريباً. وأظن أنها لا تريد أن تعرف عنه شيئاً حتى الآن. وذلك أمر يمكن فهمه: إنهم ليسوا أحراراً، أما نحن فأحرار. أنا وحدي في أوروبا، مع ضجري الروسي، كنت حراً.

لاحظ يا صديقي هذا الشيء الغريب: إن كل فرنسي يستطيع أن يخدم الإنسانية مع بلده فرنسا، ولكن بشرط أن يبقى فرنسياً خاصة. ويصدق هذا على الإنجليزي وعلى الألماني. والروسي وحده، حتى في عصرنا هذا، أي قبل أن تتحقق له صورته النهائية، قد وهب له أن يكون روسياً أكثر لأنه أوتي القدرة على أن يكون أوروبياً أكثر. هذا هو الفارق القومي الأساسي الذي يميزنا عن سائر الناس، فنحن من هذه الناحية لا يشبهنا أحد. أنا في فرنسا فرنسي، ومع الألماني ألماني، ويوناني مع يوناني العصر القديم، وأنا بهذا نفسه روسي دائماً إلى الحد الأقصى. أنا بهذا نفسه روسي حقاً، أقدم لروسيا أكبر قدر من الخدمات، لأنني أجسِّد فكرها الأساسي. أنا رائد هذا الفكر. لقد هاجرت، ولكن هل تركت روسيا؟ لا، لم أتركها. ظللت أخدمها. وهبني لم أعمل شيئاً في أوروبا، هبني لم أذهب إليها إلا لأتجول وأترحل وأضرب في الأرض (ولقد كنت أعرف أنني لا أرحل إليها إلا لهذا الغرض) فحسبي هذا لأذهب إليها مع فكري وضميري. لقد نقلت إلى أوروبا سأمي الروسي. لا، ليس الدم الذي كان يسيل حينئذ هو الذي روَّعني، حتى ولا إحراق التويلري، بل ما كان لا بد أن يتبع ذلك. كان محكوماً عليهم أن يظلوا يقتتلون زمناً طويلاً أيضاً، لأنهم لا يزالون ألماناً

Twitter: @ketab_n

وفرنسيين أكثر مما يجب، ولأنهم لم ينتهوا من عملهم في تمثيل هذا الدور. كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار. إن أوروبا عزيزة على الروسي كروسيا سواء بسواء، كل حجر في أوروبا حبيب إلى قلب الروسي. كانت أوروبا للروسي وطناً كروسيا، بل كانت له وطناً أكثر من روسيا. يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحبها، ولكنني لم ألم نفسي في يوم من الأيام على أنني وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ، أحبَّ إليَّ من روسيا. آه... إن قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية، لتلك الروائع التي تنتمي إلى العالم القديم، تلك البقايا من المعجزات المقدسة. بل إن هذا كله أعزّ على نفوسنا منه على نفوسهم! إن لهم الآن أفكاراً أخرى وعواطف أخرى، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة!... هناك لا يكافح المحافظ إلا في سبيل البقاء. ومشعل الحرائق لا يعمل إلا ليطالب بحقه في قطعة خبز. روسيا وحدها لا تحيا من أجل نفسها، بل من أجل الفكر. اعترفْ يا صديقي بهذه الحقيقة الواضحة: أن روسيا منذ قرابة قرن لا تحيا من أجل نفسها بل من أجل أوروبا فقط! أما هم، فقد نُذروا لآلام رهيبة قبل أن يصلوا إلى ملكوت الرب.

كنت أصغي إليه مضطرباً أشد الاضطراب. أعترف بذلك. حتى لهجة كلامه كانت تروّعني، رغم أنني لم أملك إلا أن أفاجأ بأفكاره. وكان يخيفني إخافةً رهيبة أن يكون فيما يقول كاذباً. فرأيتني ألقي عليه هذا السؤال فجأة بلهجة قاسية:

ـ قلت «ملكوت الرب». وقد علمت أنك عملت هنالك داعيةً ومبشراً، وأنك كنت تثقل جسمك بأصفاد. هل هذا صحيح؟

Twitter: @ketab_n

فابتسم وقال:

ـ دعك من أصفادي. تلك مسألة أخرى. في ذلك العهد لم أكن أبشِّر بشيء بعد. ولكنني كنت أتوق إلى الههم. هذا صحيح. كانوا قد نادوا بالإلحاد... نادى به نفر منهم، نادت به طليعة منهم، ولكن ذلك كان الخطوة الأولى نحو «التنفيذ»، وهذا هو الأمر الخطير. كان سلاحهم المنطق دائماً. وحيث يكون المنطق يكون الضجر. كنت أنا أنتمي إلى حضارة أخرى، فكان قلبي يرفض هذا. كان ذلك العقوق في انفصالهم عن فكرة، وكانت تلك الأصوات التي تنطلق من الصفارات، وكان ذلك التلويث والتلطيخ بالوحل، كان ذلك كله أموراً لا أطيق احتمالها. كانت أساليب الإسكافيين هذه ترعبني. صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً رائحة النعال، حتى حين يصبو المرء إلى المثل الأعلى صبوة لألاءة. ولقد كان علي أن أعرف ذلك. لكنني كنت طرازاً آخر من البشر: كنت حراً في اختياري، ولم يكونوا هم أحراراً. فكنت أبكي، أبكي عليهم، أبكي على الفكرة القديمة. ولعلني بدموع صادقة إنما كنت أبكي، من غير كلام مزوَّق.

سألته غير مصدق:

ـ هل كنت تؤمن بالله هذا الإيمان القوي حقاً؟

ـ يا صديقي، هذا سؤال لعله نافل. هب أني لم أكن أؤمن هذا الإيمان القوي. ذلك لا ينفي أنني كنت لا أملك إلا أن أتحسر على فكرة وأن أحنَّ إليها. كنت في بعض اللحظات لا أفلح في أن أتصور كيف يستطيع الإنسان أن يحيا بدون إله، ولا أن أتصور هل يصبح هذا ممكناً في يوم من الأيام. كان قلبي يجيب دائماً بأن هذا مستحيل. قد يحدث هذا في عهد من العهود إلى حين. وإني لأشك

Twitter: @ketab_n

في أن يأتي هذا العهد. ولكنني كنت أتخيل عندئذ لوحة أخرى مختلفة كل الاختلاف...

ـ ما هي؟

لقد سبق أن صرَّح لي طبعاً بأنه كان سعيداً. وواضح أن أقواله كانت تشتمل على حماسة كبيرة. ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ، ونظرت إليه بهذا المنظار. وإني لما أحمله لهذا الرجل من احترام، لن أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك. غير أن خطوطاً معينة من اللوحة الغريبة التي حملته على أن يرسمها لي ينبغي أن تذكر هنا. ولقد كانت مسألة «الأصفاد» خاصةً هي التي تشغل بالي وتعذبني، فكنت أريد أن تتضح لي، فلذلك ألححت. أن أفكاراً تبلغ غاية الغرابة والعجب مما قاله في ذلك اليوم قد بقيت منقوشة في قلبي إلى الأبد.

بدأ يتكلم وهو يبتسم ابتسامةً يمازجها تفكير، فقال:

ـ إليك اللوحة التي أتخيلها يا عزيزي. أتخيل أن القتال انتهى، وأن الصراع هدأ. فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير، عمَّ الهدوء، وبقي البشر «وحيدين» كما كانوا يريدون: هجرتهم الفكرة الكبيرة التي كانت تعيش معهم، وغاب ينبوع الطاقة الذي كان إلى ذلك الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة، كتلك الشمس الرائعة الآسرة التي نراها في لوحة كلود لوران. ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الإنسانية. فإذا بالبشر يدركون أنهم أصبحوا وحيدين تماماً، ويحسون فجأة أنهم مهجورون هجر اليتامى. يا صغيري العزيز، إنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغبياء. فلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفة والمحبة. وأمسك بعضهم بأيدي بعض،

Twitter: @ketab_n

لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر. إن فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت، فلا بد أن يعتاضوا عنها بغيرها. فإذا بذلك الفيض من الحب الذي كانوا يحملونه لمن هو الخلود، يتحول الآن إلى الطبيعة، إلى العالم، إلى البشر، إلى كل عشبة. سوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة، وسوف يحبونها حباً لا سبيل إلى مقاومته، على قدر شعورهم شيئاً فشيئاً بأن حياتهم عرض زائل، وبأن زمنها محدود، وسوف يكون حبهم حباً خاصاً ليس هو الحب الذي كانوا يحسونه من قبل. سوف يلاحظون في الحياة ويكتشفون فيها ظاهرات وأسراراً لم تخطر لهم إلى ذلك الحين على بال، لأنهم سينظرون إليها بعين جديدة، سينظرون إليها نظرة الحبيب إلى حبيبته. سوف يستيقظون فيسارع بعضهم إلى بعض يتعانقون، ويتحابون، لعلمهم بأن أيامهم زائلة، وأن ذلك هو كل ما بقي لهم. سيعمل بعضهم في سبيل بعض، وسيعطي كلٌّ منهم شيئاً لكل الناس، فيكون بذلك سعيداً. سيعلم كل طفل وسيحس أن كل إنسان على هذه الأرض هو له أب وأم. سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر إلى غروب الشمس: «ليكن الغد آخر أيامي. سأموت. ولكن لا ضير: لأنهم سيبقون هم جميعاً، وبعدهم سيبقى أولادهم». وهذه الفكرة، فكرة أنهم سيبقون وسيظلون متحابين متعاطفين يخاف بعضهم على بعض، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت. لشد ما سيسارعون إلى التحاب، من أجل أن يخنقوا الحزن الكبير الذي في قلوبهم. سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم، ولكنهم سيكونون خجلين وجلين أمام الآخرين. سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر. سيحن بعضهم على بعض. ولن يشعروا بما يشعرون به اليوم من خجل وخزي.

Twitter: @ketab_n

سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال. وحين يلتقون سيتبادلون نظرات عميقة زاخرة بالذكاء، وسيكون في نظراتهم حب وأسى.

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف:

ـ يا عزيزي، ليس هذا كله إلا خيالاً، بل هو خيال لا يمكن أن يتحقق في الواقع. لكنني كثيراً ما تخيلت هذه الصور، لأنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أحيا بدونها، ولا أن أمتنع عن التفكير فيها. ولست أتكلم عن إيماني، فإيماني ليس كبيراً. أنا رجل يؤمن بوجود الله، ولكنه لا يؤمن بالدين؛ رجل يؤمن بوجود الله إيمان فلاسفة، كسائر أولئك الألف من الرجال، أو هذا ما أفترضه. ولكن... ولكن الشيء الذي يلفت النظر هو أنني كنت أنهي لوحتي دائماً برؤيا «المسيح على بحر البلطيق»، كما نرى ذلك عند الشاعر هايني. إنني لم أستطع إلا أن أراه أخيراً بين البشر الذين أصبحوا يتامى. يجيء إليهم، ويمد لهم ذراعيه، ويقول: «كيف نسيتموني؟». فإذا بنوع من حجاب يسقط عن جميع الأبصار، وإذا بنشيد حماسي هو نشيد الانبعاث الجديد الأخير، يأخذ يترجع مدوياً.

«دعنا من هذا يا صديقي؛ أما عن «أصفادي»، فتلك سخافة. لا يشغلن أمرها بالك. هناك شيء آخر: أنت تعرف أن لساني خجول ومقتضب. فلئن استرسلت اليوم في الكلام، فذلك... بسبب عواطف مختلفة، وبسبب أنني معك. لغيرك لن أقول شيئاً أبداً. أضيف هذا لأطمئنك.

كنت متأثراً منفعلاً. إن الكذب الذي كنت أخشاه لا وجود له. ولقد أسعدني خاصةً أن أرى رؤية واضحةً بعد الآن أنه كان يعاني من ضجر حقاً، وأنه كان يتألم ويتعذب، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك: وهذا ما أثر في نفسي أكثر من أي شيء آخر. وقد أعلنت له

Twitter: @ketab_n

ذلك بحماسة. ثم أضفت أسأله فجأة:

ـ ولكن يبدو لي أنك رغم كل ضجرك، كنت سعيداً أقصى السعادة في ذلك الأوان، أليس هذا صحيحاً؟

فقال:

ـ إنك اليوم مصيب في ملاحظاتك. نعم. كنت سعيداً. وهل كان يمكن أن أكون شقياً وأنا في مثل ذلك الضجر؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المترحل الروسي الأوروبي الذي ينتمي إلى أولئك الألف من الأفراد. أقول لك هذا بدون أن أضحك، وفي كلامي كثير من الجد. نعم، ما كنت لأبيع ضجري بأية سعادة. يا عزيزي. ومن السعادة أنني أحببت حينئذ أمك أول حب في حياتي. نعم، فيما كنت أضرب في الأرض وأعاني الضجر، أحببتها فجأة كما لم أحب من قبل، وسرعان ما أرسلت أستدعيها.

قلت:

ـ آ. . . أقصص عليَّ هذا. . . كلمني عن ماما.

ثم أضاف يقول وهو يبتسم فرحاً:

ـ وقد خشيت أن تعفيني من هذا الحديث مستعيضاً عنه بالكلام عن هرتسن أو عن مؤامرة ما. . .

ـ ما جئت بك إلى هنا إلا لأحدثك عن هذا.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

1

قضينا في الحديث كل المساء وشطراً من الليل، فلن أروي كل ما قيل، بل أكتفي بما أوضح لي في النهاية نقطة من حياته كانت عندي لغزاً.

وأبدأ بما يلي: ليس يخامرني أي شك في أنه أحب ماما، فإذا هجرها وانفصل عنها حين سافر إلى الخارج، فلأنه كان مرهقاً بالضجر، أو لسبب آخر من هذا القبيل، وذلك أمر يحدث لجميع الناس في هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله. ثم إنه في الخارج، بعد انقضاء زمن غير قصير، قد عاوده حب ماما فجأةً، من بعيد، بالفكر، فأرسل يستدعيها. رب قائل يقول: «هذه نزوة». ولكنني أقول غير ذلك، ففي رأيي إن ما فعله كان فيه أكبر الجد رغم ما تتصف به طبيعته من تناقضات أسلّم بوجودها. ولكنني أحلف أن ضجره الأوروبي أمر لا شك فيه، وأنه يساوي بل يفوق كثيراً أي شكل من أشكال النشاط العملي في هذا الزمان، كإنشاء سكك حديدية مثلاً. وأنا أرى في حبه للإنسانية عاطفة صادقة كل الصدق، عميقة كل العمق، بريئة من كل كذب أو تزييف. وأرى في حبه لماما أمراً لا يمكن الجدال فيه إطلاقاً، وإن كان جائزاً أنه يشتمل على شيء من غرابة. إنه في الخارج، بينما هو في «ضجر

Twitter: @ketab_n

وسعادة»، وبينما هو في عزلة كعزلة النسَّاك (أضيف هذه الواقعة الخاصة التي أمدتني بها تاتيانا بافلوفنا فيما بعد)، تذكَّرَ ماما على حين فجأة، وتذكَّرَ خديها الخاسفتين خاصة، فأسرع يستدعيها فوراً.

قال لي (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلت غيرها):

ـ يا صديقي، لقد أحسست فجأة أن خدمة الفكرة لا تعفيني أبداً، كإنسان أخلاقي وعاقل، من أن أسعد في أثناء حياتي إنساناً واحداً على الأقل، إسعاداً عملياً.

فسألته متحيراً:

ـ أتكون فكرة مستمدة من الكتب، كهذه الفكرة، هي التي جعلتك تعزم أمرك؟

ـ ليست هذه فكرة مستمدة من الكتب. وقد تكون كذلك فعلاً. إن الأشياء يختلط بعضها ببعض. ولكنني كنت أحب أمك فعلاً، كنت أحبها حباً صادقاً، حباً لا شأن له بالكتب البتة. ولولا أنني كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها، بل عمدت إلى إسعاد أول ألماني ألقاه أو أول ألمانية ألقاها بعد اهتدائي إلى تلك الفكرة. أما عن ضرورة إسعاد إنسان واحد على الأقل أثناء الحياة إسعاداً عملياً، أي إسعاداً فعلياً، فهذه فكرة أنصبها قاعدةً يؤمر بالتزامها كل إنسان مثقف، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يغرس شجرة واحدة على الأقل أثناء حياته، لأن الأشجار يقل عددها في روسيا الآن. بل إن شجرة واحدة لا تكفي. فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يغرس شجرة في كل سنة. إن الإنسان المتفوق المثقف الذي يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحياناً، فيصبح سخيفاً مضحكاً، ويصبح صاحب نزوات، ويصبح بارداً، بل أقول بصراحة أنه يصبح غبياً، في الحياة العملية طبعاً،

Twitter: @ketab_n

بل يصبح آخر الأمر غبياً حتى في نظرياته. وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية، وإسعاد إنسان واقعي واحد على الأقل إسعاداً واقعياً، أن يشفي وأن يجدد نضارة الشخص الذي يحسن هذا الإحسان. قد يكون هذا الرأي سخيفاً من حيث هو نظرية، لكنه متى طُبِّق وأصبح عادة مستحكمة، لا يكون رأياً غبياً إلى الحد الذي قد يتوهمه المرء... لقد جربت هذا بنفسي: فإنني منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأي ـ على سبيل التسلية في أول الأمر، طبعاً ـ بدأت أدرك مدى الحب الذي يحمله قلبي لأمك... ولم أكن قد أدركت أبداً، حتى ذلك الحين، أنني كنت أحبها. حين كنت أعيش معها، كنت أتمتع بها في إبان جمالها، ثم تستبد بي النزوات. ولم أدرك أنني أحبها إلا في ألمانيا. بدأ ذلك بخديها الخاسفين اللذين كنت لا أستطيع أبداً أن أتصورها إلا وأراهما، حتى لأشعر بألم يصهر قلبي، ألم حقيقي، ألم جسمي. هناك يا عزيزي ذكريات أليمة تحدث وجعاً واقعياً. إن جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات، ولكنهم ينسونها، ثم يتفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسمات الوجه أحياناً، فإذا هو ينشَدّ إليها ولا يستطيع منها فكاكاً. أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتي مع صوفيا. وأصبحت هذه التفاصيل توافيني أخيراً من تلقاء نفسها، وتحاصرني جمهرة غفيرة. وكادت هذه الذكريات أن تقتلني عذاباً بينما كنت أنتظر وصولها. غير أن الشيء الذي كان يعذبني خاصة إنما هو ذكرى مذلتها الأبدية لي، واعتقادها بأنها أدنى مني كثيراً في كل أمر من الأمور، وأنني أفوقها كثيراً حتى في الجسم! تصور! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمرة قانية حين كنت أنظر أحياناً إلى يديها وأصابعها التي لم يكن فيها شيء من

Twitter: @ketab_n

أرستقراطية. بل إنها لم تكن تخجل من أصابعها وحدها بل من جسمها كله، رغم أنني أحببت جماله. كانت تشعر معي بحياء دائم يبلغ حد التوحش. وأسوأ ما في الأمر أن هذا الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع. الخلاصة أنها كانت تعدّ نفسها بالقياس إليّ شيئاً لا وجود له، أو شيئاً يكاد يكون غير لائق. وكنت في البداية أظن أنها لا تزال ترى فيَّ سيدها، وأنها كانت تهابني وتخشاني. ولكن الأمر لم يكن كذلك. وإني لأحلف لك مع ذلك أنها كانت أقدر من أي إنسان على معرفة عيوبي ونقائصي، وأنني ما رأيت في حياتي امرأةً لها مثل قلبها رهافة ونفاذ إدراك. لشد ما كانت تشعر بالشقاء حين كنت أضطرها في البداية، أيام كانت لا تزال جميلة جمالاً فاتناً، أن تتزين. كان ذلك منها يشتمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التأذي: كانت تدرك أنها لن تصبح بالتزين سيدة، وأنها لن تكون بلباس أجنبي إلا مضحكة. وهي لا تريد أن يكون لباسها مضحكاً، وتدرك أن لكل امرأة ثياباً تناسبها، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مئات الألوف من النساء اللواتي يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفى! كانت تخاف من نظرة ساخرة قد ألقيها عليها. وما أشد الألم الذي كنت أشعر به حين أتذكر عينيها المدهوشتين اللتين كثيراً ما فاجأتهما محدقتين إليَّ أثناء حياتنا المشتركة: لقد كنت أحس أنها تدرك مصيرها إدراكاً كاملاً، وتعرف المستقبل الذي ينتظرها، حتى لقد كان ذلك يحزنني، وإن لم أكلمها في هذا الأمر، وإنما ظللت أترفع عن الخوض في حديث عنه. ولكن هل تعلم؟ إنها لم تكن في جميع الأحيان خائفة متوحشة كما هي الآن. وهي حتى هذا اليوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأةً وأن تتزين كما تفعل امرأة في العشرين من عمرها.

Twitter: @ketab_n

لكنها في ذلك الوقت، إبان صباها، كانت تعشق الثرثرة والضحك أحياناً، في بيئتها طبعاً، مع الخادمات مثلاً. ولشد ما كانت ترتجف إذا أنا باغتها ضاحكة على حين فجأة، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص إليَّ ببصرها خائفة! في ذات يوم لا يسبق رحيلي إلى الخارج بمدة طويلة، بل هو تقريباً عشية انفصالي عنها، دخلت إلى غرفتها فوجدتها وحيدة بلا شغل، قد وضعت كوعيها على المائدة واسترسلت في تأمل عميق. لم يسبق لها أن بقيت من قبل عاطلة عن العمل في أي يوم من الأيام تقريباً. وكنت في ذلك الأوان قد انقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة. فاستطعت أن أقترب منها برفق ماشياً على رؤوس الأصابع، فأمسكتها فجأة وقبّلتها. انتفضت: لن أنسى في حياتي ما ارتسم على وجهها عندئذ من آيات الافتتان والسعادة. ولكن ذلك لم يلبث أن حل محله احمرار سريع، وقدحت عيناها شرراً. هل تعلم ماذا قرأت في ذلك الشرر؟ «إنك تعطيني صدقة!» وانفجرت تبكي كمن أصابتها نوبة هستريا، زاعمةً أنني روَّعتها. ووقفت أنا واجماً أفكر. إن هذه الذكريات شاقة على النفس يا صديقي. هذا ما نجده لدى كبار الفنانين: إن قصائدهم تصور في بعض الأحيان مشاهد «أليمة» تظل تقبض صدرك طول حياتك كلما تذكرتها. من ذلك مناجاة «عطيل» الأخيرة، ومشهد «أوجين» على قدمي تاتيانا، ولقاء السجين الهارب والطفلة الصغيرة في «بؤساء» فكتور هوجو. إن هذه المشاهد تطعن قلبك مرةً، ثم يبقى الجرح نازفاً إلى الأبد. آه... ما كان أشد نفاد صبري وأنا أنتظر وصول صوفيا، ولم كنت أود أن أقبّلها في أقرب وقت؟ لقد أخذت أضع برنامجاً كاملاً لحياة جديدة. أخذت أفكر في الوسائل التي سأعمد إليها لأزيل من نفسها، شيئاً بعد شيء،

Twitter: @ketab_n

بجهد متصل منظم، خوفها الدائم مني، ولأفهمها قيمتها الكبيرة، ولأجعلها تدرك أنها تفوقني كثيراً. آه... لقد كنت أعلم، حتى منذ ذلك الحين، أنني أحب أمك متى انفصلت عنها، فإذا اجتمعنا من جديد، فتر حبي وبرد. ولكن شيئاً آخر حدث حينذاك.

كنت مدهوشاً. وهذا سؤال يبرق في ذهني: ماذا عنها «هي»؟ وسألته في حذر.

ـ وكيف تم اللقاء؟

ـ في ذلك الوقت؟ لم يتم لقاء. وصلتُ إلى مدينة كونجسبرج بعد عناء شديد، وبقيت بها، وكنت أنا على نهر الراين. لم أذهب إليها، بل أرسلت آمرها بأن تبقى حيث هي. التقينا بعد ذلك بمدة طويلة... مدة طويلة جداً... حين ذهبت أستأذنها في أن أتزوج.

2

لن أذكر هنا إلا الأشياء الأساسية، أي ما استطعت أن أحفظه. زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسل ولا ترابط، وتضاعف تفكك أقواله وتشوشها واضطرابها عشر مرات منذ بلغ من حديثه هذا الموضع.

لقد لقي كاترينا نيقولايفنا مصادفةً، حينما كان ينتظر ماما، بل حينما كان نفاد صبره أثناء هذا الانتظار قد بلغ قمته. كانوا يومئذ جميعاً على نهر الراين، يقضون موسم المياه المعدنية. وكان زوج كاترينا إيفانوفنا يحتضر تقريباً، أو قل على الأقل كان الأطباء يائسين منه فهو بحكم المحتضر.

خطفت كاترينا إيفانوفنا بصر أبي منذ أول لقاء، حتى لكأنها رمته بسحر. كان ذلك قدراً محتوماً. لاحظوا أنني، وأنا أسجل وأتذكر

Twitter: @ketab_n

الآن هذا كله، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل في حديثه كلمة «الحب» مرة واحدة، ولا قال أنه «شغف»، وإنما استعمل كلمة «القدر»، فحفظت هذه الكلمة.

ولقد كان الأمر قدراً بالفعل. إنه «لم يرد» ذلك، لم يرد أن يحب. لا أدري هل أقدر أن أعبِّر عن هذا تعبيراً واضحاً. المهم أنه كان مستاءً بكل نفسه من أن هذا الأمر قد أمكن أن يقع له. إن كل ما كان يملكه من حرية قد زال دفعة واحدة حين كان ذلك اللقاء، ووجد الرجل نفسه مشدوداً حتى الأبد إلى امرأة ليس بينه وبينها شيء مشترك. إنه لم يرغب في أن يستعبده الهوى هذا الاستعباد. يجب أن أقول اليوم بصراحة: إن كاترينا نيقولايفنا نموذج نادر في نساء المجتمع الراقي، نموذج لعل المرء لا يقع عليه في تلك البيئات. هي نموذج امرأة بسيطة صريحة إلى أقصى حدود البساطة والصراحة. ولقد سمعت، بل علمت من مصدر موثوق به، أن هذا بعينه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل إلى مقاومتها حين تظهر في المجتمع (وكانت في كثير من الأحيان تبتعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً). وكان فرسيلوف، أثناء ذلك اللقاء الأول، لا يظن أن لها هذه المزايا، حتى لقد ظن نقيض ذلك، أي اعتقد أنها امرأة متصنعة منافقة. وسأستبق الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هي فيه. لقد قالت إن رجلاً مثالياً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم، لأن المثالي حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سائر الناس على افتراض جميع أنواع العيوب». لا أدري هل يصدق هذا الرأي على المثاليين عامةً، ولكنني أعرف أنه يصدق عليه. وأحب أن أضيف هنا رأيي أنا، وهو رأي تكوَّن في ذهني بينما كنت أصغي إليه: لقد قلت لنفسي إنه كان يحب ماما

Twitter: @ketab_n

حباً إنسانياً شاملاً إن صح التعبير، لا ذلك الحب العادي الذي يشتعل في نفس المرء حين يحب امرأة، وأنه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادي، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضه، بسبب عدم التعود في أغلب الظن. على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ. وأنا لم أعبِّر له عنها على كل حال. ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً. لا سيما وأنه كان في حالة توجب على المرء أن يداريه. لقد كان مضطرباً اضطراباً رهيباً. حتى إنه في بعض المواضع من حديثه كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحياناً، ويبقى صامتاً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة...

ولم تلبث كاترينا نيقولايفنا إن نفذت إلى سره، ولعلها تغنجت له: إنَّ الأنثى لا تتنازل عن القيام بدورها، حتى أطهر النساء. هذه عندهن غريزة لا يستطعن مقاومتها. ثم انتهى كل شيء بقطيعة عنيفة، بل أظن أنه أراد أن يقتلها. لقد أخافها، ولعله كان يمكن أن يقتلها. «لكن ذلك كله استحال فجأة إلى كره». ثم جاءت مرحلة أخرى عجيبة. لقد تملكته فكرة غريبة على حين فجأة: أن يعذِّب نفسه باتباع رياضة نفسية قاسية هي «تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان. فباتباع هذه الرياضة اتباعاً تدريجياً منظماً مطرداً تتوصل إلى التغلب على إرادتك، بادئاً بأتفه الأشياء وأيسرها، منتهياً بتحقيق انتصار كامل على إرادتك، فتصبح حراً». وأضاف إن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتعذيب النفس ليست لعباً، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة. على أن أهم ما في الأمر هو أن فكرة «ترويض» النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عن رغبة في التحرّر من كاترينا نيقولايفنا، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يحب كاترينا نيقولايفنا وإنما هو يكرهها. وقد بلغ من قوة الاعتقاد

Twitter: @ketab_n

بهذا الكره أنه زُيِّن له فجأة أن يحب ابنة زوجها، التي أغواها الأمير وتركها، وأن يتزوجها، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد، واجتذب إليه حبَّ تلك البلهاء المسكينة التي هيأ لها هذا الحب في الأشهر الأخيرة من حياتها سعادة كاملة. لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لا تزال تنتظره بمدينة كونجسبرج، بدلاً من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندي بلا جواب!... لقد نسي ماما نسياناً مباغتاً تاماً، حتى لقد انقطع عن إرسال شيء من المال إليها لتعيش، فاضطرت أن تستنجد بتاتيانا بافلوفنا التي أغاثتها وكفلت لها الخلاص. ولكنه ذهب إلى ماما فجأة ليطلب منها «إذناً للزواج من تلك الفتاة»، متعللاً بأن «خطيبةً كهذه ليست امرأة». قد تكون هذه الصورة كلها صورة رجل «مستمد من الكتب» كما وصفته بذلك كاترينا نيقولايفنا فيما بعد، ولكن لماذا يكون هؤلاء «الرجال المستمدون من الكتب» (إذا صح أنهم كذلك) قادرين على أن يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء، وأن يصلوا إلى مآسي كهذه المآسي؟ على أنني في ذلك المساء قد فكرت في الأمر تفكيراً يختلف عن هذا قليلاً، وبرقت في ذهني فكرة أخرى:

ـ إن ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتاك عذاباً ومعارك ظللت تخوضها طوال حياتك، أما هي فقد تلقت الكمال مجاناً. وهذا ليس من المساواة في شيء. ذلك ما يثير الحنق في المرأة.

قلت له هذا لا لأرضيه، وإنما قلته بحرارة وحتى باستياء. فقال مدهوشاً من كلماتي:

ـ الكمال؟ كمالها؟ ألا إنها محرومة من أي كمال! إنها امرأة عادية جداً. امرأة لا قيمة لها بتاتاً... ولكنها مضطرة أن تحصّل كل أنواع الكمال.

Twitter: @ketab_n

قلت:

ـ لماذا مضطرة؟

فصاح غاضباً:

ـ لأنها تملك قوةً كهذه القوة، فهي مضطرة أن تحصّل كل أنواع الكمال.

ـ الأمر المحزن أنك معذَّب حتى الآن.

أفلتت مني هذه الجملة بغير إرادة. فوقف أمامي متحيراً، وقال مردداً:

ـ حتى الآن؟ معذَّب؟

وأضاءت وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة، ورفع أصبعه كمن قرر أمراً. حتى إذا ثاب إلى نفسه تماماً تناول من على المائدة رسالة مفضوضة ورماها أمامي قائلاً:

ـ خذ! اقرأ! يجب أن تعرف كل شيء على الإطلاق... لماذا تركتني أنبش هذه الحماقات كلها طول هذه المدة؟ إن هذا لا يزيد على أن يعذّب قلبي!...

لن أستطيع أن أعبِّر عما اعتراني من دهشة! لقد وصلته هذه الرسالة منها «هي»، في هذا اليوم نفسه، الساعة الخامسة من المساء. قرأت الرسالة وأنا أرتعش من الانفعال تقريباً. لم تكن الرسالة طويلة. لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أنني كنت، وأنا أقرؤها، أتمثل كاتبتها أمامي وأسمع صوتها متكلمة. إن كاترينا نيقولايفنا تعبِّر له في هذه الرسالة تعبيراً مخلصاً كل الإخلاص (أي تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه، ثم تتوسل إليه أن «يدعها وشأنها تعيش في سلام»، وتبلغه في ختام الرسالة أنها ستتزوج بيورنج فعلاً. ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم أبداً.

Twitter: @ketab_n

وإليكم ما فهمته من أقواله:

ما كاد يفرغ من قراءة هذه الرسالة حتى أحس في نفسه فجأة بأمر لم يكن يتوقعه قط: لقد شعر، لأول مرة خلال هاتين السنتين المشؤومتين، بأنه لا يحمل لها أي كره، ولا تهتز لها نفسه أي اهتزاز، هو الذي «فقد صوابه» منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنج. حتى لقد قال لي بعاطفة عميقة: «بالعكس: باركتها من كل قلبي». سمعت منه هذه الكلمات معجباً. هكذا زايله كل ما كان يضطرم في قلبه من هوى ومن عذاب، زايله دفعةً واحدة، من تلقاء نفسه، كأنه كان حلماً، كأنه كان مساً ثم مضى! وقد دهش هو من نفسه، فأسرع يذهب إلى أمي، فدخل عليها لحظة أصبحت «حرة»، أي لحظة مات الشيخ الذي أوصاه بالأمس أن يتزوجها. ولقد هزته هاتان المصادفتان هزاً قوياً. وبعد قليل، خرج يبحث عني. لن أنسى أبداً أنني سرعان ما خطرت بباله.

لا ولن أنسى نهاية تلك السهرة. إن هذا الرجل قد تبدل مرةً أخرى تبدلاً كبيراً مباغتاً. بقينا معاً إلى ساعة متأخرة من الليل. سأتحدث فيما بعد عن الأثر الذي أحدثه فينا «النبأ»، سأتحدث عنه في حينه. أما الآن فسوف أقتصر على بضع كلمات أختم بها كلامي عنه هو. إنني لأدرك، حين أفكر الآن، أن ما فتنني فيه حينذاك هو ذلك النوع من الانقياد لي، ذلك الإخلاص الصادق في مخاطبة فتى مثلي! لقد هتف يقول: «كان ذلك ضلالاً. ولكن بورك ذلك الضلال! فلولاه لكان يمكن ألا أهتدي في قلبي، اهتداءً كاملاً أبدياً، إلى ملكتي الوحيدة، إلى شهيدتي، أمك». هذه الكلمات الحارة التي أفلتت منه بقوة لا تقاوم، إنما أسجلها هنا من أجل تتمة القصة. ولكنه كان قد غزا قلبي وأسر نفسي.

Twitter: @ketab_n

أذكر أننا صرنا في النهاية إلى مرح جنوني. أمر بشمبانيا، فشربنا «نخب» ماما، و«نخب» المستقبل. وكان يزخر حياة، ويفيض تأهباً وتهيؤاً للحياة! ولكن مرحنا الجنوني لم يكن سببه الخمر: فلم يشرب كل منا إلا كأسين اثنين. لا أدري لماذا أصبحنا في النهاية نضحك عاجزين عن كبح ضحكنا. أخذنا نتكلم في أمور لا قيمة لها. روى نكات. ورويت نكات. وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة، خالية من أية سخرية، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً. وكان لا يريد أن يخلي سبيلي فهو ما ينفك يقول: «ابق، ابق»؛ وبقيت. حتى إذا خرجت صحبني.

كان الليل رائعاً، وكان جليد خفيف.

سألته فجأة بدون سابق تفكير، وأنا أصافحه مرة أخيرة عند منعطف:

ـ قل لي هل أجبتها؟

ـ لا، لم أجبها بعد. ولكن لا قيمة لهذا. تعال غداً، تعال في وقت أبكر. آ. . . شيء آخر: أترك لامبرت نهائياً، ومزّق «الوثيقة» بأقصى سرعة. أستودعك الله.

قال ذلك ومضى فجأة. فبقيت مسمَّراً في مكاني وقد بلغت من الاضطراب أنني لم أجرؤ أن أناديه. هزَّتني كلمة «الوثيقة» خاصة: من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لامبرت؟ وعدت إلى البيت قلقاً أشد القلق. وبرق في ذهني سؤال: كيف يمكن أن يزايله في مثل لمح البصر «مَسٌّ دام سنتين»، ثم إذا هو يختفي كحلم، يتبدد كدخان، يغيب كرؤيا؟

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

1

استيقظت في الغداة أنضرَ همةً وأحسن حالاً. حتى لقد رأيتني آخذ على نفسي، بغير غضب، شيئاً من الخفة ونوعاً من التعالي ظهرا عليَّ أمس حين كنت أصغي إلى بعض الفقرات من «اعترافه». لقد كان اعترافه مفككاً في بعض الأحيان، وكان عدد من أقواله غامضاً مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه. ولكن هل كان قد أعدَّ خطابَ خطيبٍ حين دعاني إلى بيته؟ حسبي أنه شرفني باللجوء إليَّ كما يلجأ صديق إلى صديقه الوحيد في مثل اللحظة التي كان فيها. لن أنسى له هذا ما حييت. بل لقد كان اعترافه «مؤثراً في القلب»، أقول هذا ولو سخر من هذا التعبير ساخرون. ولئن اشتمل هذا الاعتراف على عناصر مستهترة، أو حتى مضحكة قليلاً، فلقد كنت أرحب صدراً وأوسع أفقاً من ألا أفهم أو ألا أقبل الواقعية ـ دون أن ألطِّخ المثالية على كل حال. أخيراً فهمت هذا الرجل؛ ولقد ساءني وأحزنني قليلاً أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة: هذا الإنسان، كنت في قرارة قلبي أنزله أعلى منزلة، وأضعه فوق السحاب. وكان لا بد لي حتماً أن ألفع مصيره برداء من السر، وكنت أتمنى طبعاً ألا ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة. ثم لقد كان هناك، في لقائه «معها»، وخلال

Twitter: @ketab_n

هاتين السنتين من العذاب، أشياء أخرى كثيرة معقدة: «لم يرد ذلك القدر. كان في حاجة إلى الحرية لا إلى عبودية القدر. عبودية القدر هذه هي التي اضطرته أن يجرح شعور ماما التي كانت تنتظره في لونجسبرج...». وعدا ذلك، كان هذا الإنسان في نظري داعية ومبشراً على كل حال: كان يحمل في قلبه العصر الذهبي، ويعرف مستقبل الإلحاد. ثم إذا بلقائه معها قد حطم كل شيء، وشوَّه كل شيء. أنا لم أخنها طبعاً، ولكنني مع ذلك قد انحزت إليه. كنت أقول لنفسي: ما كان لماما مثلاً أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجته. وكنت أحس أن لقاءه مع «الأخرى» أمر مختلف كل الاختلاف. صحيح أن ماما ما كانت لتجيئه بالهدوء والسكينة. ولكن هذا أفضل. إن أمثال هؤلاء الرجال ما ينبغي أن يُحكم عليهم بالمقاييس التي يُحكم بها على غيرهم. إن لهم شأناً خاصاً. إن حياتهم ستنقضي دائماً على هذا النحو. وليس في ذلك شذوذ. بالعكس: فإنما الشذوذ أن يجدوا الهدوء، أو أن يصبحوا كسائر الناس المتوسطين. إن افتخاره بالنبالة وقوله «سأموت سيداً» لم يقلقاني. لقد أدركت ما السيد الذي كان يعنيه: إنه السيد الذي يهب كل شيء، ويبشر بمواطن الكون، ويشيع الفكرة الروسية الداعية إلى «لقاء الأفكار لقاءً شاملاً». لعل هذا كله كان سخافات وحماقات، أعني «لقاء الأفكار لقاءً شاملاً» (مع أنه لا غنى عنه طبعاً)، ولكن ألم يكن حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب؟ ولكن أنا... رباه... ها أنا انحنيت لعجل الذهب حين تصورت فكرتي؟ هل المال هو ما كنت في حاجة إليه؟ يميناً لم أكن في حاجة إلا إلى الفكرة! يميناً لو ملكت المال لما نجَّدت كرسياً واحداً ولا ديواناً واحداً بالقطيفة، ولما أكلت غير صحن الحساء الذي آكله اليوم مع مائة مليون!

Twitter: @ketab_n

لبست ثيابي، وشعرت بقوة تدفعني إليه ولا أستطيع مغالبتها.

يجب أن أضيف هنا أنني فيما يتعلق بإشارته إلى الوثيقة أمس، قد وجدتني أهدأ بالاً. قلت لنفسي إنّني قد أبحث هذا الموضوع معه. وأي ضير في أن يكون لامبرت قد تسلل إليه وحدّثه عن شيء؟ وكانت فرحتي الكبرى هي إحساسي الغريب بأنه أصبح لا «يحبها». كنت مقتنعاً بهذا اقتناعاً مطلقاً. وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبي. حتى إنني أتذكر افتراضاً مرَّ بخاطري: إن ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ عجيب رهيب حين جاءه نبأ بيورنج، وما لجأ إليه عندئذ من إرسال رسالته تلك التي احتوت على سب وشتم، أقول إن ذلك العنف كله ربما كان إيذاناً بتغير جذري في عواطفه وعودة سريعة إلى الحس السليم والعقل الراجح. قلت لنفسي: إن هذا لا بد أن يكون شبيهاً بالنوبة التي تحدث في مرض ثم يعقبها نقيضها! فما ذلك إلا مرحلة طبية! وقد أسعدتني هذه الفكرة.

وهتفت أقول: «الآن فلتتصرف في مصيرها كما تشاء، ولتتزوج بيورنج ما حلا لها ذلك، فإنما المهم أنه هو، أبي، صديقي، قد زال حبه لها.». على أن عواطفي أنا قد كان فيها سر. ولست أريد في مذكراتي هنا أن ألحَّ عليه أو أكشف عنه.

ولكن كفى! الآن سأروي جميع الأهوال التي تعاقبت، بدون أي مداراة في هذه المرة.

2

في الساعة العاشرة، فيما كنت أتهيأ للخروج (لأذهب إليه طبعاً) جاءت داريا أونيسيموفنا. فسألتها مرحاً هل هو أرسلها إليَّ،

Twitter: @ketab_n

فأحزنني أن أعلم أنه ليس هو الذي أرسلها، وإنما أرسلتها آنا آندرييفنا، وأنها ـ هي داريا أونيسيموفنا ـ «قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح».

ـ أي بيت؟

ـ البيت نفسه، بيت الأمس. إن البيت الذي كنت فيه أمس، أعني بيت الطفل، مستأجر الآن باسمي أنا، ولكن تاتيانا بافلوفنا هي التي تدفع . . .

قاطعتها غاضباً أقول:

ـ ما شأني أنا وهذا! ولكن هو، هل هو في البيت؟ هل أجده إذا ذهبت إليه؟

فما كان أشد دهشتي حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هي، فإذا كانت قد خرجت هي عند طلوع النهار، فقد خرج هو قبل طلوع النهار.

ـ لعله يكون قد رجع إلى البيت الآن؟

ـ لا، إنه لم يرجع حتماً، وربما لا يرجع أبداً.

قالت ذلك وهي تحدِّق إليَّ بنظرتها الحادة الماكرة التي سبق أن ضقت بها وانزعجت منها حين زارتني مريضاً في السرير. إن ما أحنقني بخاصة هو هذه الأسرار وهذه السخافات التي تعود إلى الظهور: إنَّ هؤلاء الناس يصرّون على ألا يستغنوا عن الألغاز والمكر.

ـ لماذا قلت «ربما لا يرجع أبداً»؟ ماذا تعنين بهذا؟ لقد ذهب إلى ماما وهذا كل شيء!

ـ لا أدري.

ـ ولكن ما جاء بك أنت؟

Twitter: @ketab_n

فقالت لي إنّها الآن آتية من عند آنا آندرييفنا، وإنّ آنا آندرييفنا تدعوني أن أجيء إليها حالاً، وإلا «فات الأوان». فأحنقني هذا الكلام الملغز مرة أخرى وأخرجني عن طوري:

ـ لماذا يفوت الأوان؟ لا أريد أن أذهب إليها ولن أذهب! لن أنقاد للتضليل مرة جديدة! إنني لا أعبأ بلامبرت! قولي لها هذا. فإذا أرسلت لي لامبرت، فلأطردنَّه ركلاً بقدمي.

ارتاعت داريا ارتياعاً رهيباً.

قالت وهي تتقدم مني خطوةً وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى ضارعة متوسلة:

ـ لا، انتظر. لا تسرع إلى الغضب هذا الإسراع. إن الأمر خطير، بل خطير جداً بالنسبة إليك، وإليهم أيضاً، إلى آندريه بتروفتش، وإلى أمك، وإلى الجميع. فاذهب إلى آنا آندرييفنا حالاً، لأنها لا تستطيع أن تنتظرك مدة أطول... أحلف لك بشرفي. وبعد ذلك تتخذ قراراً.

نظرت إليها مدهوشاً مشمئزاً. وهتفت أقول بعناد وعداوة:

ـ سخافات. لن يحدث شيء. لن أذهب. تغير الآن كل شيء. هل أنت قادرة على أن تفهمي؟ مع السلامة يا داريا أونيسيموفنا. لن أذهب. عمداً لن أذهب. وعمداً لن أسألك عن شيء. وإلا أفقدتني صوابي. لا أريد أن أحشر أنفي في أسراركم.

ولكنها لم تنصرف، بل ظلت متسمرة في مكانها، فلم يسعني إلا أن أتناول معطفي وطاقيتي، وأن أخرج تاركاً إياها في وسط الغرفة. لم يكن في غرفتي رسائل ولا أوراق، ولا كنت أقفلها بالمفتاح في أي يوم من الأيام تقريباً حين أخرج. ولكن ما كدت أصل إلى الباب المفضي إلى الشارع حتى رأيت مؤجر غرفتي بيتر

Twitter: @ketab_n

ايبوليتوفتش يركض ورائي بدون قبعة وبدون سترة.

ـ آركادي ماكاروفتش! آركادي ماكاروفتش!

ـ ما بك أنت أيضاً؟

ـ ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج؟

ـ لا.

فنظر إليَّ نظرة نافذةً فيها قلق واضح، وقال يسأل:

ـ فيما يتعلق بالبيت مثلاً؟

ـ فيما يتعلق بالبيت؟ ألم تستلم الأجرة؟

ـ ليس الأمر أمر الأجرة...

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة طويلة على حين فجأة، ويظل يتفحصني بنظرته. فصحت أقول غاضباً:

ـ ولكن ماذا حدث لكم جميعاً؟ ماذا تريد أنت؟

فانتظر بضع ثوان، كأنه لا يزال يأمل مني شيئاً. ثم دمدم يقول وهو يبتسم ابتسامة أطول:

ـ إذن تأمرني فيما بعد، ما دمت الآن معتكر المزاج. طيب. مع السلامة. أنا أيضاً يجب أن أذهب إلى المكتب.

وعاد يصعد السلم راكضاً. إنّ هذا كله يبعث على التفكير طبعاً. وأنا أتعمد ألا أغفل أي تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة، لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد في مجموعها المتشابك. هذه حقيقة. ولئن ضقت ذلك الضيق كله، وحنقت ذلك الحنق كله، فلأنني عدت أجد في أقوالهم لهجة المكر واللغز تلك التي كنت أتقزز منها وكانت تذكرني بالماضي.

ولكن فلأتابع حديثي.

لم أجد فرسيلوف في البيت: كان قد خرج فعلاً مع طلوع

Twitter: @ketab_n

النهار. وقفت أقول لنفسي: «سأجده عند ماما حتماً». ولم أسأل الخادمة عن شيء. إنها امرأة غبية. ولم يكن في البيت أحد غيرها. ركضت متجهاً إلى بيت ماما. أعترف بأنني كنت قلقاً غاية القلق. حتى لقد ركبت عربة بعد أن قطعت نصف الطريق. فعرفت هناك «أنه لم يأتِ إلى بيت ماما منذ مساء الأمس». لم يكن مع ماما إلا تاتيانا بافلوفنا وليزا. وما إن دخلت حتى تأهبت ليزا للخروج.

لا تزالان تقيمان فوق، في «تابوتي». وتحت، في الصالون، كان جثمان ماكار إيفانوفتش مسجّى على المائدة، وكان شيخ مجهول يقرأ عليه المزامير. لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالقضية اتصالاً مباشراً. لكنني أحب أن أسجل أن النعش الذي صُنع له ووُضع في الغرفة لم يكن نعشاً مبتذلاً: صحيح أنه أسود، ولكنه مفروش بقطيفة؛ والكفن ثمين: ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته. ولكن تلك كانت رغبة ماما وتاتيانا بافلوفنا، حرصتا عليها أشد الحرص.

لم أكن أنتظر طبعاً أن أراهنَّ في مرح. لكنني ما إن رأيت الحزن الساحق والقلق الشديد والهم الثقيل في أعينهن حتى قدَّرت أن «هناك شيئاً آخر غير المتوفى قطعاً». أعود فأكرر أنني أتذكر هذا تذكراً واضحاً.

ومع ذلك قبلت ماما بحنان، ثم لم ألبث أن سألتها «عنه». فسرعان ما اشتعل في نظرتها استطلاع قلق. فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة معاً إلى ساعة متأخرة من الليل، ولكنني لم أجده اليوم في البيت، فقد خرج مع طلوع النهار، رغم أنه طلب مني في الليلة البارحة، حين افترقنا، أن أجيء إليه في أبكر وقت. لم تجب ماما بشيء، ولكن تاتيانا بافلوفنا انتهزت فرصةً فلوحت لي بأصبعها مهدِّدة.

Twitter: @ketab_n

وقالت ليزا فجأة بلهجة قاطعة وهي تخرج من الغرفة مسرعة:

ـ أستودعك الله، أخي.

وبادرت ألحق بها طبعاً، فوجدتها واقفةً تنتظرني عند الباب.

قالت لي بهمس سريع:

ـ قدَّرت أنك ستنزل.

ـ ماذا حدث يا ليزا؟

ـ أنا نفسي لا أعلم. ولكن لا بد أن أشياء كثيرة قد حدثت. لا بد أنها خاتمة هذه «القصة الأبدية». لم يأتِ. ولكن وصلتهم أخبار عنه. لن يحكوا لك شيئاً. فكن هادئاً، ولا تسألهم أي سؤال إذا كنت تملك بعض الذكاء. أنا أيضاً لم أسأل. ماما مرهقة. إلى اللقاء!

وفتحت الباب. قلت:

ـ ليزا! وأنت، أليس بك شيء؟

ووثبت أدركها في الدهليز. إن هيئتها المهدودة المكروبة اليائسة قد طعنت قلبي. فنظرت إليَّ نظرة لم تكن غاضبة فحسب، بل كانت كاسرة أيضاً. ثم ابتسمت ابتسامة مرة، وحركت يدها بإشارة يأس.

وفيما كانت تهبط السلم منصرفةً، هتفت تقول:

ـ إذا مات فيجب أن نحمد الله.

كانت تعني الأمير سرجي بتروفتش الذي كان راقداً مع حمى وغيبوبة. حدّثتُ نفسي محنقاً: «القصة الأبدية؟ أية قصة أبدية؟» وسرعان ما ساورتني رغبة قوية في أن أحدثهم عن جزء ـ على الأقل ـ مما أحسست به بعد سماع «اعترافه» في الليلة البارحة، وأن أذكر لهم ذلك الاعتراف ذاته. «إنهم يحملون آراء سيئة فيه. ألا فليعلموا إذن كل شيء!». تلك هي الفكرة التي لمعت في خاطري.

Twitter: @ketab_n

أذكر أنني بدأت الكلام بغير خراقة، فسرعان ما أثرت اهتمامهما واجتذبت انتباههما. حتى إن تاتيانا بافلوفنا كانت تشرب أقوالي شرباً، وذلك شيء لم يسبق أن حدث من قبل. وكانت أمي أكثر تحفظاً. كانت رصينة جداً، ولكن ابتسامة خفيفة رائعة، وإن تكن يائسة كل اليأس، قد أضاءت وجهها ولازمته إلى نهاية الحديث. واسترسلت في الكلام، رغم علمي بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول. وقد أدهشني كل الإدهاش أن تاتيانا بافلوفنا لم تحاول أن تناكدني، فلا سألتني توضيحات ولا نصبت لي فخاخاً، كما كان من عادتها أن تفعل حين أتكلم. وكانت تقتصر على أن تزم شفتيها وتغمض عينيها نصف إغماض من حين إلى حين كأنما هي تجهد أن تفهم. حتى لقد بدا لي في بعض اللحظات أنهما كانتا تدركان كل شيء. غير أن ذلك كان مستحيلاً في الواقع. تحدثت مثلاً عن اعتقاداته وآرائه، وعن حماسته أمس، عن حماسته لماما خاصةً، عن حبه لماما، ورويت كيف قبَّل صورتها... فكانتا، وهما تصغيان إلى كلامي، تتبادلان نظرات سريعة صامتتين. واحمرت ماما احمراراً شديداً. وظلتا كلتاهما لا تقولان شيئاً. ثم... ثم... كنت لا أستطيع طبعاً، بحضور ماما، أن ألمس النقطة الأساسية، أعني لقاءه مع الأخرى، و«انبعاثه» الروحي بعد تلقيه تلك الرسالة. وكان ذلك هو الأمر الجوهري في الواقع. وهكذا فإن جميع عواطفه التي عبَّر عنها في الليلة البارحة والتي كنت آمل أن أبهج بها ماما كثيراً، بقيت غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال، ولم يكن الذنب في ذلك ذنبي، لأن كل ما كان يمكنني أن أقوله، قد قلته بل أحسنت قوله جداً. فلما انتهيت كنت مرتبكاً أشد الارتباك. واستمر صمتهما. فوجدت نفسي معهما في ضيق شديد. فقلت وأنا أنهض لأنصرف:

Twitter: @ketab_n

ـ لا بد أنه رجع إلى البيت الآن. أو لعله ذهب إلى بيتي فهو ينتظرني هناك.

فقالت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة بلهجة قاطعة:

ـ طيب. اذهب إليه، اذهب إليه!

وسألتني ماما بهمس:

ـ هل ذهبت إلى تحت؟

ـ نعم، حييت جثمانه، وصلَّيت له. ما أجمله من وجه هادىء يا ماما! شكراً لأنك لم تقصِّري في أمر النعش أيَّ تقصير. لقد استغربت ذلك في أول الأمر، ولكنني سرعان ما أدركت أنني لو كنت في مكانك لفعلت ما فعلته أنت.

سألتني أمي مختلجة الشفتين:

ـ هل تأتي غداً إلى الكنيسة للجنازة؟

فقلت مدهوشاً:

ـ كيف لا يا ماما؟ سأحضر قداس اليوم، وآتي غداً أيضاً. وغداً عيد ميلادك يا ماما، يا صديقتي الغالية! لم ينقصه إلا ثلاثة أيام!

وانصرفت مدهوشاً دهشة أليمة: يا له من سؤال سخيف! كيف تسألني هل آتي إلى الكنيسة أم لا؟

وإذا كانتا تخشيان ألا آتي أنا، فما عسى تكون خشيتهما من ألا يأتي «هو»؟

وكنت أعلم أن تاتيانا بافلوفنا قد تلحق بي، فتعمدت أن أقف عند العتبة. وأدركتني فعلاً، لكنها دفعتني بيدها إلى السلّم، وخرجت بعدي وأغلقت الباب.

ـ تاتيانا بافلوفنا! هل تتوقعان إذن ألا يجيء آندريه بتروفتش لا اليوم ولا غداً؟ إنني خائف...

Twitter: @ketab_n

ـ اسكت. يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً!!... قل: إنك لم تذكر كلَّ شيء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة، أليس كذلك؟

لم أجد داعياً إلى الكتمان، فحكيت لها ـ وأنا شبه غاضب على فرسيلوف ـ حكاية الرسالة التي وصلته من كاترينا نيقولايفنا، والأثر الذي أحدثته تلك الرسالة في نفسه إذ بعثته بعثاً جديداً. فما كان أشد استغرابي حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها، فأدركت أنها على علم بأمرها.

ـ ألا تكذب فيما تقول؟

ـ لا، لا أكذب.

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر، ثم قالت:

ـ هه! بُعث بعثاً جديداً! لا ينقص إلا هذا! هل صحيح أنه قبَّل الصورة؟

ـ صحيح يا تاتيانا بافلوفنا.

ـ قبّلها بعاطفة، أم تظاهر تظاهراً؟

ـ تظاهر تظاهراً؟ هل يتظاهر أحياناً؟ عيب يا تاتيانا بافلوفنا! إن لك نفساً قاسية، نفس امرأة!

قلت ذلك بحرارة، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعني. كانت قد عادت تغرق في أفكارها رغم شدة البرد على السلّم. كنت أنا مرتدياً معطفي، أما هي فكانت بفستانها فقط.

قالت باحتقار وتململ:

ـ كان يمكن أن أعهد إليك بمهمة، ولكن المؤسف أنك غبي غباء شديداً. اسمع: إذهب إلى آنا آندرييفنا، وانظر ماذا يحدث عندها. لا بل لا تذهب! فلن تكون هناك إلا غبياً. امش. ما بقاؤك هنا متسمراً كنصب؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا ، لن أذهب إلى آنا آندرييفنا! ومع ذلك فإن آنا آندرييفنا هي التي أرسلت تستدعيني إليها اليوم.

ـ هي نفسها؟ أرسلت داريا أونيسيموفنا؟

كانت تاتيانا بافلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتنصرف، لكنها ما إن سمعت كلامي حتى التفتت إليَّ ثانية وطرحت ذلك السؤال وهي تغلق الباب من جديد.

كررت أقول متلذذاً:

ـ لن أذهب إلى آنا آندرييفنا بحال من الأحوال. لن أذهب إليها، لأنني وُصفت منذ هنيهة بأنني غبي، مع أنني لم أكن في حياتي ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم. إن قضاياكم كلها موضوعة على راحة كفي، أراها رؤية واضحة أكبر الوضوح! على كل حال، لن أذهب إلى آنا آندرييفنا.

فهتفت تقول وهي لا تزال تفكر:

ـ كنت أعرف هذا! لسوف يوثقونها الآن ويضعونها في الكيس.

ـ آنا آندرييفنا؟

ـ غبي!

ـ من تعنين إذن؟ كاترينا نيقولايفنا؟ أي كيس؟

جزعت جزعاً رهيباً. إن فكرة غامضة، لكنها فظيعة، قد برقت في نفسي كلها. وألقت عليَّ تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقبة، وسألتني فجأة:

ـ وأنت ما شأنك وهذا كله؟ ما دورك في هذا الأمر؟ لقد سمعت شيئاً عنك أنت أيضاً. حذار.

ـ اسمعي يا تاتيانا بافلوفنا. سوف أكشف لك سراً رهيباً. ولكن ليس الآن. الآن لا يتسع الوقت. غداً سأكشف لك عن ذلك السر، على انفراد. ولكن قولي لي الحقيقة كلها فوراً: ما هذا

Twitter: @ketab_n

الكيس الذي تتحدثين عنه؟ ذلك أن جسمي كله يرتعد ارتعاداً شديداً. . .

صاحت تقول:

ـ لا يهمني أن يرتعد جسمك أو لا يرتعد. ما هذا السر الذي تريد أن تبوح لي به في الغد أيضاً؟ هل تعرف شيئاً بالفعل؟ قل ما تعرفه بصراحة. . .

وعادت تلقي عليَّ نظرتها الفاحصة. ثم قالت تسألني:

ـ ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت؟

وتابعت أنا أيضاً كلامي دون أن أجيب عن سؤالها لأنني كنت خارجاً عن طوري:

ـ تاتيانا بافلوفنا، أكرر لك. . . لا تعذبيني. . . انتبهي يا تاتيانا بافلوفنا. . . فبسبب ما تخفينه عني قد تقع مصيبة أكبر. لقد كان أمس في حالة انبعاث كامل.

ـ امش يا مهرِّج! أنت أيضاً هائم حباً. . . الأب والابن مولهان بحب امرأة واحدة! تفو! إنكما لمقززان!

واختفت. وصفقت الباب وراءها استياءً وامتعاضاً وشعرت أنا بغضب شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذي لا يمكن أن تصل إليه إلا امرأة، فخرجت راكضاً وقد جُرح شعوري جرحاً عميقاً. ولكنني لن أحدثكم عن مشاعري المضطربة: فقد عاهدتكم على ذلك. لن أحكي إلا الوقائع التي ستضع في أيديكم الآن مفتاح كل شيء.

وقد انطلقت إليه طبعاً، فأخبرتني الخادمة مرة أخرى بأنه لم يرجع. سألتها:

ـ ولن يرجع؟

Twitter: @ketab_n

ـ الله أعلم!

3

الوقائع، الوقائع! ولكن ما الذي سيستطيع أن يفهمه القارىء؟ أتذكر أنني، أنا نفسي، وقد سحقتني تلك الوقائع ذاتها، كنت لا أستطيع أن أفهمها، فما انتهى النهار إلا كان عقلي قد انقلب رأساً على عقب فعلاً! لذلك سأسبق الأحداث ببضع كلمات.

إليكم ما كان يدور عليه قلقي وعذابي: إذا كان قد بُعث بالأمس بعثاً جديداً فكفَّ عن «حبها» فأين يجب أن يكون اليوم؟ الجواب: أولاً، عندي، أنا الذي قبَّلني البارحة، ثم فوراً عند أمي، التي قبَّل صورتها. ولكنه بدلاً من أن يقوم بهاتين الخطوتين، غادر البيت عند «طلوع النهار»، واختفى لا يدري أحد أين، وتقول داريا أونيسيموفنا أنه في أغلب الظن لن يعود. أكثر من ذلك. إن ليزا تتحدث عن خاتمة «القصة الأبدية»، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه، أحدثُ من هذه الأخبار أيضاً. وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التي بعثتها إليه كاترينا نيقولايفنا (لاحظت أنا هذا)، ولكنهم رغم كل شيء لا يصدِّقون أنه «بعث بعثاً جديداً»، وإن كانوا قد أصغوا إليَّ بانتباه شديد. كانت ماما مهدَّمة تهديماً، وكانت تاتيانا بافلوفنا تبتسم ابتسامة ساخرة حين أنطق بكلمة «الانبعاث» هذه. معنى ذلك إذن أنه قد وقعت له في الليل ثورة أخرى، وقعت له نوبة أخرى، بعد كل حماسته وحنانه وتأثره بالأمس! ومعنى ذلك إذن أن هذا «الانبعاث» كله قد تبدد كفقاعة صابون! ولعله الآن يعاني ذلك الاهتياج المسعور نفسه الذي أصابه حين جاءه نبأ بيورنج! فإذا صحَّ هذا فما عسى يحدث لماما؟ وما عسى يحدث

Twitter: @ketab_n

لي أنا، ولنا جميعاً... وما عسى يحدث لها «هي» خاصة؟ ما الكيس الذي كانت تعنيه تاتيانا حين أمرتني أن أذهب إلى آنا آندرييفنا؟ لا بد أن «الكيس» إذن عند آنا آندرييفنا؟ ولماذا عند آنا آندرييفنا؟

وهُرعت إلى آنا آندرييفنا طبعاً. كنت تعمدت عن غضبٍ أن أقول إنني لن أذهب إليها. ثم هُرعت الآن. ولكن ما الذي قالته تاتيانا بافلوفنا عن الوثيقة؟ أليس هو الذي قال لي أمس: «احرق الوثيقة»؟

تلك كانت خواطري. ذلك ما كان يخنقني. ولكنني كنت في حاجة إليه «هو» خاصة. معه يمكن أن أحل كل شيء في طرفة عين، يمكن أن نتفاهم ببضع كلمات: آخذ يديه، وأشد عليهما، وأجد في قلبي الأقوال الحارة المناسبة. كذلك كنت أحلم. إن في وسعي أن أنتصر على جنونه!... ولكن أين هو؟ أين هو؟ وما كان ينقصني في مثل تلك اللحظة إلا أن ألقى لامبرت، بينما أنا في مثل ذلك الفوران! وكدت أصل إلى البيت، فإذا أنا أقع على لامبرت فجأة. فأخذ يطلق صيحات فرح إذ رآني. وتناول يدي.

ـ هذه هي المرة الثالثة التي أجيء إليك فيها. «أخيراً»! هلمَّ بنا نتغدى.

ـ انتظر. أنت آت من بيتي؟ هل آندريه بتروفتش هناك؟

ـ لا، ليس من أحد هناك. دعهم جميعاً! أنت زعلت أمس يا أحمق! كنت سكران. هناك حديث جرى بيني وبينك. علمتُ اليوم أنباء رائعة عمَّا كنا نتكلم فيه أمس...

قاطعته أقول لاهثاً متعجلاً، صائحاً بعض الصياح برغم إرادتي:

ـ لامبرت، لئن وقفت فإنني لم أقف إلا لأقطع صلتي بك قطعاً نهائياً. وقد، قلت لك هذا بالأمس، غير أنك تصر على أن لا

Twitter: @ketab_n

تفهم. لامبرت، أنت صبي وغبي في آن واحد، كفرنسي. تتخيل دائماً أنك لا تزال عند توشار وأنني لا أزال أحمق كما كنت عند توشار. . . ولكنني الآن غير ما كنت عند توشار. كنت أمس سكران، ولكن سبب سكري لم يكن الخمر بل لأني كنت مهتاجاً من قبل أن أشرب. ولئن أيّدت ما كنت تقوله، فقد كنت أتظاهر تظاهراً لأعرف تفكيرك. لقد خدعتك، فسررت أنت وصدقتني واستمررت في الثرثرة. اعلم أن زواجي بها حماقة لن يصدّقها تلميذ من تلاميذ الصف الإعدادي في يوم من الأيام. هل يمكن أن يتخيل أحد أن أصدِّق هذا الكلام؟ لكنك تخيلته أنت! مرد ذلك إلى أنك لا تُستقبل في المجتمع، الراقي، ولا تعرف ما يجري فيه. إن الأمور لا تجري عندهم بمثل هذه السهولة. ليست الأمور بسيطة هذه البساطة في المجتمع الراقي. ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تتزوجني. سأقول لك بوضوح ماذا تريد أنت: تريد أن تجتذبني فتسقيني إلى أن أسكر فأسلمك الوثيقة وأشاركك في مؤامرة حقيرة على كاترينا نيقولايفنا! اعلم إذن أنك مخطىء. لن أجيء إليك أبداً. واعلم أيضاً أن الورقة ستكون بين يديها غداً أو بعد غد، لأن تلك الورقة ملك لها، لأنها هي التي كتبتها، وسأسلِّمها إليها بنفسي، فإذا أردت أن تعرف أين سأسلِّمها إياها فاعلم أن ذلك سيكون في مسكن تاتيانا بافلوفنا، وبحضور تاتيانا بافلوفنا، صديقتها، ولن أطالب بشيء ثمناً لذلك. والآن: إلى الأمام، سر! وإلا، وإلا يا لامبرت، فسأكون أقل أدباً. . .

قلت ذلك وأخذت أرتجف. إن أسوأ عادة لدى كل إنسان وأضرَّ عادةٍ بكل إنسان، في كل ظرف، هي أن يصطنع وضع التعاظم. ما كان أغناني عن هذا الاندفاع الحار أمامه! ما كان أغناني عن هذا

Twitter: @ketab_n

الخطاب الذي كنت أوَّقع كلماته مترنماً وأرفع صوتي فيه أكثر فأكثر، ثم أنهيه بذكر تلك النقطة التفصيلية النافلة، فأقول إني سأسلمها الوثيقة بنفسي في مسكن تاتيانا بافلوفنا؟ لقد أحسست فجأة برغبة قوية في إدهاشه وإذهاله! فحين تكلمت عن الوثيقة بتلك الفظاظة رأيت جزعاً غبياً يعتريه بغتة، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل! فكانت هذه الثرثرة المغرورة التي تلاحظ في النساء سبباً في وقوع كوارث رهيبة، لأن هذه النقطة التفصيلية. المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا ومسكنها سرعان ما نقشت في ذهنه الذي هو ذهن إنسان حقير ورجل عملي في الأمور الصغيرة. إنه في الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً، أما في هذه التفاصيل الجزئية فإنه حاضر البديهة دائماً. فلو أنني لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا، لتجنبت وقوع مصائب كثيرة. ومع ذلك فإنه بعد أن أصغى إليَّ بدا كمن فقد صوابه. قال مجمجماً:

ـ اسمع. آلفونسين ستغني... آلفونسين ذهبت «إليها»... إسمع. عندي رسالة، أو رسالة تقريباً، تتحدث فيها آخماكوفا عنك. المجدور هو الذي زوَّدني بهذه الرسالة. هل تتذكر المجدور؟ سترى، سترى! هلمَّ بنا!

ـ كذاب! أرني الرسالة!

ـ هي في البيت، عند آلفونسين. هيَّا بنا إلى البيت!

كان يكذب طبعاً، كان يهذي، مخافة أن أفلت منه. لكنني تركته فجأة في وسط الشارع، وحين همَّ أن يتبعني، وقفت أهدِّده بأصبعي. فتردد لحظةً فأتيح لي أن أختفي: لعل خطةً أخرى كانت قد نبتت في رأسه منذ ذلك الحين. لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة إليَّ. إنني حين أتذكر اليوم الحافل بالشقاء،

Twitter: @ketab_n

يبدو لي دائماً أن تلك المفاجآت واللقاءات إنما كانت على موعد لتنهلَّ عليَّ غزيرة رهيبة. إنني ما إن فتحت باب مسكني حتى اصطدمت في حجرة المدخل بشاب طويل القامة له وجه بيضوي شاحب، ومشية مهيبة «راقية»، يرتدي معطفاً رائعاً، ويزين وجهه بنظارة أنف. كانت له نظارة أنف. ولكنه حين رآني خلعها (من قبيل المجاملة الأنيقة)، وقال لي وهو يبتسم ابتسامة رقيقة ويُنهض قبعته الطويلة بأدب وتهذيب، ولكن دون أن يقف: «آ. . . مساء الخير!» (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السلّم. لقد عرف كل منا الآخر على الفور، رغم أنني لم أره إلا مرة واحدة سريعة بموسكو. إنه أخو آنا آندرييفنا، الحاجب بالبلاط، الشاب فرسيلوف، ابن فرسيلوف، أي أخي تقريباً، وكانت المؤجّرة تصحبه مشيعة (لم يكن زوجها قد عاد من المكتب بعد). فلما انصرف هجمت أسألها:

ـ ماذا يعمل هنا؟ هل كان في غرفتي؟

ـ لا، لم يكن في غرفتك. جاء يزورني أنا. . .

كذلك أجابتني بلهجة قاطعة خشنة وهي تدير ظهرها. فهتفت أقول صارخاً:

ـ لا، لن يمر الأمر هكذا. أجيبي من فضلك ماذا جاء يعمل هنا؟

ـ أوه! هل من واجبي أن أحكي لك لماذا يجيء الناس؟ أظن أن من حقنا، نحن أيضاً، أن تكون لنا شؤون خاصة. لعل هذا الشاب جاء يقترض مالاً، أو جاء يسألني عن عنوان، أو لعلني وعدته في المرة السابقة أن. . .

ـ في المرة السابقة؟

ـ آ. . . طبعاً! في المرة السابقة. إنه لم يجيء اليوم أول مرة!

Twitter: @ketab_n

وانصرفت. أدركت أن اللهجة في البيت تغيرت: أخذوا يغلظون لي القول! هذا سر جديد! الأسرار تتراكم عند كل خطوة، في كل ساعة! في المرة الأولى جاء الشاب فرسيلوف مع أخته، آنا آندرييفنا، حينما كنت مريضاً. تذكرت هذا تذكراً واضحاً. وتذكرت كذلك جملةً قصيرة مدهشة أفلتت أمس من آنا آندرييفنا: وهي أن الأمير العجوز سيقف عندي. ولكن هذا كله كان يبلغ من الغرابة أنني لم أستطع أن أفهم شيئاً. فرأيتني ألطم جبيني، وأهرع إلى بيت آنا آندرييفنا حتى دون أن أجلس لأستريح. ولم أجد آنا آندرييفنا في بيتها، لكن البواب السويسري أجابني بأنها «سافرت إلى تسارسكويا، وأنها لن ترجع إلا غداً في مثل هذه الساعة تقريباً».

ـ سافرت إلى تسارسكويا! ذهبت إلى الأمير العجوز حتماً، وذهب أخوها إلى مسكني يفتشه! لا، هذا مستحيل!

وصررت بأسناني قائلاً: «إذا كان هناك تهديد حقاً، فسوف أدافع عن «المرأة المسكينة»!.

ومن بيت آنا آندرييفنا لم أرجع إلى بيتي، لأن رأسي الملتهب قد انبجست فيه، على حين فجأة، ذكرى المطعم الذي يقع تحت مستوى الأرض، والذي اعتاد آندريه بتروفتش أن يذهب إليه في ساعات حزنه. فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً، وهرعت إلى المطعم فوراً. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، وكان المساء يهبط. قيل لي في المطعم إنه جاء، «فلبث لحظةً ثم انصرف، وقد يعود». فقررت فجأة، بكل ما أملك من طاقة، أن أنتظره، فأمرت لنفسي بغداء. هناك أمل على الأقل!

وتغديت بل ظللت آكل طبقاً بعد طبق حتى يحق لي البقاء أطول مدة. أظن أنني مكثت زهاء أربع ساعات. لا أصف حزني،

Twitter: @ketab_n

وتلهفي المحموم. لقد كان كل شيء فيَّ يهتز ويرتعش. إن هذا الأرغن البرباري، وهؤلاء الشاربين، وهذا الضجر، إن هذا كله قد نُقش في نفسي، ولعله نُقش فيها إلى الأبد! لا ولا أصف الأفكار التي كانت تعصف في رأسي كغمامة من أوراق أشجار يابسة في فصل الخريف بعد إعصار. كان في رأسي شيء من هذا القبيل حقاً، وكنت في بعض اللحظات أحس بأن عقلي قد بارحني فعلاً. أعترف بهذا.

غير أن ما كان يعذبني خاصة (عدا عذابي الرئيسي طبعاً) إنما هو ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً في يوم من الأيام... كانت هذه الذكرى كذبابة سامة من ذباب الخريف تدور، وتئز، وتصمت، وتحاصر، ثم تلسع لسعاً موجعاً على حين فجأة. فإليكم حكاية هذه الذكرى، لأنها، هي أيضاً، يجب أن تُروى في موضع ما من هذه القصة.

4

حينما كنت بموسكو وتقرر أن أسافر إلى بطرسبرج، أبلغني نيقولا سيمونوفتش أن هناك مالاً سيصلني من بطرسبرج كنفقات للسفر. لم أسأل من الذي سيرسل إليَّ المال، إذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذي سيرسله. وكنت في ذلك الحين أحلم بلقائي مع فرسيلوف ليلاً ونهاراً، خافقَ القلب طموحَ المشاريع، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث في هذا الأمر حتى إلى ماريا إيفانوفنا. يجب أن أذكِّر من جهة أخرى أنني كنت أملك مالاً أنفقه على الرحلة. ولكنني قررت رغم كل شيء أن أنتظر! وكنت أقدِّر أن المال سيصلني بالبريد.

Twitter: @ketab_n

ولكن ها هو ذا نيقولا سيمونوفتش يعود إلى البيت ذات يوم فيبلغني (باختصار، على عادته، وبدون إلحاح) أن عليَّ أن أذهب غداً إلى بيت الأمير ف. . . سكي بشارع مياسنتسكايا، في الساعة الحادية عشرة من الصباح، فهناك سيسلِّمني حاجب البلاط، فرسيلوف، ابن آندريه بتروفتش، الذي وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقه في المدرسة الثانوية، الأمير ف. . . سكي، هناك سيسلِّمني المبلغ المرسل إليَّ كنفقاتٍ للرحلة. بدت لي المسألة بسيطة غاية البساطة: فمن الجائز جداً أن يكون آندريه بتروفتش قد عهد بهذه المهمة إلى ابنه، بدلاً من إرسال المبلغ بالبريد. ومع ذلك فإن هذا النبأ قد أمسك بخناقي وأخافني خوفاً غير طبيعي. لا شك في أن فرسيلوف قد أراد أن يعرِّفني بابنه، الذي هو أخي. كذلك تصورت نيات الرجل الذي كنت أحلم به، وتصورت عواطفه. ولكن سؤالاً ضخماً قد انتصب أمامي: كيف أتصرف وكيف يجب أن أتصرف في هذا اللقاء الذي لم أتوقعه البتة، وهلاَّ يجرح هذا اللقاء كرامتي؟

وفي الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد، دخلت بيت الأمير ف. . . سكي. إنها شقة عازب. ولكنه بدا لي البيت فاخر الأثاث. وكان فيه خدم بالملابس الرسمية. وقفت في حجرة المدخل. فكانت تصل إليَّ من الداخل أصوات حديث حار وضحكات. إن لدى الأمير ف. . . سكي ضيوفاً آخرين غير حاجب البلاط. ذكرت للخادم اسمي وطلبت منه أن يبلغ عن وصولي. وأغلب الظن أني فعلت ذلك بشيء من الخيلاء. المهم أنني لاحظت أن الخادم حين انصرف عني قد نظر إليَّ نظرة غريبة، بل إنه لم يولني حقي من الاحترام فيما بدا لي. وما كان أشد دهشتي

Twitter: @ketab_n

حين رأيته يغيب مدة طويلة، زهاء خمس دقائق، كنت أسمع خلالها رنين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها!

وقد انتظرت واقفاً بطبيعة الحال، لأنني، وأنا «سيد مثله»، لا يليق بي بل يستحيل عليَّ أن أجلس في حجرة المدخل التي يرابط فيها الخدم. ومن جهة أخرى لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسي، بدون دعوة خاصة، فأدخل الصالون، فذلك لا يتفق وكبريائي. لعلها كانت كبرياء مغالية، ولكن هذا ما كان! وقد أدهشني أن أرى الخدم الذين بقوا (وعددهم اثنان) يسمحون لأنفسهم أن يجلسوا بحضوري. فأشحت عنهم متظاهراً بأنني لم أر ذلك منهم، ولكن أخذ جسمي كله يرتجف. ثم التفت فجأة، ودنوت من أحد الخادمين «فأمرته» بأن يمضي يبلغ عني مرةً أخرى على الفور. ولكن الخادم، رغم قسوة نظرتي وشدة اهتياجي، نظر إليَّ في كسل دون أن ينهض، وأجابني الآخر نيابة عنه:

ـ تم الإبلاغ عن وصولك. اطمئن!

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة، واحدة فقط، أو أقلَّ من ذلك، ثم «أنصرف». لقد كانت ثيابي حسنة: فبدلتي جديدة، ومعطفي جديد، وقميصي نضر كل النضارة عنيت به ماريا إيفانوفنا عنايةً خاصة لهذا اللقاء. ولكن الخدم، كما علمت بعد مدة طويلة، ببطرسبرج، من «مصدر موثوق به»، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف، أنه سيجيء إلى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً. الآن أعرف هذا معرفة اليقين.

انقضت الدقيقة. إن ذلك الإحساس الذي يحسه المرء حين يريد أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك: «أأمضي أم لا؟ أأنصرف أم لا؟»، كنت أحسه في كل ثانية من الثواني وأنا أكاد أرتعش. وفجأة

Twitter: @ketab_n

رجع الخادم الذي ذهب يبلغ عن وصولي. كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء، أي أربعين روبلاً. فقال لي:

ـ خذ. إليك هذه الأربعين روبلاً!

غلى دمي وفار. يالها من إهانة! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذي هيأه فرسيلوف للأخوين، لبثت أحلم به طوال الليل. وطوال الليل ظللت أتساءل محموماً: كيف يجب أن يكون سلوكي حتى لا أخفض قدر نفسي، وحتى لا أسيء إلى ذلك الصرح كله من الأفكار الذي بنيته في عزلتي وأستطيع أن أعتز وأن أفتخر به في أية بيئة. كنت أقول لنفسي: سأظهر نبلاً، وكبرياء، وقد أظهر شيئاً من الحزن والأسى أيضاً، بل قد أظهر قدراً من الخشونة والجفوة حتى في صحبة الأمير ف... سكي، فبذلك أدخل هذا المجتمع دخولاً مهيباً. آه... لا أحب أن أداري نفسي، فعلى هذا النحو إنما يجب أن تُسجَّل هذه التفاصيل الأليمة كلها! وفجأة: أربعون روبلاً، تُرسل إليَّ مع خادم، إلى حجرة المدخل، بعد انتظار دام عشر دقائق، ويقدِّمها إليَّ الخادم رأساً، بيده، بأصابعه، لا موضوعة على صحن، ولا مودعة في ظرف!...

صرخت في وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع القهقرى، وأمرته بأن يعيد المال إلى سيده حالاً «ليحمله سيده إليَّ بنفسه!»، أي أنني طلبت طلباً لا شك أنه كان في نظر الخادم غير معقول ولا مفهوم. ولكن صراخي قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر. هذا عدا أن صرخاتي سُمعت في الصالون، فسرعان ما توقفت أصوات الأحاديث والضحك فوراً.

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة، ثم إذا أنا أرى قامة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لي يومئذ أشد

Twitter: @ketab_n

شحوباً ونحولاً منه في هذا اللقاء الثاني) تظهر في العتبة أو قل تقف على مسافة بضعة سنتمترات من العتبة. كان يرتدي ثوباً للمنزل رائعاً مصنوعاً من حرير أحمر، وينتعل بابوجين ويضع على عينيه نظارة أنف. وها هو ذا يتفرس فيَّ من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة، فتقدمت منه خطوةً، كوحش كاسر، ووقفت أمامه متحدياً، أحدِّق إليه بنظرة ثابتة. ولكنه لم يتأملني هذا التأمل إلا برهة قصيرة لا تزيد على عشر ثوان، ثم إذا بسخرية خفيفة لا تكاد تُرى تظهر على شفتيه، ولكنها مع ذلك سخرية جارحة جداً، جارحة لأنها لا تكاد تُرى. ثم ها هو ذا يدور على كعبيه، ثم يرجع إلى حيث كان، دون تعجل، بل بهدوء ورفق وخطى موزونة كما جاء. آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون إهانة الناس منذ طفولتهم، في أسرتهم، من أمهاتهم! وقد فقدت حضور بديهتي طبعاً. آه... لماذا فقدتها؟

وفي تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الخادم نفسه حاملاً بيديه تلك الورقات نفسها، وقال:

ـ تفضل بقبولها. إنها مرسلة من بطرسبرج. لا يمكن استقبالك. «ربما استقبلك «السيد» في مرة أخرى، حين يكون لديه متسع من الوقت أكبر».

أحسست أن الكلمات الأخيرة قد أضافها هو. ولكن اضطرابي استمر في إضعاف نفسي. فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب. فبسبب ذلك الاضطراب إنما أخذت المال، وكان ينبغي في الواقع أن أرفضه. ولم يفت الخادم، من أجل إهانتي طبعاً، أن يغضب غضبة جديرة بخادم حقاً فأسرع يفتح الباب أمامي واسعاً، حتى إذا مررت قال بوقار ولهجة خاصة:

ـ تفضل!

Twitter: @ketab_n

فزأرت أقول وأنا أرفع يدي ولكن دون أن أهوى بها:
ـ أنت وغد. وسيدك وغد آخر، فقل له هذا فوراً.
أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلَّم مسرعاً.
ـ لا يحق لك! ولو نقلت كلامك إلى «السيد» فوراً، لاستطاع «السيد» أن يرسلك إلى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه. أما تهديدي أنا، فلا يحق لك...

هبطت السلّم. إنه سلّم مترف عريض مكشوف. فيمكن أن أُرى من أعلى نازلاً على السجادة الحمراء. فكان الخدم الثلاثة قد خرجوا واتكئوا بأكواعهم على قمة الدرابزين ينظرون إلى انسحابي. وقد قررت أن ألزم الصمت طبعاً: كيف أشاجر خدماً؟ ووصلت إلى تحت، دون أن أتعجل الخطى، وإنما أتعمد البطء فيما أظن.

رب حكماء (شيطان يأخذهم!) يقولون إن هذا كله حساسية لا داعي إليها، وتأذ في غير محله، وحنق لا يصدر إلا عن أغرار! قد يكون هذا الكلام صحيحاً. غير أن الأمر كان بالنسبة إليَّ جرحاً عميقاً، جرحاً لم يمكن أن يندمل حتى الآن، حتى في هذه اللحظة التي أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء، بل أنتقم لكل شيء. يميناً يميناً ما أنا بالحقود ولا بمن يتحرق إلى الانتقام. صحيح أنني أشتهي دائماً، إلى حد التألم، أن أنتقم ممن ينالني بإهانة. ولكنني أحلف لكم أنني بالسماحة أنتقم. إنني أرد على الإهانة رداً فيه سماحة، فيكفيني أن يشعر المسيء وأن يدرك أنني كنت سمحاً كريماً، حتى أحس أنني انتقمت منه. يجب أن أضيف في هذه المناسبة أنني لا أتحرق إلى الانتقام، ولكنني حقود وإن أكن سمحاً كريماً: هل يشبهني في هذا جميع الناس؟ لقد وصلت إلى بيت الأمير ف... سكي فيَّاض النفس بعواطف كريمة... قد تكون عواطف

Twitter: @ketab_n

مضحكة. . . لا مانع. . . ولكن لأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءه ووضاعة!

لم أحدِّث أحداً عن هذا اللقاء الذي تمَّ بيني وبين «أخي»، ولم أكاشف به حتى ماريا إيفانوفنا، ولم أبح بسرِّه حتى لليزا حين جئت إلى بطرسبرج. كان ذلك اللقاء بمثابة صفعة أليمة جللتني بالخزي والعار. ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد في ظروف يا لها من ظروف عجيبة! وها هو ذا يبتسم لي، ويرفع قبعته احتراماً، وينزع حتى نظارته تودداً، ويقول لي فجأة بلهجة فيها صداقة: «مساء الخير» (بالفرنسية). إن هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً. . . ولكن الجرح نُكِئ وَنَزَف!

5

بعد الانتظار في المطعم مدةً تزيد على أربع ساعات وجدتني كمن أصابته نوبة على حين فجأة، فإذا أنا أخرج وأتجه مسرعاً إلى بيت فرسيلوف. إنه لم يرجع إلى البيت. وكانت الخادمة سأمانة، فرجتني أن أرسل إليها داريا أونيسيموفنا بسرعة. هه! هذا ما كان يشغل بالي! وذهبت إلى بيت ماما أيضاً، ولكنني لم أدخل، وإنما استدعيت لوكيريا إلى الدهليز، فعلمت منها أنه لم يظهر، وأن ليزا غابت. ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألني أيضاً، بل لعلها ودَّت لو تعهد إليَّ بمهمة، ولكن هل كان يمكنني أن أصغي إليها؟ هناك أمل أخير: لعله ذهب إلى بيتي. ولكنني لم أصدِّق أن يكون قد ذهب إلى بيتي!

سبق أن قلت إن عقلي كان اضطرب واختل تقريباً. وهأنذا أجد في غرفتي: آلفونسين والمؤجر. بل قل إنني وجدتهما يخرجان من

Twitter: @ketab_n

غرفتي. وكان بيتر إبيوليتوفتش يحمل شمعة.

صرخت أقول له:

ـ ما هذا؟ كيف تجاسرت أن تُدخل إلى غرفتي هذه التافهة؟

فهتفت آلفونسين تقول بالفرنسية:

ـ «غريب... والأصدقاء؟».

فزأرت قائلاً:

ـ أخرجي من هنا.

ـ «دب حقاً».

وفرت إلى الممر متظاهرةً بالخوف، واختفت في غرفة صاحبة البيت. واقترب مني بيتر إبيوليتوفتش بهيئة قاسية وهو يحمل شمعدانه:

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك يا آركادي ماكاروفتش إلى أنك قد أسرفت في الاندفاع. ومهما يكن احترامنا لك، فإننا لا يسعنا إلا أن نذكِّرك بأن مدموازيل آلفونسين لا توصف بالتافهة. بالعكس! إنها لم تأتِ لتزورك أنت بل لتزور زوجتي. لقد تعارفنا منذ بعض الوقت.

فكررت سؤالي وأنا أمسك رأسي الذي أصابه ما يشبه بالصداع فجأة:

ـ ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتي؟

ـ مصادفة!... دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التي كنت قد فتحتها لتهوية الغرفة، وإذ كنا مستمرين في الحديث الذي بدأناه أنا وآلفونسين كارلوفنا، فقد دخلت الغرفة معي متابعةً كلامها، دون أن تشعر.

ـ هذا كذب. آلفونسين جاسوسة. ولامبرت جاسوس. وربما

Twitter: @ketab_n

كنت أنت أيضاً جاسوساً. لقد جاءت لتسرق شيئاً.

ـ قل ما شئت. اليوم تقول شيئاً، وغداً تقول شيئاً آخر. أريد أن أبلغك أنني أجرت مسكني الشخصي، أجرته إلى حين، وسنقيم أنا وامرأتي في حجرة المكتب. ويترتب على هذا أن آلفونسين كارلوفنا هي الآن من سكان البيت تقريباً، مثلك.

هتفت أسأله مرتاعاً:

ـ أجرت مسكنك للامبرت؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التي لاحت في وجهه عند الصباح ولكن فيها الآن ثباتاً لم يكن لها حينذاك، وقال:

ـ لا، لم أؤجره للامبرت. أظن أنك تعرف لمن أجرته، وإنما أنت تتظاهر بالجهل تفكهاً وتسلية! وإذا غضبت فمن باب التقيد بالشكل. ليلتك سعيدة.

ـ نعم، نعم، دعني هادئاً.

وحرَّكت يديَّ متململاً، وكدت أبكي من شدة ضيقي، فلم يسعه إلا أن يدهش وهو ينظر إليَّ. ولكنه خرج. فدفعت المزلاج، وتهالكت على سريري، ودفنت وجهي في الوسادة. كذلك انقضى ذلك اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشؤومة التي تختم مذكراتي.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

1

ولكني سأستبق الأحداث مرةً أخرى. إني أرى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القارىء ببعض المعلومات، لأن المجرى الأساسي لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن القارىء يمكن أن يتوه ما لم يُزوَّد ببعض الإيضاحات سلفاً. ما ذلك «الكيس» الذي أشارت إليه تاتيانا بافلوفنا؟ إن آنا آندرييفنا قد رأت أخيراً أن تقدم على خطوة هي أجرأ خطوة يمكن تصورها في هذا الوضع. امرأة جسور حقاً! لقد نقل الأمير العجوز، بحجة المرض، إلى تسارسكويا سيلو؛ وترتب على ذلك أن نبأ اعتزامه الزواج بآنا آندرييفنا لم يتح له أن يذيع في المجتمع وإنما اختنق في مهده إن صح التعبير. ولكن الشيخ الضعيف الذي يمكن للمرء أن يفعل به كل شيء، ما كان له، رغم ذلك، أن يوافق بحال من الأحوال على أن يتخلى عن فكرته وأن يخون آنا آندرييفنا التي طلبت أن يتزوجها. لقد كان من هذه الناحية فارساً. وفي وسعه، عاجلاً أو آجلاً، أن ينهض فجأة، فيضع نيته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل إلى السيطرة عليها، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة في أحيان كثيرة، لأن ثمة حدوداً لا يجوز أن ندفعهم إلى ما وراءها. ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماماً الإدراك أن وضع آنا آندرييفنا

Twitter: @ketab_n

التي يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج، كما يدرك أيضاً أن هناك نمائم يمكن أن تذاع، وسخريات يمكن أن تنطلق، وشائعات يمكن أن تروَّج. والشيء الذي كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كاترينا نيقولايفنا لم تسمح لنفسها أبداً، لا تصريحاً ولا تلميحاً، أن تقول أمامه أي رأي سيىء في آنا آندرييفنا، ولا أن تبدي أي اعتراض على اعتزامه الزواج بها. بالعكس: كانت تبدي فرحاً كبيراً، وكانت تحيط خطيبة أبيها بأكبر الرعاية وأعظم الاهتمام. وهكذا كانت آنا آندرييفنا في موقف دقيق غاية الدقة، فهي بما تملكه من رهافة الحس، تدرك أنها إذا قامت بأي هجوم على كاترينا نيقولايفنا التي يحبها الأمير أعظم الحب أيضاً، ويحبها اليوم أكثر مما أحبها في أي يوم، لا سيما وأنها سمحت له بالزواج مبرهنةً على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام، فإنها ستجرح أرق مشاعرها، وستجعلها تشك فيها بل تستاء منها. على هذا الميدان إذن إنما كان يقوم القتال الآن: فالخصمان ـ أي آنا آندرييفنا وكاترينا نيقولايفنا ـ إنما يحاربان بسلاح المجاملة والصبر. والأمير، من جهته، لا يدري أي المرأتين أروع من الأخرى وأدعى إلى الإعجاب! وعلى عادة جميع الرجال الضعاف، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقة، انتهى به الأمر إلى التألم واتهام نفسه بكل شيء. ويقال إن كآبته قد وصلت إلى حد المرض، وإن أعصابه تهدمت، فبدلاً من أن يجد في تسارسكويا الشفاء، أوشك أن يلزم فيها الفراش فيما قيل.

أحب أن أشير هنا، مستطرداً، إلى شيء لم أعلم به إلا بعد مدة طويلة، هو أن بيورنج، فيما يقال، قد اقترح على كاترينا نيقولايفنا أن يقتادا العجوز إلى الخارج، بعد أن يهيئاه لذلك بحيلة من الحيل، ثم يكون من السهل عليهما هناك، في الخارج، أن يحصلا

Twitter: @ketab_n

على شهادة من أطباء. ولكن هذا ما لا تقبله كاترينا نيقولايفنا بحال من الأحوال. أو ذلك ما قيل فيما بعد، حتى ليقال إنها رفضت الاقتراح مستاءة. وتلك شائعة بعيدة العهد، لكنني أصدِّقها.

فلما صارت القضية إلى هذا الطريق المسدود، علمت آنا آندرييفنا من لامبرت أن هناك رسالة تسأل فيها البنت أحد رجال القانون عن وسيلة يمكن أن تعمد إليها لإعلان أن أباها مجنون. فإذا بروحها المتكبرة الانتقامية تهتاج أشد الاهتياج على حين فجأة. وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها من أحاديث، وقرَّبت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث الصغيرة فلم يخامرها شك في أن هذا النبأ صحيح. فإذا بخطة للهجوم تنضج في قلبها، قلب المرأة الصلبة التي لا تلين، وإذا هي تجد نفسها مدفوعة إلى تنفيذ هذه الخطة دفعاً لا سبيل إلى مقاومته. وكانت الخطة هي أن تكشف للأمير فجأة، بدون مداراة ومراعاة، وبدون لف ودوران عن القصة كلها، فترعبه وتهزه هزاً قوياً، وتبيِّن له أن مستشفى المجانين ينتظره حتماً. فإذا عند واستاء ورفض أن يصدِّق، كشفت له عن قصة رسالة ابنته قائلةً له: «إن نية إعلان أنك مجنون قد سبق أن وُجدت في الماضي، فكيف لا توجد الآن من بابٍ أولى لمنعك من الزواج!». وبعد ذلك تنقل الشيخ العجوز إلى بطرسبرج مروَّعاً مهدَّماً مقتولاً، وتجيء به إلى «بيتي أنا رأساً».

هذه مجازفة رهيبة. ولكن آنا آندرييفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً ثابتاً لا يتزعزع. ويجب أن أقول هنا، مبتعداً عن الموضوع لحظةً، ومستبقاً الأحداث استباقاً كبيراً، إن ظنها لم يخطىء كثيراً فيما يتعلق بقوة هذه الضربة. فإن هذا النبأ كان له من التأثير في الأمير الشيخ أكثر مما تصورت هي وتصورنا نحن أن يكون له من

Twitter: @ketab_n

تأثير. ولم أكن علمت أبداً إلى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامى إلى سمعه شيء عن تلك الوثيقة، ولكنه، على ما هو معهود في جميع الرجال الضعاف الهيابين، لم يصدِّق تلك الشائعة بل دفعها عنه بكل ما يملك من قوة، حفاظاً على هدوئه وطمأنينته. ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر في كاترينا نيقولايفنا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك!... الخلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطر شأناً مما كنت أظن أنا الذي كنت أحملها مخيطةً في جيبي. ولكنني أرى أنني أسرف في استباق الأحداث.

رب سائل يسأل: ولكن لماذا تجيء به إلى بيتي رأساً؟ لماذا تنقل الأمير إلى غرفنا البائسة فترعبه في هذا الجو التعيس؟ إذا كان نقله إلى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن يُحبط المشروع كله هناك)، فلماذا لا تهيىء له مسكناً «ثرياً» كما كان يقترح لامبرت؟ هنا تكمن كل مجازفة الخطوة الخارقة التي قامت بها آنا آندرييفنا!

كان الأمر الأساسي هو أن تطلع الأمير على الوثيقة فور وصوله. وكنت أنا لا أسلِّم الوثيقة بحال من الأحوال. ولأن على آنا آندرييفنا ألا تضيع شيئاً من الوقت، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً، فقد قررت أن تشرع في تنفيذ الخطة قبل أن تملك الوثيقة، على أن تجيء بالأمير إلى بيتي رأساً. لماذا؟ لكي تنقضّ عليَّ أنا أيضاً، فتقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل. كانت تريد أن تعمد إلى أسلوب الصدمة والهزة والمباغتة معي أنا أيضاً. كانت تقدِّر أنني متى رأيت الشيخ في بيتي، ورأيت ارتياعه وحزنه، وسمعت رجاءه ورجاءها، فقد أستسلم فأظهر الوثيقة. يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذقاً وذكياً، وكان يقوم على

Twitter: @ketab_n

معرفة بالنفس الإنسانية، وإذا لم يكن قد نجح فقد أوشك. أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأيمان تحلفها، وأعلنت له أنها ستمضي به إلى «بيتي أنا». ذلك كله قد عرفته فيما بعد. إن مجرد إبلاغه أن الوثيقة عندي قد أزال من قلبه الوَجِل آخر شكوكه في صحة الواقعة: فإلى هذا الحد كان يحبني ويحترمني!

يجب أن أذكر أيضاً أن آنا آندرييفنا نفسها لم تشك لحظة واحدة في أن الوثيقة لا تزال عندي، وأنني لم أتخلص منها بعد. والحق أنها قد أساءت فهم طبعي، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتي وبراءتي وبساطتي، وحتى على فرط حساسيتي، وقد قدَّرت من جهة أخرى أنني إذا قررت أن أسلِّم الوثيقة إلى كاترينا نيقولايفنا مثلاً، فلا بد أن يكون هذا التسليم في ظروف خاصة، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة.

ثم إن لامبرت قد طمأنها عن هذا كله. سبق أن قلت أن وضع لامبرت كان في ذلك الحين حرجاً غاية الحرج، دقيقاً أشد الدقة: لقد كان، هو الخائن، يريد أن يصرفني عن آنا آندرييفنا، ويحملني على بيع الوثيقة لآخماكوفا بالاتفاق معه، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر. لكنه وقد لاحظ أنني ظللت أرفض إلى آخر لحظة أن أسلِّم شيئاً بحال من الأحوال، قرر أن يساعد حتى آنا آندرييفنا من أجل ألا يفقد أي ربح. لذلك أخذ يستميت في تقديم خدماته لها، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجيئها بكاهن عند اللزوم... ولكن آنا آندرييفنا ابتسمت له ابتسامة احتقار، ورجته أن يخفف من قوة حماسته ونشاطه. كان لامبرت يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً، ولا يوقظ في نفسها إلا اشمئزازاً وتقززاً. لكنها قبلت خدماته على سبيل

Twitter: @ketab_n

الحكمة والروية والحذر. وكانت هذه الخدمات هي أن يتجسس لها مثلاً! يجب أن أقول في هذه المناسبة إنني لا أدري حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بيتر إبيوليتوفتش أم لا، وهل قبض منهم أي شيء ثمناً لخدماته أم هو دخل شركتهم ببساطةٍ من باب حب المغامرة. ولكنه كان يتجسس عليَّ. أما امرأته فأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس.

سيدرك القارىء الآن أنني، رغم تحسبي قليلاً، لم يكن في وسعي أن أحزر أني سأجد الأمير العجوز في بيتي غداً أو بعد غد. وما كان لي أن أفترض لدى آنا آندرييفنا جسارة كهذه الجسارة! إن المرء يستطيع أن يقول بالكلام ما يريد، وأن يشير بالكلام إلى أي شيء. أما أن يقرر، ويشرع، وينفذ... فهذا يحتاج إلى طبع خاص وشكيمة قوية!

2

أتابع:

استيقظت في الغداة ضحى. لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام. فلما أفقت أحسست براحة كبيرة في جسمي ونفسي على السواء، حتى لكأن الأمس لم يوجد. قررت ألا أذهب إلى بيت ماما، وإنما أمضي إلى كنيسة المقبرة رأساً. حتى إذا انتهت الجنازة رجعت إلى أمي فلم أتركها النهار كله. وكنت واثقاً ثقة تامة بأنني سألقاه عند ماما على كل حال، في ساعة متقدمة أو في ساعة متأخرة من النهار، ولكنني سألقاه.

لم يكن في البيت لا آلفونسين ولا المؤجر. لقد خرجا منذ وقت غير قصير. ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر، وكنت قد قررت على

Twitter: @ketab_n

كل حال أن أقطع جميع صلاتي بهم، وأن أترك هذا البيت في أقرب وقت. لذلك ما أن أُتيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسي الباب. ولكن الباب لم يلبث أن قُرع. فدهشت. وكان القارع تريشانوف.

فتحت له فوراً، ودعوته أن يدخل وسرني أن أراه. ولكنه رفض أن يدخل وقال:

ـ كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على العتبة... أم الأفضل أن أدخل؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً. ولكنني لن أجلس. أراك تنظر إلى معطفي الرديء. لقد استرد لامبرت مني المعطف.

كان يرتدي معطفاً بالياً طويلاً على قامته فعلاً. وقد وقف أمامي متسمراً، متجهم الوجه مهموماً، واضعاً يديه في جيبه، دون أن يخلع قبعته:

ـ لن أجلس! لن أجلس! اسمع يا دولجوروكي! لا أعرف تفاصيل. لكني أعرف أن لامبرت يدبر لك مكيدة، وهذه المكيدة توشك أن تتم حتماً. اعلم هذا علم اليقين. فكن يقظاً. إن المجدور هو الذي زلَّ لسانه فألمع إلى هذا الأمر. هل تتذكر المجدور؟ إنه لم يذكر لي نوع المكيدة، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت. أنا لم أجيء إليك إلا لأنبهك. إلى اللقاء!

ـ ولكن هلاً جلست يا عزيزي تريشانوف؟ صحيح أنني على عجلة من أمري، ولكن يسعدني أن أراك...

ـ لا، لا، لن أجلس. ولكنني سأتذكر طوال حياتي أنك أحسنت استقبالي. آه يا دولجوروكي؟ لماذا خداع الناس؟ إني قد ارتضيت لنفسي عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات، وأن أقوم

Twitter: @ketab_n

بأعمال تبلغ من الدناءة أنني أخجل من ذكرها لك. نحن الآن نعمل مع المجدور... أستودعك الله... إنني لا أستحق أن أجلس عندك.

ـ كفى يا تريشانوف، يا عزيزي...

ـ لا يا دولجوروكي... أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسخة، وسألهو بعد ذلك وأقصف. وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفي السابق أيضاً... وسأمضي أتنزه راكباً عربة. ولكنني سأظل أعرف بيني وبين نفسي أنني خجلت أن أجلس عندك لاعتقادي بأنني لا أستحق ذلك، وبأنني أمامك دنيء سافل. سوف أحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل، حين أمضي أتبذل في القصف واللهو بحقارة ونذالة. أستودعك الله. هيَّا. أستودعك الله. لن أناولك يدي أيضاً. إن آلفونسين لا ترضى أن تصافحني. وأرجوك ألا تسعى إلي، وألا تحاول رؤيتي. هذا شرط بيننا.

واستدار الفتى العجيب على كعبيه ومضى. لا يتسع وقتي الآن للبحث عنه، ولكنني قطعت على نفسي عهداً لأكشفن مكانه بأقصى سرعة مهما كلف الأمر، متى فرغت من تدبير أموري وحل مشاكلي.

لن أصف وقائع ذلك الصباح تفصيلاً، رغم أن هناك ذكريات كثيرة ينبغي حفظها. لم يحضر فرسيلوف إلى الكنيسة. حتى لقد كان يمكن للمرء أن يستنتج من النظر إلى وجوههم أنهم كانوا، حتى قبل حمل الجثمان، لا يتوقعون أن يجيء إلى الكنيسة. وقد صلَّت أمي بحرارة، بل كانت غارقة في صلاتها غرقاً كاملاً. ولم يكن أحد بجانب الجثمان إلا تاتيانا بافلوفنا وليزا. لكنني لا أصف، لا أصف شيئاً. بعد الدفن، عاد الجميع إلى البيت، وجلسوا إلى

Twitter: @ketab_n

المائدة. فاستنتجت مرة أخرى من النظر إلى وجوههن أنهن كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً. حتى إذا نهضنا، اقتربت من ماما، وقبَّلتها بحرارة، وتمنيت لها عيداً سعيداً؛ واقتدت بي ليزا، ففعلت مثلي.

وهمست تقول خفيةً:

ـ اسمع يا أخي، إنهن ينتظرنه.

ـ أدركت هذا يا ليزا، رأيته.

ـ سيأتي حتماً.

قلت لنفسي: لا بد أن لديهن معلومات دقيقة. لكنني لم أسأل. رغم أنني لا أصف عواطفي، يجب أن أذكر أن هذا اللغز قد جثم ثقيلاً على قلبي، رغم كل ما كنت فيه من حسن المزاج. جلسنا جميعاً في الصالون، إلى المائدة المستديرة، حول ماما، آه... ما كان أعظم سعادتي بوجودي معها ونظري إليها! وطلبت مني ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الإنجيل. فقرأت لها إصحاحاً من إنجيل القديس لوقا. لم تكن تبكي، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن، ولكن وجهها لم يكن روحانياً في يوم من الأيام بمقدار ما هو روحاني في هذا اليوم. وكانت تسطع في نظرتها اللطيفة فكرة، ولكن لم يكن في هذه النظرة أي شيء من نفاد الصبر في انتظار أمر من الأمور. وجرت الأحاديث ثرةً لا ينضب لها معين. قيلت ذكريات كثيرة عن المتوفى. وذكرت عنه تاتيانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها إلى ذلك الحين كل الجهل. فلو سجلت ما دار في ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً. حتى تاتيانا بافلوفنا تغيَّرت حالها: فهي الآن رقيقة جداً، ملاطفة جداً، بل هي هادئة جداً، رغم أنها تكلمت كثيراً لتسلِّي ماما. لكن هناك أمراً تفصيلياً أتذكره تذكراً واضحاً: كانت ماما جالسةً على الديوان،

Twitter: @ketab_n

وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورةٌ يبدو أنها وُضعت هنالك عمداً، وهي أيقونة قديمة بدون مسند من معدن، تمثل قديسَيْن فوق رأسيهما هالتان. إن هذه الأيقونة كانت لماكار إيفانوفتش: كنت أعلم ذلك، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لا يفارقها أبداً وكان يعتقد بقدرتها الإعجازية.

نظرت تاتيانا بافلوفنا إلى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأةً وهي تغيِّر موضوع الحديث:

ـ اسمعي يا صوفيا، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندةً إلى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة؟

قالت:

ـ بلى هي على هذا الوضع أحسن.

ـ حقاً. وإلا كنا نسرف في الاحتفال...

لم أفهم حينئذ شيئاً، ولكن واقع الأمر أن ماكار إيفانوفتش قد أعلن جهاراً منذ مدة طويلة أنه يورث آندريه بتروفتش هذه الصورة، فكانت ماما تستعد لتسليمها إليه.

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل. وطال الحديث. فإذا أنا ألاحظ في وجه ماما نوعاً من الارتعاش، وإذا هي تنصب جذعها بسرعة وتصيخ بسمعها على حين كانت تاتيانا بافلوفنا مستمرةً في كلامها ولم تلاحظ شيئاً. فأسرعتُ التفتُ إلى جهة الباب، فما انقضت لحظة حتى رأيت آندريه بتروفتش في العتبة. إنه لم يسلك طريق درج المدخل، وإنما جاء من جهة سلم الخدم، فمرَّ بالمطبخ فالدهليز، وكانت أمي وحدها هي التي سمعت وقع خطاه. سأصف الآن كل مشهد الجنون الذي أعقب ذلك، حركةً حركة، وكلمةً كلمة.

Twitter: @ketab_n

في البداية، لم ألاحظ على وجهه، من أول نظرة على الأقل، أيَّ تغير. كان هندامه هو هندامه المألوف، أي هنداماً أقرب إلى الأناقة. وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة، باقةً صغيرة لكنها ثمينة. وقد اقترب من ماما ومدَّ إليها الباقة مبتسماً فنظرت إليه ماما بدهشة وجلة، لكنها قبلت الباقة، ثم إذا بحمرة تنعش خديها الشاحبين فجأة، وإذا بفرح يسطع في عينيها.

قال:

ـ كنت أعرف أنك ستستقبلينني هذا الاستقبال يا صوفيا.

وإذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة، فجلس على المقعد الذي كانت تجلس عليه ليزا، والذي يقع على يسار ماما، دون أن ينتبه إلى أنه يأخذ مكان شخص آخر. وهكذا كان موقعه بجانب المنضدة التي كانت عليها الأيقونة.

ـ سلام على الجميع. يا صوفيا، لقد أصررت إصراراً مطلقاً على أن أحمل إليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك. ولئن لم أجىء إلى الجنازة، فلكي لا أظهر أمام ميت بباقة أزهار. لكنني أعلم أنك كنت لا تنتظرين مجيئي إلى الجنازة. ولن يحقد عليَّ الشيخ لأنني جئت بأزهار، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح؟ أعتقد أنه الآن في مكان ما بهذه الغرفة.

نظرت إليه ماما مستغربة. وكانت تاتيانا بافلوفنا كمن طار صوابها. فسألته:

ـ من بهذه الغرفة؟

ـ المتوفى. ولكن فلندع هذا الأمر. تعرفون أن الإنسان الذي لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره إلى الإيمان بالأوهام والخرافات. ولكن فلنجعل كلامنا يدور على باقة الأزهار: كيف

Twitter: @ketab_n

حملتها إلى هنا؟ لا أدري. لقد اشتهيت عدة مرات أن أرميها على الثلج وأن أدوسها بقدمي.

ارتعدت ماما. وتابع هو كلامه يقول:

ـ اشتهيتُ ذلك بقوة جنونية. رحمةً بي يا صوفيا، ورحمةً برأسي المسكين. لقد اشتهيت ذلك لأن الباقة جميلة مسرفة في الجمال. هل في العالم أجمل من زهرة؟ حملتها والثلج والجليد في كل مكان. جليدنا والأزهار: تعارض! ولكن ليس هذا ما يهمني: فإنما أنا اشتهيت أن أدوسها بقدميَّ لأنها جميلة. يا صوفيا، سأغيب من جديد، ولكنني سأعود بسرعة، لأنني سأخاف، فيما يخيَّل إليَّ. سأخاف: ومن يشفيني من الخوف إلا صوفيا؟ أين أجد ملاكاً مثل صونيا؟ ولكن ما تلك الصورة هناك؟ آ. . . أيقونة المتوفى! تذكرت. ورثها عن أسرته، عن جده. لم ينفصل عنها طول حياته. أنا أعلم هذا. وأتذكر أنه أورثني إياها. نعم، أتذكر هذا تذكراً واضحاً. . . وأظن أنها أيقونة من أيقونات «قدامى المؤمنين». . . أرني!

وتناول الأيقونة بيديه، وقرَّبها من الشمعة، وأخذ يتأملها. ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط، وضعها على المائدة، أمامه في هذه المرة. كنت مدهوشاً مذهولاً. لقد أطلق هذه الجمل كلها على نحو ما كان لأحد أن يتوقعه، فكنت لا أستطيع أن أجمع شتات فكري. ولكنني أتذكر أن هلعاً يشبه المرض قد نفذ في قلبي. وانقلب ذعر أمي إلى حيرة وارتباك، وإلى شفقة وعطف. كانت ترى فيه إنساناً بائساً قبل أي شيء آخر. لقد سبق له أن كان حديثه غريباً هذه الغرابة قبل الآن. وشحب لون ليزا شحوباً هائلاً على حين فجأة، وأومأت لي برأسها إليه. ولكن تاتيانا بافلوفنا هي التي كانت أكثرهن جزعاً. قالت تسأله بحذر:

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن ماذا بك يا عزيزي آندريه بتروفتش؟

ـ حقاً لا أدري ماذا بي يا تاتيانا بافلوفنا العزيزة. هدئي روعك. لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفنا، وأنك طيبة رائعة. ولكنني لم أجيء إلا لأمكث دقيقة واحدة. إنني أود أن أقول لليزا شيئاً حسناً، وأبحث عن كلمة أقولها فلا أفلح، مع أن قلبي مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهي كلمات غريبة في الواقع. يخيَّل إليَّ أنني أزدوج فأصبح اثنين.

قال ذلك وهو ينظر إلينا جميعاً بوجه جادٍ إلى أقصى حدود الجد، وبرغبة صادقة في الإفصاح عما في نفسه. وتابع كلامه يقول:

ـ الحقيقة أن فكري يزدوج فيصبح فكرين اثنين، وهذا ما أخشاه كثيراً. لكأن لي (أنا آخر) يجلس إلى جانبي. فأنا رجل عاقل معتدل، ولكن الآخر الذي بجانبي يصرُّ على أن يقوم بعمل مستحيل، أو عمل سخيف جداً، ثم إذا بي أشعر فجأةً أنني أنا الذي أريد أن أقوم بهذا العمل، لا يدري إلا الله لماذا! أريد! أريد أن أقوم به رغم أنفي، وأريد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة. عرفت ذات مرة طبيباً أخذ يصفر في الكنيسة فجأة أثناء الاحتفال بجنازة ابنه. حقاً لقد خفت أن أجيء اليوم إلى الجنازة، لأنني قد رسخ في عقلي اعتقاد جازم ويقين مطلق بأنني سأنطلق صافراً أو ضاحكاً أثناء الجنازة على حين فجأة، كما فعل ذلك الطبيب المسكين الذي كانت نهايته سيئة. وحقاً لا أدري لماذا لازمتني ذكرى ذلك الطبيب طوال هذا اليوم، لازمتني ملازمة لم أستطيع منها فكاكاً. اسمعي يا صوفيا، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانيةً وأخذ يقلِّبها بين يديه)، فهل تعلمين

Twitter: @ketab_n

أنني، في هذه اللحظة بعينها، تستبد بي رغبة جنونية في أن أقذفها إلى زاوية المدفأة، فإذا هي تنكسر على الفور نصفين، نصفين لا أكثر ولا أقل؟

قال هذا بدون أي تصنع، بدون أي رغبة في الظهور. بل كان يتكلم ببساطة، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً. لكأنه خائف فعلاً من شيء. ولاحظت فجأة أن يديه ترتجفان قليلاً.

هتفت ماما ضامةً يديها ضارعةً:

ـ آندريه بتروفتش!

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهي تنتفض:

ـ اترك، اترك الصورة يا آندريه بتروفتش! اتركها! ضعها في مكانها! واخلع ثيابك، وارقد في سريرك. يا آركادي، اذهب فاستدع الطبيب!

قال برفق وهو يشملنا جميعاً بنظرة واحدة:

ـ مع ذلك... مع ذلك، ما أشد اضطرابكم!

ثم وضع كوعيه على المائدة، وتناول رأسه بيديه، وقال:

ـ إنني أخيفكم. ولكن اسمعوا يا أصدقائي. هلاَّ سررتموني قليلاً، فعدتم تجلسون، وهدأتم جميعاً، دقيقةً واحدة! صوفيا، ليس هذا ما جئت من أجل أن أقوله لك. أنا جئت لأبلغك شيئاً، لكنه شيء مختلف عن هذا كل الاختلاف. أستودعك الله يا صوفيا. أنا راحل من جديد، كما سبق أن رحلت مراراً. لا شك في أنني سأعود إليك في يوم من الأيام. بهذا أنت لا بد منك، ولا غنى عنك. لمن عسى أرجع، حين يكون كل شيء قد انتهى؟ صدِّقي يا صوفيا أنني جئت إليك اليوم كما يجيء المرء إلى ملاك لا إلى عدو: هل يمكن أن تكوني عدوتي؟ كيف يمكن أن تكوني عدوتي؟

Twitter: @ketab_n

لا تصدقي أنني أريد أن أحطم هذه الصورة، لأنني في الواقع، يا صوفيا، تستبد بي، رغم كل شيء، رغبة قوية في تحطيمها...

حين هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً له منذ قليل: «اترك الصورة»، فإنها كانت قد انتزعت الصورة من يديه، وظلت تمسكها بيدها. فها هو ذا آندريه بتروفتش، بعد أن نطق بآخر كلمة، يثب من مكانه فجأةً، ويخطف الصورة من يدي تاتيانا بافلوفنا فوراً، ويشهرها بوحشية، ثم يهوي بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتي من قوة، فإذا بالأيقونة تنكسر نصفين تماماً. وعاد يلتفت إلينا بغتةً، فكان وجهه الشاحب قد احمر احمراراً شديداً، وكانت كل قسمة من قسمات وجهه تختلج:

ـ لا تنظري إلى عملي نظرتك إلى رمز يا صوفيا. ليس ميراث ماكار هو ما حطمته، وإنما حطمت بدون هدف غير التحطيم... ولكنني سأعود إليك رغم كل شيء، سأرجع إلى ملاكي الأخير. على كل حال، عُدِّي عملي رمزاً إذا شئت، فإنه رمز أيضاً!...

وخرج من الغرفة بخطى متعجلة، ومضى عن طريق المطبخ في هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقيته). لن أقص عليكم ما حدث لماما تفصيلاً. لقد هبَّت واقفةً وقد اعتراها رعب قاتل، ورفعت يديها فعقدتهما على رأسها، وصرخت تقول له فجأة:

ـ آندريه بتروفتش، تعال ودِّع على الأقل يا عزيزي!

فصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول لها وقد أخذت ترتعش ارتعاشاً شديداً، واعترتها نوبة حنق رهيب، حنق حيواني:

ـ سيرجع يا صوفيا، سيرجع. أما سمعت ما قاله؟ لقد وعد بأن يرجع. دعي للمجنون المسكين أن يتجول مرةً أخيرة! حين يدب

Twitter: @ketab_n

إليه الهرم، وحين يصبح كسيحاً، فمن ذا الذي سيدلله غيرك يا خادمته القديمة؟ إنه يعلن هذا جهاراً، لا يساوره خجل. . .

أما عنا نحن، فإن ليزا قد أغمي عليها؛ وأنا أردت أن أركض وراءه، لكنني ارتميت على ماما أضمها بذراعيَّ. وهرعت لوكيريا لتأتي إلى ليزا بكأس ماء. ولكن ماما لم تلبث أن أفاقت من إغمائها، فتهاوت على الديوان، وغطت وجهها بيديها، وطفقت تبكي.

وصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول بأعلى صوتها:

ـ أدركه، أدركه على كل حال. هيَّا. . . أدركه، لا تتركه خطوة واحدة، هلمَّ. . . ماذا تنتظر؟ هل أنا التي يجب أن أركض وراءه إذن؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لانتزاعي من ماما.

وصرخت أمي تقول هي أيضاً على حين فجأة:

ـ بنيَّ آركادي، هلمَّ أركض وراءه، أسرع!

فخرجت مسرعاً، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً. لكنني لم أجده في أي مكان. كان قد اختفى. وعلى الرصيف من بعيد، كانت تتراءى في الظلام بقع سوداء هي قامات المارة، فاندفعت أدركها، وأخذت أتفرس في وجه كل واحد متى وصلت إليه، ثم أمضي أتفرس في وجه آخر، وهكذا دواليك، إلى أن بلغت منعطفاً.

«لا يغضب أحد من مجنون. وإذا كانت تاتيانا بافلوفنا مستعرة الغضب منه، فمعنى ذلك أنه ليس بمجنون البتة. . .» تلك هي الفكرة التي برقت في ذهني. بدا لي أن ذلك كله كان «رمزاً»، وأنه إنما أراد أن ينتهي من شيء ما، كما انتهى من تلك الأيقونة. ولكن لا شك أن «مِثْله» «قرينه» كان بجانبه أيضاً. . .

Twitter: @ketab_n

3

لم أقع عليه في أي مكان. ولا يُعقل أن أركض إلى بيته، فمن الصعب على المرء أن يتصور أنه رجع إلى بيته وكفى! وعرضت لي فكرة على حين بغتة، فهرعت إلى بيت آنا آندرييفنا.

كانت آنا آندرييفنا قد عادت إلى البيت، فأدخلت عليها فوراً. وقد دخلت عليها محاولاً أن أسيطر على نفسي ما أمكنني ذلك. وبدون أن أجلس، قصصت عليها المشهد الذي رأيته كله، أي حكاية «المِثْل» تلك. فلن أنسى ما حييت، ولن أغفر لها ما حييت أنها كانت تصغي إلى كلامي بشراهة شديدة، ولكن بهدوء لا رحمة فيه، وطمأنينة لا تعكر صفوها عاطفة. ولقد أصغت إلى حديثي واقفةً هي أيضاً.

ختمت حديثي أسألها ملحاً:

ـ أين هو؟ لعلك تعلمين؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنا أن ترسلني إليك أمس...

ـ ذلك أنني كنت أريد أمس أن أراك. أمس ذهب إلى تسارسكويا، وجاء إليَّ أيضاً. أما الآن...

قالت ذلك ونظرت إلى ساعتها وأردفت:

ـ الساعة الآن هي السابعة. فلا بد أنه في بيته حتماً.

ـ أرى أنك تعلمين كل شيء. فتكلمي، تكلمي!

ـ أعرف أشياء كثيرة، لكنني لا أعرف كل شيء. ليس هناك ما أخفيه عنك طبعاً...

وشملتني بنظرة غريبة وهي تبتسم وتتظاهر بالتفكير. وأردفت:

ـ رداً على رسالة كاترينا نيقولايفنا، كتب إليها بالأمس يخطبها رسمياً.

Twitter: @ketab_n

فحملقت بعينيّ قائلاً:

ـ لا يمكن!

ـ عن طريقي وصلتها الرسالة. أنا التي سلَّمتها لها مختومةً. في هذه المرة تصرف كما يتصرف «فارس» ولم يكتم عني شيئاً.

ـ آنا آندرييفنا! لا أفهم!

طبعاً. أمر صعب فهمه. ولكن مثله في هذا كمثل مقامر يرمي على المائدة آخر قرش، ويمسك في جيبه مسدساً جاهزاً للإطلاق. ذلك هو معنى العرض الذي تقدم إليها به. احتمال الرفض تسعة حظوظ من عشرة. ولكنه يعتمد على الحظ العاثر. ولا أكتمك أنني استغربت... لعله كان خارجاً عن طوره: لعل «المثْل» الذي وصفته أحسن وصف كان بقربه!

ـ وتضحكين أيضاً؟ كيف يمكن أن أصدِّق أنك أنت التي أوصلت الرسالة؟ ألست خطيبة أبيها؟ رحماك آنا آندرييفنا!

ـ رجاني أن أضحي لسعادته بسعادتي. بل قل إنه لم يرجني رجاء صريحاً، فإنما تمّ الأمر بصمت، لكنني قرأت في عينيه كل شيء. وما استغرابك؟ ألم يذهب إلى أمك بمدينة كونجسبرج يطلب منها أن تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخماكوفا؟ ذلك شبيه بما عمد إليه أمس، إذ اختارني مندوبة عنه ونجية له.

كانت شاحبةً بعض الشحوب. ولكن هدوءها كان يعزِّز سخريتها. وقد غفرتُ لها كثيراً في تلك اللحظة، حين أخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً. واسترسلت في التفكير دقيقة، فكانت صامتة تنتظر.

قلت ضاحكاً على حين فجأة:

ـ اسمعي، لقد أوصلت أنت الرسالة لأنك لا تجازفين بشيء،

Twitter: @ketab_n

فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو؟ وهي؟ لا شك أنها لن تلتفت إلى طلبه، وحينئذ. . . حينئذ، ماذا يمكن أن يحدث؟ أين هو الآن يا آنا آندرييفنا؟ إن كل دقيقة لثمينة، وفي كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة!

ـ قلت لك إنه في بيته. ففي رسالته التي سلَّمتها أمس إلى كاترينا نيقولايفنا، رجاها «على كل حال» أن تمن عليه بلقاء في بيته، الساعة السابعة من هذا المساء. وقد وعَدَته بأن تجيء إليه في الموعد المضروب.

ـ هي، في بيته؟

ـ لمَ لا؟ البيت بيت داريا أونيسيموفنا. ففي إمكانهما أن يلتقيا فيه زائرين لها.

ـ لكنها تخاف منه. . . قد يقتلها!

ـ إن كاترينا نيقولايفنا رغم كل خوفها الذي لاحظته بنفسي قد أضمرت دائماً، حتى في الماضي، شيئاً من الإعجاب بنبل المبادىء وسمو الفكر لدى آندريه بتروفتش. وقد وثقت به هذه المرة لتنتهي منه إلى الأبد. كما أنه، من جهته، قد حلف لها يمين الفروسية أنه لن ينالها بسوء فما يجب أن تخشى شيئاً. لا أتذكر نص التعابير التي استعملها. وإنما المهم أنها وثقت به واطمأنت إليه. . . لأول مرة إن صح القول. ولأول مرة ردت على مشاعره بمثلها، فكأن اندفاعة بطولية قد تحققت لهما كليهما.

هتفت أقول:

ـ والمثْل، والمثْل! ذلك أنه فقد عقله!

ـ لا شك أن كاترينا نيقولايفنا، حين وعدته أمس بالمجيء إلى الموعد، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع.

Twitter: @ketab_n

أدرت ظهري فجأة، وولَّيت هارباً... إليه... إليهما طبعاً! ولكنني لم ألبث أن رجعت من حجرة المدخل ثانيةً، وتفرست في وجه آنا آندرييفنا، أختي، وقلت صارخاً:

ـ أم تراك تريدين أن يقتلها؟

أطلقت هذه الصرخة، وخرجت من البيت راكضاً.

ورغم أنني كنت أرتعش ارتعاشاً شديداً كمن هو في نوبة حمى، فقد دخلت الشقة بغير ضجة، من المطبخ، وطلبت من الخادمة أن تأتيني داريا أونيسيموفنا بصوت خافت. ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها، فرشقتني صامتةً بنظرة مستفهمة رهيبة، وقالت:

ـ ليس مولاي في البيت.

لكنني ذكرت لها بوضوح ودقة، هامساً همساً سريعاً، إنني أعرف كل شيء من آنا آندرييفنا، وأنني آتٍ من عندها.

ـ أين هما يا داريا أونيسيموفنا؟

ـ في الصالون، حيث كنتما بالأمس جالسَيْن إلى المائدة...

ـ داريا أونيسيموفنا، دعيني أذهب إلى هناك...

ـ كيف يمكنني هذا؟

ـ لا أذهب إلى هناك، بل إلى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسيموفنا.

إن آنا آندرييفنا تريد هذا أيضاً. فلو كانت لا تريده لما قالت لي أنهما هنا. لن يسمعاني. هي نفسها تريد هذا...

قالت داريا أونيسيموفنا دون أن تحول عني بصرها:

ـ وإذا كانت لا تريده؟.

فقلت مستعطفاً:

Twitter: @ketab_n

ـ داريا أونيسيموفنا، إنني أتذكر ابنتك أوليا... دعيني أدخل.

فإذا بذقنها وشفتيها تأخذ بالاختلاج فجأة، وقالت لي:

ـ يا عزيزي... إكراماً لذكرى أوليا... تقديراً لعواطفك... ولكن لا تتخلَّ عن آنا آندرييفنا يا عزيزي! لن تتخلى عنها، أليس كذلك؟ لن تتخلى عنها؟

ـ لا، لن أتخلى عنها.

ـ عاهدني عهد الشرف أنك لن تدخل الصالون، ولن تصرخ، إذا أنا خبأتك هناك.

ـ أحلف لك بشرفي يا داريا أونيسيموفنا!

قادتني إلى حجرة مظلمة، مجاورة للغرفة التي كانا فيها، وسارت بي على سجادة طرية بدون ضجة إلى أن بلغنا الستارة، فأجلستني هناك، وأزاحت ركناً من الستارة، فكنت أراهما كليهما.

انصرفت هي وبقيت أنا. طبعاً بقيت. لقد أدركت أنني أتصنت بغير حق، وأنني أتجسس على أسرار غيري، ولكنني بقيت. كيف لا أبقى وأنا أعرف أنّ المثْل موجود؟ ألم يسبق لهذا المثْل أن حطم الأيقونة على مرأى مني؟

4

كانا جالسين إلى تلك المائدة نفسها التي شربنا عليها معاً بالأمس نخب «انبعاثه». وكانا متقابلين. إنني أميز وجهيهما تمييزاً واضحاً. كانت ترتدي فستاناً أسود، وكانت جميلة هادئة المظهر على عادتها. وكان يتكلم، فكانت تصغي إليه بانتباه شديد بشوش. حتى ليمكن أن يكتشف المرء في وجهها شيئاً من خجل. أما هو، فقد كان مهتاجاً اهتياجاً شديداً. لقد وصلت وهما في غمرة

Twitter: @ketab_n

الحديث، لذلك لبثت برهةً لا أفهم شيئاً. أتذكر أنها سألته فجأة:

ـ وهل أنا السبب في ذلك؟

فأجابها:

ـ بل أنا. أنت مذنبة بدون أن تكوني مذنبة. هذه أمور تحدث. وتلك هي الأخطاء التي لا تغتفر، ومرتكبوها يعاقبون في جميع الأحيان تقريباً.

أضاف ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة. وتابع كلامه يقول:

ـ لقد اعتقدت في لحظة من اللحظات أنني نسيتك نسياناً تاماً، فكنت أضحك فعلاً من هواي الأحمق... ولكنك تعرفين هذا! على كل حال، فلم يعنيني أن تتزوجي فلاناً أو فلاناً من الناس. لقد بعثت إليك بالأمس رسالةً أطلب منك فيها أن نتزوج. فلا تؤاخذيني. كان ذلك عملاً غبياً. ولكن لم يكن عندي بديل. ما الذي كان يمكنني أن أفعله غير ذلك العمل الغبيّ؟ لا أدري.

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه إليها فجأة بعد أن كان يكلمها ناظراً إلى جانب. لو كنت في مكانها لأخافتني تلك الضحكة. أحسست بهذا. ونهض عن كرسيه فجأة وقال يسألها بغتةً كأنما هو تذكر الأمر الجوهري:

ـ قولي: كيف أمكنك أن توافقي على المجيء إلى هنا؟ إن دعوتي ورسالتي كلها ما كانتا إلا حماقة... انتظري: أظن أنني أستطيع أن أحزر كيف وافقت على المجيء. ولكن لماذا جئت؟ ذلك هو السؤال. أتراك جئت عن خوف فحسب؟

فقالت وهي تنظر إليه بحذر:

ـ جئت لأراك.

وصمت الاثنان كلاهما نصف دقيقة. وعاد فرسيلوف يجلس، ثم

Twitter: @ketab_n

أخذ يتكلم بصوت رقيق، لكنه مؤثر، يكاد يكون متهدجاً، فقال:

ـ منذ مدة طويلة لم أرك يا كاترينا نيقولايفنا... منذ مدة بلغت من الطول أنني أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدني في ذات يوم، كما أجدني الآن، جالساً بقربك أنظر إلى وجهك وأسمع صوتك... منذ سنتين لم ير أحدنا الآخر، منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر. كنت لا أقدر أن أكلمك في يوم من الأيام. على كل حال، ما مضى قد مضى، وما بقي اليوم سيزول غداً كدخان. ليكن! إنني أقبل هذا، إذ ليس عندي له بديل.

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة:

ـ ولكن لا تنصرفي الآن بدون أن تقولي لي شيئاً. لقد منحتني صَدَقة حين قبلت أن تجيئي، فلا تنصرفي قبل أن تجيبيني عن سؤال سألقيه عليك!

ـ ما السؤال؟

ـ لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم أبداً. فماذا تخسرين إذا قلت لي الحقيقة كلها مرةً واحدة إلى الأبد؟ أجيبيني عن سؤال لا يلقيه العقلاء أبداً: هل أحببتني في لحظة واحدة على الأقل... أم أراني أخطأت الظن؟

احمرت كاترينا نيقولايفنا احمراراً شديداً. وقالت تجيبه:

ـ بل أحببتك.

توقعت أن تقول هذا: يا للمصادفة، يا للصريحة، يا للمستقيمة التي تقول الحقيقة!

وتابع يسألها:

ـ والآن؟

ـ الآن لا أحبك.

Twitter: @ketab_n

ـ وتضحكين؟

ـ لا. لئن ضحكت فوراً فقد كان ذلك برغم إرادتي، لأنني كنت أتوقع أن تسألني «والآن؟»، فلما صدق توقعي ابتسمت، لأن المرء يبتسم دائماً حين يصدق توقعه...

شيء غريب. ما رأيتها قبل اليوم في مثل هذه الحصافة وهذا الاحتراس، ولا رأيتها قبل اليوم شبه خجلى وشبه مستحية إلى هذا الحد! وكان هو يلتهمها بعينيه التهاماً.

ـ أعلم أنك لا تحبينني... ولكن ألا تحبينني البتة!

ـ ربما البتة؟

ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة، دون أن تبتسم ودون أن تحمر:

ـ لا أحبك. صحيح أنني أحببتك، ولكن حبي لم يطل. فما لبثت أن كففت عن حبك...

ـ أعرف، أعرف. رأيت أن هذا ليس ما كنت في حاجة إليه... قولي: ما الذي أنت في حاجة إليه؟ إشرحي لي مرةً أخرى...

ـ هل شرحت لك هذا من قبل؟ ما أنا في حاجة إليه؟ إنني امرأة عادية جداً. إنني امرأة هادئة... أحب الناس المرحين.

ـ المرحين؟

ـ ها أنت ذا ترى أنني عاجزة حتى عن التحدث معك. يخيَّل إليَّ أنك لو أحببتني حباً أقل، لأحببتك.

وابتسمت خجلى مرة أخرى. كان يلتمع في جوابها أكبر الصدق. كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التي تحدد علاقاتهما تحديداً حاسماً، وتفسر كل شيء، وتقطع بكل شيء؟ وكم كان يجدر به، هو، أن يفهم ذلك. ولكنه نظر وابتسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل:

Twitter: @ketab_n

ـ هل بيورنج مرح؟

فأسرعت تجيبه:

ـ اطمئن. ما هو بالمرح البتة! وإنما أنا أتزوجه لأنني سأكون معه أهدأ مما أكون مع آخر. ثم تبقى نفسي كلها لي أنا.

ـ يقال إنك عدت تحبين حياة المجتمع وتشغفين بها؟

ـ لا لا، ليس حياة المجتمع. فأنا أعرف أن مجتمعنا تسوده الفوضى كما تسود كل ما عداه. ولكن المظاهر الخارجية تظل فيه أحلى، فإذا كان المرء يحب أن يعيش وكفى، فالعيش في المجتمع أمتع من العيش في غيره.

ـ سمعت كلمة «الفوضى» هذه كثيراً، فلا شك أنك خفت كثيراً من الفوضى التي كانت تسود حياتي... أصفاد، وأفكار، وسخافات...

ـ لا، ليس الأمر ذاك أبداً...

ـ ما هو إذن؟ قوليه بصراحة، ناشدتك الله!

ـ طيب، سأقوله بصراحة، لأنني أعدك ذا فكر عظيم. إليك الحقيقة: إنني لم أستطع أن لا أرى فيك شيئاً مضحكاً بغير انقطاع.

قالت ذلك واحمرت فجأة، كأنما هي أحست أنها تورطت في قلة الاحتراس تورطاً كبيراً.

قال آندريه بتروفتش:

ـ لهذه الكلمة التي قلتها، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة.

فأسرعت تضيف وهي تزداد احمراراً:

ـ لم أكمل كلامي. أنا المضحكة في الواقع... لا شيء إلا لأنني أكلمك كحمقاء.

ـ لا، ما أنت بمضحكة، وإنما أنت امرأة من نساء المجتمع فاسدة.

Twitter: @ketab_n

قال ذلك واصفر اصفراراً رهيباً. وتابع كلامه فقال:

ـ أنا أيضاً لم أكمل كلامي حين سألتك لماذا جئت. فهل تريدين أن أنهيه؟ إن ثمة رسالة، إن ثمة وثيقة تخلع قلبك هلعاً؛ لأن أباك إذا وقعت هذه الرسالة بين يديه، يمكن أن يلعنك أثناء حياته، وأن يحرمك من ميراثه شرعاً في وصيته. أنت خائفة من هذه الرسالة... وقد جئتني بحثاً عنها وسعياً إليها...

نطق بهذه الكلمات وهو يرتجف من رأسه إلى قدميه، حتى لتكاد تصطك أسنانه.

فكانت تصغي إليه معبرة بوجهها عن سأم وألم. وقالت مدافعة عن نفسها:

ـ أعلم أنك تستطيع أن تحدث لي أكداراً كثيرة، ولكنني لم أوافق على لقائك لأقنعك بالكف عن اضطهادي وتعذيبي بقدر ما جئت لأراك. بل لقد كانت نفسي تضطرم رغبة في لقائك منذ مدة طويلة...

وأضافت تقول فجأة، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة مباغتة:

ـ غير أنني رأيتك على عهدي بك...

ـ هل كنت تتوقعين أن تجديني إنساناً آخر بعد الرسالة التي تكلمت فيها عن فساد خلقك؟ هل جئت إلى هنا بغير خوف البتة؟

ـ جئت لأنني أحببتك في الماضي. ولكن لا تهددني، أرجوك. ما بقينا معاً، فلا تذكرني بأفكاري السيئة وعواطفي الرديئة. إذا أمكنك أن تكلمني في غير هذا فسأكون سعيدة جداً. قد يأتي دور التهديد، أما الآن فقل لي شيئاً آخر، أرجوك! حقاً لقد جئت لأراك وأنصت لك دقيقة. فإذا كنت عاجزاً عن هذا فاقتلني فوراً ولكن لا

Twitter: @ketab_n

تهددني ولا تعذب نفسك أمامي. . .

بهذا ختمت كلامها وهي تنظر إليه مترقبة ترقباً غريباً، كأنما هي تفترض حقاً أنه قد يقتلها.

ونهض آندريه بتروفتش من جديد، وراح يتأملها بنظرات حارة، ثم قال بلهجة قاطعة:

ـ سوف تخرجين من هنا بغير أية إساءة.

فابتسمت وقالت:

ـ نعم، هذا عهد قطعته على نفسك.

ـ ليس لأنني قطعت على نفسي عهداً في الرسالة، بل لأنني أريد أن أفكر فيك طول الليل. . .

ـ تعذيباً لنفسك؟

ـ إنني أستحضر صورتك دائماً حين أخلو إلى نفسي. وأظل أتحدث معك. وأذهب إلى حانات ومواخير فإذا أنت تظهرين لي أيضاً. ولكنك تضحكين مني دائماً، كما تفعلين الآن.

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره. فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد ارتسم على وجهها عطف قوي:

ـ أبداً، أبداً ما ضحكت منك. وإذا كنت قد جئت فلأنني حاولت بكل الوسائل ألا أجرح شعورك في أمر من الأمور.

وأضافت تقول فجأة:

ـ لقد جئت إلى هنا لأقول لك إني أحبك تقريباً.

ثم أسرعت تتدارك:

ـ معذرة. . . لعلني لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه.

فضحك وقال:

ـ لماذا لا تجيدين التظاهر؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة؟

Twitter: @ketab_n

لماذا لست كسائر الناس؟... كيف يمكن أن يطرد أحد أحداً ثم يقول له: «أحبك تقريباً»؟...

ـ ذلك أنني لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه. ذلك أنني ما وُجدت يوماً أمامك إلا شعرت بخجل ولم أحسن الكلام، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك: «أحبك تقريباً»، فذلك لأن الأمر كان غامضاً في ذهني أيضاً. هذا هو السبب في أني قلت تلك الجملة، رغم أنني في الواقع أحبك... أحبك ذلك الحب «المشترك» الذي يحمله المرء لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبداً...

كان يصيخ بسمعه إليها صامتاً ولا يحول عنها نظرته الحارة، ثم استأنف كلامه فقال:

ـ لا شك أنني أسيء إليك. هذا هو عيب الهوى الشديد. إني لأعرف شيئاً واحداً هو أنني إذا كنت معك فقد انتهيت، وإذا غبت عنك فقد انتهيت أيضاً. سيان أن أكون معك وأن أكون بدونك، فأنت معي دائماً حيثما تكونين. وأعلم كذلك أنني أستطيع أن أكرهك أكثر مما أستطيع أن أحبك... ثم إني منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر في شيء. وصارت تستوي عندي جميع الأمور. كل ما آسف له هو أنني أحببت امرأة مثلك...

كان قد وهن صوته، وتابع كلامه يقول كالمختنق وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

ـ ماذا تريدين؟ إنه لجنون مني أن أقول لك هذا الكلام. أظن أنني مستعد أن أقف مسمراً على ساق واحدة مدة ثلاثين سنة إذا كان هذا يرضيك. أرى أنك تشعرين نحوي بشفقة. وجهك يقول: «لو استطعت لأحببتك، لكنني لا أستطيع...». أليس هذا

Twitter: @ketab_n

صحيحاً؟ لا ضير. لست بذي كبرياء. إنني مستعد لأن أقبل منك أية صدقة، كشحاذ، هل تسمعين؟ أية صدقة... أنّى لشحاذ أن يكون ذا كبرياء؟...

فنهضت كاترينا نيقولايفنا واقتربت منه، ثم قالت وهي تلامس بيدها كتفه وقد لاحت في وجهها عاطفة لا يمكن التعبير عنها:

ـ صديقي! إنني لا أستطيع أن أسمع مثل هذه الأقوال! سأظل أفكر فيك طول حياتي تفكيري في أغلى إنسان وأنبل قلب وأقدس شيء يمكن أن أحبه وأحترمه. آندريه بتروفتش! افهمني... إنني لم آتِ إلى هنا عبثاً يا عزيزي، يا من كنت وما تزال عزيزاً على قلبي. لن أنسى أبداً ما أثرته في نفسي من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولى. فلننفصل صديقين، ولسوف تظل في حياتي أجلَّ خواطري شأناً وأحلاها مذاقاً!

قال آندريه بتروفتش:

ـ «فلننفصل. أحبك». سوف أحبك ولكن فلننفصل...

ثم قال وقد شحب لونه شحوباً شديداً:

ـ اسمعي. هبي لي صدقة أخرى: لا تحبيني، ولا تعيشي معي، ولننقطع عن أن يرى أحدنا الآخر إلى الأبد. سوف أختفي متى أصبحت لا تريدين أن تريني، ولا أن تسمعيني... ولكن... ولكن... «لا تتزوجي».

انقبض صدري إلى حد الألم حين سمعت كلامه. إن هذا الرجاء الساذج الذليل يوقظ الشفقة في النفس ويطعن القلب طعناً قوياً بمقدار ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة. نعم، إنه يطلب صدقة حقاً! هل كان يستطيع أن يظن حقاً أن رجاءه يمكن أن يلبّى؟ مع ذلك. نزل بنفسه إلى حيث يرجو هذا الرجاء، وحرص

Twitter: @ketab_n

على طلب هذه الصدقة. إن هذا الدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه! أما هي فإن جميع قسمات وجهها قد تشوهت ألماً. ولكنه قبل أن تنطق هي بكلمة واحدة، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فجأة فكأنه ليس صوته:

ـ سوف أدمّرك تدميراً!

ولكنها أجابته بكلام لا يقل عن كلامه غرابة، وبصوت كصوت تبدل أيضاً تبديلاً غير متوقع حتى لكأنه ليس صوتها، فقالت:

ـ إذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم في المستقبل انتقاماً أقسى من الانتقام الذي تهددني به الآن لأنك لن تنسى أبداً أنك استجديتني صدقة وكنت أمامي شحاذاً...

وختمت كلامها وهي تقذفه بنظرة تحد:

ـ لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك!

فأجابها برفق مبتسماً:

ـ «تهديدات من فمك»، أي من فم شحاذ مثلك! لقد كنت أمزح. لن أصنع بك شيئاً. لا تخافي. انصرفي. أما تلك الوثيقة فسأبذل جميع جهودي لأرسلها إليك. ولكن اذهبي... اذهبي!... لقد بعثت إليك رسالة حمقاء، واستجبت أنت لتلك الرسالة الحمقاء، فجئت: فها نحن سواء: لا دائن ولا مدين!

وأضاف يقول لها ليدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق الغرفة التي كنت مختبئاً فيها وراء الستارة:

ـ من هنا!

قالت وهي تقف على العتبة:

ـ اغفر لي إذا استطعت.

فقال فجأة:

Twitter: @ketab_n

ـ إذا كتب لنا أن نلتقي صديقين في يوم من الأيام، فسنتذكر هذا المشهد ضاحكين.

ولكن قسمات وجهه كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة.

هتفت تقول ضارعة إلى الله وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى، ولكنها تنظر إلى وجهها وجلةً كأنما هي تحزر ماذا أراد أن يقول:

ـ اسأل الله أن يحدث هذا.

ـ انصرفي! كلانا مفرط في الذكاء. ولكنك... آه... أنت من طينتي! بعثت إليك رسالة مجنونة، فارتضيت أن تجيئي لتقولي أنك «تحبينني تقريباً». لا، لا، إن بنا جنوناً واحداً! كلانا شاذ. ابقي مجنونة دائماً، لا تتغيري، وسنعود فنلتقي صديقين. إنني أتنبأ بهذا. يميناً!

خرجت كاترينا نيقولايفنا. فأسرعت إلى المطبخ دون ضجة. ومن غير أن أنظر تقريباً إلى داريا أونيسيموفنا التي كانت تنتظرني، وثبت إلى الشارع نازلاً على سلّم الخدم ماراً بالفناء. ولكن حين وصلت إلى الشارع كانت هي قد ركبت العربة التي كانت تنتظرها أمام الباب. فأخذت أركض.

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

1

إلى أين؟ إلى بيت لامبرت!

مهما أشأ أن أسبغ طابعاً منطقياً على سلوكي في ذلك المساء وفي تلك الليلة، ومهما أشأ أن أكتشف فيه شيئاً من سلامة العقل، فإنني حتى في هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرى الأحداث كلها جملةً واحدة، أجدني عاجزاً عن أن أعرضها بما يجب لها من تسلسل ووضوح. لا بد أنني كنت تائهاً في عاطفة أو قل في سديم مضطرب من العواطف. بل لا شك أن ثمة عاطفة أساسية كانت تسحقني وتسيطر على جميع العواطف الأخرى، ولكن... هل يجب أن أعترف بها؟ لا سيما وأنني غير واثق كل الثقة...

اقتحمت بيت لامبرت، خارجاً عن طوري طبعاً، حتى لقد أخفته هو وصاحبته آلفونسين. لطالما لاحظت لدى الفرنسيين، حتى لدى أشدهم طيشاً وأكثرهم فجوراً، أنهم في داخل بيوتهم حريصون أشدَّ الحرص على نوع من النظام البورجوازي، وعلى طراز من الحياة مطرد رتيب تافه يجري على وتيرة واحدة ولا يحبون أن يخرجوا عنه مرة. ولكن لامبرت سرعان ما أدرك أن شيئاً قد حدث، فسرَّه أن يراني في بيته وأن «يقبض على ناصيتي» أخيراً. لقد كان لا يحلم

Twitter: @ketab_n

إلا بهذا طوال هذه الأيام ليل نهار. ألا ما كان أحوجه إلي! ثم هأنذا، بعد أن فقد هو كل أمل، أجيئه فجأةً، من تلقاء نفسي، بل أجيئه وأنا على هذه الحالة من الجنون، أي على الحالة التي يريدها!

صرخت أقول:

ـ خمراً يا لامبرت! اسقني! دعني أعربد! آلفونسين، أين قيثارتك؟

لن أصف المشهد، فلا داعي إلى ذلك. المهم أننا شربنا، وقصصت عليه كل شيء، كل شيء. فكان يصغي إلى كلامي بشراهة. وقمت أنا بالخطوة الأولى فاقترحت عليه تدبير مؤامرة، إشعال حريق: نستدعي أولاً كاترينا نيقولايفنا برسالة...

قال لامبرت مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها:

ـ هذا ممكن...

قلت:

ـ وزيادةً في ضمان نجاح المؤامرة، يجب أن نبعث إليها في تلك الرسالة صورة عن «وثيقتها» لتستطيع أن تدرك أننا لا نغشها.

فقال لامبرت مؤيداً وهو لا ينفك يتبادل النظرات مع آلفونسين:

ـ تماماً! هذا ما يجب أن نفعله.

قلت:

ـ وثالثاً، يجب أن يكون لامبرت هو الذي يدعوها، لشأن يخصه، منتحلاً صفة رجل مجهول آت من موسكو. وأجيء أنا بفرسيلوف.

فقال لامبرت:

ـ ربما نحضر فرسيلوف أيضاً، نعم!

Twitter: @ketab_n

فصحت أقول معترضاً على كلمة «ربما».

ـ لا، ليس «ربما»، بل حتماً. هذا لا غنى عنه.

وأضفت موضحاً وأنا أجرع جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة، لكنني أعتقد أنني شربت زجاجة الشمبانيا كلها وحدي، أما هما فكانا يتظاهران):

ـ هذا كله من أجله هو. نجلس أنا وفرسيلوف في الغرفة الأخرى. يجب الحصول على غرفة ثانية يا لامبرت! حتى إذا جاءت اللحظة التي توافق فيها على كل شيء، أي على الفدية المالية والفدية «الأخرى»، لأنهن جميعاً حقيرات، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا وداهمناها فأقنعناها بحقارتها. وحينئذ يُشفى فرسيلوف ويطردها ركلاً بقدميه. ولكننا في حاجة إلى بيورنج، ليراها هو أيضاً!

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً. فقال لامبرت:

ـ لا، بيورنج لا داعي إليه!

فصرخت أقول:

ـ بلى بلى! أنت لا تفهم من الأمر شيئاً لأنك غبي يا لامبرت! بالعكس: يجب أن تحدث فضيحة في المجتمع الراقي: بذلك ننتقم من المجتمع الراقي، ومنها. يجب أن تعاقب! لامبرت، سوف تعطيك كمبيالة... أنا لا حاجة لي إلى المال، أنا أبصق على المال! أما أنت فسوف تنزل فتدس المال في جيبك مخلوطاً ببصاقي. وأكون أنا قد وضعت أنفها في التراب!

كان لامبرت لا ينفك يقول مؤيداً:

ـ نعم، نعم.

ويتبادل النظرات مع آلفونسين.

قلت متمتماً:

Twitter: @ketab_n

ـ لامبرت، إنها تعبد فرسيلوف. رأيت هذا بنفسي منذ هنيهة، وأيقنت به.

ـ من حسن الحظ أنك رأيت كل شيء: ما كنت لأتصور أن لك كل هذه الموهبة في التجسس، ولا أنك تملك كل هذا القدر من الذكاء.

ـ أنت كاذب يا فرنسي. أنا لست جاسوساً ولكنني ذكي جداً.

ثم تابعت كلامي جاهداً أن أعبر عن فكرتي بمشقة وعناء:

ـ هل تعلم يا لامبرت؟ إنها لن تتزوجه، لأن بيورنج ضابط في الحرس، أما فرسيلوف فليس إلا رجلاً كريماً سمحاً محباً للإنسانية، أي هو في نظرهم إنسان مضحك لا أكثر! آه. . . إنها تفهم هذا الوله وتفتتن به سروراً، وتغنج لفرسيلوف وتجتذبه وتغريه، لكنها لن تتزوجه! إنها امرأة، إنها أفعى! كل امرأة أفعى، وكل أفعى امرأة! يجب أن نشفيه. يجب أن نسقط عن عينيه الغشاوة فيراها على حقيقتها فيشفى. سأجيء به إلى عندك يا لامبرت.

فكان لامبرت لا يزال يُثني على كلامي ويملأ كأسي في كل لحظة:

ـ حسن، حسن!

كان يخشى أن أستاء منه أي استياء، كان يخاف أن يعارضني، وكان يحرص على أن يسقيني مزيداً من الخمر! وكان ذلك منه واضحاً أشدَّ الوضوح، فلم أملك أنا نفسي إلا أن ألاحظه. لكنني ما كان لي أن أنصرف بحال من الأحوال. وظللت أشرب وظللت أتكلم. كنت أحترق رغبة في الإفصاح مرةً عما يعتمل في نفسي! وحين خرج لامبرت ليجيء بزجاجة ثانية، عزفت آلفونسين على قيثارتها لحناً إسبانياً. فكادت تنهمر دموعي، وقلت مخاطباً لامبرت بعاطفة عميقة:

Twitter: @ketab_n

ـ يجب إنقاذ هذا الرجل حتماً يا لامبرت، لأنه... مسحور! لو تزوجها، فلسوف يطردها ركلاً بالقدمين منذ الصباح، بعد الليلة الأولى. فهذا ما يحدث دائماً. إن هذا الحب الوحشي المسعور يوافي المرء كما توافيه نوبة، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض، فما أن يتهيأ له الارتواء، حتى تسقط الغشاوة وتنبجس العاطفة المناقضة: الاشمئزاز والكره والرغبة في الإبادة والسحق. هل تعرف قصة آبيساج يا لامبرت؟ هل قرأتها؟

ـ لا، لا أتذكر. أهذه رواية؟

ـ ذلك أنك لا تعرف شيئاً يا لامبرت. أنت جاهل جهلاً رهيباً، جهلاً فظيعاً! ولكن لا يهمني أن تكون جاهلاً أو أن تكون عالماً! أوه! إنه يحب ماما؛ لقد قبَّل صورتها. ولكن سيكون الأوان قد فات. لذلك يجب إنقاذه منذ الآن...

وأخيراً طفقت أبكي بكاءً مراً. لكنني ظللت أهذر وأشرب. ما أكثر ما شربت! الشيء الأساسي الذي يجب أن أذكره هو أن لامبرت لم يسألني عن الوثيقة مرةً واحدة، طوال السهرة، أقصد لم يسألني: أين هي؟ لم يطلب مني أن أريه إياها، أن أبسطها له على المائدة. ألم يكن طبيعياً مع ذلك أن يلقي عليَّ هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك؟ شيء آخر: لقد اتفقنا على أن نعمل كيت وكيت، وقلنا إننا سنقوم بالعمل حتماً، ولكن أين، ومتى، وكيف؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة! كان لامبرت لا يزيد على أن يؤيِّد كلامي ويتبادل النظرات مع آلفونسين. لا شيء عدا هذا! صحيح أنني كنت في ذلك الحين عاجزاً عن إدراك ذلك، ولكنني أتذكره تذكراً واضحاً.

وفي النهاية نمت على الديوان، بدون أن أخلع ثيابي. نمت مدةً

Twitter: @ketab_n

طويلة جداً، واستيقظت في وقت متأخر جداً. أذكر أنني حين استيقظت، ظللت متمدداً على الديوان زمناً كالمشدوه، أحاول أن أجمع أفكاري وذكرياتي، وأتظاهر بأنني ما زلت نائماً. ولكن لامبرت كان قد خرج من البيت. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة.

النار في المدفأة تُسمع طقطقتها، تماماً كالمرة الماضية، حين فتحت عينيَّ في بيت لامبرت بعد تلك الليلة المشؤومة! ولكن آلفونسين كانت ترصدني وراء الحاجز: لاحظت ذلك فوراً، لأنها نظرت إليَّ وتفرست فيَّ مرتين، غير أنني كنت أغمض عيني وأتظاهر بالنوم. كنت أفعل ذلك لأنني أحس باكتئاب وأريد أن أعرف أين أنا من الأمر؟ فما كان أشد عذابي حين تذكرت، فأدركت فظاعة وحقارة ما أقدمت عليه في الليل من اعتراف للامبرت، واتفاق معه... وأدركت مدى خطئي وضلالي إذ جئت إليه أصلاً. ولكنني حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معي، لا تزال مخيطة في جيبي. لقد جسستها بيدي، فأحسست بها! فليس عليَّ إذن إلا أن أثب وثبة واحدة، فأولي هارباً. ولا داعي إلى الخجل بعد ذلك من لامبرت؛ فليس لامبرت بمن يستحق أن نخجل منه!

ولكنني كنت خجلان من نفسي! لقد نصَّبت نفسي قاضياً أحاكم نفسي! ما أشد الألم الذي كان يعصر قلبي! على أنني لن أصف ذلك الشعور الجهنمي، الذي لا يطاق، لن أصف ذلك الإحساس بالخزي والتلطخ والدناءة. ومع ذلك يجب عليَّ أن أعترف. فقد آن أوان الاعتراف فيما أعتقد. ويجب أن أسجل هذا الاعتراف في مذكراتي. ألا فاعلموا أنني إذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار، وإذا كنت قد هيأت نفسي لرؤية المشهد الذي ستدفع فيه

Twitter: @ketab_n

الفدية للامبرت (آه... يا للسفالة!)، فإن هذا لم يكن في سبيل إنقاذ ذلك المجنون فرسيلوف، ولا في سبيل أن أردَّه إلى ماما، وإنما... لأنني... ربما كنت أنا نفسي مولهاً بحبها، غيوراً عليها! ممن كنت غيوراً؟... من بيورنج؟ من فرسيلوف؟ من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم في حفلة الرقص، على حين أكون أنا قابعاً في ركني، شاعراً بالخزي من نفسي؟ آه... يا للقذارة!

الخلاصة أنني لا أعرف ممن كنت غيوراً. لكنني كنت أشعر، بل كنت قد أيقنت منذ مساء أمس، كيقيني بأن اثنين واثنين أربعة، أنني فقدتها إلى الأبد، وأن هذه المرأة سوف تنبذني وسوف تسخر من زيفي ومن سخافتي. فهي امرأة صادقة ومستقيمة، وأنا امرؤ متجسس ومخبىء وثائق!

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة، وقد آن لي أن أعترف بها الآن... هأنذا أعترف بها. لكنني أكرر مرةً أخرى، ومرةً أخيرة، أن نصف هذا الاعتراف، وربما ثلاثة أرباعه، قد يكون تجنياً على نفسي! إنني في تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير مسؤول عن أعماله، ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق يتكلم كمن أصابه مس. وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً من العواطف والأحاسيس كان قد أغرقني إغراقاً، فلا أستطيع أن أعي ما بقلبي ولا أن أدرك ما يعصف بنفسي عصفاً. ولكن لا بد لي مع ذلك من هذا الاعتراف، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ نفسي حتماً.

وثبت عن الديوان مشمئزاً اشمئزازاً لا يغالب، عازماً عزماً قوياً على أن أمحو كل شيء. ولكن ما أن وثبت عن ديواني ذلك الوثوب حتى هرعت إليَّ آلفونسين. تناولت معطفي وقبعتي، وقلت

Twitter: @ketab_n

لها أن تبلغ لامبرت أنني كنت بالأمس أهذي، وأنني تجنيت على تلك المرأة، وأنني كنت أمزح، فحذار أن يبيح لنفسه أن تطأ قدماه بيتي في يوم من الأيام. قلت لها ذلك كله بالفرنسية متعجلاً كيفما أتفق، وأغلب الظن أنني قلته غامضاً مشوشاً، فما كان أشد دهشتي حين رأيت آلفونسين تفهم ما قلته فهماً كاملاً؛ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مغتبطةً بكلامي، مهللةً له. قالت مؤيدة:

ـ «نعم. نعم. ذلك عيب. سيدة محترمة. أنت رجل كريم! اطمئن. سأوضح الأمر للامبرت!».

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجىء في عواطف آلفونسين، وربما في عواطف لامبرت تبعاً لذلك، أن يثير في نفسي الشبهات. لكنني خرجت صامتاً. لقد كنت مضطرب النفس، وكنت لا أحسن التفكير. ولقد أعدت النظر في الأمر كله بعد ذلك، ولكن كان قد فات الأوان! يا للمكيدة الجهنمية التي حيكت لي! إنني أتلبث هنا قليلاً لأشرح ما حدث، وإلا عجز القارىء عن الفهم!

الواقع هو أنني منذ أن لقيت لامبرت أول مرة، في تلك الليلة التي تدفأت فيها عنده بعد تجلدي من البرد، قد حكيت له (يا لغباوتي!) أن الوثيقة مخيطة في جيبي. ولقد نمت على ديوانه في تلك الليلة بعض الوقت فجأة، فلم يلبث لامبرت أن جسَّ جيبي، فأيقن أن الورقة مخيطة فيها فعلاً. واستطاع بعد ذلك مراراً أن يتأكد من أن الورقة لا تزال في مكانها. فأثناء عشائنا في مطعم التتر مثلاً، أتذكر أنه حضنني عدة مرات؛ فلما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر ببالي قط. لقد كنت أتخيل دائماً (كما يفعل غبي أحمق) أنه إن كان يدعوني إلى بيته دائماً بحماسة شديدة وإصرار كبير، فهو إنما يفعل ذلك

Twitter: @ketab_n

ليستدرجني إلى الدخول في عصابته والمشاركة في عملها. ولكن الحقيقة المؤسفة هي أنه كان يدعوني إلى بيته لغرض آخر! كان يدعوني ليسكرني سكراً شديداً، حتى إذا رقدت غائباً عن شعوري وأخذت أشخر، قصّ جيبي واستولى على الوثيقة. وذلك ما فعلاه في تلك الليلة هو وآلفونسين. قامت آلفونسين بقص جيبي. فلما صارت الرسالة في حوزتها، أعني «رسالتها»، أعني وثيقتي التي جئت بها من موسكو، تناولا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه، فوضعاها في مكان الرسالة، ثم أعادا خياطة الجيب في مكانه فكأن شيئاً لم يحدث، فلم ألاحظ أنا شيئاً. إن آلفونسين هي التي أعادت خياطة الجيب. وظللت أنا، أنا الأحمق، ظللت إلى النهاية، خلال يوم ونصف يوم، أظن أنني ما زلت أملك السر، وظللت أعتقد بأن مصير كاترينا لا يزال بين يديَّ.

كلمة أخيرة: إن سرقة الوثيقة كان سبب كل شيء، كان سبب جميع المصائب الأخرى!

2

إليكم الآن آخر أيام مذكراتي. إني أصل إلى نهاية النهاية.

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت إلى مسكني مهتاج الأعصاب، ذاهلاً أكبر الذهول، عاقداً عزمي على قرار حاسم. ولم أتعجل الخطى، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل. ولكن ما إن وطئت قدماي الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة: كان العجوز قد نُقل من تسارسكويا سيلو منذ قليل، فهو الآن في بيتنا، وبقربه آنا آندرييفنا!

لم يسكنوه غرفتي، بل الغرفتين المجاورتين لها، أعني غرفتَي

Twitter: @ketab_n

المؤجر. وقد أحدثت بالأمس في هاتين الغرفتين تغييرات وتجميلات، وإن تكن طفيفة. وكان المؤجر قد نقل امرأته إلى حجرة المستأجر المجدور المتذمر الذي سبق أن تكلمت عنه، كما نُقل هذا لا أدري إلى أي مكان.

لم يلبث المؤجر أن تسلل إلى غرفتي ليستقبلني. إن هيئته لا تنم عمَّا كانت تنم عنه بالأمس من حزم، ولكنه كان في اهتياج شديد، اهتياج من مستوى الأحداث إن صح التعبير. لم أكلمه، بل انسحبت إلى زاوية الغرفة، ووضعت رأسي بين يدي، ولبثت على هذه الحال دقيقة. فقدَّر في أول الأمر أنني أصطنع «وضعاً»، ولكنه في النهاية لم يطق صبراً، واعتراه الفزع، فتمتم يسألني:

ـ هل هناك شيء؟

وإذ لم أجبه أردف يقول:

ـ كنت أنتظرك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون اتصال غرفتك بغرفتَي الأمير مباشراً... بدلاً من المرور بالدهليز.

قال ذلك وهو يريني باباً جانبياً مغلقاً، يصل غرفتي بغرفته، أي بما هو الآن مسكن الأمير.

فقلت له برصانة ووقار:

ـ بيتر ايبوليتوفتش، أرجو أن تتفضل فتمضي إلى آنا آندرييفنا فوراً، فتدعوها أن تجيء إلى هنا لتتحدث معي قليلاً. هل وصلا منذ مدة طويلة؟

ـ منذ زهاء ساعة.

ـ طيب. اذهب إلى آنا آندرييفنا وقل لها ما أوصيتك به.

فذهب ثم عاد يحمل إليَّ هذا الجواب الغريب، وهو أن آنا آندرييفنا والأمير ينتظران أن أجيء إليهما بصبر فارغ. إذن لم تشأ

Twitter: @ketab_n

آنا آندرييفنا أن تأتي. فعدّلت ثيابي التي تجعّدت تجعّد في الليل، ونظفتها بالفرشاة. وغسلت وجهي، ومشطت شعري. فعلت ذلك كله بغير تعجل. ثم مضيت إلى الشيخ مدركاً مدى ما يجب التزامه من حذر وروية.

كان الأمير جالساً على ديوان أمام مائدة مستديرة، أما آنا آندرييفنا فكانت في ركن آخر، أمام مائدة أخرى عليها غطاء وفوقها سماور البيت مجلوّاً كما لم يسبق أن جُلي في يوم من الأيام، وكان ماء السماور يغلي، وكانت آنا آندرييفنا تهيىء الشاي.

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها، فلاحظ العجوز المسكين ذلك فوراً، فارتجف. وسرعان ما حل محل ابتسامته فزع حقاً. لكنني لم ألحّ، بل أخذت أضحك، ومددت له يديَّ، فارتمى المسكين في أحضاني.

وقد أدركت فوراً ما صار الرجل إليه، دون ريب. كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذي كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم بشيء من سلامة العقل رغم كل شيء، ولا يخلو من بعض الإرادة والصلابة، قد أحالوه بعد آخر لقاء بيني وبينه إلى نوع من مومياء، وجعلوا منه طفلاً شديد الخوف، كثير الحذر والشك. يجب أن أضيف إلى هذا أنه كان يعلم لماذا جيء به إلى هنا، وقد جرى كل شيء على النحو الذي ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث. لقد فاجأوه بخيانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين، فصعقوه وحطموه وسحقوه سحقاً، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعي ماذا يفعل. قالوا له إن الوثيقة في حوزتي وهي «مفتاح الموقف»، فإذا رآها كان في وسعه أن يتخذ قراره النهائي. يجب أن أبادر فأقول سلفاً إن رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان

Twitter: @ketab_n

يرعبه تصورهما أكثر مما يرعبه أي شيء في هذا العالم... لقد كان يتوقع أن يراني داخلاً عليه بالقرار في جيبي والورقة في يدي. فما كان أعظم فرحه حين رآني، بانتظار ذلك، مستعداً لأن أضحك وأن أثرثر في موضوع آخر. وقد انسكبت دموعه غزيرةً حين تعانقنا. ولا أكتمكم أنني ذرفت أنا أيضاً بعض العبرات. لقد شعرت فجأة بشفقة كبيرة عليه. وكان كلب آلفونسين الصغير ينبح نباحاً نحيلاً كرنين جرس صغير، ويندفع من الديوان نحوي. إن هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشيخ منذ صار عنده، حتى لقد كان ينام معه.

هتف يقول وهو ينظر لآنا آندرييفنا ويومئ إليَّ:

ـ «قلت إنه صاحب قلب نبيل» (بالفرنسية).

فقلت له:

ـ لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير! هيئتك الآن مزهرة نضرة!

ولكن نقيض قولي كان هو الصحيح وا أسفاه! لقد كان الشيخ أشبه بمومياء. وما قلت له ذلك إلا لأشجعه.

فأخذ يردد بفرح:

ـ «أليس كذلك؟ أليس كذلك؟» (بالفرنسية).

ـ ولكن هلاَّ شربت شايك. إذا قدّمت لي فنجاناً فسوف يسعدني أن أشرب الشاي بصحبتك.

ـ فكرة عظيمة. «فلنشرب ولنفرح». هناك قصيدة بهذا المعنى. أليس كذلك؟ آنا آندرييفنا، أعطه شاياً. «إنه يفتن دائماً بالعواطف» (بالفرنسية). أعطنا شاياً يا عزيزتي.

سكبت لي آنا آندرييفنا شاياً. ولكنها التفتت نحوي فجأة، وأخذت تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار، فقالت:

ـ آركادي ماكاروفتش، أنا ـ أنا والمحسن إليَّ الأمير نيقولا

Twitter: @ketab_n

إيفانوفتش، قد جئنا إلى بيتك لاجئين. جئنا إليك أنت، لا إلى غيرك، جئنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ. تذكَّر أن مصير هذا الإنسان القديس، النبيل، المحزون، هو بين يديك... إننا ننتظر القرار الذي يمليه عليك قلبك بالحق والعدل!

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها. فقد اعترى الأمير رعب شديد، حتى كاد يرتعش من فرط الذعر، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه نحوها:

ـ «فيما بعد، فيما بعد، أليس كذلك يا صديقتي العزيزة؟» (بالفرنسية).

لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذي أحدثته في نفسي مقاطعته هذه لحديثها. ولم أجب بشيء، وإنما اكتفيت بتحية فاترة رصينة. ثم جلست إلى المائدة عامداً، وطفقت أتحدث في مواضيع أخرى تافهة، وأخذت أضحك وأمزح... فكان واضحاً أن الشيخ شكر لي ذلك، وأنه اغتبط اغتباطاً شديداً. ولكن فرحه كان رغم شدته مهيأ لأن يتبدد سريعاً وأن يحل محله اكتئاب ويأس. كان هذا واضحاً من أول نظرة.

ـ «بنيَّ العزيز» (بالفرنسية). بلغني أنك كنت مريضاً... آ... معذرة... قيل لي إنك كنت طول هذه المدة منشغلاً بتحضير الأرواح، أهذا صحيح؟

أجبته مبتسماً:

ـ ما خطر لي مثل هذا على بال.

ـ لا؟ من كلمني إذن عن تحضير... الأر... واح؟

انبرت آنا آندرييفنا تشرح فقالت:

ـ إن الموظف، صاحبَ البيت، بيتر ايبوليتوفتش، هو الذي

Twitter: @ketab_n

كان يحدِّثه عن هذه الأمور منذ قليل. إنه رجل مرح، يعرف نكات كثيرة. هل تريد أن أناديه؟

ـ «نعم، نعم، إنه رجل طيب» (بالفرنسية). يعرف نكات كثيرة. ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد. سوف ندعوه. وسوف يحكي لنا كل شيء. «ولكن فيما بعد» (بالفرنسية). تصور أنه منذ قليل، حين إعداد المائدة، قال لي: إطمئن، فهي لن تطير! نحن لا نحضر الأرواح! هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح؟

ـ لا أدري. يُقال إنها ترتفع بجميع أرجلها.

فقال وهو يرشقني بنظرة مرتاعة:

ـ ولكن هذا الذي تقوله رهيب! (بالفرنسية).

ـ اطمئن. هذه سخافات!

ـ ذلك ما أقوله أنا أيضاً. إن ناستاسيا ستيبانوفنا سالوميافا... أنت تعرفها طبعاً... لا... لا، لا تعرفها... الخلاصة... تصور أنها هي أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح...

والتفت الأمير إلى آنا آندرييفنا وقال مكملاً كلامه:

ـ تخيلي هذا «يا ابنتي» (بالفرنسية)! قلت لها يوماً: إن في الوزارات موائد أيضاً، وعلى كل مائدة ثماني أيدٍ من أيدي الموظفين تكتب ولا تنقطع عن الكتابة، فلماذا لا تتراقص تلك الموائد؟ تخيَّليها وقد أخذت ترقص فجأة! شغب تقوم به الموائد في وزارة المالية، أو وزارة التعليم العام... لم يكن ينقص إلا هذا!...

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق:

ـ ما ألطف الأشياء التي تقولها دائماً يا أمير!

ـ «أليس كذلك؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكنني أحسن القول» (بالفرنسية).

Twitter: @ketab_n

قالت آنا آندرييفنا وهي تنهض:

ـ سأجيء ببيتر ايبوليتوفتش.

وكانت الغبطة تتلألأ في وجهها. فقد أبهجها كثيراً أن رأتني ألاطف الأمير هذه الملاطفة كلها. ولكن ما إن خرجت حتى تبدل وجه الشيخ فجأة. ونظر بسرعة إلى الباب، وأجال بصره فيما حوله، ثم مال من ديوانه عليَّ، وهمس يقول لي بصوت مروَّع:

ـ «يا صديقي العزيز»، ليتني أستطيع أن أراهما كلتيهما هنا! «آه، بنيَّ الغالي!».

ـ هدىء نفسك يا أمير!

ـ نعم نعم، لكننا سنصلح بينهما، أليس كذلك؟ إنه لشجار صغير محزن بين امرأتين تفيضان كرماً وشهامة، أليس كذلك؟ ليس لي من أمل إلا فيك... سنسوِّي هذا كله هنا...

ثم أضاف يقول وهو يلقي نظرة يكاد يكون فيها خوف:

ـ ولكن يا له من مسكن غريب! وهذا المؤجر! إن له عقلاً عجيباً. قل لي: أليس خطراً؟

ـ المؤجر؟ لا! فيم يمكنه أن يكون خطراً؟

ـ حسن! عظيم! «يبدو غبياً، هذا السيد»! يابني! أستحلفك بيسوع المسيح لا تقل لآنا آندرييفنا إني خائف من كل شيء هنا. لقد أجزلتَ المديح لكل شيء منذ أن وطئت هذا المكان، حتى لقد مدحت المؤجر نفسه. اسمع، أنت تعرف قصة فون سون، هل تتذكر؟

ـ نعم أتذكر، فماذا؟

ـ «لا شيء... لا شيء البتة... ولكنني حرّ هنا، أليس كذلك؟». ما رأيك؟ لا يمكن أن يحدث هنا شيء... من ذلك النوع؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لا، يا عزيزي، اطمئن، أحلف لك...

هتف فجأة يقول وهو يضمّ يديه أمامي ولا يخفي عني شيئاً من جزعه:

ـ «صديقي، ابني»... إذا كان في حوزتك شيء حقاً... وثائق مثلاً... إذا كان ثمة ما يمكن أن تقوله لي... فلا تقله... لا تقله. لا تقل شيئاً، ناشدتك الله... لا تتكلم... الزم الصمت أطول مدة ممكنة، لا تتكلم...

وأراد أن يحضنني بذراعيه. وسالت الدموع على خديه. لن أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبي: كان الشيخ المسكين أشبه بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه، وأخذته إلى أجانب. ولكن لم يُسمح لنا بأن نتعانق: فقد فُتح الباب ودخلت آنا آندرييفنا، ولكن الشخص الذي كان يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها، حاجب البلاط. فصعقني هذا الشيء الجديد صعقاً، فسرعان ما نهضت واتجهت نحو الباب.

قالت آنا آندرييفنا بصوت عال:

ـ آركادي ماكاروفتش، إسمح لي أن أعرِّف كلاً منكما بالآخر...

فلم يسعني إلا أن أتوقف. وقلت مقطعاً كلماتي مبرزاً منها كلمة «أحسن»:

ـ أعرف أخاك «أحسن» المعرفة!

فجمجم الشاب وهو يقترب مني طلق الهيئة، ويتناول يدي بحرية فلا أملك أن أسحبها:

ـ أوه! ما كان أكبرها غلطة... وإني لمذنب يا عزيزي آند... آندريه بتروفتش. ولكن خادمي ستيفان هو سبب كل شيء. لقد أساء

Twitter: @ketab_n

الإبلاغ عنك فحسبتك شخصاً آخر.

وأردف يشرح لأخته:

ـ حدث هذا بموسكو...

ثم عاد يكمل كلامه لي:

ـ وقد بذلت بعد ذلك جميع جهودي لأعثر عليك وأشرح لك الأمر. ولكنني مرضت... اسأله! «يا أمير يجب أن نكون صديقين حتى بحكم النسب...».

وتجرأ الفتى الوقح إلى حدّ وضع يده على كتفي، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة. فأسرعت أخلِّص كتفي من يده مبتعداً جانباً، ولكنني خجلت أن أزيد على ذلك شيئاً، فاكتفيت بأن خرجت صامتاً، ومضيت إلى غرفتي، فجلست على سريري مفكراً قلقاً مضطرباً. كانت هذه المكيدة تخنقني خنقاً، ولكنني لا أستطيع أن أُصدم آنا آندرييفنا وأن أسحقها سحقاً. لقد شعرت فجأة أنها هي أيضاً عزيزة على نفسي، وأحسست أنها في وضع رهيب.

3

كما كنت أتوقع، جاءت إلى غرفتي، تاركةً الأمير مع أخيها الذي أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نمائم المجتمع الراقي الجديدة، فسرعان ما استطاع بذلك أن يُفرح الأمير المسكين الذي يسهل التأثير فيه.

نهضت عن سريري صامتاً مستفهماً. فبادرتني آنا آندرييفنا قائلة بلهجة جازمة:

ـ قلت لك كل شيء يا آركادي ماكاروفتش. إن مصيرنا بين يديك.

Twitter: @ketab_n

ـ لكنني نبَّهتك أيضاً إلى أنني لا أستطيع... إن واجباتي المقدسة تمنعني من الإقدام على ما تعتمدين عليَّ فيه...

ـ حقاً؟ أهذا جوابك؟ أنا لا يهمني أن أهلك. ولكن الشيخ؟ أعلمْ أنه سيُجنُّ منذ هذا المساء!

هتفت أجيبها بحرارة:

ـ بل سيجنُّ إذا أنا أطلعته على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يُعلن جنون أبيها. ذلك ما لن يستطيع أن يتحمله. هو قال لي هذا.

الحق أنني كذبت إذ ادعيت أنه قال لي ذلك. ولكن الكذب كان في محله.

ـ قال لك هذا؟ قدَّرت أن يقوله لك. فأنا الهالكة إذن. حتى لقد بكى منذ قليل، وطلب أن يرجع إلى البيت.

سألتها بإلحاح:

ـ قولي لي: ما خطتك على وجه الدقة؟

فاحمّر وجهها من جرح كبريائها إن صح التعبير، ولكنها كابرت وتجلدت، فقال:

ـ إن هذه الرسالة التي بين أيدينا تبرئنا في نظر الناس. سوف أبادر فوراً فأنبىء الأمير «ف...» وبوريس ميخائيلوفتش بلتشيف، صديقي طفولته. هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ، وأنا أعلم أنهما أبديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجشعة التي لا ترحم. ولا شك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبي، وسألح أنا نفسي على طلب هذه المصالحة. ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً تاماً. وعدا ذلك سيدعمني أقربائي من جهة أمي، آل فاناريوتوف؛ غير أن الشيء الذي يهمني خاصةً إنما هو

Twitter: @ketab_n

سعادته. يجب أن يعرف أخيراً من ذا الذي كان مخلصاً له حق الإخلاص، فيقدِّره قدره الذي يستحقه. وإني لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فيه من تأثير يا آركادي ماكاروفتش. إنك تحبه كثيراً... ولكن هل يحبه أحد غيري وغيرك؟ إنه لم ينقطع عن ذكرك في هذه الأيام الأخيرة. وكان يحنُّ إليك حنيناً شديداً، ويشعر من بعدك عنه بضجر قوي. وكان يسميك «صديقه الشاب». وطبيعي أن شكري لك وامتناني منك لن يكون لهما حدود ما حييت...

ها... ها هي ذي الآن تعدني بمكافأة... لعلها مكافأة مالية! فقاطعتها قائلاً بلهجة خشنة ونبرة جازمة لا تنثني ولا تلين:

ـ مهما تقولي... فلن أتزحزح عن رفضي قيد شعرة! لكنني أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعاملينني به من صراحة، فأصارحك بآخر ما عقدت العزم عليه: بعد مدة قصيرة سأسلِّم الرسالة المشؤومة إلى كاترينا نيقولايفنا يداً بيد، ولكنني سأشترط عليها بسبب كل ما حدث الآن ألا تقوم بفضيحة، وأن تقطع لي على نفسها عهداً بألا تحول بينك وبين تحقيق سعادتك. هذا كل ما أستطيع أن أفعله.

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً:

ـ مستحيل!

لقد أثار استياءها أن تتصور أن كاترينا نيقولايفنا سوف «تداريها» وتحميها.

قلت:

ـ لن أغيِّر قراري يا آنا آندرييفنا.

ـ قد تغيِّره.

Twitter: @ketab_n

ـ الجئي إلى لامبرت!

ـ آركادي ماكاروفتش، إنك لا تعرف المصائب التي يمكن أن تنتج عن عنادك.

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد. فأجبتها:

ـ جائز جداً أن تنتج مصائب... إنني أشعر بدوار! كفى الآن: لقد قررّت وانتهى الأمر. ولكنني أرجوك، بل أستحلفك بالله، ألا تأتيني بأخيك.

ـ ولكنه يريد أن يمحو ما...

ـ ليس هناك شيء يجب محوه!... ما أنا في حاجة إلى أن يمحو شيئاً. لا أريد، لا أريد!

كذلك صحت وأنا أمسك رأسي بيدي. ولعلني قد عاملتها باستعلاء.

وأردفت أسألها:

ـ قولي لي: أين سيبيت الأمير؟ هنا؟

ـ سيبيت هنا، عندك ومعك.

ـ إني تارك هذا البيت منذ الليلة.

وما إن نطقت بهذه الكلمات التي لا رحمة فيها، حتى تناولت قبعتي وأخذت ألبس معطفي. فكانت آنا آندرييفنا ترقبني صامتة مكفهرة الوجه. وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً. ومع ذلك خرجت دون أن أترك لها كلمة أمل واحدة.

4

سأحاول أن أوجز. بعد أن اتخذت قراري على نحو قاطع لا رجعة عنه، اتجهت قُدُماً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا. وا أسفاه! لقد

Twitter: @ketab_n

كان يمكن اتقاء مصيبة كبيرة لو أنني وجدتها. ولكن سوء الحظ كان يلاحقني في ذلك اليوم. فلم أجد تاتيانا بافلوفنا. فذهبت إلى ماما، أولاً لأزور أمي المريضة، وثانياً لأنني قدَّرت أنني سوف أجد عندها تاتيانا بافلوفنا في أغلب الظن. ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد تركت أمي منذ برهة وجيزة. وكانت أمي راقدة في سريرها، وقد بقيت ليزا وحدها معها. رجتني ليزا ألا أدخل وألا أوقظ ماما من نومها قائلةً لي: «إنها لم تنم الليل كله، وظلت تتألم وتتعذب. فمن حسن الحظ أنها غفت الآن». قبَّلت ليزا، وقلت لها بكلمتين إنني اتخذت قراراً ضخماً حاسماً، وإنني مقدم على تنفيذه حالاً. فأصغت ليزا إلى كلامي بدون دهشة كما يصغي المرء إلى كلام عادي جداً، ذلك أنهم جميعاً قد ألفوا كثيراً أن يسمعوا مني كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها، كقولي «قرارات أخيرة»، ثم رأوني أرتخي فأتركها. ولكنني الآن... الآن... لن يكون شأني كما كان. ومن أجل أن أترك لتاتيانا مهلةً تعود أثناءها إلى بيتها، ذهبت إلى المطعم الذي يقع تحت مستوى الشارع، والذي تروج فيه أغنية «لوسيا» رواجاً كبيراً. وسأشرح السبب الذي جعلني في حاجة شديدة إلى تاتيانا بافلوفنا فجأة. لقد كنت أنوي أن أرسلها إلى كاترينا نيقولايفنا فوراً، فتأتي بها إلى بيتها، فأردُّ الوثيقة إلى كاترينا نيقولايفنا بحضور تلك المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة إلى الأبد. الخلاصة أنني كنت أريد أن أفعل الخير: أريد أولاً أن أبرىء نفسي تبرئة حاسمة، وأحرص على هذه التبرئة وأعدُّها حقاً لي. حتى إذا فرغت من ذلك أخذت أدافع عن آنا أندرييفنا وأقول فيها قولاً حسناً، ثم اصطحبت كاترينا نيقولايفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهداً) إلى بيتي، أي إلى حيث الأمير، فأصلحت

Twitter: @ketab_n

ما بين المرأتين المتخاصمتين هناك، وأردَّ الحياة إلى الأمير... و... و... في نطاق هذه الطائفة الصغيرة، أجعل الجميع سعداء، منذ هذا اليوم، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا فرسيلوف وماما. ولم يخالجني شك في نجاح مسعاي: فإن كاترينا نيقولايفنا ستكون ممتنةً من ردِّ الرسالة إليها رداً لا أطالب أن أكافأ عليه بشيء، فلن تستطيع أن ترفض تلبية رجائي. وا أسفاه! كنت لا أزال أتصور أن الوثيقة في حوزتي. آه ما كان أغبى وأحقر الوضع الذي كنت فيه بدون أن أشعر!...

كان الظلام قد هبط، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى. فقالت لي ماري بفظاظة «إنها لم ترجع». إني لأتذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكراً واضحاً. ولكنني في تلك اللحظة لم تراودني أية شبهة. حتى لقد خطرت لي هذه الفكرة الأخرى: ففيما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً مثبَّط العزيمة، تذكرت الأمير المسكين الذي مدَّ إليَّ ذراعيه منذ قليل، فلمت نفسي لوماً لاذعاً لأنني تركته من غضب؛ وأخذت أتصور، قلقاً أشد القلق، ما لعله حدث عندهم أثناء غيابي من أمور قد تكون سيئة غاية السوء، فأسرعت أعود إلى البيت. فعلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية:

إن آنا آندرييفنا التي أغلظت لها القول وأغضبتها، لم تفقد شجاعتها. يجب أن أذكر أنها كانت منذ الصباح قد أرسلت إلى لامبرت مرةً أولى فمرة ثانية، فلما لم يُعْثَرّ عليه في بيته، بعثت أخاها يبحث عنه. كانت المسكينة بعد أن رأت صمودي وعنادي تعقد أملها كله على لامبرت وتأثيره فيَّ. فكانت تنتظره نافذة الصبر. ولكن كان يدهشها أن تراه يهجرها فجأة ويختفي، وهو

Twitter: @ketab_n

الذي كان إلى هذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم حولها. مسكينة! كان لا يمكن أن يخطر لها على بال أن لامبرت الذي يستولي الآن على الوثيقة، قد اتخذ قرارات أخرى، وأن من الطبيعي أن يتوارى عن الأنظار، وأن يتوارى عن نظرها هي خاصة.

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان في نفس آنا آندرييفنا، فكان طبيعياً أن تصبح عاجزة عن تسلية الأمير الشيخ، وكان قلق الشيخ من جهته يشتد اشتداداً يدعو إلى الخوف والفزع. كان يلقي أسئلة غريبة وجلة، وكان ينظر إلى آنا آندرييفنا مشتبهاً مرتاباً، حتى لقد أجهش باكياً عدة مرات. ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة. فاستدعت آنا آندريفنا، بعد انصرافه، بيتر ايبوليتوفتش الذي كانت تعوِّل عليه كثيراً. ولكن بيتر ايبوليتوفتش لم يحدث في نفس الأمير إلا الاشمئزاز بدلاً من أن يسليه ويسرِّي عنه. وكان الأمير، على كل حال، ينظر إلى بيتر ايبوليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتياب ما ينفك يزداد. وقد شاءت المصادفة أن يستأنف بيتر ايبوليتوفتش ثرثرته عن تحضير الأرواح، وعن ألاعيب أخرى قال إنه شهدها بنفسه: منها أن مشعوذاً مرَّ بالمدينة يوماً، فكان يقطع رؤوساً على مرأى من الناس، فتسيل الدماء من الأعناق، ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه، ثم يعود الرجل فيتناول الرؤوس المقطوعة ويردُّها إلى مكانها فوق الرقاب فتلتصق على مرأى من جميع الناس أيضاً، وقد حدث هذا كله سنة 1859؛ فحين سمع الأمير هذا الكلام بلغ من شدة الهلع ومن شدة الاستياء في الوقت نفسه أن آنا آندرييفنا اضطرت أن تطرد القصّاص. ومن حسن الحظ أن وصل الغداء في ذلك الوقت، وهو غداء عُني به لامبرت

Twitter: @ketab_n

وآلفونسين، إذا أوصيا بإعداده طباخاً فرنسياً حاذقاً يسكن في بيت قريب، ولكنه لا يعمل الآن في مكان وإنما هو يبحث عن عمل في منزل أسرة أرستقراطية أو في أحد النوادي. فكان من شأن هذا الغداء مع الشمبانيا أن أفرح العجوز جداً، فأكل كثيراً وفرح كثيراً؛ وكان طبيعياً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغبة في النوم. وإذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً، فإن آنا آندرييفنا كانت قد أعدّت له سريراً. فكان وهو يرقد على السرير يقبّل يديها ويقول لها إنّها جنَّته، وإنّها أمله، وإنّها حوريته، وإنها «زهرته الذهبية»، إلى ما هنالك من تعابير شرقية. ونام أخيراً. وعندئذ إنما وصلت أنا.

أسرعت آنا آندرييفنا تدخل عليَّ، فضمَّت يديها أمامي ضارعةً مبتهلة، وقالت إنها تتوسل إليَّ (لا من أجلها بل من أجل الأمير) ألا أخرج، وأن أذهب إليه متى استيقظ من نومه. «إذا لم تكن أنت معه فقد هلك. لسوف يصاب بنوبة. أخشى ألا يقاوم إلى آخر اليوم...». وأضافت تقول إنها مضطرة أن تغيب عن البيت اضطراراً لا سبيل إلى دفعه، «وإن غيابها قد يطول ساعتين، فهي إذن تترك الأمير تحت حراستي». فقطعت لها على نفسي عهداً حاراً بأن أبقى إلى المساء، فإذا استيقظ بذلت كل ما أستطيع بذله من جهود لأسلِّيه وأسرِّي عنه.

فقالت تختم كلامها بقوة:

ـ وأنا سأقوم بواجبي.

وانصرفت. يجب أن أذكر مستبقاً الوقائع أنها إنما مضت تبحث عن لامبرت. إنه آخر أمل لها. وعدا ذلك زارت أخاها وأقرباءها آل فاناريوتوف. فتستطيعون الآن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها النفسية حين رجعت!

Twitter: @ketab_n

استيقظ الأمير بعد انصرافها بنحو ساعة. وسمعت صوت أنينه من وراء الجدار، فأسرعتُ إليه فوراً. فوجدته جالساً على سريره بثوب المنزل، ولكنه كان قد بلغ من شدة الفزع من الوحدة وضوء المصباح الوحيد الخافت وهذه الغرفة الغريبة أنه حين دخلت عليه ارتعش وانتفض وصرخ. فهرعت إليه، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا، أخذ يقبِّلني ودموع الفرح تنهمر من عينيه.

ـ قيل لي أنك تركت هذا البيت، قيل لي أنك خفت ففررت!

ـ من قال لك هذا؟

ـ من؟ دعنا! لعلني أنا الذي تخيلته. ولعل أحداً قاله لي أيضاً. لقد حلمت منذ قليل حلماً: رأيت شيخاً ملتحياً يدخل عليَّ فجأة وفي يده أيقونة محطومة نصفين، ويقول لي: «هكذا ستتحطم حياتك!».

ـ لا بد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة!

ـ «أليس كذلك؟»، نعم، نعم، علمت هذا. أخبرتني في هذا الصباح داريا أونيسيموفنا. لقد نقلت إلى هنا حقيبتي وكلبي.

ـ يا له من حلم غريب!

ـ وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهددني بأصبعه. ولكن أين آنا آندرييفنا؟

ـ ستأتي حالاً.

هتف يسأله بألم:

ـ من أين؟ إلى أين ذهبت؟

ـ ستكون هنا حالاً. لقد طلبت مني أن أبقى معك لحظة.

ـ «نعم»، ستجيء. إذن جُنَّ صاحبنا آندريه بتروفتش، «وبهذه المباغتة، وبهذه السرعة!». لطالما تنبأت له بأنه سينتهي هذه النهاية. اسمع يا صديقي...

Twitter: @ketab_n

قال ذلك وأمسك كُمّي وشدني إليه، وهمس:

ـ جاءني المؤجر منذ قليل بصور فوتوغرافية، صور فوتوغرافية قذرة، صور نساء... نساء عاريات... بأوضاع شرقية مختلفة... وأخذ يريني الصور في الضوء. فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً، على مضض وكره. ولكن تلك هي الطريقة التي استعملوها مع ذلك المسكين ليجيئوه بنساء سيئات، فيسكروه بسهولة أكبر...

ـ تقصد فون سون أيضاً! دعنا من هذا يا أمير! إن المؤجر رجل غبي لا أكثر.

ـ غبي لا أكثر! «هذا رأيي». يا صديقي، أنقذني من هذا المكان إن استطعت!

قال ذلك وهو يضم يديه أمامي ضارعاً على حين فجأة. قلت:

ـ سأفعل كل ما أستطيع يا أمير! أنا لك... عزيزي الأمير، إنتظر، قد أدبر جميع الأمور.

ـ «أليس كذلك؟»، سوف نهرب، تاركين الحقيبة هنا، حتى يتخيلوا أننا سنعود.

ـ إلى أين نهرب؟ وآنا آندرييفنا؟

ـ لا، لا، سنهرب مع آنا آندرييفنا... «آه... عزيزي»... أحس بغليان في رأسي. إسمع: إن هناك، في الكيس الذي على اليمين، صورة لكاتيا. لقد دسستُ الصورة في الكيس خفيةً منذ قليل، حتى لا تراها آنا آندرييفنا، وحتى لا تراها هذه المرأة داريا أونيسيموفنا خاصة!... أخرج الصورة بسرعة، ناشدتك الله، وأحرص على ألا يفاجئنا أحد... ألا يمكن شد المزلاج فلا ينفتح الباب؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صورة فوتوغرافية لكاترينا نيقولايفنا

Twitter: @ketab_n

فعلاً، صورةً ذات إطار بيضوي، أخذها الشيخ مني، وحملها إلى الضوء، فأخذت تسيل دموع غزيرة على خديه الهزيلتين الشاحبتين، وهتف يقول:

ـ «ملاك، ملاك من السماء!». أذنبت في حقها طول حياتي. والآن أيضاً! «ابنتي العزيزة» أنا لا أصدِّق شيئاً، لا أصدق شيئاً! قل لي يا صديقي: هل صحيح أنه يُراد إيداعي في ملجأ للمجانين؟ «أقول أشياء حلوة، فيضحك الناس كافة»... ثم يؤخذ هذا الرجل فجأة إلى ملجأ للمجانين.

صحت أقول:

ـ مستحيل. هذا الكلام خطأ. أنا أعرف عواطفها.

ـ أنت أيضاً تعرف عواطفها؟ رائع!... أحييتني يا صديقي! ما أكثر الكلام الذي قالوه لي عنك! استدع كاتيا إلى هنا، ولتتعانقا كلتاهما أمامي، فآخذهما إلى البيت، ونطرد المؤجر.

قال ذلك ونهض وضمَّ يديه ضارعاً، ثم ركع أمامي على الأرض فجأة، وأضاف يهمس بجزع مسعور، مرتعشاً كورقة في مهب الريح:

ـ «عزيزي»، أين سيحشرونني الآن؟

فهتفت أقول وأنا أُنهضه وأُجلسه على السرير:

ـ ألا تصدقني أنا أيضاً؟ هل تظن أنني أنا أيضاً مشارك في المؤامرة؟ ألا إنني لن أسمح لأحد هنا أن يلمسك بإصبعه.

فتمتم يقول وهو يشدُّ على كوعيَّ بيديه شداً قوياً وما يزال يرتعش:

ـ «نعم»، لا تسمح لأحد! لا تسلِّمني إلى أحد! وأنت أيضاً لا تكذب عليَّ... لأنه... هل يمكن أن يقتادوني من هنا؟ اسمع: هذا المؤجر هيبوليت... أو ما اسمه؟ هل هو... طبيب؟

Twitter: @ketab_n

ـ دكتور؟

ـ وهنا. . . أليس هنا ملجأ مجانين، هنا، في هذه الغرفة؟

ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة ودخلت آنا آندرييفنا. لا شك أنها كانت تتصنّت وراء الباب، ثم نفد صبرها ففتحت فجأة، فإذا بالأمير الذي كان يرتجف من أيسر صرير، إذا به يصرخ فجأة ويغطس رأسه في وسادته، ثم إذا هو يعاني ما يشبه أن يكون نوبة عصبية انتهت ببكاء يصحبه نشيج. قلت لها وأنا أشير إلى الشيخ:

ـ انظري إلى ثمرة عملك الجميل!

فقالت رافعةً صوتها:

ـ بل هذه ثمرة عملك أنت. إني أتوجه إليك آخر مرة يا آركادي ماكاروفتش: هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التي دُبِّرت لهذا الشيخ الذي لا يملك ما يدافع به عن نفسه، وأن تضحي «بأحلام حب جنوني صبياني» في سبيل أن تنقذ «أختك أنت»؟

ـ سأنقذكم جميعاً، ولكن على الوجه الذي ذكرته لك من قبل! أخرج الآن بسرعة، فقد أستطيع أن أجيء بكاترينا نيقولايفنا إلى هنا بعد ساعة، فأصلح ما بينكم جميعاً، وتسعدون جميعاً!

كذلك هتفت كالملهم.

قال الأمير وقد ثاب إلى نفسه أخيراً:

ـ جيء بها، جيء بها إلى هنا. خذني إلى بيتها! أريد كاتيا، أريد أن أرى كاتيا وأن أباركها.

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيه، وينهض عن سريره. فقلت لآنا آندرييفنا وأنا أشير إليه:

ـ هل ترين؟ هل تسمعين ما يقول؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة مهما تكن!

Twitter: @ketab_n

ـ أرى. ولكن الوثيقة لا تزال تستطيع أن تسوِّغ سلوكي في نظر المجتمع، أما الآن فأنا مجللة بالخزي والعار! على أن ضميري نقي. لقد تركني الجميع، حتى أخي الذي خشي الإخفاق... لكنني سأقوم بواجبي، وسأبقى بقرب هذا المسكين خادمةً وممرضة.

ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن إضاعته. فخرجت من الغرفة مسرعاً، وصرخت من العتبة قائلاً:

ـ سأرجع بعد ساعة، ولن أرجع وحيداً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

1

أخيراً وجدت تاتيانا بافلوفنا! فاندفعت أروي كل شيء دفعة واحدة، فحكيت لها قصة الوثيقة من أولها إلى آخرها، وحدثتها عما يجري عندنا تفصيلاً. وقد استغرق هذا العرض زهاء عشر دقائق رغم أنها فهمت من تلقاء نفسها فهماً كاملاً، وأنها كانت قادرة على أن تدرك القضية بكلمتين. كنت وحدي أتكلم، فقلت الحقيقة كلها ولم أخجل. وكانت هي صامتة ساكنة منتصبة الجذع كوتد، وبقيت جالسة على كرسيها مزمومة الشفتين لا تحول عني عينيها وتصغي إلى كلامي بكل ما تملك من قوة الإصغاء. ولكن ما إن أنهيت حديثي حتى وثبت من مكانها فجأة، وبلغت من سرعة الوثوب أنني وثبت أنا أيضاً، وانطلقت تقول:

- آ... يا وغد!... إذن كانت تلك الرسالة مخيطة في جيبك... خاطتها تلك البنية الحمقاء ماريا إيفانوفنا! آه يا نذل، يا سافل! إذن جئت إلى هنا لتسيطر على القلوب، ولتغزو المجتمع الراقي، ولتلحق الأذى بأي إنسان انتقاماً لكونك ابن زنا.

صحت أقول لها:

- تاتيانا بافلوفنا، إنني أمنعك من شتمي، ولعلك أنت،

Twitter: @ketab_n

بشتائمك، منذ البداية، كنت سبب استعار نفسي هنا. نعم، أنا ابن زنا، ولعلني أردت فعلاً أن أنتقم لنفسي من ذلك بإيذاء أي إنسان، ما دام الشيطان نفسه عاجزاً عن معرفة المذنب في هذا! ولكن تذكري أنني نبذت تحالفي مع الأوغاد، وأنني انتصرت على أهوائي الجامحة! سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هي كلمة، وستكونين على ذلك شاهدة.

أعطنيها، أعطني الرسالة، أعطنيها حالاً، ضعها هنا على المائدة! من يدري؟ لعلك تكذب!

ـ هي مخيطة في جيبي. ماريا إيفانوفنا خاطتها بيدها. هي ذي، هنا، أمسكيها، جسِّيها، لست أكذب!

فأجابت تاتيانا بافلوفنا تقول بحماسة:

ـ أعطنيها إذن! اسحبها!

ـ مستحيل. سأضعها أمامها بحضورك، وسأنصرف بدون أن أنتظر منها كلمة واحدة. ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينيها أنني أنا، أنا نفسي، الذي أردُّها إليها، بإرادتي، من غير إكراه، وبدون جزاء.

ـ افتخاراً بنفسك! إنك لا تزال مولَّهاً بالحب أيها الغر!

ـ صفيني بما تشائين من نعوت سيئة. إنني أستحق ذلك كله. ولن أزعل. لتحسبني صبياً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها. لتحسبني ما تشاء. ولكن فلتعترف بأنني سيطرت على نفسي، وفضَّلت سعادتها «هي» على كل شيء في هذا العالم! سيان يا تاتيانا بافلوفنا، سيان! إنني أهيب بنفسي قائلاً: عليك بالشجاعة وعليك بالأمل! لعل هذه خطوتي الأولى في الحياة، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة، نهاية نبيلة!

Twitter: @ketab_n

وتابعت أقول كالملهم وقد سطعت عيناي:

ـ ثم... هبي أنني أحبها. لست أشعر من هذا بخجل: إن ماما ملاك من السماء، و«هي» ملكة في الأرض! وسيعود فرسيلوف إلى ماما... فلست في حاجة إلى الخجل. لقد سمعت ما قالاه هناك ـ «هي» وفرسيلوف ـ فقد كنت وراء الستارة. آه... نعم... إننا نحن الثلاثة «مصابون بجنون واحد». هل تعلمين من قال هذه الجملة؟ إنه هو، آندريه بتروفتش! وهل تعلمين أننا قد نكون هنا أكثر من ثلاثة، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسه؟ نعم، أراهن أنك الرابعة! هل تريدين أن أقول لك ما أعتقد به: أراهن أنك أنت أيضاً قد تولهت طوال حياتك بحب آندريه بتروفتش، وأنك ما تزالين مولَّهةً بحبه إلى اليوم...

أعود فأقول إنني كنت أتكلم كالملهم تدفقاً، وكنت سعيداً، ولكنني لم أستطع أن أتمَّ كلامي، فها هي ذي تاتيانا بافلوفنا تمسك شعري بحركة سريعة سرعة خارقة، فتحني رأسي إلى الأرض مرتين، بكل ما تملك من قوة... ثم تتركني حيث أنا، وتنسحب إلى ركن، فتضع وجهها على الجدار مغطى بمنديلها، وتقول لي باكية:

ـ سافل! لا تقل لي مثل هذه الأشياء بعد الآن.

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه، فشدهت أشد الشده. وبقيت متسمراً في مكاني أنظر إليها ولا أدري ماذا يجب أن أعمل.

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكيةً في آن واحد:

ـ غبي! تعال! تعال قبِّل صديقتك العجوز البلهاء! ولا تكرر هذه الأشياء بعد اليوم أبداً. إني أحبك أنت، ولقد أحببتك طول حياتي... يا أبله!

Twitter: @ketab_n

قبّلتها. وأحب أن أقول مستطرداً إننا ـ أنا وتاتيانا بافلوفنا ـ قد أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين.

وهتفت تقول فجأة وهي تلطم جبينها:

ـ ولكن ما بقائي هنا؟ قلت لي إن الأمير العجوز في بيتك؟ هذا صحيح؟

ـ أؤكد لك.

فجمجمت تقول وهي تركض في الغرفة كفأرة:

ـ آه... رباه! لشد ما يوجع قلبي! هكذا يعاملونه إذن منذ الصباح! إن البلهاء لا يعاقبون إذن قط! هل ارتاحت الآن آنا آندرييفنا؟ يا لها من راهبة! والأخرى، الـ«ميليتريا»، لا تعرف شيئاً!

ـ ما ميليتريا؟

ـ الملكة في الأرض، المثل الأعلى! ما العمل الآن؟

هتفت أقول وقد ثبت إلى رشدي:

ـ تاتيانا بافلوفنا. لقد، استرسلنا في سخافات، ونسينا الشيء الأساسي: لقد جئت باحثاً عن كاترينا نيقولايفنا، وهم ينتظرونني هناك!

وشرحت لها أنني سأسلِّم الوثيقة إلى كاترينا نيقولايفنا مشترطاً عليها أن تعدني بمصالحة آنا آندرييفنا فوراً، بل بالموافقة لها على زواجها...

فقاطعتني تاتيانا بافلوفنا قائلة:

ـ هذا حسن جداً. أنا أيضاً كررت عليها هذا مائة مرة. ذلك أنه سيموت قبل أن يتم الزواج؛ أنه لن يتزوجها، وإذا أورثها في وصيته بعض المال، فلا شك أن هذا كتب في الوصية منذ الآن...

ـ هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترينا نيقولايفنا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، وإنما هي كانت تخشى دائماً أن تكون الوثيقة عندها، عند آنا، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً. فكنا نراقبها هي. كانت البنت لا تريد أن تصدم أباها الشيخ. أما فيما يتعلق بالألماني بيورنج، فإن المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً.

ـ وبعد هذا، هل يمكن أن تتزوج بيورنج؟

ـ ما حيلتنا مع غبية؟ الغبي يبقى غبياً طول حياته. على كل حال، سيهيىء لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة. «لا بد أن أتزوج أحداً، فأي فرق بينه وبين غيره؟». هذا ما تقوله. وسوف نرى ما يحدث. لسوف تعض على أصابعها ندماً، ولكن بعد فوات الأوان.

ـ فلماذا تسمحين لها بهذا؟ إنك تحبينها، حتى لقد أعلنت لها أنك مغرمة بها.

ـ مغرمة، نعم... إنني أحبها أكثر مما أحبكم مجتمعين... ولكن هذا لا ينفي أنها بلهاء جداً!

ـ هلمي إليها حالاً. سنتخذ قراراً ونقودها إلى أبيها.

ـ ولكن هذا مستحيل، مستحيل يا غبي! هذا بعينه ما هو مستحيل! آه... ما العمل؟ إنني أشعر بدوار.

وطفقت تتحرك في الغرفة مضطربة، ولكنها تناولت معطفها. قالت:

ـ آه... لو أنك أتيت قبل أربع ساعات... الساعة الآن هي السابعة وتزيد قليلاً. لقد ذهبت إلى آل بلتشيف تتغدى عندهم، ثم تصحبهم إلى الأوبرا.

ـ فماذا لو ركضنا إلى الأوبرا؟... لا... هذا مستحيل. ولكن ما عسى يحدث للعجوز؟ إنه قد يموت في هذه الليلة.

ـ اسمع. لا تذهب إلى هناك، بل إذهب إلى ماما، وغداً، في

Twitter: @ketab_n

ساعة مبكرة من الصباح...

ـ لا، مستحيل، لن أترك الأمير بحال من الأحوال مهما يحدث!

ـ إنك على حق. لا تتركه. ولكنني أنا... سأجري إليها رغم كل شيء، فأترك لها كلمة... سأكتب برموزنا الخاصة (وستفهم هي) أن الوثيقة موجودة، وأن عليها أن تجيء إليَّ حتماً في الساعة العاشرة تماماً من صباح الغد. اطمئن. ستجيء. ستسمع لي. وعندئذ سنسوِّي كل شيء. اذهب أنت الآن إلى هناك، ودبِّر أمرك مع العجوز... أرقده... فقد يقاوم الموت إلى الغد. ولا ترعب آنا آندرييفنا. ذلك أنني أحبها هي أيضاً. أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم: لقد أوذيت وأهينت، أوذيت وأهينت منذ طفولتها. آه... ما أكثر ما رأيت منكم جميعاً! ولكن لا تنس أن تقول لها على لساني إني سأتولى الأمر بنفسي، فأمسكه بيدي سعيدة بذلك، ولتطمئن بالاً فلن تصاب كبرياؤها بسوء. ذلك أننا تشاجرنا في الأيام الأخيرة، وتشاتمنا! فاركض إليها... بل انتظر... أرني جيبك... هل ما قلته صحيح؟ صحيح حقاً؟ هه؟ هل هو صحيح حقاً؟ أعطني الرسالة إذن، أبقيها معي هذه الليلة فحسب. هل في هذا ما يضرك؟ اتركها عندي. لن آكلها. من الجائز أن تضيِّعها في هذه الليلة... أو أن تغيِّر رأيك!

ـ مستحيل! أمسكي، جسِّي، انظري! لكنني لن أتركها لك بحال من الأحوال.

جسَّت تاتيانا بافلوفنا جيبي بأصابعها، فقالت:

ـ ثمة ورقة حقاً. طيب. اذهب. هيَّا. وسأثب أنا إلى المسرح. فكرتك تلك حسنة. ولكن اركض، ما بالك لا تركض.

Twitter: @ketab_n

ـ تاتيانا بافلوفنا، لحظة! كيف حال أمي؟

ـ حسنة.

ـ وآندريه بتروفتش؟

فحركت يدها بإشارة تهرُّب ثم قالت:

ـ سيسترد عقله.

فانصرفت مسرعاً وقد تشجعت وامتلأت نفسي رجاءً وأملاً، رغم أن النتيجة كانت غير ما توقعت.

ولكن القدر كان قد شاء أن تجري الأمور مجرى آخر، وكنت أجهل ما هيأه لي. حقاً إن على هذه الأرض قدراً.

2

سمعت في بيتنا جلبةً وأنا على السلم. كان باب البيت مفتوحاً. وفي الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية. وكان بيتر ايبوليتوفتش وامرأته واقفين كذلك في الدهليز ينظران مذعورين. إن باب غرفة الأمير مفتوح: وفي داخل الغرفة يجلجل صوت راعد سرعان ما عرفته: إنه صوت بيورنج. وما إن خطوت خطوتين حتى رأيت بيورنج يجر الأمير إلى الدهليز، هو ورفيقه البارون «ر...» الذي سبق أن جاء يفاوض فرسيلوف. كان الأمير غارقاً بدموعه، يرتجف ويشهق ويعانق بيورنج ويقبِّله. وكان بيورنج يزعق صارخاً في وجه آنا آندرييفنا التي خرجت هي أيضاً إلى الدهليز تتبع الأمير. وكان بيورنج يهدد آنا آندرييفنا ويتوعدها، وأظن أنه كان يضرب الأرض بقدمه. الخلاصة أنه كان يتصرف تصرف جندي ألماني فظ، رغم كل «المجتمع الراقي الذي ينتمي إليه». وقد عُرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندرييفنا قد ارتكبت جريمة من جرائم الحق

Twitter: @ketab_n

العام، وأنها يجب أن تحاسب الآن على هذه الجريمة أمام القضاء. كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها، كما يحدث هذا لكثير من الناس، لذلك كان يرى أن من حقه أن يتصرف دون اكتراث بأي شيء، ودون مراعاة لأي اعتبار. لا سيما وأنه لم يتح له الوقت الكافي لفهم الأمور: لقد وصلته رسالة غير مذيلة بتوقيع صاحبها، تبلغه كل شيء، كما ظهر ذلك من بعد (وكما سأذكر بعد قليل)، فهرع وهو على هذه الحالة من الغضب المسعور التي يمكن أن ينحدر إليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألماني، فإذا هم لا يفوقون في سلوكهم إسكافياً من الإسكافيين. وقد استقبلت آنا آندرييفنا هذه الهجمة بوقار كبير، لكنني لم أشهد هذا. وإنما رأيت بيورنج، بعد أن جرَّ العجوز إلى الدهليز، يسلِّمه فجأة إلى البارون «ر. . .»، ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندرييفنا فيرشقها بالجملة التالية (ربما جواباً على ملاحظة منها):

ـ أنت محتالة متآمرة. إن ما تريدينه هو ماله! فاعلمي أنك منذ هذه اللحظة قد تلطخ شرفك في المجتمع، وأنك ستحاسَبين أمام القضاء!. . .

ـ أنت الذي تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفعتموه إلى الجنون دفعاً. . . ثم تجيء تنتقم مني لأنني امرأة ليس لها من يدافع عنها. . .

فقال بيورنج ساخراً غاضباً، بلهجة سيئة:

ـ آ. . . نعم. . . أنت خطيبته، خطيبته!. . .

قال الأمير دامع العينين:

ـ بارون. . . بارون. . .

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندرييفنا:

Twitter: @ketab_n

ـ «أحبك يا ابنتي العزيزة»!

فصرخ بيورنج قائلاً:

ـ دعك يا أمير، إن هناك مؤامرة عليك، وربما على حياتك!

ـ «نعم، نعم، أفهم، فهمت منذ البداية»...

قالت آنا آندرييفنا رافعةً صوتها:

ـ أمير، إنك تهينني، وتسمح لغيرك بأن يهينني!

فصرخ بيورنج قائلاً لها فجأة:

ـ اخرجي من هنا!

فلم أستطع صبراً. فزأرت أقول له:

ـ وغد.

وأضفت أخاطبها:

ـ آنا آندرييفنا، أنا أدافع عنك.

ليس في نيتي ولا في وسعي أن أسجل جميع التفاصيل. لقد كان مشهداً رهيباً دنيئاً. فقدت صوابي فجأة. أظن أنني هجمت عليه فضربته، أو صدمته صدمة قوية على الأقل. فضربني على رأسي بكل ما أوتي من قوة، فإذا أنا أسقط على الأرض. فلما ثبت إلى نفسي، اندفعت أطاردهم على السلّم. أذكر أن الدم كان يسيل من أنفي. وكانت تنتظرهم عند الباب عربة ففيما كانوا يُركبون الأمير، وثبت إلى العربة، وهجمت مرة أخرى على بيورنج رغم أن الخادم كان يبعدني وينحيني. لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة. ولكن بيورنج أمسك ياقتي وأصدر إلى الشرطي أمراً صارماً بأن يقتادني إلى المخفر. فصرخت أقول إن من الواجب أن يجيء هو أيضاً إلى المخفر لتسجيل محضر، وأنه ليس من الحق أن أُعتقل وأنا في بيتي تقريباً. ولكن لما كان المشهد قد حدث في الشارع لا

Twitter: @ketab_n

في البيت، ولما كنت أصرخ وأشتم وأتخبط كسكران، ولما كان بيورنج مرتدياً بزته العسكرية، فقد قبض عليَّ الشرطي، فإذا أنا يجن جنوني فعلاً، فأقاوم الشرطي بكل ما أملك من قوة، حتى لقد ضربته فيما أظن. وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك، فاقتاداني. ولكنني لا أكاد أتذكر كيف أُدخلت إلى غرفة يملؤها الدخان، وتفسد جوَّها رائحة التبغ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضهم واقف، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب. وهناك أيضاً ظللت أزعق مطالباً بكتابة محضر، فبذلك تعقدت القضية إذ دخلها عنصر مقاومة السلطة والتمرد عليها. وكان هندامي قد ساء كثيراً. ونهرني أحدهم نهراً عنيفاً. وأخذ شرطي يتهمني بمشاجرة استعملت فيها الضرب، وطفق يحكي القصة فقال: كان كولونيل... الخ...

صرخ أحدهم يسألني:

ـ ما اسمك؟

فزعقت أقول:

ـ دولجوروكي.

ـ الأمير دولجوروكي؟

فأخرجني هذا السؤال عن طوري وأفقدني رشدي، فأجبت بشتائم فاحشة... ثم... ثم... أتذكَّر أنني جُررت إلى حجرة مظلمة «لأفيق من سكري». لا، لست أحتج. لقد قرأ جميع الناس في الصحف في الآونة الأخيرة شكوى سيد قضى ليلة كاملة في المخفر، وكبِّل بالسلاسل في غرفة «الصحو من السكر»، وكان ذلك الرجل بريئاً براءة تامة، أما أنا فقد كنت مذنباً. تهالكت على مرقد إلى جانب شخصين كانا نائمين كجثتين هامدتين من فرط السكر.

Twitter: @ketab_n

كنت مصاباً بصداع، وكان صدغاي ينبضان، وكان قلبي يدق دقاً قوياً. وأغلب الظن أنني قد أغمي عليَّ، وأخذت أهذي. لكنني أتذكر أنني استيقظت في وسط الليل، فجلست على المرقد، فتذكرت فجأة كل شيء، وأدركت كل شيء، فجعلت كوعيَّ على ركبتيَّ، ووضعت رأسي بين يدي، وغرقت في تفكير عميق.

لا، لن أصف هنا عواطفي، فليس في الوقت متسع لذلك. ولكنني أريد أن أسجل ما يلي: لعلني لم أعش في حياتي كلها لحظات أحفل بالفرح من تلك الدقائق التي قضيتها مفكراً، في الليل العميق، على المرقد الحجري، بمخفر الشرطة. قد يبدو هذا للقارىء أمراً غريباً شاذاً، وقد يحسبه تبجحاً وتفاخراً، وقد يعدّه رغبة في الغرابة والتفرّد. ولكن ما أقوله هو الحقيقة. تلك لحظة من اللحظات التي قد يمر بها كل إنسان، ولكن مرةً واحدة في حياته. ففي تلك اللحظة يقرر مصيره، ويحدد آراءه، ويقول لنفسه إلى الأبد: «انظر أين هي الحقيقة، وانظر أين يجب أن تنشدها». نعم، لقد أضاءت تلك اللحظة نفسي. كنت أعلم حق العلم، بعد أن أهانني ذلك الرجل الوقح بيورنج، وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التي تنتمي إلى المجتمع الراقي ستهينني أيضاً في الغد، كنت أعلم حق العلم أنني أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً، ولكنني قررت ألا أنتقم. وقررت، رغم الإغراء، ألا أكشف عن الوثيقة، وألا أطلع عليها الناس (كما كانت تدور هذه الفكرة في رأسي)، وأخذت أكرر على نفسي أنني سأضع الوثيقة أمامها منذ الغد، وأنني قد لا أحظى منها بكلمة شكر بل بابتسامة سخر، غير أنني، رغم كل شيء، لن أقول كلمة واحدة، وسأتركها إلى الأبد... ولكن لا داعي إلى الإلحاح. أما ما سيحدث غداً حين أساق إلى السلطات، وما

Twitter: @ketab_n

سيُصنع بي، فذلك أمر نسيت تقريباً أن أفكر فيه. ورسمت على نفسي إشارة الصليب بارتياح ومحبة، واضطجعت على المرقد، ونمت نوماً مضيئاً كنوم الأطفال.

ولم أستيقظ في الغد إلا ضحى. أنا الآن في الحجرة وحيداً. جلست. وأخذت أنتظر صامتاً. انتظرت مدة طويلة. قرابة ساعة. وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة حين نوديت. في وسعي أن أذكر تفاصيل كثيرة. ولكن لا داعي إلى ذلك، ما دامت هذه القصة كلها قد انتهت الآن. وحسبي أن أشير إلى الشيء الأساسي. ما كان أشد دهشتي حين رأيتهم يعاملونني بدماثة غير معهودة: ألقوا عليَّ بضعة أسئلة، أجبت عنها بما لا أتذكره الآن، ثم أطلقوا سراحي فوراً. خرجت صامتاً. وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت في أعينهم دهشتهم من رجل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره في مثل الظرف الذي هو فيه. لقد رأيت هذه الدهشة، ولولا أنني رأيتها لما سجلتها. وكانت تاتيانا بافلوفنا تنتظرني أمام الباب. وسأشرح الآن كيف أمكن إخلاء سبيلي بمثل هذه السهولة.

في ساعة مبكرة من الصباح، في نحو الساعة الثامنة، هرعت تاتيانا بافلوفنا إلى بيتي، أعني إلى بيت بيتر ايبوليتوفتش، آملةً أن تجد الأمير هناك، فإذا هي تعلم بكل ما وقع في الليلة البارحة من أهوال، وإذا هي تعلم خاصةً بأنني اعتقلت. فما هي إلا طرفة عين حتى كانت عند كاترينا نيقولايفنا (التي التقت بأبيها منذ الليلة البارحة عند عودتها من المسرح، إذ جيء به إلى بيتها)، فأيقظتها من نومها، وأخافتها، وطالبت بالإفراج عني فوراً. فزوَّدتها كاترينا نيقولايفنا ببطاقة طارت بها فوراً إلى بيورنج تطلب منه في الحال رسالة موجهةً إلى «من يهمه الأمر»، مشتملةً على «رجاء الإفراج

Twitter: @ketab_n

عني بغير إبطاء لأنني اعتقلتُ خطأ». وبهذه الرسالة وصلت إلى مخفر الشرطة، فتمت تلبية الرجاء.

3

الآن أعود إلى النقطة الأساسية.

أمسكت تاتيانا بافلوفنا ذراعي، وأركبتني عربة، وقادتني إلى بيتها. وهناك أمرت بسماور الشاي حالاً، ورتبت هندامي، ونظفتني في المطبخ. وفي ذلك المطبخ نفسه قالت لي بصوت عال إن كاترينا نيقولايفنا ستصل إليها بنفسها في الساعة الحادية عشرة والنصف لتراني (اتفقتا على ذلك منذ قليل). وقد سمعت ماري هذه الكلمات. فجاءتنا بالسماور بعد دقيقة، ولكن حين نادتها تاتيانا بافلوفنا بعد دقيقتين، لم تجب، إذ كانت قد خرجت من البيت.

أظن أن الساعة كانت في نحو العاشرة إلا ربعاً. وقد غضبت تاتيانا بافلوفنا من غياب ماري بدون إذنٍ منها. ولكنها قالت لنفسها إنها ذهبت إلى المتجر، ثم لم تخطر لها على بال. كان لدينا أشياء أخرى نفكر فيها. كنا نتكلم بدون توقف، لأن هناك ما نتكلم فيه، حتى إنني لم أنتبه إلى اختفاء ماري. ولكني أرجو القارىء أن يُبقي هذا الأمر ماثلاً في ذهنه.

كنت كالمخبول طبعاً. وكنت أتحدث عن عواطفي. وكنا ننتظر كاترينا نيقولايفنا خاصة. وكنت أرتعش حين أتصور أنني سألقاها بعد ساعة، وأنني سألقاها في مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتي. وأخيراً، بعد أن شربت فنجانين من الشاي نهضت تاتيانا بافلوفنا فجأة، وتناولت المقص من على الطاولة وقالت لي:

Twitter: @ketab_n

ـ هات جيبك. يجب سحب الرسالة الآن. فليس يمكننا أن نقص الجيب بحضورها!

فهتفت أقول وأنا أحل الأزرار:

ـ نعم.

ـ ما هذه الخياطة المشربكة؟ من خاط هذه الخياطة؟

ـ أنا يا تاتيانا بافلوفنا، أنا نفسي!

ـ واضح أنك الذي خطت!

وسحبت الرسالة. كان الظرف هو الظرف نفسه. ولكن لم يكن في الظرف إلا ورقة بيضاء.

هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً وهي تقلب الورقة على جميع الوجوه:

ـ ما معنى هذا؟ ما الذي معك؟

كنت واقفاً مشلول اللسان، أصفر الوجه... وتهالكت على الكرسي خائر القوى فجأةً وكاد يُغمى عليَّ.

أعولت تاتيانا بافلوفنا تقول:

ـ وما معنى هذا أيضاً؟ أين الرسالة؟

فصرخت أقول بغتةً وأنا أنتفض:

ـ لامبرت!

لقد حزرتُ أخيراً، ولطمت جبيني بيدي. وأخذت أشرح لها بسرعة كلَّ شيء، وأنا متقطع الأنفاس، فحدثتها عن الليلة التي بت فيها عند لامبرت، وعن المؤامرة التي حكناها حينذاك. وكنت على كل حال قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس.

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدميَّ وأشد شعر رأسي بيدي:

ـ سرقوها مني! سرقوها مني!

فقالت تاتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:

Twitter: @ketab_n

ـ يا للمصيبة! كم الساعة الآن؟

ـ الحادية عشرة تقريباً.

ـ وماري التي ليست هنا! يا ماري! ماري!

فأجابت ماري فجأة من المطبخ:

ـ ماذا تريد مولاتي؟

ـ أنت هنا؟ ولكن ما العمل الآن؟ سأثب إلى عندها... وأنت يا من لا تصلح لشيء!

ـ أنا أذهب إلى لامبرت. لأذبحنَّه إذا لزم الأمر.

ولكن ماري صاحت تقول من المطبخ:

ـ مولاتي، إن «واحدة» تسأل عنك.

وما كادت ماري تنهي جملتها حتى دهمتنا تلك «الواحدة» من تلقاء نفسها صارخةً معولة. إنها آلفونسين. لن أصف المشهد بجميع تفاصيله. كانت تلك خدعة وأكذوبة، ولكن يجب أن نعترف لآلفونسين بأنها أجادت التمثيل إجادة هائلة. ردت آلفونسين، وهي تذرف دموع الندم وتحرك يديها بإشارات محمومة، ردت (بالفرنسية طبعاً) أنها هي التي سرقت الرسالة، وأن الرسالة الآن عند لامبرت، وأن لامبرت، بالتواطؤ مع ذلك «الرجل الأسود»، «قاطع الطرق»، يريد استدراج «السيدة الجنرالة» إلى بيته، ليقتلها فوراً، بعد ساعة... وأنها سمعت هذا كله من فميهما، فاعتراها ذعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس، فهرعت إلى هنا، إلينا، لنذهب معها، لننقذ كاترينا نيقولايفنا، لنخلّصها من القتل... «ذلك الرجل الأسود»...

الخلاصة أن ذلك كله بدا لنا جائزاً جداً، حتى إن السخافة والحماقة في بعض شروح آلفونسين كانت تقوِّي جوازه.

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها:

Twitter: @ketab_n

ـ أي «رجل أسود»؟

ـ «نسيت اسمه... رجل فظيع... نعم... اسمه فرسيلوف...

فهتفت:

ـ فرسيلوف؟ مستحيل!

فصرخت تاتيانا بافلوفنا:

ـ بل يمكن أن يفعلها! ولكن قولي لي يا «سيدة»، بدون وثب ونط، وبدون تحريك الذراعين والرجلين، ماذا يريدان أن يفعلا؟ إشرحي شرحاً معقولاً: إنني لا أستطيع أن أصدِّق أنهما يريدان أن يطلقا عليها الرصاص...

فأخذت «السيدة» تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً كما سبق أن نبَّهت)، قالت إن فرسيلوف سيبقى وراء الباب، وإن لامبرت سيريها هذه الرسالة، متى دخلت، وعندئذ يثب فرسيلوف ف... «فينتقمان منها». وإنها، هي آلفونسين، تخشى أن تحل بها كارثة، لأنها كانت شريكة متواطئة، ولأن تلك «السيدة الجنرالة» ستأتي حتماً، «على الفور، على الفور»، لأنهما أرسلا إليها نسخة من الرسالة، فسوف ترى حالاً أن الأصل في حوزتهما فعلاً، فلا بد أن تأتي. ولامبرت وحده هو الذي كتب لها الرسالة، فهي لا تعرف شيئاً عن فرسيلوف. وقد عرَّف لامبرت نفسه بأنه رجل أوفدته من موسكو، سيدة بموسكو (لاحظوا: ماريا إيفانوفنا!).

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول:

ـ آه... أشعر بألم في قلبي... أحسّ بتدهور في صحتي!...

وصرخت آلفونسين:

ـ «أنقذوها! أنقذوها!».

Twitter: @ketab_n

لا شك أن هذا النبأ المجنون يشتمل على كثير من التفكك يدركه المرء حتى من أول نظرة، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه، لأنه كان يبدو جائزاً كل الجواز حقاً. وكان في وسعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترينا نيقولايفنا بنا أولاً، أي أن تجيء أولاً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لامبرت، لتستجلي الأمر. ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث، فقد تذهب إلى هناك رأساً، فتهلك!... وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصدِّق أن ترتمي هذا الارتماء على رجل مجهول مثل لامبرت، استجابةً لأول نداء منه. ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً، بعد أن ترى نسخة الرسالة، فتقتنع بأن الأصل موجود عنده فعلاً، فتذهب إليه فتقع الكارثة. وكان الوقت شديد الضيق خاصةً، فما ينبغي أن نضيع منه دقيقة واحدة في التفكير.

وهتفت أقول:

ـ لسوف يقتلها فرسيلوف! إذا كان قد هبط إلى حيث يتصل بلامبرت، فلسوف يقتلها حتماً! إنه المثْل!

قالت تاتيانا بافلوفنا وهي تعقف يديها:

ـ آه!... هو «المثْل». هلمَّ بنا. لا بد! خذ قبعتك ومعطفك، ولنذهب إلى هناك معاً. قودينا يا سيدة. آه... ما أبعد المكان! يا ماري، ماري! إذا جاءت كاترينا نيقولايفنا فقولي لها إنني راجعة حالاً، فلتجلس ولتنتظرني، وإذا أبت أن تنتظر فاقفلي الباب بالمفتاح، واحبسيها عن الخروج عنوةً. قولي لها إنني أنا التي أمرت بهذا. سأعطيك مائة روبل يا ماري إذا أنت صنعت لي هذا المعروف.

واندفعنا إلى السلّم. لا شك أن هذا خير ما يمكن عمله، لأن البلاء الأكبر عند لامبرت، فإذا اتفق أن جاءت كاترينا نيقولايفنا

Twitter: @ketab_n

إلى تاتيانا بافلوفنا أولاً، فسيكون في وسع ماري أن تحتجزها. ومع ذلك فإن بافلوفنا غيَّرت رأيها فجأة، رغم أنها كانت قد نادت حوذياً. قالت وهي تتركني مع آلفونسين:

ـ اذهب أنت معها. ومت هناك إذا لزم الأمر، هل تفهم؟ وسألحق أنا بك. أما الآن فإنني سأثب إلى بيتها، فقد أجدها هناك، لأن الشكوك لا تزال تساورني، مهما تقل!

وطارت إلى بيت كاترينا نيقولايفنا. وركضنا أنا وآلفونسين إلى بيت لامبرت. كنت أستحث الحوذي على الإسراع، وأستمر في إلقاء الأسئلة على آلفونسين في الوقت نفسه، ولكن آلفونسين أصبحت لا تجيب إلا بصيحات وتأوهات، وطفقت تبكي آخر الأمر. ولكن القدر كان يحرسنا، فحمانا جميعاً حين كان كل شيء معلقاً بخيط واهن. فما إن قطعنا ربع الطريق حتى سمعت صرخة ورائي تناديني باسمي على حين فجأة، فالتفت، فإذا أنا أرى تريشانوف يلحقنا بعربة. صاح مرتاعاً:

ـ إلى أين؟ ومعها؟ مع آلفونسين؟

فصحت أقول له:

ـ لقد صدقت فيما قلت يا تريشانوف: إن كارثة سقع! إنني ذاهب إلى ذلك الوغد السافل لامبرت! فتعال معي، فيكون عددنا أكبر!

فصرخ تريشانوف قائلاً:

ـ بل ارجع، إرجع حالاً. لامبرت يكذب، وآلفونسين تكذب أيضاً. المجدور هو الذي أرسلني. ليسا في البيت: لقد لقيت لامبرت وفرسيلوف منذ هنيهة. لقد ذهبا إلى بيت تاتيانا بافلوفنا. . . وهما الآن هناك. . .

Twitter: @ketab_n

أوقفت العربة، وقفزت إلى عربة تريشانوف. ما زلت لا أدري كيف اتخذت ذلك القرار فجأة، ولكنني صدَّقت تريشانوف، فسرعان ما عزمت أمري. أخذت آلفونسين تطلق صرخات رهيبة، ولكننا تركناها فلا أدري هل تبعتنا أم هي رجعت إلى بيتها. ولكنني لم أرها بعد ذلك على كل حال.

وفي العربة، أفضى إليَّ تريشانوف، كيفما اتفق، وهو يلهث، بأن مكيدة قد دُبِّرت، وأن لامبرت اتفق مع المجدور، ولكن المجدور خان لامبرت في آخر دقيقة، فأرسله، هو تريشانوف، إلى تاتيانا بافلوفنا ليبلغها أن عليها ألا تصدِّق لامبرت وآلفونسين. وأضاف تريشانوف أنه لا يعرف غير هذا، لأن المجدور لم يزد على ذلك شيئاً، لأن وقته لم يتسع لمزيد من الإيضاح، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضاً، لأن القضية كلها توجب الإسراع. وتابع تريشانوف كلامه فقال: «رأيت أنك ذهبت فجريت أتبعك». كان واضحاً إذن أن المجدور يعرف كل شيء هو أيضاً، ما دام قد أرسل تريشانوف إلى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً. ولكن هذا كان لغزاً آخر.

ومن أجل ألا تختلط الأفكار، سوف أعمد الآن، قبل وصف الكارثة، إلى شرح الحقيقة الصادقة كلها، مستبقاً الأحداث آخر مرة.

4

بعد أن سرق لامبرت الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف. أما كيف أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبرت، فهذا ما لا أقوله الآن، وإنما أرجئه إلى حينه، إنه «المثل»، على كل حال! ولكن كان على لامبرت، بعد أن تحالف مع فرسيلوف، أن يستدرج كاترينا نيقولايفنا بأسلوب حاذق بارع. . . لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتي.

Twitter: @ketab_n

ولكن لامبرت، منذ أن لقيته في الشارع أمس الأول، وأعلنت له متباهياً متفاخراً أنني سأرد الرسالة إلى كاترينا نيقولايفنا في بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تاتيانا بافلوفنا، قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا بافلوفنا: إذ اشترى ماري بعشرين روبلاً. وغداة غد، بعد أن تمت سرقة الرسالة، زار ماري مرة أخرى، وتفاهم معها تفاهماً كاملاً، إذ وعدها بمائتي روبل ثمناً لما ستقدمه له من خدمات.

ذلك هو السبب في أن ماري ما إن سمعت أن كاترينا نيقولايفنا ستكون عند تاتيانا بافلوفنا في الساعة الحادية عشرة والنصف وأنني سأكون أنا أيضاً عندها، حتى وثبت خارجة من البيت وركبت عربة وأسرعت تحمل النبأ إلى لامبرت... هذا بعينه هو ما كان مطلوباً منها أن تخبر به لامبرت، هذه هي الخدمات التي كان يجب عليها أن تقدمها له. واتفق أن كان فرسيلوف في تلك اللحظة ذاتها عند لامبرت. فما هي إلا طرفة عين حتى تخيل تلك الخطة الجهنمية. يقال إن المجانين يكونون في بعض اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكراً.

وكانت الخطة هي أن نستدرج، أنا وتاتيانا، إلى خارج المسكن بأية وسيلة من الوسائل، ولو ربع ساعة فقط، ولكن قبل وصول كاترينا نيقولايفنا؛ وأن ينتظراها في الشارع، فمتى خرجنا أنا وتاتيانا بافلوفنا دخلا إلى البيت الذي ستفتح لهما ماري بابه، وانتظرا وصول كاترينا نيقولايفنا. وفي أثناء ذلك يكون على آلفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت من قوة في أي مكان تشاء، وبأية وسيلة تراها. وإذ إن كاترينا نيقولايفنا ستصل في الساعة الحادية عشرة والنصف، كما وعدت بذلك، فإنها ستصل إذن قبل أن نستطيع نحن أن نعود (طبعاً لم تتلق كاترينا نيقولايفنا أي دعوة

Twitter: @ketab_n

من لامبرت، لقد كذبت آلفونسين: إن هذه القصة كلها إنما كانت من اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها. ولم تزد آلفونسين على أن مثَّلت دور الخائن الذي يخون من شدة فزعه). ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان للإخفاق، ولكن تفكيرهما كان سليماً: «إذا نجحت الخطة كان بها، وإذا لم تنجح فلا نفقد شيئاً لأن الوثيقة تبقى معنا». ولكن الخطة نجحت، وكان لا يمكن إلا أن تنجح، لأننا كنا لا نستطيع إلا أن نركض وراء آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض: «ماذا لو صحَّ ما تقوله؟». أعود فأقول: إن وقتنا لم يتسع للتفكير.

5

داهمنا المطبخ أنا وتريشانوف، فوجدنا ماري شبه ميتة من الخوف. لقد أرعبها، حين أدخلت لامبرت وفرسيلوف، أن رأت بين يدي لامبرت مسدساً على حين فجأة. لئن قبلت من لامبرت مالاً، فإن المسدس لم يدخل في حسابها قط. فكانت مضطربة أشد الاضطراب، فما إن رأتني حتى ارتمت عليَّ وقالت:

ـ الجنرالة جاءت، ومعهما مسدس!

قلت آمر تريشانوف:

ـ تريشانوف، إبق أنت هنا في المطبخ. فمتى صرختُ أناديك هرعتَ إلى نجدتي.

وفتحت لي ماري باب الدهليز، فتسللت إلى غرفة تاتيانا بافلوفنا، إلى تلك الغرفة الصغيرة التي ليس فيها مكان إلا لسرير تاتيانا بافلوفنا، والتي سبق لي ذات مرة أن تنصتُّ منها على حديث. جلست على السرير، وأسرعت أزيح الستارة قليلاً.

Twitter: @ketab_n

وكان في الغرفة جلبة منذ ذلك الوقت، وكان الحديث يجري بصوت عال. يجب أن أذكر أن كاترينا نيقولايفنا قد وصلت بعدهما بدقيقة واحدة. وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن دخلت المطبخ.

كان الصياح يصدر عن لامبرت. كانت هي جالسة على الديوان وكان هو متسمراً أمامها يصرخ كأبله. إنني أعلم الآن لماذا فقد هدوءه بهذا الغباء: لقد كان على عجلة من أمره، كان يخشى أن يفاجأ. وكانت الرسالة في يده. لكن فرسيلوف لم يكن بالغرفة. وقد تأهبت للوثوب عند أول خطر. وهأنذا أروي معنى الأحاديث التي جرت بينهما، معناها فحسب. ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أتذكرها تذكراً واضحاً. لأنني كنت عندئذ أشد انفعالاً واضطراباً من أن أستطيع حفظها بدقة.

ـ هذه الرسالة تساوي ثلاثين ألف روبل. هل تدهشين؟ الحق أنها تساوي مائة ألف، لكنني لا أطلب إلا ثلاثين ألفاً.

كذلك قال لامبرت بصوت عال، مندفعاً اندفاعاً رهيباً. فكانت كاترينا نيقولايفنا، رغم ذعرها الواضح، تنظر إليه بازدراء واحتقار. قالت:

ـ واضح أن ههنا فخاً، فلست أفهم شيئاً. ولكن إذا كانت تلك الرسالة معك حقاً. . .

فقاطعها لامبرت قائلاً:

ـ خذي! هي ذي! انظري إليها! انظري إليها! أليست هي نفسها؟ ثلاثون ألف روبل لا تنقص كوبكاً واحداً. . .

ـ لست أحمل مالاً.

ـ اكتبي سنداً. إليك ورقة. وبعد ذلك تجيئينني بالمال، وسوف

Twitter: @ketab_n

أنتظر أسبوعاً لا أكثر. فمتى جئتني بالمال رددت إليك السند والرسالة.

ـ إنك تكلمني بلهجة سخيفة. وإنك لمخطىء. سوف تؤخذ منك هذه الوثيقة متى شكوتك...

ـ لمن؟ هأ هأ هأ! والفضيحة؟ والرسالة التي سنطلع عليها الأمير؟ وكيف يمكن أن تؤخذ مني؟ إنني لا أحتفظ بوثائق في بيتي. وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث. لا تعندي يا سيدتي، اشكري لي أنني لا أطلب إلا مبلغاً زهيداً. ولو كان في مكاني رجل آخر لطلب منك خدمات أخرى تعرفين ما هي! إنها الخدمات التي لا ترفض أية امرأة جميلة أن تقدّمها في حالة صعبة وظرف حرج. تعرفين ما هي تلك الخدمات؟ هأ هأ هأ! . «أنت امرأة جميلة!».

لم تزد كاترينا نيقولايفنا على أن وثبت وثبة واحدة وقد احمرّت احمراراً شديداً، فبصقت في وجهه. ثم اتجهت بسرعة نحو الباب. فإذا بالأحمق يشهر مسدسه. إنه، وهو الأبله المحدود العقل، كان مؤمناً إيماناً أعمى بما سيكون للوثيقة من أثر، فلم يدخل في حسابه نوع المرأة التي يخاطبها، وذلك لأنه، كما سبق أن قلت، يتصور لدى جميع الناس وجود تلك العواطف الدنيئة نفسها التي تملأ قلبه. لقد أثار بفظاظته حنق كاترينا نيقولايفنا منذ أول كلمة، ولعلها ما كانت لترفض تسوية مالية.

أعول يقول وقد ثارت ثائرته من البصقة:

ـ لا تتحركي!

وأمسكها من كتفها وأراها المسدس، ليخيفها طبعاً. فصرخت وتهالكت على الديوان. فاندفعت أنا إلى الغرفة. ولكن، في تلك

Twitter: @ketab_n

اللحظة نفسها، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدهليز (كان ينتظر هناك)، فلم أكد ألقي نظرة واحدة حتى كان قد انتزع المسدس من لامبرت، وأخذ يضربه على رأسه بكل ما أوتي من قوة. فترنح لامبرت، وسقط مغشياً عليه. وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السجادة.

أما هي فإنها حين أبصرت فرسيلوف، اصفر وجهها اصفراراً شديداً، وشخصت إليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياع، ثم لم تلبث أن أغمي عليها. فارتمى عليها. هذا كله يبدو لي أنني لا أزال أراه. أتذكر أنني ذعرت حين رأيت وجهه الأحمر الذي يشبه أن يكون بلون القرمز، وحين رأيت عينيه المحتقنتين. وإني لأظن أنه، وقد رآني في الغرفة، لم يعرفني. ارتمى عليها، فتناول جسمها الهامد، وأنهضه بقوة خارقة، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة، وأخذ يجول بها في الغرفة، وقد لاح في وجهه الجنون. كانت الغرفة صغيرة، ولكنه كان يطوف من ركن إلى آخر، دون أن يدرك لماذا يفعل ذلك. لقد فقد عقله في لحظة. وكان لا ينقطع عن النظر إليها، عن النظر إلى وجهها. وكنت أنا أركض وراءه. كنت خائفاً من المسدس خاصة: لقد نسيه في يده اليمنى مصوباً إلى رأسها.

ولكنه دفعني مرة بكوعه، وركلني مرة أخرى برجله. وقد أردت أن أنادي تريشانوف، ولكنني خفت أيضاً أن أخيف المجنون فينفجر. وأخيراً أزحت الستارة إزاحة تامة على حين فجأة، وتوسلت إليه أن يرقدها على السرير. فاقترب ووضعها على السرير، لكنه تسمَّر أمامها وحدق إلى عينها تحديقاً ثابتاً مدة دقيقة، ثم إذا هو يميل عليها فجأة فيقبل شفتيها الشاحبتين مرتين. فأدركت أنه قد

Twitter: @ketab_n

فقد عقله فقداً تاماً ثم إذا هو يرفع مسدسه ويهمّ أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه، فصوب المسدس إلى وجهها ليطلق النار. فأمسكت ذراعه فوراً بكل ما أملك من قوة، وناديت تريشانوف. أتذكر أننا صارعناه كلانا، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه. لقد كان يريد أن يقتلها، ثم يقتل نفسه. لكنه، وقد منعناه من قتلها هي، صوَّب المسدس إلى قلبه هو. ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه إلى أعلى، فاستقرت الرصاصة في كتفه. وفي تلك اللحظة علت صرخة. إنها تاتيانا بافلوفنا تدهم الغرفة. ولكن فرسيلوف كان قد رقد على الأرض مغمى عليه إلى جانب لامبرت.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

1

خاتمة

انقضت على ذلك المشهد قرابة ستة أشهر. إن مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور، وأن أشياء كثيرة قد أثيرت. وبدأت أنا حياة جديدة. وسوف أخلص القارىء من حديثي أنا أيضاً.

إن سؤالاً قد شغل فكري حينذاك وظل يشغله مدة طويلة: كيف أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشخص مثل لامبرت؟ وما الهدف الذي كان يرمي إليه؟ وقد انتهيت إلى تفسير الأمور على النحو التالي: إنه أثناء تلك الفترة الفاجعة القصيرة، أعني اليوم الأخير واليوم الذي سبقه، كان لا يرمي إلى أي هدف محدد، وإنما كان يعصف به ويستولي على عقله إعصار من العواطف المتناقضة. لا أعتقد أنه أصيب بجنون حقيقي، لا سيما وأنه اليوم ليس مجنوناً قط. ولكنني أؤمن بالمِثْل دون تردد. فما «المِثْل»؟ لقد قرأت في الآونة الأخيرة كتاباً لطبيب اختصاصي، فعرفت أن «المِثْل» درجة أولى من درجات اختلال عقلي خطير يمكن أن يؤدي إلى نهاية محزنة. ولقد أوضح فرسيلوف، يوم حطم الأيقونة عند ماما، أوضح بصدق هائل، آلية

Twitter: @ketab_n

«ازدواج» إرادته وعواطفه. إنني ألح على ذلك المشهد. بالمشهد الذي حدث في بيت ماما، وتحطيم الأيقونة، ذلك كله إنما حدث بتأثير «المِثْل» حتماً. ومع ذلك أظل أتساءل: ألا يمتزج بفعل التحطيم ذاك، رمز شرير ما؟ وأراني أجيب على هذا السؤال نعم، وأعتقد أن ثمة رمزاً يشير إلى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال، وما كنَّ يؤمنَّ به من حقوق، وما كان يقوم في أذهانهن من رأي. فبالاتفاق مع «المِثْل» إنما حطم الأيقونة. فكأنه كان يقول: «هكذا سيتحطم توقعكن». نعم، كان هناك «المِثْل»، ولكن كانت هنالك نزوة أيضاً. على كل حال، ذلك تخمين مني.

إنه رغم عبادته لكاترينا نيقولايفنا كان قد ترسخ في قرارة نفسه شك صادق وعميق في مزاياها الأخلاقية. فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذلّ نفسها أمام لامبرت. ولكن إذا كان يتوقع ذلك، فهل كان يريده؟ أعود فأقول: إنني أؤمن إيماناً جازماً بأنه كان لا يريد شيئاً، بل كان لا يفكر البتة. كانت رغبته كلها هي أن يوجد هناك، وأن يثبت بعد ذلك، وأن يقول لها شيئاً ما... وربما... ربما أن يهينها، وربما أيضاً أن يقتلها!... لقد كان كل شيء في تلك اللحظة جائزاً وممكناً. ولكنه حين وصل مع لامبرت كان لا يعرف شيئاً مما قد يحدث. يجب أن أضيف أن المسدس كان للامبرت، وأن فرسيلوف جاء بغير سلاح. فلما رأى ما رأى من كبرياء كاترينا وشممها، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل حقارة لامبرت الذي كان يهددها، اندفع إلى الغرفة، وعندئذ إنما فقد عقله. هل كان يريد أن يطلق عليها الرصاص في تلك اللحظة؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئاً هو نفسه، ولكن لا شك في أنه كان سيطلق النار لولا أننا أمسكنا ذراعه.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن الجرح الذي أصيب به قاتلاً. . . فقد شفي، ولكن بعد أن بقي في السرير مدة طويلة، عند ماما طبعاً. نحن الآن، أثناء كتابة هذه الكلمات، في فصل الربيع، في منتصف شهر أيار (مايو). النهار رائع. ونوافذنا مفتوحة. ماما جالسة إلى جانبه. وهو يلاعب خديها وشعرها وينظر إلى عينيها بحنان. ليس هو الآن إلا نصف ما كان فرسيلوف من قبل. أصبح لا يترك ماما، ولن يتركها أبداً. حتى لقد أوتي «موهبة ذرف الدموع»، على حد تعبير ماكار إيفانوفتش الذي لا يُنسى، في قصته عن التاجر. ويخيل إليَّ من جهة أخرى أن فرسيلوف سيعمر طويلاً. هو الآن معنا بسيط كل البساطة، صادق كل الصدق، كطفل، ولكن بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة، وبدون أن يفرط في الكلام. لقد احتفظ بذكائه كاملاً، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقي، غير أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزاً. يجب أن أقول جازماً إنني ما أحببته يوماً كما أحبه الآن، وإنني يؤسفني ألا أملك من فسحة الوقت والمكان ما يمكنني من الإسهاب في الكلام عنه. ومع ذلك سوف أروي قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع): في أثناء الصوم الكبير كان قد شفي من جرحه، فإذا هو يعلن في الأسبوع السادس أنه سيتناول القربان المقدس. لم يسبق له أن تناول القربان منذ ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن. سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة. وأصبحوا في البيت لا يحضرون من الطعام إلا أطباقاً بغير دسم، ولكنها أطباق غالية الثمن فاخرة الصنف. وقد سمعته في الغرفة المجاورة، يومي الأحد والإثنين، يغني أغنية «ها هو ذا العريس يأتي»، متحمساً للّحن والكلمات جميعاً. وقد اتفق له في ذينك اليومين أن انطلق يتكلم في الدين فقال كلاماً رائعاً. غير أن كل

Twitter: @ketab_n

شيء انقطع يوم الأربعاء. إذ انتابه حنق مفاجىء أو «تناقض مضحك» كما قال ضاحكاً. إن شيئاً ما في أفعال الكاهن وحركاته وإشاراته قد بدا له غليظاً. فلما عاد في ذات يوم من الكنيسة قال وهو يبتسم ابتسامة لطيفة: «يا أصدقائي، إنني أحب الله كثيراً، لكن هناك أشياء تضايقني، لذلك لست مستعداً. . .» وفي مساء ذلك اليوم كان طعام العشاء يضم شرائح لحم مقلي. ولكنني أعرف أن ماما تجلس إلى جانبه في كثير من الأحيان حتى اليوم، فتحادثه بصوت عذب وابتسامة حلوة في موضوعات مجردة جداً. إنها الآن جريئة معه. لا أدري كيف حدث هذا. تجلس إلى جانبه وتكلمه، ويجري الحديث في أكثر الأحيان بصوت خافت. إنه يصغي إليها مبتسماً، ويلاعب شعرها، ويقبل يديها، وتسطع على وجهه أكبر سعادة. وقد تعتريه في بعض الأحيان نوبات تكاد تكون هسترية، فيتناول صورتها الفوتوغرافية، تلك التي قبَّلها في ذلك المساء المشهود، فينظر إليها دامع العينين، ويقبِّلها، ويتذكر، ويدعونا إليه جميعاً. ولكنه في مثل هذه اللحظات لا يتكلم إلا قليلاً!. . . ويبدو أنه نسي نيقولايفنا نسياناً تاماً، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة. أما عن زواجه بماما، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث. وكانوا يريدون أن يسافروا به في الصيف إلى الخارج، ولكن تاتيانا بافلوفنا ألحت على ألا يفعلوا، وهو نفسه لم يشأ على كل حال. فسوف يقضون الصيف في الريف بمكان ما في مقاطعة بطرسبرج. يجب أن أذكر في هذه المناسبة أن تاتيانا بافلوفنا هي التي تنفق الآن على معيشتنا جميعاً. ويجب أن أضيف شيئاً آخر هو أنني حزين أشد الحزن من أنني، طوال هذه المذكرات، قد أبحت لنفسي أن أعامل هذه الإنسانة بغير احترام، وأن أنظر إليها من علٍ. ولكنني كتبت ما

Twitter: @ketab_n

كتبته وأنا أتصور تصوراً مسرفاً في الدقة كيف كانت حالتي في كل لحظة من اللحظات التي وصفتها. وبعد أن فرغت من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أنني بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل لذكرياتي قد ربيت نفسي تربية جديدة. صحيح أنني أنكر كثيراً مما كتبت، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات، ولكنني لا أريد أن أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة.

قلت إنه أصبح لا يتكلم عن كاترينا نيقولايفنا البتة. بل إني لأعتقد أنه شفي شفاء تاماً. عن كاترينا نيقولايفنا أصبحنا وحدنا، أنا وتاتيانا بافلوفنا، نتكلم في بعض الأحيان، ونتكلم خفية. إن كاترينا نيقولايفنا هي الآن في الخارج. رأيتها قبل سفرها، وزرتها في بيتها عدة مرات، ومن الخارج بعثت لي حتى الآن رسالتين أجبت عنهما. لن أقول شيئاً عن مضمون الرسالتين ولا عن الموضوعات التي عالجناها حين تركتنا قبل سفرها: فهذه قصة أخرى، قصة «جديدة» كل الجدة، لعلها لا تزال قائمة كلها في المستقبل. حتى مع تاتيانا بافلوفنا هناك موضوعات معينة لا أقاربها. ولكن كفى هذا. أريد أن أضيف فقط أن كاترينا نيقولايفنا لم تتزوج، وهي مسافرة الآن مع بلشتشيف. لقد مات أبوها، فهي أغنى الأرامل. إنها الآن بباريس. لقد تمت القطيعة بينها وبين بيورنج بسرعة، وكأنما تمت من تلقاء نفسها، على نحو طبيعي جداً. وسأحكي هذا على كل حال.

ففي الصباح من يوم ذلك الحادث الرهيب، استطاع المجدور، أعني ذلك الذي انتقل تريشانوف وصديقه إلى خدمته، أن يبلغ بيورنج بالمؤامرة التي تحاك. إليكم كيف حدث ذلك: كان لامبرت قد جعل المجدور يقرر الاشتراك في المؤامرة، وأطلعه بعد أن

Twitter: @ketab_n

صارت الوثيقة في حوزته، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه، وأطلعه أخيراً على الخطة الأخيرة، أي الخطة التي تخيلها فرسيلوف لخداع تاتيانا بافلوفنا. ولكن المجدور آثر في اللحظة الحاسمة أن يخون لامبرت، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعاً، إذ تخيل في هذه المشروعات كلها إمكان حدوث جريمة، ورأى خاصة أن الخطوة بعرفان بيورنج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضعها رجل أهوج أخرق مثل لامبرت ورجل جعله الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف. ذلك كله علمته بعدئذ من تريشانوف. يجب أن أذكر في هذه المناسبة أنني أجهل ولا أفهم العلاقات التي كانت قائمة بين لامبرت والمجدور، ولماذا كان لامبرت لا يستطيع الاستغناء عن المجدور. ولكن المسألة التي كانت تثير عجبي أكثر من سائر ما عداها هي التالية: ما كانت حاجة لامبرت إلى فرسيلوف، مع أنه بعد حصوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاماً؟ ولقد أصبح الجواب واضحاً الآن: كان لامبرت في حاجة إلى فرسيلوف أولاً لأن فرسيلوف عالم بالظروف، وثانياً لأنه يستطيع في حالة الخطر أو في حالة وقوع مصيبة أن يلقي على فرسيلوف جميع التبعات. ولما كان فرسيلوف في غير حاجة إلى المال، فقد رأى لامبرت أن مشاركته مفيدة إلى أقصى حد.

ولكن بيورنج لم يصل في اللحظة المطلوبة. وإنما وصل بعد إطلاق النار بساعة، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً. فبعد خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه، نهض لامبرت، وكنا نظنه ميتاً، فأجال بصره فيما حوله، فأدرك في الحال كل شيء، ومضى إلى المطبخ بدون أن

Twitter: @ketab_n

يقول كلمة، فارتدى معطفه واختفى إلى الأبد. وبقيت «الوثيقة» على المائدة. وقد سمعت أنه لم يصب حتى بمرض، ولم يعان إلا شيئاً من أوجاع طفيفة. لقد جندلته الضربة، وأنزفت دمه، ولكنها لم تنله بأذى.

وفي أثناء ذلك ركض تريشانوف يستدعي الطبيب. ولكن فرسيلوف أفاق من غيبوبته قبل وصول الطبيب، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترينا نيقولايفنا إلى الحياة وأن تعيدها إلى منزلها. وهكذا... حين دهم بيورنج بيت تاتيانا بافلوفنا لم يكن هناك أحد إلا أنا والطبيب وفرسيلوف الجريح وماما التي كانت لا تزال مريضة ولكنها هرعت إلى فرسيلوف كالمجنونة إذ أنبأها تريشانوف نفسه بما حصل. نظر بيورنج مدهوشاً؛ وما إن عرف أن كاترينا نيقولايفنا قد مضت حتى ذهب إلى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة.

كان مضطرباً، إذ رأى رؤية واضحةً أن الفضيحة وذيوع النبأ أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما. ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى، وكل ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتها الألسن. صحيح أن طلقة المسدس قد استحال إخفاء أمرها، ولكن الجزء الأساسي من القصة كلها ظلَّ شبه مجهول. ولم يقرر التحقيق إلا أن رجلاً عاشقاً اسمه «ف...»، وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسين من العمر، قد أطلق النار على نفسه من مسدس في نوبة جنون، بينما كان يعلن غرامه لسيدة جديرة بأعظم الاحترام، لكنها لا تبادله عواطفه. لم يُعلم شيء أكثر من هذا. وفي هذه الصورة إنما انتقل الخبر إلى الجرائد غامضاً، بدون ذكر الأسماء، إلا أحرفها الأولى. أعلم مثلاً أن لامبرت لم يقلق أبداً. ولكن بيورنج الذي كان يعرف

Twitter: @ketab_n

الحقيقة خاف خوفاً شديداً. ولقد علم فجأةً، بما يشبه المصادفة، أن لقاءً تم قبل الكارثة بيومين بين كاترينا نيقولايفنا وفرسيلوف الذي يحبها. فأحنقه ذلك حنقاً قوياً، فأباح لنفسه بغير تروٍ ولا حذر أن يقول لكاترينا نيقولايفنا إنَّه لا يدهشه أن تقع لها أحداث فظيعة كهذه. فلم تلبث كاترينا نيقولايفنا أن صرفته فوراً، بدون غضب، ولكن بدون تردد؛ إن ما كانت تقدره من أن زواجها بمثل هذا الرجل زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار. ولعلها كانت قد كشفته وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة. ولعلها أيضاً، بعد الهزة القوية التي أصابتها، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بغتةً. يجب أن أضيف أن لامبرت فرَّ إلى موسكو، وقد علمت أنه قبض عليه هنالك في قضية أخرى. أما تريشانوف فإنني منذ مدة طويلة، بل منذ وقوع تلك الأحداث تقريباً، قد غاب عن بصري فلم أره رغم جميع الجهود التي لا أزال أبذلها لأقع على آثاره. لقد اختفى بعد موت صديقه «الأبله الطويل» الذي أطلق على رأسه الرصاص.

2

ذكرت موت الأمير العجوز نيقولا إيفانوفتش. إن هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة، بعد نحو شهر. مات في الليل، على سريره، من سكتة قلبية. ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذي قضاه في بيتي. وقد رُوي عنه في أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً، وأنه صار جاداً كثير الجد، فهو لا يخاف، ولا يبكي، حتى إنه لم يقل كلمة واحدة عن آنا آندرييفنا طوال تلك المدة. وقد انصب حبه كله على ابنته. وقبل وفاته

Twitter: @ketab_n

بأسبوع، اقترحت عليه كاترينا نيقولايفنا أن يستدعيني لأسليه وأسرّي عنه، ولكنه قطب حاجبيه. إنني أذكر هذه الواقعة بدون أن أحاول تفسيرها وتعليلها. وكانت أطيانه مزدهرة، وكان يملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال. وقد أمر في وصيته بأن يوزَّع ثلث هذا المال تقريباً على أولاده بالمعمودية وما أكثرهم! ولكن الأمر الذي أدهش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر إلى آنا آندرييفنا، وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً. إليكم مع ذلك ما أعلمه علم اليقين: إن الشيخ، قبل وفاته ببضعة أيام فقط، استدعى ابنته وصديقيه بلشتشيف والأمير «ف. . .»، فأمر كاترينا نيقولايفنا بأن تقتطع من هذا المال عند وفاته القريبة مبلغ ستين ألف روبل تخص بها آنا آندرييفنا. لقد عبَّر الشيخ عن إرادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضباً دقيقاً، دون أن يبيح لنفسه أي تعليق أو تعقيب. وبعد وفاته، حين أضحى كل شيء واضحاً، عهدت كاترينا نيقولايفنا إلى مصرِّف أعمالها بإبلاغ آنا آندرييفنا أن في وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبل متى شاءت. ولكن آنا آندرييفنا رفضت العرض بجفاء وبغير كلام زائد: رفضت قبض المبلغ رغم كل ما أُكِّد لها من أن هذه هي إرادة الأمير فعلاً. ولا يزال المبلغ موقوفاً ينتظر أن تقبضه آنا آندرييفنا، ولا تزال كاترينا نيقولايفنا تأمل أن تغيِّر آنا آندرييفنا رأيها. ولكن آنا آندرييفنا لن تغيِّر رأيها. فهذا ما أعلمه يقيناً، لأنني اليوم من أقرب أصدقاء آنا آندرييفنا إليها. وقد أثار رفضها ضجة، وتحدَّث عنه الناس. وكان من شأن هذا أن خالتها فاناريياتوفا التي ساءتها منها فضيحتها مع الأمير في البداية، قد غيَّرت رأيها فيها بعد رفضها المال، فأعربت لها عن احترامها جهاراً. أما أخوها، فقد شاجرها بسبب هذا الرفض شجاراً شديداً. على أنني لا أستطيع

Twitter: @ketab_n

أن أقول، رغم كثرة ترددي على آنا آندرييفنا، هل العلاقة التي بيني وبينها علاقة حميمة وثيقة. عن الماضي نحن لا نتحدث اليوم أبداً. إنها تُسرُ باستقبالي، ولكن حديثها معي حديث مجرد. ولقد قالت لي فيما قالت إنها مصممة على دخول الدير حتماً. قالت لي هذا منذ مدة غير طويلة. ولكنني لا أصدِّق أن تفعل، ولا أرى في قولها هذا إلا تعبيراً عن مرارة.

على أن المرارة الكبرى إنما هي في حديثي الآن عن أختي ليزا. ذلك هو الشقاء الحقيقي! ما أهون أنواع الإخفاق التي منيتُ بها إذا هي قيست بمصيرها الحزين! أولاً: لم يشف الأمير سرجي بتروفتش، ومات في المستشفى قبل صدور الحكم. مات قبل الأمير نيقولا إيفانوفتش. وبقيت ليزا وحيدة مع جنينها. كانت لا تبكي. حتى لقد كانت تبدو هادئة. وصارت لينة دمثة عذبة طيعة. غير أن ما كان يزخر به قلبها في الماضي من حرارة كان كأنه دُفن في أعماق نفسها. كانت تساعد ماما بمذلة، وتُعنى بآندريه بتروفتش المريض. ولكنها أصبحت صامتة صمتاً رهيباً، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر إلى شيء ولا أن ترى أحداً، فكأن جميع الأمور عندها سواء، وكأنها لا تكترث بشيء من الأشياء. وقد هزلت هزالاً مخيفاً. كنت لا أجرؤ أن أواسيها، رغم أني كثيراً ما جئت إليها عاقداً نيتي على ذلك. فما أن ألقاها حتى أجدني عاجزاً عن الاقتراب منها، وحتى إنه كانت تعوزني الكلمات اللازمة لمواجهة هذا الموضوع. وامتد ذلك إلى أن وقع حادث رهيب: زلت قدمها على السلّم فسقطت، ليس من أعلى السلّم، بل من ثلاث درجات فقط، لكنها أجهضت واستمر مرضها الشتاء كله تقريباً. وقد نهضت الآن، ولكنها في أعقاب ضربة كهذه الضربة لن

Twitter: @ketab_n

تسترد صحتها إلا بعد مدة طويلة. ولا تزال معنا شديدة الصمت كثيرة الوجوم والتفكير، ولكنها عادت تتكلم مع ماما قليلاً. وقد طلعت علينا في هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة، عالية رائقة؛ ولا أزال أتذكر بيني وبين نفسي تلك الصبيحة المشمسة من أيام الخريف الماضي حين تنزهنا معاً وقد امتلأ قلبانا كلانا بالفرح والأمل، وأحب كل منا الآخر حباً كثيراً! يا حسرتاه! ماذا وقع من بعد؟ لست أتشكى. فأنا قد بدأت حياة جديدة. ولكن هي؟ إن مستقبلها لغز. ولا أستطيع أن أراها إلا ويعصر قلبي الألم.

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أثير اهتمامها إذ حدثتها عن فاسين. لقد أطلق سراحه أخيراً، وأفرج عنه إفراجاً نهائياً. ورُوي أن هذا الرجل الزاخر برجاحة العقل وحصافة الرأي قد استطاع أن يقدِّم أدق الإيضاحات وأهم المعلومات، فبرّأ نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره رهناً برأيهم فيه. وقد تبيَّن على كل حال أن المخطوطة التي أثارت ذلك اللغط كله لم تكن إلا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده، على نية أن يعتمد عليها في كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات في المستقبل. وقد سافر الآن إلى إقليم . . .»؛ أما زوج أمه ستيبلكوف فلا يزال في السجن بسبب قضيته الخاصة التي علمت أنها ما تنفك تكبر وتتسع. لقد أصغت ليزا إلى حديثي هذا عن فاسين وهي تبتسم ابتسامة غريبة، وقالت إن ذلك هو ما كان لا بد أن يقع له. ولكن كان واضحاً أنها سُرَّت بما رويته لها، وأغلب الظن أن مردَّ سرورها أن المرحوم الأمير سرجي بتروفتش لم يُلحق تدخله ضرراً بفاسين، ولم يصبه بأذى. أما درجاتشيف والآخرون، فليس عندي ما أقوله عنهم هنا.

انتهيت. لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث

Twitter: @ketab_n

فأقول لهم ماذا صارت إليه «فكرتي»، وما هي تلك الحياة الجديدة التي بدأتها والتي أشرت إليها إشارة يكتنفها السر؟ فأقول إن هذه الحياة الجديدة التي تنفتح أمامي هي بعينها «فكرتي»، هي «فكرتي» السابقة نفسها، ولكن في صورة مختلفة كل الاختلاف حتى لينكرها المرء ولا يعرفها. ذلك كله لا يدخل في نطاق هذه المذكرات لأنه شيء آخر. انتهت الحياة القديمة، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت. ومع ذلك سأضيف ما لا غنى عن إضافته. إن صديقتي المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضني كل يوم تقريباً على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً، وتقول: «فمتى أتممت دراستك رأيت ماذا يجب أن تفعل. أما الآن فأتمم دراستك». أعترف بأن هذا العرض يحملني على التفكير، لكني أجهل القرار الذي سأتخذه كل الجهل. وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً إني الآن لا يجوز لي أن أتابع دراستي، إذ يجب عليَّ أن أعمل لأعول ماما وليزا. ولكنها تعرض عليَّ ثروتها مؤكدةً أنها تكفي لمدة دراستي كلها. وقد قررت أخيراً أن ألتمس نصيحة أحد الناس. فبعد أن استعرضت مَنْ حولي وقع اختياري على هذا الرجل، نيقولا سيمنوفتش، معلمي السابق بموسكو، زوج ماريا إيفانوفنا؛ ليس لأني في حاجة شديدة إلى نصائح، إلا أن رغبة قوية لا سبيل إلى مغالبتها قد دفعتني إلى معرفة رأي هذا الرجل الأناني، الغريب كل الغرابة عن الأحداث التي وصفتها، ذي القلب الذي يتصف بالبرود، ولكنه ذكي ذكاء لا يمكن جحوده. فأرسلت إليه مخطوطتي، طالباً منه أن يبقي أمرها سراً مكتوماً، لأنني لم أطلع عليها أحداً بعد، ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة. وقد عادت إليَّ المخطوطة بعد خمسة عشر يوماً، مصحوبة برسالة طويلة. وهأنذا أسرد فيما يلي مقتطفات

Twitter: @ketab_n

من تلك الرسالة، لأنني أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تعليلية. إليكم هذه المقتطفات:

3

«عزيزي آركادي ماكاروفتش الذي لا يُنسى، إنك لم تستطع في يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات! لقد حصلت لنفسك على إدراك واعٍ لخطاك الأولى العاصفة المحفوفة بالمخاطر في درب الحياة. وإني لأعتقد جازماً بأن هذا الاستعراض قد أتاح لك فعلاً، في كثير من النقاط، أن «تربي نفسك تربية جديدة» كما تقول أنت نفسك. لن أسمح لنفسي بأي نقد حقيقي، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعي ملاحظات. من ذلك أن حرصك الشديد العنيد المصر على الاحتفاظ «بالوثيقة» طول تلك المدة شيء بارز إلى أبعد حد. على أن هذه الملاحظة التي أبحتها لنفسي ليست إلا واحدة من ألف. وإني لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبوح لي ـ أنا وحدي في أغلب الظن ـ بسرّ «فكرتك»، على حد تعبيرك. ولكن حين تسألني أن أعرب لك عن رأيي في هذه الفكرة، فإنني أكون مضطراً إلى الامتناع عن ذلك قطعاً. أولاً لأن الإعراب عن هذا الرأي يحتل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة. وثانياً لأنني غير متأهب للإجابة فما زلت في حاجة إلى هضم هذا كله. ولكنني أقول إن «فكرتك» تتميز بأصالتها، على حين أن كثيراً من شباب الجيل الحالي ينقادون في أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تنبع من أنفسهم، وعددها محدود جداً، وكثيراً ما تكون خطرة. إن «فكرتك» قد حمتك مثلاً، خلال زمنٍ على الأقل، من أفكار السادة درجاتشيف وشركاه، التي هي أقل أصالةً

Twitter: @ketab_n

ولا شك. وأخيراً فإنني موافق كل الموافقة على رأي المحترمة تاتيانا بافلوفنا التي عرفتها شخصياً، ولكن لم يتح لي حتى الآن أن أقدرها القدر الذي تستحقه. إن رأيها في إدخالك الجامعة سيعود عليك بخير كثير. فلا شك أن العلم والحياة، خلال ثلاث سنين أو أربع، سوف يوسِّعان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك، فإذا أردت بعد الجامعة أن تعود إلى «فكرتك» فلن يمنعك من ذلك شيء.

«واسمح لي الآن، رغم أنك لم تطلب مني هذا، أن أعرض لك بصراحة بعض آرائي أو انطباعاتي التي كوَّنتها في نفسي قراءة هذه المذكرات الصادقة جداً. نعم، إنني أوافق آندريه بتروفتش على أن هناك ما يدعو حقاً إلى الخوف عليك وعلى شبابك «المعتزل». ما أكثر أمثالك من الشبان الذين تتعرض مواهبهم فعلاً لأن تنمو في الاتجاه السيىء: فأما عبودية على طريقة مولتشالين، وأما رغبة خبيئة في الفوضى. وهذه الرغبة في الفوضى إنما تنشأ ـ ربما في أكثر الأحيان ـ عن ظمأ خفي إلى النظام، «الجمال» (إنني أستعمل كلمتك). إن الشباب طاهر نقي لمجرد أنه شباب. ولعل تلك الاندفاعات المبكِّرة إلى الجنون إنما تشتمل على ذلك الظمأ إلى النظام وعلى ذلك البحث عن الحقيقة. فمن المذنب إذا كان بعض الشباب في عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام في نظرياتٍ تبلغ من الحماقة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها! أحب أن أقول في هذه المناسبة أن المرء كان يمكن في الماضي ـ في عصر ليس بعيداً، في عهد لا يبعد عنا أكثر من جيل واحد ـ ألا يأخذه بأمثال هؤلاء الشبان ما يأخذه بهم الآن من شفقة ورحمة، لأن أمثالهم في ذلك كانوا ينتهون في جميع الأحيان تقريباً إلى الانضمام إلى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف انضماماً ناجحاً،

Twitter: @ketab_n

ويصبحون جزءاً من تلك الطبقة. فإذا شعروا مثلاً، في بداية الطريق، بما في بيئتهم العائلية من فوضى وعبث وافتقاد النبالة وغياب التقاليد والأشكال الجميلة، كان في هذا خير لهم، لأنهم بعد ذلك يتوقون إلى هذه الأمور كلها توقاً واعياً، ويألفون بهذا نفسه أن يقدِّروها. أما الآن فإن الأمور تجري مجرى مختلفاً بعض الاختلاف، لأنهم أصبحوا لا يعرفون إلى من ينضمون!

«سأوضح رأيي بمقارنة أو قل بمشابهة. لو كنت روائياً روسياً وكانت لي موهبة، لما اخترت أبطال رواياتي إلا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة، لأن هذه البيئة التي تضم أفراداً مثقفين هي البيئة الوحيدة التي يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والإحساس الجميل اللذين لا غنى عنهما لرواية تريد أن تحدث في القارىء شعوراً بالروعة. لا أقول هذا الكلام مازحاً، رغم أنني لا أنتمي إلى الطبقة النبيلة كما تعلم. لقد سبق أن أشار في «تقاليد أسرة روسية» إلى موضوعات الروايات التي حال الموت بينه وبين كتابتها. فهناك إنما نقع فعلاً على كل ما بلغناه حتى الآن من جمال. هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا إليه من توازن وكمال. وإذا قلت هذا فليس معناه إنني أرى ذلك الجمال خالياً من العيوب، أو أرى ذلك التوازن مستقراً استقراراً تاماً. غير أن ثمة أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملةً بل لا تجدها البتة في أي مكان في روسيا خارج النبالة. إنني أتكلم كما يتكلم إنسان هادىء يبحث عن الهدوء.

فإذا سألتني عن ذلك الشرف هل هو أصيل، وعن ذلك الواجب هل هو حق، قلت لك إن هذه مسألة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها. ولكن الشيء الهام في نظري هو أن تلك

Twitter: @ketab_n

الأشكال مكتملة، وأن ثمة نظاماً لم يُفرض فرضاً وإنما هو نابع من حياة تلك النبالة. ألا وإن ما يهمنا أكثر من أي شيء آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام، أياً كان هذا النظام، على شرط أن يكون نظاماً لنا نحن! ذلك هو الأمل، وتلك هي الراحة إن صح التعبير: شيء مكتمل البناء أخيراً، لا هذا التقويض الأبدي، وهذه النشارات التي تتطاير في كل مكان، وهذه النفايات وهذه القاذورات التي لا يخرج منها شيء منذ ما يقرب من مائتي سنة.

«لا تتهمني بالتعصب السلافي، فإنما أنا أتكلم الآن كلام رجل استبد به كره البشر، وأصبح مثقل القلب حزناً! إننا منذ بعض الوقت نشهد حركة تعارض ما أتيت على وصفه الآن كل المعارضة. فالآن أصبحت القذارة لا تصعد إلى الطبقة العليا من المجتمع، وإنما يحدث نقيض هذا، فنرى أجزاء بل كتلاً تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج في أناس الفوضى والكره. ليست حالاتٍ فريدة معزولة تلك الحالات التي ترى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسخر الآن من أشياء ربما كان أبناؤهم لا يزالون يرغبون في الإيمان بها. أكثر من ذلك أنهم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملكوا الحق في التخلي عن الشرف فجأة، وهو حق يشعرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة ولا أدري كيف! لست أتكلم عن التقدميين الحقيقيين، يا صديقي العزيز جداً آركادي ماكاروفتش، وإنما أتكلم عن تلك الجمهرة الكبيرة التي لا يُحصى اليوم عددها، والتي قيل في حقها: «قشّر الروسي فترى التتري». صدِّق أن الليبراليين الحقيقيين، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للإنسانية ليس عددهم بيننا كبيراً إلى الحد الذي توهمناه فجأة.

Twitter: @ketab_n

«ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً. فلنعد إلى الروائي الذي تخيلناه. إن موقف صاحبنا الروائي هذا سيكون في هذه الحالة موقفاً محدداً: إنه لن يستطيع أن يكتب إلا روايات من نوع الروايات التاريخية، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود في عصرنا هذا، وإذا كان لا يزال منه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم، فإن هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها. ولا شك أن الكاتب سيستطيع في الروايات التاريخية أيضاً أن يتصور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزي القلب. حتى ليمكنه أن يأسر لبَّ القارىء أسراً يبلغ من القوة أن يحسب القارىء اللوحة التاريخية واقعاً لا يزال قادراً على الحياة اليوم. ومثل هذه الرواية، إذا كانت موهبة الكاتب عظيمة، سوف تنتمي إلى الأدب الروسي أقلَّ مما تنتمي إلى التاريخ. سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفني تمثل السراب الروسي الذي وجد فعلاً إلى اليوم الذي اكتُشِفَ فيه أنه كان سراباً. إن حفيد أبطال اللوحة التي تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط بالتاريخ الروسي، إن حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره في نموذجه المعاصر إلا إنساناً مبغضاً للبشر، معتزلاً الناس، صموتاً حزيناً. بل لا بد كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارىء أن يحكم عليه منذ النظرة الأولى بأنه قد ابتعد عن الطريق الممهَّدة وأن ليس تحت قدميه أرض. وما هي إلا فترة حتى يختفي هذا الحفيد المبغض للبشر هو أيضاً. وتأتي شخصيات جديدة، لا تزال مجهولة، ويأتي سراب جديد. ولكن أية شخصيات؟ إذا لم تكن شخصيات جميلة، لم يبق ثمة أدب روسي ممكن. ولكن واحسرتاه! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك؟

«لا أريد أن أوغل مزيداً من الإيغال. ولنعد إلى مخطوطتك.

Twitter: @ketab_n

أنظر مثلاً إلى أسرتَيْ السيد فرسيلوف (إسمح لي هذه المرة أن أكون صريحاً كل الصراحة). لن أسهب في الكلام عن آندريه بتروفتش نفسه. إنه رب أسرة على كل حال، رغم كل شيء. هو نبيل من أسرة عريقة جداً وهو في الوقت نفسه من أنصار كومونة باريس. هو شاعر حق يحب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها. هو امرؤ لا دين له، مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً في سبيل شيء غير محدد يعجز عن تسميته ولكنه يؤمن به إيماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدنية الأوروبية في العهد البطرسبرجي من التاريخ الروسي. ولننظر إلى أسرته الحقيقية: عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف. إن الذين لهم أعين يعرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطائشين وإلى أين يقودون غيرهم. ولكن لننظر إلى ابنته آنا آندرييفنا. هذه فتاة ذات شكيمة، أليس كذلك؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا، دون أن أتنبأ لها بشيء من الإجرام طبعاً. وإلا كنت ظالماً. قل لي الآن يا آركادي ماكاروفتش إن هذه الأسرة استثناء وشذوذ، فأبتهج أعظم الابتهاج. ولكن الأمر ليس كذلك. الأصح أن نقول إن هناك كثرة من هذه الأسر الروسية التي لا يجحد المرء نبالتها والتي تتحول بقوة لا تُقاوم إلى أسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه في السديم الشامل والفوضى العامة. إنك في مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه. نعم يا آركادي ماكاروفتش، إنك «فرد من أفراد أسرة مصادفة»، في مقابل نماذج لا تزال حديثة لأبناء نبلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف.

«أعترف لك بأنني لا أتمنى أن أكون روائياً يصوِّر بطلاً هو فرد في أسرة مصادفة!

Twitter: @ketab_n

«جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه. إن تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال، فهي لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية. كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والإغفالات؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارىء أن يخمِّن ويسرف في التخمين. ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية... وإنما تستبد به الرغبة في الكتابة عما هو واقع حالي؟ أن يخمِّن و... أن يخطىء.

«غير أن «مذكرات» كالتي كتبتها أنت يمكن في رأيي أن تكون مواد لعمل فني، مواد للوحة ترسم في المستقبل وتكون فوضى لكنها تصوِّر عهداً مضى. نعم، فبفضل التقهقر في الزمان إلى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضي والفوضى الذي انقضى عهدها. في ذلك الوقت ستكون الحاجة إلى مذكرات كمذكراتك. حسبها أنها صادقة: فهي رغم ما تتصف به من فوضى، تشتمل على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء في ضوئها أن يدرك ما كان لا بد أن يختبىء في نفس مراهق ينتمي إلى ذلك العصر المضطرب، وهذا بحث لا تغمط قيمته، ما دام المراهقون هم الذين تتألف منهم الأجيال...».

Twitter: @ketab_n

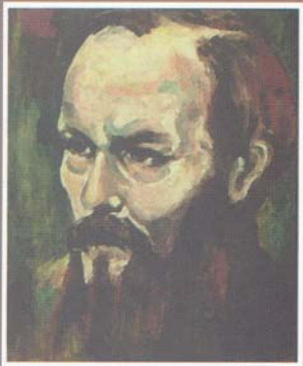

دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في ١١/١١/١٨٢١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.

Twitter: @ketab_n

سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرة عام ١٩٦١.
* عمل مدرساً للفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد المهات (١٩٧٨).

Twitter: @k

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتّاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشدّ القارئ، وبتعبيرها القوي عن دزاخل النفس الإنسانية، وقد عبّر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر-المراهق-مذلون مهانون-الجريمة والعقاب-الأبله...

ورواية "المراهق" تقدّم نموذجاً لشخصيّة "طالب" مراهق، بآماله وأوهامه المتعلقة بالحياة والثراء والحب. وتصف مشاعر الحبّ والكره، والاعتراف والانكار التي يمرّ بها مراهق تجاه والديه وعائلته ومحيطه.

يتتبع دوستويفسكي الصراعات التي يعيشها المراهق أركادي في أجواء عائلته وأوضاعه الحياتية التي يسعى للتمرّد عليها. فيضع نصب عينيه العمل على أن يصبح غنياً كروتشيلد، وينكر عائلته التي يعتبر أنها قصّرت في حقّه، ويسعى لعلاقات مع طبقة الأغنياء والأمراء.

يقدم دوستويفسكي عبر هذه الشخصيّات نماذج إنسانيّة غنيّة كاشفاً عن أهوائها ونزواتها كما عن طيبتها وجمال روحها.

"إنك تحلم بحياة لها دويّ، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا، وأن تمزّق لا أدري ماذا، أن تسمو فوق روسيا كلها، أن تمرّ مرور سحابة ساطعة، أن تغرق العالم كله في الخوف والإعجاب، لذلك أرى من المفيد أن أحذّرك لأني أحمل لك عاطفة صادقة".

هذا هو المراهق كما يصفه دوستويفسكي على لسان والده.

ISBN 978-9953-68-459-6
9 789953 684598

تَرجِم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

المركز الثقافي العربي
cca@ccaedition.com